المفسّرون والقرآن
(١)

المفسّرون
والتفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية



أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعرف على ما ذكره المفسّرون ـ بحسب مدارسهم المختلفة، وبحسب التسلسل التاريخي ـ من المعاني التي فُسّرت بها آيات القرآن الكريم ـ وبحسب الترتيب المصحفي ـ من خلال:

١. التعرف على معاني مفرداتها، وما تحتمله من معان.

٢. أو من خلال تراكيبها النحوية، وما تحتمله كذلك من المعاني.

٣. أو ما قد ترشد إليه علوم البلاغة من البيان والمعاني ونحوها من المعاني القرآنية.

وبذلك، فإنه يحاول استيعاب كل ما ذكره المفسّرون من الوجوه التي تحتملها كل لفظة أو آية قرآنية، من خلال تحليلها اللغوي، وبجوانبه المختلفة، بالإضافة إلى علاقة ذلك بما ورد في الأحاديث والآثار، أو بما يتبناه المفسّر من رؤية عقدية أو فقهية أو ثقافة علمية.

ولهذا اعتمدنا ما ورد في المصادر التفسيرية الكبرى للطوائف المختلفة، وفي العصور المختلفة ـ ابتداء من العصر الأول إلى هذا العصر ـ وقد انتقيناها من خلال الرجوع لكل التفاسير المعروفة، والتي رأينا أغلبها يكرر ما سبق ذكره، أو يختصر الكلام في الآيات الكريمة، ولذلك رأينا أن ما انتقيناه منها قد يغني عن غيرها.

وهذا الانتقاء مؤسّس على الاهتمام بطائفة المفسر، وعصره، وأسلوبه في تفسيره، ومدى اهتمام طائفته أو الأمّة به، ومدى توسعه في تناول المواضيع المختلفة، ولذلك استبعدنا التفاسير المختصرة جدا إلا تلك التي قد نرى من خلالها رؤية طائفة معينة.

وقد رتبنا التفاسير بحسب التسلسل الزمني، لنرى مدى تأثر بعضها ببعض، بالإضافة إلى التعرف على الجدل الحاصل بينها، فالكثير من التفاسير المتأخرة تتناول بالعرض أو النقد أو التفصيل التفاسير السابقة لها.

وأهم ما حاولنا القيام به في هذا الكتاب ـ كما في السلسلة جميعا ـ هو تبسيط وتيسير الوصول إلى المعلومة من هذه المصادر التفسيرية، وذلك من خلال اعتماد المناهج الحديثة من التفكيك والترتيب وضم النظير إلى نظيره، ونحو ذلك.

المفسّرون

والتّفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية

الجزء ٤٠

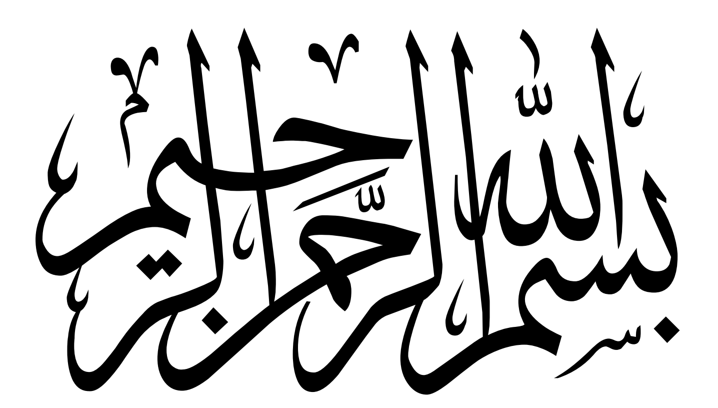
أ. د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

١٤٤٦ـ ٢٠٢٥

دار الأنوار للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

٢٠. المكذبون والظلمات والمشيئة الإلهية ٧
مجاهد: ٧
الباقر: ٧
قتادة: ٨
مقاتل: ٨
الهادي إلى الحق: ٩
الماتريدي: ٩
الطوسي: ١٠
الجشمي: ١٢
الطَبرِسي: ١٣
ابن الجوزي: ١٤
الرَّازي: ١٤
القرطبي: ١٦
الشوكاني: ١٧
أَطَّفِّيش: ١٧
القاسمي: ١٨
رضا: ١٩
المراغي: ٢٣
سيّد: ٢٣
الخطيب: ٢٤
مُغْنِيَّة: ٢٦
ابن عاشور: ٢٦
أبو زهرة: ٢٨
الطباطبائي: ٢٩
فضل الله: ٣٢
الحوثي: ٣٣
الشيرازي: ٣٤
٢١. المعاندون ودعاء الله وقت الشدة ٣٦
ابن عباس: ٣٦
البصري: ٣٦
مقاتل: ٣٦
الماتريدي: ٣٧
العياني: ٣٧
الطوسي: ٣٨
الجشمي: ٤١
الطَبرِسي: ٤٣
ابن الجوزي: ٤٥
الرَّازي: ٤٦
القرطبي: ٤٨
الشوكاني: ٤٩
أَطَّفِّيش: ٥٠
القاسمي: ٥٢
رضا: ٥٣
المراغي: ٥٨
سيّد: ٦٠
الخطيب: ٦٣
مُغْنِيَّة: ٦٥
ابن عاشور: ٦٧
أبو زهرة: ٧١
الطباطبائي: ٧٣
فضل الله: ٧٦
فضل الله: ٧٨
الحوثي: ٨٠
الشيرازي: ٨١
٢٢. الابتلاء والإمهال وقسوة القلوب ٨٤
ابن جبير: ٨٤
أبو مالك: ٨٤
البصري: ٨٤
قتادة: ٨٤
مقاتل: ٨٥
المرتضى: ٨٥
الماتريدي: ٨٦
الطوسي: ٨٨
الجشمي: ٨٩
الطَبرِسي: ٩١
ابن الجوزي: ٩٢
الرَّازي: ٩٣
القرطبي: ٩٤
الشوكاني: ٩٦
أَطَّفِّيش: ٩٦
القاسمي: ٩٧
رضا: ٩٨
المراغي: ١٠٠
سيّد: ١٠١
الخطيب: ١٠٣
مُغْنِيَّة: ١٠٤
ابن عاشور: ١٠٥
أبو زهرة: ١٠٧
الطباطبائي: ١٠٩
الحوثي: ١١٢
الشيرازي: ١١٢
٢٣. النسيان والفرح ونهاية الإمهال ١١٥
عبادة: ١١٥
علي: ١١٥
عقبة: ١١٥
ابن عباس: ١١٦
مجاهد: ١١٦
عكرمة: ١١٦
البصري: ١١٦
الباقر: ١١٧
قتادة: ١١٧
زيد: ١١٨
السّدّيّ: ١١٨
الربيع: ١١٨
أبي حازم: ١١٨
الصادق: ١١٩
ابن جريج: ١٢٠
مقاتل: ١٢٠

الثوري: ١٢٠
ابن النضر: ١٢١
ابن زيد: ١٢١
ابن زيد: ١٢١
عيينة: ١٢١
المرتضى: ١٢١
الماتريدي: ١٢٢
الديلمي: ١٢٣
الماوردي: ١٢٣
الطوسي: ١٢٤
الجشمي: ١٢٦
الطَبَرِسي: ١٢٧
ابن الجوزي: ١٢٨
الرَّازي: ١٣٠
القرطبي: ١٣١
الشوكاني: ١٣٢
أَطَّفِّيش: ١٣٣
القاسمي: ١٣٤
رضا: ١٣٤
المراغي: ١٣٦
سيّد: ١٣٨
الخطيب: ١٣٩
مُغْنِيَّة: ١٤٠
ابن عاشور: ١٤٠
أبو زهرة: ١٤٢
الطباطبائي: ١٤٤
الحوثي: ١٤٤
الشيرازي: ١٤٦
٢٤. قطع دابر الظالمين وحمد الله ١٤٨
ابن عباس: ١٤٨
زيد: ١٤٨
السّدّيّ: ١٤٨
الصادق: ١٤٨
مقاتل: ١٤٩
ابن زيد: ١٤٩
الماتريدي: ١٤٩
الطوسي: ١٥٠
الجشمي: ١٥٠
الطَبَرِسي: ١٥١
ابن الجوزي: ١٥٢
الرَّازي: ١٥٣
القرطبي: ١٥٤
الشوكاني: ١٥٤
أَطَّفِّيش: ١٥٥
القاسمي: ١٥٥
رضا: ١٥٦
المراغي: ١٥٧
سيّد: ١٥٧
الخطيب: ١٥٩
مُغْنِيَّة: ١٦٠
ابن عاشور: ١٦٠
أبو زهرة: ١٦١
الطباطبائي: ١٦٢
فضل الله: ١٦٣
الحوثي: ١٦٤
الشيرازي: ١٦٤
٢٥. والسمع والأبصار والقلوب وأخذ الله ١٦٥
ابن عباس: ١٦٥
أبو مالك: ١٦٥
مجاهد: ١٦٥
الباقر: ١٦٥
قتادة: ١٦٦
زيد: ١٦٦
السّدّيّ: ١٦٦
مقاتل: ١٦٦
الماتريدي: ١٦٧
العياني: ١٦٧
الطوسي: ١٦٨
الجشمي: ١٦٩
الطَبَرِسي: ١٧١
ابن الجوزي: ١٧٣
الرَّازي: ١٧٣
القرطبي: ١٧٥
الشوكاني: ١٧٦
أَطَّفِّيش: ١٧٦
القاسمي: ١٧٨
رضا: ١٧٩
المراغي: ١٨٠
سيّد: ١٨٠
سيّد: ١٨١
الخطيب: ١٨٣
مُغْنِيَّة: ١٨٥
ابن عاشور: ١٨٦
أبو زهرة: ١٨٩
الطباطبائي: ١٩١
فضل الله: ١٩٢
الحوثي: ١٩٤
الشيرازي: ١٩٤
٢٦. البغتة والجهرة وهلاك الظالمين ١٩٦
ابن عباس: ١٩٦
مجاهد: ١٩٦
زيد: ١٩٦
مقاتل: ١٩٦
الماتريدي: ١٩٦
العياني: ١٩٧
الطوسي: ١٩٧
الجشمي: ١٩٨
الطَبَرِسي: ١٩٨
ابن الجوزي: ١٩٩
الرَّازي: ١٩٩
القرطبي: ٢٠٠
الشوكاني: ٢٠٠
أَطَّفِّيش: ٢٠١
القاسمي: ٢٠١
رضا: ٢٠٢
المراغي: ٢٠٣
سيّد: ٢٠٣
الخطيب: ٢٠٤
مُغْنِيَّة: ٢٠٤
ابن عاشور: ٢٠٥

أبو زهرة: ٢٠٦
الطباطبائي: ٢٠٧
فضل الله: ٢٠٧
الحوثي: ٢٠٨
الشيرازي: ٢٠٨
٢٧. وظائف الرسل ومواقف أقوامهم ٢١٠
ابن عباس: ٢١٠
ابن جبير: ٢١٠
قتادة: ٢١٠
مقاتل: ٢١٠
ابن زيد: ٢١١
الماتريدي: ٢١١
الطوسي: ٢١٢
الجشمي: ٢١٢
الطَبَرِسي: ٢١٤
ابن الجوزي: ٢١٤
الرَّازي: ٢١٤
القرطبي: ٢١٥
الشوكاني: ٢١٦
أَطَّفَيِّش: ٢١٦
القاسمي: ٢١٧
رضا: ٢١٨
المراغي: ٢١٩
سيّد: ٢٢٠
الخطيب: ٢٢٢
مُغْنِيَّة: ٢٢٣
ابن عاشور: ٢٢٣
أبو زهرة: ٢٢٥
الطباطبائي: ٢٢٦
فضل الله: ٢٢٧
الحوثي: ٢٢٨
الشيرازي: ٢٢٨
٢٨. الرسول ووظيفته والرد على دعاوى المعاندين ٢٣٠
مجاهد: ٢٣٠
قتادة: ٢٣٠
مقاتل: ٢٣٠
الماتريدي: ٢٣١
العياني: ٢٣٢
الشريف المرتضى: ٢٣٣
الديلمي: ٢٣٣
الماوردي: ٢٣٤
الطوسي: ٢٣٦
الجشمي: ٢٣٧
الطَبَرِسي: ٢٣٩
ابن الجوزي: ٢٤١
الرَّازي: ٢٤١
القرطبي: ٢٤٣
الشوكاني: ٢٤٤
أَطَّفَيِّش: ٢٤٥
القاسمي: ٢٤٧
رضا: ٢٤٩
المراغي: ٢٥٩
سيّد: ٢٦١
الخطيب: ٢٦٧
مُغْنِيَّة: ٢٦٩
ابن عاشور: ٢٧٠
أبو زهرة: ٢٧٣
الطباطبائي: ٢٧٥
فضل الله: ٢٧٨
الحوثي: ٢٨١
الشيرازي: ٢٨١
٢٩. من يجدي فيهم الإنذار ٢٨٤
ابن مسعود: ٢٨٤
ابن عباس: ٢٨٤
الضحاك: ٢٨٤
عكرمة: ٢٨٥
السّدّيّ: ٢٨٥
الصادق: ٢٨٥
مقاتل: ٢٨٥
ابن عياض: ٢٨٦
المرتضى: ٢٨٦
الماتريدي: ٢٨٧
الطوسي: ٢٨٨
الجشمي: ٢٨٩
الطَبَرِسي: ٢٩٠
ابن الجوزي: ٢٩١
الرَّازي: ٢٩٢
القرطبي: ٢٩٤
الشوكاني: ٢٩٤
أَطَّفَيِّش: ٢٩٥
القاسمي: ٢٩٦
رضا: ٢٩٦
المراغي: ٢٩٩
سيّد: ٣٠٠
الخطيب: ٣٠١
مُغْنِيَّة: ٣٠١
ابن عاشور: ٣٠٢
أبو زهرة: ٣٠٣
الطباطبائي: ٣٠٤
فضل الله: ٣٠٦
الحوثي: ٣٠٩
الشيرازي: ٣١٠
٣٠. المستضعفون والصبر معهم ٣١٢
ابن عباس: ٣١٢
أبو هريرة: ٣١٣
ابن عمر: ٣١٣
النخعي: ٣١٣
الضحاك: ٣١٤
مجاهد: ٣١٤
البصري: ٣١٥
الباقر: ٣١٦
قتادة: ٣١٦
المعتمر: ٣١٦
الربيع: ٣١٧
الكلبي: ٣١٧
مقاتل: ٣١٧
ابن زيد: ٣١٨
المرتضى: ٣١٨
الماتريدي: ٣١٩

العياني: ٣٢١
الديلمي: ٣٢١
الماوردي: ٣٢٢
الطوسي: ٣٢٣
الجشمي: ٣٢٤
الطَبرِسي: ٣٢٧
ابن الجوزي: ٣٢٩
الرَّازي: ٣٣١
القرطبي: ٣٣٦
الشوكاني: ٣٣٨
أَطَّفِّيش: ٣٣٩
القاسمي: ٣٤٢
رضا: ٣٤٤
المراغي: ٣٥٢
سيّد: ٣٥٤
الخطيب: ٣٥٥
مُغْنِيَّة: ٣٥٧
ابن عاشور: ٣٥٨
أبو زهرة: ٣٦٤
الطباطبائي: ٣٦٦
فضل الله: ٣٧١
الحوثي: ٣٧٥
الشيرازي: ٣٧٦
٣١. فتنة العباد بعضهم ببعض ٣٨١
ابن عباس: ٣٨١
قتادة: ٣٨١
ابن جريج: ٣٨١
مقاتل: ٣٨٢
المرتضى: ٣٨٢
الماتريدي: ٣٨٢
العياني: ٣٨٣
الديلمي: ٣٨٤
الماوردي: ٣٨٤
الطوسي: ٣٨٥
الجشمي: ٣٨٦
الطَبرِسي: ٣٨٨
ابن الجوزي: ٣٨٩
الرَّازي: ٣٨٩
القرطبي: ٣٩١
الشوكاني: ٣٩٢
أَطَّفِّيش: ٣٩٢
القاسمي: ٣٩٤
رضا: ٣٩٦
المراغي: ٣٩٩
سيّد: ٤٠٠
الخطيب: ٤٠١
مُغْنِيَّة: ٤٠٢
ابن عاشور: ٤٠٢
أبو زهرة: ٤٠٦
الطباطبائي: ٤٠٧
فضل الله: ٤٠٨
الحوثي: ٤٠٩
الشيرازي: ٤١٠
٣٢. المؤمنون والسلام والرحمة والتوبة ٤١٢
أنس: ٤١٢
أبو العالية: ٤١٢
ابن جبير: ٤١٢
الضحاك: ٤١٢
مجاهد: ٤١٣
عكرمة: ٤١٣
البصري: ٤١٣
الباقر: ٤١٤
قتادة: ٤١٤
الكلبي: ٤١٤
الصادق: ٤١٤
ابن جريج: ٤١٤
مقاتل: ٤١٥
الماتريدي: ٤١٥
العياني: ٤١٦
الديلمي: ٤١٧
الماوردي: ٤١٧
الطوسي: ٤١٨
الجشمي: ٤٢١
الطَبرِسي: ٤٢٤
ابن الجوزي: ٤٢٦
الرَّازي: ٤٢٧
القرطبي: ٤٣٢
الشوكاني: ٤٣٣
أَطَّفِّيش: ٤٣٤
القاسمي: ٤٣٦
رضا: ٤٣٧
المراغي: ٤٤٢
سيّد: ٤٤٣
الخطيب: ٤٤٧
مُغْنِيَّة: ٤٤٨
ابن عاشور: ٤٤٩
أبو زهرة: ٤٥٢
الطباطبائي: ٤٥٣
فضل الله: ٤٥٤
الحوثي: ٤٥٥
الشيرازي: ٤٥٦
٣٣. تفصيل الآيات وبيان سبيل المجرمين ٤٥٨
قتادة: ٤٥٨
زيد: ٤٥٨
السّدّيّ: ٤٥٨
مقاتل: ٤٥٨
ابن زيد: ٤٥٩
الماتريدي: ٤٥٩
العياني: ٤٥٩
الطوسي: ٤٦٠
الجشمي: ٤٦١
الطَبرِسي: ٤٦٣
ابن الجوزي: ٤٦٤
الرَّازي: ٤٦٥
القرطبي: ٤٦٥
الشوكاني: ٤٦٦
أَطَّفِّيش: ٤٦٧
القاسمي: ٤٦٨
رضا: ٤٦٨

المراغي: ٤٦٩
سيّد: ٤٧٠
الخطيب: ٤٧٣
مُغْنِيَّة: ٤٧٣
ابن عاشور: ٤٧٤
أبو زهرة: ٤٧٥
الطباطبائي: ٤٧٦
فضل الله: ٤٧٧
الحوثي: ٤٧٧
الشيرازي: ٤٧٧
٣٤. العبادة والأهواء والضلالة ٤٧٩
مقاتل: ٤٧٩
ابن مسعود: ٤٧٩
الماتريدي: ٤٧٩
الطوسي: ٤٨٠
الجشمي: ٤٨٠
الطَبرِسي: ٤٨٢
ابن الجوزي: ٤٨٢
الرَّازي: ٤٨٣
القرطبي: ٤٨٣
الشوكاني: ٤٨٤
أَطَّفَيِّش: ٤٨٤
القاسمي: ٤٨٦
رضا: ٤٨٦
المراغي: ٤٨٧
سيّد: ٤٨٨
الخطيب: ٤٩٠
مُغْنِيَّة: ٤٩١
ابن عاشور: ٤٩٢
أبو زهرة: ٤٩٤
الطباطبائي: ٤٩٥
فضل الله: ٤٩٥
الحوثي: ٤٩٦
الشيرازي: ٤٩٧
٣٥. بينات النبوة ومطالب المعاندين واستعجالهم ٤٩٨
عكرمة: ٤٩٨
الباقر: ٤٩٨
زيد: ٤٩٨
ابن جريج: ٤٩٨
مقاتل: ٤٩٨
الماتريدي: ٤٩٩
العياني: ٥٠١
الديلمي: ٥٠١
الماوردي: ٥٠٢
الطوسي: ٥٠٢
الجشمي: ٥٠٤
الطَبرِسي: ٥٠٧
ابن الجوزي: ٥٠٩
الرَّازي: ٥١٠
القرطبي: ٥١٢
الشوكاني: ٥١٤
أَطَّفَيِّش: ٥١٥
القاسمي: ٥١٦
رضا: ٥١٨
المراغي: ٥٢١
الخطيب: ٥٢٢
ابن عاشور: ٥٢٣
أبو زهرة: ٥٢٨
الطباطبائي: ٥٢٩
فضل الله: ٥٣٩
الحوثي: ٥٤٢
الشيرازي: ٥٤٣
٣٦. مفاتح الغيب والكتاب المبين ٥٤٦
ابن مسعود: ٥٤٦
كعب: ٥٤٦
ابن عباس: ٥٤٦
ابن عمر: ٥٤٧
ابن عمرو: ٥٤٨
الضحاك: ٥٤٨
مجاهد: ٥٤٨
البصري: ٥٤٨
عطاء: ٥٤٩
قتادة: ٥٤٩
السّدّيّ: ٥٤٩
ابن جحادة: ٥٤٩
الصادق: ٥٤٩
مقاتل: ٥٥٠
الكاظم: ٥٥٠
المرتضى: ٥٥٠
الماتريدي: ٥٥١
العياني: ٥٥٣
الماوردي: ٥٥٣
الطوسي: ٥٥٤
الجشمي: ٥٥٥
الطَبرِسي: ٥٥٩
ابن الجوزي: ٥٦١
الرَّازي: ٥٦٣
القرطبي: ٥٦٧
الشوكاني: ٥٧١
أَطَّفَيِّش: ٥٧٢
القاسمي: ٥٧٤
رضا: ٥٧٦
المراغي: ٥٨١
سيّد: ٥٨٣
الخطيب: ٥٩٥
مُغْنِيَّة: ٥٩٧
ابن عاشور: ٥٩٧
أبو زهرة: ٦٠١
الطباطبائي: ٦٠٤
فضل الله: ٦١٠
الحوثي: ٦١٣
الشيرازي: ٦١٤
٣٧. الله والرقابة الدائمة على أعمال الإنسان ٦١٨
ابن عباس: ٦١٨
أبو العالية: ٦١٨
الضحاك: ٦١٨
مجاهد: ٦١٨
عكرمة: ٦١٩
الباقر: ٦١٩

قتادة: ٦١٩
ابن كثير: ٦١٩
زيد: ٦٢٠
السّدّيّ: ٦٢٠
الصادق: ٦٢٠
مقاتل: ٦٢١
الماتريدي: ٦٢١
العياني: ٦٢٣
الديلمي: ٦٢٣
الماوردي: ٦٢٣
الطوسي: ٦٢٤
الجشمي: ٦٢٥
الطَبرِسي: ٦٢٨
ابن الجوزي: ٦٢٩
الرَّازي: ٦٣٠
القرطبي: ٦٣١
الشوكاني: ٦٣٢
أَطَّفَيِّش: ٦٣٢
القاسمي: ٦٣٤
رضا: ٦٣٥
المراغي: ٦٣٨
سيّد: ٦٣٩
الخطيب: ٦٤٠
مُغْنِيَّة: ٦٤٢
ابن عاشور: ٦٤٢
أبو زهرة: ٦٤٥
الطباطبائي: ٦٤٦
فضل الله: ٦٤٨
الحوثي: ٦٤٩
الشيرازي: ٦٥٠
٣٨. القهر الإلهي وإرسال الحفظة والموت ٦٥٢
ابن مسعود: ٦٥٢
ابن عباس: ٦٥٢
النخعي: ٦٥٢
مجاهد: ٦٥٢
الباقر: ٦٥٣
قتادة: ٦٥٣
زيد: ٦٥٣
السّدّيّ: ٦٥٤
الربيع: ٦٥٤
الكلبي: ٦٥٤
الصادق: ٦٥٤
مقاتل: ٦٥٥
ابن سلّام: ٦٥٥
الماتريدي: ٦٥٥
الديلمي: ٦٥٨
الماوردي: ٦٥٩
الطوسي: ٦٦٢
الجشمي: ٦٦٤
الطَبرِسي: ٦٦٨
ابن الجوزي: ٦٧٠
الرَّازي: ٦٧١
القرطبي: ٦٧٩
الشوكاني: ٦٨١
أَطَّفَيِّش: ٦٨٢
القاسمي: ٦٨٥
رضا: ٦٨٦
المراغي: ٦٩٢
سيّد: ٦٩٤
الخطيب: ٦٩٦
مُغْنِيَّة: ٦٩٦
ابن عاشور: ٦٩٧
أبو زهرة: ٦٩٩
الطباطبائي: ٧٠١
فضل الله: ٧٠٣
الحوثي: ٧٠٥
الشيرازي: ٧٠٦
٣٩. الله وكشف كرب عباده وتضرعهم ٧٠٩
ابن عباس: ٧٠٩
ابن جبير: ٧٠٩
قتادة: ٧٠٩
مقاتل: ٧٠٩
الماتريدي: ٧١٠
العياني: ٧١١
الطوسي: ٧١١
الجشمي: ٧١٣
الطَبرِسي: ٧١٥
ابن الجوزي: ٧١٧
الرَّازي: ٧١٧
القرطبي: ٧١٩
الشوكاني: ٧٢٠
أَطَّفَيِّش: ٧٢١
القاسمي: ٧٢٣
رضا: ٧٢٤
المراغي: ٧٢٦
سيّد: ٧٢٨
الخطيب: ٧٢٩
مُغْنِيَّة: ٧٢٩
ابن عاشور: ٧٣٠
أبو زهرة: ٧٣٣
الطباطبائي: ٧٣٦
فضل الله: ٧٣٨
الحوثي: ٧٤٠
الشيرازي: ٧٤٠
٤٠. الله والقدرة على أصناف العذاب ٧٤٣
معاذ: ٧٤٣
حذيفة: ٧٤٣
أبيّ: ٧٤٣
ثوبان: ٧٤٤
ابن عباس: ٧٤٥
جابر: ٧٤٥
نوف: ٧٤٦
أبو مالك: ٧٤٦
الضحاك: ٧٤٦
مجاهد: ٧٤٦
البصري: ٧٤٧
الباقر: ٧٤٩
قتادة: ٧٤٩

زيد: ٧٤٩
السّدّيّ: ٧٤٩
مقاتل: ٧٥٠
ابن زيد: ٧٥١
المرتضى: ٧٥١
الماتريدي: ٧٥٢
العياني: ٧٥٤
الديلمي: ٧٥٥
الماوردي: ٧٥٥
الطوسي: ٧٥٧
الجشمي: ٧٥٨
الطَبِرسي: ٧٦١
ابن الجوزي: ٧٦٣
الرَّازي: ٧٦٤
القرطبي: ٧٦٦
الشوكاني: ٧٦٨
أَطَّفَّيش: ٧٦٩
القاسمي: ٧٧١
رضا: ٧٧٢
المراغي: ٧٨١
سيّد: ٧٨٤
الخطيب: ٧٨٦
مُغْنِيَّة: ٧٨٧
ابن عاشور: ٧٨٨
أبو زهرة: ٧٩٠
الطباطبائي: ٧٩٥
فضل الله: ٨٠٠
الحوثي: ٨٠٢
الشيرازي: ٨٠٣

٢٠. المكذبون والظلمات والمشيئة الإلهية

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، الحق[١].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾، يقول: صم عن الهدى، وبكم لا يتكلمون بخير ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني ظلمات الكفر ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو رد على قدرية هذه الأمة، يحشرهم الله يوم القيامة مع الصابئين والنصارى والمجوس فيقولون: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يقول الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال ـ فقال رسول الله ﷺ: ألا إن لكل أمة مجوسا، ومجوس هذه الامة الذين يقولون: لا قدر، ولا يزعمون أن المشيئة والقدرة إليهم ولهم[٢].

٢. عن أبي حمزة، قال: سئل الإمام الباقر عن قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقال عليه السلام: نزلت في الذين كذبوا بأوصيائهم ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ كما قال الله ﴿فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ﴾ كان من ولد إبليس فإنه لا يصدق بالأوصياء، ولا يؤمن بهم أبدا، وهم الذين أضلهم الله، ومن كان من ولد آدم آمن بالأوصياء فهم ﴿عَلَى

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٧.

(٢) تفسير القمّي ١/ ١٩٨.

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال وسمعته يقول: (كذبوا بآياتنا كلها، في بطن القرآن، أن كذبوا بالأوصياء كلهم)، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ثم رد عليهم فقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ تدعون الله إذا أصابكم ضر، ثم إذا كشف عنكم ذلك ﴿تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ﴾ أي تتركون الأصنام، وقوله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يعني كي يتضرعوا، ثم قال: ﴿فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ﴾ يعني فهلا إذ جاءهم ﴿بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلما لم يتضرعوا فتح الله عليهم الدنيا وأغناهم، عقوبة لفعلهم الردي ء، فلما ﴿فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[(١)].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ هذا مثل الكافر أصمّ أبكم، لا يبصر هدى، ولا ينتفع به، صمّ عن الحقّ، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ لا يستطيع منها خروجا، متسكّع[(٢)]،فيها[(٣)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ عن الهدى، نزلت في بني عبد الدار ابن قصي، ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: على دين الإسلام، منهم علي، والعباس، وحمزة، وجعفر[(٤)].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون الهدى، ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا يتكلمون به ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني: الشرك، ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ عن الهدى[(٥)].

---

(١) تفسير القمّي ١/ ١٩٩.

(٢) متسكّع: متحيّر.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٣٨.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

٣. روي أنّه قال: ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، يعني: على دين الإسلام[١].

الهادي إلى الحق:

ذكر الإمام الهادي إلى الحق (ت ٢٩٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، هذا ـ يرحمك الله ـ مثل مثله وضربه لهم؛ إذ كانوا عن آياته معرضين، وعن قبول ما أمروا به صادين، فأخبر سبحانه أنهم في ترك الاستماع للحق، وقبول ما جاء به نبيه ﷺ من الصدق، وقد يرون ما يأتي من البراهين والدلالات والعلامات، كالصم والبكم الذين لا يسمعون ولا يعقلون فيأتمرون؛ ألا ترى أن العرب تقول لمن لم يستمع ويسمع، ويقبل ما يؤمر به فينتفع: (ما أنت إلا أصم)، وتقول: (فلان أصم أبكم عما يلقى إليه)، وإن كان حديد السمع، تريد بذلك: قلة الائتمار بما به يؤمر، وطول الغفلة عما منه يحذر.

٢. وأما قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فهي: ظلمات الكفر والعصيان، والبعد من الواحد ذي الجلال والسلطان.

٣. وأما قوله: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقد تقدم منا شرح معنى إرادته لإضلال الضالين، وهدايته لمن اهتدى من المهتدين، ومعنى الضلال والهدى هاهنا: كمعناه فيما تقدم أولا.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾:

أ. قال الحسن: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ديننا.

ب. وقال غيره: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: حججنا: حجج وحدانيته وألوهيته، وحجج الرسالة والنبوة.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٢) تفسير الإمام الهادي: ١/ ١٩٤.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨١.

ج. ويحتمل: آيات البعث، كذبوا بذلك كله، وقد ذكرنا هذا في غير موضع.

٢. ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾، هو ما ذكرنا أنه نفى عنهم السمع، واللسان، والبصر؛ لما لم يعرفوا نعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة اللسان، ولا يجوز أن يجعل لهم السمع والبصر واللسان، ثم لا يعلمهم ما يسمعون بالسمع، وما ينطقون باللسان، دل أنه يحتاج إلى رسول يسمعون منه، ويستمعون إليه، وينطقون ما علمهم، فإذا لم يفعلوا صاروا كما ذكر ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، لما لم يشْفعوا به، ولم يعرفوا نعمته التي جعل لهم فيما ذكر، أو نفى عنهم السمع والبصر واللسان؛ لما ذكرنا أن السمع والبصر، والحياة على ضربين: مكتسب، ومنشأ، فنُفِي عنهم السمع المكتسب، والبصر المكتسب، والحياة المكتسبة.

قوله عز وجل: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يحتمل وجهين:

أ. يحتمل: ظلمات الجهل والكفر.

ب. الثاني: هم في ظلمات: يعني ظلمات السمع، والبصر، والقلب.

ج. وهم في الظلمتين جميعًا: في ظلمة الجهل والكفر، وظلمة السمع، والبصر؛ كقوله تعالى: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، والمؤمن في النور؛ كقوله تعالى: قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

٣. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وصف عز وجل نفسه بالقدرة، وجعلهم جميعًا متقلبين في مشيئة، وأخبر أنه شاء لبعضهم الضلال، ولبعضهم الهدى، فمن قال إنه شاء للكل الهدى لكن، لم يهتدوا، أو شاء للكل الضلال ـ فهو خلاف ما ذكره عز وجل؛ لأنه أخبر أنه شاء الضلال لمن ضل، وشاء الهدى لمن اهتدى، وأصله: أنه إذا علم من الكافر أنه يختار الكفر، شاء أن يضل وخلق فعل الكفر منه، وكذلك إذا علم من المؤمن أنه يختار الإيمان والاهتداء، شاء أن يهتدي وخلق فعل الاهتداء منه.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الوقف التام عند قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٣١.

٢. قوله تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: أن يراد أن هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآيات الله صم وبكم في الظلمات في الآخرة على الحقيقة عقوبة لهم على كفرهم، لأنه ذكرهم عند ذكر الحشر.

ب. الثاني: أن يكون عنى أنهم صم وبكم في الظلمات في الدنيا.

ج. متى أريد الأول كان ذلك حقيقة، لأنه تعالى لا يمتنع أن يجعلهم صماً بكماً في الظلمات، يضلهم بذلك عن الجنة وعن الصراط الذي يسلكه المؤمنون إليها ويصيرهم إلى النار، وإن أريد به الوجه الثاني، فإنه يكون مجازاً وتوسعاً، وإنما شبههم بالصم والبكم الذين في الظلمات:

• لأن المكذبين بآيات الله لا يهتدون إلى شيء مما ناله المؤمنون من منافع الدين ولا يصلون إلى ذلك، كما أن الصم البكم الذين في الظلمات لا يهتدون إلى شيء من منافع الدنيا ولا يصلون إليها، فتشبيههم من هذا الوجه بالصم البكم.

• وقال البلخي ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ معناه في الجهل والشرك والكفر.

٣. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يجوز أن يكون على عمومه، لأنا قد علمنا أن الله تعالى لا يشاء أن يضل الأنبياء والمؤمنين ولا يهدي الكافرين، لكن قد بين تعالى في موضع آخر من الذي يشاء أن يضله، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ وقال: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

٤. قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ ها هنا يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي من يشأ يخذله بأن يمنعه ألطافه وفوائده، وذلك إذا واتر عليه الأدلة وأوضح له البراهين فأعرض عنها ولم يمعن النظر فيها، فصار كالأصم الأعمى، فحينئذ يشاء أن يضله بأن يخذله.

ب. الثاني: من يشأ الله إضلاله عن طريق الجنة، ونيل ثوابها يضلله على وجه العقوبة.

٥. ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومعناه من يشأ أن يرحمه ويهديه إلى الجنة ونيل الثواب يجعله على الصراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنة، ويعدل الكافرين عنه إلى النار ولا يلحق الإضلال إلا

الكفار والفساق المستحقين للعقاب وكذلك لا يفعل الثواب والخلود في الجنة إلا بالمؤمنين، لأنه ثواب لا يستحقه سواهم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بحججنا:

أ. قيل: بالقرآن.

ب. وقيل: بمحمد ﷺ.

ج. وقيل: بسائر الحجج والبينات.

٢. ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ الصم التي لا تسمع، والبكم التي لا تتكلم، ومعلوم أن أولئك الكفرة كانوا يسمعون ويتكلمون، فلا بد من تأويل، واختلفوا في معناه:

أ. قيل: هو معطوف على قوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أي يحشرون وهم على الحال التي كانوا عليها صمًّا بكمًا عميًا في الظلمات، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: هو ابتداء كلام ووعيد لهم؛ أي: يحشر المكذب كذلك ﴿صُمٌّ﴾: جمع أصم، و﴿بِكُمُ﴾: جمع أبكم.

ج. وقيل: لأنهم عن منافع الدين بمنزلة الصم البكم حيث لم يسمعوا الحق، ولم يتكلموا به، فهم بمنزلة الصم عن منافع الدين، البكم، ولم يذكر كاف التشبيه للمبالغة، كقولهم: فلان حمار، وفلان أسد، يريدون كأسد وحمار، قال الشاعر:

بَدَتْ قمرًا ومَالَتْ خُوطَ بَانٍ وفَاحَتْ عَنْبَرًا وَرَنَتْ غزالا

د. وقيل: يحشرون صمًا بكمًا في الآخرة فتكون الصفة على الحقيقة.

٣. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾:

أ. في القيامة والنار.

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٤٩.

ب. وقيل: في الظلمات في ظلمة النار والعذاب والقيامة، فيحمل الكلام على حقيقته، عن أبي علي.

ج. وقيل: يترددون في ظلمات الجهل والكفر، فيكون توسعًا.

٤. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾:

أ. قيل: يحكم بأنه ضال ذمًا له، وكذا يحشره، ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يحكم أنه مُهْتَدٍ مدحًا له.

ب. وقيل: يضله في الآخرة عن طريق الجنة إلى طريق النار بما استحقه من العقاب ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى الجنة بما استحقه من الثواب.

ج. وقيل: يضله عن زيادة الهدى، وهي الألطاف التي يفعلها للمهتدي ليثبت على الهداية، ومن يشأ يجعله بألطافه، وهو من المعلوم أن له لطفًا، فيثبت على طريق مستقيم.

د. وقيل: يضلله يعذبه، ويهلكه عن أبي مسلم، ولا يجوز أن يحمل على الضلال عن الإيمان لأنه يقبح، ولأنه تعالى لا يجوز أن يأمر بشيء ثم يضل عنه، ولأنه ذَمَّ مَنْ أضل عن الدين فلا يضله هو.

٥. تدل الآية الكريمة على أن المكذِّب يحشر على أسوأ حال لتركهم الحق، وكونهم صمًا بكمًا إما أن يكون في الآخرة، أو تشبيهًا على ما تقدم، سؤال وإشكال: فأي فائدة في تشويه الخلق وتسويد الوجه؟ والجواب: فيه لطف للمكلف، وخزي للعصاة.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾:

أ. أي: بالقرآن.

ب. وقيل: بسائر الحجج والبينات.

٢. ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ قد بينا معناهما في سورة البقرة ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في ظلمات الكفر والجهل لا يهتدون إلى شيء من منافع الدين. وقيل: أراد صم وبكم في الظلمات الآخرة على الحقيقة، عقابا لهم على

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٤٣.

كفرهم، لأنه ذكرهم عند ذكر الحشر، عن أبي علي الجبائي.

٣. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ هذا مجمل قد بينه في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وغيرها، والمعنى: من يشأ الله يخذله بأن يمنعه ألطافه وفوائده، وذلك إذا واتر عليه الأدلة، وأوضح له الحجج، فأعرض عنها، ولم ينعم النظر فيها، ويجوز أن يريد: من يشأ الله إضلاله عن طريق الجنة، ونيل ثوابها، يضلله عنه.

٤. ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: ومن يشأ أن يرحمه ويهديه إلى الجنة، يجعله على الصراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنة.

٥. ﴿صُمٌّ﴾، و﴿بِكُمُ﴾: كلاهما خبر ﴿الَّذِينَ﴾ كقولهم: هذا حلو حامض، ودخول الواو لا يمنع من ذلك فإنه بمنزلة قولك: صم بكم.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني ما جاء به محمد ﷺ ﴿صُمٌّ﴾ عن القرآن لا يسمعونه، ﴿وَبُكْمٌ﴾ عنه لا ينطقون به ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في الشّرك والضّلالة.

٢. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ فيموت على الكفر ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. في علاقة الآية الكريمة بما قبلها قولان:

أ. الأول: أنه تعالى بين من حال الكفار أنهم بلغوا في الكفر إلى حيث كأن قلوبهم قد صارت ميتة عن قبول الإيمان بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] فذكر هذه الآية تقريرا لذلك المعنى.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٢٨.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣١.

ب. الثاني أنه تعالى لما ذكر في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨] في كونها دالة على كونها تحت تدبير مدبر قديم وتحت تقدير مقدر حكيم، وفي أن عناية الله محيطة بهم، ورحمته واصلة إليهم، قال بعده والمكذبون لهذه الدلائل والمنكرون لهذه العجائب صم لا يسمعون كلاما ألبتة، بكم لا ينطقون بالحق، خائضون في ظلمات الكفر، غافلون عن تأمل هذه الدلائل.

٢. احتج أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ بقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على أن الهدى والضلال ليس إلا من الله تعالى، وتقريره أنه تعالى وصفهم بكونهم صما وبكما وبكونهم في الظلمات وهو إشارة إلى كونهم عميا فهو بعينه نظير قوله في سورة البقرة ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]، ثم قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو صريح في أن الهدى والضلال ليسا إلا من الله تعالى، قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ الجواب عن هذا من وجوه:

أ. الأول: قال الجبائي معناه أنه تعالى يجعلهم صما وبكما يوم القيامة عند الحشر، ويكونون كذلك في الحقيقة بأن يجعلهم في الآخرة صما وبكما في الظلمات، ويضلهم بذلك عن الجنة وعن طريقها ويصيرهم إلى النار، وأكد القاضي هذا القول بأنه تعالى بين في سائر الآيات أنه يحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم.

ب. الثاني: قال الجبائي أيضا ويحتمل أنهم كذلك في الدنيا، فيكون توسعا من حيث جعلوا بتكذيبهم بآيات الله تعالى في الظلمات لا يهتدون إلى منافع الدين، كالصم والبكم الذين لا يهتدون إلى منافع الدنيا، فشبههم من هذا الوجه بهم، وأجرى عليهم مثل صفاتهم على سبيل التشبيه.

ج. الثالث: قال الكعبي قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ محمول على الشتم والإهانة، لا على أنهم كانوا كذلك في الحقيقة، وأما قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ فقال الكعبي: ليس هذا على سبيل المجاز لأنه تعالى وإن أجمل القول فيه هاهنا، فقد فصله في سائر الآيات وهو قوله: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٦]، وقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فثبت بهذه الآيات أن مشيئة الهدى والضلال وإن كانت مجملة في هذه الآية، إلا أنها مخصصة مفصلة في سائر الآيات، فيجب

حمل هذا المجمل على تلك المفصلات.

٣. ذكر المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ تأويل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على سبيل التفصيل من وجوه:

أ. الأول: أن المراد من قوله: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ محمول على منع الألطاف فصاروا عندها كالصم والبكم.

ب. الثاني: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ يوم القيامة عن طريق الجنة وعن وجدان الثواب، ومن يشأ أن يهديه إلى الجنة يجعله على صراط مستقيم، وهو الصراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنة، وقد ثبت بالدليل أنه تعالى لا يشاء هذا الإضلال إلا لمن يستحق عقوبة كما لا يشاء الهدى إلا للمؤمنين.

٤. هذه الوجوه التي تكلفها المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ إنما يحسن المصير إليها لو ثبت في العقل أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره، أما لما ثبت بالدليل العقلي القاطع أنه لا يمكن حمل هذا الكلام إلا على ظاهره كان العدول إلى هذه الوجوه المتكلفة بعيدا جدا، وقد دللنا على أن الفعل لا يحصل إلا عند حصول الداعي، وبينا أن خالق ذلك الداعي هو الله، وبينا أن عند حصوله يجب الفعل، فهذه المقدمات الثلاثة توجب القطع بأن الكفر والإيمان من الله، وبتخليفه وتقديره وتكوينه، ومتى ثبت بهذا البرهان القاطع صحة هذا الظاهر، كان الذهاب إلى هذه التكلفات فاسدا قطعا، وأيضا فقد تتبعنا هذه الوجوه بالإبطال والنقض في تفسير قوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وفي سائر الآيات، فلا حاجة إلى الإعادة، وأقربها أن هذا الإضلال والهداية معلقان بالمشيئة، وعلى ما قالوه: فهو أمر واجب على الله تعالى يجب عليه أن يفعله شاء أم أبى والله أعلم.

٥. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ اختلفوا في المراد بتلك الآيات، فمنهم من قال القرآن ومحمد، ومنهم من قال يتناول جميع الدلائل والحجج، وهذا هو الأصح.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٢٢.

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ ابتداء وخبر، أي عدموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم، فكل أمة من الدواب وغيرها تهتدي لمصالحها والكفار لا يهتدون، وقد تقدم في (البقرة)

٢. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي ظلمات الكفر، وقال أبو علي: يجوز أن يكون المعنى ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ في الآخرة، فيكون حقيقة دون مجاز اللغة.

٣. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله، ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي على دين الإسلام لينفذ فيه فضله، وفيه إبطال لمذهب القدرية، والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ أي لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بألسنتهم، نزلهم منزلة من لا يسمع ولا ينطق لعدم قبولهم لما ينبغي قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة، وقال أبو علي: يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة.

٢. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي في ظلمات الكفر والجهل والحيرة لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم، والمعنى: كائنين في الظلمات التي تمنع من إبصار المبصرات وضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسّهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال، وقد تقدّم في البقرة تحقيق المقام بما يغني عن الإعادة، ثم بين سبحانه أنّ الأمرّ بيده ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضلّه أضلّه، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم، لا يذهب به إلى غير الحقّ، ولا يمشي فيه إلا إلى صوب الاستقامة.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ الجنس، أو المذكورون بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الآية:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٢.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٥٥.

٣٧]، ﴿بِئَايَاتِنَا﴾ القرآن ﴿صُمٌّ﴾ خبر أوَّل ﴿وَبُكْمٌ﴾ خبر ثان بتوسط حرف العطف، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر ثالث، عبارة عن العمى، كما قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١]، أو حال من المستتر في (بُكْمٌ)، وكلهم صمٌّ بكم في الظلمات، وقيل: المراد التقسيم إلى قسمين: صمٌّ وبكم، ويكفي في ذلك العطف؛ وقدَّر بعضهم: بعضٌ صمٌّ وبعضٌ بكمٌ، وجَعَلَ الجملةَ خبرًا، فيكون (فِي الظُّلُمَاتِ) خبرًا ثانيًا وكلُّهم في الظلمات.

٢. والمراد بالظلمات: أنواع الكفر، أو الجهل والعناد والتقليد، أو الضلال، أو غضب الله وعقابه، لا يسمعون سماع قبول أو تفكُّر، ولا ينطقون بالحقِّ؛ فهم كأصمّ أخرس زاد بالعمى، فإنَّ الأصمَّ الأخرس البصير يفهم عن غيره بالإشارة والكتابة، ويَفهم عنه غيرُه كذلك، وقيل: المراد بالظلمات حقيقة ظلمات الآخرة.

٣. ﴿مَنْ يَّشَإِ اللهُ﴾ إضلاله ﴿يُضْلِلْهُ﴾ بالخذلان فالله تعالى مريد لكفر الكافرين، لا كما قالت المعتزلة أنَّه غير مريد له، والمعتزلة يحملون الآية ونحوها على مشيئة الإجبار والقهر، وهو خطأ ظاهر، ﴿وَمَنْ يَّشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالتوفيق، ومشيئتُه لا تَتَخَلَّفُ، والهداية نفس الجعل على صراط مستقيم، وتنكيره تعظيم، وهو دين الإسلام، وقيل: الإضلال عن الطريق في الموقف إلى الجنَّة، والجعلُ على الصراط: الهدايةُ إلى الطريق فيه إلى الجنَّة، ولا يتبادر.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: مثلهم في جهلهم، وعدم فهمهم، وسوء حالهم، كمثل الصم (جمع أصم وهو الذي لا يسمع) والبكم (جمع أبكم، وهو الذي لا يتكلم)، وهم مع ذلك في الظلمات لا يبصرون، فكيف يهتدي مثلهم إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟ وقد كثر تشبيههم بذلك في التنزيل، إعلاما ببيان كمال غراقتهم في الجهل، وانسداد باب الفهم والتفهيم بالكلية.

٢. ثم أشار إلى أنهم من أهل الطبع بقوله: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: فهو المتصرف في خلقه بما يشاء، فمن أحب هدايته، وفقه بفضله وإحسانه للإيمان، ومن

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٥٩.

شاء ضلالته تركه على كفره، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي والكفار الذين كذبوا بآياتنا المنزلة وما أرشدنا إليه من آياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق ما جاء به رسولنا تكذيب جحود واستكبار، أو تكذيب جمود على تقليد الآباء وطاعة الكبراء صم لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع فهم وقبول، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق، ولا يقرون بما يدعوهم إليه الرسول، متسكعون أو حال كونهم متسكعين خابطين في تلك الظلمات الحالكة ظلمة الشرك والوثنية، وظلمة تقاليد الجاهلية، وظلمة كبرياء العصبية، وظلمة الجهل والأمية، ظلمات بعضها فوق بعض، لا ينفذ منها إليهم من نور الهداية شيء، فهم لا يبصرون صراطها، ولا يرون منهاجها، وذلك ما جنوه على أنفسهم بسوء اختيار الأفراد وفساد تربية المجموع، ولكل سيرة غاية تنتهي إليها بحسب سنن الله التي قضت بها حكمته، ونفذت بها مشيئته.

٢. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي من تعلقت مشيئة الله بإضلاله يضلله كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، فلم يستعملوا أسماعهم ولا أفواههم ولا عقولهم في آيات الله تعالى الدالة على حقية ما جاء به رسول الله ﷺ وإنما إضلاله إياهم اقتضاء سننه في عقول البشر وغرائزهم وأخلاقهم أن يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه، واتباع من يراه مثله، وإن ظهر له أن الحق معه، وأن يعرض المقلد عن النظر في الآيات والدلائل التي تنصب لبيان بطلان تقاليده وإثبات خلافها، ما دام مغرورا بها مكبرا لمن جرى من الآباء والكبراء عليها، وليس معنى ذلك أن يخلق الله تعالى الضلال لمن شاء إضلاله خلقا ويجعله له غريزة وطبعا، ولا أن يلجئه إليه إلجاء، ويكرهه عليه إكراها، فيكون إعراضه عن الحق والخير وإقباله على الباطل والشر كحركة الدم في الجسد، وعمل المعدة في الهضم.

٣. ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي ومن يشأ هدايته واستقامته يجعله على طريق مستقيم، وهو طريق الحق الذي لا يضل سالكه، ولا ينجو تاركه، بأن يوفقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٣٦

في آيات الله المنزلة وآياته المكونة، استعمالا يعرف به الحق ويعترف به، ويعرف به الخير ويعمل به بحسب سننه سبحانه وتعالى في الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد والوجدانات النفسية، وليس معناه أن يخلق له الهداية خلقا كما خلق روحه وبدنه، ولا أنه يجبره عليها فيلصق به كارها غير مختار، وفي القرآن آيات كثيرة تدل على أن مشيئة الإضلال إنما تتعلق بأصحاب الأعمال الكسبية التي هي الضلال أو سبب الضلال، ومشيئة الهداية تتعلق بما يقابل ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ كما قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فالجمع بين الآيات هو الموافق لفطر البشر وعقولهم وإن خالف بعض نظريات المعتزلة والجبرية والأشعرية، فليس الإنسان خالقا لأفعال نفسه، مستقلا بها دون مشيئة خالقه وسننه في خلقه، ولم يجعل الرب ما يصدر عن الناس من الإيمان والكفر والخير والشر من قبيل ما خلقه لهم من حركات دمائهم في أبدانهم وأعمال معدهم وأمعائهم، ولا من قبيل حركات المرتعش منهم، فلا نغلو في التنزيه والحكمة الإلهية غلوا نجعل به ضلال من ضل واقعا بغير مشيئة الله تعالى مقدر المقادير، وواضع السنن الحكيمة في الخلق كله، ولا نغلو في المشيئة فنجعلها منافية للحكمة والرحمة سالبة لما علم من فطرة الله بالضرورة.

٤. وقد زعم بعض المعتزلة أن الآية في بيان ما يكون عليه الكافرون والمؤمنون في الآخرة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قال: وإن المراد بالإضلال إضلالهم عن طريق الجنة جزاء لهم، ويقابله جعل المتقين على صراط موصل إلى الجنة، ويرد هذا التأويل ورود الآية في وصف حال المكذبين بآيات الله في سياق إقامة الحجج عليهم، وليس فيها ذكر للآخرة ولا هي واردة في سياق الجزاء، وإسناد الإضلال إلى الله تعالى لا يقتضي إخراجها عن ظاهرها، فمثله في القرآن كثير.

٥. ومن نكت البلاغة في الآية أن قوله تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في معنى قوله تعالى في (سورة البقرة): ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ فلماذا سردت الصفات الثلاث في البقرة مفصولة ووصلت كلها بالعطف في آية الإسراء التي ذكرت آنفا، وعطف الثانية على الأولى هنا دون قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الذي

هو في معنى الثالثة؟ لم أر لأحد كلاما في الفرق بين هذه الآيات، ولكن ذكر في (روح المعاني) أن العطف بين الصم والبكم لتلازمهما، وتركه فيما بعدهما للإيماء إلى أنه كاف للإعراض عن الحق، والذي يظهر لنا في المقابلة[1]:

أ. أن ترك العطف في آيتي البقرة لبيان أن هذه الصفات لاصقة بالموصوفين بها مجتمعة في آن واحد، والأولى منهما في المختوم على قلوبهم الميئوس من إيمانهم من المنافقين وغيرهم، والثانية في المقلدين الجامدين، وكل منهما لا يستمع لدعوة الحق عند تلاوة القرآن وغيره ولا يسأل الرسول ولا غيره من المؤمنين عما يحوك في قلبه ويجول في ذهنه من الكفر والشك، ولا ينطق بما عساه يعرف من الحق، ولا يستدل بآيات الله المرئية في نفسه ولا في الآفاق، فكأنه أصم أبكم أعمى في آن واحد، وأما الآية التي نفسرها فهي في مشركي مكة، ولم يكونوا كلهم من المختوم على قلوبهم الميئوس من إيمانهم، ولا من المقلدين الجامدين الذين لا ينظرون في شيء من الآيات الإلهية المنزلة والمكونة، بل كان منهم الجامد على التقليد والإعراض عن سماع القرآن حتى كأنه أصم ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ومنهم من يسمع ويعلم أنها الحق، ولكنه لا ينطق بما يعلم عنادا، فهذان فريقان منفصلان، عطف أحدهما على الآخر لبيان هذا الانفصال، وقوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ إما حال منهما لبيان أن كلا منهما خابط في الظلمات المشتركة كظلمتي الشرك والجهل، أو الخاصة بفريق دون آخر كظلمتي التقليد والكبر، فبعض المقلدين غير مستكبرين وهم الفقراء، وبعض المستكبرين غير جامدين على تقليد الآباء، وإما صفة لبكم فيكون المكذبون المحكي عنهم قسمين كل منهما فريقان:

• الأول: الذين شبهوا بالصم، وهم الذين لا يسمعون القرآن مطلقا استغناء عن هدايته بضلالهم ومشاغبة للداعي إليه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ والذين لا يسمعون سماع فهم وتأمل، لتوهمهم عدم الحاجة إلى دين غير دين آبائهم، أو لأن رؤساءهم ينهونهم ويصدونهم عنه، ولم يوصف هؤلاء بأنهم في الظلمات ـ على هذا الوجه ـ لأن سماعهم مرجو وهدايتهم مأمولة عند زوال المانع.

---

(١) تقسيم الفروع هنا ليس منهجيا، وإنما من باب التبسيط فقط

• الثاني: الذين شبهوا بالبكم وهم الذين عرفوا الحق واستيقنوا صدق الرسول بالآيات والدلائل، ولكنهم يكتمونها أو يجحدون بها كبرا وعنادا لا تكذيبا له ولا إكذابا، كما تقدم قريبا في الآية، والذين لم يعرفوا الحق ولم يسألوا ولم يبحثوا فهم كالبكم لعدم استفادتهم من الكلام، ووصف هذا الفريق من البكم ـ وهم الجاهلون ـ بأنهم في الظلمات لأنهم لا ينظرون في دلالة الآيات المرئية، ووصف بذلك الفريق الأول أيضا ـ وهم المستكبرون؛ لأنهم لا تؤثر في قلوبهم رؤية الرسول ﷺ وصفاته القدسية، وقد كانت شمائله الشريفة المرضية وروحانيته التي هي أقوى من الكهربائية تؤثر في النفوس المستعدة فتجذبها إلى الإيمان من غير حاجة إلى إقامة حجة ولا تأليف برهان، وقد كان يجيئه الأعرابي السليم الفطرة ممتحنا أو معاديا، فإذا رآه آمن وقال: ما هذا وجه كذاب، ودخل عليه رجل فأخذته رعدة شديدة من مهابته، فقال له ﷺ (هون عليك؛ فإني لست بملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة) فنطق الرجل بحاجته، رواه الحاكم من حديث جابر، وقال صحيح على شرط الشيخين.

ب. ومن الشواهد المؤيدة لما ذكرنا من التقسيم قوله تعالى في (سورة يونس): ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وأما آية الإسراء فلا يظهر فيها هذا التقسيم ولا معنى ما دلت عليه آيتا البقرة من إرادة اجتماع تلك الصفات الثلاث الحائلة دون جميع طرق الهداية، وإنما تفيد أن هذه العلل تعرض لهم في حالات وأوقات مختلفة من يوم الحشر والجزاء، فيكونون عميا هائمين في الظلمات على وجوههم ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ فلا يرون الطريق الموصل إلى الجنة عندما يساق أهلها إليها ويكونون بكما ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ وذلك في بعض مواقف القيامة وأحوالها.. ويكونون صما لا يسمعون شيئا يسرهم عندما يسمع المؤمنون المتقون بشرى المغفرة من ربهم، ويؤيد هذا التفسير مجموع ما ورد في الآيات والروايات من بيان حال الكفار في الآخرة، وروي نحوه عن ابن عباس فظهر الفرق بينه وبين آيتي البقرة المراد بها اجتماع الصمم والبكم والعمى في حال واحدة ووقت واحد، كأنها صفة واحدة، ولو حصل بعضها دون بعض لما أفادت أنهم لا يؤمنون، وتأمل كيف بدأ بذكر الصم في سياق الكلام عن دعوة الإسلام وبيان إعراضهم عن قبولها، وبدأ بذكر العمى في سياق الكلام عن الحشر، فيا لله العجب من دقائق بلاغة هذا القرآن التي أعجزت البشر، وكلما غاص غائص في بحارها

استفاد شيئا جديدا من فوائد الدرر، فلا تنفد عجائب إعجاز مبانيه، ولا تنتهي عجائب إعجاز معانيه.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي والكافرون الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على وحدانيتنا وصدق ما جاء به رسولنا ـ تكذيب جحود واستكبار أو تكذيب جمود على تقليد الآباء ـ صمّ لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع قبول، بكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق، وهم يتخبطون في تلك الظلمات الحالكة، ظلمة الوثنية، وظلمة تقليد الجاهلية، وظلمة الجهل والأمية.

٢. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي من تعلقت مشيئته بإضلاله يضله كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، وإضلاله إياهم جاء على مقتضى سننه في البشر، أن يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه وإن ظهر له أنه الحق، وأن يعرض المقلد عن النظر في الآيات والدلائل التي تنصب لبيان بطلانها وإثبات خلافها ما دام مغرورا بها مكبرا لمن جرى من الآباء عليها.

٣. ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي ومن يشأ هدايته يجعله على طريق مستقيم هو طريق الحق الذي لا يضل سالكه، بأن يوفقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله، استعمالا يعرف به الحق ويعرف به الخير، ويعمل به بحسب سننه تعالى في الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد النفسية.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. تختم هذه الجولة ـ أو هذه الموجة ـ بتقرير ما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسنته، وما يدلان عليه من فطرة الناس في حالات الهدى وحالات الضلال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو إعادة لتقرير الحقيقة التي مضت في هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون، وموت الذين لا يستجيبون، ولكن في صورة أخرى ومشهد آخر.. إن الذين كذبوا بآيات الله هذه المبثوثة في صفحات الوجود، وآياته الأخرى المسجلة في صفحات

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٢٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٨١.

هذا القرآن، إنما كذبوا لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطلة.. إنهم صم لا يسمعون، بكم لا يتكلمون، غارقون في الظلمات لا يبصرون! إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي، فإن لهم عيونا وآذانا وأفواها.. ولكن إدراكهم معطل، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل!

٢. وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها، لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك! وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته، فلم يعد صالحا لحياة الهدى، ولم يعد أهلا لذلك المستوي الراقي من الحياة.

٣. ووراء ذلك كله مشيئة الله.. المشيئة الطليقة التي قضت أن يكون هذا الخلق المسمى بالإنسان على هذا الاستعداد المزدوج للهدى والضلال، عن اختيار وحكمة، لا عن اقتضاء أو إلزام.. وكذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، بمشيئته تلك، التي تعين من يجاهد، وتضل من يعاند، ولا تظلم أحدا من العباد.

٤. إن اتجاه الإنسان إلى طلب الهدى، أو اتجاهه إلى الضلال، كلاهما ينشأ من خلقته التي فطره الله عليها بمشيئته، فهذا الاتجاه وذاك مخلوق ابتداء بمشيئة الله، والنتائج التي تترتب على هذا الاتجاه وذاك من الاهتداء والضلال إنما ينشئها الله بمشيئته كذلك، فالمشيئة فاعلة ومطلقة، والحساب والجزاء إنما يقومان على اتجاه الإنسان، الذي يملكه، وإن كان الاستعداد للاتجاه المزدوج هو في الأصل من مشيئة الله.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ استدعاء لهؤلاء المكذبين الضّالين، من بين عوالم الأحياء كلها، التي عرضها الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وفي هذا الاستدعاء، ينعزل الضالون المكذبون بالله وآياته، عن هذا الوجود، كما يعزل المرضى بأمراض خبيثة عن الأصحاء! وهؤلاء الضالون المكذبون، هم في حقيقتهم مصابون بأمراض خبيثة، لا في أبدانهم، ولكن في عقولهم.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٧٣.

٢. إنهم كما وصفهم الحق جلّ وعلا: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، وانظر إلى هذا الإنسان الأصم الأبكم الذي يحتويه الظلام ويشتمل عليه! إنه أصمّ لا يسمع.. أي لا يصل إليه من العالم الخارجي مسموع، وإنه أبكم، لا ينطق.. أي لا يصل منه إلى العالم الخارجي منطوق، فهو ـ والحال كذلك ـ مصمت مغلق، لا يتصل بشيء ولا يتصل به شيء ثم إنه ـ بعد هذا كله ـ أعمى، لا يرى شيئا، حتى جوارحه التي معه، من يد أو رجل! هذا هو حال الذين كفروا بآيات الله.. إنهم كائنات ميّتة، وإن بدت حيّة، في صورة الأحياء.. فقد تعطلت حواسّهم، وأظلمت قلوبهم وعقولهم، وبهذا لم يكن بينهم وبين آيات الله تعامل، بسمع، أو نظر، أو عقل.

٣. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو عرض لمشيئة الله، وقدرته، وحكمته.. وأنه سبحانه وتعالى هو مالك الملك، إليه يرجع الأمر كلّه.. وهؤلاء اللذين عصوا الله، وضلّوا عن سبيله، لا يظنون أنّهم أصحاب قوة وسلطان.. إنهم أذلّاء ضعفاء لا يملكون شيئا.. حتى هذا الضلال الذي هم فيه.. إنه ليس لهم، وليس من واردات حولهم وقوّتهم.. إن هناك سلطانا فوق سلطانهم، وقدرة فوق قدرتهم، وبذلك السلطان وبتلك القدرة هم محكومون، وهم صائرون إلى هذا المصير المشئوم الذي هم فيه.. فليموتوا كمدا وحسرة.. إنهم ممن شاء الله أن يضلّهم، لأنهم أهل لما أراده الله بهم! وهؤلاء الذين استجابوا للهّ، وآمنوا، واستقاموا على طريقه القويم، إنما كانت استجابتهم، بدعوة من الله، وتوفيق لهم منه، إلى الإيمان وأن الله سبحانه وتعالى، هو الذي أخذ بأيديهم إليه، وأدخلهم في عباده الصالحين، ولولا ذلك لكان شأنهم شأن هؤلاء الضالين، الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم، وأن ينزلهم منازل الإكرام عنده.. فليهنئهم هذا الرضوان، وليسعدوا بما آتاهم الله من فضله..

٤. وفي مشيئة الله، ومشيئة العباد، كثر القول، واختلفت المقولات، وتعدّدت الآراء، وتشعبت مذاهب الرأي فكان من ذلك مقولات كثيرة في الجبر والاختيار، وفي القضاء والقدر، وفي الثواب والعقاب، إلى غير ذلك مما يتّصل بمشيئة الله، ومشيئة عباده.. وهل للعباد مع مشيئة الله مشيئة؟ وهل إذا كانت لهم مشيئة أفلا ينقص ذلك من كمال الله وقدرته؟ وإذا لم يكن لهم مشيئة فكيف يثابون ويعاقبون على ما لا مشيئة لهم فيه؟ إنهم مسيّرون لا مخيّرون.. وعدل الله يقضى ألا يحاسب إنسان على ما ليس من كسبه؟ وهكذا تتشعب مذاهب القول، وتختلف وجوه الرأي ويحتدم الصراع بين أصحاب المقولات، ويلتحم

القتال زمنا طويلا، يترامى فيه المقاتلون بكل ما يقع لأيديهم من أسلحة، في مجال الرأي حينا، وفي ميدان الحرب بالرماح والسيوف حينا.. هذا، وسنعرض لهذا الموضوع، في بحث خاص إن شاء الله.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١ . ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، أي أنهم كالصم، لأنهم لا يستمعون إلى دعوة الحق، وهم كالبكم، لأنهم لا ينطقون بما عرفوا من الحق، وهم في ظلمات التقليد، وظلمات الشرك والكفر والفسق والآثام.

٢ . ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، تقدم الكلام عن الضلال والهداية عند تفسير الآية ٢٦ من البقرة.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١ . ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يجوز أن تكون الواو للعطف، والمعطوف عليه جملة: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ والمعنى: والذين كذّبوا بآياتنا ولم يستمعوا لها، أي لا يستجيبون بمنزلة صمّ وبكم في ظلمات لا يهتدون، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة والواو استئنافية، أي عاطفة كلاما مبتدأ ليس مرتبطا بجملة معيّنة من الكلام السابق ولكنّه ناشئ عن جميع الكلام المتقدّم، فإنّ الله لمّا ذكر من مخلوقاته وآثار قدرته ما شأنه أن يعرّف الناس بوحدانيته ويدلّهم على آياته وصدق رسوله أعقبه ببيان أنّ المكذّبين في ضلال مبين عن الاهتداء لذلك، وعن التأمّل والتفكير فيه، وعلى الوجهين فمناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية قد تعرّضنا إليها آنفا.

٢ . والمراد بالذين كذّبوا المشركون الذين مضى الكلام على أحوالهم عموما وخصوصا.

٣. ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ تمثيل لحالهم في ضلال عقائدهم والابتعاد عن الاهتداء بحال قوم

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٨٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ٩١.

صمّ وبكم في ظلام، فالصّمم يمنعهم من تلقّي هدى من يهديهم، والبكم يمنعهم من الاسترشاد ممّن يمرّ بهم، والظلام يمنعهم من التبصّر في الطريق أو المنفذ المخرج لهم من مأزقهم.

٤. وإنّما قيل في ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ولم يوصفوا بأنّهم عمي كما في قوله: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] ليكون لبعض أجزاء الهيئة المشبّهة بها ما يصلح لشبه بعض أجزاء الهيئة المشبّهة، فإنّ الكفر الذي هم فيه والذي أصارهم إلى استمرار الضلال يشبه الظلمات في الحيلولة بين الداخل فيه وبين الاهتداء إلى طريق النجاة، وفي الحديث: الظلم ظلمات يوم القيامة، فهذا التمثيل جاء على أتمّ شروط التمثيل، وهو قبوله لتفكيك أجزاء الهيئتين إلى تشبيهات مفردة، كقول بشّار:

كأنّ مثار النّقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهادى كواكبه

وجمع الظلمات جار على الفصيح من عدم استعمال الظلمة مفردا، وقد تقدّم في صدر السورة، وقيل: للإشارة إلى ظلمة الكفر، وظلمة الجهل، وظلمة العناد.

٥. ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ خبر ومعطوف عليه، وقوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر ثالث لأنّه يجوز في الأخبار المتعددة ما يجوز في النعوت المتعدّدة من العطف وتركه.

٦. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ استئناف بياني لأنّ حالهم العجيبة تثير سؤالا وهو أن يقول قائل ما بالهم لا يهتدون مع وضوح هذه الدلائل البيّنات، فأجيب بأنّ الله أضلّهم فلا يهتدون، وأنّ الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، فدلّ قوله: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ على أنّ هؤلاء المكذّبين الضالّين هم ممّن شاء الله إضلالهم على طريقة الإيجاز بالحذف لظهور المحذوف، وهذا مرتبط بما تقدّم من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]

٧. ومعنى إضلال الله تقديره الضلال؛ بأن يخلق الضّالّ بعقل قابل للضلال مصرّ على ضلاله عنيد عليه فإذا أخذ في مبادئ الضلال كما يعرض لكثير من الناس فوعظه واعظ أو خطر له في نفسه خاطر أنّه على ضلال منعه إصراره من الإقلاع عنه فلا يزال يهوي به في مهاوي الضلالة حتّى يبلغ به إلى غاية التخلّق بالضلال فلا ينكفّ عنه، وهذا ممّا أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥]، ودلّ عليه قول النبي ﷺ (إنّ الرجل ليصدق حتّى يكون صدّيقا وإنّ الرجل ليكذب حتّى يكتب عند الله كذّابا)، وكلّ هذا من تصرّف الله تعالى بالتكوين والخلق وهو تصرّف

القدر، وله اتّصال بناموس التسلسل في تطوّر أحوال البشر في تصرّفات بعقولهم وعوائدهم، وهي سلسلة بعيدة المدى اقتضتها حكمة الله تعالى في تدبير نظام هذا العالم، ولا يعلم كنهها إلّا الله تعالى، وليس هذا الإضلال بالأمر بالضلال فإنّ الله لا يأمر بالفحشاء ولا بتلقينه والحثّ عليه وتسهيله فإنّ ذلك من فعل الشيطان، كما أنّ الله قد حرم من أراد إضلاله من انتشاله واللطف به لأنّ ذلك فضل من هو أعلم بأهله.

٨. ومفعول ﴿يَشَأْ﴾ محذوف لدلالة جواب الشرط عليه، كما هو الشائع في مفعول فعل المشيئة الواقع شرطا.

٩. والصراط هو الطريق البيّن، ومعنى المستقيم أنّه لا اعوجاج فيه، لأنّ السّير في الطريق المستقيم أيسر على السائر وأقرب وصولا إلى المقصود.

١٠. ومعنى (على) الاستعلاء، وهو استعلاء السائر على الطريق.

١١. فالكلام تمثيل لحال الذي خلقه الله فمنّ عليه بعقل يرعوي من غيّه ويصغي إلى النصيحة فلا يقع في الفساد فاتّبع الدين الحقّ، بحال السائر في طريق واضحة لا يتحيّر ولا يخطئ القصد، ومستقيمة لا تطوح به في طول السير، وهذا التمثيل أيضا صالح لتشبيه كلّ جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّه بها، كما تقدّم في نظيره، وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فالدين يشبه الصراط الموصّل بغير عناء، والهدي إليه شبيه الجعل على الصراط.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا النص السامي يبين أن الذين لم يسارعوا إلى الحق استجابة لعناصر الانحراف والجحود في نفوسهم، واتباعا للهوى لا يهتدون؛ لأنهم سدوا على أنفسهم مسارب النور إلى الحق، وقد شبه سبحانه وتعالى حالهم بحال الصم والبكم الذين يسيرون في الظلمات، فإنهم لا يبصرون طريقا للهداية يسيرون فيه؛ إذ إنهم في ظلمات حالكة متكاثفة فلا يبصرون، ولو كان بصرهم سليما، فهؤلاء لا يجذبهم دليل ولا يهديهم برهان، ولا يمكن أن يستجيبوا لمن يهديهم، لأنهم بكم لا ينطقون، ولا يمكنهم أن يستجيبوا لداعى

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٩٣.

الهداية، لأنهم لا يسمعون إذ هم صم وبكم، فالكلام فيه استعارة تمثيلية إذ شبهت حال الجاحدين الذين يعرضون عن كل آية بحال الصم البكم الذين يعيشون في الظلام من حيث لا نور يهديهم، ولا سبيل لأن يهتدوا.

٢. وقد بين سبحانه وتعالى أن ذلك بعلم الله تعالى وإرادته، وأنه لا تخرج حركة عن حركة إلا بإذنه فهدايته المهتدين بمشيئته، وضلال الضالين بمشيئته، فلا يخرج شيء في الوجود من غير مشيئته، ومعنى ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي من يشإ الله تعالى له أن يكون في ضلال يضلله بأن يجعله يسير في طريق غوايته، فيعرض عن الآيات ويصاب بستار يحول بينه وبين الحق من ذات نفسه لا من أمر خارج عنه، بل باختياره الغواية فيتركه الله يسير في طريقه الذى رسمه لنفسه، ومن يشإ الله تعالى له الهداية يسير في طريق مستقيم يوصله إلى الحق والهداية.

٣. وهنا أمر نشير إليه، هو أن الهداية والضلال ليسا إجباريين لا اختيار للعبد فيهما، كما يقول الجهمية ومن يسيرون في طريقهم، وليسا للعبد من كل الوجوه، كما يقول المعتزلة، ومن يسيرون في فجهم، وإنما الأمر أن للعبد اختيارا في الطريق الذى يسيره، والله تعالى يوفقه فيه، فإن كان خيرا خطا فيه إلى الغاية، وإن كان شرّا سار حتى الهاوية.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يريد تعالى أن المكذبين لآياته محرومون من نعمة السمع والتكلم والبصر لكونهم في ظلمات لا يعمل فيها البصر فهم لصممهم لا يقدرون على أن يسمعوا الكلام الحق وأن يستجيبوا له، ولبكمهم لا يستطيعون أن يتكلموا بالقول الحق ويشهدوا بالتوحيد والرسالة، ولإحاطة الظلمات بهم لا يسعهم أن يبصروا طريق الحق فيتخذوه طريقا.

٢. في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾، دلالة على أن هذا الصمم والبكم والوقوع في الظلمات إنما هي رجز وقع عليهم منه تعالى جزاء لتكذيبهم بآيات الله فإن الله سبحانه جعل إضلاله المنسوب إليه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٨٤.

من قبيل الجزاء، كما في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فتكذيب آيات الله غير مسبب عن كونهم صما بكما في الظلمات بل الأمر بالعكس وعلى هذا فالمراد بالإضلال بحسب الانطباق على المورد هو جعلهم صما بكما في الظلمات والمراد بمن شاء الله ضلاله هم الذين كذبوا بآياته.

٣. وبالمقابلة يظهر أن المراد بالجعل على صراط مستقيم هو أن يعطيه سمعا يسمع به فيجيب داعي الله بلسانه ويتبصر بالحق ببصره، وأن هذا جزاء من لا يكذب بآيات الله سبحانه فمن يشأ الله يضلله ولا يشاء إلا إضلال من يستحقه ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ولا يشاء ذلك إلا لمن تعرض لرحمته.

٤. وقد تقدم البحث عن حقيقة معنى ما يصفهم الله تعالى به من الصمم والبكم والعمى وما يشابه ذلك من الصفات.

٥. وقد عني في الآية بنكتة أخرى، وهي ما يفيده الوصل والفصل في قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ حيث ذكر الصمم وهو من أوصافهم ثم ذكر البكم وعطفه عليه وهو صفة ثانية، ثم ذكر كونهم في الظلمات ولم يعطفها وهي صفة ثالثة، وبالجملة وصل بعض الصفات وفصل بعضها، وقد أتى في مثل الآية بحسب المعنى بالفصل أعني قوله في المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨] وفي آية أخرى يماثلها بالعطف وهي قوله في الكفار: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، ولعل النكتة في الآية التي نحن فيها أعني قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، الإشارة إلى كون من هم صم غير الذين هم بكم فالصم هم الجهلاء المقلدون الذين يتبعون كبراءهم فلا يدع لهم ذلك سمعا يسمعون به الدعوة الحقة، والبكم هم العظماء المتبوعون الذين لهم علم بصحة الدعوة إلى التوحيد وبطلان الشرك، غير أنهم لعنادهم وبغيهم بكم لا تنطلق ألسنتهم إلى الاعتراف بكلمة الحق والشهادة بها، والطائفتان جميعا تشتركان في أنهما واقعتان في ظلمة لا يتبصر فيها إلى الحق، ولا يسع غيرهما أن يبصرهما بشيء من الإشارات لمكان وقوعهما في الظلمات فلا تنجح فيها الإشارة، ويؤيد ذلك أن الكلام المسرود في الآيات يعم الطائفتين جميعا كما يشير إليه قوله تعالى في الآيات السابقة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [آية: ٢٦]، وكذا قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٣٧]، هذا في الآية التي نحن فيها، وأما آية المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾)، فالعناية فيها باجتماع جميع هذه الصفات فيهم في زمان واحد لانقطاعهم عن رحمة الله من كل جهة، وأما آية الكفار: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فقد تعلقت العناية

فيها بكون ختم السمع من غير جنس ختم القلوب كما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [حم السجدة: ٥] وربما وجهت الآية بغير ذلك من الوجوه.

٦. في تفسير القمي، عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ يقول: صم عن الهدى بكم لا يتكلمون بخير ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني ظلمات الكفر ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو رد على قدرية هذه الأمة ـ يحشرهم الله يوم القيامة من الصابئين والنصارى والمجوس ـ فيقولون ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، يقول الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾) قال: فقال رسول الله ﷺ: (ألا إن لكل أمة مجوسا ـ ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر ـ ويزعمون أن المشية والقدرة إليهم ولهم):

أ. قال في البرهان، (عند نقل الحديث: وفي نسخة أخرى من تفسير علي بن إبراهيم في الحديث هكذا: قال فقال: ألا إن لكل أمة مجوسا، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر ـ ويزعمون أن المشية والقدرة ليست لهم ولا عليهم، وفي نسخة ثالثة، يقولون: لا قدر ـ ويزعمون أن المشية والقدرة ليست إليهم ـ ولا لهم)

ب. مسألة القدر من المسائل التي وقع الكلام فيها في الصدر الأول فأنكر القدر ـ وهو أن لإرادة الله سبحانه تعلقا ما بأعمال العباد ـ قوم وأثبتوا المشية والقدرة المستقلتين للإنسان في فعله وأنه هو الخالق له المستقل به، وسموا بالقدرية أي المتكلمين في القدر، وقد روى الفريقان عن النبي ﷺ أنه قال: (القدرية مجوس هذه الأمة)، وانطباقه عليهم واضح فإنهم يثبتون للأعمال خالقا هو الإنسان ولغيرها خالقا هو الله سبحانه وهو قول الثنوية وهم المجوس بإلهين اثنين: خالق للخير، وخالق للشر.

ج. وهناك روايات أخر عن النبي ﷺ وعن أئمة أهل بيته عليه السلام تفسر الرواية بالمعنى الذي تقدم، وتثبت أن هناك قدرا وأن لله مشية في أفعال عباده كما يثبته القرآن.

د. وقد أول المعتزلة وهم النافون للقدر الرواية بأن المراد بالقدرية المثبتون للقدر، وهم كالمجوس في إسنادهم الخير والشر كله إلى خالق غير الإنسان، وقد تقدم بعض الكلام في ذلك، وسيجيء استيفاؤه إن شاء الله تعالى.

هـ. ومما ذكرنا يظهر أن الجمع بين القول بأنه لا قدر، والقول بأنه ليست المشية والقدرة للإنسان ولا إليه جمع بين المتنافيين فإن القول بنفي القدر يلازم القول باستقلال الإنسان بالمشية والاستطاعة، والقول بالقدر يلازم القول بنفي استقلاله بالمشية والقدرة، وعلى هذا فما وقع في النسختين من الجمع بين قولهم: لا قدر، وقولهم: إن المشية والقدرة ليست لهم ولا إليهم ليس إلا من تحريف بعض النساخ، وقد اختلط عليه المعنى حيث حفظ قوله: (لا قدر) وغير الباقي.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ إن الآية تتحدث عن المكذّبين على هدى الأسلوب القرآني المتكرر الذي يعتبر الكفر والتكذيب غير مرتكز على مشكلة فكرية صعبة الحلّ، بل هو منطلق من عقدة نفسية تمنعهم من النظر لما يفتح آفاقهم على الحق، ومن الاستماع لما يهدي أفكارهم إلى الإيمان ولهذا، فإنهم يتخبّطون في ظلمات الشك والجحود، ولا يهتدون سبيلا، لأنهم لا يسلكون السبيل الحق فيما منحهم الله من أدوات النظر والمعرفة:

أ. أمّا كيف نتصور الصمّ في صفة هؤلاء المكذّبين؟ إنه في الذهنية المغلقة التي تسيطر على تفكيرهم انطلاقا من خضوعهم للجهات التي يقلّدونها تقليدا أعمى بحيث سيطرت على عقولهم سيطرة مطلقة فعطّلتها عن التفكير، وللأهواء الضاغطة على أفكارهم بحيث تمنع أفكارهم عن التحرك بحرية، وعن الانفتاح على الوضوح في الرؤية، لأن هذه الأهواء تثير الدخان الغريزي الكثيف الذي يحجب عنهم الحق.

ب. أما البكم فهم الذين يملكون معرفة الحق في وضوحه ونقائه، ولكنهم لا يعبّرون عنه بالكلمات الواعية وبالمواقف الناطقة بالحقيقة، لأنهم خاضعون لمصالحهم وأطماعهم التي تلتقي مع الباطل، وتبتعد عن الحق، الأمر الذي يجعلهم في حالة صمت غبيّ كما لو كانوا لا ينطقون.

٢. وهؤلاء وأولئك موجودون في كل المجتمعات في كل زمان ومكان في تنوّعات العناصر المختلفة في مذاهبها واتجاهاتها وأوضاعها ومواقعها على صعيد القادة أو القاعدة الشعبية، وهم الذين

---

(١) من وحى القرآن: ٩/ ٩٦.

واجهوا الدعوة الإسلامية منذ انطلاقها في مكة وفي مسيرتها الثانية في المدينة، فكانوا يتخبّطون في الظلمات في حالة ضلال وانحراف عن الصراط المستقيم.

٣. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أمّا الحديث عن إضلال الله لمن يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم، فقد ذكرنا أكثر من مرة، في تفسير أمثال هذه الآيات، أن المشيئة لا تعني إحداث الضلال والهدى بشكل مباشر ولا اختيار للإنسان فيه، بل تعني إحداثهما بأسبابهما، وربما يعطي الله السائر في خط الهداية لطفا من ألطافه، يعينه فيه على مواصلة الطريق، وقد يمنع السائر في خط الضلال بعضا من رحمته، عقابا له، فيضل عن سواء الطريق.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ لما كانوا لا ينتفعون ببيان الله لهم ورده لأقوالهم الباطلة بما ينفع من يقبل الحق، شبههم بالصم الّذين لا يسمعون، وأضاف تشبيههم بالبكم الذين لا ينطقون؛ لأنهم لا ينصفون فيعترفوا بالحق عند وضوحه، بل هم عن ذلك كالخرس.

٢. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ بدلاً من تشبيههم بالعمي، فدل على أنهم لا يبصرون الحق، بسبب ما هم فيه من ظلمات الباطل التي تحول بينهم وبين الرؤية للحق، مثل: الكبر، والحسد، وحمية الجاهلية لآبائهم المشركين، ولما يعبدونه من دون الله، ومثل: عقائدهم التي استمروا عليها وتعصبوا لها، ومثل: هواهم فيما ورثوه عن آبائهم وما نشأوا عليه.

٣. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومشيئته سبحانه ليست مشيئة شهوة؛ لأنه لو أراد إرادة الشهوة لعمت إرادته كل مشتهى بل كل شيء لأن ذاته لا نسبة بينها وبين شيء دون شيء بل ذاته مخالفة للأشياء كلها، فليس كالمخلوق الذي جعلت لَه شهوة فيما يكمل معيشته واستمرارَ وجوده فإما أن يشتهيها كلها، وإما أن يستغني عنها كلها، فلما رأينا الأشياء تنقص وتتغير والأحياء تموت بعد تمام خلقها، علمنا أنه غير محتاج إليها؛ لأنه لو كان محتاجاً إليها لحافظ عليها، ولما جاز

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤١.

عليه تغير الحاجة، لأنها لو كانت لكانت ذاتية توجد ما دامت الذات، فدلّ ذلك على أنه غير محتاج إلى شيء منها، وأنه غني عما خلق كله كما هو غني عما لم يخلق، وإذا ثبت أن مشيئته ليست مشية شهوة لم يبقَ إلا أنها مشية الحكمة، وليس من الحكمة إضلال عبده وهو يدعوه إلى الهدى وهو مستعد للإجابة، ولم يسبق منه ما يستحق به الإضلال، فدل ذلك على أنه لا يشاء الإضلال إلا على ما تقتضيه الحكمة، وهو الإضلال لمن استحق الإضلال؛ بتمرده عن قبول الحق بعد بيانه، الإضلال الذي لا يسلب الاختيار، ولا يسلب التمكن من الفهم والطاعة؛ لأنه لو سلبه الاختيار والتمكن من الفهم والطاعة لرفع عنه التكليف، ولما عاقبه على ما صدر عنه في حال الإضلال؛ لأنه حكيم وهو﴿بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣] و﴿لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]

٤. سؤال وإشكال: فما هو الإضلال الذي لا يسلب الاختيار ولا يسلب التمكن من الفهم والطاعة، وقد استحقه العبد بتمرده؟ والجواب: قد بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ولم يقل: إنه يخلق الضلال، أو يسلب الاختيار أو يسلب قدرة الفهم والطاعة، وإنما هو جعل صدره ضيقاً فإذا ضاق صدر العاصي بسبب عصيانه وتمرده كان هواه في ترك ما ثقل عليه فاتبع هواه كما اتبع هواه قبل الإضلال، فلما اتبع هواه كان قد أضله هواه عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص:٢٦] وجعل صدره ضيقاً بسبب تمرده وإن كان منسوباً إلى الله، فيمكن مع ذلك أن له نسبة إلى العاصي من حيث أنه عوّد قلبه اتباع الهوى وترك ما كلف، حتى أثرت العادة في قلبه فصار الحق عليه ثقيلاً، وهذا الثقل النفسي هو سبب ضيق الصدر؛ لأنه مفطور على تأثره بالآثار النفسية، وعلى هذا تكون العقوبة بخذلانه عند تصرفه المفسد لقلبه وترك لطفه؛ لأنه استحق الخذلان ـ وبالله التوفيق.

٥. ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ترغيب كامل في التعرض لهداية الله تعالى؛ لأنها هداية يكون عندها ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بسبب حبه للإيمان، وانشراح صدره للإسلام، فإذا عاين الصراط المستقيم سار فيه بغير تردد ولا تراخٍ، فاعتبرت هدايته جعله على صراط مستقيم لأنها سببه.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. مرّة أخرى يعود القرآن ليتطرق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فهم لا يملكون آذانا صاغية لكي يستمعوا إلى الحقائق، ولا ألسنا ناطقة بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق، ولمّا كانت ظلمات الأنانية وعباده الذات والمعاندة والجهل تحيط بهم من كل جانب، فهم لا يستطيعون رؤية وجه الحقيقة، ولذلك فهم محرومون من النعم الثلاث التي تربط الإنسان بالعالم الخارجي (أي السمع والبصر والنطق)

٢. يرى بعض المفسّرين أنّ المقصود بالصمّ هم المقلّدون الذين يتبعون قادتهم الضالين دون اعتراض، ويصمون آذانهم عن سماع دعوات الهداة الإلهيين، وأنّ المقصود بالبكم هم أولئك القادة الضالون الذين يدركون الحقائق جيدا، ولكنّهم حفاظا على مصالحهم ومراكزهم الدنيوية ـ يكمون أفواههم، ولا ينطقون بالحقّ، فكلا الفريقين غريقان في ظلمات الجهل وعبادة الذات.

٣. بعد ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سبق أن قلنا إنّ نسبة الهداية والضلالة إلى مشيئة الله وإرادته نسبة تفسرها آيات أخرى في القرآن يقول سبحانه: ﴿يُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ ويقول: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ وفي موضع آخر يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يتّضح من هذه الآيات وغيرها من الآيات القرآنية أنّ الهداية والضلالة اللتين تنسبان في هذه الحالات إلى مشيئة الله إنّما هما في الحقيقة ثواب الله وعقابه لعباده على أفعالهم الحسنة أو السيئة.

٤. وبعبارة أخرى: قد يرتكب الإنسان أحيانا إثما كبيرا يؤدي به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، فتفقد عينه القدرة على رؤية الحقّ، وتفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحقّ، ويفقد لسانه القدرة على قول الحقّ، وقد يكون الأمر على عكس ذلك، أي قد يعمل الإنسان أعمالا صالحات كثيرة بحيث أن عالما من النّور والضوء يشع في روحه، فيتسع بصره وبصيرته، وتزداد أفكاره إشعاعا، ويكون لسانه ابلغ في إعلان الحقّ، ذلكم هو مفهوم الهداية والضلالة اللتين تنسبان إلى إرادة الله ومشيئته.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٧٧.

٢١. المعاندون ودعاء الله وقت الشدة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين: أرأيتكم[١].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ يعني: في الدنيا بالاستئصال، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ بالعذاب[٢].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: خوّفهم الله عز وجل، فقال للنبي ﷺ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ في الدنيا، كما أتى الأمم الخالية، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾، ثم رجع إلى عذاب الدنيا، فقال: ﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ من الآلهة ﴿تَدَّعُونَ﴾ أن يكشف عنكم العذاب في الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنّ معه آلهة[٣].

٢. روي أنّه قال: ثم رجع إلى نفسه، فقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ﴾ يعني: وتتركون ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾ بالله من الآلهة، فلا تدعونهم أن يكشفوا عنكم، ولكنكم تدعون

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٤٣.

(٢) ذكره يحيى بن سلام كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ٦٧.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

الله[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ الذي وعدكم في الدنيا أنه يأتيكم، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾، لأنه كان وعدهم أن يأتيهم العذاب، أو كان يعدهم أن تقوم الساعة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾: في رفع ذلك، وكشفه عنكم.

٢. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

أ. أن معه شركاء وآلهة.

ب. أو ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: أن ما تعبدون شفعاؤكم عند الله، أو تقربكم عبادتكم إياها إلى الله.

٣. ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾:

أ. يحتمل: حقيقة الدعاء عند نزول الجلاء.

ب. ويحتمل: العبادة، أي: أغير الله تعبدون على رجاء الشفاعة لكم، وقد رأيتم أنها لم تشفع لكم عند نزول البلايا.

٤. ثم أخبر أنهم لا يدعون غير الله في دفع ذلك وكشفه عنهم، وأخبر أنهم إلى الله يتضرعون في دفع ذلك عنهم، وهو ما ذكر عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وكقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، وكقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: ذكر هذا أنكم إذا مسكم الشدائد والبلايا لا تضرعون إلى الذين تشركون في عبادته وألوهيته، فكيف أشركتم أُولَئِكَ في ربوبيته في غير الشدائد والبلايا.

٥. ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، أي: تتركون ما تشركون بالله من الآلهة؛ فلا تدعونهم أن يكشفوا عنكم؟

العياني:

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٣.

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ معنى أرأيتكم: هو أعلمتكم، وأدركت يا هذا خبركم، ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ﴾ يا هذا المخاطب ﴿تَدَّعُونَ﴾ أجيبوا في ذلك، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ توقيفاً من الله لهم على ضعف ما يعبدون، وعجز شركائهم التي يعظمون، والعرب إذا قالت: أرأيت، فإنما تعني بذلك: اعلم يا هذا، وهل علمت؟ وكذلك قال الشاعر:

رأيتك إن جالت بك الخيل جولة   وأنت على برذونة كيف تصنع

٢. معنى قوله عز وجل: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يريد لا يكشف الضر غيره عنكم، إذا نزلت إحدى مصائب الزمان عليكم، وأنتم تنسون عند ذلك شركاءكم.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. أمر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الآية أن يقول لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ كما أتى الكافرين من قبلكم كعاد وثمود، وغيرهم ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ وهي القيامة، قال الزجاج: الساعة اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد واسم للوقت الذي تبعث فيه، والمعنى أرأيتكم الساعة التي وعدتم فيها بالبعث والفناء، لأن قبل البعث يموت الخلق كلهم، أتدعون فيها ـ لكشف ذلك عنكم ـ هذه الأوثان التي تعلمون أنها لا تقدر أن تنفع أنفسها ولا غيرها!؟ أو تدعون لكشف ذلك عنكم الله تعالى الذي هو خالقكم ومالككم ومن يملك ضركم ونفعكم؟ ودلهم بذلك على أنه لا ينبغي لهم أن يعبدوا ما لا يملك لهم نفعاً ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرا وأن يعبدوا الله وحده الذي هو خالقهم ومالكهم والقادر على نفعهم وضرهم.

٢. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني في أن هذه الأوثان آلهة لكم، فبين الله لهم بذلك أنها ليست آلهة وأنهم في هذا القول غير صادقين.

٣. ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ معنى (بل) استدراك وإيجاب بعد نفي تقول ما جاءني زيد بل عمرو،

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٧.

(٢) تفسير الطوسي: ٤/ ١٣٣.

وأعلمهم الله تعالى أنهم لا يدعون في حال الشدائد إلا إياه، لأنه إذا لحقهم الشدائد والأهوال في البحار والبراري القفار، التجئوا فيه إليه وتضرعوا لديه، كما قال: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ﴾ وفي ذلك أعظم الحجج عليهم، لأنهم عبدوا الأصنام.

٤. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ معناه يكشف الضر الذي من أجله دعوتم، وهو مجاز كقوله ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ ومعناه واسأل أهل القرية.

٥. ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ معنى تنسون يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: أن يكون بمعنى ما تشركون بالله.

ب. الثاني: أنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من نسيهم.

٦. هذا الذي أحتج الله به على الكفار دلالة على صحة الاحتجاج في الدين على كل من خالف الحق، لأنه لو كان الاحتجاج لا يجوز ولا يفضي إلى الحق لما احتج به على عباده في كتابه، وإنما قال: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ لأنه ليس كلما يدعون لكشفه يكشفه عنهم بل يكشف ما شاء من ذلك مما تقتضيه المصلحة وصواب التدبر، وتوجبه الحكمة، والاستثناء راجع إلى العذاب دون الساعة، لأنها لا تكشف ولا محيص عنها.

٧. قراءات ووجوه: قرأ الكسائي وحده (أريتكم) وما جاء منه إذا كان استفهاماً بحذف الهمزة التي بعد الراء، والباقون بإثباتها، وتخفيفها إلا أهل المدينة، فإنهم جعلوها بين بين، فإن كان غير استفهام اتفقوا على إثبات الهمزة وتخفيفها إلا ما رواه ورش في تحقيقها في ستة مواضع ذكرت في باب الهمزة في القراءات، ومن حقق الهمزة، فلأنه (فعلت) من الرؤية، فالهمزة عين الفعل، ومن خفف فإنه جعلها بين بين، وهذا التخفيف على قياس التحقيق، ومن حذف الهمزة فعلى غير مذهب التخفيف، لأن التخفيف القياس فيها أن تجعل بين بين، كما فعل نافع، وهذا حذف، كما قالوا، ويلمه، وكما أنشد أحمد بن يحيى: إن لم أقاتل فالبسوني برقعاً، وقال أبو الأسود: يا با المغيرة رب أمر معضل، وذكر أن عيسى كذلك كان يقرأها ويقوي ذلك قول الراجز:

أريت إن جاءت به أملودا مرجَّلاً ويلبس البرودا

وقال الفراء: العرب لها في (أرأيت) لغتان:

أ. أحدهما: أن يسأل الرجل الرجل أرأيت زيداً بعينك؟ فهذه مهموزة، فإذا أوقعتها على الرجل

منه قلت: أرأيتك على غير هذه الحال تريد هل رأيت نفسك على غير هذه الحال ثم يثنى ويجمع، فتقول للرجلين أرأيتما كما، وللقوم أرأيتموكم، وللنسوة أرأيتنكن، وللمرأة أرأيتك بخفض التاء ولا يجوز إلا ذلك.

ب. والآخر ـ أن تقول أرأيتك، وأنت تريد أخبرني، فتهمزها وتنصب التاء منها وتترك الهمز إن شئت، وهو أكثر كلام العرب، وتترك التاء مفتوحة للواحد، والجمع مؤنثه ومذكره، تقول للمرأة: أرأيتك زيداً، وللنساء أرأيتكن زيداً ما فعل، وإنما تركت العرب التاء واحدة لأنهم لم يريدوا أن يكون الفعل منها واقعاً على نفسها، فاكتفوا بذكرها في الكاف ووجهوا التاء إلى المذكر والتوحيد، إذا لم يكن الفعل واقعاً على نفسها.

٨. اختلفوا في كاف ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾:

أ. فقال الفراء: موضعها نصب وتأويلها رفع، مثل قولك: دونك زيداً، فموضع الكاف خفض، ومعناه الرفع، لأن المعنى خذ زيداً، قال الزجاج: هذا خطأ ولم يقله أحد قبله، قال لأن قولك أرأيتك زيداً ما شأنه يصير أرأيت قد تعدت إلى الكاف والى زيد، فنصب أرأيت اسمين فيصير المعنى: أرأيت نفسك زيداً ما حاله، وهذا محال، قال: والصحيح الذي عليه النحويون أن الكاف لا موضع لها والمعنى أرأيت زيداً ما حاله، والكاف زيادة في بيان الخطاب، وهو المعتمد عليه في الخطاب ولذلك تكون التاء مفتوحة في خطاب المذكر والمؤنث والواحد والجمع، فنقول للرجل أرأيتك زيداً ما حاله بفتح التاء والكاف وللمرأة أرأيتك بفتح التاء وكسر الكاف، لأنها صارت آخر ما في الكلمة، وللاثنين أرأيتكما، وللجمع أرأيتكم، فتوحد التاء، فكما وجب أن توحدها في التثنية والجمع، كذلك وجب أن تذكرها مع المؤنث، فإن عديت الفاعل إلى المفعول في هذا الباب صارت الكاف مفعوله تقول: رأيتني عالماً بفلان، فإذا سألت على هذا الشرط قلت للرجل: أريتك عالماً؟ وللاثنين أرأيتما كما وللجمع أرأيتموكم، لأن هذا في تأويل أرأيتم أنفسكم، وللمرأة أرأيتك، وللثنتين أرأيتما كما، وللجماعة أرأيتكن، فعلى هذا قياس هذين البابين.

ب. قال أبو علي الفارسي: لا يخلو أن يكون الكاف للخطاب مجرداً، ومعنى الاسم مخلوعاً منه أو يكون دالاً على الاسم مع دلالته على الخطاب، والدليل على أنه للخطاب مجرداً من علامة الاسم أنه لو كان اسماً وجب أن يكون الاسم الذي بعده في نحو قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾، وقولهم: أريتك

زيداً ما صنع هو الكاف في المعنى، ألا ترى أن (رأيت) يتعدى إلى مفعولين يكون الأول منهما هو الثاني في المعنى وإذا لم يكن المفعول الذي بعده هو الكاف في المعنى، وإنما هو غيره وجب أن يدل ذلك على أنه ليس باسم، وإذ لم يكن اسماً كان حرفاً للخطاب مجرداً من معنى الاسمية، كما أن الكاف في (ذلك وهنا لك) للخطاب ومثله التاء في (أنت) لأنه للخطاب معرى من معنى الاسم فإذا ثبت أنه للخطاب معرى من معنى الأسماء ثبت أن التاء لا يجوز أن تكون بمعنى الخطاب ألا ترى أنه لا ينبغي أن يلحق الكلمة علامتان للخطاب، كما لا يلحقها علامتان للتأنيث، ولا علامتان للاستفهام، فلما لم يجز ذلك أفردت التاء في جميع الأحوال لما كان الفعل لا بد له من فاعل وجعل في جميع الأحوال على لفظ واحد، لأن ما يلحق الكاف من معنى الخطاب يبين الفاعلين، لتخصيص التأنيث من التذكير والتثنية من الجمع، فلو لحق علامة التأنيث والجمع التاء لاجتمع علامتان للخطاب بما كان يلحق التاء وما يلحق الكاف وذلك يؤدي إلى ما لا نظير له فرفض لذلك.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الدعاء: مصدر دعوت أدعو دعاء، يقال: دعوت الله إلى كذا، ودعوته بكذا، والفرق بينهما أن ﴿إِلَى﴾ تدل على الغاية، التي هي عَرَضٌ كقولك: دعوته إلى أن يغفر لي، وليس الباء كذلك، وإنما تدل على متعلق الدعاء كقولهم: دعوته بأن يسهل لي طريق الحج.

ب. النسيان: خلاف الذكر، والنسيان: الترك، ومنه ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾

٢. أمر تعالى رسوله بمحاجتهم بما يضطرهم إلى الاعتراف به، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهَؤُلَاءِ الكفار ﴿أَرَأَيْتكُمْ﴾ أي أرأيتم أنفسكم ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ جاءكم عذابه في الدنيا كما نزل بالأمم قبلكم، عن أبي علي وأبي مسلم ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أو جاءتكم القيامة فتحشرون [من قبوركم] ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾:

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٥٨.

أ. هناك لكشف ذلك عنكم.

ب. وقيل: أعلى غيره تتوكلون في صرفه.

٣. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

أ. فَأَقِرُّوا بأنكم لا تفزعون إلا إليه.

ب. وقيل: إن كنتم صادقين أن الأصنام آلهة تنفعكم، عن الأصم وأبي علي، وأخرج الكلام مخرج الاستفهام، والمراد به التوبيخ، لكل فزع إلى غير الله من صنم أو غيره ممن لا يقدر على كشف بلاء وغمة كأنه قيل: أما علمتم أن الذي يُدْعَى للشدائد هو الله دون غيره، فلا تعبدوا غيره.

٤. ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾:

أ. قيل: في الآية تقديم وتأخير بل إياه تدعون، وتنسون ما تشركون فيكشف هو ذلك، والمعنى لا تدعون غيره، بل تدعونه لكشف ذلك ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عنكم مَا تَدْعُونَ إِلَيهِ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ وإنما علقه بالمشيئة؛ لأن عذاب الاستئصال بالدعاء قد يزول، وقد لا يزول بحسب ما يرى من المصلحة.

ب. وقيل: هذا في محن الدنيا والشدائد والأمراض، عن الأصم، وذلك يوجب جواز الدعاء للكافر الممتحن.

٥. سؤال وإشكال: أيزول عذاب الساعة بالدعاء؟ والجواب: الله قادر على إزالته، والمراد بيان القدرة.

٦. ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾:

قيل: تعرضون عنه إعراض الناسي، عن الحسن.

وقيل: تتركون ما سواه، عن الزجاج.

٧. ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾:

أ. قيل: من تشركون.

ب. وقيل ﴿مَا﴾ مع ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بمنزلة المصدر، أي وتنسون شرككم.

٨. تدل الآية الكريمة على:

أ. وجوب الانقطاع إليه تعالى وترك الاتكال على غيره، وأنه المفزع المدعو عند الشدائد.

ب. أن مَنْ عَبَدَ غيره فعند البليات ينساه؛ لأنه لا يقدر على نفع أو ضر، فنبه بذلك على وجوب عبادته، وألّا يشرك معه غيره.

٩. قراءات ووجوه: قرأ أبو جعفر ونافع ﴿أَرَأَيْتكُمْ﴾ و﴿أَرَأَيْتَ﴾ و﴿رَأَيْتَ﴾ و(فرأيت)، وأشباه ذلك بتخفيف الهمزة كل القرآن، وقرأ الكسائي ﴿أَرَأَيْتكُمْ﴾ و﴿أَرَأَيْتَ﴾ و﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بترك الهمزة كل القرآن، وقرأ الباقون بالهمز فيها كل القرآن، وفي ﴿رَأَيْتَ﴾ ثلاث لغات: إثبات الهمز على التحقيق، وتخفيفها، وحذفها، وإنما يحذف ذلك في الاستفهام.

١٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. قوله: ﴿أَرَأَيْتكُمْ﴾: قيل: تقديره: أرأيتم إياكم، أو أرأيتم أنفسكم، إلا أن الكاف والميم بين أن الخطاب لجماعة، فأغنى عن الميم المتصلة بالتاء، فحذف النفس لدلالة الكلام عليه، وموضع الكاف نصب على تقدير: أرأيتم أنفسكم، وقيل: الكاف تأكيد، ولا موضع له عن سيبويه.

ب. جواب ﴿أَنْ﴾ الفعل الذي دخل عليه حرف الاستفهام، كقولك: إن أتاك زيد أتكرمه؟ ومعناه: إن أتاك زيد تكرمه؟، وموضع ﴿أَنْ﴾ من الإعراب قيل: نصب؛ لأنه في موضع مفعول ﴿أَرَأَيْتَ﴾، وهذا على أن يكون الكاف مع الميم حرف خطاب، وقيل: نصب بأنه في موضع مفعول ﴿أَرَأَيْتَ﴾ على أن يكون الكاف مع الميم اسمًا مضمرًا، بل إضراب عن الأول وإيجاب للثاني كأنه قيل: دَعُوا ذلك فإنكم إياه تدعون إن أتاكم عذابه، كما تدعونه في لجج البحار إذا اضطربت الأمواج.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أمر سبحانه نبيه بمحاجة الكفار فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿أَرَأَيْتكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ في الدنيا، كما نزل بالأمم قبلكم، مثل عاد وثمود ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة، قال الزجاج: الساعة اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد، واسم للوقت الذي يبعث فيه العباد، والمعنى: أو أتتكم الساعة التي وعدتم فيها بالبعث والفناء، لأن قبل البعث يموت الخلق كلهم.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٤٥.

٢. ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ أي: أتدعون فيها لكشف ذلك عنكم هذه الأوثان التي تعلمون أنها لا تقدر أن تنفع أنفسها ولا غيرها، أو تدعون الله الذي هو خالقكم ومالككم لكشف ذلك عنكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن هذه الأوثان آلهة لكم، احتج سبحانه عليهم بها لا يدفعونه، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله.

٣. ثم قال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ و﴿بَلْ﴾ استدراك وإيجاب بعد نفي، أعلمهم الله تعالى أنهم إذا لحقتهم الشدائد في البحار، والبراري، والقفار، يتضرعون إليه، ويقبلون عليه، والمعنى: لا تدعون غيره بل تدعونه، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي: يكشف الضر الذي من أجله دعوتم، إن شاء أن يكشفه.

٤. ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾:

أ. أي: تتركون دعاء ما تشركون من دون الله، لأنه ليس عندهم ضرر ولا نفع، عن ابن عباس، ويكون العائد إلى الموصول محذوفا، للعلم على تقدير ما تشركون به.

ب. وقيل: معناه إنكم في ترككم دعاءهم، بمنزلة من قد نسيهم، عن الزجاج، وهو قول الحسن، لأنه قال تعرضون عنه إعراض الناسي أي: لليأس في النجاة من مثله.

ج. وبجوز أن يكون ﴿مَا﴾ مع ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بمنزلة المصدر، فيكون بمنزلة وتنسون شرككم.

٥. قراءات ووجوه: قرأ أهل المدينة أرأيتكم، وأرأيتم، وأرأيت وأشباه ذلك بتخفيف الهمزة كل القرآن، وقرأ الكسائي وحده: أريتكم وأريت وأريتم كل القرآن بترك الهمزة، وقرأ الباقون بالهمز في الجميع كل القرآن.. قال أبو علي: من حقق الهمزة، فوجه قراءته بين، لأنه فعلت من الرؤية، فالهمزة عين الفعل، ومن قرأ بألف في كل القران من غير همز على مقدار ذوق الهمزة، فإنه يجعل الهمزة بين بين، أي: بين الألف والهمزة، وأما الكسائي فإنه حذف الهمزة حذفا، ألا ترى ان التخفيف القياسي فيها، أن تجعل بين بين، وهذا حذف الهمزة كما قالوا: ويلمه (ا)، وكما أنشد أحمد بن يحيى (إن لم أقاتل فالبسوني برقعا)، وكقول أبي الأسود: يا با المغيرة رب أمر معضل ومما جاء على ذلك، قول الآخر: أريت إن جئت به أملودا مرجلا ويلبس البرودا ومما يقوي ذلك، قول الشاعر:

ومن ري مثل معدان بن ليلى ... إذا ما النسع طال على المطية

٦. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾: الكاف فيه للخطاب مجردا، ومعنى الاسم مخلوع عنه، لأنه لو كان اسما، لوجب أن يكون الاسم الذي بعده في قوله أرأيتك هذا الذي كرمت علي، وأرأيتك زيدا ما صنع، هو الكاف في المعنى، لأن رأيت يتعدى إلى مفعولين يكون الأول منهما هو الثاني في المعنى، وقد علمنا أنه ليس الكاف في المعنى، وإذا لم يكن اسما كان حرفا للخطاب مجردا من معنى الإسمية، كالكاف في ذلك وهنالك وكالتاء في أنت، وإذا ثبت أنه للخطاب، فالتاء في أرأيت لا يجوز أن يكون للخطاب، لأنه لا يجوز أن يلحق الكلمة علامتان للخطاب، كما لا يلحقها علامتان للتأنيث، ولا علامتان للاستفهام، فلما لم يجز ذلك أفردت التاء في جميع الأحوال، لما كان الفعل لا بد له من فاعل، وجعل في جميع الأحوال على لفظ واحد، لأن ما يلحق الكاف من معنى الخطاب، يبين الفاعلين، فيخصص التأنيث من التذكير، والتثنية من الجمع، ولو لحق علامة التأنيث والجمع التاء، لاجتمعت علامتان للخطاب: ما يلحق التاء، وما يلحق الكاف، فكان يؤدي إلى ما لا نظير له، فرفض، وهذا من كلام أبي علي الفارسي.

ب. جواب ﴿إِنْ﴾ من قوله: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ الفعل الذي دخل عليه حرف الاستفهام، كما تقول: إن أتاك زيد أتكرمه؟

ج. موضع ﴿إِنْ﴾ وجوابه نصب لأنه في موضع مفعولي رأيت.

د. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جوابه محذوف يدل عليه قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾، لأنه في معنى أخبروا، فكأنه قال: إن كنتم صادقين فأخبروا من تدعون عند نزول البلاء بكم.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: (أرأيتم) و(أرأيتكم) و(أرأيت) بالألف في كلّ القرآن مهموزا؛ وليّن الهمزة نافع في الكلّ، وقرأ الكسائيّ بغير همز ولا ألف، قال الفرّاء: العرب تقول: أرأيتك، وهم يريدون: أخبرني.

٢. ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ فأمّا عذاب الله، ففي المراد به ها هنا قولان:

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٢٨.

أ. أحدهما: أنه الموت، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: العذاب الذي كان يأتي الأمم الخالية، قاله مقاتل، فأمّا السّاعة، فهي القيامة، قال الزّجّاج: وهو اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد، وللوقت الذي يبعثون فيه.

٣. ﴿أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ﴾ أي: أتدعون صنما أو حجرا لكشف ما بكم!؟ فاحتجّ عليهم بما لا يدفعونه، لأنهم كانوا إذا مسّهم الضّرّ دعوا الله.

٤. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جواب لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾، لأنه بمعنى أخبروا، كأنه قيل لهم: إن كنتم صادقين، فأخبروا من تدعون عند نزول البلاء بكم؟

٥. ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ قال الزّجّاج: أعلمهم أنهم لا يدعون في الشّدائد إلّا إيّاه؛ وفي ذلك أعظم الحجج عليهم، لأنهم عبدوا الأصنام، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ المعنى: فيكشف الضّرّ الذي من أجله دعوتم، وهذا على اتّساع الكلام مثل قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، أي: أهل القرية.

٦. ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾:

أ. يجوز أن يكون بمعنى (تتركون)

ب. ويجوز أن يكون المعنى: إنّكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيهم.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما بين الله تعالى غاية جهل أولئك الكفار بين من حالهم أيضا أنهم إذا نزلت بهم بلية أو محنة فإنهم يفزعون إلى الله تعالى ويلجئون إليه ولا يتمردون عن طاعته.

٢. ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ قال الفرّاء للعرب في (أرأيت) لغتان:

أ. إحداهما: رؤية العين، فإذا قلت للرجل رأيتك كان المراد: أهل رأيت نفسك؟ ثم يثنى ويجمع، فنقول: أرأيتكما أرأيتكم، والمعنى

ب. الثاني: أن تقول أرأيتك، وتريد: أخبرني، وإذا أردت هذا المعنى تركت التاء مفتوحة على كل

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣٢.

حال تقول: أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم أرأيتكن.

٣. مذهب البصريين: أن الضمير الثاني وهو الكاف في قولك: أرأيتك لا محل له من الاعراب، والدليل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] ويقال أيضا: أرأيتك زيدا ما شأنه، ولو جعلت الكاف محلا لكنت كأنك تقول: أرأيت نفسك زيدا ما شأنه، وذلك كلام فاسد، فثبت أن الكاف لا محل له من الاعراب، بل هو حرف لأجل الخطاب، وقال الفرّاء: لو كانت الكاف توكيدا لوقعت التثنية والجمع على التاء، كما يقعان عليها عند عدم الكاف، فلما فتحت التاء في خطاب الجمع، ووقعت علامة الجمع على الكاف، دل ذلك على أن الكاف غير مذكور للتوكيد، ألا ترى أن الكاف لو سقطت لم يصلح أن يقال لجماعة: أرأيت، فثبت بهذا انصراف الفعل إلى الكاف، وأنها واجبة لازمة مفتقر إليها، أجاب الواحدي عنه: بأن هذه الحجة تبطل بكاف ذلك وأولئك، فإن علامة الجمع تقع عليها مع أنها حرف للخطاب، مجرد عن الاسمية.

٤. قرأ نافع أرأيتكم، وأرأيت، وأفرأيت، وأرأيتك وأفرأيت وأشباه ذلك بتخفيف الهمزة في كل القرآن، والكسائي ترك الهمزة في كل القرآن، والباقون بالهمزة، أما تخفيف الهمزة، فالمراد جعلها بين الهمزة والألف على التخفيف القياسي، وأما مذهب الكسائي فحسن، وبه قرأ عيسى بن عمر وهو كثير في الشعر، وقد تكلمت العرب في مثله بحذف الهمزة للتخفيف كما قالوا: وسله، وكما أنشد أحمد بن يحيى: (وإن لم أقاتل فالبسوني برقعا) بحذف الهمزة، أراد فألبسوني بإثبات الهمزة، وأما الذين قرؤوا بتخفيف الهمزة فالسبب أن الهمزة عين الفعل.

٥. معنى الآية أن الله تعالى قال لمحمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الكفار إن أتاكم عذاب الله في الدنيا وأتاكم العذاب عند قيام الساعة، أترجعون إلى غير الله في دفع ذلك البلاء والضر أو ترجعون فيه إلى الله تعالى؟ ولما كان من المعلوم بالضرورة أنهم إنما يرجعون إلى الله تعالى في دفع البلاء والمحنة لا إلى الأصنام والأوثان، لا جرم قال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ يعني أنكم لا ترجعون في طلب دفع البلية والمحنة إلا إلى الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم وتنسون ما تشركون به، وفيه وجوه:

أ. الأول: قال ابن عباس: المراد تتركون الأصنام ولا تدعونهم لعلكم أنها لا تضر ولا تنفع.

ب. الثاني: قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى أنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيهم، وهذا قول الحسن لأنه قال يعرضون إعراض الناسي، ونظيره قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ﴾ [يونس: ٢٢] ولا يذكرون الأوثان.

٦. هذه الآية تدل على أنه تعالى قد يجيب الدعاء إن شاء وقد لا يجيبه، لأنه تعالى قال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾

٧. سؤال وإشكال: إن قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] يفيد الجزم بحصول الإجابة، فكيف الطريق إلى الجمع بين الآيتين؟ والجواب: أن نقول: تارة يجزم تعالى بالإجابة وتارة لا يجزم، إما بحسب محض المشيئة كما هو قول أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ أو بحسب رعاية المصلحة كما هو قول المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ ولما كان كلا الأمرين حاصلا لا جرم وردت الآيتان على هذين الوجهين.

٨. حاصل هذا الكلام كأنه تعالى يقول لعبدة الأوثان: إذا كنتم ترجعون عند نزول الشدائد إلى الله تعالى لا إلى الأصنام والأوثان، فلم تقدمون على عبادة الأصنام التي لا تنتفعون بعبادتها ألبتة؟ وهذا الكلام إنما يفيد لو كان ذكر الحجة والدليل مقبولا، أما لو كان ذلك مردودا وكان الواجب هو محض التقليد، كان هذا الكلام ساقطا، فثبت أن هذه الآية أقوى الدلائل على أن أصل الدين هو الحجة والدليل.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قراءات ووجوه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ قرأ نافع بتخفيف الهمزتين، يلقي حركة الأولى: على ما قبلها، ويأتي بالثانية: بين بين، وحكى أبو عبيد عنه أنه يسقط الهمزة ويعوض منها ألفا، قال النحاس: وهذا عند أهل العربية غلط عليه، لأن الياء ساكنة والألف ساكنة ولا يجتمع ساكنان، قال مكي: وقد روي عن ورش أنه أبدل من الهمزة ألفا، لأن الرواية عنه أنه يمد الثانية، والمد لا يتمكن إلا مع البدل، والبدل فرع عن

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٢٣.

الأصول، والأصل أن تجعل الهمزة بين الهمزة المفتوحة والألف، وعليه كل من خفف الثانية: غير ورش، وحسن جواز البدل في الهمزة وبعدها ساكن لأن الأول حرف مد ولين، فالمد الذي يحدث مع الساكن يقوم مقام حركة يوصل بها إلى النطق بالساكن الثاني، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين وأتوا بالكلمة على أصلها، والأصل الهمز، لأن همزة الاستفهام دخلت على ﴿رَأَيْتَ﴾ فالهمزة عين الفعل، والياء ساكنة لاتصال المضمر المرفوع بها، وقرأ عيسى بن عمر والكسائي أريتكم) بحذف الهمزة الثانية، قال النحاس: وهذا بعيد في العربية، وإنما يجوز في الشعر، والعرب تقول: أرأيتك زيدا ما شأنه، ومذهب البصريين أن الكاف والميم للخطاب، لا حظ لهما في الاعراب، وهو اختبار الزجاج، ومذهب الكسائي والفراء وغيرهما أن الكاف والميم نصب بوقوع الرؤية عليهما، والمعنى أرأيتم أنفسكم، فإذا كانت للخطاب ـ زائدة للتأكيد ـ كان ﴿إِنْ﴾ من قوله: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ في موضع نصب على المفعول لرأيت، وإذا كان اسما في موضع نصب فـ ﴿إِنْ﴾ في موضع المفعول الثاني، فالأول من رؤية العين لتعديها لمفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين.

٢. ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ المعنى: أو أتتكم الساعة التي تبعثون فيها، ثم قال: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والآية في محاجة المشركين ممن اعترف أن له صانعا، أي أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله، وسترجعون إليه يوم القيامة أيضا فلم تصرون على الشرك في حال الرفاهية!؟ وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب.

٣. ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ إضراب عن الأول وإيجاب للثاني، ﴿إِيَّاهُ﴾ نصب، بـ ﴿تَدْعُونَ﴾ ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي يكشف الضر الذي تدعون إلى كشفه إن شاء كشفه، ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾:

أ. قيل: عند نزول العذاب، وقال الحسن: أي تعرضون عنه إعراض الناسي، وذلك لليأس من النجاة من قبله إذ لا ضرر فيه ولا نفع.

ب. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى وتتركون، قال النحاس: مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه]

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ الكاف والميم عند البصريين للخطاب ولا حظّ لهما في الإعراب، وهو اختيار الزجاج، وقال الكسائي والفراء وغيرهما: إن الكاف والميم في محل نصب بوقوع الرؤية عليهما، والمعنى: أرأيتم أنفسكم، قال في الكشاف مرجّحا للمذهب الأوّل: إنه لا محل للضمير الثاني: يعني الكاف من الإعراب، لأنك تقول: أرأيتك زيدا ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول: أرأيت نفسك زيدا ما شأنه وهو خلف من القول، انتهى، والمعنى: أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ كما أتى غيركم من الأمم ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي القيامة ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ: أي أتدعون غير الله في هذه الحالة من الأصنام التي تعبدونها أم تدعون الله سبحانه.

٢. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد لذلك التوبيخ: أي أغير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين: أن أصنامكم تضرّ وتنفع وأنها آلهة كما تزعمون.

٣. ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ معطوف على منفيّ مقدّر أي لا تدعون غيره بل إياه تخصون بالدعاء ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك.

٤. ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي وتنسون عند أن يأتيكم العذاب ما تشركون به تعالى، أي ما تجعلونه شريكا له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها، ولا ترجون كشف ما بكم منها، بل تعرضون عنها إعراض الناس، وقال الزّجاج: يجوز أن يكون المعنى: وتتركون ما تشركون.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلَ اَرَآيتكُم﴾ أخبروني يا أهل مكّة عن حالتكم العجيبة، لَمّا كان العلم بالشيء سببًا للإخبار عنه، أو كان الإبصار به طريقًا إلى الإحاطة به علمًا وإلى صحَّة الإخبار عنه، استُعملت الصيغة التي هي لطلب العلم، أو لطلب الإبصار في طلب الإخبار لاشتراكهما في الطلب، ففيه مجازان: استعمال (رأى) التي

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٣.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٥٦.

بمعنى عَلِم أو أبصر في الإخبار، واستعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار لأنَّها سبب للإخبار وملزوم له:

أ. قال الفرَّاء: تقول العرب: أرأيتَك، وتريد معنى أَخْبِرْني، كقولك: أرأيتَك إن فعلتُ كذا ماذا تفعل؟ أي: أخبِرني، وتُفْرَد التاء وتُفْتَح ولو ثَنَّيتَ ما بعدها أو جمعته أو خوطب مؤنَّث، تقول: أَرَأَيْتَكما وأَرَأَيْتَكم وأَرَأَيْتكنَّ، لأنَّهم لم يريدوا أن يكون الفعل واقعًا من المخاطب على نفسه، فاكتفوا من علامة المخاطب بذكرها في الكاف وما بعدها، والكاف حرف خطاب، والتاء والكاف وما بعدها لمسمًّى واحد مخاطب.

ب. وقال الفرَّاء: التاء حرف خطاب كتاء (أنت)، والكاف فاعل استعير للرفع، ودعاه لذلك لزوم إفراد التاء؛ لأنَّ العرب إذا ثنَّتها أو جمعتها لم يريدوا معنى أخبِرْني، بل يريدون معنى المفعوليَّة للكاف، تقول: أَرَأَيْتَك على غير هذا الحال؟ أي: أرأيتَ نفسك، فتقول: أرأيتُماكما، وأرأيتُمُوكم وأرأيتكنَّ، وقال شيخه الكسائي: التاء فاعل، والكاف مفعول به، وقال البصريُّون: الكاف حرف خطاب، والتاء قبلها فاعل، ثمَّ إنَّه لا يلزم من كون أَرَأَيْتَ بمعنى أخبِرْني أن يتعدَّى بـ (عَنْ) مثلَه، والمراد مع التعجيب: أَخْبِرُوني إخبارًا يناسب حال الشدَّة.

٢. ﴿إِنَ اتَاكُمْ﴾ بغتة ﴿عَذَابُ اللهِ﴾ في الدُّنيا سابقًا على العذاب المعدِّ لكم في الآخرة، كما أتى من قبلكم، ﴿أَوَ اَتَتْكُم﴾ أي: بغتة، وإنَّما قدَّرتُ بغتة لأنَّ المقام للتخويف، ﴿السَّاعَةُ﴾ ساعة موت الحيوانات كُلِّها، والبعث والحشر وأهوال ذلك والحساب، ـ وجواب (إنْ) محذوف ـ فمن تدعون؟ أَوَدعوتم الله؟ أو فأخبروني عن حالكم؟ وزعم (الرضيُّ) أنَّ الجملة المصدَّرة بهمزة الاستفهام يجوز أن تكون جوابًا، ولا تقترن بالفاء، وعليه فيجوز أن يكون (أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ) جواب (إنْ)، وليس كذلك، وإن سلَّمنا مجيئها جوابًا قُرِنت بالفاء المؤخَّرة عنها، ومفعولَا (رَأَيْتَ) محذوفان، أي: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم، أو اتِّخاذكم غير الله نافعًا أو كاشفًا عنكم الضرَّ، دَلَّ عليهما وعلى الهول قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾، أو هذا سدَّ مسدَّها، وعلِّق بالاستفهام الداخل على (غَيْر)

٣.و(نافع) يسهِّل همزة (رَأَيْتَ) بعد الراء إذا دخلت عليه الهمزة كما هنا، ويبدلها ألفًا محضة إذا لم تدخل الهمزة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ كما قيل عن نافع، (وهو بخلاف ما

في الأيدي من نسخ المغاربة)

٤. والاستفهام تبكيت وإلجاء إلى الإقرار بأنَّهم إنَّمَا يرجعون في دفع العذاب والهول إلى الله لا إلى آلهتهم، ولذلك:

أ. قال أوَّلاً: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنَّها تدفع السوء، أو في أنَّها آلهة، وجواب (إنْ) محذوف، أي: فادعوه، أي: فادعوا غير الله، أخبروني إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعةُ من تدعون؟، على أنَّ (أَغَيْرَ اللهِ) استئناف للتبكيت، أي: أتخصُّون آلهتكم بالدعوة كما هو عادتكم إذا أصابكم ضرٌّ، أم تدعون الله تعالى دونها؟، وقدَّر بعض: فمن تدعون؟، وبعضٌ: دعوتم الله تعالى، وقدَّر بعضٌ: إن أتاكم عذاب الله تعالى فأخبروني عنه أتدعون غير الله تعالى لكشفه؟

ب. وقال ثانيًا: ﴿بَلِ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ في كشف الضُّرِّ في الدنيا، قدِّم للحصر، وأمَّا (غَيْرَ) فقدِّم للاهتمام بآلهتهم على زعمهم أنَّها عظيمة، وأنَّها نافعة، ﴿فَيَكْشِفُ مَا﴾ أي: الضُّر الذي ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: تدعونه ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى كشفه ﴿إِن شَآءَ﴾ كشفه في الدنيا، وأمَّا في الآخرة فلا يكشف عنهم الضرَّ، وأمَّا كشف ضرِّ المحشر فإنَّما هو إلى أعظم منه وهو الخلود في النَّار.

٥. ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: تشركونه، أي: تتركون في الدُّنيا آلهتكم أو تتركون دعاءها، أو تتركون إشراككم، وذلك لِمَا ركِّز في قلوبكم من أنَّ النافع الضارَّ هو الله تعالى ، حتَّى إنَّهم إذا أرادوا ركوب السفينة قال لهم صاحبها: أخلصوا فيخلصون، أو يخلصون ولو لم يأمرهم صاحبها، وكذا إذا هاج البحر يخلصون، وإذا سلموا إلى البرِّ رجعوا إلى كفرهم، كما ذكر الله ٤ ، أو معنى (وَتَنسَوْنَ): تزول عن حافظتكم آلهتُكم لشدَّة الهول، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله ٢ : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، قال جعفر الصادق لزنديق: هل ركبت البحر؟ قال: نعم، قال: هل رأيت أهواله؟ قال: نعم، هاجت يومًا رياح هائلة، فكسرت السفينة وغرق الملَّاحون، وتعلَّقتُ ببعض ألواحها، ثمَّ ذهب عنِّي اللوح، فتلاطمت بي الأمواج حتَّى حصلت بالساحل، فقال جعفر: قد كان اعتمادك على السفينة والملَّاح واللوح وهل رجوت السلامة بعد ذهابهم؟ قال: نعم، قال: ممَّن؟ فسكت، فقال جعفر: إن الله تعالى هو الذي أنجاك، فأسلم الرجل.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . أمر تعالى رسوله بأن يبكتهم بما لا سبيل لهم إلى إنكاره، ببيان أنهم إذا نزلت بهم شدة، فإنهم يفزعون إليه تعالى، لا إلى الأصنام، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ أي: مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني القيامة ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ أي: في كشف العذاب عنكم، وهذا محطّ التبكيت، أي أتخصون آلهتكم بالدعوة إلى رفع تلك الشدة، بل لا تدعونها مع الله أيضا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ مؤكد للتبكيت، كاشف عن كذبهم.

٢ . ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي: تخصون بالدعوة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي: إن شاء كشفه، والتقييد بالمشيئة لبيان أن إجابتهم غير مطّردة، بل هي تابعة لمشيئته تعالى، المبنية على حكم استأثر بعلمها ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: تتركون ما تشركون تركا كليّا لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع، عطف على ﴿تَدْعُونَ﴾، وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما، وتأخر الكشف عنهما، لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١ . هذا قول مستأنف أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يوجهه إلى المشركين مذكرا إياهم بما أودع في فطرتهم من توحيده عز وجل، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم ومخيلاتهم في وقت الرخاء، وما يخف حمله من البلاء، حتى إذا ما نزل بهم ما لا يطاق من اللأواء، وأثار تقطع الأسباب في أنفسهم ضراعة الدعاء، دعوا الله وحده مخلصين له الدين ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وضل عنهم ما كانوا يدعون من الأصنام والأوثان وما وضعت رمزا له من ملك أو إنسان؛ لأن هذا دعاء القلب لا دعاء اللسان، ذكرهم بهذا بعد تذكيرهم بالمشابهة بين أمم الناس وأمم الحيوان وحال من فسدت قواهم الفطرية من الناس، ولذلك قفى عليه بذكر من تركوا التضرع له تعالى حين البأس، وقبل أن يحيط بهم اليأس، فابتلاهم بالسراء والنعماء، بعد البأساء والضراء، فأعقبهم بدل الشكر فرح البطر، فأخذهم

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٥٩.

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٣٤٠

أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى:

٢. ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ هو عند جمهور علماء العربية بمعنى (أخبروني) والتاء ضمير رفع، والكاف حرف خطاب أكد به الضمير لا محل له، وتتغير حركته باختلاف المخاطب دون التاء؛ فتظل مفتوحة في المؤنث والمثنى والجمع، وقد أطالوا القول في المذاهب والآراء في إعرابه ومعناه في كتب اللغة وبعض كتب التفسير، وأقول: إن هذه الصيغة ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ في خطاب الجمع بالكاف والميم لم تذكر إلا في هذه الآية وفي الآية الآتية بعد بضع آيات، وذكرت في خطاب المفرد بالكاف في قوله تعالى من (سورة الإسراء): ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾، وليس في هذه الآية استفهام في الجملة الشرطية، ولكن المفسرين قدروا فيها استفهاما محذوفا، قال البيضاوي كغيره: والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرمت علي بأمري بالسجود له، لم كرمته علي؟ وجعل قوله بعد ذلك: (لئن أخرتني إلى يوم القيامة) إلخ كلاما مبتدأ.

٣. وقد استعمل (أرأيت) و(أرأيتم) ـ بدون كاف ـ مثل هذا الاستعمال في أكثر من عشرين آية أكثرها قد صرح فيه بعدها بالاستفهام، فمنه في جملة غير شرطية قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ومثلها الآيات التي في (سورة الواقعة)، ومنه في الجمل الشرطية ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧] ومثلها الآيات التي في آخر (سورة العلق) والآيات التي في آخر (سورة الملك)، فمن تأمل هذه الآيات كلها لا يظهر له فيها ما قالوه من أن معناها أخبرني وأخبروني إلا بما يأتي من التوجيه، قال القاضي البيضاوي في ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾: استفهام وتعجيب، وقال الراغب في مفرداته بعد الإشارة إلى عدة آيات مصدرة بهذا اللفظ: كل ذلك فيه معنى التنبيه، وقد سدد كل منهما وقارب، والذي أراه جامعا بين الأقوال أن ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ و﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ استفهام عن الرأي أو عن الرؤية التي بمعنى العلم، وأن الاستفهام في هذا الاستعمال للتقرير وأن المراد منه التنبيه والتمهيد لما يذكر بعده من نبأ غريب أو عجيب، أو استفهام تقوم به في المسألة الحجة، وتدحض الشبهة، ولولا أن الاستفهام للتقرير لما كان لقول الجمهور أنه بمعنى طلب الإخبار وجه وجيه، والمفعول الأول ل (أرأيت) أو (أرأيتم) التي تتلوها الجملة الشرطية محذوف يفهم من مضمونها ويقدر بحسب المقام، وقد تسد الجملة الاستفهامية مسد المفعولين.

٤. والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين: أرأيتم أنفسكم كيف تكون حالكم مع من تعبدون ـ أو أرأيتم ما تدعون من دون الله ـ أي أخبروني عن رأيكم أو عن مبلغ علمكم، في ذلك إن أتاكم عذاب الله الذي نزل بمن كان من أقوال الرسل قبلكم، كالريح الصرصر العاتية والصاعقة أو الرجفة القاضية، ومياه الطوفان المغرقة، وحرارة الظلة المحرقة، أو أتتكم بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون الساعة بمقدمات أهوالها أو ما يلي البعث من خزينها ونكالها، أغير الله في هذه الحالة تدعون أم إلى غيره فيها تجأرون؟ إن كنتم صادقين في دعواكم ألوهية هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم أولياء، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء، أو إن كان من شأنكم الصدق فأخبروني أغير الله تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين اللذين يحلو دونهما الأمرين، وذهب بعض المفسرين إلى كون متعلق الاستخبار محذوفا تقديرها: أخبروني إن أتاكم ما ذكر، من تدعون لكشفه، أتخصون غير الله بالدعاء، كما هو شأنكم وقت الرخاء؟ أم تخصونه وحده بالدعاء وتنسون ما اتخذتم من الشركاء إذ يضل عنكم من ترجون من الشفاء؟

٥. ثم أجاب تعالى عنهم مخبرا إياهم عما تقتضيه فطرتهم فقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي لا تدعون في تلك الحالة غيره ـ لا وحده ولا معه ـ بل تخصونه وحده بالدعاء، فيكشف أي يزيل ما تدعونه إلى كشفه إن شاء؛ لأنه هو القادر عليه دون جميع العباد، وتنسون ما تشركون به الآن من الشفعاء والأنداد؛ لأن الفزع إليه سبحانه عند شدة الضيق واليأس من الأسباب مركوز في فطرة البشر، تنبعث إليه بذاتها كما تنبعث إلى طلب الغذاء عند الجوع مثلا، فلا يذهب به ما يتلقى بالتعليم الباطل من مسائل الدين غالبا إلا من تم فساد فطرته، وانتهت سفالة طينته، حتى كان كالأعجم، لا يفهم ولا يفهم، وإنما مثل تعاليم الشرك مع هذه الغريزة الفطرية كمثل ما كان عند المشركين من أحكام الطعام الباطلة مع غريزة التغذي، فإنهم كانوا يحرمون بعض الطيبات كالبحائر والسوائب ويبيحون بعض الخبائث كالميتة والدم المسفوح، فيجنون على غريزة التغذي بأكل هذا والحرمان من ذاك، ثم يأكلون كل شيء عند الاضطرار كذلك يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذون من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم كما يتوجهون إلى الله ويحبونهم كحب الله، ذلك الحب الذي منشؤه التقديس واعتقاد القدرة على النفع ودفع الضر من غير طريق الأسباب، فإنهم عند الشدة ينسونها ويدعون الله وحده، ولهذا الاعتقاد وما يستلزمه من الحب والتعظيم ثلاث درجات:

أ. أسفلها وأعرقها في الجهل أن يعتقد في شيء من المخلوقات أنه هو الإله الذي ينفع ويضر بذاته فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه حتى عند اشتداد البأس باكيا متضرعا؛ لأن غريزة الإيمان بالسلطة الغيبية حصرت عنده في هذا المخلوق أو هذه المخلوقات كما تلقى عن قومه، وهو لا يفكر في كون ذلك معقولا أو غير معقول.

ب. ويلي هذه الدرجة أن يعتقد أن الإله نفسه قد حل في بعض المخلوقات واتحد بها كما تحل الروح في البدن وتدبره فيكونان بذلك شيئا واحدا، والفصل بين هذه الدرجة وما قبلها هو أن هذه مفرغة في قالب من النظريات الفلسفية، مزينة بحلي وحلل من التخيلات الشعرية، وتلك ساذجة غفل من الفلسفة الجدلية عطل من المزينات الخيالية، ويشتركان في أن منتحليهما يعبدون ذلك المخلوق المدرك بالحواس ويدعونه تضرعا وخفية حتى عند اشتداد الكرب والبأس.

ج. ووراءهما الدرجة الثالثة التي هي أرقى درجات الشرك إذ هي أرقها وأضعفها، وهي أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، القادر على كل شيء، المتصرف في كل شيء ولا يستطيع أحد من دونه شيئا، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده يقربونهم إليه زلفى ويشفعون لهم عنده، فهو لأجلهم يعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويغفر ويرحم، ويوجد ويعدم، وهذه هي الدرجة التي ارتقت إليها وثنية مشركي قريش، فقد حكى الله تعالى عنهم في كتابه أنهم يقرون بأنه هو الخالق لكل شيء الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وأنهم يقولون فيما اتخذوه من دونه من الأولياء ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾، وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ فلما كانوا يعتقدون أن لهم تأثيرا ووساطة في أفعال الله تعالى ـ كدفع الضر وجلب النفع ـ يدعونهم ويعظمونهم لأجلها، كان دعاؤهم وتعظيمهم إياهم عبادة، إذ لا معنى للعبادة إلا هذا، ولما كانوا عندهم غير مستقلين بذلك من دون الله، وكان الله تعالى ـ بزعمهم ـ غير فاعل ذلك بمحض إرادته الأزلية من دون شفاعتهم ووساطتهم ـ سموا شركاء لله.

٦. وأما التوحيد الخالص فهو الإيمان الجازم بأن الله يفعل ما يشاء ويختار بمحض إرادته الأزلية المنزهة عن تأثير الحوادث فيها، وأن جميع الخلق مسخرون بإرادته وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئا إلا في دائرة الأسباب التي جعلها بينهم شرعا، وأن الوساطة بين الله تعالى وعباده محصورة في تبليغ رسالته إليهم دون تصرفه فيهم، وأن شفاعة الآخرة لله وحده، يأذن لمن

شاء إذا شاء بها شاء من الدعاء لمن يشاء ممن ارتضى، ومن دلائل ذلك قوله تعالى لخاتم رسله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ ﴿قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾

٧. ولما كانت تلك الوساطة الشركية وهمية لا أثر لها في الوجود، وإنما هي تقاليد موروثة كان أولئك الأذكياء جديرين بأن ينسوها إذا جد الجد وعظم الخطب كالحالتين اللتين ذكرهما الله تعالى في هذه الآية أو ما دونهما كالحالة التي بينها الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ ومثلها في (سورة يونس) الآية ٢٢ وقال تعالى في (سورة الإسراء): ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ فسروا الضلال هنا بالنسيان فهو بمعنى الآية التي نفسرها، وأما ضلال آلهتهم عنهم في الآخرة فقد ذكر في آيات كثيرة في سور متفرقة، ويراد ببعضها غيبتها عنهم بعدم وجودها معهم هنالك وحرمانهم مما كانوا يرجون من شفاعتها، لا غيبتها عن قلوبهم وخواطرهم كما هو المراد هنا، وروي عن بعض المفسرين أن المراد بنسيانهم إياها جعلها بمنزلة المنسي بعدم دعائها، فقد ذكر الرازي في النسيان قولين، قال: الأول: قال ابن عباس: المراد تتركون الأصنام ولا تدعونهم لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع (الثاني) قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى أنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيهم، وهذا قول الحسن؛ لأنه قال: يعرضون عنه إعراض الناسي) اهـ، أقول: لم ينقل ابن جرير ولا ابن كثير في تفاسيرهما ولا السيوطي في الدر المنثور شيئا في الآية عن ابن عباس ولا الحسن ولا غيرهما من مفسري الصحابة والتابعين.

٨. سؤال وإشكال: وقد استشكل المفسرون ما دلت عليه الآية من جواز كشف عذاب الاستئصال وعذاب الساعة عن المشركين بدعائهم لمخالفتهم لما عرف من سائر النصوص مع قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ

الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ والجواب: وأجيب بأن ما مضت به سنته تعالى في الأمم وما دلت عليه النصوص إنما يدل على عدم وقوع هذا الكشف لا على عدم جوازه، وقد علق كشف ذلك هنا بمشيئته تعالى، فهو يقول إنه يكشف ذلك إن شاء؛ لأن مشيئته نافذة حتى في كشف عذاب الاستئصال وأهوال الساعة، وهما النوعان اللذان لا تتعلق قدر المخلوقين الموهوبة لهم من الله تعالى بشيء من أمرهما؛ لأنهما فوق الأسباب التي سخرها الله تعالى لخلقه، ولكنه تعالى لا يشاء ذلك؛ لأنه ينافي حكمته وتقديره الذي جرت به سننه في الأمم، ويمكن أن يجاب أيضا بأن المراد بإتيان عذاب الله ظهور أماراته ومقدماته، وبالساعة القيامة الصغرى أي الموت بظهور علاماته ونزول سكراته، والإيمان يقبل قبل وصول عذاب الاستئصال إلى مستحقيه بالفعل وقبل بلوغ الروح الحلقوم من المحتضر، وقيل: إن بعض كروب الساعة تكشف حتى عن الكفار ككرب طول الوقوف بالشفاعة العظمى، ولكن هذا لا يصح جوابا؛ لأنه لا يكون بدعائهم.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١ . بعد أن بين سبحانه للمشركين أن علمه محيط بما في الأرض والسماء، وأن عنايته نعم كل ما درج على الأرض أوطار في الهواء، وأن أمم الحيوان مشابهة لأمم الإنسان، وقد أوتيت من الإلهام والمعرفة ما تميز به بين ما ينفعها وما يضرها أمر نبيه أن يوجه إليهم هذا السؤال مذكّرا لهم بما أودع في فطرتهم من توحيده عز اسمه ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم وقت الرخاء، وارتفاع اللأواء، حتى إذا جدّ الجدّ ونزل بهم ما لا يطاق حمله من الشدائد دعوا الله مخلصين له الدين: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] وضلّ عنهم ما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان، وما وضعوا رمزا له من ملك أو إنسان.

٢ . ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين العادلين بالله الأوثان والأصنام، أخبروني إن أتاكم عذاب الله كالذي نزل بمن قبلكم من الأمم الذين كذبوا بالرسل، فقد هلك بعضهم بريح صرصر عاتية، وبعض آخر

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٢٢.

بالصاعقة، أو بمياه الطوفان المغرقة، أو جاءتكم الساعة بأهوالها وخزيها ونكالها، وبعثتم لموقف الحساب - أغير الله في هذه الأحوال تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أم إلى غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء، إن كنتم صادقين في دعواكم ألوهية هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم فيكم شفعاء؟ فأخبروني أغير الله تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين؟

٣. ثم أجاب عن ذلك بقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة - بمستجيرين بشيء غير الله من وثن أو صنم إذا اشتد بكم الهول، بل تدعونه وحده، وبه تستغيثون، وإليه تفزعون، دون كل شيء غيره فيفرج عنكم ويزيل البلاء عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه إن شاء ذلك، لأنه وحده القادر على كل شيء والمالك لكل شيء دون ما تدعونه إلها من صنم أو وثن، لأن الفزع إليه سبحانه عند الشدائد مما ركز في فطرة البشر تنبعث إليه بذاتها كما تنبعث إلى الماء عند العطش، فلا يذهب به ما يتلقّى بالتعليم الباطل من مسائل الدين، فهم به يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذونه من الأنداد الأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم كما يتوجهون إلى الله ويحبونهم كحب الله، وما منشأ ذلك التقديس إلا اعتقاد القدرة على النفع والضر من غير طريق الأسباب المعروفة، لكنهم عند الشدائد وتراكم الأهوال والكروب ينسونهم ويدعون الله وحده، ولهذا الحب والتعظيم ثلاث درجات:

أ. أعرقها في الجهل أن يعتقد المرء في شيء من المخلوقات أنه إله ينفع ويضر بذاته فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه.

ب. المرتبة الوسطى أن يعتقد أن الإله قد حل في بعض المخلوقات واتحد بها كما تحلّ الروح في البدن وتدبّره، فيكونان شيئا واحدا.

ج. أضعف درجاته أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء ولكن له وسطاء بينه وبين عبادة يقرّبونهم إليه زلفى ويشفعون لهم عنده، فهو لأجلهم يعطى ويمنع ويضر وينفع، وهذه هي الدرجة التي كان عليها مشركو قريش، فقد حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى﴾ - هؤلاء شفعاؤنا عند الله)

٤. والتوحيد الخالص هو الإيمان بأن الله يفعل ما يشاء ويختار، وأن جميع الخلق مسخرون لإرادته

وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئا إلا في دائرة الأسباب التي شرعها لعباده، وأن الوساطة بينه وبين عباده محصورة في تبليغ الرسول رسالته إليهم دون تصرفه فيهم وأن شفاعة الآخرة لله وحده يأذن بها إن شاء لمن شاء ممن ارتضى، يرشد إلى ذلك قوله تعالى لخاتم رسله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾، وقد بين سبحانه أن تلك الوساطة الشّركيّة تنسى عند اشتداد الكروب والأهوال فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هنا ـ في هذه الموجة ـ يواجه السياق القرآني فطرة المشركين ببأس الله، بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه بأس الله.. حين تتعرى من الركام في مواجهة الهول، وحين يهزها الهول فيتساقط عنها ذلك الركام! وتنسى حكاية الآلهة الزائفة؛ وتتجه من فورها إلى ربها الذي تعرفه في قرارتها تسأله وحده الخلاص والنجاة! ثم يأخذ بأيديهم ليوقفهم على مصارع الغابرين من أسلافهم، وفي الطريق يريهم كيف تجري سنة الله، وكيف يعمل قدر الله، ويكشف لأبصارهم وبصائرهم عن استدراج الله لهم، بعد تكذيبهم برسل الله، وكيف قدم لهم الابتلاء بعد الابتلاء ـ الابتلاء بالبأساء والضراء، ثم الابتلاء بالرخاء والنعماء ـ وأتاح لهم الفرصة بعد الفرصة، لينتبهوا من الغفلة، حتى إذا استنفدوا الفرص كلها، وغرتهم النعمة بعد أن لم توقظهم الشدة، جرى قدر الله، وفق سنته الجارية وجاءهم العذاب بغتة: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٢. وما يكاد هذا المشهد الذي يهز القلوب هزا يتوارى، حتى يجيء في أعقابه مشهد آخر وهم يتعرضون لبأس الله أيضا، فيأخذ سمعهم وأبصارهم، ويختم على قلوبهم، ثم لا يجدون إلها غير الله يرد

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٨٧.

عليهم سمعهم وأبصارهم وإدراكهم، وفي مواجهة هذين المشهدين الرائعين الهائلين يتحدث إليهم عن وظيفة الرسل.. إنها البشارة والنذارة.. ليس وراء ذلك شيء.. ليس لهم أن يأتوا بالخوارق، ولا أن يستجيبوا لمقترحات المقترحين! إنما هم يبلغون، يبشرون وينذرون، ثم يؤمن فريق من الناس ويعمل صالحا فيأمن الخوف وينجو من الحزن، ويكذب فريق ويعرض فيمسه العذاب بهذا الإعراض والتكذيب، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.. فهذا هو المصير..

٣. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، هذا طرف من وسائل المنهج الرباني في خطاب الفطرة الإنسانية بهذه العقيدة يضم إلى ذلك الطرف الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة وفيما قبلها وما بعدها كذلك في سياق السورة.

٤. لقد خاطبها هناك بما في عوالم الأحياء من آثار التدبير الإلهي والتنظيم؛ وبما في علم الله من إحاطة وشمول، وهو هنا يخاطبها ببأس الله؛ وبموقف الفطرة إزاءه حين يواجهها في صورة من صوره الهائلة، التي تهز القلوب، فيتساقط عنها ركام الشرك؛ وتتعرى فطرتها من هذا الركام الذي يحجب عنها ما هو مستقر في أعماقها من معرفتها بربها، ومن توحيدها له أيضا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

٥. إنها مواجهة الفطرة بتصور الهول.. عذاب الله في الدنيا عذاب الهلاك والدمار؛ أو مجيء الساعة على غير انتظار.. والفطرة حين تلمس هذه اللمسة؛ وتتصور هذا الهول؛ تدرك ـ ويعلم الله سبحانه أنها تدرك ـ حقيقة هذا التصور، وتهتز له؛ لأنه يمثل حقيقة كامنة فيها، يعلم بارئها سبحانه أنها كامنة فيها ويخاطبها بها على سبيل التصور؛ فتهتز لها وترتجف وتتعرى!

٦. وهو يسألهم ويطلب إليهم الجواب بالصدق من ألسنتهم؛ ليكون تعبيرا عن الصدق في فطرتهم: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق، المطابق لما في فطرتهم بالفعل، ولو لم تنطق به ألسنتهم: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، بل تدعونه وحده؛ وتنسون شرككم كله!.. إن الهول يعرّي فطرتكم ـ حينئذ ـ فتتجه بطلب النجاة إلى الله وحده، وتنسى أنها أشركت به أحدا، بل تنسى هذا الشرك ذاته.. إن معرفتها بربها هي الحقيقة المستقرة

فيها؛ فأما هذا الشرك فهو قشرة سطحية طارئة عليها، بفعل عوامل أخرى، قشرة سطحية في الركام الذي ران عليها، فإذا هزها الهول تساقط هذا الركام، وتطايرت هذه القشرة، وتكشفت الحقيقة الأصيلة، وتحركت الفطرة حركتها الفطرية نحو بارئها، ترجوه أن يكشف عنها الهول الذي لا يد لها به، ولا حيلة لها فيه..

٧. هذا شأن الفطرة في مواجهة الهول؛ يواجه السياق القرآني به المشركين.. فأما شأن الله سبحانه فيقرره في ثنايا المواجهة، فهو يكشف ما يدعونه إليه ـ إن شاء ـ فمشيئته طليقة، لا يرد عليها قيد، فإذا شاء استجاب لهم فكشف عنهم ما يدعون كله أو بعضه؛ وإن شاء لم يستجب، وفق تقديره وحكمته وعلمه.

٨. هذا هو موقف الفطرة من الشرك الذي تزاوله أحيانا، بسبب ما يطرأ عليها من الانحراف، نتيجة عوامل شتى، تغطي على نصاعة الحقيقة الكامنة فيها.. حقيقة اتجاهها إلى ربها ومعرفتها بوحدانيته.. فما هو موقفها من الإلحاد وإنكار وجود الله أصلا؟

٩. نحن نشك شكا عميقا ـ كما قلنا من قبل ـ في أن أولئك الذين يمارسون الإلحاد في صورته هذه صادقون فيما يزعمون أنهم يعتقدونه، نحن نشك في أن هناك خلقا أنشأته يد الله، ثم يبلغ به الأمر حقيقة أن ينطمس فيه تماما طابع اليد التي أنشأته؛ وفي صميم كينونته هذا الطابع، مختلطا بتكوينه متمثلا في كل خلية وفي كل ذرة! إنما هو التاريخ الطويل من العذاب البشع، ومن الصراع الوحشي مع الكنيسة، ومن الكبت والقمع، ومن إنكار الكنيسة للدوافع الفطرية للناس مع استغراقها هي في اللذائذ المنحرفة.. إلى آخر هذا التاريخ النكد الذي عاشته أوربا قرونا طويلة.. هو الذي دفع الأوربيين في هذه الموجة من الإلحاد في النهاية.. فرارا في التيه، من الغول الكريه.

١٠. ذلك إلى استغلال اليهود لهذا الواقع التاريخي؛ ودفع النصارى بعيدا عن دينهم؛ ليسلس لهم قيادهم، ويسهل عليهم إشاعة الانحلال والشقاء فيهم، وليتيسر لهم استخدامهم ـ كالحمير ـ على حد تعبير (التلمود) و(بروتوكولات حكماء صهيون).. وما كان اليهود ليبلغوا من هذا كله شيئا إلا باستغلال ذلك التاريخ الأوربي النكد، لدفع الناس إلى الإلحاد هربا من الكنيسة.

١١. ومع كل هذا الجهد الناصب، المتمثل في محاولة (الشيوعية) ـ وهي إحدى المنظمات اليهودية ـ لنشر الإلحاد، خلال أكثر من نصف قرن، بمعرفة كل أجهزة الدولة الساحقة، فإن الشعب الروسي نفسه

لم يزل في أعماق فطرته الحنين إلى عقيدة في الله.. ولقد اضطر (ستالين) الوحشي ـ كما يصوره خلفه خروشوف! ـ أن يهادن الكنيسة، في أثناء الحرب العالمية الثانية، وأن يفرج عن كبير الأساقفة، لأن ضغط الحرب كان يلوي عنقه للاعتراف للعقيدة في الله بأصالتها في فطرة الناس.. مهما يكن رأيه ورأي القليلين من الملحدين من ذوي السلطان حوله.

١٢. ولقد حاول اليهود ـ بمساعدة (الحمير) الذين يستخدمونهم من الصليبيين ـ أن ينشروا موجة من الإلحاد في نفوس الأمم التي تعلن الإسلام عقيدة لها ودينا، ومع أن الإسلام كان قد بهت وذبل في هذه النفوس.. فإن الموجة التي أطلقوها عن طريق (البطل) أتاتورك في تركيا.. انحسرت على الرغم من كل ما بذلوه لها ـ وللبطل ـ من التمجيد والمساعدة، وعلى كل ما ألفوه من الكتب عن البطل والتجربة الرائدة التي قام بها..

١٣. ومن ثم استداروا في التجارب الجديدة يستفيدون من تجربة أتاتورك، ألا يرفعوا على التجارب الرائدة راية الإلحاد، إنما يرفعون عليها راية الإسلام، كيلا تصدم الفطرة، كما صدمتها تجربة أتاتورك، ثم يجعلون تحت هذه الراية ما يريدون من المستنقعات والقاذورات والانحلال الخلقي، ومن أجهزة التدمير للخامة البشرية بجملتها في الرقعة الإسلامية.

١٤. غير أن العبرة التي تبقى من وراء ذلك كله، هي أن الفطرة تعرف ربها جيدا، وتدين له بالوحدانية، فإذا غشي عليها الركام فترة، فإنها إذا هزها الهول تساقط عنها ذلك الركام كله وتعرت منه جملة، وعادت إلى بارئها كما خلقها أول مرة.. مؤمنة طائعة خاشعة.. أما ذلك الكيد كله فحسبه صيحة حق تزلزل قوائمه، وترد الفطرة إلى بارئها سبحانه، ولن يذهب الباطل ناجيا، وفي الأرض من يطلق هذه الصيحة، ولن يخلو وجه الأرض مهما جهدوا ممن يطلق هذه الصيحة.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تسفيه

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٧٦.

وتجريم لهؤلاء الذين أشركوا بالله، وضلّوا عن سبيله.. فإن هؤلاء الضالّين المشركين، إذا كربتهم الكروب، وأحاط بهم البلاء، وعاينوا الموت، تنبهت فيهم قوى الإدراك التي كانوا قد عطلوها، ووضحت لهم الحقيقة التي ضلّوا الطريق إليها، فرأوا أنه لا إله إلا الله وحده، وأنه هو الذي يملك دفع هذه الشدائد، ويقدر عليها.. هنالك يدعون الله، ويضرعون إليه، أن يكشف الضرّ، ويرفع البلاء!

٢. وتلك هي حال الإنسان، في الشدائد يجتمع رأيه، وتتفتح ملكاته، فيرى الواقع على حقيقته، فإذا زالت الشدة، وانفسح الأمل، أعطى زمامه لهواه، وأسلم وجوده لشيطانه، وعاد إلى ما كان فيه من ضلال وكفر.. ﴿ وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لله أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨]

٣. ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾.. الاستفهام يراد به التقرير.. أي أجيبوا على هذا السؤال الذي أنا سائلكم عنه.. وأصل هذا الفعل (أرأيتم) مخاطبا به هؤلاء المشركين خطابا مباشرا.. ولكن لما كان بين هؤلاء المشركين وبين عقولهم حواجز من الضلالات والمنكرات، فقد جاء خطابهم على تلك الصورة، الفريدة، التي تجمع بين مخاطبين، والمخاطب واحد، حتى لكأنه ذاتان، أو ذات منقسمة على نفسها.

٤. ﴿إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾.. المراد بالعذاب هنا هو ما يأخذهم به الله من عقاب شديد في الدنيا، كما أخذ به الضالين المكذبين من قبلهم..

٥. عطف قوله تعالى: ﴿أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ على قوله تعالى: ﴿عَذَابَ الله﴾ لبيان أن هذا العذاب الذي يندرون به، هو عذاب شديد، أشبه بأهوال يوم القيامة.. ومن أجل هذا، كان وقوع المشركين تحت وطأة هذا العذاب داعية لهم إلى أن ينخلعوا عما كانوا فيه من غفلة، واستخفاف، بما يشغلهم من مطالب الحياة الجسدية، التي أعطوها وجودهم كله..، وأن يولّوا وجوههم إلى الله.

٦. ففي مواجهة الشدائد القاسية التي تتهدد وجود الإنسان، وتشرف به على الهلاك، تنحلّ قوى الجسد، وتتبخر الأهواء المتسلطة عليه، وهنا يجد العقل سماء صافية تسطع فيها أنواره، كما تجد الروح مجالا للحركة والعمل، وإذا الإنسان بعقله وقد تخلص من الضباب الذي انعقد عليه، وبروحه التي انطلقت من قيود هذا الجسد المعربد، وإذا الإنسان هنا، يعاين الحقيقة، ويرى الحق، فيؤمن، إن كان كافرا، ويستيقن، إن كان مؤمنا.

٧. وهذا أشبه بحال من يعالج سكرات الموت، فإنه يرى ما وراء المادة من شواهد الحياة الآخرة، فيؤمن إن كان كافرا، حيث لا ينفعه إيمانه، ويتوب إن كان عاصيا، حين لا تنفعه التوبة.. وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى لفرعون، وقد آمن بعد أن أدركه الغرق، وأشرف على الموت: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] ويقول سبحانه فيمن يتوب وهو في مواجهة الموت: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]

٨. ﴿أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ﴾ هو استفهام تقريري يراد به أخذ اعتراف هؤلاء المشركين بالله، وجوابهم في تلك الحال التي يسألون فيها، وهم في أمن عافية، لا يذكرون معها تلك الحال التي يكونون فيها تحت قهر البلاء والشدة، أو في مواجهة أهوال القيامة ـ جوابهم في تلك الحال، لا يكون إلا جحودا للهّ، وكفرا به، واستغناء عنه.

٩. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إشارة إلى هذا الجواب الذي سيعطونه في تلك الحال، وأنه ليس الجواب الذي يعطونه لو كانوا في مواجهة المحنة والبلاء، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ كاشفا عن حالهم تلك، وأنهم لو صدقوا أنفسهم، وتدبروا الموقف وتصوّروه على حقيقته، لكان جوابهم: لن ندعو غير الله، ولن نشرك به أحدا.. ولكنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا.. ولهذا ضرب الله على الجواب المنتظر منهم، وتولّى سبحانه الجواب عنهم، وألزمهم به إلزام من يؤمنون بالله، ويقدرونه حق قدره، فقال تعالى:

١٠. ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي إنكم مع ما تقولون الآن من كذب وشرك، وأنتم في سعة من أمركم، ستقولون هذا القول الحق، وأنتم في يد البلاء والمحنة..

١١. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي أنه سبحانه هو الذي سيكشف الضرّ الذي نزل بكم، وصرعتم به إليه، على حين هرب من وجوهكم، وفرّ من بين أيديكم، تلك الآلهة الباطلة التي كنتم تتعاملون معها، وتركنون في أموركم إليها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ لأنها تفاهات لا تذكر في ساعة الجدّ، ولا يتعامل معها سفيه حين يثوب إليه عازب عقله.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أمر الله سبحانه رسوله الكريم أن يقول للمشركين: أخبروني أن أتاكم عذاب الله كالذي نزل بالذين كذبوا رسلهم، أو جاءكم الموت بسكراته والقيامة بأهوالها، أتدعون في هذه الحال ما كنتم تعبدون من الأصنام والأوثان التي زعمتم انها تكشف عنكم الخزي والعذاب؟ والقصد من مجموع هذه الآية أن الكافرين يتبرؤون غدا مما أشركوا، ويلجئون إلى الله بعد أن يتبين لهم انه لا حول ولا قوة إلا به وحده لا شريك له.

٢. ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، بعد أن سألهم: أغير الله تدعون يوم الهول الأكبر قرر الجواب بقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ وهذا هو الجواب الذي تؤمن به وتجيب دنيا وآخرة فطرة الله التي فطر الناس عليها.. وليس معنى فطرة الله أن الإنسان يدرك الخالق تلقائيا ومن غير دليل، كلا، وإلا لم يكفر أحد بالله، وإنما معنى هذه الفطرة أن الله أودع في الإنسان غريزة الاستعداد لتفهم الدلائل الدالة على وجوده، وهذا الاستعداد لا يفارق الإنسان بحال، ومن كفر فإنما يكفر مقصرا ومتهاونا بالإعراض عن النظر في الدلائل والبينات، فاستحق العذاب لهذا الإهمال، إذ لا فرق أبدا في نظر العقل بين من ترك العمل بعلمه متعمدا، وبين من ترك الحق واتبع الباطل جهلا بهما، مع قدرته على معرفتهما والتمييز بين الهدى والضلال، ولكنه ترك تهاونا واستخفافا، أجل قد يحتجب هذا الاستعداد، وهذا الإدراك الفطري وراء ستار من التقليد والتربية والشهوات، تماما كما تحتجب الشمس وراء السحاب، فيخيّل للجاهل المحجوب انه كافر بالله لعدم الدليل، والدليل كامن في ذاته وفطرته التي فطره الله عليها، ويوم القيامة تزول الحجب الطارئة، وتظهر الحقيقة واضحة للعيان، ولا يبقى مجال للشك والإنكار.

٣. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾، ضمير اليه يعود إلى الكشف، وهو مصدر متصيد من يكشف، والمعنى أنهم يدعون الله إلى كشف العذاب عنهم: ﴿اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾، والله سبحانه يكشف عنهم أن شاء، وان لم يشأ لم يكشف ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي انكم أيها المشركون تتركون يوم القيامة دعوة الأصنام التي كنتم تعبدونها في الدنيا، وتدعون الله وحده، حيث يظهر كل شيء على حقيقته.

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٨٧.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ استئناف ابتدائي يتضمّن تهديدا بالوعيد طردا للأغراض السابقة، وتخلّله تعريض بالحثّ على خلع الشرك إذ ليس لشركائهم نفع بأيديهم، فذكّروا بأحوال قد تعرض لهم يلجئون فيها إلى الله، وألقي عليهم سؤال أيستمرون على الإشراك بالله في تلك الحالة وهل يستمرّون من الآن على الشرك إلى أن يأتيهم العذاب أو تأتيهم القيامة حين يلجئون إلى الإيمان بوحدانيته، ولات حين إيمان.

٢. وافتتح هذا التهديد بالأمر بالقول اهتماما به وإلّا فإنّ معظم ما في القرآن مأمور الرسول ﷺ بأن يقوله لهم، وقد تتابع الأمر بالقول في الآيات بعد هذه إلى قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] اثنتي عشرة مرّة، وورد نظيره في سورة يونس.

٣. ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ تركيب شهير الاستعمال، يفتتح بمثله الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به، وهمزة الاستفهام فيه للاستفهام التقريري، وجملة في موضع مفعوله الثاني، وقد يجيء في تلك الجملة ما يعلق فعل الرؤية عن العمل، هذا هو الوجه في تحليل هذا التركيب، وبعض النحاة يجعل تلك الجملة سادّة مسدّ المفعولين تفصّيا من جعل ضمائر الخطاب مفاعيل إذ يجعلونها مجرّد علامات خطاب لا محلّ لها من الإعراب، وذلك حفاظا على متعارف قواعد النحو في الاستعمال الأصلي المتعارف مع أنّ لغرائب الاستعمال أحوالا خاصّة لا ينبغي غضّ النظر عنها إلّا إذا قصد بيان أصل الكلام أو عدم التشويش على المتعلّمين، ولا يخفى أنّ ما ذهبوا إليه هو أشدّ غرابة وهو الجمع بين علامتي خطاب مختلفتين في الصورة ومرجعهما متّحد، وعلى الوجه الذي اخترناه فالمفعول الثاني في هذا التركيب هو جملة: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾، وإنّما تركت التاء على حالة واحدة لأنّه لّما جعلت ذات الفاعل ذات المفعول إعرابا وراموا أن يجعلوا هذا التركيب جاريا مجرى المثل في كونه قليل الألفاظ وافر المعنى تجنّبوا ما يحدثه الجمع بين ضميري خطاب مرفوع ومنصوب من الثقل في نحو أرأيتما كما، وأرأيتكم وأرأيتنّكنّ، ونحو ذلك، سلكوا هذه الطريقة

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٩٣.

الغريبة فاستغنوا بالاختلاف حالة الضمير الثاني عن اختلاف حالة الضمير الأول اختصارا وتخفيفا، وبذلك تأتّى أن يكون هذا التركيب جاريا مجرى المثل لما فيه من الإيجاز تسهيلا لشيوع استعماله استعمالا خاصّا لا يغيّر عنه، فلذلك لا تكسر تلك التاء في خطاب المؤنّث ولا تضمّ في خطاب المثنّى والمجموع، وعن الأخفش: أخرجت العرب هذا اللفظ من معناه بالكلية فألزمته الخطاب، وأخرجته عن موضوعه إلى معنى (أمّا) بفتح الهمزة، فجعلت الفاء بعده في بعض استعمالاته كقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣] فما دخلت الفاء إلّا وقد أخرجت (أرأيت) لمعنى (أمّا)؛ وأخرجته أيضا إلى معنى (أخبرني) فلا بد بعده من اسم المستخبر عنه؛ وتلزم الجملة بعد الاستفهام، وقد يخرج لهذا المعنى وبعده الشرط وظرف الزمان، ه، في (الكشاف): متعلّق الاستخبار محذوف، تقديره: إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة من تدعون، ثم بكتهم بقوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾، أي أتخصّون آلهتكم بالدعوة أم تدعون الله دونها بل إيّاه تدعون ه، وجملة: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ هي المفعول الثاني لفعل ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾، واعلم أنّ هذا استعمال خاصّ بهذا التركيب الخاصّ الجاري مجرى المثل، فأمّا إذا أريد جريان فعل الرؤية العلمية على أصل بابه فإنّه يجري على المتعارف في تعدية الفعل إلى فاعله ومفعوليه، فمن قال لك: رأيتني عالما بفلان، فأردت التحقّق فيه تقول: أرأيتك عالما بفلان، وتقول للمثنّى: أرأيتماكما عالمين بفلان، وللجمع أرأيتموكم وللمؤنثة أرأيتك ـ بكسر التاء ـ.

٤. وجملة: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ معترضة بني مفعولي فعل الرؤية، وهي جملة شرطية حذف جوابها لدلالة جملة المفعول الثاني عليه، وإتيان العذاب: حلوله وحصوله، فهو مجاز لأن حقيقة الإتيان المجيء وهو الانتقال من موضع بعيد إلى الموضع الذي استقر فيه مفعول الإتيان، فيطلق مجازا على حصول شيء لم يكن حاصلا، وكذلك القول في إتيان الساعة سواء.

٥. ووجه إعادة فعل ﴿أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ مع كون حرف العطف مغنيا عن إعادة العامل بأن يقال: إن أتاكم عذاب الله أو الساعة، هو ما يوجّه به الإظهار في مقام الإضمار من إرادة الاهتمام بالمظهر بحيث يعاد لفظه الصريح لأنّه أقوى استقرارا في ذهن السامع، والاهتمام هنا دعا إليه التهويل وإدخال الروع في ضمير السامع بأن يصرّح بإسناد هذا الإتيان لاسم المسند إليه الدّالّ على أمر مهول ليدلّ تعلّق هذا الفعل بالمفعول على تهويله وإراعته، وقد استشعر الاحتياج إلى توجيه إعادة الفعل هنا الشيخ محمد بن عرفة في

درس تفسيره، ولكنّه وجّهه بأنّه إذا كان العاملان متفاوتين في المعنى لكون أحدهما أشدّ يعاد العامل بعد حرف العطف إشعارا بالتفاوت، فإنّ إتيان العذاب أشدّ من إتيان الساعة (أي بناء على أنّ المراد بعذاب الله عذاب الآخرة) أو كان العاملان متباعدين، فإن أريد بالساعة القيامة وبعذاب الله المحق والرزايا في الدنيا فيعقبه بعد مهلة تامّة، وإن أريد بالساعة المدّة فالمحق الدنيوي كثير، منه متقدّم ومنه متأخّر إلى الموت، فالتقدّم ظاهر ه، وفي توجيهه نظر إذ لا يشهد له الاستعمال.

٦. وإضافة العذاب إلى اسم الجلالة لتهويله لصدوره من أقدر القادرين، والمراد عذاب يحصل في الدنيا يضرعون إلى الله لرفعه عنهم بدليل قوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾، فإنّ الدعاء لا يكون بطلب رفع عذاب الجزاء، وهذا تهديد وإنذار.

٧. والساعة: علم بالغلبة على ساعة انقراض الدنيا، أي إن أدركتكم الساعة.

٨. وتقديم ﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ على عامله وهو﴿تَدَّعُونَ﴾ لتكون الجملة المستفهم عنها جملة قصر، أي أتعرضون عن دعاء الله فتدعون غيره دونه كما هو دأبكم الآن، فالقصر لحكاية حالهم لا لقصد الردّ على الغير، وقد دلّ الكلام على التعجّب، أي تستمرّون على هذه الحال، والكلام زيادة في الإنذار.

٩. وجملة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مستأنفة، وجوابها محذوف دلّ عليه قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ الذي هو بمعنى التقرير، فتقدير الجواب: إن كنتم صادقين فأنتم مقرّون بأنّكم لا تدعون غير الله، ذكّرهم في هذه الآية وألجأهم إلى النظر ليعلموا أنّه إذا أراد الله عذابهم لا تستطيع آلهتهم دفعه عنهم، فهم إن توخّوا الصدق في الخبر عن هذا المستقبل أعادوا التأمّل فلا يسعهم إلّا الاعتراف بأنّ الله إذا شاء شيئا لا يدفعه غيره إلّا بمشيئته، لأنّهم يعترفون بأنّ الأصنام إنّما تقرّبهم إلى الله زلفى، فإذا صدقوا وقالوا: أندعو الله، فقد قامت الحجّة عليهم من الآن لأنّ من لا يغني في بعض الشدائد لا ينبغي الاعتماد عليه في بعض آخر.

١٠. ولذلك كان موقع ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ عقب هذا الاستفهام موقع النتيجة للاستدلال، فحرف (بل) لإبطال دعوة غير الله، أي فأنا أجيب عنكم بأنّكم لا تدعون إلّا الله، ووجه تولّي الجواب عنهم من السائل نفسه أنّ هذا الجواب لمّا كان لا يسع المسئول إلّا إقراره صحّ أن يتولّى السائل الجواب عنه، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِّ﴾ في هذه السورة.

١١. وتقديم المفعول على ﴿تَدَّعُونَ﴾ للقصر وهو قصر إفراد للردّ على المشركين في زعمهم أنّهم

يدعون الله ويدعون أصنامهم، وهم وإن كانوا لم يزعموا ذلك في حال ما إذا أتاهم عذاب الله أو أتتهم الساعة إلّا أنّهم لمّا ادّعوه في غير تلك الحالة نزّلوا منزلة من يستصحب هذا الزعم في تلك الحالة أيضا.

١٢. ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عطف على ﴿تَدَّعُونَ﴾، وهذا إطماع في رحمة الله لعلّهم يتذكّرون، ولأجل التعجيل به قدّم ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وكان حقّه التأخير، فهو شبيه بتعجيل المسرّة، ومفعول: ﴿تَدَّعُونَ﴾ محذوف وهو ضمير اسم الجلالة، أي ما تدعونه.

١٣. والضمير المجرور بـ (إلى) عائد على ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ أي يكشف الذي تدعونه إلى كشفه، وإنّما قيّد كشف الضرّ عنهم بالمشيئة لأنّه إطماع لا وعد.

١٤. وعديّ فعل ﴿تَدَّعُونَ﴾ بحرف (إلى) لأنّ أصل الدعاء نداء فكأنّ المدعو مطلوب بالحضور إلى مكان اليأس.

١٥. ومفعول ﴿شَاءَ﴾ محذوف على طريقة حذف مفعول فعل المشيئة الواقع شرطا، كما تقدّم آنفا.

١٦. في قوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إشارة إلى مقابله، وهو إن لم يشأ لم يكشف، وذلك في عذاب الدنيا، وأما إتيان الساعة فلا يكشف إلّا أن يراد بإتيانها ما يحصل معها من القوارع والمصائب من خسف وشبهه فيجوز كشفه عن بعض الناس، وممّا كشفه الله عنهم من عذاب الدنيا عذاب الجوع الذي في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٠ ـ ١٦] فسّرت البطشة بيوم بدر.

١٧. وجملة: ﴿فَيَكْشِفُ﴾ معترضة بين المعطوفين، وقوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ عطف على ﴿إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، أي فإنّكم في ذلك الوقت تنسون ما تشركون مع الله، وهو الأصنام.

١٨. وقوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يجوز أن يكون النسيان على حقيقته، أي تذهلون عن الأصنام لما ترون من هول العذاب وما يقع في نفوسهم من أنّه مرسل عليهم من الله فتنشغل أذهانهم بالذي أرسل العذاب وينسون الأصنام التي اعتادوا أن يستشفعوا بها، ويجوز أن يكون مجازا في الترك والإعراض، أي وتعرضون عن الأصنام، إذ لعلّهم يلهمون أن يستدلّون في تلك الساعة على أنّ غير الله لا يكشف عنهم من ذلك العذاب شيئا، وإطلاق النسيان على الترك شائع في كلام العرب، كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، أي نهملكم كما أنكرتم لقاء الله هذا اليوم، ومن قبيله قوله

تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]

١٩. وفي قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ دليل على أنّ الله تعالى قد يجيب دعوة الكافر في الدنيا تبعا لإجراء نعم الله على الكفّار، والخلاف في ذلك بين الأشعري والماتريدي آئل إلى الاختلاف اللفظي.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ استعمال قرآني أراد العلماء أن يخرجوه على مقتضى قواعدهم النحوية، من حيث الإعراب، وكيف يكون وضع الحروف، وكلمة أرأيت في القرآن والاستعمال العربي تستعمل للتنبيه والتحريض على الرؤية والنظر، فهو استفهام للتنبيه مؤداه أرأيت كذا فإن لم تكن رأيته فانظره، فهو تنبيه، وحث على الإمعان فيه والتأمل، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ فيه جمع بين خطابين أحدهما مفرد، وظاهره أنه خطاب للنبي ﷺ وهو التاء، وهو فاعل الرؤية أو على حد قول النحويين التاء فاعل، والثاني: خطابهم بالكاف، والظاهر الذى يبدو بادى الرأي أن الخطاب لهم بالقصد؛ ولذلك جاء بعده ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ﴾، وكان خطاب النبي ﷺ لتنبيهه ﷺ إلى خطابهم وإجابتهم، ويكون المؤدى بيان ضعفهم أمام الحوادث، والمسلمات وصغارهم واستغاثتهم بالله وحده، وأنهم لا يدعون سواه، وتنبيه النبي ﷺ إلى ذلك، والكاف للمشركين، وفى التاء تنبيه إلى ما يكون منهم من إجابة.

٢. والخطاب موجه إليهم للإجابة عن سؤال معين إن أتاكم عذاب الله الدنيوي من زلزال مدمر أو خسف يجعل عالي الأرض سافلها، أو عاصف شديد، أو فاجأتكم الساعة أي القيامة ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ أي أتدعون غير الله من أحجار تجتلبونها أو نار توقدونها وتعبدونها، أو شمس تقدسونها؟ لا أحد غير الله سبحانه، إذن فلم تعبدون غير الله!؟ وهم لا يملكون ضرا ولا نفعا.

٣. وعلق سبحانه وتعالى الإجابة على الصدق لكى يكون الجواب لا تمويه فيه بل يكون صادرا عن حقيقة واقعة لا عن أوهام يتوهمونها، ويحسبونها، بل عن عقل مدرك صادق خالص من الأوهام

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٩٤.

والأهواء والأخيلة الفاسدة.

٤. ولقد أكد سبحانه الإجابة السليمة بقوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، انتهى الكلام السامي بقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي تتحرون الحق وتدركونه، وقد أجاب سبحانه وتعالى عنهم بالإضراب عن تفكير أوهامهم وهو أنهم لا يدعون سواى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ قيل للإضراب الانتقالي عن تفكيرهم وأوهامهم، وتقديم المفعول على الفعل والفصل بقوله: ﴿إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ للقصر، أي لا تدعون إلا إياه، إذا لا تفكرون في غيره، وذلك دليل على أن المشركين مهما يضلوا يتجه تفكيرهم في الشدائد إلى القوة الخفية الخالقة في هذا الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى خالق الكون ومسيره، فهو مجيب المضطر إذا دعاه، وأن الله يكشف أي يزيل الضر، وكأن الشدة غطاء غامر محيط، وإزالته كشفه، ففي هذا التعبير استعارة فيها تشبيه حال إزالة الشر، بحال كشف غطاء غامر مؤلم، بجامع إزالة الضر في كل، وإظهار السلامة، والفاء هنا لترتيب الفعل على الدعاء وسرعة الإجابة.

٥. وإن الله تعالى يكشف الضر إذا لم يكن في ذلك مفسدة وكان فيه خير، وكانت الرحمة تفرضه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أن يتفضل عليكم بهذا الكشف، ويرحمكم ولم يكن في هذا مضرة، ولا إغراء بالفساد، ولا إيذاء لغيره، فعمله تعالى في دائرة الحكمة والنفع، وإن لم يكن في ذلك إلزام، فإنه سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء]

٦. وظاهر أن كشف الشدة إنما يكون في شدائد الدنيا، وهي التي تتعلق بها المشيئة إن شاء أنزلها وأبقاها لحكمة، وإن شاء أزالها وأنظرهم؛ كما كان يفعل مع قريش، أما ما يجيء بعد الساعة من حساب وعقاب المشركين فإن الله لا يكشفه عن المشركين، إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء]، فلا يمكن بمقتضى وعيده سبحانه أن تكون عقوبة الشرك يوم القيامة موضع كشف أو إزالة.

٧. وقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ الكلام متعلق فيه بالمشيئة، وأريد به السبب، ذلك أن السياق يستفاد منه أن الكشف عن الدعاء، والحقيقة أن الكشف عن الضر الذى سبب الدعاء والله سبحانه وتعالى كاشفه، ومزيل ضرهم، وإنهم في هذا الحال يتركون أحجارهم؛ لأنهم في هذه الحال

تستيقظ مداركهم، فلا يلتفتون إلى أوثانهم إذ يرونها لا تنفع ولا تضر، بل ربما يكون البلاء حاطما لها، ومنكسا، فيتركونها أو أن شدة الهول تجعلهم ينسون ما علق بأوهامهم عنها ولا يكون أمامهم إلا الحقائق الثابتة.

٨. ويكون هذا النسيان سببا للترك وعدم الالتفات؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي تغيب عن ذاكرتكم فتتركونها لأنها لا حول لها ولا قوة، ولا يذكرون إلا خالق الكون، ورب الوجود كله، وهو الحي القيوم، ولكن نسيانهم قد يستمر، وقد يذكرونها بعد الشدة.

٩. ويجب أن نذكر هنا أن المشركين من قريش لم تكن قد ذهبت بهم اللجاجة في المادة إلى ألا يؤمنوا بالروح، فهم مع إشراكهم بالله تعالى كانوا يحسون بمقتضى الفطرة أن هناك قوة روحية تسير الأمور الكونية؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت]، اللهم ألهمنا شكرك ولا تنسنا ذكرك.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ إلى آخر الآيتين لفظ ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ بهمزة الاستفهام وصيغة المفرد المذكر الماضي من الرؤية وضمير الجمع المخاطب، أخذه أهل الأدب بمعنى أخبرني، قال الراغب في المفردات: (ويجري (أرأيت) مجرى أخبرني فيدخل عليه الكاف ويترك التاء على حالته في التثنية والجمع والتأنيث، ويسلط التغيير على الكاف دون التاء، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾)

٢. وفي الآية تجديد احتجاج على المشركين، وإقامة حجة على بطلان شركهم من وجه، وهو أنها تفرض عذابا آتيا من جانب الله أو إتيان الساعة إليهم ثم تفرض أنهم يدعون في ذلك من يكشف العذاب عنهم على ما هو المغروز في فطرة الإنسان أنه يتوجه بالمسألة إذا بلغت به الشدة نحو من يقدر أن يكشفها عنه، ثم تسألهم أنه من الذي تدعونه وتتوجهون إليه بالمسألة إن كنتم صادقين؟ أغير الله تدعون من

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٨٦.

أصنامكم وأوثانكم التي سميتموها من عند أنفسكم آلهة أم إياه تدعون؟ وهيهات أن تدعوا غيره وأنتم تشاهدون حينئذ أنها محكومة بالأحكام الكونية مثلكم لا ينفعكم دعاؤها شيئا، بل تنسون هؤلاء الشركاء المسمين آلهة لأن الإنسان إذا أحاطت به البلية وهزهزته الهزاهز ينسى كل شيء دون نفسه إلا أن في نفسه رجاء أن ترتفع عنه البلية، والرافع الذي يرجو رفعها منه هو ربه، فتنسون شركاءكم وتدعون من يرفعها من دونهم وهو الله عز اسمه فيكشف الله سبحانه ما تدعون كشفه إن شاء أن يكشفه، وليس هو تعالى بمحكوم على الاستجابة ولا مضطرا إلى الكشف إذا دعي بل هو القادر على كل شيء في كل حال، فإذا كان الله سبحانه هو الرب القدير الذي لا ينساه الإنسان وإن نسي كل شيء إلا نفسه ويضطر إلى التوجه إليه ببعث من نفسه عند الشدائد القاصمة الحاطمة دون غيره من الشركاء المسمين آلهة فهو سبحانه هو رب الناس دونها.

٣. فمعنى الآية ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَأَيْتكُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِّ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ فرض إتيان عذاب من الله ولا ينكرونه، وفرض إتيان الساعة ولم يعبأ بإنكارهم لظهوره ﴿أَغَيْرَ اللهِّ تَدْعُونَ﴾ لكشفه، وقد حكى الله في كلامه عنهم سؤال كشف العذاب في الدنيا ويوم القيامة جميعا لما أن ذلك من فطريات الإنسان ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وجئتم بالنصفة بل ﴿إِيَّاهُ﴾ الله سبحانه دون غيره من أصنامكم ﴿تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ من العذاب ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أن يكشفه كما كشف لقوم يونس، وليس بمجبر ولا مضطرا إلى القبول لقدرته الذاتية (وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ) من الأصنام والأوثان على ما في غريزة الإنسان أن يشتغل عند إحاطة البلية به عن كل شيء بنفسه، ولا يهم إلا بنفسه لضيق المجال به أن يتلهى بما لا ينفعه، فاشتغاله والحال هذه بدعاء الله سبحانه ونسيانه الأصنام أصرح حجة أنه تعالى هو الله لا إله غيره ولا معبود سواه.

٤. وبما تقدم من تقرير معنى الآية يتبين:

أ. أولا: أن إتيان العذاب أو الساعة، وكذا الدعاء لكشفه مفروضان في حجة الآية، والمطلوب بيان أن المدعو حينئذ هو الله عز اسمه دون الأصنام، وأما أصل الدعاء عند الشدائد والمصائب، وأن للإنسان توجها جبليا عندما تطل عليه البلية ويتقطع عنه كل سبب إلى من يكشفها عنه فهو حجة أخرى غير هذه الحجة، والمطلوب بهذه الحجة ـ وهي التي في هذه الآية ـ التوحيد وبتلك الحجة إثبات الصانع من غير نظر

إلى توحيده، وإن تلازم المطلوبان.

ب. وثانيا: أن تقييد قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾، بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ لبيان إطلاق القدرة:

• فلله سبحانه أن يكشف كل شديدة حتى الساعة التي لا ريب فيها، فإن قضاءه الحتم لأمر من الأمور وإن كان يحتمه ويوجبه لكنه لا يسلب عنه القدرة على الترك فله القدرة المطلقة على ما قضى به، وما لم يقض به ومثل الساعة في ذلك كل عذاب غير مردود وأمر محتوم إن يشأ يأت به وإن لم يشأ لم يأت به وإن كان يشاء دائما ما قضى به قضاء حتما ووعده وعدا جزما والله لا يخلف الميعاد فافهم ذلك.

• وله سبحانه أن لا يجيب دعوة أي داع دعاه وإن عرف نفسه بأنه مجيب، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ووعد الاستجابة لداعيه وعدا بتيا، فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [المؤمن: ٦٠] فإن وعد الاستجابة لا يسلب عنه القدرة على عدم الاستجابة وإن كان يستجيب دائما كل من دعاه بحقيقة الدعاء، وتجري على ذلك سنته صراطا مستقيما لا تخلف فيه.

• سؤال وإشكال: ومن هنا يظهر فساد ما استشكل على الآية بأن مدلولها يخالف ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة أن الساعة لا ريب فيها ولا محيص عن وقوعها وأن عذاب الاستئصال لا مرد له، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [المؤمن: ٥٠] والجواب: وجه الفساد أن الآية لا تدل على أزيد من أن الله سبحانه أن يفعل ما يشاء وأنه قادر على كل شيء وأما أنه يشاء كل شيء ويفعل كل شيء فلا دلالة فيها على ذلك ولا ريب أن قضاءه الحتمي بوقوع الساعة أو بعذاب قوم عذاب استئصال لا يبطل قدرته على خلافه فله أن يخالف إن شاء وإن كان لا يخلف الميعاد ولا ينقض ما أراد، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ فهو دعاؤهم في جهنم لكشف عذابها وتخفيفه عنهم، ومن المعلوم أن الدعاء مع تحتم الحكم وفصل القضاء لا يتحقق بحقيقته فإن سؤال أن لا يبعث الله الخلق أو لا يعذب أهل جهنم فيها من الله سبحانه بمنزلة أن يسأل الله سبحانه أن لا يكون هو الله سبحانه فإن من لوازم معنى الألوهية أن يرجع إليه الخلق على حسب أعمالهم فلمثل هذه الأدعية صورة الدعاء فقط دون حقيقة معناها، وأما لو تحقق الدعاء بحقيقته بأن يدعى حقيقة ويتعلق ذلك الدعاء بالله حقيقة كما هو ظاهر قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية، فإن ذلك لا يرد البتة، والدعاء على هذا النعت لا يدع الكافر

كافرا ولو حين الدعاء كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فما في قوله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ دعاء منهم وهم على الكفر فإن الثابت من ملكة الكفر لا يفارقهم في دار الجزاء وإن كان من الجائز أن يفارقهم في دار العمل بالتوبة والإيمان.

• فدعاؤهم لكشف العذاب عنهم يوم القيامة أو في جهنم ككذبهم على الله يوم القيامة بقولهم - كما حكى الله - ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ولا ينفع اليوم كذب غير أنهم اعتادوا ذلك في الدنيا ورسخت رذيلتهم في نفوسهم فبرزت عنهم آثاره يوم تبلى السرائر، ونظير أكلهم وشربهم وخصامهم في النار، ولا غنى لهم في شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، فهذا كله من قبيل ظهور الملكات فيهم.

• وما قبل الآية يؤيد ما ذكرناه من أن دعاءهم ليس على حقيقته وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [المؤمن: ٥٠] فإن مسألتهم خزنة النار أن يدعو الله لهم في تخفيف العذاب ظاهر في أنهم آيسون من استجابة دعائهم أنفسهم، والدعاء مع اليأس عن الاستجابة ليس دعاء ومسألة حقيقية إذ لا يتعلق الطلب بما لا يكون البتة.

ج. وثالثا: أن النسيان في قوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ حقيقة معناه على ما هو المشهود من حال الإنسان عندما تغشاه الشدائد والخطوب إذ يشتغل بنفسه وينسى كل أمر دونها إلا الله سبحانه فلا موجب للالتزام بما ذكره بعضهم: أن المراد بقوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ تعرضون عنها إعراض من نسي الشيء عنه، وإن كان لا مانع من ذلك لكونه من المجازات الشائعة لكلمة النسيان، وقد استعمل في القرآن النسيان بمعنى الإعراض عن الشيء وعدم الاعتناء به كثيرا كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١ . هذه دعوة قرآنية للتفكير في الاتجاه السليم الذي يقود الناس إلى الإيمان وخلاصتها أن مشكلة الكافرين والمشركين، هي أنهم يواجهون قضية العقيدة مواجهة اللّامبالاة، فلا يجدون ضرورة للتأمّل، فيمتدون في حالة الاسترخاء الفكري طلبا للراحة من عناء التغيير الفكري، ويمعنون في الضلال فيما يسوّل لهم الشيطان من الإخلاص لعقيدة الآباء والأجداد، فيعبدون الأصنام ويقدّسونها ما شاءت لهم الأهواء ذلك.. وفجأة يتغير كل شيء من حولهم، عندما يحيط بهم عذاب الله فيما ينزله من بلاء، وفي ما يهدّدهم من أسباب الهلاك، وعند ما تقترب منهم ساعة الموت، فماذا يحدث؟ هل يلجؤون إلى الأصنام التي يعبدونها لتدفع ذلك عنهم!؟

٢ . إن القرآن ينفي ذلك، لأن هذا التقديس لا يعيش في الأغوار العميقة للإنسان، بل يطفو على الطبقة السطحيّة من تفكيره، فإذا اهتزت تلك الطبقة اهتزّت معها كل القناعات الطارئة، وبدأ التفكير العميق يتحرك في مستوى الحقيقة الصارخة.. فهذه الأصنام لا تملك الحياة لنفسها فكيف تملكها للآخرين، ولا تدفع الضُّرَّ عن وجودها، فكيف تدفعه عن الآخرين!؟

٣ . ويتساءل الإنسان بفطرته التي تنزع إلى الالتجاء نحو القوّة المطلقة التي هي الملجأ والملاذ في مطلق الأحوال، ولكل شيء إلى أين؟ وينفتح في قلبه النور الإلهي في إشراقة الإيمان العميق.. فهذا هو الله خالق كل شيء ومرجع كل شيء وتنطلق الدعوات في جوّ اليقظة، ابتهالا وخشوعا وخضوعا إليه، وتغيب الأصنام الحجرية والخشبية والبشرية في ضباب النسيان، وهنا يأتي الدور الإلهيّ من خلال ما تقتضيه حكمته العالمة بأسرار الأشياء والأشخاص، فيكشف البلاء، ويستجيب الدعاء إن شاء أو يهمل كل ذلك؛ لأن الموقف الإشراكيّ والعصيانيّ قد وصل إلى الحدّ الذي لا مجال معه للرحمة الإلهيّة.

٤ . سؤال وإشكال: والآن.. لماذا يثير القرآن أمامهم هذه الرؤية؟ والجواب: إننا نحسب أن القضية تتجه إلى الإيحاء للمشركين والكافرين بإعادة النظر بقناعاتهم، وذلك بدراسة الأسس الأوليّة التي استندوا إليها في حركتهم الفكرية والعمليّة قبل أن يواجهوا الحقيقة الصعبة في موقف لا يملكون معه أيّة فرصة

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٩٩.

للتراجع والتخلّص.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تنطلق الآيات الأخرى لتوضّح الأسلوب الإلهيّ الذي يمثل سنّة بارزة في طريقة هداية الله للناس، فهذه هي أحداث التاريخ، وما عاشته الأمم الماضية التي مرّت عليها البأساء والضرّاء وفي ما واجهته من مشاكل وآلام، فقد أراد الله لهم أن يثير شعورهم العميق بالحاجة إليه، ويبعدهم عن جوّ الغفلة واللامبالاة الذي تستدعيه حالة الأمن والطمأنينة والاسترخاء الذاتي للنعيم وللراحة اللاهية، فإذا هزّتهم المصائب والفواجع، شعروا بمسألة اللجوء إلى الله، كحاجة عميقة، تهزّ أعماقهم بالتضرّع، بوحي من حاجتهم حالة الفطرية الطبيعية، ولكنهم لم يستجيبوا لذلك، لأنهم كانوا خاضعين للعقدة الشيطانية المستحكمة، التي حوَّلت قلوبهم إلى حجارة صماء لا تتفاعل بالمؤثرات الروحيّة التي تهز المشاعر، وتوقظ الإحساس، وزيّنت لهم أعمالهم فتبدلت الصورة عندهم إلى غير حقيقتها..

٢. وهكذا امتدّت بهم الحياة في نطاق الأجواء اللاهية المنفتحة على الرخاء، فعاشوا معها فيما يشبه النشوة التي أنستهم كل شيء وفجأة تبدّل كل شيء واهتزّت الساحة، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فإذا هم يجرّون الحسرة تلو الحسرة، واليأس كل اليأس.

٣. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولم يبق منهم أحد ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الذي يفتح لعباده كل أبواب الخير والنجاة.. ولكنهم لا يستجيبون له، فيظلمون أنفسهم، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

٤. سؤال وإشكال: قد نتساءل، عن هذه البأساء والضراء التي يأخذ الله بها عباده، بعيدة عن أسبابها الطبيعية الكامنة في حركة الكون والحياة؟ أم أنها منطلقة منها؟ وإذا كانت كذلك فما علاقة الموضوع بالتذكير والموعظة ونحو ذلك؟ والجواب: نجيب عن ذلك، بأنّ الله أجرى الأمور على السنن الحتمية في الوجود.. ولكنه أراد لها أن تخلق ـ بحسب طبيعتها ـ حالة وجدانية في داخل الإنسان، فتذكّره بالحاجة إلى

---

(١) من وحى القرآن: ٩/ ١٠٠.

الارتباط به، على أساس أنه مصدر القوة، ومرجع كل شيء لأن الله جعل منابع الوعي الإنساني لقضايا الإيمان خاضعة في وجودها ونموّها واستمرارها لما أبدعه الله في الكون من دلائل عظمته، ومن أسرار خلقه ومواقع رحمته وحكمته.. فإذا أخذ الإنسان بإيحاءاتها أمكنه أن يلتقي بالله من أوسع الأبواب، أما إذا أغفلها وتناساها وابتعد عن خطّها الأصيل، فإنه سيلتقي بالعذاب والهلاك في الدنيا والآخرة.

٥. سؤال وإشكال: ربما يطرح سؤال كيف تحدّث الله في الآيتين السابقتين عن رجوع هؤلاء الكافرين إليه، ودعائهم له بما عداه، ونسيانهم لما يحرك مشيئته ـ تبعا لحكمته ـ في كشف العذاب عنهم، بينما يتحدث في الآيات الأخيرة عن رفضهم التضرع له والعودة إليه، بفعل قسوة قلوبهم، وتزيين الشيطان لهم أعمالهم؟ هل هذا إلا تناقض في المضمون؟ وهل الحلّ هو في التفريق بين الناس الذي عاشوا مع الرسول ﷺ والناس الذين عاشوا قبل ذلك؟ والجواب:

أ. إننا نستبعد ذلك، لأن الظاهر من أجواء الآيات، أن الحديث عن الخط الشركي هو في نماذجه السابقة واللاحقة، باعتبار أنهم فريق واحد في المنطلقات والممارسات، وقد يجيب البعض، بأن الآيتين السابقتين تتحدثان عن الحالة الفطرية العفوية التي يتحرك فيها الإنسان بطريقة لا شعورية تماما كما هي اليقظة السريعة التي تندفع بعيدا عن الغفلة لتلتقي بالله بشكل عابر من دون أن ينعكس ذلك على الخط العملي الطويل، بينما تتحدث الآيات الأخيرة عن الموقف الحاسم المستمر الذي يمثل الابتعاد عن خط الضلال واختيار السير في خط الهدى، مما يريد الله لهم الأخذ به فلا يستجيبون له، ولكن هذا غير ظاهر، فإن الآية واردة في رفض هؤلاء للمبدأ وهو الإقبال على الله بالدعاء والتضرع إليه ليكشف عنهم ما حلّ بهم.

ب. وربما كان الأولى بالجواب، أن الآية الأولى واردة في الحديث عن أن الله هو وحده الذي يمكن أن يدفع عنهم العذاب في مقام تأكيد الوحدانية الفطرية التي تفرض عليهم التحرك في هذا الاتجاه إذا التفتوا إلى حركيّتها في داخل النفس لأنها تعيش في العمق من الذات حتى إذا ما أذهلتها الصدمات استيقظت وخرقت كل الحواجز الموضوعة فوقها كمثل القشرة السطحية، فإذا بالله ـ وحده ـ هو الذي يهزّ كل كيان الإنسان ليفزع إليه، وهذا ما يوحي به قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فقد يكون المراد من الصدق وعي الحقيقة الفطرية التوحيدية التي تختزنها عقولهم وقلوبهم، أمَّا الآيات الأخيرة فإنها تتحدث عن الواقع

الذي عاشه هؤلاء في التمرد على الفطرة والبعد عن إيحاءاتها انطلاقا من الحواجز التي توجب قسوة القلب وتزيين العمل.

٦. سؤال وإشكال: هناك ملاحظة أخرى، وهي أن الله يتحدث في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يعني أن الله يمنحهم الخير الكبير الواسع بعد نسيانهم له، فكيف نفسر ذلك؟ والجواب: ربما كانت القضية ابتلاء آخر يختبرهم الله به ليرى هل يشكرون فيرجعون إليه أو يكفرون فيستمرون في ضلالهم، وربما كانت استدراجا لامتحانهم في التجربة الجديدة التي يواجهونها بالرخاء بعد أن عاشوا وسقطوا أمام التجربة السابقة بالبلاء:

أ. وقد جاء في الدر المنثور في حديث رسول الله ﷺ: (إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية والآية التي بعدها.

ب. وقد جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السّلام في نهج البلاغة: (يا بن آدم إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره)

ج. وقد روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السّلام قال: إن قنبرا مولى أمير المؤمنين عليه السّلام دخل على الحجاج بن يوسف، فقال له: ما الذي كنت تلي من علي بن أبي طالب؟ فقال: كنت أوضّيه، فقال له: ما يقول إذا فرغ من وضوئه، فقال: كان يتلو هذه الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فقال الحجاج: أظنه كان يتأولها علينا؟ قال: نعم)

٧. وهكذا نجد في هذه الآيات إيقاظا وتوعية وإيحاء لكل الكافرين والظالمين والمستكبرين أن لا يعتدوا بما لديهم من المال والجاه والقوّة والسلطة والرزق والمتاع، فإنّ ذلك قد يكون نوعا من البلاء الذي يستدرجهم الله من خلاله لينظر إليهم هل يرجعون إليه أو يستمرون في طغيانهم يعمهون، فليس لهم أن يطمئنوا إلى ذلك أو ينفتحوا عليه كما لو كان ذلك دليل خير وعلامة سعادة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم الشرك، فإذا كنتم عند هول العذاب أو الساعة لا تدعون غيره، تبيَّن: أن إشراككم ليس عن اعتقاد أن شركاءكم يسمعون دعاءكم ويكشفون عنكم الضر، وإنما هو التقليد الأعمى والتعصب.

٢ . ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي بل الله وحده تدعون لكشف الضر ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ ولا يشاء كشف الساعة ولا كشف العذاب إذا كان قد نزل وعاينوه، ولكنه قادر على ذلك فلو شاء لكشفه، فهي تدل: على أنه هو الذي يسمع الدعاء، ويكشف العذاب إن شاء؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] فهو الذي ينبغي أن يُدعى ويُخشى ويُرجى ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ لاشتغال أذهانكم بطلب النجاة ممن يقدر عليها ويسمع الدعاء.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١ . يعود الكلام مرّة أخرى إلى المشركين، ويدور الاستدلال حول وحدانيّة الله وعبادة الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجة والمؤلمة التي تمر بهم في الحياة، ويستشهد بضمائرهم، فهم في مثل تلك المواقف ينسون كل شيء ولا يجدون غير الله ملجأ لهم.

٢ . يأمر الله سبحانه نبيّه أن: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول علماء العربية: إنّ (ك) في (أرأيتك) و(كم) في (أرأيتكم) ليستا اسما ولا ضميرا، ولكنّهما حرفا خطاب يفيدان التوكيد، والفعل في مثل هذه الحالات يكون مفردا إنّما الافراد والتثنية والجمع تظهر على حرف الخطاب هذا، ففي (أرأيتكم) المخاطبون جماعة ولكن الفعل (رأيت) مفرد، و(كم) هو الذي يدل على أنّ المخاطبين جماعة، وقيل: أنّ هذا التعبير من حيث المعنى يساوي قولك: (أخبرني) أو (أخبروني)، ولكن الحقّ أنّ الجملة تحتفظ بمعناها الاستفهامي، و(أخبروني) ملازم للمعنى، لا المعنى

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤٣.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٨٠.

نفسه، والمعنى يساوي (أعلمتم)؟

٣. الحالة النفسية التي تصوّرها هذه الآية لا تنحصر في المشركين، بل في كل إنسان حين يتعرّض إلى الشدة وحوادث الخطر وقد لا يلجأ الإنسان في الحوادث الصغيرة والمألوفة إلى الله، إلّا أنّه في الحوادث الرهيبة والمخيفة ينسى كل شيء وإن ظل في أعماقه يحس بأمل في النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوة غامضة خفية، وهذا هو التوجه إلى الله وحقيقة التوحيد، حتى المشركون وعبدة الأصنام لا يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها في مثل هذه الظروف تماما، فتقول الآية: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾

٤. الاستدلال المطروح في هاتين الآيتين هو الاستدلال على التوحيد الفطري الذي يمكن الاستفادة منه في مبحثين: الأوّل: في إثبات وجود الله، والثّاني: في إثبات وحدانيته، لذلك استشهدت الرّوايات الإسلامية والعلماء المسلمون بهاتين الآيتين للرد على منكري وجود الله، وكذلك للردّ على المشركين.

٥. سؤال وإشكال: من الملاحظ أنّ الاستدلال المذكور تطرق إلى (قيام الساعة)، وقد يقال: إنّ المخاطبين لا يؤمنون بالقيامة أصلا، فكيف يمكن طرح مثل هذا الاستدلال أمام هؤلاء؟ والجواب:

أ. أوّلا: إنّ هؤلاء لم يكونوا جميعا ينكرون يوم القيامة، فقد كان فريق منهم يؤمنون بنوع من البعث.

ب. وثانيا: قد يكون المعنى بالساعة هي ساعة الموت، أو الساعة الرهيبة التي تنزل فيها على الإنسان مصيبة تضعه على شفا الهلاك.

ج. وثالثا: قد يكون هذا تعبيرا مجازيا عن الحوادث المخيفة، فالقرآن يكرر القول بأنّ يوم القيامة يقترن بسلسلة من الحوادث المروعة، كالزلازل والعواصف والصواعق وأمثالها.

٦. سؤال وإشكال: إنّنا نعلم أنّ يوم القيامة وما يصحبه من وقائع وأمور حتمية الوقوع، ولا يمكن تغييرها إطلاقا، فكيف تقول الآية: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾؟ فهل القصد هو إظهار قدرة الله، أم أنّ هناك قصد آخر؟ والجواب: لا يعني هذا أنّ الله سوف يلغي بالدعاء البعث وقيام الساعة أصلا، بل الآية تقصد القول بأنّ المشركين ـ وحتى غير المشركين عند مشاهدتهم الحوادث

الرهيبة عند قيام الساعة وبالأهوال والعذاب الذي ينتظرهم، يستولي عليهم الفزع والجزع، فيدعون الله ليخفف عنهم تلك الأهوال، وينجيهم من تلك الأخطار، فدعاؤهم يكون لنجاتهم من أهوال يوم القيامة الرهيبة، لا للإلغاء ذلك اليوم من الأساس.

٢٢. الابتلاء والإمهال وقسوة القلوب

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، خوف السلطان، وغلاء السّعر[(١)].

أبو مالك:

روي عن أبي مالك غزوان الغفاري (ت ١٠٠ هـ) أنّه قال: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾، يعني: كي[(٢)].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ البلاء، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ هذه الأمراض، والجوع، ونحو ذلك[(٣)].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قال عاب الله عليهم القسوة عند ذلك، فتضعضعوا[(٤)]،لعقوبة الله ـ بارك الله فيكم ـ، ولا

---

(١) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٩.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٩.

(٤) الضّعضعة: الخضوع والتذلل والفقر.

تعرّضوا لعقوبة الله بالقسوة؛ فإنّه عاب ذلك على قومٍ قبلكم[1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الرسل ﴿إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فكذّب بهم قومهم، كما كذّب بك كفار مكة، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لكي ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى ربهم، فيتوبون إليه[3].

٣. روي أنّه قال: يقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ يعني: الشدة والبلاء ﴿تَضَرَّعُوا﴾ إلى الله، وتابوا إليه؛ لكشف ما نزل بهم من البلاء، ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ﴾ يعني: جفّت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، فلم تلن، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك، والتكذيب[4].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[5]:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، الأمم الذين كانوا قبله هو: مثل ما كان من أمة إبراهيم، وأمة إسماعيل، وأمة موسى، وأمة عيسى، ومن كان مثلهم من الأمم الخالية، الذين أرسل الله سبحانه إليهم رسله معذرين ومنذرين، ومعلمين من الجهالة، ومنقذين من الهلكة، فلما كانت منهم القسوة والصدود، والميل عن الحق والعنود ـ أخذهم الله عز وجل بالبأساء والضراء، والبأساء هو: ما يكون من عقابه، وانتقامه من أعدائه، وما كان يحل بهم من خسف وقذف بالحجارة، وقتل بالسيف، ومسخ وإهلاك؛ فكان هذا من البأساء، ومثله كثير، والضراء هو: من جنس البأساء، ومن الضراء أيضا: نقص الأموال والأنفس والثمرات، والجوع والحسرات؛ فكل ذلك ليرجعوا

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٥) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٨٢.

إلى الله عز وجل ورسله، ويصدقوا بالحق ويؤمنوا به، فمنهم من يؤمن، فيحكم له بالنجاة، ومنهم من يستعصم في كفره، ويدوم على شرته، فينزل به البلاء، وتتراصف عليه النقم، فيكون ذلك عبرة لمن بعدهم، وإهانة وتخويفا لهم، وردعا للمتخلف، ومانعا من الزيغ والتكلف، فيكون فيما نبههم الله به، وعرف به مسيئهم ـ نعمة وفلاحا، وسلامة وصلاحا، وما ربك بظلام للعبيد.

٢. سؤال وإشكال: سألت عن قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فقلت: هل كان ينفعهم التضرع إذا رأوا البأس؟ والجواب: لولا أن الله سبحانه قد علم أن تضرعهم ينفعهم ـ ما قال تضرعوا، فأعلمهم بقسوة قلوبهم، ولو تضرعوا وتابوا لقبل توبتهم، ورفع العذاب عنهم؛ ولكن قست قلوبهم، فلم يتضرعوا، ولا إلى الله سبحانه من ذنوبهم رجعوا؛ بل مضوا في خطاياهم، وأصروا على كفرهم، حتى أنزل الله سبحانه العذاب بهم، وكان ذلك من تزيين الشيطان لهم، فاستحقوا من الله عز وجل الخذلان، وقد نفع قوم يونس التضرع حين أقبل العذاب وعاينوه، فأخلصوا عند ذلك لله عز وجل قلوبهم، وعلم الله سبحانه صحة التوبة منهم، فرفعه عنهم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ اختلف فيه:

أ. قال بعضهم: البأساء: الشدائد التي تصيبهم من العدو، والضراء: ما يحل بهم من البلاء والسقم السماوي.

ب. وقال بعضهم: البأساء: هو ما يحل بهم من الفقر والقحط والشدة.

ج. وعن ابن عباسٍ قال قوله، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾: الزمانة والخوف، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: البلاء والجوع.

٢. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: ابتلاهم بهذا، أو امتحنهم لعلهم يتضرعون، ويرجعون عما هم عليه.

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٤.

٣. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ يذكر في ظاهر هذا أنه قد أصابهم البلاء والشدة، ولم يتضرعوا ولكن قست قلوبهم، ويذكر في غيره من الآيات أنه إذا أصابهم البلاء والشدائد تضرعوا ورجعوا عما كانوا عليه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾، وغيرهما من الآيات، لكن يحتمل هذا وجوهًا:

أ. أن هذا كان في قوم، والأول كان في قوم آخرين، وذلك أن الكفرة كانوا على أحوال ومنازل: منهم من كان على حال، فإذا أصابه خير اطمأن به، وإذا زال عنه وتحول تغير؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ الآية، ومنهم من يتضرع ويلين قلبه إذا أصابه الشدة والبلاء، وعند السعة والنعمة قاسي القلب معاند؛ وهو كقوله: ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إلى آخر الآية؛ وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ومنهم: من كان فرحًا عند الرحمة والنعمة، وعند الشدة والبلاء كفورًا حزينا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾، ومنهم: من كان لا يخضع ولا يتضرع في الأحوال كلها، لا عند الشدة والبلاء، ولا عند الرخاء والنعمة، ويقولون: إن مثل هذا يصيب غيرنا، وقد كان أصاب آباءنا، وهم، كانوا أهل الخير والصلاح؛ وهو كقوله؛ ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾: كانوا على أحوال مختلفة، ومنازل متفرقة؛ فيشبه أن يكون قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: في القوم الذين لم يتضرعوا عند إصابتهم الشدائد والبلايا.

ب. وجائز أن يكونوا تضرعوا عند حلول الشدائد، فإذا انقطع ذلك وارتفع، عادوا إلى ما كانوا من قبل؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

ج. ويشبه أن يكون قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وقوله: ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: فيما بينهم وبين ربهم، وهذا فيما بينهم، وبين الرسل؛ لأن الرسل كانوا يدعونهم إلى أن يقروا، ويصدقوهم فيما يقولون لهم ويخبرون، فتكبروا عليهم، وأقروا لله وتضرعوا إليه، تكبروا عليهم ولم يتكبروا على الله.

د. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾: في الأمم السالفة إخبار منه أنهم لم يتضرعوا.

هـ. ويحتمل قوله أيضًا: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ وجهين:

• أحدهما: أنهم لم يتضرعوا إذ جاءهم بأس الله، ولكن عاندوا وثبتوا على ما كانوا عليه.

• الثاني: تضرعوا عند نزول بأسه؛ لكن إذا ذهب ذلك وزال عادوا إلى ما كانوا، فيصير كأنه قال فلولا لزموا التضرع إذ جاءهم بأسنا.

٤. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. أي: زين لهم صنيعهم الذي صنعوا، ويقولون: إن هذا كان يصيب أهل الخير، ويصيب آباءنا وهم كانوا أهل خير وصلاح.

ب. أو زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الشرك والتكذيب، ويقول لهم: إن الذي أنتم عليه حق.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. أعلم الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الآية أنه قد أرسل الرسل قبله إلى أقوام بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم ليخضعوا ويذلوا لأمر الله لأن القلوب تخشع والنفوس تضرع عندما يكون من أمر الله البأساء والضراء.

٢. ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾:

أ. قال قوم: البأساء الجوع، والضراء النقص في الأموال والأنفس، والبأساء: من البأس والخوف والضراء من الضر.

ب. وقد يكون البأساء من البؤس.

٣. فأعلمه الله أنه أرسل إلى أمم وأخذها بالبأساء والضراء، فلم تخشع ولم تضرع، وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾:

أ. ومعناه لكي يتضرعوا.

ب. وقيل: معناها الترجي للعباد، كما قال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، قال سيبويه: المعنى اذهبا أنتما

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٣٧.

على رجائكما، والله عالم بما يكون من وراء ذلك.

٤. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ معناه هلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي أقاموا على كفرهم، قال الفراء كلما رأيت في الكلام (لولا) ولم تر بعدها أسماء، فهي بمعنى (هلا)، كقوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ و﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ وإذا كان بعدها اسم، فهي بمعنى (لو) التي تكون في جوابها اللام، و(لوما) فيها ما في (لولا) من الاستفهام والخبر.

٥. وقد أخبر الله في هذه الآية أن الشيطان هو الذي يزين الكفر للكافر بخلاف ما يقول المجبرة من أن الله هو المزين لهم ذلك، وفيها حجة على من قال إن الله لم يرد من الكافر الإيمان، وانه أرسل الرسل بينة عليهم، وعلى من زعم أن أخذه الكافرين بالبأساء والضراء في الدين ليس لما أراد من صلاحهم، لأنه بين الله إنما فعل بهم ذلك ليتضرعوا، وهذه لام الغرض، لأن الشك لا يجوز عليه تعالى.

٦. ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ معناه يتذللون يقال ضرع فلان لفلان إذا بخع له وسأله أن يعطيه، وفلان ضارع أي نحيف.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. التضرع: التخشع وأصله من الضراعة، وهي الذلة، ضرع الرجل يضرع ضراعة فهو ضارع.

٢. بَيَّنَ تعالى أن حال هَؤُلَاءِ إذا سلكوا طريق المخالفة كحال أولئك في نزول العذاب بهم تحذيرًا من ذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ تأكيد للكلام ﴿أَرْسَلْنَا﴾ رُسُلاً ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾ جماعات من الناس ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد، فخالفوا.

٣. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾:

أ. قيلَ: البأساء: شدة الفقر، والضراء: الأمراض والأوجاع، عن الحسن.

ب. وقيل: البأساء من عدوهم وقتل بعضهم بعضًا، والضراء في أموالهم وأنفسهم عن الأصم.

ج. وقيل: هو العذاب النازل بهم لاستئصالهم.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٦٠.

٤. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي لكي يخضعوا ويؤمنوا ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ﴾، أي هلا تضرعوا لما جاءهم ﴿بَأْسَنَا﴾ أي نزل البلاء بهم حتى كان يكشف الله عنهم ذلك.

٥. سؤال وإشكال: قال قبل هذا ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، وذلك يقتضي أنهم تضرعوا، وهذه الآية تقتضي أنهم لم يتضرعوا؟ والجواب: فيه قولان:

أ. الأول: هلا تضرعوا بالإنابة وإخلاص الطاعة، فلا يعتد بتضرعهم إذا لم يكن بهذه المنزلة.

ب. الثاني: أن حال أولئك في هذا بخلاف حالهم؛ لأنهم أخذوا بعذاب الاستئصال.

٦. ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾:

أ. لكثرة غفلتهم وكفرهم فلم تنجع فيها العظة.

ب. وقيل: الإلف والعادة.

٧. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أعمالهم:

أ. قيل: بالوسوسة والأهواء بالمعصية، لما في ذلك من عاجل اللذة.

ب. وقيل: بالأماني الباطلة أنه لا ثواب ولا عقاب.

٨. ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي عملهم وهو الكفر والمعاصي.

٩. تدل الآية الكريمة على:

أ. تقدم الرسل في الأمم، فتدل على أن كل رسول لابد له من أدلة.

ب. تسلية النبي ﷺ.

ج. أنه يفعل بالمكلف ما يزيح عليه من الشدة والنعمة لطفًا له.

د. أنه أراد منهم التضرع.

هـ. أن العبد فاعل وهو يقدر على التضرع حتى يصح الكلام.

و. الحث على الدعاء، وأنه يكشف البلاء، سؤال وإشكال: كيف التضرع؟ والجواب: الإيمان به، وطاعته فيما أمره، والانتهاء عما نهى تعظيمًا له، وخضوعًا وانقيادًا.

ز. أن الشيطان هو الذي يزين فعلهم خلاف قول أهل الجبر: إن الله تعالى هو الذي يزين.

ح. أن التزيين فعله.

١٠. في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوف، وتقديره: أرسلنا رسلاً، فخالفوهم، فأخذناهم، ودليله التحذير مِنْ حال مَنْ قبلهم، فحسن الحذف للإيجاز من غير إخلال.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. البأساء: من البأس والخوف.

ب. الضراء: من الضر، وقد يكون البأساء من البؤس؟

ج. التضرع: التذلل، يقال ضرع فلان لفلان: إذا بخع له وسأله أن يعطيه.

٢. أعلم الله سبحانه نبيه، حال الأمم الماضية في مخالفة رسله، وبين أن حال هؤلاء إذا سلكوا طريق المخالفة، كحالهم في نزول العذاب بهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ وهاهنا محذوف وتقديره: رسلا، ﴿إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فخالفوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وحسن الحذف للإيجاز به، والاختصار من غير إخلال، لدلالة مفهوم الكلام عليه ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ يريد به: الفقر، والبؤس، والأسقام، والأوجاع، عن ابن عباس، والحسن.

٣. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ومعناه: لكي يتضرعوا، وقال الزجاج ﴿لَعَلَّ﴾ ترج وهذا الترجي للعباد، المعنى: فأخذناهم بذلك، ليكون ما يرجوه العباد منهم من التضرع، كما قال في قصة فرعون: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، قال سيبويه: المعنى إذهبا أنتما على رجائكما، فالله عالم بما يكون من وراء، ذلك، أخبر الله تعالى أنه أرسل الرسل إلى أقوام بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم، ليخضعوا ويذلوا لأمر الله، فلم يخضعوا ولم يتضرعوا. وهذا كالتسلية للنبي ﷺ.

٤. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ معناه: فهلا تضرعوا إذ جاءهم بأسنا، ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأقاموا على كفرهم، فلم تنجع فيهم العظة، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بالوسوسة، والإغراء بالمعصية، لما فيها من عاجل اللذة، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: أعمالهم، وفي هذا حجة على من قال إن الله

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٤٧.

لم يرد من الكافرين الإيمان لأنه سبحانه بين أنه إنما فعل ذلك بهم ليتضرعوا، وبين أن الشيطان هو الذي زين الكفر للكافر، بخلاف ما قالته المجبرة من أنه تعالى هو المزين لهم ذلك.

٥. مسائل لغوية ونحوية:

أ. (لولا) للتحضيض، ولا يدخل إلا على الفعل، ومعناه: هلا تضرعوا.

ب. ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: معطوف على تأويل الكلام الأول، فإن في قوله: (هلا تضرعوا) دلالة على أنهم لم يتضرعوا.

ج. قوله: ﴿بَغْتَةً﴾: مصدر وقع موقع الحال أي: أخذناهم مباغتين

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الآية محذوف، تقديره: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا فخالفوهم، فأخذناهم بالبأساء؛ وفيها ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنها الزّمانة والخوف، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

ب. الثاني: أنها البؤس، وهو الفقر، قاله ابن قتيبة.

ج. الثالث: أنها الجوع، ذكره الزّجّاج.

٢. في الضّرّاء ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: البلاء، والجوع، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

ب. الثاني: النّقص في الأموال والأنفس، ذكره الزّجّاج.

ج. الثالث: الأسقام والأمراض، قاله أبو سليمان.

٣. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: لكي يتضرّعوا، والتّضرّع: التّذلل والاستكانة، وفي الكلام محذوف تقديره: فلم يتضرّعوا.

٤. ﴿فَلَوْلَا﴾ معناه: (فهلا)، والبأس: العذا.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٢٩.

٥. ومقصود الآية: أنّ الله تعالى أعلم نبيّه ﷺ أنه قد أرسل إلى قوم قبله بلغوا من القسوة أنهم أخذوا بالشّدائد، فلم يخضعوا، وأقاموا على كفرهم، وزيّن لهم الشيطان ضلالتهم فأصرّوا عليها.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بين الله تعالى في الآية السابقة أن الكفار عند نزول الشدائد يرجعون إلى الله تعالى، ثم بين في هذه الآية أنهم لا يرجعون إلى الله عند كل ما كان من جنس الشدائد، بل قد يبقون مصرين على الكفر منجمدين عليه غير راجعين إلى الله تعالى، وذلك يدل على أن الله تعالى إذا لم يهده لم يهتد، سواء شاهد الآيات الهائلة، أو لم يشاهدها.

٢. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في الآية محذوف والتقدير: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا فخالفوهم فأخذناهم بالبأساء والضراء، وحسن الحذف لكونه مفهوما من الكلام المذكور، وقال الحسن ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ شدة الفقر من البؤس ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الأمراض والأوجاع.

٣. ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ والمعنى: إنما أرسلنا الرسل إليهم وإنما سلطنا البأساء والضراء عليهم لأجل أن يتضرعوا، ومعنى التضرع التخشع وهو عبارة عن الانقياد وترك التمرد، وأصله من الضراعة وهي الذلة، يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة فهو ضارع أي ذليل ضعيف، والمعنى أنه تعالى أعلم نبيه أنه قد أرسل قبله إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرعوا، والمقصود منه التسلية للنبي ﷺ.

٤. سؤال وإشكال: أليس قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ يدل على أنهم تضرعوا؟ وهاهنا يقول: قست قلوبهم ولم يتضرعوا، والجواب: أولئك أقوام، وهؤلاء أقوام آخرون، أو نقول أولئك تضرعوا لطلب إزالة البلية ولم يتضرعوا على سبيل الإخلاص لله تعالى فلهذا الفرق حسن النفي والإثبات.

٥. ثم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ معناه نفي التضرع، والتقدير فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا، وذكر كلمة (لولا) يفيد أنه ما كان لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣٤.

وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

٦. احتج المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ على أنه تعالى إنما أرسل الرسل إليهم، وإنما سلّط البأساء والضرّاء عليهم، لإرادة أن يتضرعوا ويؤمنوا، وذلك يدل على أنه تعالى أراد الإيمان والطاعة من الكل، وجواب أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ: أن كلمة (لعل) تفيد الترجي والتمني؛ وذلك في حق الله تعالى محال وأنتم حملتموه على إرادة هذا المطلوب، ونحن نحمله على أنه تعالى عاملهم معاملة لو صدرت عن غير الله تعالى لكان المقصود منه هذا المعنى، فأما تعليل حكم الله تعالى ومشيئته فذلك محال على ما ثبت بالدليل، ثم نقول إن دلت هذه الآية على قولكم من هذا الوجه فإنها تدل على ضد قولكم من وجه آخر، وذلك لأنها تدل على أنهم إنما لم يتضرعوا لقسوة قلوبهم ولأجل أن الشيطان زين لهم أعمالهم، فنقول: تلك القسوة إن حصلت بفعلهم احتاجوا في إيجادها إلى سبب آخر ولزم التسلسل، وإن حصلت بفعل الله فالقول قولنا، وأيضا هب أن الكفار إنما أقدموا على هذا الفعل القبيح بسبب تزيين الشيطان، إلا أنا نقول: ولم بقي الشيطان مصرا على هذا الفعل القبيح؟ فإن كان ذلك لأجل شيطان آخر تسلسل إلى غير النهاية، وإن بطلت هذه المقادير انتهت بالآخرة إلى أن كل أحد إنما يقدم تارة على الخير وأخرى على الشر، لأجل الدواعي التي تحصل في قلبه، ثم ثبت أن تلك الدواعي لا تحصل إلا بإيجاد الله تعالى فحينئذ يصح قولنا ويفسد بالكلية قولهم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ، وفيه إضمار، أي أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا وفيه إضمار آخر يدل عليه الظاهر تقديره: فكذبوا فأخذناهم، وهذه الآية متصلة بها قبل اتصال الحال بحال قريبة منها، وذلك أن هؤلاء سلكوا في مخالفة نبيهم مسلك من كان قبلهم في مخالفة أنبيائهم، فكانوا بعرض أن ينزل بهم من البلاء ما نزل بمن كان قبلهم.

٢. معنى ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ بالمصائب في الأموال ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ في الأبدان، هذا قول الأكثر، وقد يوضع

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٢٤.

كل واحد منهما موضع الآخر، ويؤدب الله عباده بالبأساء والضراء وبما شاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء]، قال ابن عطية: (استدلّ العباد في تأديب أنفسهم بالبأساء في تفريق الأموال، والضراء في الحمل على الأبدان بالجوع والعري بهذه الآية)، وهذه جهالة ممن فعلها وجعل هذه الآية أصلا لها، هذه عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياسا عليها، فإنها المطية التي نبلغ عليها دار الكرامة، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة، وفي التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة] فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسون أحسن الثياب ويتجملون بها، وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جرا، على ما تقدم بيانه في (المائدة)

٣. ولو كان كما زعموا واستدلوا لما كان في امتنان الله تعالى بالزروع والجنات وجميع الثمار والنبات والانعام التي سخرها وأباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها ـ إلى غير ذلك مما امتن به ـ كبير فائدة، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء، وقد تقدم في آخر (البقرة) بيان فضل المال ومنفعته والرد على من أبى من جمعه، وقد نهى النبي ﷺ عن الوصال مخافة الضعف على الأبدان، ونهى عن إضاعة المال ردا على الأغنياء الجهال.

٤. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي يدعون ويذلون، مأخوذ من الضراعة وهي الذلة، يقال: ضرع فهو ضارع.

٥. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ ﴿فَلَوْلَا﴾ تحضيض، وهي التي تلي الفعل بمعنى هلا، وهذا عتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا حين نزول العذاب، ويجوز أن يكونوا تضرعوا تضرع من لم يخلص، أو تضرعوا حين لابسهم العذاب، والتضرع على هذه الوجوه غير نافع، والدعاء مأمور به حال الرخاء والشدة، قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر] أي دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر] وهذا وعيد شديد.

٦. ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي صلبت وغلظت، وهي عبارة عن الكفر والإصرار على المعصية، نسأل الله العافية، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أغواهم بالمعاصي وحملهم عليها.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبي ﷺ، أي ولقد أرسلنا إلى أمم كائنة من قبلك رسلا فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي البؤس والضرّ وقيل: البأساء المصائب في الأموال، والضراء المصائب في الأبدان، وبه قال الأكثر.

٢. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي يدعون الله بضراعة، مأخوذ من الضراعة وهي الذلّ، يقال: ضرع فهو ضارع، ومنه قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومة   ومختبط ممّا تطيح الطّوائح

٣. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء في كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدّة تمرّدهم وغلوّهم في الكفر، ويجوز أن يكون المعنى أنهم تضرّعوا عند أن نزل بهم العذاب، وذلك تضرّع ضروري لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع لصاحبه، والأول أولى كما يدل عليه ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي صلبت وغلظت.

٤. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصي.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. زاده تسلية بقوله: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَآ﴾ رسلاً ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وكفروا وكذَّبوهم، فلا تضجر من كفر قومك فإنَّ هذه عادة الأمم مع رسلهم، و(مِن) للابتداء، وقال ابن مالك: زائدة، يعني أنَّ هذا من المواضع التي وردت فيها زائدة في الإثبات ولو مع معرفة، ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ لتكذيبهم ﴿بِالْبَأْسَآءِ﴾ الجدب والفقر والخوف والذلِّ، ﴿وَالضَّرَّآءِ﴾ المرض والضعف والموت، وبعده يتضرَّع الحيُّ إن أراد الله به خيرًا، وقيل: المراد بهما: خوف السلطان، وغلاء السعر، وقيل: البأساء القحط والجوع، والضرَّاء: المرض ونقصان

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٣.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٥٩.

الأنفس والأموال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: كي يتذلَّلوا إلينا، وعاملناهم بالبأساء والضرَّاء كمعاملة من يرجى تضرُّعه بالتأديب، لأنَّ المصايب سبب لِلَيْنِ القلوب، والتضرُّع إلى علَّام الغيوب.

٢. ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ كلٌّ مِن (لَوْلَا) التوبيخيَّة هذه و(إِذْ) عائد إلى قوله: ﴿تَضَرَّعُواْ﴾، وبَّخهم على ترك التذلُّل، وإظهار الضعف، والخشوع لله حين مجيء البأساء والضرَّاء، وحذف الضَّرَّاء لذكره قبل، أو هو لمعنى يعمُّ الضرَّاء، وهذا كتمنٍّ بحسب حال البشر، كأنَّه قيل: ليتهم تضرَّعوا، كما أنَّ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ترجٍّ بحسب عقول البشر، وذلك لقيام مقتضى التضرُّع، وهو البأس والضرَّاء، ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ استدراك بين الضدَّين، أي: ما لَانَتْ قلوبهم، بل غلظت، أي: بقيت على الغلظة، أو زادت غلظة، كقولك: ما قام عمر ولكن قعد، وقوله: ﴿لَكِنْ﴾ إخبارٌ، وصحَّ عطفه على (لَوْلَا) مع أنَّه إنشاء، لتضمُّنه معنى الإخبار، وهو انتفاء تضرُّعهم، والعطف بالواو لجملة لكن وما بعدها، ولا يجوز أن تكون (لَوْلَا) للتحضيض لعدم الاستقبال، إذ قال: ﴿تَضَرَّعُوا﴾، وقال: ﴿قَسَتْ﴾ بصيغة الماضي.

٣. وكذا في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك وما دونه من المعاصي، أو زيَّن لهم عملهم، وهذا في حيِّز الاستدراك، أي: تركوا التضرُّع لقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم وإصرارهم عليها، ولم يخطر ببالهم أنَّ ما جاءهم من البأساء والضرَّاء إنَّما هو لأجلها، والتزيين إمَّا إيجاد الشيء حسنًا، كقوله: ﴿زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا﴾ [الملك: ٥]، وكصنع الصائغ أو النجَّار أو الباني شيئًا، وإمَّا تحسينه من غير إيجاد، كتزيين الماشطة العروس، وَإِمَّا تحبيبه للنفس بخلق الميل إليه، أو بترويجه إليه، كالإغواء والوسوسة كالآية، وكتزيينه تعالى للكافر كفره، كما قال: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وكتزيين غير الله شيئًا لغير الله، كقوله تعالى: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦٠.

١. بين تعالى أن من كفار الأمم السالفة من بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالشدائد ليخضعوا ويلتجئوا إلى الله تعالى، فلم يفعلوا، تسلية لنبيه ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: رسلا، فكذبوهم ولم يبالوا، لكونهم في الرخاء، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ أي: الشدة والقحط، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: المرض ونقصان الأنفس والأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون إليه من كفرهم ومعاصيهم، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد.

٢. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي: بالتوبة والتمسكن، ومعناه، نفي التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا، وجيء بـ (لو لا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم، كما قال: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم يكن فيها لين يوجب التضرع، ولم يتزجروا وإنما ابتلوا به، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الشرك، فالاستدراك على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع، وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم المزينة لهم.

٣. سؤال وإشكال: قد أسند تعالى هنا التزيين إلى الشيطان، وأسنده إلى نفسه في قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فهل هو حقيقة فيهما، أو في أحدهما؟ والجواب: قال الخفاجي في (العناية): وقع التزيين في مواقع كثيرة: فتارة أسنده إلى الشيطان، كالآية الأولى، وتارة إلى نفسه كالثانية، وتارة إلى البشر كقوله: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، - في قراءة - وتارة مجهولا غير مذكور فاعله كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ١٢]، لأن التزيين له معان يشهد بها الاستعمال واللغة:

أ. أحدها: إيجاد الشيء حسنا مزينا في نفس الأمر، كقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾

ب. الثاني: جعله مزينا من غير إيجاد، كتزيين الماشطة العروس.

ج. الثالث: جعله محبوبا للنفس، مشتهى للطبع، وإن لم يكن في نفسه كذلك، فهذا إن كان بمعنى خلق الميل في النفس والطبع لا يسند إلا إلى الله، لأنه الفاعل له حقيقة، لإيجاده له، ولغة ونحوا لاتصافه بخلقه، وإن كان بمجرد تزويره وترويجه بالقول وما يشبهه، كالوسوسة والإغواء، فهذا لا يسند إليه تعالى حقيقة، وإنما يسند إلى البشر أو الشيطان، وإذا لم يذكر فاعله، يقدّر في كل مكان ما يليق به.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أقسم الله تعالى لرسوله ﷺ أنه أرسل رسلا قبله إلى أمم قبل أمته فكانوا أرسخ من قومه في الشرك وأشد منهم إصرارا على الظلم، فإن قومه يدعون الله تعالى وحده عند شدة الضيق وينسون ما اتخذوه من دونه من الأولياء والأنداد، وأما تلك الأمم فلم تلن الشدائد قلوبهم، ولم تصلح ما أفسد الشيطان من فطرتهم.

٢. الأخذ بالبأساء والضراء عبارة عن إنزالهما بهم، وأخذ الشيء يطلق على حوزه وتحصيله بالتناول والملك أو الاستيلاء والقهر، وقد يسند هذا إلى الأسباب غير الفاعلة المريدة كقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ ـ فأخذهم الطوفان ـ فأخذهم العذاب ـ فأخذتهم الصيحة.. الصاعقة.. الرجفة.

٣. والبأساء: اسم يطلق على الحرب والمشقة، والبأس: الشدة في الحرب، والخوف في الشدة، والعذاب الشديد، والقوة، والشجاعة، والبؤس، والخضوع، والفقر كذا في لسان العرب وقال الراغب: البؤس والبأس، والبأساء: الشدة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكاية، وأورد الشواهد على ذلك، والضراء فعلاء من الضر ـ وهو ضد النفع وتطلق على السنة ـ أي الجدب ـ والأذى وسوء الحال حسيا كان أو معنويا كالسراء من السرور، وهي ضدها التي تقابلها كالنعماء، وأما الضر فيقابله النفع، وفسر ابن جرير البأساء بشدة الفقر والضيق في المعيشة، والضراء بالأسقام والعلل العارضة في الأجسام، ونقل نحوه الرازي عن الحسن، وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير أن البأساء خوف السلطان وغلاء السعر، والأقوال في الكلمتين متقاربة، والفرق بينهما ـ كما أفهم ـ أن البأساء ما يقع في الخارج من الأمور الشديدة الوقع على من يمسه تأثير الحرب الحاضرة الآن، فإن وقعها أليم شديد على من أصيبوا بفقد أولادهم، أو تخريب بلادهم، أو ضيق معايشهم، وأما الضراء فهي كل ما يؤلم النفس ألما شديدا سواء كان سببه نفسيا أو بدنيا أو خارجيا ـ فعلى هذا تكون البأساء من أسباب الضراء، وقالوا: إنهما جاءتا على وزن حمراء، ولم يرد في مذكرهما وزن أحمر صفة، بل ورد اسم تفضيل، والتضرع إظهار الضراعة بتكلف أو تكثر، وهي الضعف أو الذل والخضوع.

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٤٥

٤. ومعنى الآية: نقسم أننا قد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فدعوهم إلى توحيدنا وعبادتنا فلم يستجيبوا لهم، فأخذناهم أخذ ابتلاء واختبار بالبأساء والضراء؛ ليكون ذلك معدا لهم للإيمان لما يترتب عليه ـ بحسب طباع البشر وأخلاقهم ـ من التضرع والجؤار بالدعاء لربهم، إذ مضت سنتنا بجعل الشدائد مربية للناس بما ترجع المغرورين عن غرورهم، وتكف الفجار فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون عن فجورهم، فما أجدرها بإرجاع أهل الأوهام، عن دعاء أمثالهم من البشر وما دونهم من الأصنام، ولكن من الناس من يصل إلى غاية من الشرك والفسق لا يزيلها بأس، ولا يزلزلها بؤس، فلا تنفع معهم العبر ولا تؤثر فيهم الغير، وكان أولئك الأقوام منهم.

٥. ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ جعل ابن جرير (لولا) هنا للتحضيض بمعنى (هلا)، وجعلها الجمهور نافية، أي فهلا تضرعوا خاشعين لنا تائبين إلينا عندما جاءهم البئيس من عذابنا، فرأوا بوادره وحذروا أواخره، لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم؟ أو فما خشعوا ولا تضرعوا إذ جاءهم بأسنا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فكانت أقسى من الحجر، إذ لم تؤثر فيها النذر ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي بما يوسوس إليهم من تحسين الثبات على ما كان عليهم آباؤهم وأجدادهم، وتقبيح الطاعة والانقياد إلى رجل منهم لا مزية له عليهم، وقد فصلنا القول من قبل في تزيين أعمال الناس إليهم وما ينسب منها إلى الشيطان لقبحه، وما ينسب إلى الله تعالى لأنه تعبير عن خلقه وتقديره وسننه في عباده، وما يحسن إسناده إلى المجهول، فيراجع في تفسير ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين سبحانه أن من سننه أخذ عباده بالشدائد لعلهم يرعون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٢٥.

فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي ولقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فدعوهم إلى توحيدنا وعبادتنا فلم يستجيبوا لهم فأخذناهم أخذ ابتلاء واختبار بالبأساء والضراء ليكون ذلك مفيدا لهم، لأن سنتنا قد جرت بأنهم في مثل هذه الحال يتضرعون ويجأرون بالدعاء إلى ربهم، فالشدائد تربّى النفوس وتهذب الأخلاق، فترجع المغرورين عن غرورهم، وتكفّ الفجار عن فجورهم فأخلق بها أن ترجع أهل الأوهام عن دعاء أمثالهم من البشر بل من دونهم من الأصنام والأوثان.

٢. ولكن كثيرا من الناس يصلون إلى حال من الشرك والفجور لا يغيّرها بأس ولا يحوّلها بؤس، فلا تجدى معهم العبر والمواعظ، ولا تؤثر فيهم صروف الدهر وغيره، ومنهم أولئك الأمم الذين أرسل إليهم هؤلاء الأنبياء، ومن ثم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي فهلا تضرّعوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءتهم مقدمات العذاب وبوادره، وحذروا عواقبه وأواخره، لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم، ولكن قلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة فلم تؤثر فيهم النذر، وزيّن لهم الشيطان ما هم عليه من الشرك والفجور، ووسوس إليهم بأن يثبتوا على ما كان عليه آباؤهم، ولا ينقادوا إلى رجال منهم ضعاف الأحلام سفهاء العقول، لا ميزة لهم عليهم بعقل راجح، ولا فكر ثاقب.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. إنها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه، نموذج من الواقع التاريخي، نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه؛ فإذا نسوا ما ذكروا به، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذي لا يرجى معه صلاح، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد الذي لا تصلح معه للبقاء، فحقت عليهم كلمة الله، ونزل

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٨٩.

بساحتهم الدمار الذي لا تنجو منه ديار..

٢. ولقد عرف الواقع البشري كثيرا من هذه الأمم، التي قص القرآن الكريم على الإنسانية خبر الكثير منها، قبل أن يولد (التاريخ) الذي صنعه الإنسان! فالتاريخ الذي سجله بنو الإنسان حديث المولد، صغير السن، لا يكاد يعي إلا القليل من التاريخ الحقيقي للبشر على ظهر هذه الأرض! وهذا التاريخ الذي صنعه البشر حافل ـ على قصره ـ بالأكاذيب والأغاليط؛ وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة والمحركة للتاريخ البشري؛ والتي يكمن بعضها في أغوار النفس، ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب، ولا يبدو منها إلا بعضها.

٣. وهذا البعض يخطئ البشر في جمعه، ويخطئون في تفسيره، ويخطئون أيضا في تمييز صحيحه من زائفه ـ إلا قليلا ـ ودعوى أي بشر أنه أحاط بالتاريخ البشري علما، وأنه يملك تفسيره تفسيرا (علميا)، وأنه يجزم بحتمياته المقبلة أيضا.. هي أكبر أكذوبة يمكن أن يدعيها بشر! ومن عجب أن بعضهم يدعيها! والأشد إثارة للعجب أن بعضهم يصدقها! ولو قال ذلك المدعي: إنه يتحدث عن (توقعات) لا عن (حتميات) لكان ذلك مستساغا.. ولكن إذا وجد المفتري من المغفلين من يصدقه فلماذا لا يفتري!؟ والله يقول الحق؛ ويعلم ماذا كان، ولماذا كان، ويقص على عبيده ـ رحمة منه وفضلا ـ جانبا من أسرار سنته وقدره؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيرا كاملا صحيحا، ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون، استنادا إلى سنة الله التي لا تتبدل.. هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها..

٤. وفي هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر في أمم شتى.. أمم جاءتهم رسلهم، فكذبوا، فأخذهم الله بالبأساء والضراء، في أموالهم وفي أنفسهم، في أحوالهم وأوضاعهم.. البأساء والضراء التي لا تبلغ أن تكون (عذاب الله) الذي تحدثت عنه الآية السابقة، وهو عذاب التدمير والاستئصال..

٥. وقد ذكر القرآن نموذجا محددا من هذه الأمم، ومن البأساء والضراء التي أخذها بها.. في قصة فرعون وملئه ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ

وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.، وهو نموذج من نماذج كثيرة تشير إليها الآية..

٦. لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم؛ وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله، ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة، فيرفع الله عنهم البلاء، ويفتح لهم أبواب الرحمة.. ولكنهم لم يفعلوا ما كان حريا أن يفعلوا، لم يلجئوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح بصيرتهم، ولم تلين قلوبهم، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في هذه الآيات عرض لمقطع من مقاطع الحياة، قبل عصر النبوّة، وفيه تتمثل مواقف المعاندين والملحدين بالله، والمكذبين برسله، وما أخذهم به من نكال وعذاب.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ عزاء للنبيّ الكريم، ومواساة له، فيما يلقى من سفاهة السفهاء، وتطاول الحمقى.. فقد كان قبل النبيّ الكريم رسل كرام، بعثهم الله بالرحمة والهدى لأقوامهم، فكذبوهم، وبهتوهم ومدّوا أيديهم إليهم بالضرّ والأذى..

٣. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ هو تعقيب على كلام محذوف دل عليه سياق النظم، أي فكذبوا بآيات الله، ومكروا برسل الله ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي فأخذهم الله (بالبأساء) أي بالمحن والشدائد، كتسليط العدوّ عليهم، ووقوعهم ليده، يقتل ويسلب، (والضراء) أي الفقر والجدب، ونقص الأموال والأنفس والثمرات.. وذلك لتتفتح قلوبهم إلى الله، وترفع أكفّهم بالضراعة إليه، ومن ثمّ يكون لهم إلى الله عودة، لو عقلوا، وتدبّروا، إذ أن من شأن الشدائد أن تصفّى النفوس من شوائب الضلال العالقة بها، وتنقّى القلوب من الوساوس المستولية عليها، وتكشف عن العقول الظلام المحيط بها.. هذا

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٧٩.

إذا كان كيان الإنسان سليما، وكانت تلك الأمور عللا عارضة، تقبل الدواء المرّ وتنتفع به، وتجد فيه الشفاء والعافية.. أما إذا كان الكيان فاسدا بطبيعته، فلا دواء ولا شفاء.

٤. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي لعلّهم حين ترهقهم الشدة، ويكربهم الضرّ، يتذلّلون للهّ، ويضرعون إليه، وفي هذا الترجي (لعلّ) إشارة إلى المطلوب منهم في تلك الحال، إذ هي حال من شأنها أن تقيم الضالّين والمنحرفين على رجاء من رحمة الله، فتخبت له قلوبهم، وتلهج بالضراعة إليه ألسنتهم.

٥. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ تحريض لهؤلاء الضالين أن يتداركوا أنفسهم، وأن يعودا بها إلى الله من قريب، تائبين ضارعين.. ولم يذكر الضرّ هنا مع البأس، لأن البأس أعمّ من الضرّ، إذ هو ضر، وأكثر من ضر..

٦. ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم يتضرّعوا، ولم يعودوا إلى الله، مع ما أخذهم به من بأساء وضراء، بل ظلوا على ما هم فيه من عمّى وضلال.. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي حبّب إليهم الشيطان، بغوايته، وخداعه، هذه المنكرات التي يعيشون فيها، فلزموها، وتعلقوا بها..

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، إن الله سبحانه لا يعاقب عباده إلا بعد أن يرسل اليهم رسولا يرشدهم إلى طريق الهداية، فإن لم يهتدوا منحهم الفرصة ليراجعوا أنفسهم، وامتحنهم بالبلاء ليتضرعوا ويتوبوا، ولكنهم أصروا على المعصية، كما قال تعالى في الآية التالية:

٢. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: أنهم لم يتضرعوا حين جاءهم بأسنا في الدنيا، ولم يتذللوا للهّ، وينزلوا عن عنادهم، بل أصروا على الكفر، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من ضلال وفساد، وتدل هذه الآية على

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٠.

أن الله سبحانه يقبل كل من لجأ اليه، حتى ولو كان التجاوه لضغط الشدائد والنوازل.. وهذا هو شأن الكريم والعظيم، لا يرد سائلا ولا يخيب أملا، مهما كانت دوافعه.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لمّا أنذرهم الله تعالى بتوقّع العذاب أعقبه بالاستشهاد على وقوع العذاب بأمم من قبل، ليعلم هؤلاء أنّ تلك سنة الله في الذين ظلموا بالشرك، وهذا الخبر مستعمل في إنذار السامعين من المشركين على طريقة التعريض، وهم المخاطبون بالقول المأمور به في الجملة التي قبلها.

٢. فجملة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عطف على جملة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٠]، والواو لعطف الجمل، فتكون استئنافية إذ كانت المعطوف عليها استئنافا، وافتتحت هذه الجملة بلام القسم و(قد) لتوكيد مضمون الجملة، وهو المفرّع بالفاء في قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، نزّل السامعون المعرّض بإنذارهم منزلة من ينكرون أن يكون ما أصاب الأمم الذين من قبلهم عقابا من الله تعالى على إعراضهم.

٣. وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ عطف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾ باعتبار ما يؤذن به وصف ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ من معاملة أممهم إيّاهم بمثل ما عاملك به قومك، فيدلّ العطف على محذوف تقديره: فكذّبوهم.

٤. ولمّا كان أخذهم بالبأساء والضرّاء مقارنا لزمن وجود رسلهم بين ظهرانيهم كان الموقع لفاء العطف للإشارة إلى أنّ ذلك كان بمرأى رسلهم وقبل انقراضهم ليكون إشارة إلى أنّ الله أيّد رسله ونصرهم في حياتهم؛ لأنّ أخذ الأمم بالعقاب فيه حكمتان:

أ. إحداهما: زجرهم عن التكذيب.

ب. الثانية: إكرام الرسل بالتأييد بمرأى من المكذّبين، وفيه تكرمة للنبي ﷺ بإيذانه بأنّ الله ناصره على مكذّبيه.

٥. ومعنى ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ أصبناهم إصابة تمكّن، وتقدّم تفسير الأخذ عند قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ في سورة البقرة، وقد ذكر متعلّق الأخذ هنا لأنّه أخذ بشيء خاصّ بخلاف الآتي بعيد هذا.

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٩٨.

٦. والبأساء والضرّاء تقدّما عند قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في سورة البقرة، وقد فسّر البأساء بالجوع والضرّاء بالمرض، وهو تخصيص لا وجه له، لأنّ ما أصاب الأمم من العذاب كان أصنافا كثيرة، ولعلّ من فسّره بذلك اعتبر ما أصاب قريشا بدعوة النبي ﷺ.

٧. و(لعلّ) للترجّي، جعل علّة لابتداء أخذهم بالبأساء والضرّاء قبل الاستئصال.

٨. ومعنى ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذلّلون لأنّ الضراعة التذلّل والتخشّع، وهو هنا كناية عن الاعتراف بالذنب والتوبة منه، وهي الإيمان بالرسل.

٩. والمراد: أنّ الله قدّم لهم عذابا هيّنا قبل العذاب الأكبر، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وهذا من فرط رحمته المازجة لمقتضى حكمته؛ وفيه إنذار لقريش بأنّهم سيصيبهم البأساء والضرّاء قبل الاستئصال، وهو استئصال السيف.

١٠. وإنّما اختار الله أن يكون استئصالهم بالسيف إظهارا لكون نصر الرسول ﷺ عليهم كان بيده ويد المصدّقين به، وذلك أوقع على العرب، ولذلك روعي حال المقصودين بالإنذار وهم حاضرون، فنزّل جميع الأمم منزلتهم، فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، فإنّ (لو لا) هنا حرف توبيخ لدخولها على جملة فعلية ماضوية واحدة، فليست (لو لا) حرف امتناع لوجود، والتوبيخ إنّما يليق بالحاضرين دون المنقرضين لفوات المقصود، ففي هذا التنزيل إيماء إلى مساواة الحالين وتوبيخ للحاضرين بالمهمّ من العبرة لبقاء زمن التدارك قطعا لمعذرهم.

١١. يجوز أن تجعل (لو لا) هنا للتّمنّي على طريقة المجاز المرسل، ويكون التّمنّي كناية عن الإخبار بمحبّة الله الأمر المتمنّى فيكون من بناء المجاز على المجاز، فتكون هذه المحبّة هي ما عبّر عنه بالفرح في الحديث (الله أفرح بتوبة عبده) الحديث.

١٢. وتقديم الظرف المضاف مع جملته على عامله في قوله: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ للاهتمام بمضمون جملته، وأنّه زمن يحقّ أن يكون باعثا على الإسراع بالتضرّع ممّا حصل فيه من البأس.

١٣. والبأس تقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ في سورة البقرة، والمراد به هنا الشدّة على العدوّ وغلبته، ومجيء البأس: مجيء أثره، فإنّ ما أصابهم من البأساء والضرّاء أثر من آثار قوّة قدرة الله تعالى وغلبه عليهم، والمجيء مستعار للحدوث والحصول بعد أن لم يكن تشبيها لحدوث الشيء بوصول القادم

من مكان آخر بتنقّل الخطوات.

١٤. ولمّا دلّ التوبيخ أو التمنّي على انتفاء وقوع الشيء عطف عليه بـ (لكن) عطفا على معنى الكلام، لأنّ التضرّع ينشأ عن لين القلب فكان نفيه المفاد بحرف التوبيخ ناشئا عن ضدّ اللين وهو القساوة، فعطف بـ ﴿لَكِنِ﴾، والمعنى: ولكن اعتراهم ما في خلقتهم من المكابرة وعدم الرجوع عن الباطل كأنّ قلوبهم لا تتأثّر فشبّهت بالشيء القاسي، والقسوة: الصلابة.

١٥. وقد وجد الشيطان من طباعهم عونا على نفث مراده فيهم فحسّن لهم تلك القساوة وأغراهم بالاستمرار على آثامهم وأعمالهم، ومن هنا يظهر أنّ الضلال ينشأ عن استعداد الله في خلقة النفس.

١٦. والتزيين: جعل الشيء زينا، وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ في سورة آل عمران.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الكلام في أحوال المشركين مع النبي ﷺ ومجابهتهم له وسوق العبر لهم، وفى هذا النص الكريم بيان أحوال النبيين مع أقوامهم، وأحوال الأمم في الضراء والبأساء، ومقدار انتفاعهم بها والعبرة في ذلك.

٢. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ في هذا النص بيان لعلاج الله تعالى للأسقام النفسية للأمم التي تتعصى على الهداية، وعلى الاستقامة على الحق إذا دعوا إليه، فليس الناس جميعا طلاب حق يتبعونه إذا هدوا إليه، ولا يستمعون إلى الحجة إذا سيقت إليهم، بل يعاندون ويكابرون، فهؤلاء يحتاجون إلى علاج دنيوي وذلك بالشدائد تنزل بهم؛ لأن الجحود والمبالغة في الإنكار سببهما الاغترار بالدنيا وما فيها من متع، ولا علاج لغرور الجدة إلا بالحرمان منها ليذوقوا طعم المر بعد أن ذاقوا رطب العيش، ولا علاج لغرور الصحة إلا بالمرض حينا، ولا لعلاج للقوة إلا بالضعف، وعسى أن يكون هذا بصوره المختلفة باختلاف الداء مؤديا إلى شفاء النفس، والاتجاه بها إلى الهداية، وقد عالج الله تعالى حالهم بأمرين: أخذهم بالبأساء، وهي البؤس الشديد، والبؤس هو الفقر وضيق العيش

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٩٧.

حتى يكون ضنكا، وذلك يكون للأمم بالأزمات تجتاحها، وبجفاف النبات، وبالجوائح المبيدة وغيرها مما يصاب به اقتصاد الأمم، والثاني الضراء بالمرض تصاب به الأجسام وبالأوباء المرضية تتفشى بين الجماعات.

٣. ولقد فعل الله تعالى ذلك بفرعون وقومه عندما أصابه هو وهم الغرور وطغوا في البلاد، وقد قال تعالى في ذلك بعد أن سخروا بكل آية: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ﴾ ﴾ والضَّفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ولَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ولَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وكانُوا عَنْها غافِلِينَ﴾ [الأعراف]

٤. وإن الآلام علاج النفوس المغرورة بزخارف الدنيا، ومتاعها إن كانت صالحة للعلاج، وقد يستعصى الداء ويصعب العلاج، وإن الله تعالى عالج الأمم بالآلام عساهم يخضعون، ويبتعد الغرور عن نفوسهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي لعلهم يخضعون ويتطامنون وتذهب كبرياؤهم إذ يحسون بضعفهم وإنه حيث كان الإحساس بالضعف قربت النفس من الإيمان فالإيمان إذعان وخضوع، ومن جنسهما التضرع والتطامن والبعد عن الغرور، وعن الاستكبار على الحق، والرجاء هنا يفيد المقاربة بين إصابة الكاذبين بالبأساء والضراء، والخضوع للحق، فالمراد من الرجاء لازمه، وهو القرب من الحق، والإذعان له.

٥. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، البأس هنا الشدة، وهي أكثر ما تكون في شدة الحرب، ولأواء القتال، ويطلق على شدة الفقر والبؤس في العيش، و(لولا) هنا للنفي مع تمنى الوجود فهي لنفى تضرعهم مع تمنى أن يكونوا قد تضرعوا، والتمني هنا معناه ينبغي كأن المعنى هكذا لم يتضرعوا وكان ينبغي أن يكون البأس الشديد مؤديا إلى ضراعتهم؛ لأنه يشعرهم بضعفهم أمام قدرة الله تعالى الغالب القاهر فوق كل شيء لكن الإحساس بالضعف الذى دل عليه نزول البأس عليهم ـ ولا قبل لهم ـ وجد مانعان يمنعان أثره، فإذا كان قد وجد سبب الضراعة فقد وجد المانع منها، والمانع منها أمران:

أ. أحدهما: قسوة القلوب، وقد عبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وكان ذلك الاستدراك للإشارة إلى أن الضراعة وقسوة القلوب لا يجتمعان ولو نزلت الشدائد، وإن ضرعوا فإلى أمد محدود، ثم تعود إليهم أحوالهم، والسبب في أن القسوة والضراعة نقيضان لا يجتمعان أن القسوة غلظ في النفوس والطباع وإن بعض النفوس لتقسو حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله، والضراعة رقة في القلب ورأفة في النفس، وإحساس بآلام الغير وآلام النفس فلا يكون القاسي ضارعا ولو كان جبانا، إذ الضراعة علو مع رأفة ورحمة وطمأنينة والقسوة غلظة، وقد يكون الجبان غليظا، بل في أكثر الأحوال هو كذلك.

ب. الثاني: تزيين الشيطان العمل للنفس، وقد عبر سبحانه عنه بقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إن الشيطان قد يراد به هنا النفس الأمارة بالسوء التي تزين السوء فتجعله كالحسن وما هو بحسن، وإن هذا التزيين النفسي لعمل السوء للنفس لا يجعل الآثم يحس بإثم ما ارتكب، والضراعة توجب الإحساس بذلك الإثم، حتى يتجه إلى ربه تائبا توبة نصوحا، ومن أول درجات هذه التوبة أن يحس بإثم ما فعل، ثم يندم عليه، ثم يعتزم ألا يفعل، ولا يمكنه أن يكون ذلك ممن زين له سوء عمله فيراه حسنا وما هو بحسن.

٦. فى التعبير بقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ناحية بيانية رائعة ذلك أن عبر بزين لهم الشيطان سوء ما يعملون.. ولم يقل حسن لهم الشيطان، كما يجرى على الألسنة فلان يحسن القبيح؛ لأن القبيح لا ينقلب حسنا، والسيئ لا ينقلب، ولكن السيئ أو القبيح بتمويهات وتزيينات يظن معها أنه حسن، وما هو إلا تمويه باطل.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٩٠.

أ. البأساء والبأس والبؤس هو الشدة والمكروه إلا أن البؤس يكثر استعماله في الحرب ونحوه والبأس والبأساء في غيره كالفقر والجدب والقحط ونحوها.

ب. والضر والضراء هو سوء الحال فيما يرجع إلى النفس كغم وجهل أو ما يرجع إلى البدن كمرض ونقص بدني أو ما يرجع إلى غيرهما كسقوط جاه أو ذهاب مال.

ج. ولعل المقصود من الجمع بين البأساء والضراء الدلالة على تحقق الشدائد في الخارج كالجدب والسيل والزلزلة، وما يعود إلى الناس من قبلها من سوء الحال كالخوف والفقر ورثاثة الحال.

د. والضراعة هي المذلة والتضرع التذلل والمراد به التذلل إلى الله سبحانه لكشف ما نزل عليهم من نوازل الشدة والرزية.

٢. والله سبحانه يذكر لنبيه ﷺ في هذه الآية وما يتلوها إلى تمام أربع آيات سنته في الأمم التي من قبله إذ جاءتهم رسلهم بالبينات: أنه كان يرسل إليهم الرسل فيذكرونهم بتوحيد الله سبحانه والتضرع وإخلاص الإنابة إليه ثم يبتليهم بأنواع الشدة والمحن ويأخذهم بالبأساء والضراء ولكن بمقدار لا يلجئهم إلى التضرع ولا يضطرهم إلى الابتهال والاستكانة لعلهم يتضرعون إليه بحسن اختيارهم، ويلين قلوبهم فيعرضوا عن التزيينات الشيطانية وعن الإخلاد إلى الأسباب الظاهرية لكنهم لم يتضرعوا إليه بل أقسى الاشتغال بأعراض الدنيا قلوبهم وزين لهم الشيطان أعمالهم، وأنساهم ذلك ذكر الله، فلما نسوا ذكر الله سبحانه فتح الله عليهم أبواب كل شيء وصب عليهم نعمه المتنوعة صبا حتى إذا فرحوا بما عندهم من النعم واغتروا واستقلوا بأنفسهم من دون الله أخذهم الله بغتة ومن حيث لا يشعرون به فإذا هم آيسون من النجاة شاهدون سقوط ما عندهم من الأسباب فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

٣. وهذه السنة سنة الاستدراج والمكر الذي لخصها الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]

٤. وبالتأمل فيما تقدم من تقرير معنى الآية والتدبر في سياقها يظهر أن الآية لا تنافي سائر الآيات الناطقة بأن الإنسان مفطور على التوحيد ملجأ باقتضاء من فطرته وجبلته إلى الإقرار به والتوجه إليه عند الانقطاع عن الأسباب الكونية كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]، وذلك أن الآية لا تريد

من البأساء والضراء إلا ما لا يبلغ من الشدة والمهابة مبلغا يذهلون به عن كل سبب وينسون به كل وسيلة عادية، ومن الدليل على ذلك قوله في الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إذ (لعل) كلمة رجاء ولا رجاء مع الإلجاء والاضطرار، وكذا قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن ظاهره أنهم اغتروا بذلك وتوسلوا في رفع البأساء والضراء إلى أعمالهم التي عملوها بأيديهم ودبروها بتدابيرهم للغلبة على موانع الحياة وأضداد العيش فاشتغلوا بالأسباب الطبيعية الملهية إياهم عن التضرع إلى الله سبحانه والاعتصام به، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [المؤمن: ٨٤] فالآية الأولى كما ترى ـ تحكي عنهم نظير ما تحكيه الآية التي نحن فيها من الإعراض عن التضرع والاغترار بالأعمال، والآية الثانية: تحكي ما تحكيه الآيات الأخرى من التوحيد في حال الاضطرار.

٥. سؤال وإشكال: ومن هنا يظهر فساد ما يظهر من بعضهم أن ظاهر الآية كون الأمم السابقة مستنكفة عن التوحيد معرضة عن التضرع حتى في الشدائد الملجئة قال في تفسير الآية: (أقسم الله تعالى لرسوله ﷺ أنه أرسل رسلا قبله إلى أمم قبل أمته فكانوا أرسخ من قومه في الشرك، وأشد منهم إصرارا على الظلم فإن قومه يدعون الله وحده عند شدة الضيق)، والجواب: لازم ما ذكره أن لا يكون التوحيد فطريا يظهر عند ارتفاع الأوهام الشاغلة والانقطاع عن الأسباب الظاهرة أو أن يمكن إبطال حكم الفطرة من أصله، وقد قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم: ٣٠] فأفاد أن دين التوحيد فطري، وأن الفطرة لا تقبل التغيير بمغير وأيد ذلك بآيات أخر ناصة على أن الإنسان عند انقطاعه عن الأسباب يتوجه إلى ربه بالدعاء مخلصا له الدين لا محالة، على أن الإقرار بالإله الواحد عند الشدة والانقطاع مما نجده من أنفسنا وجدانا ضروريا ولا يختلف في ذلك الإنسان الأولي وإنسان اليوم البتة.

٦. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿فَلَوْلَا﴾ للتحضيض أو للنفي، وعلى أي حال تفيد في المقام فائدة النفي بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقسوة القلب مقابل لينه، وهو كون الإنسان لا يتأثر عن مشاهدة ما يؤثر فيه عادة أو عن استماع كلام شأنه التأثير، والمعنى: فلم يتضرعوا حين مجيء البأس ولم يرجعوا إلى ربهم بالتذلل بل أبت نفوسهم أن تتأثر عنه، وتلهوا بأعمالهم

الشيطانية الصارفة لهم عن ذكر الله سبحانه، وأخلدوا إلى الأسباب الظاهرة التي كانوا يرون استقلالها في إصلاح شأنهم.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال في (الصحاح): (البأساء: الشدة)، وقال: (والبأساء، والضراء: الشدّة) لعل في مفهومها اختلافاً، باعتبار البؤس في البأساء أي هو يقابل النّعمة، واعتبار الضر في الضراء.

٢. في التعبير بأخذهم دلالة على عظَم المصيبة وقهرها لهم واستيلائها عليهم، بحيث عجزوا عن دفعها واستسلموا لها، وذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى الله إذا علموا أن سببها هو الكفر، فيؤمنوا برسلهم، والتضرع التذلل الذي هو ضد التكبر وإذا تركوا الكبر وتذللوا لله آمنوا.

٣. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ لأن الشدة هي من الله، فهلا تضرعوا إليه حين جاءت، لأن من شأن العاقل طلب النجاة إذا أمكن، وهو ممكن بالتضرع ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم تؤثر فيها الشدة لتلين وتذل لله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ما تكرر منهم وألفوه من الشرك وسائر الباطل وتزيين الشيطان لهم: وسوسته لهم بما يرغبهم فيما هم عليه حتى يرغبوا فيه، فيكون في رأيهم حسناً لإلْفهم لَه ورغبتهم فيه، فاستحسنوه استحسان النفس لما تشتهيه، فلم يتضرعوا بل تحملوا الشدة وصبروا عليها.

٤. والفرق بين البأس هذا والعذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ أن البأس هذا لم يبلغ بهم الخوف الشديد الملجئ إلى الرجوع الذي يكون عند ظن الهلاك، فلذلك تحملوه وصبروا عليه إصراراً على كفرهم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤٣.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٨٢.

١. تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضّالين والمشركين، ويتخذ القرآن فيها طريقا آخر لإيقاظهم وذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الأمم الضالة والظالمة والمشركة، ويبيّن لهم كيف أتيح لها جميع عوامل التربية والتهذيب والوعي، غير أنّ جمعا منهم لم يلقوا بالا إلى أي من تلك العوامل، ولم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و(ضراء)

٢. (البأساء) الشدة والمكروه، وتطلق على الحرب أيضا، وكذلك القحط والجفاف والفقر، أما (الضراء) فأكثر ما تعني العذاب الروحي، كالهم والغم والاكتئاب والجهل، أو الآلام الناشئة عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام، ولعل الاختلاف بين معنيي اللفظتين ناشئ عن أن (البأساء) تشير إلى المكروه الخارجي و(الضراء) تشير إلى المكروه الداخلي، النفسي أو الروحي، وعلى هذا تكون (البأساء) من عوامل إيجاد (الضراء)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد!؟ ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أنّهم لم يستيقظوا، ولذلك سببان:

أ. الأوّل: إنّهم لكثرة آثامهم وعنادهم في الشرك زايلت الرحمة قلوبهم والليونة أرواحهم: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

ب. والثّاني: إنّ الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزيّن في نظرهم أعمالهم، فكل قبيح ارتكبوه أظهره لهم جميلا، ولكل خطأ فعلوه جعله في عيونهم صوابا: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٣. سؤال وإشكال: قد يبدو لبعضهم أنّ هذه الآيات تتعارض مع الآيات السابقة، فقد بيّنت الآيات السابقة أنّ المشركين إذا هاجمتهم المصاعب والشدائد يتوجهون إلى الله وينسون كل ما عداه، ولكن هذه الآيات تقول: إنّ هؤلاء لا يستيقظون حتى بعد تعرضهم للمنغصات الشديدة، والجواب: هذا التباين الظاهري يزول إذا انتبهنا إلى:

أ. أنّ اليقظة الخاطفة المؤقتة عند ظهور الشدائد لا تعتبر يقظة حقيقية، لأنّهم سرعان ما يعودون إلى الغفلة السابقة.

ب. في الآيات السابقة كان الكلام عن التوحيد الفطري، فكان التيقظ والتوجه العابر ونسيان كل

شيء سوى الله في تلك اللحظات الحساسة ما يكفي لإثبات ذلك، أمّا في هذه الآيات فالكلام يدور عن الاهتداء والرجوع عن الضلال إلى الطريق المستقيم، لذلك فانّ اليقظة العابرة المؤقتة لا تنفع شيئا.

ج. قد يتصور أنّ الاختلاف بين الموضعين هو أنّ الآيات السابقة تشير إلى المشركين الذين عاصروا رسول الله ﷺ، والآيات التي بعدها تشير إلى الأقوام السابقين، ولذلك لا تعارض بينهما، ولكن من المستبعد جدّا أن يكون المشركون المعاندون المعاصرون لرسول الله ﷺ خيرا من الضالين السابقين، وعليه فلا حلّ للإشكال إلّا بما قلناه.

٤. يتّضح من هذه الآيات أنّ هدف الكثير من الحوادث المؤلمة هو الإيقاظ والتوعية، وهذا جانب من فلسفة (المصائب والآفات) التي تحدثنا بشأنها في بحث التوحيد، ولكن الملفت للنظر هو أنّه يبدأ الموضوع بكلمة (لعل)، وذلك لأنّ نزول البلاء وحده لا يكفي للإيقاظ، بل هو تمهيد للقلوب المستعدة (سبق أن قلنا أنّ (لعل) في كلام الله تستعمل حيثما تكون هناك شروط أخرى) هنالك أيضا كلمة (تضرع) التي تعني أصلا نزول اللبن في الثدي واستسلامه للرضيع، ثمّ انتقل المعنى إلى الاستسلام مع الخضوع والتواضع، أي أنّ تلك الحوادث الشديدة تهدف إلى إنزالهم عن مطية الغرور والتمرد والأنانية، والاستسلام لله.

٢٣. النسيان والفرح ونهاية الإهمال

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

عبادة:

روي عن عبادة بن الصامت (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بقومٍ بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد بقومٍ اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

علي:

روي عن الإمام الرضا أن قنبرا مولى الإمام علي (ت ٤٠ هـ) ادخل على الحجاج بن يوسف، فقال له: ما الذي كنت تلي من أمر الإمام علي؟ قال كنت أوضئه، فقال له: ما كان يقول إذا فرغ من وضوئه؟ قال كان يتلو هذه الآية ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال الحجاج: كان يتأولها: علينا؟ فقال: نعم، فقال: ما أنت صانع إذا ضربت علاوتك؟ قال: إذن أسعد وتشقى، فأمر به فقتله[2].

عقبة:

روي عن عقبة بن عامر (ت ٦٠ هـ) عن النبي ﷺ أنّه قال: إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا ـ

---

(١) الطبراني في مسند الشاميين ١/ ١٣٦.

(٢) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٩.

وهو مقيم على معاصيه ـ ما يحبّ؛ فإنّما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية والآية التي بعدها[1].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، قال يعني: تركوا ما ذكّروا به[2].

٢. روي أنّه قال: أبلسوا، يقول: أيسوا[3].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، رخاء الدنيا ويسرها على القرون الأولى[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، فجأة آمنين[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، الاكتئاب، وفي لفظ قال: آيسون[6].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، عام الفتح[7].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: من وسّع عليه فلم ير أنّه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية، وقال الحسن: مكر

---

(١) أحمد ٢٨/ ٥٤٧.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٤٤.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٢.

(٤) تفسير مجاهد، ص ٣٢١.

(٥) ابن جرير ٩/ ٢٤٧.

(٦) ابن جرير ٩/ ٢٤٨.

(٧) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٢.

بالقوم، وربّ الكعبة؛ أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾: مبصبصون[2].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. عن أبي حمزة، قال سئل الإمام الباقر عن قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، قال: أما قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني فلما تركوا ولاية الإمام علي وقد أمروا بها ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني دولتهم في الدنيا، وما بسط لهم فيها، وأما قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يعني بذلك قيام القائم عليه السلام، حتى كأنهم لم يكن لهم سلطان قط، فذلك قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ فنزلت بخبره هذه الآية على محمد ﷺ[3].

٢. روي أنّه قال: أما قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني فلما تركوا ولاية علي وقد أمروا بها ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني دولتهم في الدنيا وما بسط لهم فيها، وأما قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يعني قيام القائم عليه السلام[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ قال: لما تركوا ولاية علي عليه السلام وقد أمروا بها ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نزلت في ولد العباس[5].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يعني: الرخاء، وسعة الرزق[6].

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩١.

(٢) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٧.

(٣) تفسير القمّي ١/ ٢٢٠.

(٤) بصائر الدرجات: ٩٨/ ٥، ٣ معاني الأخبار: ٢٥٢/ ١.

(٥) تفسير العيّاشي ١/ ٣٦٠.

(٦) عبد الرزاق ١/ ٢٠٩.

٢. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، بغت القوم أمر الله، ما أخذ الله قوما قطّ إلا عند سلوتهم وغرّتهم ونعيمهم، فلا تغترّوا بالله؛ فإنّه لا يغترّ بالله إلا القوم الفاسقون[١].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ معناه نادمون[٢].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، من الرّزق[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، يقول: أخذهم العذاب بغتة[٤].

٣. روي أنّه قال: الإبلاس: تغيير الوجوه: وإنّما سمّي: إبليس؛ لأنّ الله نكس وجهه وغيّره[٥].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، قال مهلكون، متغيّر حالهم[٦].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: إنّ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا شبعت ماتت، وكذلك ابن آدم إذا امتلأ من الدنيا أخذه الله عند ذلك، ثم تلا: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[٧].

أبي حازم:

روي عن أبي حازم (ت ١٤٠ هـ) أنّه قال: إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره،

---

(١) نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٤٥.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٤٧.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٢.

(٦) ابن جرير ٩/ ٢٤٧.

(٧) ابن جرير ١/ ٤٢٣.

وكلّ نعمةٍ لا تقرّب من الله عز وجل فهي بليّة[1].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من التعظيم[2].

٢. روي أنّه قال: نزلت في بني فلان ثلاث آيات: قوله عز وجل ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ يعني القائم عليه السلام بالسيف ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾، وقوله عز وجل: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالسيف، وقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ يعني القائم عليه السلام يسأل بني فلان عن كنوز بني امية[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ قال: أخذ بنو امية بغتة، ويؤخذ بنو العباس جهرة[4].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعيم[5].

٥. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من التّرفيه والنعيم ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ إلى سواء الجحيم[6].

٦. روي أنّه قال: أوحى الله إلى داود: خفني على كلّ حال، وأخوف ما تكون عند تظاهر النّعم عليك؛ لا أصرعك عندها ثم لا أنظر إليك[7].

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٤٥٣٨).

(٢) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٨.

(٣) دلائل الإمامة: ٢٥٠.

(٤) تفسير العيّاشي ١/ ٣٦٠.

(٥) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٨.

(٦) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٨.

(٧) نسبه السيوطي إلى ابن المنذر.

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، ما دعاهم الله إليه ورسله، أبوه وردّوه عليهم[(١)].

٢. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، أعجب ما كانت إليهم، وأغرّها لهم[(٢)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، يعني: فلمّا تركوا ما أمروا به، يعني: وعظوا به، يعني: الأمم الخالية ممّا دعاهم الرسل فكذّبوهم[(٣)].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أرسلنا عليهم ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: أنواع الخير من كلّ شيء بعد الضر الذي كان نزل بهم، نظيرها في الأعراف[(٤)].

٣. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾، يعني: بما أعطوا من أنواع الخير، وأعجبهم ما هم فيه[(٥)].

٤. روي أنّه قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، يعني: أصبناهم بالعذاب بغتة، يعني: فجأة، أعزّ ما كانوا[(٦)].

٥. روي أنّه قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، يعني: فإذا هم مرتهنون، آيسون من كل خير[(٧)].

الثوري:

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٤٤.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٤٧.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

روي عن سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) أنّه قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، ستّين سنة[١].

ابن النضر:

روي عن محمد بن النضر الحارثي (ت ١٧١ هـ) أنّه قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، أمهلوا عشرين سنة[٢].

ابن زيد:

روي عن حماد بن زيد (ت ١٧٩ هـ) أنّه قال: كان رجل يقول: رحم الله رجلا تلا هذه الآية، ثم فكّر فيها ماذا أريد بها: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[٣].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، المبلس: المجهود المكروب الذي قد نزل به الشرّ الذي لا يدفعه، والمبلس أشدّ من المستكين[٤].

عيينة:

روي عن سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) أنّه قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ رخاء الدنيا ويسرها، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[٥].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٦]:

١. سؤال وإشكال: سألت: عن قول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، فقلت: كيف أخذهم بفرحهم بما آتاهم؟ والجواب: لم يأخذهم عز وجل بما توهمت؛ ولكن أخذهم سبحانه وجل عن كل شأن شأنه بذنوبهم؛ ألا

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٢.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٤٦.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٤٦.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٤٨.

(٥) سعيد بن منصور في سننه ٥/ ٢٠.

(٦) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٨٣.

تسمع كيف يقول عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يقول: لما نسوا ما أمروا به، وبعثت الأنبياء فيه، ومعنى نسوا فإنما هو: تركوا وغفلوا وسهوا، فلما تركوا ما أمرهم الله عز وجل به، وأعرضوا عنه ونسوه ـ فتح عليهم سبحانه ـ كما قال ـ أبواب كل شيء يحبون؛ لإقامة الحجة عليهم، فكان ذلك إملاء لهم، وتأخيرا لعقوبتهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]، فكان ذلك إملاء لهم؛ وما فتح الله سبحانه عليهم أوكد في الحجة، وأشد للأخذ، وآلم للعقوبة، والله سبحانه فلا يخشى فوتا ولا يعجل، وإنما يعجل من يخشى الفوت، أو يضره شيء فيتقيه، والله عز وجل فلا يضره شيء من معصيتهم، ولا تنفعه طاعتهم؛ بل هم ضارون في ذلك لأنفسهم، فلما أن فرحوا بما أوتوا، وجعلوه في معاصي الله عز وجل، ونسوا ما أمرهم به ـ أخذهم سبحانه بغتة، وذلك أشد حسرة، يكون الأخذ على الغفلة، فإذا هم مبلسون، فانقطع عنهم اللهو والعبث، واليسارة والغنى، وصاروا إلى الآخرة مبلسين، وعند الله عز وجل مهلكين.. والمبلس هو: الذي ليس له ولا في يده شيء، العادم لما كان معه، الآيس مما كان يؤمله؛ فدامت حسراتهم، وحصلوا بذنوبهم حيث ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٧]

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾:

أ. يحتمل: ابتداء ترك، أي: تركوا الإجابة إلى ما دعوا وتركوا ما أمروا به.

ب. ويحتمل: نسوا ما ذكروا به من الشدائد والبلايا.

٢. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يحتمل وجهين:

أ. يحتمل أبواب كل شيء مما يحتاجون إليه، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾.

ب. ويحتمل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، أي: تركوا ما وعظوا به، يعني: بالأمم الخالية لما دعاهم الرسل فكذبوهم.

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٦.

٣. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: أنزلنا عليهم أبواب كل شيء من أنواع الخير بعد الضر والشدة الذي كان نزل بهم.

٤. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، اختلف فيه:

أ. قال بعضهم: المبلس: الآيس من كل خير.

ب. قَالَ الْقُتَبِيُّ: المبلس: الآيس الملقي بيديه.

ج. وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: المبلس: هو الحزين المغتم الآيس من الرحمة وغيرها من الخير.

د. وقال الفراء: المبلس هو المنقطع الحجة.

هـ. وقيل: لذلك سُمي إبليس لعنه الله إبليس لما أيس من رحمة الله.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ معنى نسوا تركوا ما ذكرهم الله به من آياته الدالة على توحيده وصدق رسوله ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني من نعمه التي أنعم بها عليهم وسعة أرزاقهم ليكون إنعامه عليهم داعياً إلى إيمانهم، وقد روينا عن أبينا رسول الله ﷺ أنّه قال: إذا رأيت الله عز وجل يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم إياه فاعلم أن ذلك استدراج منه ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. الآية.

٢. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ يعني من النعم فلم يؤمنوا ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ وهو سرعة الموت عند الغفلة منه بالنعم قطعاً للذة وتعذيباً بالحسرة ثم قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ والإبلاس هو الإياس والندم والسكون وقد ذكرناه فيما تقدم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ معنى ذلك أنهم تركوا ما ذَكَّرَهُم الله من آياته الدالة على توحيده

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٢.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/ ١١٤.

وصدق رسوله.

٢. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني من نِعَمِ الدنيا وسَعَة الرزق، وفي إنعامه عليهم مع كفرهم وجهان:

أ. أحدهما: ليكون إنعامه عليهم داعياً إلى إيمانهم.

ب. الثاني: ليكون استدراجاً وبلوى، وقد روى ابن لهيعة بإسناده عن عقبة ابن عامر أن النبي ﷺ قال: (إذا رأيت الله يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم إياه فإنما ذلك استدراج منه) ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾

٣. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ يعني من النِّعَمْ فلم يؤمنوا، ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أنه تعجيل العذاب المُهْلِك جزاء لأمرين:

• أحدهما: لكفرهم به.

• الثاني: لكفرهم بنِعَمِهِ.

ب. الثاني: هو سرعة الموت عند الغفلة عنه بالنِّعَمِ قَطْعاً للذة، وتعذيباً للحسرة.

٤. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ وفيه خمسة تأويلات:

أ. أحدها: أن الإبلاس: الإياس قال عدي بن زيد:

ملك إذا حل العفاة ببابه ... غبطوا وأنجح منهم المستبلس

يعني الآيس.

ب. الثاني: أنه الحزن والندم.

ج. الثالث: الخشوع.

د. الرابع: الخذلان.

هـ. الخامس: السكوت وانقطاع الحجة، ومنه قول العجاج:

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً ... قال نعم أعرفه وأبلسا

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين الله تعالى بهذه الآية أن هؤلاء الكفار لما لم ينتفعوا بالبأساء والضراء على ما اقتضت مصلحتهم، ونسوها أي تركوها فصارت في حكم المنسي ابتليناهم بالتوسعة في الرزق ليرغبوا بذلك في نعيم الآخرة، وينبهوا عليه، فيطيعوا ويرجعوا عما هم عليه، فلما لم ينجع ذلك فيهم ولم يرتدعوا عن الفرح بما أوتوا، ولم يتَّعظوا ولم ينفعهم الزجر بالضراء والسراء، ولا الترغيب بالتوسعة والرخاء أحللنا بهم العقوبة بغتة أي مفاجأة من حيث لا يشعرون.

٢. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، قال الزجاج: (المبلس) الشديد الحسرة و(البائس) الحزين، وقال البلخي: معنى مبلسون يعني: أذلة خاضعين، وقال الجبائي: معنى (مبلسون) آيسون، وقال الفراء المبلس: المنقطع الحجة، قال رؤبة:

وحضرت يوم خميس الأخماس وفي الوجوه صفرة وإبلاس

وقال مجاهد: الإبلاس السكوت مع اكتئاب.

٣. ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد به التكثير دون العموم، وهو مثل قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكقول القائل: أكلنا عنده كل شيء ورأينا منه كل خير، وكما يقال هذا قول أهل العراق، وأهل الحجاز، ويراد به قول أكثرهم، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ وكل ذلك يراد به الخصوص، وموضوعه التكثير، والتفخيم، وإذا علمنا في الجملة بالعقل أن هذه الآيات مخصوصة، فلا ينبغي أن يعتقد فيها تخصيص شيء بعينه، وليس علينا أكثر من أن نعتقد أنهم أوتوا خيراً كثيراً، وفتح عليهم أبواب أشياء كثيرة كانت متعلقة عليهم، وليس يلزمنا أكثر من ذلك.

٤. سؤال وإشكال: الذي يسبق إلى القلوب غير ما تأولتم عليه وهو أن الله إنما فتح عليهم أبواب كل شيء ليفرحوا ويمرحوا ليستحقوا العقاب، والجواب: الظاهر وإن كان كذلك انصرفنا عنه بدليل، كما انصرفنا عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وعن قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وعن قوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ فكما يجب أن تترك ظاهر هذه الآيات وإن كان ظاهرها التشبيه فكذلك ترك ما ظاهره يوجب

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٣٨.

إضافة القبيح إليه وينافي عدله ويعدل إلى ما يليق بحكمته وعدله.

٥. قراءات ووجوه: قرأ ابن عامر وأبو جعفر، وورش (فتحنا) وفي الأعراف (لفتحنا) وفي الأنبياء (فتحت) وفي القمر (ففتحنا أبواب السماء) بالتشديد فيهن، وافقهم روح في الأنبياء والقمر، والباقون بالتخفيف فيهن، ومن ثقل أراد التكثير، ومن خفف أراد الفعل مرة واحدة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الإبلاس: اليأس من النجاة والرحمة، ومنه اشتق إبليس.

٢. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾:

قيل: تركوا ما ذكروا به من الأوامر والنواهي، عن ابن عباس وابن جريج وأبي علي.

وقيل: لما تعرضوا للنسيان.

٣. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي كل نعمة، و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدل على النعم الكثيرة، يعني إنه تعالى امتحنهم بالشدائد والمضار لكي يتضرعوا ويتوبوا، فلما تركوا ذلك فتحنا عليهم أبواب النعم ليتذكروا بالنعم، وليتوبوا؛ لأن من تتنقل عليه الأحوال ينتبه.

٤. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أُعْطُوا، يعني اشتغلوا بالتلذذ وعاجل الشهوات وظاهر الحياة الدنيا دون التفكر في أمر الآخرة ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني فجأة لَمَّا لم يصلحوا بالحالين، وصاروا بحيث لا لطف لهم أخذناهم فجأة من حيث لا يشعرون.

٥. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾:

أ. قيل: خرجوا من الدنيا آيسين من رحمة الله.

ب. وقيل: هالكين، عن السدي.

ج. وقيل: أذلة خاضعين، عن الأصم.

د. وقيل: مخذولين، عن أبي مسلم.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٦٠.

هـ. وقيل: خاشعين.

و. وقيل: مكتئبين، عن مجاهد.

ز. وقيل: هو انقطاع الحجة.

ح. وقيل: هو الحيرة بما يؤول على النفس من البلية.

ط. وقيل: هو الحزن.

٦. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن العاصي يؤتى النعم؛ لذلك قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾

ب. أن نعم الدنيا ليست بالاستحقاق، كنعم الآخرة.

ج. أنه يأخذ بالشدة والنعمة لطفًا على حسب ما هو أصلح للعبد.

د. التحذير من اغترارنا بالدنيا، ومن بلوغ الأوطار من حيث يتعقبه بالموت والزوال بغتة.

٧. قرأ ابن عامر وأبو جعفر ﴿فَتَّحْنَا﴾ بالتشديد، وكذلك يقرأ أبو جعفر كل القرآن، وابن عامر إلا في موضعين ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا﴾، و﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا﴾ فإنه خففهما فقط، وقرأ الباقون بالتخفيف كل القرآن.

٨. ﴿بَغْتَةً﴾ نصب على الحال؛ أي: أخذناهم في هذه الحال.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قراءات ووجوه: قرأ أبو جعفر ﴿فَتَّحْنَا﴾ بالتشديد في جميع القرآن، ووافقه ابن عامر إلا قوله: (لو فتحنا عليهم بابا)، و﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا﴾ فإنه خففهما، ووافقهما يعقوب في القمر، وقرأ الباقون في جميع ذلك بالتخفيف، إلا مواضع قد اختلفوا فيها سنذكرها إن شاء الله، إذا بلغنا إلى مواضعها.. من ثقل: أراد التكثير والمبالغة، ومن خفف لم يرد ذلك.

٢. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٤٦.

أ. أي: تركوا ما وعظوا به، عن ابن عباس، وتأويله: تركوا العمل بذلك.

ب. وقيل: تركوا ما دعاهم إليه الرسل، عن مقاتل.

٣. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾:

أ. أي: كل نعمة وبركة من السماء والأرض، عن ابن عباس.

ب. وقيل: أبواب كل شيء كان مغلقا عنهم، من الخير، عن مقاتل، والمعنى أنه تعالى امتحنهم بالشدائد، لكي يتضرعوا ويتوبوا، فلما تركوا ذلك، فتح عليهم أبواب النعم والتوسعة في الرزق، ليرغبوا بذلك في نعيم الآخرة، وإنما فعل ذلك بهم، وإن كان الموضع موضع العقوبة والانتقام، دون الإكرام والإنعام، ليدعوهم ذلك إلى الطاعة، فإن الدعاء إلى الطاعة يكون تارة بالعنف، وتارة باللطف، أو لتشديد العقوبة عليهم بالنقل من النعيم إلى العذاب الأليم.

٤. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من النعيم واشتغلوا بالتلذذ، وأظهروا السرور بما أعطوه، ولم يروه نعمة من الله تعالى حتى يشكروه ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي: أحللنا بهم العقوبة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾:

أ. أي: آيسون من النجاة والرحمة، عن ابن عباس.

ب. وقيل: أذلة خاضعون عن البلخي.

ج. وقيل: متحيرون منقطعو الحجة، والمعاني متقاربة.

٥. الملبس: الشديد الحسرة،؟ وقال الفراء الملبس: المنقطع الحجة، قال رؤية:

وحضرت يوم الخميس الأخماس   وفي الوجوه صفرة وإبلاس

٦. المراد بقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ التكثير والتفخيم دون التعميم، وهو مثل قوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] والمراد: فتحنا عليهم أبواب أشياء كثيرة، وآتيناهم خيرا كثيرا، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا رأيت الله تعالى يعطي على المعاصي، فإن ذلك استدراج منه) ثم تلا هذه الآية، ونحوه ما روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال يا ابن آدم! إذا رأيت ربك يتابع عليك نعمه فاحذره.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ قال ابن عباس: تركوا ما وعظوا به، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد رخاء الدنيا وسرورها، وقرأ أبو جعفر، وابن عامر: (فتّحنا) بالتّشديد هنا وفي الأعراف، وفي الأنبياء: (فتّحت)، وفي القمر: (فتّحنا)، والجمهور على تخفيفهن.

٢. قال الزّجّاج: أبواب كل شيء كان مغلقا عنهم من الخير، حتى إذا ظنّوا أنّ ما كان نزل بهم، لم يكن انتقاما، وما فتح عليهم، باستحقاقهم، أخذناهم بغتة، أي: فاجأهم عذابنا.

٣. وقال ابن الأنباريّ: إنما أراد بقوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: التّأكيد، كقول القائل: أكلنا عند فلان كلّ شيء وكنّا عنده في كلّ سرور، يريد بهذا العموم تكثير ما يصفه والإطناب فيه، كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال الحسن: من وسّع عليه فلم ير أنه لم يمكر به، فلا رأي له؛ ومن قتّر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ هذه الآية، وقال: مكر بالقوم وربّ الكعبة، أعطوا حاجاتهم ثمّ أخذوا.

٤. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ في المبلس خمسة أقوال:

أ. أحدها: أنه الآيس من رحمة الله عزّ وجلّ، رواه الضّحّاك عن ابن عباس؛ وقال في رواية أخرى: الآيس من كلّ خير، وقال الفرّاء: المبلس: اليائس المنقطع رجاؤه، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجّته، فلا يكون عنده جواب: قد أبلس، قال العجّاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا...قال نعم! أعرفه! وأبلسا

أي: لم يحر جوابا، وقيل: المكرس: الذي قد بعرت فيه الإبل، وبوّلت، فيركب بعضه بعضا.

ب. الثاني: أنه المفتضح، قال مجاهد: الإبلاس: الفضيحة.

ج. الثالث: أنه المهلك، قاله السّدّيّ.

د. الرابع: أنه المجهود المكروب الذي قد نزل به من الشّر ما لا يستطيعه، قاله ابن زيد.

هـ. الخامس: أنه الحزين النادم، قاله أبو عبيدة، وأنشد لرؤبة:

وحضرت يوم الخميس الأخماس   وفي الوجوه صفرة وإبلاس

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٠.

أي: اكتئاب، وكسوف، وحزن، وقال الزّجّاج: هو الشّديد الحسرة، الحزين، اليائس، وقال في موضع آخر: المبلس: السّاكت المتحيّر.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. هذا الكلام من تمام القصة الأولى، حيث بيّن الله تعالى أنه أخذهم أولا بالبأساء والضراء لكي يتضرعوا ثم بيّن في هذه الآية أنهم لما نسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء فتحنا عليهم أبواب كل شيء ونقلناهم من البأساء والضراء إلى الراحة والرخاء وأنواع الآلاء والنعماء، والمقصود أنه تعالى عاملهم بتسليط المكاره والشدائد عليهم تارة فلم ينتفعوا به، فنقلهم من تلك الحالة إلى ضدها وهو فتح أبواب الخيرات عليهم وتسهيل موجبات المسرات والسعادات لديهم فلم ينتفعوا به أيضا، وهذا كما يفعله الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى طلبا لصلاحه حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الخير والنعم، لم يزيدوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر ولا إقدام على اعتذار وتوبة، فلا جرم أخذناهم بغتة.

٢. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقا عنهم من الخير، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ أي حتى إذا ظنوا أن الذي نزل بهم من البأساء والضراء ما كان على سبيل الانتقام من الله، ولما فتح الله عليهم أبواب الخيرات ظنوا أن ذلك باستحقاقهم، فعند ذلك ظهر أن قلوبهم قست وماتت وأنه لا يرجى لها انتباه بطريق من الطرق، لا جرم فاجأهم الله بالعذاب من حيث لا يشعرون، قال الحسن: في هذه الآية مكر بالقوم ورب الكعبة، وقال ﷺ: (إذا رأيت الله يعطي على المعاصي فإن ذلك استدراج من الله تعالى) ثم قرأ هذه الآية، قال أهل المعاني: وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية.

٣. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من كل خير، قال الفرّاء: المبلس الذي انقطع رجاؤه، ولذلك قيل للذي سكت عند انقطاع حجته قد أبلس، وقال الزجاج: المبلس الشديد الحسرة الحزين، والإبلاس في اللغة يكون بمعنى اليأس من النجاة عند ورود الهلكة، ويكون بمعنى انقطاع الحجة، ويكون بمعنى

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣٥.

الحيرة بما يرد على النفس من البلية وهذه المعاني متقاربة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. سؤال وإشكال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ لم ذموا على النسيان وليس من فعلهم؟ والجواب:

أ. أن ﴿نَسُوا﴾ بمعنى تركوا ما ذكروا به، عن ابن عباس وابن جريج، وهو قول أبي علي، وذلك لأن التارك للشيء إعراضا عنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي، كما يقال: تركه، في النسي.

ب. جواب آخر: وهو أنهم تعرضوا للنسيان فجاز الذم لذلك، كما جاز الذم على التعرض لسخط الله تعالى وعقابه.

٢. معنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من النعم والخيرات، أي كثرنا لهم ذلك، والتقدير عند أهل العربية: فتحنا عليهم أبواب كل شي كان مغلقا عنهم، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ معناه بطروا وأشروا وأعجبوا وظنوا أن ذلك العطاء لا يبيد، وأنه دال على رضاء الله تعالى عنهم.

٣. ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي استأصلناهم وسطونا بهم، و﴿بَغْتَةً﴾ معناه فجأة، وهي الأخذ على غرة ومن غير تقدم أمارة، فإذا أخذ لإنسان وهو غار غافل فقد أخذ بغتة، وأنكى شي ما يفجأ من البغت، وقد قيل: إن التذكير الذي سلف ـ فأعرضوا عنه ـ قام مقام الإمارة و﴿بَغْتَةً﴾ مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه عند سيبويه كما تقدم، فكان ذلك استدراجا من الله تعالى كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف] نعوذ بالله من سخطه ومكره.

٤. قال بعض العلماء: رحم الله عبدا تدبر هذه الآية ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، وقال محمد بن النضر الحارثي: أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة، وروى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: (إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم) ثم تلا ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية كلها، وقال الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٢٦.

قد نقص عمله، وعجز رأيه، وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: (إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا إليك فقل ذنب عجلت عقوبته)

٥. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ المبلس الباهت الحزين الآيس من الخير الذي لا يحير جوابا لشدة ما نزل به من سوء الحال، قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال نعم أعرفه وأبلسا

أي تحير لهول ما رأى، ومن ذلك اشتق اسم إبليس، أبلس الرجل سكت، وأبلست الناقة وهي مبلاس إذا لم ترغ من شدة الضبعة، ضبعت الناق تضبع ضبعة وضبعا إذا أرادت الفحل.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا ما ذكروا به، أو أعرضوا عما ذكروا به، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به، إذ ليس هو من فعلهم، وبه قال ابن عباس وابن جريج وأبو علي الفارسي، والمعنى: أنهم لما تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضرّاء وأعرضوا عن ذلك.

٢. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لما نسوا ما ذكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير على أنواعه فرح بطر وأشر وأعجبوا بذلك وظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذي هم عليه حقا وصوابا.

٣. ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهم غير مترقبين لذلك، والبغتة: الأخذ على غرّة من غير تقدمة أمارة، وهي مصدر في موضع الحال لا يقاس عليها عند سيبويه.

٤. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ المبلس: الحزين الآيس من الخير لشدّة ما نزل به من سوء الحال، ومن ذلك اشتق اسم إبليس، يقال: أبلس الرجل إذا سكت، وأبلست الناقة إذا لم ترع، قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال نعم أعرفه وأبلسا

(أبلس): سكت غمّا.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٣.

أي تحيّر لهول ما رأى، والمعنى: فإذا هم محزونون متحيّرون آيسون من الفرح.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ تركوا ﴿مَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعظوا ﴿بِهِ﴾ من البأساء والضرَّاء، ولم يتَّعظوا، وقيل: المراد بالنسيان هنا لازم ترك ما وُعظوا به، وهو الانهماك في المعاصي.

٢ . ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: لهم استدراجًا، وذلك بصورة النفع وَلَكِنَّ عاقبته الشرُّ، وهو حكمة لفظة (عَلَى)؛ ومن حكمتها: التكثيرُ كالشيء المتدلِّي عليهم المجلل لهم من فوقهم وجوانبهم كما قال: ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فإنَّ المعنى أنواع النِّعم كالرزق والصحَّة والجاه، أُخِذوا حال النعم الكثيرة والفرح ليكون أشدَّ عليهم لتحسُّرهم على ما فاتهم، وبيان أنَّ الأمر على غير ما اطمأنُّوا إليه، ﴿حَتَّى﴾ غاية لـ (فَتَحْنَا)، أو فعلوا ما فعلوا.

٣ . حتَّى ﴿إِذَا فَرِحُواْ﴾ فَرَحَ بَطَرٍ واطمأنُّوا ﴿بِمَآ أُوتُواْ﴾ من النعم، معجبين به، ومشتغلين به عن القيام بِحَقِّ الله المُنعِم، ﴿أَخَذْنَاهُم﴾ بالعذاب ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من كلِّ خير في انكسار وحزن، فإنَّ الإبلاس: انقطاع الرجاء مع حزن وانكسار.

٤ . قال رسول الله ﷺ : (مُكِر بالقوم ورَبِّ الكعبة)، فَسَّر به بعضهم قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ولم ير بعضهم أنَّ ذلك مرفوع، بل موقوف على صَحابيٍّ أو تابعيٍّ، قال عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ : (إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحِبُّ، وهو مقيم على معصيته، فإنَّ ذلك منه استدراج)، ثمَّ تلا، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآيتين، رواه أحمد والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان، قال الحسن البصري: (مُكر بالقوم ورَبِّ الكعبة، أُعطوا حاجتهم ثمَّ أُخذوا)، وقال أيضًا: (من وُسِّع عليه فلم ير أنَّه يُمكَر به ـ أي: فلم يَظُنَّ ـ فلا رأيَ له، ومن قُتِّر عليه فلم ير أنَّه ينظر له ـ أي: في الصلاح ـ فلا رأيَ له)، ثمَّ قرأ الآيَةَ والحديثَ: (مكر بالقوم،،،) إلخ، وعن عمر : (من وسِّع عليه في دنياه، ولم يعلم أنَّه مكر به فهو مخدوع عن عقله)، أي: وهو مقيم على المعاصي، أو أريد بـ (مَن) هذا المقيم.

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٦٠.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: من البأساء والضراء، أي تركوا الاتعاظ به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من النعم، كالصحة والسعة وراحة البال والأمن، وصنوف رغائبهم، استدراجا وإملاء ومكرا بهم، عياذا بالله من مكره.

٢. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من مطالبهم ورغائبهم، مع الشرك ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي: بالعذاب المستأصل، ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة بلا تقديم مذكّر، إذ لم يفدهم في المرة الأولى، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ متحسرون، يئسون من كل خير.

٣. روي في هذه الآية أخبار وآثار:

أ. منها ما أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر عن النبيّ ﷺ قال: إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ـ إلى ﴿هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم عنه.

ب. روى ابن أبي حاتم أيضا عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول: إذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم (أو فتح عليهم) باب خيانة، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ الآية، ورواه أحمد وغيره.

ج. وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه، فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له، ومن قتّر عليه، ولم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ، ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الآية ـ قال الحسن: مكر بالقوم، ورب الكعبة! أعطوا حاجتهم ثم أخذوا.

د. وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ـ روى ذلك ابن أبي حاتم ـ

رضا:

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦١.

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فلما أعرضوا عما أنذرهم ووعظهم به الرسل، وتركوا الاهتداء به حتى نسوه أو جعلوه كالمنسي في عدم الاعتبار والاتعاظ به ـ لإصرارهم على كفرهم، وجمودهم على تقليد من قبلهم، بلوناهم بالحسنات بما فتحنا عليهم من أبواب كل شيء من أنواع سعة الرزق ورخاء العيش وصحة الأجسام والأمن على الأنفس والأموال، كما قال تعالى في قوم موسى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم يتربوا بالنعم، ولا شكروا المنعم، بل أفادتهم النعم فرحا وبطرا كما أفادتهم الشدائد قسوة وأشرا.

٢. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ منها، وفسقوا عن أمر ربهم بطرا وغرورا بها ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم أو حال كونهم مبغوتين إذ فجأهم على غرة من غير سبق أمارة ولا إمهال للاستعداد أو للهرب فإذا هم مبلسون، أي متحسرون يائسون من النجاة أو هالكون منقطعة حججهم، والإبلاس في اللغة: اليأس والقنوط من الخير والرحمة، والتحير: الدهشة، وانقطاع الحجة، والسكوت من الحزن أو الخوف والغم، واستشهدوا له بقول العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال نعم أعرفه وأبلسا

ولقولهم: أبلست الناقة إذا لم ترغ من شدة الضبعة، وهي بالتحريك شدة شهوة الفحل، يقال: ضبعت الناقة ضبعا وضبعة (من باب فرح)

٣. والآية تفيد أن البأساء والضراء، وما يقابلهما من السراء والنعماء مما يتربى ويتهذب به الموفقون من الناس، وإلا كانت النعم أشد وبالا عليهم من النقم وهذا ثابت بالاختبار، فلا خلاف في أن الشدائد مصلحة للفساد، وأجدر الناس بالاستفادة من الحوادث المؤمن، كما ثبت في حديث صهيب مرفوعا في صحيح مسلم: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) وقد بينا وجه استفادة المؤمن من الشدائد في تفسير الآيات التي نزلت في شأن غزوة أحد من (سورة آل عمران)، وهاك بعض ما رووه في ذلك من

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٤٦

الآثار، قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية:

أ. قال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية، قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا، رواه ابن أبي حاتم.

ب. وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، ما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون، رواه ابن أبي حاتم أيضا.

ج. وقال مالك عن الزهري ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: رخاء الدنيا وسترها.

د. وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج) ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية ورواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

هـ. وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول: (إذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ورواه أحمد وغيره.

٤. من مباحث اللفظ النحوية أن (إذا) من قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ هي التي يسمونها الفجائية لإفادتها ترتب ما بعدها على ما قبلها فجأة، وهي حرف عند الكوفيين، وظرف زمان أو مكان عند البصريين (قولان) منصوبة بخبر المبتدأ، فالمعنى عليه هنا أنهم أبلسوا في مكان إقامتهم أو في زمانها، على أن الفاء وحدها تفيد التعقيب، وهو ترتب ما بعدها على ما قبلها من غير فاصل، ولكن الفرق بين (فهم مبلسون) وبين (فإذا هم مبلسون) عظيم، لا يخفى على ذي ذوق سليم، فذاك خبر مجرد، وهذا تمثيل لمعنى مؤكد مجدد.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٢٥.

١. ذكر الله تعالى ما حل بهم من الوبال والنكال بعد أن ابتلاهم بالحسنات فقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي فلما أعرضوا عما أنذرهم به رسلهم وتركوا الاهتداء به وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم وأصرّوا على كفرهم وعنادهم وجمدوا على تقليد من قبلهم ـ بلوناهم بالحسنات، وفتحنا عليهم أبواب الرزق ورخاء العيش وصحة الأجسام والأمن على الأنفس والأرواح، فلم تربّهم تلك النعم، ولا شكروا الله على ما أنعم، بل أفادتهم النعمة بطرا وكبرا كما أفادتهم الشدائد عتوّا وقسوة.

٢. والخلاصة ـ إنه تعالى سلط عليهم المكاره والشدائد ليعتبروا ويتعظوا، فلما لم تجد معهم شيئا نقلهم إلى حال هي ضدّها ففتح عليهم أبواب الخيرات وسهل لهم سبل الرزق والرخاء فلم ينتفعوا أيضا، وما مثل هذا إلا مثل الأب المشفق على ولده يخاشنه تارة، ويلاينه أخرى طلبا لصلاحه واستقامة حاله وإرجاعا له عن غيه وطغيانه.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي حتى إذا ظنوا أن الذي أوتوا إنما هو باستحقاقهم ولم يزدهم ذلك إلا بطر وغرورا، أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كونهم مبغوتين، إذ فاجأهم على غرة من غير سبق أمارات ولا إمهال للاستعداد أو للهرب، فإذا هم مبلسون أي يائسون من النجاة.

٤. وفي الآية إيماء إلى أن البأساء والضراء وما يقابلها من السراء والنعماء مما يتهذب به من وفقهم الله للهداية وألهمهم الرشاد، والاختبار أكبر شاهد على صدق هذه القضية فالشدائد مصلحة للفساد، مهذّبة للنفوس، والمؤمن أجدر الناس بالاستفادة من الحوادث، روى مسلم عن صهيب مرفوعا (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضرّا، صبر فكان خيرا له)، وروى أحمد أن النبي ﷺ قال: (إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبّ، فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ ـ فلما نسوا ما ذكروا به) الآية، وروى مالك عن الزهري أنه قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي رخاء الدنيا وسترها وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له، ومن قتّر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية ثم قال مكر بالقوم وربّ الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . القلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة، والشدة ابتلاء من الله للعبد؛ فمن كان حيا أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربه؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه.. ومن كان ميتا حسبت عليه، ولم تفده شيئا، وإنها أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب!

وهذه الأمم التي يقص الله سبحانه من أنبائها على رسوله ﷺ ومن وراءه من أمته.. لم تفد من الشدة شيئا، لم تتضرع إلى الله، ولم ترجع عما زينه لها الشيطان من الإعراض والعناد.. وهنا يملي لها الله سبحانه ويستدرجها بالرخاء: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾..

٢ . إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة، وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة، يبتلي الطائعين والعصاة سواء، بهذه وبذاك سواء.. والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر، ويبتلى بالرخاء فيشكر، ويكون أمره كله خيرا.. وفي الحديث: (عجبا للمؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) (رواه مسلم)

٣ . فأما هذه الأمم التي كذبت بالرسل، والتي يقص الله من أنبائها هنا، فإنهم لما نسوا ما ذكروا به، وعلم الله سبحانه أنهم مهلكون، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا.. فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء.. والتعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع، والسلطان.. متدفقة كالسيول؛ بلا حواجز ولا قيود! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة! إنه مشهد عجيب؛ يرسم حالة في حركة؛ على طريقة التصوير القرآني

(١) في ظلال القرآن: ٢، ص: ١٠٩٠.

العجيب.

٤. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾.. وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه؛ وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع، وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق؛ وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها.. عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.. فكان أخذهم على غرة؛ وهم في سهوة وسكرة، فإذا هم حائرون منقطعو الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه، وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بيان للوجه الآخر الذي أراهم الله من آياته، وأخذهم به من عبر وعظات، لتتفتح مغالق قلوبهم إليه، ويؤمنوا به.. والذي ذكّروا به ونسوه، هو (البأساء والضراء) وقد أخذهم الله بهما ليكون لهم منهما عبرة وعظة، ولكنهم لم يعتبروا، ولم يتعظوا.. ولكن الله سبحانه ـ مع هذا ـ لم يعجّل لهم العقاب، بل أخذهم بحلمه، وقدّم لهم الدواء الحلو السائغ، بدلا من هذا الدواء المرّ، الذي لم يستسيغوه، ولم ينتفعوا به.. فساق إليهم النعم، وأغدق عليهم العطاء.

٢. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما تشتهي أنفسهم، وتهوى أفئدتهم.. ومع ذلك فما نفعهم هذا الدواء، ولا ذهب بما بهم من داء.. بل زادهم هذا الرزق الكريم، كفرا بالله، ومحادّة له..

وإنه إذ لم يكن في البأساء والضراء، ولا في النعمة والرخاء، ما يصحح معتقد هؤلاء القوم في الله، ويقيمهم على طريقه ـ كانت الثالثة، وهي القاضية، التي فيها الهلاك والدمار.. وهذا هو حكم الله فيهم، وأخذه لهم: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ وإنه لأخذ أليم شديد.. إذ كانوا على حال من البهجة والمسرّة، وفي مقام من الأمل المزهر والرجاء العريض، فتهبّ عليهم عاصفة جائحة،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٨١.

تنتزعهم انتزاعا على حين غفلة، وهم على تلك المائدة الحافلة بشهيّ الطعام والشراب، وإذا الأيدي الممدودة إلى المائدة تتجمد في طريقها إليها، وإذا الشّفاه المترشفة للكئوس المترعة تيبس عليها، وإذا العيون السارحة بين ألوان الطعام والشراب تجمد حدقاتها، وينطفئ بريقها.. ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].. فلو أن هؤلاء المشركين، أخذوا وهم في لباس البأساء والضرّاء لخفّف عليهم مرارة الموت، ما هم فيه من مرارة الحياة التي يحيونها، ولكنهم تجرعوا كأس المنية مرّا مترعا، وفي أفواههم، وعلى ألسنتهم، طعوم وطعوم، من كل حلو وشهيّ!

٣. والإبلاس: الحسرة الشديدة، والمبلس: الذي وقع في معصية ولا حجة له، ولا عذر بين يدى العقاب الذي وقع به.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، أنذرهم أولا بالقول على لسان الأنبياء وثانيا بالفعل، حيث امتحنهم بالبلاء والضراء، ولما أصروا على الكفر والعناد فتح عليهم أبواب الرزق والرخاء لالقاء الحجة والاستدراج بالنعم بعد الامتحان بالنقم، ولما فرحوا بالرخاء، وازدادوا بطرا وكبرا، ولم يأوبوا إلى رشد أخذهم الله بالعذاب، من حيث لا يحتسبون، فتحسروا على التفريط، وآيسوا من النجاة.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ عطف على جملة ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾، والنسيان هنا بمعنى الإعراض، كما تقدّم آنفا في قوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وظاهر تفرّع الترك عن قسوة القلوب وتزيين الشيطان لهم أعمالهم.

٢. و(ما) موصولة ما صدقها البأساء والضرّاء، أي لمّا انصرفوا عن الفطنة بذلك ولم يهتدوا إلى

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩١.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ١٠١.

تدارك أمرهم، ومعنى ﴿ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أنّ الله ذكّرهم عقابه العظيم بما قدّم إليهم من البأساء والضرّاء، و(لمّا) حرف شرط يدلّ على اقتران وجود جوابه بوجود شرطه، وليس فيه معنى السببية مثل بقية أدوات الشرط.

٣. وقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جواب ﴿فَلَمَّا﴾ والفتح ضدّ الغلق، فالغلق: سد الفرجة التي يمكن الاجتياز منها إلى ما وراءها بباب ونحوه، بخلاف إقامة الحائط فلا تسمّى غلقا، والفتح: جعل الشيء الحاجز غير حاجز وقابلا للحجز، كالباب حين يفتح، ولكون معنى الفتح والغلق نسبيين بعضهما من الآخر قيل للآلة التي يمسك بها الحاجز ويفتح بها مفتاحا ومغلاقا، وإنّما يعقل الفتح بعد تعقّل الغلق، ولذلك كان قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مقتضيا أنّ الأبواب المراد هاهنا كانت مغلقة وقت أن أخذوا بالبأساء والضرّاء، فعلم أنّها أبواب الخير لأنّها التي لا تجتمع مع البأساء والضرّاء، فالفتح هنا استعارة لإزالة ما يؤلم ويغمّ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ومنه تسمية النصر فتحنا لأنّه إزالة غمّ القهر.

٤. وقد جعل الإعراض عمّا ذكّروا به وقتا لفتح أبواب الخير، لأنّ المعنى أنّهم لمّا أعرضوا عن الاتّعاظ بنذر العذاب رفعنا عنهم العذاب وفتحنا عليهم أبواب الخير، كما صرّح به في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ٩٥]

٥. لفظ (كلّ) هنا مستعمل في معنى الكثرة، كما في قول النابغة:

بها كلّ ذيّال وخنساء ترعوي إلى كلّ رجّاف من الرمل فارد

أو استعمل في معناه الحقيقي؛ على أنّه عامّ مخصوص، أي أبواب كل شيء يبتغونه، وقد علم أنّ المراد بكلّ شيء جميع الأشياء من الخير خاصّة بقرينة قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ وبقرينة مقابلة هذا بقوله: ﴿أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأعراف: ٧٩]، فهنالك وصف مقدّر، أي كلّ شيء صالح، كقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي صالحة.

٦. و﴿حَتَّى﴾ في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ ابتدائية.

٧. ومعنى الفرح هنا هو الازدهاء والبطر بالنعمة ونسيان المنعم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، قال الراغب: ولم يرخّص في الفرح إلّا في قوله

تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، و(إذا) ظرف زمان للماضي.

٨. ومراد الله تعالى من هذا هو الإمهال لهم لعلّهم يتذكّرون الله ويوحّدونه فتطهر نفوسهم، فابتلاهم الله بالضرّ والخير ليستقصي لهم سببي التذكّر والخوف، لأنّ من النفوس نفوسا تقودها الشدّة ونفوسا يقودها اللين.

٩. ومعنى الأخذ هنا الإهلاك، ولذلك لم يذكر له متعلّق كما ذكر في قوله آنفا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ للدلالة على أنّه أخذ لا هوادة فيه.

١٠. والبغتة فعلة من البغت وهو الفجأة، أي حصول الشيء على غير ترقّب عند من حصل له وهي تستلزم الخفاء، فلذلك قوبلت بالجهرة في الآية الآتية، وهنا يصحّ أن يكون مؤوّلا باسم الفاعل منصوبا على الحال من الضمير المرفوع، أي مباغتين لهم، أو مؤوّلا باسم المفعول على أنّه حال من الضمير المنصوب، أي مبغوتين، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]

١١. وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (إذا) فجائية، وهي ظرف مكان عند سيبويه، وحرف عند نحاة الكوفة، والمبلسون اليائسون من الخير المتحيّرون، وهو من الإبلاس، وهو الوجوم والسكوت عند طلب العفو يأسا من الاستجابة.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. وإنهم إن لم يهذبوا بالشدائد اختبروا بالنعم، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، الفاء لتفصيل ما كان منهم وبيان ما ترتب من عواقب قريبة وأخرى بعيدة، فإنهم إذا لم يتضرعوا بسبب قسوة قلوبهم وأنهم زينت لهم أعمالهم ـ كان لذلك عواقب، وكانوا بتلك القسوة وتزيين السوء ناسين لما ذكروا به، فقد ذكروا بالبأساء والضراء وبسبب قسوة قلوبهم تركوا ما ذكروا به والنسيان هنا ليس هو مجرد الترك، إنما هو نسيان آثار الضراء والبأساء، فإن الضراء والبأساء لكى تنتجا آثارهما الحقيقة من الضراعة يجب أن تتركا آثارا في

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٠٠.

القلوب تكون مذكرة بانتظام دائم لها ولكن القسوة والغرور، والعجب والاستكبار محت تلك الآثار المذكرة فكان النسيان، وعاد الاغترار والاستكبار.

٢. والله تعالى في هذه الحال التي أصابهم فيها النسيان يقول: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أن الرزق وأسباب القوة والاغترار والاستكبار تأتيهم وتسهل لهم، فكانوا في سعة في كل شيء وقوله هذا: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيه استعارة تمثيلية لمعنى تسهيل كل شيء حتى يكونوا في بحبوحة وسعادة مادية وعدم خوف، واطمئنان إلى المستقبل، أو نقول إن النص القرآني كناية عن هذا المعنى؛ لأن من يفتح له باب كل شيء يكون لا محالة في سعة مادية واطمئنان مادى.

٣. وهذا المعنى فيه اختبار للنفس غير المؤمنة بالنعمة بعد أن اختبرها بالنقمة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف]، وإن هذا الذى ذكره النص القرآني بالنعمة بعد النقمة هو اختبار شديد؛ ولذا روى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: (إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، وروى عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أراد الله تعالى بقوم بقاء أو نماء رزقهم فتح باب القصد والعفاف، وإذا أراد بقوم اقتطاعا فتح باب الخيانة)

٤. وإن هذا الفتح والرزق الواسع إلى حين ليذوقوا النعمة ثم الحرمان منها فجأة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، إنهم إذ يكونون في فرح مما أعطاهم الله تعالى أخذهم الله تعالى بالحرمان أو أصابهم بالموت المفاجئ أو الخراب الجائح في وقت لم يتوقعوه، بل كانوا يتوقعون المزيد من النعم ويحسبون أنها حق مكتسب لا يمحى ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، أي في غم وكمد وحزن ويأس وحيرة بعد الفرحة.

٥. وهنا تعبيران جليلان جديران بالالتفاف:

أ. أولهما: أنه عبر عن إعطاء الله النعمة بها أوتوا ـ أي بالبناء للمجهول؛ لأنهم يحسبون أن ذلك بعلمهم وقدرتهم وحدهم، كما جاء على لسان واحد من أمثالهم وهو قارون ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ

اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص]

ب. الثاني: أن الله أضاف الأخذ إلى ذاته العلية إذ قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ لأنهم لا ينكرون ذلك وينسبونه إلى ربهم.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، المراد بفتح أبواب كل شيء إيتاؤهم من كل نعمة من النعم الدنيوية التي يتنافس فيها الناس للتمتع من مزايا الحياة من المال والبنين وصحة الأبدان والرفاهية والخصب والأمن والطول والقوة، كل ذلك توفيرا من غير تقتير ومنع كما أن خزانة المال إذا أعطي منها أحد بقدر وميزان فتح بابها فأعطي ما أريد ثم سد، وأما إذا أريد الإعطاء من غير تقدير فتح بابها ولم يسد على وجه قاصده بالجملة كناية عن إيتائهم أنواع النعم من غير تقدير على ما يساعده المقام، على أن فتح الباب إنما يناسب بحسب الطبع الحسنات والنعم وأما السيئات والنقم فإنما تتحقق بالمنع ويناسبها سد الباب كما يلمح إليه قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]

٢. ومبلسون من أبلس إبلاسا، قال الراغب: (الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس ـ إلى أن قال ـ ولما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه، قيل: أبلس فلان إذا سكت وإذا انقطعت حجته)، وعلى هذا المعنى المناسب لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي خامدون منقطعوا الحجة.

٣. ومعنى الآية أنهم لما نسوا ما ذكروا به أو أعرضوا عنه آتيناهم من كل نعمة استدراجا حتى إذا تمت لهم النعم وفرحوا بما أوتوا منها أخذناهم فجأة فانخمدت أنفاسهم ولا حجة لهم لاستحقاقهم ذلك.

الحوثي:

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٩٣.

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وهو البأساء والضراء التي أخذهم الله ليتذكروا، ومعنى نسيانهم: غفلتهم عنها، من حيث هي تذكير لهم وعدم تذكّرهم بها وإعراضهم عنها من حيث هي تذكير لهم حتى كأنهم نسوها حقيقة، ومنه قوله تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ [التوبة:٦٧]

٢. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أبواب النعم المختلفة بتيسير أسباب الثمار والمراعي، وازدهار التجارة ونمو الاقتصاد وكثرة الأنعام والدواب، وأسباب توفر المأكول والمشروب على اختلاف أنواعهما، وأسباب اللباس والفراش، وغير ذلك كالصحة والقوة والأمن، فقوله تعالى: ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعم أسباب مطالبهم المعروفة في هذه الحياة الدنيا، كقوله تعالى في الحرم: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧]

٣. في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إشعار بإتيان الأسباب ونزولها عليهم بغزارة، وإقبال الخير شبه نزول الأمطار، ولما كان هذا الإقبال فتنة واختباراً ناسبه أن يقول عليهم: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ قال في (المصابيح) ـ ونِعمَ ما قال ـ: (ومعناه: حتى إذا تقلبوا في ضروب النعم وتصرفوا في أنواع اللذات واطمأنوا بها وركنوا إليها، أخذناهم) وأخذ الطمأنينة والثقة في معنى الفرح، وأنه ليس مجرد السرور هو الظاهر من تأمل مواقعه في القرآن؛ لأن الفرح بالدنيا مذموم والفرح بنصر الله غير مذموم، والفرح بما أنزل الله من الهدى مأمور به، والفرق: أن الإطمئنان إلى الدنيا مذموم لأنه اغترار، والإطمئنان إلى الدين حق وصواب لأن عاقبتَه محمودة محققة.

٤. وحكى الشرفي في (المصابيح) عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي ـ في تفسير قول الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] قال: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] من العوافي والنعم التي لا توجب الفرح بها لفنائها وقلة بقائها) فهذا يفيد: أن توقع زوال النعمة ينافي الفرح بها، فيدل على أن الطمأنينة إلى الشيء لازمة للفرح به، مع أن الإنسان مجبول على السرور بحصول ما يحتاجه، وإن كان يعلم أنه لا يدوم، فظهر الفرق بينهما.

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤٥.

٥. ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ عذبناهم فجأة لم يكونوا يتوقعون العذاب ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ المبلس: المتحير في المخرج مما هو فيه، وفي تفسير المرتضى الذي حكاه الشرفي في (المصابيح): (والمبلس: فهو الذي ليس لَه ولا في يده شيء العادم لما كان معه، الآيس مما كان يؤمِّله فدامت حسراتهم) وفي (الكشاف): (واجمون متحسرون آيسون) فزاد الوجوم: أي السكوت، وفيه نظر، لأن الله تعالى قال في (سورة الأنبياء): ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٤ ـ ١٥] فإن أراد ساكتون بالموت فهو خلاف الظاهر، لأن الموتى لا يوصفون بالتحسر واليأس، فالأولى: أن الإبلاس عند العذاب وتحقق الهلاك، ففجأة العذاب تبِعتْها فجأة الإبلاس.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

تذكر الآية الكريمة أنّه لّما لم تنفع معهم تلك المصائب والمشاكل والضغوط عاملهم الله تعالى بالعطف والرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلهم يستيقظون ويلتفتون إلى خالقهم الذي وهب لهم كل تلك النعم، ويشخصوا الطريق السوي: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾

١. إلّا أنّ هذه النعم كانت في الواقع ذات طابع مزدوج، فهي مظهر من مظاهر المحبّة التي تستهدف إيقاظ النائمين، وهي كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إذا استمرت الغفلة، والذي ينغمس في النعمة والرفاهية، يشتد عليه الأمر حين تؤخذ منه هذه النعم فجأة، بينما لو أخذت منه بالتدريج، فلا يكون وقع ذلك عليه شديدا، ولهذا يقول إنّنا أعطيناهم الكثير من النعم ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، و(الإبلاس) الحزن المعترض من شدة التألم بسبب كثرة المنغصات المؤلمة، ومنها اشتقت كلمة (إبليس)، وهي هنا تدل على شدة الغم والهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذ.

٢. سؤال وإشكال: نقرأ في هذه الآيات أنّه عندما لم يكن لابتلائهم بالشدائد تأثير في توعيتهم، فإنّ الله يفتح أبواب الخيرات على أمثال هؤلاء الآثمين، فهل هذا ترغيب بعد المعاقبة، أم هو مقدمة لعقاب أليم؟ أي: هل هذه النعم نعم استدراجية، تغمر المتمرد تدريجيا بالرفاهية والتنعم والسرور.. تغمره بنوع

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٨٤.

من الغفلة، ثمّ ينتزع منه كل شيء دفعة واحدة؟ والجواب: ثمّة قرائن في الآية تؤيد الاحتمال الثّاني، ولكن ليس هناك ما يمنع من قبول الاحتمالين، أي أنّه ترغيب وتحريض على الاستيقاظ، فإن لم يؤثر، فمقدمة لسلب النعمة ومن ثمّ إنزال العذاب الأليم:

أ. جاء في حديث عن رسول الله ﷺ قوله: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنّما هو استدراج) ثمّ تلى الآية ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾

ب. وفي حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام قال: (يا ابن آدم، إذا رأيت ربّك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره)

ج. وفي كتاب (تلخيص الأقوال) عن الإمام الحسن العسكري عليه السّلام قال: (إنّ قنبر مولى أمير المؤمنين علي عليه السّلام أدخل على الحجاج، فقال: ما الذي كنت تلي من علي بن أبي طالب؟ قال كنت أوضيه، فقال له: ماذا يقول إذا فرغ من وضوئه؟ فقال: كان يتلو هذه الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فقال الحجاج: أظنّه كان يتأولها: علينا!؟ قال نعم)

٢٤. قطع دابر الظالمين وحمد الله

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قال قطع أصلهم، واستؤصلوا من ورائهم، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت زهيرا وهو يقول[١]:

القائد الخيل منكوبا دوابرها　　　محكومة حكمات القدّ والأبقا

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ معناه آخرهم[٢].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يقول: قطع أصل الذين ظلموا[٣].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنه قيل له: من الورع من الناس؟ فقال: الذي يتورع عن محارم الله، ويجتنب هؤلاء، وإذا لم يتق الشبهات وقع في الحرام، وهو لا يعرفه، وإذا رأى المنكر فلم ينكره، وهو يقوى عليه، فقد أحب أن يعصى الله، ومن أحب أن يعصى الله فقد بارز الله بالعداوة، ومن أحب بقاء

---

(١) الطستي كما في مسائل نافع (٢٦٢).
(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.
(٣) ابن جرير ٩/ ٢٥٠.

الظالمين فقد أحب أن يعصى الله، إن الله تبارك وتعالى حمد نفسه على إهلاك الظلمة فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ يعني: أصل القوم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أشركوا؛ فلم يبق منهم أحد[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هلاك أعدائه، يخوّف كفّار مكة[3].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قال استؤصلوا[4].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[5]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾:

أ. قيل: استؤصل القوم الذين ظلموا بالهلاك جميعًا، والظلم هاهنا: هو الشرك.

ب. وقيل: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: أصلهم.

ج. وقيل: دابر القوم، أي: آخرهم

د. وكله واحد، وذلك أنه إذا هلك آخرهم وقطعوا، فقد استؤصلوا.

هـ. ويشبه أن يكون قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: قطع افتخارهم وتكبرهم الذي

---

(١) معاني الأخبار: ٢٥٢/ ١.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٥٠.

(٥) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٦.

كانوا يفتخرون به ويتكبرون.

٢. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الحمد في هذا الموضع على أثر ذلك الهلاك يخرج على وجوه:

أ. وإلا الحمد إنما يذكر على أثر ذكر الكرامة والنعمة لكن هاهنا وإن كان نقمة وإهلاكًا فيكون للأولياء كرامة ونعمة؛ لأن هلاك العدو يعد من أعظم الكرامة والنعمة من الله، فإذا كان في ذلك شر للأعداء والانتقام فيكون خيرًا للأولياء وكرامة، وما من شيء يكون شرا لأحد إلا ويجوز أن يكون في ذلك خير لآخر، فيكون الحمد في الحاصل في الخير والنعمة.

ب. الثاني: أنه يجوز أن يكون في الهلاك نفسه الحمد إذا كان الهلاك بالظلم؛ لأنه هلاك بحق إذ لله أن يهلكهم، ولم يكن الهلاك على الظلم خارجًا عن الحكمة، فيحمد عز وجل في كل فعل: حكمةٍ.

ج. والثالث: يقول: ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وعلى إظهار حججه بهلاكهم.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ معناه أخذهم الذي يدبرهم ويدبرهم، لغتان ـ بضم الباء وكسرها ـ وهو الذي يكون في أعقابهم، روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبريا ـ بضم الدال ـ يعني في آخر الوقت، هذا قول أصحاب الحديث، وقال أبو زيد إلا دبريا بفتح الدال والباء.

٢. ثم حمد الله تعالى نفسه بأن استأصل ساقتهم وقطع دابرهم بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه تعالى أرسل إليهم وأنظرهم بعد كفرهم وأخذهم بالبأساء والضَّراء، والنعمة والرخاء، فبالغ في الإنذار والإمهال، فهو محمود على كل حال.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. الدابر: التالي للشيء من خلفه، لا من بعده، وأصله الدبور، ويُقال: دَبَرَ فلان القوم يَدْبِرُهم

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٣٩.

(٢) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٦٠.

دبرًا: إذا كان آخرهم، ومنه التدبر؛ لأنه إحكام عواقب الأمور.

٢. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾:

أ. قيل: استؤصلوا بالعذاب، عن السدي وقطرب وابن زيد، ودابر القوم: أصل القوم، أي قطع أصلهم.

ب. وقيل: دابرهم آخرهم، تقول العرب: قطع الله دابرهم، أي لا أبقى منهم أحدًا.

٣. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قيل: على هلاكهم.

ب. وقيل: الحمد لله إذ أحسن إليهم فلم يدخر نصحًا، وأُتُوا في هلاكهم من جهتهم، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: الحمد لله إذ جازاهم، والمجازِي محمود؛ لأنهم كانوا مستحقين لذلك، عن الأصم.

د. وقيل: المراد به الأمر؛ أي احمدوا الله على هلاكهم إذ أنجاكم منهم، ونصركم عليهم وكانوا أعداءكم.

هـ. وقيل: الحمد لله على نعمه عليهم مع إصرارهم على الكفر.

و. وقيل: الحمد لله على إمهاله إياهم.

ز. وقيل: إهلاكهم نعمة عليهم حيث منعهم من زيادة الكفر والمعاصي.

٤. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن هلاك الظَّلَمَةِ نعمة يحمد الله عليها؛ لأنه يكون نعمة على الدنيا، وقد يكون نعمة في الدين، أما نعم الدنيا فمما يزول من ظلمه وأذاه في النفس والمال، والسعي في الأرض بالفساد، وأما في الدين فبحيث يقطعه عن الفساد، وما فيه لطف ومصلحة للمكلفين واعتبار لكل ظالم ومظلوم.

ب. أن عذاب الكفرة نِعْمَةٌ يجب حمد الله عليها؛ لأنه يكون لطفًا، وعذاب الآخرة وإن كان حسنًا فيجوز أن يكون نعمة وسرورًا للمؤمنين، ولكن حاله في الدنيا أظهر لبقاء التكليف عليهم.

ج. أن الظلم فِعْلُهُمْ، خلاف ما تقوله الْمُجْبِرَة.

الطَبِرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ معناه: فاستؤصل الذين ظلموا بالعذاب، فلم يبق لهم عقب ولا نسل.

٢. دابر القوم: الذي يدبرهم، ويدبرهم لغتان: وهو الذي يتلوهم من خلفهم ويأتي على أعقابهم، وأنشد: آل المهلب جز الله دابرهم أضحوا رمادا فلا أصل ولا طرف وقال الأصمعي: الدابر: الأصل، يقال قطع الله دابره أي: أصله، وأنشد: فدى لكما رجلي، ورحلي، وناقتي غداة الكلاب إذ تجز الدوابر أي: يقتل القوم، فتذهب أصولهم، فلا يبقى لهم أثر، وقال غيره دابر الأمر آخره، وروي عن عبد الله أنه قال: (من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبريا بضم الدال: يعني في آخر الوقت، كذا يقول أصحاب الحديث، قال أبو زيد: الصواب دبريا بفتح الدال والباء.

٣. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إهلاك أعدائه وإعلاء كلمة رسله، حمد الله تعالى نفسه بأن استأصل شأفتهم، وقطع دابرهم، لأنه سبحانه أرسل إليهم، وأنظرهم بعد كفرهم، وأخذهم بالبأساء والضراء، واختبرهم بالمحنة والبلاء، ثم بالنعمة والرخاء، وبالغ في الإنذار والإمهال والإنظار، فهو المحمود على كل حال.

٤. وفي هذا تعليم للمؤمنين ليحمدوا الله تعالى على كفايته إياهم شر الظالمين، ودلالة على أن هلاكهم نعمة من الله تعالى يجب حمده عليها، وروى علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن القاسم بن محمد، عن سليمان بن داوود المقري، عن فضيل بن عياض، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الورع، فقال: (الورع هو الذي يتورع عن محارم الله، ويجتنب هؤلاء، وإذا لم يتق الشبهات وقع في الحرام، وهو لا يعرفه، وإذا رأى المنكر ولم ينكره، وهو يقدر عليه، فقد أحب أن يعصى الله، ومن أحب أن يعصى الله فقد بارز الله بالعداوة، ومن أحب بقاء الظالمين، فقد أحب أن يعصى الله، وإن الله حمد نفسه على إهلاك الظالمين، فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾)

ابن الجوزي:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٤٦.

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال ابن السّائب: دابرهم: الذي يتخلّف في آخرهم، والمعنى: أنهم استؤصلوا، وقال أبو عبيدة: دابرهم: آخرهم الذي يدبرهم: قال ابن قتيبة: هو كما يقال: اجتثّ أصلهم.

٢. قال المفسّرون: وإنما حمد نفسه على قطع دابرهم، لأنّ ذلك إنعام على رسلهم الذين كذّبوهم، وعلّم الحمد على كفايته شرّ الظّالمين.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر التابع للشيء من خلفه كالولد للوالد يقال: دبر فلان القوم يدبرهم دبورا ودبرا إذا كان آخرهم، قال أمية بن أبي الصلت:

فاستؤصلوا بعذاب حص دابرهم فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا

وقال أبو عبيدة: دابر القوم آخرهم الذي يدبرهم، وقال الأصمعي: الدابر الأصل يقال قطع الله دابره أي أذهب الله أصله.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وجوه:

أ. الأول: معناه أنه تعالى حمد نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم لأن ذلك كان جاريا مجرى النعمة العظيمة على أولئك الرسل في إزالة شرهم عن أولئك الأنبياء.

ب. الثاني: أنه تعالى لما علم قسوة قلوبهم لزم أن يقال: إنه كلما ازدادت مدة حياتهم ازدادت أنواع كفرهم ومعاصيهم، فكانوا يستوجبون به مريد العقاب والعذاب فكان إفناؤهم وإماتتهم في تلك الحالة موجبا أن لا يصيروا مستوجبين لتلك الزيادات من العقاب فكان ذلك جاريا مجرى الانعام عليهم.

ج. الثالث: أن يكون هذا الحمد والثناء إنما حصل على وجود إنعام الله عليهم في أن كلفهم وأزال العذر والعلة عنهم ودبرهم بكل الوجوه الممكنة في التدبير الحسن، وذلك بأن أخذهم أولا بالبأساء

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٠.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣٦.

والضراء، ثم نقلهم إلى الآلاء والنعماء، وأمهلهم وبعث الأنبياء والرسل إليهم، فلما لم يزدادوا إلا انهماكا في الغي والكفر، أفناهم الله وطهر وجه الأرض من شرهم، فكان قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على تلك النعم الكثيرة المتقدمة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر الآخر، يقال: دبر القوم يدبرهم دبرا إذا كان آخرهم في المجيء، وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود: (من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبريا) أي في آخر الوقت، والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية، قال قطرب: يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا، قال أمية بن أبي الصلت:

فأهلكوا بعذاب حص دابرهم   فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا

ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور.

٢. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قيل: على إهلاكهم

ب. وقيل: تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه.

٣. تضمنت هذه الآية الحجة على وجوب ترك الظلم، لما يعقب من قطع الدابر، إلى العذاب الدائم، مع استحقاق القاطع الحمد من كل حامد.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر: الآخر، يقال: دبر القوم يدبرهم دبرا: إذا كان آخرهم في المجيء والمعنى: أنه قطع آخرهم: أي استؤصلوا جميعا حتى آخرهم، قال قطرب: يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا، قال أمية ابن أبي الصلت:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٢٧.

(٢) فتح القدير: ٢/ ١٣٥.

فأهلكوا بعذاب حصّ دابرهم فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا

ومنه التّدبير لأنه إحكام عواقب الأمور.

٢. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على هلاكهم، وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التي من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فإنهم أشدّ على عباد الله من كل شديد، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، واقطع دابرهم وأبدلهم بالعدل الشامل لهم.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَومِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: فقطع دابرهم، فوضع الظاهر موضع المضمر ليذكر الظلم الموجب لقطع دابرهم، وهو آخرهم، أي: استُؤصِلوا بالعذاب جميعًا، فذكر الدَّابر كناية عن التعميم، حتَّى إنَّ العذاب وصل إلى آخرهم؛ ودابر كلِّ شيء: الجزء الأخير منه؛ ويطلق أيضًا على الأصل، كما فَسَّرَ به الأصمعيُّ الآيةَ ونحوَها.

٢. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حمد الله نفسه على نصره الرُّسل وإهلاك أعدائهم، وهم أعداؤه، فإنَّ إهلاكهم نعمة عظيمة فيها تخليص أهل الأرض من زيغهم، والاقتداء بهم، وما يترتَّب عليه من مضرَّة الدُّنيا والآخرة؛ وفيها إظهار حجَّة الرُّسل؛ وفي ذلك تعليم لسيدنا محمَّد ﷺ والمسلمين أن يحمدوا الله على إهلاك أعدائهم إذا أهلكهم، والإخلال بالشرع يوجب الهرج والمرج، والربُّ بمعنى المنعم؛ وإن أريد معنى المالك، فالمعنى: الحمد لله الملك القهَّار الذي له الكبرياء والعظمة وَالتَّصَرُّف في ملكه كيف شاء.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: آخرهم، كناية عن الاستئصال، لأن ذهاب آخر الشيء يستلزم ذهاب ما قبله، وهو من (دبره) إذا تبعه، فكان في دبره، أي: خلفه، فالدابر ما يكون بعد الآخر، ويطلق عليه تجوّزا، وقال أبو عبيد: دابر القوم آخرهم، وقال الأصمعيّ: الدابر الأصل، ومنه: قطع الله

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٦١.

(٢) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦١.

دابره، أي: أصله.

٢. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: على ما جرى عليهم من الهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض، من شؤم عقائدهم وأعمالهم، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها، لا سيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم، عليهم السلام.

٣. قال الزمخشري: في قوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم، وأجزل القسم، أي: فهو إخبار بمعنى الأمر، تعليما للعباد.

٤. قال الناصر في (الانتصاف): (ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٨، ٥٩] فيمن وقف هاهنا، وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين، ومنهم من وقف على ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾ وجعل الحمد متصلا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه جل جلاله خير مما يشركون، فعلى الأول يكون الحمد ختما، وعلى الثاني فاتحة، وهو مستعمل فيهما شرعا، ولكنه في آية النمل أظهر في كونه مفتتحا لما بعده، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه حتما، إذ لا يقتضي السياق غير ذلك)، إذا جرينا على ما هو الأسدّ في الآي من توافق النظائر، اقتضى حمل آية النمل على ما هنا، وادعاء الأظهرية فيها ممنوع، فإن التنزيل يفسر بعضه بعضا، فتأمل.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل والإصرار على الشرك وأعماله، واستؤصلوا فلم يبق منهم أحد، كنى عن ذلك بقطع دابرهم، وهو آخر القوم الذي يكون في أدبارهم، وقيل: دابرهم أصلهم، وهو مروي عن السدي من المفسرين، والأصمعي من نقلة اللغة، والأول أظهر، والمعنى على القولين واحد، ووضع المظهر الموصوف بالموصول موضع المضمر؛ للإشعار بعلة الإهلاك وسببه وهو الظلم، ولا بد من زهوق الباطل فظهور الحق.

---

(١) تفسير المنار: ٧/٣٤٨

٢. ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: والثناء الحسن في ذلك الذي جرى من نصر الله تعالى لرسله بإظهار حججهم، وتصديق نذرهم، وإهلاك المشركين الظالمين، وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم ـ ثابت ومستحق لله رب العالمين المدبر لأمورهم، المقيم لأمر اجتماعهم بحكمته البالغة، وسننه العادلة، فهذه الجملة بيان للحق الواقع من كون الحمد والثناء على ذلك مستحقا لله تعالى وحده، وإرشاد لعباده المؤمنين، يذكرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين، وقطع دابر الظالمين المفسدين، وحمده في عاقبة كل أمر، وخاتمة كل عمل كما قال في عباده المتقين: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وسواء كان ذلك الأمر الذي تم من السراء أو الضراء فإن للمتقين في كل منهما عبرة وفائدة، ونعمة ظاهرة أو باطنة.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل والإصرار على الشرك وأعماله واستؤصلوا فلم يبق منهم أحد.

٢. ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي والثناء الكامل والشكر التام لله رب العالمين على إنعامه على رسله وأهل طاعته، بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر وتحقيق ما وعدهم به من إهلاك المشركين، وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم.

٣. وهذه الجملة إرشاد من الله لعباده المؤمنين بتذكيرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين، وقطع دابر الظالمين المفسدين، وإيماء إلى وجوب ذكره في عاقبة كل أمر وخاتمة كل عمل كما قال تعالى في وصف عباده المتقين: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والخلاصة ـ إن في الضراء والسراء للمتقين عبرة، ونعمة ظاهرة أو باطنة.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٢٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٢، ص: ١٠٩١.

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.. ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى!.. و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تعني هنا الذين أشركوا.. كما هو التعبير القرآني في أغلب المواضع عن الشرك بالظلم وعن المشركين بالظالمين..

٢. ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. تعقيب على استئصال الظالمين (المشركين) بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين.. وهل يحمد الله على نعمة، أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين، أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير؟ لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة؛ ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها، ذلك السر المغيب من قدر الله؛ وهذا القدر الظاهر من سنته؛ وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف.

٣. ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة؛ وكان لها من التمكين في الأرض؛ وكان لها من الرخاء والمتاع؛ ما لا يقل ـ إن لم يزد في بعض نواحيه ـ عما تتمتع به اليوم أمم؛ مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع؛ مخدوعة بما هي فيه؛ خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء..

٤. هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة، والذين يدورون في فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه، وهي تتمرد على سلطانه، وهي تدعي لأنفسها خصائص ألوهيته، وهي تعيث في الأرض فسادا، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله..

٥. ولقد كنت ـ في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية ـ أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية.. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب!.. لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك! وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وقف على (الرجل الأبيض) وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة، وفي وحشية كذلك بشعة! وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها حتى صار علما على الصلف العنصري، بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين.. كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية، وأتوقع سنة الله، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى

الغافلين: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٦. وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية، والبشرية ـ وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء ـ تذوق منها الكثير، على الرغم من هذا النتاج الوفير، ومن هذا الرزق الغزير! إن العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي.. الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع؛ وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ.. وهي طلائع لا تخطئ على نهاية المطاف! وليس هذا كله إلا بداية الطريق.. وصدق رسول الله ﷺ قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ـ على معاصيه ـ ما يحب، فإنما هو استدراج).. ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.. (رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم)

٧. غير أنه ينبغي، مع ذلك، التنبيه إلى أن سنة الله في تدمير (الباطل) أن يقوم في الأرض (حق) يتمثل في (أمة).. ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.. فلا يقعدنّ أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد، فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق، ولا يكونون أهله.. وهم كسالى قاعدون.. والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتقر حاكمية الله في الأرض، وتدفع المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية.. هذا هو الحق الأول، والحق الأصيل.. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هو آخر ما يشيّع به هؤلاء الهالكون، وما يتبعهم من دنياهم إلى المصير الذي هم صائرون إليه.. لقد قطع دابرهم، أي اجتثّ كل شيء لهم،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٨٢.

ومحيت آثارهم، ولم تبق منهم باقية.. إنهم وباء وبيل، ومرض خطير، يتهدد الإنسانية بالفساد والضلال، فكان خلاص الإنسانية منهم نعمة من نعم الله، تستوجب الحمد والشكران..

٢. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي لم تبق منهم باقية، من أصول وفروع ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي وقى النّاس هذا الشرّ المستطير، وعافاهم من هذا البلاء المبين!

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الخلاصة أن الله سبحانه عاملهم بالضراء تارة، وبالسراء أخرى حبا بهدايتهم تماما كما يفعل الوالد الشفوق بولده طلبا لصلاحه.. ولكنهم لم يشكروا الرخاء، ولم يتعظوا بالبلاء، فاستأصلهم عن آخرهم، ولم يبق منهم واحدا، ليعتبر بهم من يأتي من بعدهم ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انعامه على المؤمنين، ونصرهم على أهل الكفر والفساد.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. جملة ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾، أي فأخذناهم أخذ الاستئصال، فلم يبق فيهم أحدا.

٢. والدابر اسم فاعل من دبره من باب كتب، إذا مشى من ورائه، والمصدر الدبور ـ بضم الدال ـ، ودابر الناس آخرهم، وذلك مشتقّ من الدبر، وهو الوراء، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]، وقطع الدابر كناية عن ذهاب الجميع لأنّ المستأصل يبدأ بما يليه ويذهب يستأصل إلى أن يبلغ آخره وهو دابره، وهذا ممّا جرى مجرى المثل، وقد تكرّر في القرآن، كقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]

٣. والمراد بالذين ظلموا المشركون، فإنّ الشرك أعظم الظلم، لأنّه اعتداء على حقّ الله تعالى على عباده في أن يعترفوا له بالربوبية وحده، وأنّ الشرك يستتبع مظالم عدّة لأنّ أصحاب الشرك لا يؤمنون بشرع

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩١.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ١٠٣.

يزع الناس عن الظلم.

٤. وجملة: ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بما اتّصل بها، عطف غرض على غرض، ويجوز أن تكون اعتراضا تذييليا فتكون الواو اعتراضية، وأيّا ما كان موقعها ففي المراد منها اعتبارات ثلاثة:

أ. أحدها: أن تكون تلقينا للرسول ﷺ والمؤمنين أن يحمدوا الله على نصره رسله وأولياءهم وإهلاك الظالمين، لأنّ ذلك النصر نعمة بإزالة فساد كان في الأرض، ولأنّ في تذكير الله الناس به إيماء إلى ترقّب الإسوة بما حصل لمن قبلهم أن يترقّبوا نصر الله كما نصر المؤمنين من قبلهم؛ فيكون ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ مصدرا بدلا من فعله، عدل عن نصبه وتنكيره إلى رفعه وتعريفه للدلالة على معنى الدوام والثبات، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ في سورة الفاتحة [٢]

ب. ثانيها: أن يكون ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ كناية عن كون ما ذكر قبله نعمة من نعم الله تعالى لأنّ من لوازم الحمد أن يكون على نعمة، فكأنّه قيل: فقطع دابر القوم الذين ظلموا، وتلك نعمة من نعم الله تقتضي حمده.

ج. ثالثها: أن يكون إنشاء حمد لله تعالى من قبل جلاله مستعملا في التعجيب من معاملة الله تعالى إيّاهم وتدريجهم في درجات الإمهال إلى أن حقّ عليهم العذاب، ويجوز أن يكون إنشاء الله تعالى ثناء على نفسه، تعريضا بالامتنان على الرسول والمسلمين.

٥. واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ للجنس، أي وجنس الحمد كلّه الذي منه الحمد على نعمة إهلاك الظالمين.

٦. وفي ذلك كلّه تنبيه على أنّه يحقّ الحمد لله عند هلاك الظلمة، لأنّ هلاكهم صلاح للناس، والصلاح أعظم النعم، وشكر النعمة واجب، وهذا الحمد شكر لأنّه مقابل نعمة، وإنّما كان هلاكهم صلاحا لأنّ الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحقّ والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم، أخرج أحمد بن حنبل عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبّ فإنّما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاء هنا للتفريع على ما قبلها، و﴿دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ أي آخر، والدابر هو الآخر وإذا قطع الدابر، فإن معنى ذلك أن القطع سرى من الأول حتى وصل إلى الدابر، وإطلاق الدابر بمعنى الآخر جاء في كلام العرب، ومن ذلك قول بعضهم: (إن من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دابرا) أي آخر الوقت والدابر تجيء بمعنى الأصل، والمؤدى واحد في النص الكريم، أي قطع الذين ظلموا عن آخرهم.

٢. وذلك بسبب ظلمهم، وظلمهم كان لأنهم أشركوا بالله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]، ومن كان يشرك برب العباد لا بد أن يظلم العباد، فمن الذى يتقوه من بعده، وظلموا أنفسهم؛ لأنه سبقت العظات والمعاملات ولم يعتبروا فاستحقوا ما نزل بهم.

٣. وقد ختم الله تعالى النص بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعلمنا الحمد لله عند زوال الظالمين، فهلاك الظلمة والطغاة نعمة تستوجب الحمد والثناء، ويقول في ذلك الزمخشري ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجلّ النعم وأجزل القيم)

٤. ونظير هذا النص الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل]

٥. ووصفه سبحانه بـ ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ إيذان بأن القضاء على الذين ظلموا بعد أن اختبروا بالبأساء والضراء، ثم بالسراء والنعماء هو من تقدير الربوبية، وتدبيره سبحانه رب العالمين.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دبر الشيء مقابل قبله وهما الجزءان: المقدم والمؤخر من الشيء ولذا يكنى بهما عن العضوين المخصوصين، وربما توسع فيهما فأطلقا على ما يلي الجزء المقدم أو المؤخر فينفصلان عن الشيء وقد اشتق منهما الأفعال بحسب المناسبة نحو أقبل وأدبر وقبل

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٠٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٩٣.

ودبر وتقبل وتدبر واستقبل واستدبر، ومن ذلك اشتقاق دابر بمعنى ما يقع خلف الشيء ويليه من ورائه، ويقال: أمس الدابر أي الواقع خلف اليوم كما يقال: عام قابل، ويطلق الدابر بهذا المعنى على أثر الشيء كدابر الإنسان على أخلافه وسائر آثاره، فقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي إن الهلاك استوعبهم فلم يبق منهم عينا ولا أثرا أو أبادهم جميعا فلم يخلص منهم أحد كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]

٢. ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ دون أن يقال: دابرهم للدلالة على سبب الحكم وهو الظلم الذي أفنى جمعهم وقطع دابرهم، وهو مع ذلك يمهد السبيل إلى إيراد قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٣. ومن هذه الآية بما تشتمل على وصفهم بالظلم وعلى حمده تعالى بربوبيته تتحصل الدلالة على أن اللوم والسوء في جميع ما حل بهم من عذاب الاستئصال يرجع إليهم لأنهم القوم الذين ظلموا، وأنه لا يعود إليه تعالى إلا الثناء الجميل لأنه لم يأت في تدبير أمرهم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة، ولم يسقهم في سبيل ما انتهوا إليه إلا إلى ما ارتضوه بسوء اختيارهم فقد تحقق أن الخزي والسوء على الكافرين، وأن الحمد لله رب العالمين.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولم يبق منهم أحد ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الذي يفتح لعباده كل أبواب الخير والنجاة.. ولكنهم لا يستجيبون له، فيظلمون أنفسهم، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

٢. أما ختام الآيات بالحمد لله رب العالمين فيمكن فهمه من خلال ما جاء به الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام يقول: (من أحب بقاء الظالمين فقد أحب أن يعصى الله وإن الله حمد نفسه على إهلاك الظالمين فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٠٥.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ هلكوا كلهم لم يبقَ لهم عقب بسبب عموم العذاب لهم كلهم، وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أقيم مقام الضمير أي دابرهم وهو يفيد أن هلاكهم بسبب ظلمهم.

٢. ﴿وَالْحَمْدُ لله﴾ الذي أهلكهم وطهر الأرض منهم لينقطع ظلمهم وفسادهم، لأنه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ المالك لهم المدبر لأمورهم ولإظهار الحق ونصره بتدمير أعدائه.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. هكذا استؤصلت جذور أولئك الظلمة وانقطع نسلهم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ و(الدابر) بمعنى المتأخر والتابع.

٢. ولما كان الله قد وفر لهؤلاء كل وسائل التربية ولم يبخل عليهم بأي شيء منها، لذلك فانّ الحمد يختص بالله الذي يربي أهل الدنيا كافة ﴿وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٣. ممّا يلفت النظر اختتام الآية بقول: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا دليل على أنّ استئصال جذور الظلم والفساد والقضاء على شأفة الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهمية بحيث يستوجب الحمد لله، في حديث ينقله فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول: (من أحبّ بقاء الظالمين فقد أحبّ أن يعصي الله، إنّ الله تبارك وتعالى حمد بنفسه بهلاك الظلمة فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤٧.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٨٤.

٢٥. والسمع والأبصار والقلوب وأخذ الله

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَصْدِفُونَ﴾، قال يعدلون[1].

٢. روي أنّه قال:أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَصْدِفُونَ﴾، قال يعرضون عن الحقّ، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث وهو يقول:<>.

أبو مالك:

روي عن أبي مالك غزوان الغفاري (ت ١٠٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَخَتَمَ﴾، يعني: طبع[2].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿يَصْدِفُونَ﴾، يعرضون[3].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ يقول: إن أخذ الله منكم الهدى ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٥٣.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٤.

(٣) تفسير مجاهد، ص ٣٢١.

﴿يَصْدِفُونَ﴾ يقول: يعرضون[1].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، يعرضون عنها[2].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ معناه يعرضون[3].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، يصدّون[4].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ﴾ لكفار مكة، يا محمد: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فلم تسمعوا شيئا[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَخَتَمَ﴾ يعني: وطبع ﴿عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فلم تعقلوا شيئا، ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ يعني: هل أحد يردّه إليكم دون الله!؟ ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ يعني: العلامات في أمور شتّى فيها ذكر من تخويفهم؛ من أخذ السمع والأبصار والقلوب، وما صنع بالأمم الخالية[6].

٣. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، يعني: يعرضون؛ فلا يعتبرون[7].

---

(١) تفسير القمّي ١/ ٢٠١.

(٢) عبد الرزاق ٢/ ٢٠٦.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٥٣.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، اختلف فيه:

أ. قال بعضهم: يراد بأخذ السمع والبصر والختم على القلوب: أخذ منافع هذه الأشياء، أي: إن أخذ منافع سمعكم، ومنافع بصركم، ومنافع عقولكم، من إله غير الله يأتيكم به: أي يأتيكم بمنافع سمعكم، ومنافع بصركم، ومنافع عقولكم، فإذا كانت الأصنام والأوثان التي تعبدون من دون الله وتشركون في ألوهيته وربوبيته لا يملكون ردّ تلك المنافع التي أخذ الله عنكم، فكيف تعبدونها وتشركونها في ألوهيته!؟

ب. وقيل: يراد بأخذ السمع والبصر وما ذكر: أخذ أعينها وأنفسها، أي: لو أخذ الله سمعكم وبصركم وعقولكم، لا يملك ما تعبدون رد هذه الأشياء إلى ما كانوا عليه: لا يملكون رد السمع إلى ما كان، ولا رد البصر والعقل الذي كان إلى ما كان، فكيف تعبدون دونه وتشركون في ألوهيته!؟ يُسفّهُ أحلامهم لما يعلمون أن ما يعبدون ويجعلون لهم الألوهية لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا، فمع ما يعرفون ذلك منهم يجعلونهم آلهة معه.

٢. ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾، أي: نبين لهم الآيات في خطئهم في عبادة هَؤُلَاءِ، وإشراكهم في ألوهيته، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، أي: يعرضون عن تلك الآيات.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي انظر بعقلك كيف نقلب الآيات والدلائل ونكررها، ثم هم يصدفون، ومعنى يصدفون: هو يصدون عن الحق وينحرفون، ويعرضون عنه وينصرفون، قال الشاعر:

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٧.

(٢) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٨.

عجبت لحلم الله عنا وقد بدى　　　له صدفنا عن كل حق مُنَزَّل

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ قال أبو الحسن هو كناية عن السمع أو على ما أخذ منكم وقال الفراء: الهاء كناية عن الهدى.

٢ . أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يقول لهؤلاء الكفار ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ﴾ أي أصمكم، ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي أعماكم، تقول العرب: أخذ الله سمع فلان وبصره، أي أصَّمه وأعماه ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بأن سلب ما فيها من العقول التي بها يتهيأ لكم أن تؤمنوا بربكم وتتوبوا من ذنوبكم ووسمها بسمة من يكون خاتمة أمره المصير إلى عذاب النار، فلو فعل بكم، هل من إله غيره يأتيكم بهذا الذي سلبكم الله إياه!؟ وهل يقدر على ذلك إله غير الله!؟ فبين بهذا أنه كما لا يقدر على ذلك غير الله فكذلك يجب أن لا يعبدوا سواه: القادر على جميع ذلك.

٣ . ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ تنبيه للعباد على هذه الآية وعلى أمثالها من الآيات التي بين فيها أنه لا يستحق العبادة سواه تعالى، ثم بين أنهم مع ظهور هذه الآيات يصدفون أي يعرضون عن تأملها، والتفكر فيها، يقال: صدف عنه، إذا أعرض.

٤ . وفي الآية دليل على أن الله قد مكنهم من الإقبال على ما ورد عليهم من البيان وانه لم يخلق فيهم الإعراض عنه ولا حملهم عليه، ولا أراده منهم ولا زينه لهم، لأنه لو كان فعل شيئاً من ذلك لم يكن لتعجيبه من ذلك معنى.

٥ . قراءات ووجوه: روي عن ورش: (به انظر) بضم الهاء الباقون بكسرها، قال أبو علي: من كسر الهاء حذف الياء التي تلحق الهاء في نحو به انظر، لالتقاء الساكنين والألف من (انظر)، ومن قرأ بضم الهاء فهو على قول من قال: (فخسفنا بهو وبدار هو)، فحذف الواو لالتقاء الساكنين، كما حذف الياء في (بهي) لذلك، فصار (به انظر) ومما يحسن هذا الوجه أن الضمة فيه مثل الضمة في (ان اقتلوا) أو (انقص) ونحو

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٤٠.

ذلك.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. صدف عن الشيء يَصْدِفُ: أعرض عنه صَدَفًا وصُدُوفًا، وهو صادف وصدف وصدوف، وصادفته مصادفة: أي لقيته عن إعراض عن جهته، وامرأة صَدُوفٌ: تصدف عن زوجها، والصَّدَف في الجبل: جانبه.

٢. زاد تعالى في الاحتجاج، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهَؤُلَاءِ الكفار ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾:

أ. قيل: أعلمتم ﴿إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي ذهب بها فصرتم عميًا صمًا ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي طبع عليها وسلب عنها التمييز والعقل حتى لا تفهموا شيئًا.

ب. وقيل: أراد الأمانة، ذكر الوجهين أبو مسلم.

٣. وإنما خص هذه الأشياء بالذكر لأن بها تتم النعم دينًا ودنيا؛ لأنه بالعين يُنْظَر في الأدلة، وبالسمع تُسْمَعُ الدعوة، وبالقلب يتفكر، فيعلم الحق، وبهذه الحواس يستمتع بنعم الدنيا.

٤. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي بما تقدم ذكره من الحواس، وقد بينا ما قيل فيه ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾:

أ. نبينها من جهات، مرة من جهة النعمة، ومرة من جهة الشدة.

ب. وقيل: تصريف الآيات إحداثها دالة على المعجزة، وتدل على فاعلها، وقدرته وعلمه ونبوة النبي ﷺ وصدقه.

٥. ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ يعني الكفار ﴿يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون، عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي، وهو تعجيب منه تعالى لنبيه كأنه قال انظر إلى رحمتي في تصريف الآيات وإعراضهم عنها وكفرهم.

٦. إنما كرر ﴿انْظُرْ﴾ لأنه عَجَّبَ أولاً في تتابع نعمه عليهم وإظهار دلائله من تصريف الآيات

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٦٤.

وضروب الأعمار، وعجب ثانيًا من إعراضهم عنها، وكلاهما عجيب.

٧. سؤال وإشكال: كيف خاطب بهذا من لا يعرفه؟ والجواب:

أ. قيل: يصح بأن يكشف له الأدلة على إثباته، وبطلان ما يعبدون من دونه.

ب. وقيل: كانوا يقرون بِالله تعالى، ويعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله.

٨. تدل الآية الكريمة على:

أ. صحة الحجاج في الدين.

ب. أن هذه الحواس والأعضاء لا يقدر عليها غيره تعالى؛ لأنها جواهر وأعراض، فاختص هو بالقدرة عليها.

ج. إبانة أفعاله الدالة على وحدانيته وصفاته.

د. وجوب النظر؛ لذلك ذمهم على الإعراض عنها.

٩. قرأ الكسائي ﴿يَصْدِفُونَ﴾ بإشمام الزاي، والباقون بالصاد.

١٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. جواب ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ أَخَذَ اللهُ﴾ قيل: محذوف تقديره: فمن يأتيكم به إلا أنه أغنى مفعول ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ عنه، وموضع ﴿أَنْ﴾ نصب؛ لأنها في موضع الحال كقوله: أضربه إن خرج؛ أي: خارجًا، وموضع ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ من الإعراب رفع بالابتداء خبرها ﴿إِلَهٍ﴾، و﴿غَيْرُ﴾ صفة له، و﴿مِنْ﴾ استفهام ومعناه الإنكار، ﴿يَأْتِيكُمْ﴾ موضعه رفع بأنه صفة ﴿إِلَهٍ﴾ مخرجها مخرج الاستفهام، والجملة التي منها في موضع مفعول ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، و﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ استفهام، ومعناه: تقرير حجاج فيه معنى الإنكار.

ب. سؤال وإشكال: لِم وحد الضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾، وقد تقدم الذكر بالجمع في ﴿أَبْصَارُكُمْ﴾، و﴿قُلُوبِكُمْ﴾؟ والجواب: فيه أربعة أقوال:

أ. الأول: أنه عائد على السمع بالتصريح، وتدخل فيه الأبصار والقلوب بدلالة التضمين.

ب. الثاني: يعود على ما أخذ من ذلك، فهو موحد، كأنه يعود على الأخذ لدلالة ﴿أَخَذَ﴾ عليه، كقولهم: من كذب كان شرًّا له، ونعني بالأخذ المأخوذ.

ج. الثالث: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي بأحد هذه المذكورات.

د. الرابع: يعني ما تقدم ذكره.

هـ. سؤال وإشكال: لم وحد السمع، وجمع الأبصار؟ والجواب: لأن السمع مصدر، والأبصار جمع بصر.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. زاد سبحانه في الاحتجاج عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي: ذهب بهما فصرتم صما عميا ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾:

أ. أي: طبع عليها.

ب. وقيل: ذهب بعقولكم، وسلب عنكم التمييز، حتى لا تفهمون شيئا وإنما خص هذه الأشياء بالذكر، لأن بها تتم النعمة دينا ودنيا.

٢. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾:

أ. قال الزجاج: هذه الهاء تعود إلى معنى الفعل، المعنى من إله غير الله يأتيكم بما أخذ منكم.

ب. قال: ويجوز أن يكون عائدا إلى السمع، ويكون ما عطف على السمع داخلا في القصة معه، إذا كان معطوفا عليه.

ج. قال ابن عباس: يريد لا يقدر هؤلاء الذين يعبدون أن يجعلوا لكم أسماعا، وأبصارا، وقلوبا، تعقلون بها، وتفهمون، أي: إن أخذها الله منكم، فمن يردها عليكم؟ بين سبحانه بهذا أنه كما لا يقدر على ذلك غير الله، فكذلك يجب أن لا تعبدوا سواه.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾:

أ. أي: نبين لهم في القران الآيات، عن الكلبي.

ب. وقيل: تصريف الآيات توجيهها في الجهات التي يظهرها أتم الإظهار، ومرة في جهة النعمة،

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٤٩.

ومرة في جهة الشدة.

ج. وقيل: تصريف الآيات: إحداثها دالة على وجوه، كما أن الآية المعجزة تدل على فاعلها، وعلى قدرته، وعلمه، وعلى نبوة النبي ﷺ، وصدقه.

٣. ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ أي الكفار ﴿يَصْدِفُونَ﴾:

أ. أي: يعرضون عن تأمل الآيات والفكر فيها.

ب. وقيل: إعراضهم عنها كفرهم بها.

٤. صدف عن الشيء صدوفا: إذا مال عنه، والصدف والصدفة: الجانب والناحية، والصدف كل بناء مرتفع، وفي الحديث: (كان ﷺ إذا مر بصدف مائل، أسرع المشي).

٥. إنما قال: ﴿انْظُرْ﴾ لأنه تعالى عجب أولا من تتابع نعمه عليهم، وضروب دلائله من تصريف الآيات، وأسباب الاعتبار، ثم عجب ثانيا من إعراضهم عنها.

٦. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ مبتدأ وخبر.

ب. ﴿غَيْرُ﴾ صفة إله، وهذه الجملة في موضع مفعولي ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾

ج. ﴿مَنْ﴾ استفهام علق الفعل الذي هو ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ فلم يعمل في مفعوليه لفظا.

د. قوله: ﴿إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ﴾ جوابه محذوف، وتقديره فمن يأتيكم به إلا أنه أغنى عنه قوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ الذي هو مفعول ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ في المعنى، وموضع الشرط وجوابه نصب على الحال، كما تقول: لأضربنه إن ذهب أو مكث، فإن قولك إن ذهب أو مكث، وقع موقع ذاهبا أو ماكثا، وتقديره مقدرا ذهابه أو مكثه، ويدل على أنه في موضع الحال مشابهته المفرد في أنه لا يستقل بنفسه كما تستقل الجمل، وإن كان جملة في المعنى، فإنه بدخول حرف الشرط قد صار بمنزلة المفرد في الحاجة إلى ما يستند إليه، كما احتاج المفرد، ويدل على قوة اتصاله بما قبله حاجته إلى ما قبله، كما احتاج ما وقع موقعه إلى ما قبله، وليس شيء من الفضلات يقع من الجملة موقعه غير الحال فثبت أنه في موضع منصوب هو حال، فإن قيل: إن الجزاء مقدر، والشرط المذكور في اللفظ مع الجزاء كلام مستقل، وإنما كان هذا الاستدلال يسوغ لو كان الجزاء غير مقدر: قيل: الجزاء وإن كان مقدرا لا حكم له، لأنه لا يجوز إظهاره، وإنما هو شيء

يثبت من جهة التقدير، فضعف أمره، ولو جاز إظهاره لكان في موضع الحال، وهذا مأخوذ من كلام أبي علي الفارسي، ذكره في القصريات مع كلام كثير في معناه قد دقق فيه، ولم يسبق إليه.

هـ. قوله: ﴿يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ في موضع رفع بأنه صفة ﴿إِلَهٍ﴾

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي: أذهبها؛ ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى لا تعرفون شيئا ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾؟

١. في هاء (به) ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنها تعود على الفعل، والمعنى: يأتيكم بما أخذ الله منكم، قاله الزّجّاج، وقال الفرّاء: إذا كنّيت عن الأفاعيل، وإن كثرت، وحّدت الكناية، كقولك للرجل: إقبالك وإدبارك يؤذيني.

ب. الثاني: أنها تعود إلى الهدى، ذكره الفرّاء، فعلى هذا تكون الكناية عن غير مذكور، ولكنّ المعنى يشتمل عليه، لأنّ من أخذ سمعه وبصره وختم على قلبه لم يهتد.

ج. الثالث: أنها تعود على السّمع، ويكون ما عطف عليه داخلا معه في القصّة، لأنه معطوف عليه، ذكره الزّجّاج.

٢. الجمهور يقرؤون: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ﴾ بكسر هاء (به)، وروى المسيّبي عن نافع: (به انظر): بالضّمّ، قال أبو عليّ: من كسر، حذف الياء التي تلحق الهاء في نحو: بهي عيب، ومن ضمّ، فعلى قول من قال فخسفنا بهو بدارهو الأرض، فحذف الواو.

٣. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ قال مقاتل: يعني تكون العلامات في أمور شتّى، فيخوفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب، وبما صنع بالأمم الخالية ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، أي: يعرضون فلا يعتبرون.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣١.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣٦.

١. المقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار، وتقريره أن أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر والقلب فالأذن محل القوة السامعة والعين محل القوة الباصرة، والقلب محل الحياة والعقل والعلم، فلو زالت هذه الصفات عن هذه الأعضاء اختل أمر الإنسان وبطلت مصالحه في الدنيا وفي الدين، ومن المعلوم بالضرورة أن القادر على تحصيل هذه القوى فيها وصونها عن الآفات والمخافات ليس إلا الله، وإذا كان الأمر كذلك، كان المنعم بهذه النعم العالية والخيرات الرفيعة هو الله سبحانه وتعالى فوجب أن يقال المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة.

٢. ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وجوها:

أ. الأول: قال ابن عباس: معناه وطبع على قلوبهم فلم يعقلوا الهدى.

ب. الثاني: معناه وأزال عقولكم حتى تصيروا كالمجانين.

ج. الثالث: المراد بهذا الختم الإماتة أي يميت قلوبكم.

٣. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ﴾.. ﴿مِنَ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿إِلَهٍ﴾ و﴿غَيْرُ﴾ صفة له وقوله: ﴿يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ هذه الهاء تعود على معنى الفعل، والتقدير: من إله غير الله يأتيكم بها أخذ منكم.

٤. قراءات ووجوه: روي عن نافع ﴿بِهِ انْظُرْ﴾ بضم الهاء وهو على لغة من يقرأ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] فحذف الواو لالتقاء الساكنين فصار ﴿بِهِ انْظُرْ﴾ والباقون بكسر الهاء، وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَصْدِفُونَ﴾ بإشمام الزاي والباقون بالصاد أي يعرضون عنه، يقال: صرف عنه أي أعرض والمراد من تصريف الآيات إيرادها على الوجوه المختلفة المتكاثرة بحيث يكون كل واحد منها يقوي ما قبله في الإيصال إلى المطلوب فذكر تعالى أن مع هذه المبالغة في التفهيم والتقرير والإيضاح والكشف، انظر يا محمد أنهم كيف يصدفون ويعرضون.

٥. قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ: دلت هذه الآية على أنه تعالى مكنهم من الفهم، ولم يخلق فيهم الإعراض والصد ولو كان تعالى هو الخالق لما فيهم من الكفر لم يكن لهذا الكلام معنى، واحتج أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ بعين هذه الآية وقالوا: إنه تعالى بين أنه بالغ في إظهار هذه الدلالة وفي تقريرها وتنقيحها وإزالة جهات الشبهات عنها، ثم إنهم مع هذه المبالغة القاطعة للعذر ما زادوا إلا تماديا في الكفر والغي

والعناد، وذلك يدل على أن الهدى والضلال لا يحصلان إلا بهداية الله وإلا بإضلاله فثبت أن هذه الآية دلالتها على قولنا أقوى من دلالتها على قولهم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾:

أ. أي أذهب وانتزع، ووحد ﴿سَمْعُكُمْ﴾ لأنه مصدر يدل على الجمع، ﴿وَخَتَمَ﴾ أي طبع، وقد تقدم في (البقرة)، وجواب ﴿أَنْ﴾ محذوف تقديره: فمن يأتيكم به، وموضعه نصب، لأنها في موضع الحال كقولك: اضربه إن خرج أي خارجا.

ب. ثم قيل: المراد المعاني القائمة بهذه الجوارح، وقد يذهب الله الجوارح والأعراض جميعا فلا يبقي شيئا، قال الله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء] والآية احتجاج على الكفار.

٢. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء وخبرها ﴿إِلَهٍ﴾ و﴿غَيْرُ﴾ صفة له، وكذلك ﴿يَأْتِيكُمْ﴾ موضعه رفع بأنه صفة ﴿إِلَهٍ﴾ ومخرجها مخرج الاستفهام، والجملة التي هي منها في موضع مفعولي رأيتم، ومعنى ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، علمتم، ووحد الضمير في ﴿بِهِ﴾ ـ وقد تقدم الذكر بالجمع ـ:

أ. لأن المعنى أي بالمأخوذ، فالهاء راجعة إلى المذكور، وقيل: على السمع بالتصريح، مثل قوله: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة] ودخلت الأبصار والقلوب بدلالة التضمين.

ب. وقيل: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ﴾، بأحد هذه المذكورات.

ج. وقيل: على الهدى الذي تضمنه المعنى.

د. وقرأ عبد الرحمن الأعرج ﴿بِهِ انْظُرْ﴾ بضم الهاء على الأصل، لأن الأصل أن تكون الهاء مضمومة كما تقول: جئت معه.

٣. قال النقاش: في هذه الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمته هنا وفي غير آية، وقد مضى هذا في أول (البقرة) مستوفى.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٢٨.

٤. وتصريف الآيات الإتيان بها من جهات، من إعذار وإنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك.

٥. ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون، عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي، يقال: صدف عن الشيء إذا أعرض عنه صدفا وصدوفا فهو صادف، وصادفته مصادفة أي لقيته عن إعراض عن جهته، قال ابن الرقاع:

إذا ذكرن حديثا قلن أحسنه وهن عن كل سوء يتقى صدف

والصدف في البعير أن يميل خفه من اليد أو الرجل إلى الجانب الوحشي، فهم ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي مائلون معرضون عن الحجج والدلالات.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا تكرير للتّوبيخ لقصد تأكيد الحجّة عليهم، ووحد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر ولهذا جمعه، والختم: الطبع، وقد تقدّم تحقيقه في البقرة، والمراد: أخذ المعاني القائمة بهذه الجوارح، أو أخذ الجوارح نفسها.

٢. والاستفهام في ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ للتوبيخ، و﴿مِنَ﴾ مبتدأ، و﴿إِلَهٍ﴾ خبره، و﴿غَيْرُ اللهِ﴾ صفة للخبر، ووحد الضمير في ﴿بِهِ﴾ مع أن المرجع متعدّد، على معنى: فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور، وقيل: الضمير راجع إلى أحد هذه المذكورات، وقيل: إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أي يأتيكم بذلك المذكور.

٣. ثم أمر رسول الله ﷺ بالنظر في تصريف الآيات وعدم قبولهم لها تعجيبا له من ذلك، والتصريف: المجيء بها على جهات مختلفة، تارة إنذار، وتارة إعذار، وتارة ترغيب، وتارة ترهيب، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ عطف على نصرف، ومعنى يصدفون: يعرضون، يقال: صدف عن الشيء إذا أعرض عنه صدفا وصدوفا.

أَطَّفَيِّش:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٥.

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد ﴿أَرَآيْتُم﴾ أيُّها المشركون ﴿إِنَ اَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ﴾ أصمَّكم ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ غطَّى عليها حتَّى لا تفهم، أي: أرأيتم سمعكم وأبصاركم وعقلكم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم، أي: إن أخذها؛ ولكن لَمَّا حذف مرجع الضمير من أوَّل الكلام أظهر، والمفعول الثاني معلَّق عنه بالاستفهام هو مجموع قوله: ﴿مَنِ اِلَـٰهٌ﴾ من الآلهة المُتَعَدِّدَة على زعمكم.

٢. ﴿غَيْرُ اللهِ يَاتِيكُم بِهِ﴾ أي: بما ذُكر من السمع والبصر والعقل، أو بما ذكر من مأخوذ، أو مختوم عليه، أو بواحد منهنَّ لا على التعيين، كأنَّه قيل: إن أزال منافع أشرف أعضائكم: القوَّة السامعة وَالقُوَّة الباصرة والحياة والفهم فمن يردُّها غير الله؟ فهو وحده المستحقُّ للعبادة، وذلك كما يعود اسم الإشارة المفرد إلى الجماعة بتأويل ما ذكر؛ وأولى من هذا أنَّ الهاء عائد إلى واحد بأن يفرد الخطاب لِكُلِّ إنسان على حدة، كأنَّه قيل: من يأتي كلَّ واحد منكم بسمعه؟ ومن يأتيه ببصره؟

٣. ويجوز أن يتنازع (أَرَآيْتُمْ) و(أَخَذَ) في (سمعكم وأبصاركم)، وقرن (رأى) هنالك بالكاف لا هنا، لأنَّ التهديد هنالك أعظم، وقيل: للاكتفاء بما قبله وما بعده، وقيل: صاروا بسلب تلك المشاعر كمن لا يحسُّ فهم كمن لا يخاطب، وجملة (يَاتِيكُمْ) نعتُ (إِلَهٌ) كـ (غَيْرُ)، كما أنَّه كرَّر (قُلْ) على طريق الاهتمام بشأن المقول، ولم يعطف لبيان أنَّه مستقلٌّ بحياله، وقدِّم السمع ـ قيل ـ لأنَّه أجلُّ من نعمة البصر، وقُدِّما على ختم القلوب لأَنَّهُما ظاهران، وَلأَنَّهُما آلتان لفهم القلوب طريقان إليها، فأخذُهُما سدٌّ لبابهما، فمن ولد أعمى أصمَّ، وبلغ سنَّ التكليف لم يكلَّف عندنا، وقال بعض الحنفيَّة: قد يكلَّف، وإنَّ الإدراك لا يتوقَّف عليهما.

٤. وقدَّم القلوب في بعض المواضع لأنَّ القلب ملك الأعضاء، تصلح وتفسد به، والمراد بالقلب: نفس القلب، لأنَّه أنسب بالختم لا فهمه، وعَبَّرَ بالأخذ لا بالإصمام والإعماء، لأنَّ ما أخذه الله لا مرسل له من بعده، وقيل: الختم تفسير للأخذ.

٥. ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ في هذه السورة، أو مطلقًا ﴿الاَيَاتِ﴾ نكرِّرها على أنحاء مختلفة، كلٌّ

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٦٢.

تقوِّي الأخرى، كتصريف الرياح شمالاً وصبًا:

أ. فتذكر من جهة المقدِّمة العَقليَّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]

ب. ومن جهة الترغيب والترهيب كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَّشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام: ٣٩]، و﴿قُلَ ارَآيْتكُمُ إِنَ اتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ [الأنعام: ٤٠]، والترهيب مقدَّم.

ج. ومن جهة التنبيه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَآ إِلَى أُمَمٍ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وفيه الترغيب والترهيب أيضًا.

د. ومن جهة التذكير بأحوال المتقدِّمين كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يُعرضون أو يميلون، عطفًا على (نُصَرِّفُ)، وهو العمدة في التعجيب المستفاد بقوله: ﴿انظُرْ﴾ من عَرَض الكلام، و(ثُمَّ) لاستبعاد الإعراض عن الآيات بعد تصريفها في الدلالة على التوحيد والنبوَّة تشبيهًا بتراخي الزمان.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ثم أمر تعالى رسوله بتكرير التبكيت عليهم، وتثنية الإلزام بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ بأن أصمكم وأعماكم، ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بأن غطى عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي: بذلك المأخوذ، وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر، لأنها أشرف أعضاء الإنسان، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان، وفسد أمره، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا.

٢. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي نوردها بطرق مختلفة، كتصريف الرياح، و(انظر) يفيد التعجيب من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: بعد رؤيتهم تصريف الآيات يعرضون عنها، فلا يتأملون فيها، عنادا وحسدا وكبرا.

٣. المراد بالآيات: إما مطلق الدلائل القرآنية مطلقا، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا، أو ما ذكر قبل هذا من المقدمات العقلية الدالة على وجود الصانع وتوحيده المشار إليها بقوله: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ الآية، ومن الترغيب بقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾، والترهيب بقوله: ﴿إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ﴾

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦٣.

الآية، ومن التنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين، ذهب إلى كلّ بعض من المفسرين، وعموم اللفظ يصدق على ذلك كله بلا تدافع.

٤. قال بعض المفسرين من الزيدية: (دلت الآية الكريمة على جواز الاحتجاج في أمر الدين)، وهو ظاهر.

٥. المقصود من هذه الآية: بيان أن القادر على تحصيل هذه القوى الثلاث، وصونها عن الآفات، ليس إلّا الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك، كان المنعم بهذه النعم العالية، والخيرات الرفيعة، هو الله تعالى، فوجب أن يقال: المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى، وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة، قرره الرازي.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. القول في مناسبة هذه الآيات لما قبلها كالقول فيما قبلها سواء، فهي ضرب من ضروب الدعوة إلى التوحيد والرسالة بوجه آخر من وجوه الاحتجاج.. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما جئت من التوحيد والهدى: أرأيتم ماذا يكون من شأنكم من آلهتكم الذين تدعونهم راجين شفاعتهم إن أصمكم الله تعالى فذهب بسمعكم، وأعمالكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم وألبابكم التي هي مراكز الفهم والشعور والعقل من أنفسكم، فأصبحتم لا تسمعون قولا ولا تبصرون طريقا، ولا تعقلون نفعا ولا ضرا.. ولا تدركون حقا ولا باطلا ـ من إله غير الله يأتيكم بذلك، أو بما ذكر مما أخذ الله منكم؟ أي: لا إله غيره يقدر على إتيانكم به، ولو كان ما اتخذتم من دونه من الأنداد والأولياء آلهة لقدروا على ذلك، وإذا كنتم تعلمون أنهم لا يقدرون، فلماذا تدعونهم والدعاء عبادة لا يكون إلا للإله القدير؟

٢. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: انظر كيف ننوع الحجج والبينات الكثيرة ونجعلها على وجوه شتى ليتذكروا ويقتنعوا، فينيبوا ويرجعوا، ثم هم يعرضون عنها، ويتجنبون التأمل

---

(١) تفسير المنار: ٧/٣٤٨

فيها، يقال: صدف عن الشيء صدفا وصدوفا إذا أعرض إعراضا شديدا، وقيل: إنه مأخوذ من صدفة الجبل أي جانبه ومنقطعه، والعطف ب (ثم) يفيد الاستبعاد؛ لأن تصريف الآيات والدلائل سبب غاية الإقبال، فكان من المستبعد في المعتاد والمعقول أن يترتب عليه منتهى الإعراض، وقد سبق مثل هذا في أول السورة، ويليه في أوائلها الكلام في إعراضهم عن الآيات، وقد فصلنا القول في تفسيره تفصيلا.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١ . هذا ضرب آخر من ضروب الدعوة إلى وجود الصانع القادر وتوحيده، وإثبات الرسالة بوجه آخر غير ما تقدم من وجوه الاحتجاج.

٢ . ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما جئت به من التوحيد والهدى: أرأيتم ماذا يكون من أمركم مع آلهتكم الذين تدعونهم وترجون شفاعتهم ـ إن أصمكم الله تعالى فذهب بسمعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم وطبع عليها، فأصبحتم لا تسمعون قولا، ولا تبصرون طريقا، ولا تعقلون نفعا ولا ضرا، ولا تدركون حقا ولا باطلا ـ من إله غير الله يأتيكم بما ذكر مما أخذه الله منكم؟ أي لا إله غيره يقدر على إتيانكم بما سلب، ولو كان ما اتخذتم من دونه من الأنداد الأولياء آلهة لقدروا على ذلك؟ وإن كنتم تعلمون أنهم لا يقدرون فلماذا تدعونهم، وما الدعاء إلا عبادة، والعبادة لا تكون إلا للإله القدير؟

٣ . ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي انظر كيف نتابع عليهم الحجج ونضرب لهم الأمثال والعبر ونجعلها على وجوه شتى ليعتبروا ويتذكروا فينيبوا ويرجعوا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ويتجنبون التأمل فيها ـ ويلقونها وراء ظهورهم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٢٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٩٣.

١. بعد ذلك يقف السياق القرآني المشركين بالله، أمام بأس الله، في ذوات أنفسهم، في أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، وهم عاجزون عن رده، وهم لا يجدون كذلك إلها غير الله، يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾

٢. وهو مشهد تصويري يجسم لهم عجزهم أمام بأس الله من جانب، كما يصور لهم حقيقة ما يشركون به من دون الله في موقف الجد من جانب.. ولكن هذا المشهد يهزهم من الأعماق.. إن خالق الفطرة البشرية يعلم أنها تدرك ما في هذا المشهد التصويري من جد، وما وراءه من حق.. أنها تدرك أن الله قادر على أن يفعل بها هذا، قادر على أن يأخذ الأسماع والأبصار، وأن يختم على القلوب، فلا تعود هذه الأجهزة تؤدي وظائفها، وأنه ـ إن فعل ذلك ـ فليس هناك من إله غيره يرد بأسه..

٣. وفي ظلال هذا المشهد، الذي يبعث بالرجفة في القلوب والأوصال، ويقرر في الوقت ذاته تفاهة عقيدة الشرك، وضلال اتخاذ الأولياء من دون الله.. في ظلال هذا المشهد يعجب من أمر هؤلاء الذين يصرف لهم الآيات، وينوعها، ثم هم يميلون عنها كالبعير الذي يصدف أي يميل بخفه إلى الجانب الوحشي الخارجي من مرض يصيبه! ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، وهو تعجيب مصحوب بمشهد الصدوف! المعروف عند العرب، والذي يذكرهم بمشهد البعير المئوف! فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف!

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. يجيء الإيقاع الثاني موصولا بالإيقاع الأول ومتمما له: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.. وهو أمر من الله سبحانه لنبيه ﷺ أن يجهر في مواجهة المشركين المكذبين بربهم ـ بما يجده في نفسه من اليقين الواضح الراسخ، والدليل الداخلي البين، والإحساس الوجداني العميق، بربه.. ووجوده، ووحدانيته، ووحيه إليه، وهو الشعور

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١١١.

الذي وجده الرسل من ربهم، وعبروا عنه مثل هذا التعبير أو قريبا منه:

أ. قالها نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾

ب. وقالها صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

ج. وقالها إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾

د. وقالها يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

٢. فهي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب أوليائه؛ ممن يتجلى الله لهم في قلوبهم؛ فيجدونه سبحانه حاضرا فيها؛ ويجدون هذه الحقيقة بينة هنالك في أعماقهم تسكب في قلوبهم اليقين بها، وهي الحقيقة التي يأمر الله نبيه أن يجهر بها في مواجهة المشركين المكذبين؛ الذين يطلبون منه الخوارق لتصديق ما جاءهم به من حقيقة ربه، الحقيقة التي يجدها هو كاملة واضحة عميقة في قلبه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾

٣. كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب، ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله.. وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول؛ وأن يفرق فرقانا كاملا بينها وبين حقيقة الألوهية؛ وأن يجهر بأنه لا يملك هذا الذي يستعجلونه؛ فالذي يملكه هو الله وحده؛ وهو ليس إلها، إنما هو رسول: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾..

٤. إن إيقاع العذاب بهم بعد مجيء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء؛ ولله وحده الحكم والقضاء، فهو وحده الذي يقص الحق ويخبر به؛ وهو وحده الذي يفصل في الأمر بين الداعي إلى الحق والمكذبين به، وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه، وبذلك يجرد الرسول ﷺ نفسه من أن تكون له قدرة، أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده، فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها، وهو بشر يوحى إليه، ليبلغ وينذر؛ لا لينزل قضاء ويفصل، وكما أن الله سبحانه هو الذي يقص الحق ويخبر به؛ فهو كذلك الذي يقضي في الأمر ويفصل فيه.. وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله سبحانه وخصائصه، عن ذوات العبيد..

٥. ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله، ومتروك لمشيئة الله، فلو أن أمر الخوارق ـ بما فيها إنزال العذاب ـ في مقدوره ـ وهو بشر ـ ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم، وهم يلحفون هذا الإلحاف، ولكن لأن الأمر بيد الله وحده، فهو يحلم عليهم؛ فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر، إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾

٦. إن للطاقة البشرية حدودا في الصبر والحلم والإمهال، وما يحلم على البشر ويمهلهم ـ على عصيانهم وتمردهم وتبجحهم ـ إلا الله الحليم القوي العظيم.. وصدق الله العظيم.. فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق ما يضيق به الصدر، وتبلغ منه الروح الحلقوم.. ثم ينظر فيجد الله سبحانه يسعهم في ملكه، ويطعمهم، ويسقيهم، ويغدق أحيانا عليهم، ويفتح عليهم أبواب كل شيء.. وما يجد الإنسان إلا أن يقول قولة أبي بكر والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ، حتى ما يعرف له أنف من عين: (رب ما أحلمك! رب ما أحلمك!).. فإنما هو حلم الله وحده.. وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون!

٧. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو يمهلهم عن علم، ويملي لهم عن حكمة، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون، ثم ينزل بهم العذاب الأليم..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة (٤٢ ـ ٤٥) مصارع القوم الظالمين، بعد أن جاءتهم رسل الله، فكذّبوهم، وأخذوهم بالضرّ والأذى ـ أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم أن يلقى المشركين المعاندين من قومه بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، والضمير في (به) يعود إلى المأخوذ، المفهوم من قوله تعالى: ﴿أَخَذَ﴾ والمعنى: أجيبوا أيها المكابرون المعاندون، والمشركون بالله ـ أجيبوا عن هذا السؤال: إذا أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم، أي ضرب عليها سدّا، وعطّل وظيفتها، فلم يكن لها ما للقلوب من مشاعر ومدارك ـ فهل

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٨٣.

هناك إله غير الله يأتيكم بهذا الذي أخذه الله منكم؟

٢. وفي التعبير بالفعل (أخذ) إشارة إلى أن هذه النعم هي منحة لهم من عند الله، وفضل من أفضاله على عباده، ولله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يأخذ منهم ما أعطى، ويستردّ ما منح، ولا اعتراض لهم عليه.. وإذا كانوا لا يحيون بغير هذه الحواس من سمع وبصر، ولا يكونون من عالم البشر إلا بهذه القلوب، فإن عليهم أن يبحثوا عن جهة تعيد إليهم ما أخذ منهم، أو مثل هذا الذي أخذ منهم، إن كان بهم حاجة إلى وجودهم في عالم البشر.

٣. وإنهم مهما جدّوا في البحث، واجتهدوا في السعي لن يجدوا غير الله لهذا الذي يطلبونه.. فما لهم لا يؤمنون به؟ وما لهم يعبدون من دونه ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؟ أليس ذلك ضلالا وسفها؟ وبلى إنه الضلال والسّفه والخسران المبين..

٤. وفي إفراد السّمع، وجمع الأبصار والقلوب، إعجاز من إعجاز القرآن، وآية من آياته، على علوّ متنزّله، وأنه تنزيل من ربّ العالمين، فالسّمع من وظيفته أن يتلقى الأصوات، وأن يميز بينها، ويمسك بالواضح المميز منها، وإنه لن يحقق هذا، أو يتحقق له هذا، إلا إذا عزل الصوت الذي يريد استقباله، عن كل ما يتصل به من أخلاط الأصوات الأخرى.. وهذا يعنى أن السّمع وإن اتسع لمئات الأصوات المختلطة، فإنه لا يميز إلا واحدا منها، بالإصغاء إليه، وعزل ما سواه عنه، وإلا كان المسموع له، أصواتا لا مفهوم لها، إلا على أنها دوىّ كدوىّ النحل مثلا! ومن هنا كانت الحكمة في إفراد السّمع، في القرآن، وفي جميع الآيات التي ذكر فيها، وذلك من القرآن، هو توجيه لوظيفة السمع، وإقامتها على الوجه الذي ينتفع به صاحبه، فالكلمة التي تدخل على الإنسان من طريق سمعه، لا تثير تفكيرا، ولا تحرك وجدانا، ولا تهزّ شعورا، إلا إذا كانت ذات مدلول محدّد واضح.. وهذا لا يكون إلا إذا استقلّت بذاتها، واتخذت طريقها من السمع إلى مواطن الإدراك والشعور من الإنسان، غير مختلطة بغيرها، مما يسبقها أو يلحقها من كلام.

٥. ومن هنا أيضا ندرك السّرّ في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.. فإن أبرز ما في هذا الأمر من حكمة، هو نقل كلمات الله، من اللسان، إلى الأذن، ثم إلى العقل والقلب، في صورة سويّة واضحة، ليكون مفهومها سويّا واضحا.. فالإنسان له سمع، وإن بدا أن هذا السمع هو أسماع، في استقباله لعشرات الأصوات ومئاتها، دفعة واحدة.. والمطلوب من الإنسان أن يستعمل سمعا واحدا، ليكون لما يسمعه

معقول، ومفهوم، وثمر! أما حاسّة البصر، فهي على خلاف حاسّة السمع.. إذ أن العين تستطيع أن تضبط كثيرا من صور المرئيات في نظرة واحدة، كما أنها تستطيع أن تعاود النظر في الشيء المرئي لها، مرّة ومرة، ومرات كثيرة، حتى تتحققه وتستيقنه..

٦. ومن هنا كانت العين مجموعة من الأعين، بتردّدها على الشيء ومعاودتها النظر إليه، حالا بعد حال، وليس كذلك الأذن التي إن أفلت منها الصوت الملقى إليها، لم يكن في الإمكان ردّه، فقد ذهب أدراج الرياح، ولا يمكن أن يعود، وإن أمكن استدعاء مثله، من مصدره الذي جاء منه..

٧. والقلب، في تأثّره بالمحسوس، من مرئي ومسموع، ومشموم، وملموس، هو أشبه بالعين، في قدرته على معاودة النظر إلى تلك الصور التي تلقى بها الحواس إليه، فيعيش معها زمنا، على هيئة خواطر ومشاعر ووجدانات، يشكّل منها جميعا عالمه الذي يعيش فيه، ويستملى منه نزعاته وسلوكه.

٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، تصريف الآيات: تنويعها، وبسطها، لتنكشف وتتضح، ومعنى يصدفون: أي ينصرفون، ويميلون عن الحق الذي تحمله آيات الله ـ إلى ما يشتهون من الباطل والضلال.

٩. وفي هذا المقطع من الآية الكريمة تشنيع على هؤلاء الضالّين، وفضح لسفاهتهم، على أعين الناس، ودعوة لكل ذي عقل أن يرى ويحكم.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، الإنسان بسمعه وبصره وقلبه، فلو زالت هذه عنه لم يكن شيئا مذكورا، وكان الحيوان خيرا منه.. وليس من شك أن الله قادر على أخذها لأنه خالقها، والقصد من هذه الإشارة أن يذكر سبحانه الكافرين أن ما يتخذون من دونه آلهة وأولياء لا يدفعون عنهم ضرا، ولا يجلبون لهم نفعا: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٢.

٢. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، أي أقمنا عليهم الحجة تلو الحجة بأساليب شتى، ليتعظوا ويعتبروا، وقطعنا لهم كل معذرة ليذعنوا ويؤمنوا، فما زادتهم الدلائل القاطعة إلا تماديا في الكفر والغي والعناد.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ استئناف ابتدائي عاد به إلى الجدال معهم في إشراكهم بالله تعالى بعد أن انصرف الكلام عنه بخصوصه من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ [الأنعام: ١٩] وما تفنّن عقب ذلك من إثبات البعث وإثبات صدق الرسول وذكر القوارع والوعيد إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠] الآيات، وتكرير الأمر بالقول للوجه الذي تقدّم آنفا عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ [الأنعام: ٤٠] الآية، والرؤية قلبية متعدّية إلى مفعولين، وليس هذا من قبيل الاستعمال المتقدّم آنفا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠] الآية.

٢. الأخذ: انتزاع الشيء وتناوله من مقرّه، وهو هنا مجاز في السلب والإعدام، لأنّ السلب من لوازم الأخذ بالنسبة إلى المأخوذ منه فهو مجاز مرسل، ولك أن تجعله تمثيلا لأنّ الله هو معطي السمع والبصر فإذا أزالها كانت تلك الإزالة كحالة أخذ ما كان أعطاه، فشبّهت هيئة إعدام الخالق بعض مواهب مخلوقه بهيئة انتزاع الآخذ شيئا من مقرّه، فالهيئة المشبّه هنا عقلية غير محسوسة والهيئة المشبّهة بها محسوسة، والختم على القلوب تقدّم بيانه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ والمراد بالقلوب العقول التي بها إدراك المعقولات.

٣. السمع: مصدر دالّ على الجنس فكان في قوة الجمع، فعمّ بإضافته إلى ضمير المخاطبين ولا حاجة إلى جمعه.

٤. الأبصار: جمع بصر، وهو في اللغة العين على التحقيق، وقيل: يطلق البصر على حاسّة الإبصار

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٠٤.

ولذلك جمع ليعمّ بالإضافة جميع أبصار المخاطبين.

٥. لعلّ إفراد السمع وجمع الأبصار جرى على ما يقتضيه تمام الفصاحة من خفّة أحد اللفظين مفردا والآخر مجموعا عند اقترانهما، فإنّ في انتظام الحروف والحركات والسكنات في تنقّل اللسان سرّا عجيبا من فصاحة كلام القرآن المعبّر عنها بالنّظم، وكذلك نرى مواقعها في القرآن قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٢٦]

٦. والقلوب مراد بها العقول في كلام العرب لأنّ القلب سبب إمداد العقل بقوّة الإدراك.

٧. وقوله: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ معلّق لفعل الرؤية لأنّه استفهام، أي أعلمتم جواب هذا الاستفهام أم أنتم في شكّ، وهو استفهام مستعمل في التقرير يقصد منه إلجاء السامعين إلى النظر في جوابه فيوقنوا أنّه لا إله غير الله يأتيهم بذلك لأنّه الخالق للسمع والأبصار والعقول فإنّهم لا ينكرون أنّ الأصنام لا تخلق، ولذلك قال لهم القرآن: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]

٨. و﴿مَنْ﴾ في موضع رفع على الابتداء، و﴿إِلَهٍ﴾ خبر ﴿مِنَ﴾، و﴿غَيْرُ اللهِ﴾ صفة ﴿إِلَهٍ﴾، و﴿يَأْتِيكُمْ﴾ جملة في محلّ الصفة أيضا، والمستفهم عنه هو إله، أي ليس إله غير الله يأتي بذلك، فدلّ على الوحدانية.

٩. ومعنى ﴿يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ يرجعه، فإنّ أصل أتى به، جاء به، ولمّا كان الشيء المسلوب إذا استنقذه منقذ يأتي به إلى مقرّه أطلق الإتيان بالشيء على إرجاعه مجازا أو كناية.

١٠. والضمير المجرور بالباء عائد إلى السمع والأبصار والقلوب، على تأويلها بالمذكور فلذلك لم يقل بها، وهذا استعمال قليل في الضمير، ولكنّه فصيح، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ في سورة المائدة [٣٦]، وعند قوله: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ في سورة النساء [٤]، وإيثاره هنا على أن يقال: يأتيكم بها، لدفع توهّم عود الضمير إلى خصوص القلوب.

١١. والكلام جار مجرى التهديد والتخويف، اختير فيه التهديد بانتزاع سمعهم وأبصارهم وسلب الإدراك من قلوبهم لأنّهم لم يشكروا نعمة هذه المواهب بل عدموا الانتفاع بها، كما أشار إليه قوله آنفا ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]،

فكان ذلك تنبيها لهم على عدم إجداء هذه المواهب عليهم مع صلاحيتها للانتفاع، وناسب هنا أن يهدّدوا بزوالها بالكليّة إن داموا على تعطيل الانتفاع بها فيما أمر به خالقها.

١٢. وقوله: ﴿انْظُرْ﴾ تنزيل للأمر المعقول منزلة المشاهد، وهو تصريف الآيات مع الإعراض عنها حتّى أنّ النّاظر يستطيع أن يراها، فأمّا الأمر فهو مستعمل في التعجيب من حال إعراضهم.

١٣. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا تتنزّل منزلة التذييل للآيات السابقة، فإنّه لمّا غمرهم بالأدلّة على الوحدانية وصدق الرسول، وأبطل شبههم عقّب ذلك كلّه بالتعجيب من قوّة الأدلّة مع استمرار الإعراض والمكابرة، وقد تقدّم قريب منه عند قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ في سورة النساء [٥٠]، وهذا تذكير لهم بأنّ الله هو خالق أسماعهم وأبصارهم وألبابهم فما كان غيره جديرا بأن يعبدون.

١٤. وتصريف الآيات اختلاف أنواعها بأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات في السماوات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، ومرّة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله، فالآيات هنا هي دلائل الوحدانية، فهي متّحدة في الغاية مختلفة الأساليب متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام عامّها وخاصّها، وهي أيضا مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدّمات العقلية وغيرها، ومن جهتي الترغيب والترهيب ومن التنبيه والتذكير، بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول.

١٥. والتعريف في ﴿الْآيَاتِ﴾ للعهد، وهي المعهودة في هذه السورة ابتداء من قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]

١٦. ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الرتبي لأنّها عطفت جملة على جملة، فهي تؤذن بأنّ الجملة المعطوفة أدخل في الغرض المسوق له الكلام، وهو هنا التعجيب من قوة الأدلّة وأنّ استمرار الإعراض والمكابرة مع ذلك أجدر بالتعجيب به.

١٧. وجيء بالمسند في جملة ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ فعلا مضارعا للدلالة على تجدّد الإعراض منهم، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ لتقوّي الحكم.

١٨. و﴿يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون إعراضا شديدا، يقال: صدف صدفا وصدوفا، إذا مال إلى جانب

وأعرض عن الشيء وأكثر ما يستعمل أن يكون قاصرا فيتعدّى إلى مفعوله بـ (عن)، وقد يستعمل متعدّيا كما صرّح به في (القاموس)، وقلّ التعرّض لذلك في كتب اللغة ولكن الزمخشري في تفسير قوله تعالى في أواخر هذه السورة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧] قدّر: وصدف الناس عنها، مع أنّه لم يتعرّض لذلك في الأساس ولا علّق على تقديره شارحوه، ولمّا تقدّم ذكر الآيات حذف متعلّق ﴿يَصْدِفُونَ﴾ لظهوره، أي صدف عن الآيات.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. في الآيات السابقة بين الله تعالى ما عامل به الأمم السابقة بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات، فاختبرهم سبحانه وتعالى بالبأساء تنزل بهم، والضراء تمس أحياءهم، رجاء أن يعرفوا ضعفهم بجوار قدرة ربهم، وأن تربى الشدائد نفوسهم، فمن لم يتجه إلى الله، ويكفر بعد كشف الضراء عنهم، ويقسو قلبه وينسى ما ذكر به من شدائد، يختبره بالنعمة، يفرحون بها، ويذوقون حلاوتها، ثم ينزل بهم الحرمان ويأخذهم بغتة بالشدائد ويكون ذلك أقسى من الأول إذ يتحيرون ويقطع دابرهم، وفى هذه يبين لهم سبحانه نعمة الله عليهم في الخلق والتكوين، ويذكرهم باتجاههم إليه إن أخذ سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم أفلا يدركون،.

٢. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، في الآيات السابقة ـ كما قلنا ـ كان ذكر ما ينزل حولهم ثم يصيبهم، فالدمار ينزل حولهم ثم يصيبهم، وهنا ذكر ما ينزل بحواسهم وكيانهم قائم لم ينقص، ففي هذا النص بيان قدرة الله تعالى في أنفسهم وفى أجزائهم وحواسهم، وامتلاكه لهذه المداخل التي تكون إدراكهم وهي السمع والبصر والفؤاد؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس]

٣. ومعنى أخذ الله سمعهم وأبصارهم والختم على أفئدتهم، أن يصبحوا لا يسمعون حقيقة ولا

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٠٣.

يبصرون حقيقة، ولا يفقهون فيسلبهم سبحانه الفهم والإدراك، وواضح أن أخذ السمع والبصر يكون بعدم السماع والإبصار؛ لأن هاتين الحاستين تسمعان وتريان، وأخذهما فقد عملهما ـ ولكن الأفئدة شيء يخفى لا يؤخذ بل هو باق، ولكن يغشى عليه، فليس الجنون ذهاب العقل، وإنما الجنون ستر العقل فلا يدرك الأمور على وجهها، ولذلك عبر عن فقد الإدراك بالجنة؛ لأن العقل يستر ولا يذهب كما يذهب السمع والبصر.

٤. ولذلك قال سبحانه: ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي وضع غشاوة على قلوبهم، فتصبح كالشيء المختوم لا ينفذ إليه شيء من الإدراك، وذلك بلا ريب هو أعلى دقة في التعبير تليق بمقام القرآن الكريم في البيان الذى لا يصل إليه أحد من البشر.

٥. والتعبير بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الاستفهام فيه للتنبيه، كأنه سبحانه وتعالت كلماته يقول أرأيتم، أي إن لم تكونوا قد رأيتم ذلك فروه وعوه، وأدركوا ما وراء ما يدل عليه.

٦. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ الاستفهام فيه لإنكار الوقوع الثابت بالدليل الذى لا مجال لإنكاره، والضمير في (به) يعود إلى المأخوذ، وهو السمع والبصر والفؤاد، وقام الأخذ والختم مقامه من قبيل قيام السبب مقام المسبب، و﴿يَأْتِيكُمْ﴾ معناه برده عليكم، وعبر سبحانه بـ (يأتى) للإشارة إلى أنه يكون كالجديد، والنص يشير إلى أنهم وحواسهم في يد الله سبحانه وتعالى، ويشير إلى أمر آخر، وهو أنه تعالى قادر على إعادة السمع والبصر والإدراك، وهي أجزاء جسمكم المدركة المصرفة، أفلا يكون قادرا على إعادتكم في البعث كما بدأكم أول مرة، إنكم ترون من يذهب سمعه كأن في أذنيه وقرا ثم يسمع، ومن يذهب بصره ثم يبصر بعمل الله، ومن يصاب بجنة ثم يفيق، وكل ذلك من الله تعالى، إن ذلك محسوس، فلماذا لا يقيسون عليها عودة الأجسام بعد بلاها كما بدأكم تعودون.

٧. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ لبيان حال المشركين، وأنهم لا تؤثر الحجة فيهم مهما تكن واضحة نيرة ملزمة، والتصريف: التغيير، وهو يكون في ذات الآيات يتعددها من آية كونية إلى آية قرآنية، فالتعدد صورها، فتعدد في صور الآيات الكونية من عواصف عاتية إلى مطر صاخب إلى خسف للديار، ومن آيات قرآنية زاجرة ضاربة للأمثال مبينة للمثلات، إلى تذكير بقدرة الله تعالى فيما تحيط بهم، وتذكير بأنفسهم، ومع هذا التصريف المتتابع، والآيات الواضحة المنوعة تجدهم

صادفين.

٨. ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أى يعرضون، ولا يجيبون من الصدوف بمعنى الإعراض، وأصل الصدوف الميل عن الجانب؛ لأن أصله الصّدف بمعنى الجانب، فمن يصدف يميل عن هذا الجانب أو يجعله حاجزا دون الإيمان وقد عبر في العطف بـ (ثم) للدلالة على التراخي المعنوي بين الآيات وتتابعها والإعراض، وقد أكد سبحانه وتعالى الإعراض منهم بضمير الفصل؛ لأن وقوعه غريب في ذاته بعد تلك الآيات البينات.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾، أخذ السمع والأبصار هو سلب قوتي السمع والإبصار وهو الإصمام والإعماء والختم على القلوب إغلاق بابها إغلاقا لا يدخلها معه شيء من خارج حتى تتفكر في أمرها، وتميز الواجب من الأعمال من غيره والخير النافع منها من الشر الضار مع حفظ أصل الخاصية وهو صلاحية التعقل وإلا كان جنونا وخبلا.

٢. وإذ كان هؤلاء المشركون لا يسمعون حق القول في الله سبحانه ولا يبصرون آياته الدالة على أنه واحد لا شريك له فصارت قلوبهم لا يدخلها شيء من واردات السمع والبصر حتى تعرف بذلك الحق من الباطل أقام الحجة بذلك على إبطال مذهبهم في أمر الإله تعالى ووحدته، وملخصها:

أ. أن القول بثبوت شركاء لله يستلزم القول ببطلانه وذلك أن القول بالشركاء لإثبات الشفاعة، وهي أن تشفع وتتوسط في جلب المنافع ودفع المضار، وإذ كانت الشركاء شفعاء على الفرض كان لله سبحانه أن يفعل في ملكه ما يشاء من غير مصادفة مانع يمانعه أو ضد يضاده فلو سلب الله عنكم سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم فعل ذلك ولم يعارضه أحد من شركائكم لأنها شفعاء متوسطة لا أضداد معارضة، ولو فعل ذلك وسلب ما سلب لم يقدر أحد منها أن يأتيكم به لأنها شفعاء وسائط لا مصادر للخلق والإيجاد.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٩٤.

ب. وإذا لم يقدر على إيتاء نفع أو إذهاب ضر فما معنى ألوهيتها فليس الإله إلا من يوجد ويعدم ويتصرف في الكون كيف شاء، وإنما اضطرت الفطرة الإنسانية إلى الإقرار بأن للعالم إلها من جهة الحصول على مبدإ حوادث الخير والشر التي تشاهدها في الوجود، وإذ كان شيء لا يضر ولا ينفع في جنب الحوادث شيئا فليس تسميته إلها إلا لغوا من القول.

ج. وليس لإنسان صحيح العقل والتمييز أن يجوز كون صورة حجرية أو خشبية أو فلزية عملته يد الإنسان وصنعته فكرته خالقا للعالم أو متصرفا فيه بالإيجاد والإعدام وكذا كون رب الصنم ربا معبودا أبدع العالم على غير مثال سابق مع الاعتراف بكونه عبدا مربوبا.

د. والحجة تعود بتقرير آخر إلى أن معنى الألوهية يأبى عن الصدق على الشريك بمعنى الشفيع المتوسط فإن مبدئية الصنع والإيجاد لازم معناها الاستقلال في التصرف والتعين في استحقاق خضوع المصنوع المربوب، والواسطة المفروضة إن كان لها استقلال في العمل كانت أصلا ومبدأ لا واسطة وشفيعا وإن لم يكن له حظ من الاستقلال كانت أداة آلة لها مبدأ وإلها.

هـ. ولذا كانت الأسباب الكونية أيا ما فرضت ليس لها إلا معنى الإله والأداة كسببية الأكل للشبع والشرب للري والوالدين للولد والقلم للكتابة والمشي لانطواء المسافة وهكذا.

٣. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ تصريف الآيات تحويلها إلى نحو أفهامهم، والصدوف الإعراض، يقال: صدف يصدف صدوفا إذا مال عن الشيء.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ملاحظات حول سبب النزول:

أ. جاء في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ الآية، قال: إنها نزلت لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأصاب أصحابه الجهد والملل والمرض، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿قُلْ﴾ ـ لهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا

(١) من وحى القرآن: ٩/ ١٠٧.

﴿الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يصيبكم إلا الجهد والضرّ في الدنيا، فأما العذاب الأليم الذي فيه الهلاك فلا يصيب إلا القوم الظالمين.

ب. وقد علق في الميزان على هذه الرواية قائلا: الرواية على ضعفها تنافي ما استفاض أن سورة الأنعام نزلت بمكة دفعة، على أن الآية بمضمونها لا تنطبق على القصة والذي تمحّل به في تفسيرها بعيد عن نظم القرآن.

ج. وهذا صحيح فإن دراسة السياق العام للآية لا يوحي بأن الخطاب للمسلمين، بل هو وارد في مخاطبة الكافرين، والله العالم.

٢. يفرض الإيمان نفسه من خلال علامات الاستفهام التي يثيرها أمام الإنسان، فمن ذا الذي يملك سمع الإنسان وبصره وقلبه، أليس هو الذي خلق له ذلك كله؟ فإذا أخذ الله سمع الإنسان فأصبح بلا سمع، أو أخذ بصره، فأصبح بلا بصر، أو ختم على قلبه، فعاد بلا وعي، فإلى أين يتجه ليؤمّل أن يرجع ذلك كله، ومن هو الذي يملك القدرة على ذلك، هل هناك إله غير الله!؟ ويدعو الله الإنسان من خلال رسوله، إلى التأمُّل والنظر في الآيات التي ينوعها ويكثر وجوهها لتكون أكثر إدراكا وأعمق تأثيرا وأشد تصديقا، ولكن هؤلاء الكافرين والمرتابين يعرضون عن ذلك كله، ثم ماذا هناك، هل يفكر هؤلاء بعذاب الله الذي يمكن أن يفاجئهم من دون انتظار، أو يواجههم علانية من خلال الأجواء المنظورة، فمن الذي سيواجه ذلك، هل هم المؤمنون، أو هم الظالمون، إنهم هم الذين سيهلكون بعذاب الله فماذا يفعلون؟

٣. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ من خلال ما تعلمونه من قدرة الله عليكم وعلى الوجود كله، فلا يعجزه شيء من أوضاعكم كما لم يعجزه خلقكم في البداية، الأمر الذي يجعل القضية واضحة لديكم في مستوى العلم واليقين ﴿إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ ففقدتم النور الذي تبصرون به في عيونكم والقوة التي تسمعون بها في آذانكم، فصرتم صمّا وعميا؟

٤. ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وذهب بعقولكم فلم يبق لكم عقل في مستوى الوعي للأشياء لتفكروا به وتتعرفوا من خلاله حقائق الأمور.

٥. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ﴾ من هؤلاء الذين تعبدونهم من دونه، وتتخيلونهم في درجة الآلهة ﴿يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي: مما أخذ منكم من السمع والبصر والعقل فيردّها عليكم؟ إنكم تعلمون جيدا أنهم لا يملكون من

ذلك ولا من غيره شيئا، لأنهم يمثلون العجز كله حتى في رعاية أوضاعهم الخاصة.

٦. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ في تنويع الأساليب والإيحاءات وتبيين الحقائق بالوسائل المتنوعة، من رفق وعنف وتذكير وإنذار بما يفتح للإنسان آفاق الفكرة ويربطه بحركيتها.

٧. ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ هؤلاء المعاندون الكافرون ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون عن التأمل والتفكير في الرسالة ومضمونها الفكري والحركي غفلة وتمردا وضلالا لأن الإنسان الواعي لا بد من أن يتحرك بفكره نحو كل وسائل المعرفة التي تقدّم إليه.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ ﴿خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى لا تفهم شيئاً؛ لأنها مسدودة بالختم، وهذا تمثيل لمنع الفهم، فالله تعالى هو القادر على ذلك، وشركاء المشركين لا يقدرون على تعويض ما أخذ أو فتح ما غلق، وقوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ أي بالفائت المدلول عليه في الكلام، فالذي يملك السمع والأبصار والعقول، هو الذي يستحق العبادة؛ لأنه المالك المنعم لا من لا يقدر على ذلك فلا معنى لعبادته بل هي عين الباطل.

٢. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ﴿انْظُرْ﴾ فكِّر ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على بطلان الشرك وعلى صدق القرآن والرسول ﷺ نأتيهم بآية، ثم نأتي بأخرى من معنى آخر، ثم نأتي بأخرى كذلك آيات متنوعة متعددة، ومن حيث تنويعها باعتبار معانيها سمي تصريفاً مثل ﴿تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ [البقرة:١٦٤]

٣. ﴿ثُمَّ﴾ بعد تصريف الآيات لهم ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ قال الراغب: (صدف عنه: أعرض إعراضاً شديداً) المراد، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): (معناه: يعرضون)، ومثله في (الصحاح) ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ أي المشركون ﴿يَصْدِفُونَ﴾ بعد تصريف الآيات، يستمرون على إعراضهم كلما جاءتهم آية.

الشيرازي:

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤٧.

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في هذه الآيات حثّ استدلالي على إيقاظهم ببيان آخر يعتمد غريزة دفع الضرر، فيبدأ بالقول: إنّه إذا سلب منكم الله النعم الثمينة التي وهبها لكم، مثل السمع والبصر، وأغلق على قلوبكم أبواب التمييز بين الحسن والسيء والحقّ الباطل، فمن يا ترى يستطيع أن يعيد إليكم تلك النعم؟

٢. في الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أنّ الخالق والرازق هو الله، وكانوا يعبدون الأصنام للاستشفاع بها عند الله، والقرآن يحثّهم على الاتجاه المباشر نحو الله مصدر كل الخيرات والبركات بدل الاتجاه إلى أصنام لا قيمة لها.

٣. وإضافة إلى ما كان يحمله عبدة الأصنام من اعتقاد بالله، فإنّ القرآن استجوب عقولهم هنا لإبداء رأيها وحكمها في أمر أصنام لا تملك هي نفسها عينا ولا أذنا ولا عقلا ولا شعورا، فهل يمكنها أن تهب أمثال هذه النعم للآخرين!؟

٤. ثمّ تقول الآية: انظر إلى هؤلاء الذين نشرح لهم الآيات والدلائل بمختلف الوسائل، ولكنّهم مع ذلك يعرضون عنها: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾

٥. (نصرف) من (التصريف) بمعنى (التغيير)، والكلمة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات في صور متنوعة، و(يصدفون) من (صدف) بمعنى (الجانب) و(الناحية) أي أنّ المعرض عن شيء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية أخرى، وهذه الكلمة تستعمل بمعنى الإعراض أيضا، ولكنه (الإعراض الشديد) كما يقول الراغب الأصفهاني.

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٨٨.

٢٦. البغتة والجهرة وهلاك الظالمين

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾: ليلا أو نهارا[١].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً﴾ فجأة آمنين، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ وهم ينظرون[٢].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ فالبغتة: معنا الفجأة وجهرة معنا علانية[٣].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ثم قال يعنيهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة، لا تشعرون حتى ينزل بكم، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أو معاينة، ترونه حين ينزل بكم؛ القتل ببدر، ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ بذلك العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: المشركون[٤].

الماتريدي:

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٤٥.
(٢) تفسير مجاهد، ص ٣٢١.
(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٤.
(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ معناه ـ والله أعلم ـ: أنهم يعلمون أن العذاب لا يأتي ولا يأخذ إلا الظالم، ثم مع علمهم أنهم ظلمة؛ لعبادتهم غير الله، مع علمهم أنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا يسألون العذاب كقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، وقوله: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. معنى قوله: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾، والبغتة: هي المفاجأة والمباغتة على غير علم ولا انتظار، ولا أمل ولا تعبية ولا خبر.. والجهرة: هي المجاهرة والبيان، والمكاشفة والمواجهة والعيان، قال الشاعر:

بانت بقلبك أم عمرو جهرة   أي صراخاً ومباينة

وقال آخر: وسلّ حديدي جهرة ثم تباً لك.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

١. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخاطب كفار قومه، ويقول لهم أرأيتهم ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ والبغتة المفاجأة وهو أن يأتيهم العذاب، وهم غافلون غير متوقعين لذلك ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي وهم شاهدون له، ومعاينون نزوله، وقال الحسن: (البغتة) أن يأتيهم ليلاً و(جهرة) نهاراً.

٢. ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ بهذا العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون الذين يكفرون بالله ويفسدون في الأرض، وهل ينجو منه إلا المؤمنون العابدون لربهم.

٣. ومتى هلك فيهم أطفال أو قوم مؤمنون فإنما يهلكون امتحاناً ويعوضهم الله على ذلك أعواضاً كثيرة، يصغر ذلك في جنبها، فجعل ذلك تحذيراً من المقام على الكفر وترغيباً في الإيمان والنجاة من

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٨.

(٢) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٨.

(٣) تفسير الطوسي: ٤/ ١٤١.

العذاب.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. زاد الله تعالى في الحجاج فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أعلمتم ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ أي عذبكم بعد إعذاره إليكم، وإرساله الرسل.

٢. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ علانية، وإنما قابل البغتة بالجهرة:

أ. لأن البغتة تتضمن الخفية؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون.

ب. وقيل: بغتة ليلاً وجهرة نهارًا، عن الحسن.

٣. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. أي لا يهلك بذلك إلا الظالم الكافر.

ب. وقيل: كانوا يستدعون العذاب فبين أنه إذا نزل فإنما يهلك الظالم، ولا أحد يدفع عنهم.

ج. وقيل: إن العذاب وإن عم فالمعذَّب به الظالم، فأما المؤمن ومن لا يستحق العقاب فذلك محنة يستحق بها الأعواض والثواب، فلا يكون هلاكًا كالأمراض النازلة بالأنبياء، والمراد بهذا العذاب عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. زاد تعالى في الحجاج فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي: أعلمتم ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ أي: عذبكم الله بعد إعذاره عليكم، وإرساله الرسل ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾:

أ. أي: مفاجأة وعلانية، وإنما قابل البغتة بالجهرة، لأن البغتة تتضمن معنى الخفية، لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون.

ب. وقيل: البغتة أن يأتيهم ليلا، والجهرة أن يأتيهم نهارا، عن الحسن.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٦٤.

(٢) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥٠.

٢. ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ أي: لا يهلك بهذا العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. أي: الكافرون الذين يكفرون بالله، ويفسدون في الأرض.

ب. وقيل: إنهم كانوا يستدعون العذاب، فبين أنه إذا نزل لا يهلك به إلا الكافرون، فإن هلك فيه مؤمن، أو طفل، فإنما يهلك محنة، ويعوضه الله على ذلك أعواضا كثيرة، يصغر ذلك في جنبها، والمراد بذلك: عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ قال الزّجّاج: البغتة: المفاجأة؛ والجهرة: أن يأتيهم وهم يرونه.

٢. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: هل يهلك إلّا أنتم ومن أشبهكم، لأنكم كفرتم معاندين، فقد علمتم أنكم ظالمون.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. الدليل المتقدم كان مختصا بأخذ السمع والبصر والقلب وهذا عام في جميع أنواع العذاب، والمعنى: أنه لا دافع لنوع من أنواع العذاب إلا الله سبحانه، ولا محصل لخير من الخيرات إلا الله سبحانه، فوجب أن يكون هو المعبود بجميع أنواع العبادات لا غيره.

٢. المراد بقوله: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾:

أ. العذاب الذي يجيئهم إما أن يجيئهم من غير سبق علامة تدلهم على مجيء ذلك العذاب أو مع سبق هذه العلامة، فالأول: هو البغتة، والثاني: هو الجهرة، والأول سماه الله تعالى بالبغتة، لأنه فاجأهم بها وسمى الثاني جهرة، لأن نفس العذاب وقع بهم وقد عرفوه حتى لو أمكنهم الاحتراز عنه لتحرزوا منه.

ب. وعن الحسن أنه قال: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ معناه ليلا أو نهارا، وقال القاضي: يجب حمل هذا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣١.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣٧.

الكلام على ما تقدم ذكره لأنه لو جاءهم ذلك العذاب ليلا وقد عاينوا مقدمته، لم يكن بغتة ولو جاءهم نهارا وهم لا يشعرون بمقدمته لم يكن جهرة، فأما إذا حملناه على الوجه الذي تقدم ذكره، استقام الكلام.

٣. سؤال وإشكال: ما المراد بقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ مع علمكم بأن العذاب إذا نزل لم يحصل فيه التمييز؟ والجواب: إن الهلاك وإن عم الأبرار والأشرار في الظاهر، إلا أن الهلاك في الحقيقة مختص بالظالمين الشريرين، لأن الأخيار يستوجبون بسبب نزول تلك المضار بهم أنواعا عظيمة من الثواب والدرجات الرفيعة عند الله تعالى، فذاك وإن كان بلاء في الظاهر، إلا أنه يوجب سعادات عظيمة؟ أما الظالمون فإذا نزل البلاء بهم فقد خسروا الدنيا والآخرة معا، فلذلك وصفهم الله تعالى بكونهم هالكين وذلك تنبيه على أن المؤمن التقي النقي هو السعيد، سواء كان في البلاء أو في الآلاء والنعماء وأن الفاسق الكافر هو الشقي، كيف دارت قضيته واختلفت أحواله.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ الحسن: ﴿بَغْتَةً﴾ ليلا ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ نهارا، وقيل: بغتة فجأة، وقال الكسائي: يقال بغتهم الأمر يبغتهم بغتا وبغتة إذا أتاهم فجأة، وقد تقدم.

٢. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ نظيره ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف] أي هل يهلك إلا أنتم لشرككم والظلم هنا بمعنى الشرك، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ أي أخبروني عن ذلك، وقد تقدّم تفسير البغتة قريبا أنها الفجأة، قال الكسائي: بغتهم يبغتهم بغتا وبغتة: إذا أتاهم فجأة، أي من دون تقديم مقدّمات تدل على العذاب، والجهرة أن يأتي العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه؛ وقيل البغتة: إتيان العذاب ليلا، والجهرة:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٢٩.

(٢) فتح القدير: ٢/ ١٣٥.

إتيان العذاب نهارا كما في قوله تعالى: ﴿بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾

٢. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهام للتقرير: أي ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا القوم الظالمون، وقرئ: ﴿يُهْلَكُ﴾ على البناء للفاعل، قال الزجاج: معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم؟

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلَ اَرَآيْتكُمُ إِنَ اتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ الخاصُّ بكم، كما أتى الأمم ﴿بَغْتَةً﴾ ليلاً أو نهارًا بلا تقدُّم أمارة ﴿اَوْ جَهْرَةً﴾ ليلاً أو نهارًا بتقدُّم أمارة، سمَّى ظهوره جهرة تشبيهًا بظهور الصوت على الاستعارة التصريحيَّة لا المكنيَّة؛ أو إطلاق المقيَّد على المطلق مجازًا إرساليًّا، وتفسير ابن عبَّاس ﴿بَغْتَةً﴾ بليلٍ و﴿جَهْرَةً﴾ بنهارٍ تمثيلٌ بما هو أنسب، لا تفسير تعيين، لأنَّ من شأن الليل أنَّ ما يجيء فيه لا يدرى به، فهو بغتة، وأمَّا بالنهار يدرى به، ولا يخفى أنَّ وجه المقابلة عدم تقدُّم الأمارة وتقدُّمها، وإلَّا فمقابل الجهرةِ: الخفاءُ، وقيل: (بَغْتَةً) استعارة للخفية بقرينة مقابلتها بالجهرة، وأنَّها مكنيَّة لا تخييليَّة، وهو بعيد مع دعوى الاستعارة المكنيَّة مُجَرَّدة عن التخييليَّة.

٢. ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ هلاك سخط وتعذيب، وإلَّا فكلُّ أحد يُمَاتُ، وأيضًا هلاكُ المؤمنين لوجودِهم في محلِّ العذابِ مثوبةٌ ودرجاتٌ لهم، والعذاب إذا نزل عمَّ، ولم يميِّز بين الظالم وغيره، ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم وغيرهم بكفرهم، لأنَّه يعدوهم لأمرهم به، ولاقتداء غيرهم بهم، ولشؤمه على الأبدان والأموال بنحو القحط، أي: هل يهلك سواكم بالذَّات؟ فوضع الظاهر موضع المضمر ذكرًا للعلَّة، وقيل: المراد العموم، وَيَرُدُّه الخصوص في (يأْتِيكُمْ)، ويجاب بأنَّ المراد لا يهلك إلَّا الظالمون وأنتم منهم.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. أشار تعالى إلى تبكيت لهم آخر بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم بقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ﴾ لإعراضكم عن الآيات بعد تصريفها ﴿عَذَابَ اللهِ﴾ أي: المستأصل لكم،

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٦٥.

(٢) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦٤.

﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من غير تقديم ما يشعر به، إذ لم يفد ما تقدم، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بتقديمه مبالغة في إزاحة العذر، وقيل: ليلا أو نهارا، كما في قوله تعالى: ﴿بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾، لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة، وفيما أتى نهارا الجهرة.

٢. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم؟ ووضع الظاهر موضعه، تسجيلا عليهم بالظلم، وإيذانا بأن مناط إهلاكهم ظلمهم الذي هو وضعهم الإعراض عما صرف الله له من الآيات، موضع الإيمان.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الظالمين: أرأيتكم أنتم أنفسكم كيف يكون شأنكم ـ أو أخبروني عن مصيركم ـ إن أتاكم عذاب الله الذي مضت سنته في الأولين، بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين، مباغتا ومفاجئا لكم ـ أو إتيان مباغتة ـ فأخذكم على غرة لم تتقدمه أمارة تشعركم بقرب نزوله بكم، أو أتاكم ظاهرا مجاهرا ـ أو إتيان جهرة ـ بحيث ترون مباديه ومقدماته بأبصاركم، هل يهلك به إلا القوم الظالمون منكم وهم المصرون على الشرك وأعماله عنادا وجحودا، إذ مضت سنته تعالى في مثل هذا العذاب أن ينجي منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين، فكأنه قال: لا يهلك به غيركم، وإنما تهلكون بظلمكم لأنفسكم وجنايتكم عليها.

٢. وقد ظن بعض المفسرين أن هذا من العذاب الذي يكون عاما، يؤخذ فيه غير الظالم بجريرة الظالم، كالمصائب التي تحل بالأمم من جراء ظلمهم وفجورهم الذي يفضي إلى ضعفهم والاعتداء على استقلالهم، أو إلى تفشي الأمراض أو المجاعات فيهم، فتكلفوا في تفسير الآية تكلفا يصححون به ظنهم، فزعموا أن هلاك غير الظالم بهذا العذاب لا ينافي الحصر؛ لأنه يكون عذابا في الظاهر فقط، وأما في الباطن والحقيقة فهو سعادة لما يترتب عليه من الثواب والدرجات الرفيعة، ومن أشهر هؤلاء الظانين في الآية غير الحق: الرازي والطبرسي.

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٤٩

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هددهم الله تعالى وتوعدهم على كفرهم بربهم فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي قل لهم أيها الرسول: أخبروني عن شأنكم إن أتاكم عذاب الله الذي مضت سنة الله في الأولين بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين مباغتا ومفاجئا لكم فأخذكم على غرّة لم تتقدمه أمارات تشعركم بقرب نزوله بكم، أو أتاكم وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه بحيث ترون مبادئه ومقدماته بأبصاركم ـ هل يهلك الله به إلا القوم الظالمين منكم الذين أصروا على الشرك والعناد والجحود.

٢. إذ قد مضت سنته تعالى في مثل هذا العذاب أن ينجى منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين والخلاصة ـ إنه لا يهلك بهذا العذاب غيركم، لظلمكم أنفسكم وجنايتكم عليها بما اخترتم لها من الشرك والفجور وعبادة من لا يستحق العبادة، وترك عبادة من هو بها حقيق وجدير.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. قبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقع جديد، ليس على الله ببعيد، يريهم فيه مصارعهم ـ وهم الظالمون: أي المشركون ـ وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾

٢. إن عذاب الله يأتي في أية صورة وفي أية حالة، وسواء جاءهم العذاب بغتة وهم غارون لا يتوقعونه، أو جاءهم جهرة وهم صاحون متأهبون، فإن الهلاك سيحل بالقوم الظالمين ـ أي المشركين كغالبية التعبير في القرآن الكريم ـ وسينالهم هم دون سواهم، ولن يدفعوه عن أنفسهم سواء جاءهم بغتة أو جهرة، فهم أضعف من أن يدفعوه ولو واجهوه! ولن يدفعه عنهم أحد ممن يتولونهم من الشركاء، فكلهم من عبيد الله الضعفاء!

---

(١) تفسير المراغي ٧/١٢٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٩٤.

٣. وهو توقع يعرضه السياق عليهم ليتقوه، ويتقوا أسبابه قبل أن يجيء والله سبحانه يعلم أن عرض هذا التوقع في هذا المشهد يخاطب الكينونة البشرية خطابا تعرفه في قرارتها، وتعرف ما وراءه من حقيقة ترجف لها القلوب!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ استحضار لهؤلاء المشركين في موقف آخر من مواقف المساءلة، ومواجهة العذاب المعدّ لمن يدينهم الحساب في هذا الموقف، بعد أن ذكّروا بنعم الله التي تلبسهم ويلبسونها، والتي إن سلبها الله إياهم لم يكن لقوة في الوجود أن تأتيهم بها..

٢. وهنا في هذا الموقف، هم مجرمون، قد حكم بتجريمهم من قبل، وها هم أولاء يهدّدون بعذاب الله، الذي يؤخذ به كل متكبر جبار، وأن هذا العذاب غير موقوت بوقت لديهم، وإنما أمر ذلك إلى الله، فقد يأتيهم على حين غفلة، من حيث لا يشعرون أو يتوقعون، كما فعل ذلك بقوم لوط وقوم عاد، أو قد يأتيهم العذاب بعد أن ينذروا به، ويحدّد لهم وقته، تلميحا، كما في قوم نوح، أو تصريحا، كما في قوم صالح، إذ يقول الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]

٣. في قوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ دفع بهم إلى يد الهلاك، ليلحقوا بالظالمين، الذي أهلكهم الله من قبل، ودمدم عليهم بذنبهم.. فتلك سنّة الله في الذين خلوا من قبل.. وأنه إذا كان سبحانه وتعالى لم يعجّل لهم الهلاك، ولم يوردهم موارد الظالمين، فذلك إملاء لهم، ومظاهرة لحجة الله عليهم، ليذوقوا العذاب ضعفين يوم القيامة ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾، مرة ثانية

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٨٦.

(٢) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٢.

يعظهم الله ويهددهم بإتيان العذاب الذي لا يستطيعون له دفعا، سواء أجاءهم بغتة ومن حيث لا يحتسبون، أو جهرة من حيث هم متأهبون له، مرة ثانية في هذه الآيات يعظهم الله ويهددهم ليتقوا العذاب قبل وقوعه، ويثوبوا إلى رشدهم، ولكن قست القلوب، فلم تمل لحق ولا هداية.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ استئناف للتهديد والتوعّد وإعذار لهم بأنّ إعراضهم لا يرجع بالسوء إلّا عليهم ولا يضرّ بغيرهم، كقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]

٢. والقول في ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً﴾ الآية كالقول في نظيريه المتقدّمين، وجيء في هذا وفي نظيره المتقدّم بكاف الخطاب مع ضمير الخطاب دون قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦] الآية لأنّ هذا ونظيره أبلغ في التوبيخ لأنّهما أظهر في الاستدلال على كون المشركين في مكنة قدرة الله، فإنّ إتيان العذاب أمكن وقوعا من سلب الأبصار والأسماع والعقول لندرة حصول ذلك، فكان التوبيخ على إهمال الحذر من إتيان عذاب الله، أقوى من التوبيخ على الاطمئنان من أخذ أسماعهم وأبصارهم، فاجتلب كاف الخطاب المقصود منه التنبيه دون أعيان المخاطبين.

٣. والجهرة: الجهر، ضدّ الخفية، وضدّ السرّ، وقد تقدّم عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ في سورة البقرة [٥٥]

٤. وقد أوقع الجهرة هنا في مقابلة البغتة وكان الظاهر أن تقابل البغتة بالنّظرة أو أن تقابل الجهرة بالخفية، إلّا أنّ البغتة لمّا كانت وقوع الشيء من غير شعور به كان حصولها خفيّا فحسن مقابلته بالجهرة، فالعذاب الذي يجيء بغتة هو الذي لا تسبقه علامة ولا إعلام به، والذي يجيء جهرة هو الذي تسبقه علامة مثل الكسف المحكي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] أو يسبقه إعلام به كما في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٠٧.

٦٥]، فإطلاق الجهرة على سبق ما يشعر بحصول الشيء إطلاق مجازي، وليس المراد من البغتة الحاصل ليلا ومن الجهرة الحاصل نهارا.

٥. والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ مستعمل في الإنكار فلذلك جاء بعده الاستثناء، والمعنى لا يهلك بذلك العذاب إلّا الكافرون.

٦. والمراد بالقوم الظالمين المخاطبون أنفسهم فأظهر في مقام الإضمار ليتأتّى وصفهم أنّهم ظالمون، أي مشركون، لأنّهم ظالمون أنفسهم وظالمون الرسول والمؤمنين، وهذا يتضمّن وعدا من الله تعالى بأنه منجي المؤمنين، ولذلك أذن رسوله بالهجرة من مكة مع المؤمنين لئلّا يحلّ عليهم العذاب تكرمة لهم كما أكرم لوطا وأهله، وكما أكرم نوحا ومن آمن معه، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] ثم قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ [الأنفال: ٣٤]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. الخطاب للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، وللنبى ﷺ وللمشركين في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ وقد ذكرنا تخريج هذا اللفظ على ما يقوله النحويون واللغويون في البحث السابق، فارجع إليه.

٢. ﴿بَغْتَةً﴾ أي مفاجأة، و﴿جَهْرَةً﴾ أي جهارا، وقد ذكرت الجهرة في مقابل البغتة؛ لأن البغتة بمقتضى المعتادة تكون في خفية ولا إعلان فيها من قبل، أو على الأقل تجيء من غير ترقب ولا انتظار، فهي خافية على من نزلت عليهم؛ ولذلك قابلتها جهرة، ولقد فسر الزمخشري احتمال بغتة أن تكون بمعنى ليلا، وجهرة بمعنى نهارا، وهو معنى مقارب؛ لأن المفاجأة تكون بالليل، والعلنية تكون بالنهار عادة، وعذاب الله تعالى يجيء من غير ترقب، كحال الذين قالوا ﴿عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ فقال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف]

٣. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهام هنا إنكاري لإنكار الوقوع، أي لا يهلك إلا القوم الذين تجمعوا على الظلم، وتحزبوا وتضافروا عليه، وتعاونوا على إثمه، وهنا مباحث لفظية موضحة:

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٠٦.

أ. سؤال وإشكال: لماذا كان النفي بالاستفهام؟ والجواب: عن ذلك للتنبيه، كأنه كان سؤال وكانت إجابة، وذلك تأكيد للنفي فضل تأكيد.

ب. سبب الهلاك هو الظلم، فقد ظلموا بسبب الشرك، وظلموا بعدم الطاعة، وظلموا أنفسهم بضلالها، والظلم وخيم العاقبة.

ج. سؤال وإشكال: الكلام فيه حصر الهلاك في الظالمين مع أن الفتنة تعم ولا تخص، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ﴾ [الأنفال]، والجواب: إن الله لا يهلك الظالمين إلا إذا ساد الظلم، فبعضهم وقع منهم الظلم فعلا، والآخرون سكتوا عنه فكانوا ظالمين بسكوتهم، وقد قال تعالى في شأن بنى إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة] ولقد ورد في الأثر: إن الله لا يعذب العامة بظلم الخاصة، إلا إذا رأوا المنكر وسكتوا عنه، أو كما قال رسول الله ﷺ.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾، الجهرة الظهور التام الذي لا يقبل الارتياب ولذا قابلت البغتة التي هي إتيان الشيء فجأة لا يظهر على من أتاه إلا بعد إتيانه وغشيانه فلا يترك له مجال التحذر.

٢. وهذه حجة بين فيها على وجه العموم أن الظالمين على خطر من عذاب الله عذابا لا يتخطاهم، ولا يغلط في إصابتهم بإصابة من سواهم، ثم بين أنهم هم الظالمون لفسقهم عن الدعوة الإلهية وتكذيبهم بآيات الله تعالى، وذلك أن معنى العذاب ليس إلا إصابة المجرم بما يسوؤه ويدمره من جزاء إجرامه ولا إجرام إلا مع ظلم فلو أتاهم من قبل الله سبحانه عذاب لم يهلك به إلا الظالمون، فهذا ما يدل عليه الآية، ثم بين الآيتين التاليتين أنهم هم الظالمون.

فضل الله:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٩٥.

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ الذي ينزله الله بكم جزاء لأعمالكم السيئة التي قدمتموها في ضلالكم وكفركم وانحرافكم؟ ﴿بَغْتَةً﴾ على سبيل المفاجأة السريعة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ علانية في وضح النهار.

٢. ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ به ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر فاستحقوا العذاب انطلاقا من قيام الحجة عليهم من الله الذي أنذرهم وبشّرهم فأعرضوا عن ذلك كله، وتلك هي النتائج السيئة التي تصيبكم في مستقبل الدنيا والآخرة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال تعالى في هذه ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ وفي التي قبلها ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ ولعل وجه الحكمة: أن لفت أنظارهم في الأولى إلى قدرة الله ونعمته وعجز شركائهم، وفي هذه الآية لفت أنظارهم إلى أنفسهم كيف يصنعون إن أتاهم ﴿عَذَابَ اللهِ﴾ وهم على ظلمهم.

٢. ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ يصور لهم حالة نزول العذاب حين ينزل إما بشدة المباغتة وإما بهول المجاهرة ومعاينته عند نزوله حتى وصوله لا يستطيعون دفعه ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ أي بالعذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي فلم يأتكم إلا لأنكم ظالمون فأنتم الذين سببتم لإتيان العذاب بإصراركم على الظلم والإعراض عن آيات الله.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. تشير الآية الكريمة بعد ذكر هذه النعم الثلاث (العين والأذن والإدراك) التي هي منبع جميع

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٠٩.

(٢) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤٨.

(٣) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٨٩.

نعم الدنيا والآخرة ـ إلى إمكان سلب هذه النعم كلها دفعة واحدة، فتقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾، (بغتة) بمعنى (فجأة) و(جهرة) بمعنى (الظاهر) والعلانية، والمألوف استعمال (سرّا) في مقابل (جهرة) لا (بغتة)، ولكن لما كانت مقدمات العمل المباغت خافية غالبا، إذ لولا خفاؤه لما كان مباغتا، فإن في (بغتة) يكمن معنى الخفاء والسرية أيضا.

٢. والقصد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، وسلب مختلف النعم هو الله وحده، وإنّ الأصنام لا دور لها في هذا أبدا، لذلك ليس ثمّة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن الله لحكمته ورحمته لا يعاقب إلّا الظالمين.

ومن هذا يستفاد أنّ للظلم معنى واسعا يشمل أنواع الشرك والذنوب، بل إنّ القرآن يعتبر الشرك ظلما عظيما، كما قال لقمان لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

٢٧. وظائف الرسل ومواقف أقوامهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨ ـ ٤٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿مُبَشِّرِينَ﴾، قال مبشّرا بالجنة، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ قال نذيرا من النار(١).

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني: لا يحزنون للموت(٢).

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَأَصْلَحَ﴾، أصلح ما بينه وبين الله(٣).

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ من النار(٤).

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٥.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٥.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٥.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

٢. روي أنّه قال: ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ يعني: فمن صدّق، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل[(١)].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، نظيرها في الأعراف[(٢)].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بالقرآن، يعني: كفار مكة ﴿يَمَسُّهُمُ﴾ يعني: يصيبهم ﴿الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني: يعصون[(٣)].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: كلّ فسقٍ في القرآن فمعناه الكذب[(٤)].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٥)]:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أخبر أنه لم يرسل الرسل إلا مع بشارة لأهل الطاعة، ونذارة لأهل معصيته، وفيه أن الرسل ليس إليهم الأمر والنهي، إنما إليهم إبلاغ الأمر والنهي.

٢. ثم بين البشارة فقال: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أ. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: لما ليس لذلك فوت ولا زوال، ليس نعيمها كثواب الدنيا وأنه على شرف الفوت والزوال.

ب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: لأنه سرور لا يشوبه حزن، ليس كسرور الدنيا يكون مشوبًا بالحزن والخوف.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ هذه هي النذارة.

٣. ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾، ذكر المس لما لا يفارقهم العذاب، ولا يزول عنهم.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦١.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٥٥.

(٥) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٨.

٤. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الفسق في هذا الموضع: الكفر، والشرك، وما ذكر من الظلم هو ظلم شرك وكفر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين الله تعالى في هاتين الآيتين:

أ. أنه لا يبعث الرسل أرباباً يقدرون على كل شيء يسألون عنه من الآيات أو يخترعونه بل إنما يرسلهم لما في ذلك من المصلحة لهم ومنبهين على ما في عقولهم من توحيد الله، وعدله وحكمته مبشرين بثواب الله لمن آمن به وعرفه، ومخوفين لمن أنكره وجحده.

ب. ثم أخبر أن المرسل إليهم مختارون غير مجبرين ولا مضطرين ودل على أنه غير محدث لشيء من أفعالهم فيهم، وأن الأفعال لهم، هم يكتسبونها بما خلق الله فيهم من القدرة، وأنه قد هداهم، وبين لهم وبشرهم وأنذرهم فمن آمن أثابه ومن عصاه عاقبه، ولو كانوا مجبورين على المعاصي مخلوقاً فيهم الكفر ولم يجعل فيهم القدرة على الإيمان لما كان للآية معنى.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الإرسال: أصله الإطلاق، وأرسله إرسالاً، وسمي الرسول؛ لأنه أطلق لسانه بأداء الرسالة.

ب. المس: التقاء الشيئين من غير فصل ومنه المماسة لالتقاء الحدين، ومس العذاب لأنه يحله فكأنه مسه، وقيل: تمس النار بالعذاب، والفرق بين المس واللمس: أن اللمس مماسة بحاسة، والمس يكون بحاسة وبغير حاسة.

ج. الفسق: الخروج من طاعة الله، وأصله: الخروج.

٢. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ قيل: هذا جواب لاستدعائهم الآيات،

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٤٢.

(٢) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٦٤.

واقتراحاتهم الفاسدة، عن أبي مسلم، يقال: وما نرسل الرسل إلا لنبشر أهل الطاعة وننذر أهل المعصية.

٣. ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ أي صدق الرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي عمل صالحًا في الدنيا بأن يأتي بالواجبات، ويجتنب الكبائر ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

أ. قيل: في الآخرة على ما يعاينون من العذاب كما يحزن أهل النار؛ لأنه لا ينالهم بل يزيدهم سرورا.

ب. وقيل: لا يحزنون على ما خلفوا وراءهم في الدنيا.

٤. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾:

أ. حججنا وأدلتنا.

ب. وقيل: بالقرآن.

ج. وقيل: بمحمد ومعجزاته.

٥. ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي يصيبهم العذاب يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله والإيمان.

٦. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه لا رسول إلا ومعه وعد ووعيد، ولا يجوز خلوهما من أمر ونهي، فيبطل قول من جوز رسولاً بلا شرعة، ويبطل فَرْقُهُم بين الرسول والنبي ﷺ.

ب. أن المؤمن لا يخاف ولا يحزن في القيامة، خلاف ما تقوله الإخشيدية والحشوية.

ج. أن زوال الخوف والحزن بالإيمان والصلاح، فيبطل قول المرجئة.

د. تدل آخر الآيات أن العذاب يستحق بالعمل، فيبطل قول الْمُجْبِرَةِ.

هـ. أن الإيمان والكفر والفسق فِعْلُهم، فيبطل قول الْمُجْبِرَةِ في المخلوق.

٧. مسائل لغوية ونحوية:

أ. سؤال وإشكال: لِمَ قال: ﴿مَنْ آمَنَ﴾، ثم قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؟ والجواب: لأن ﴿مِنْ﴾ اسم مبهم قد يكون في معنى الجماعة.

ب. سؤال وإشكال: ما معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؟ والجواب: بمعنى المصدر كأنه قيل: بفسقهم، عن أبي مسلم.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين سبحانه أنه لا يبعث الرسل أربابا يقدرون على كل شيء يسألون عنه من الآيات، وأنها يرسلهم لما يعلمه من المصالح، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾

٢. ثم ذكر ثواب من صدقهم في باقي الآية، وعقاب من كذبهم في الآية الثانية، فقال: ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ أي: صدق الرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: عمل صالحا في الدنيا ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

أ. كما يحزن أهل النار.

ب. وقيل: لا يحزنون على ما خلفوا وراءهم في الدنيا.

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾:

أ. أي: أدلتنا وحججنا.

ب. وقيل: بمحمد ﷺ ومعجزاته.

٤. ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ يصيبهم العذاب يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بفسقهم، وخروجهم عن الإيمان.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: بالثّواب؛ ومنذرين بالعقاب وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحونه من الآيات، ثم ذكر ثواب من صدّق، وعقاب من كذّب في تمام الآية والتي بعدها.

٢. قال ابن عباس: يفسقون: بمعنى يكافرون.

الرّازي:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣١.

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. حكى الله تعالى عن الكفار فيما تقدم أنهم قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧] وذكر الله تعالى في جوابهم ما تقدم من الوجوه الكثيرة ثم ذكر هذه الآية، والمقصود منها أن الأنبياء والرسل بعثوا مبشرين ومنذرين ولا قدرة لهم على إظهار الآيات وإنزال المعجزات، بل ذاك مفوض إلى مشيئة الله تعالى وكلمته وحكمته فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ مبشرين بالثواب على الطاعات، ومنذرين بالعقاب على المعاصي.

٢. فمن قبل قولهم وأتى بالإيمان الذي هو عمل القلب والإصلاح الذي هو عمل الجسد ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ ومعنى المس في اللغة التقاء الشيئين من غير فصل:

أ. قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ: إنه تعالى علل عذاب الكفار بكونهم فاسقين، وهذا يقتضي أن يكون كل فاسق كذلك،

ب. قال أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ: هذا معارض بما أنه خص الذين كذبوا بآيات الله بهذا الوعيد وهذا يدل على أن من لم يكن مكذبا بآيات الله أن لا يلحقه الوعيد أصلا، وأيضا فهذا يقتضي كون هذا الوعيد معللا بفسقهم فلم قلتم أن فسق من عرف الله وأقر بالتوحيد والنبوّة والمعاد، مساو لفسق من أنكر هذه الأشياء؟

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي بالترغيب والترهيب، قال الحسن: مبشرين بسعة الرزق في الدنيا والثواب في الآخرة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف]

٢. معنى ﴿مُنْذِرِينَ﴾ مخوفين عقاب الله، فالمعنى: إنما أرسلنا المرسلين لهذا لا لما يقترح عليهم من

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣٨.

(٢) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٢٩.

الآيات، وإنما يأتون من الآيات بما تظهر معه براهينهم وصدقهم.

٣. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، تقدم القول فيه.

٤. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بالقرآن والمعجزات، وقيل: بمحمد ﷺ، ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي يصيبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي يكفرون.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل، أي مبشرين لمن أطاعهم بما أعدّ الله له من الجزاء العظيم، ومنذرين لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الوبيل؛ وقيل: مبشرين في الدنيا بسعة الرزق وفي الآخرة بالثواب، ومنذرين: مخوّفين بالعقاب، وهما حالان مقدّرتان: أي ما نرسلهم إلا مقدّرين تبشيرهم وإنذارهم.

٢. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي آمن بما جاءت به الرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ حال نفسه بفعل ما يدعونه إليه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بوجه من الوجوه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بحال من الأحوال، هذا حال من آمن وأصلح، وأما حال المكذبين؛ فهو أنه يمسهم العذاب بسبب فسقهم؛ أي خروجهم عن التصديق والطاعة.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمم ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنَّة والعواقب المحمودة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ الكافرين بالنار وعواقب السوء، فَمَعنَى علَّة الإرسالِ: التبشيرُ والإنذارُ لا اقتراحُ الآيات، فإنَّ اقتراحها ليس مِمَّا يتعلَّق بالرسالة أصلاً، والحصر إضافيٌّ، لأنَّ الرُّسل أيضًا يُصَلُّون ويصومون ويعبدون عبادات كثيرة غير التبشير والإنذار، ويفعلون مباحات، أي: أرسلناهم للتبشير والإنذار لا للاقتراح والقدرة على إظهار الآيات، فإنَّ مؤونته يكفيها ظهور المعجزات كالشمس، والحال في الآية تتضمَّن معنى التعليل كما رأيت، وهذا مُتَّصِل بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عليه ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الآية:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٥.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٦٥.

٣٧] الذي هو اقتراح، وما بينهما من تَتِمَّتِه.

٢. وفرَّع على الإرسال بقوله: ﴿فَمَنَ امَنَ﴾ من الأمم، وقيل: المراد هنا وما بعدُ أمَّتُه ﷺ والقرآن، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْسُقُونَ﴾، كأنَّه قيل: فكان الناس بعد الإرسال مؤمنًا مصلحًا لا خوف عليه ولا حزن، وكافرًا مكذِّبًا يَمَسُّه العذاب، ومقتضى الظاهر أن يقول: ومن لم يؤمن ولم يصلح، أو من كذَّب وأفسد تلويحًا بأنَّ تكذيب الرُّسل تكذيب بالآيات، وأنَّ تكذيبها إفساد، كما قال في مقابله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾، وكما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَايَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، والمراد: فمن آمن بالله والرسل وأصلح عمله ببنائه على أساس الشرع.

٣. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب يحقِّقونه في الآخرة، بل يخافون الله إجلالاً، ويخافون خوفًا مقابلاً للرجاء، إذ لا يدرون بِمَ يُختم لهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة بفوت الثواب إذ لا يفوتهم، ويحزنون في الدُّنيا لذنوبهم.

٤. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾ مقابل لقوله: ﴿فَمَنَ امَنَ﴾، ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أصل المسِّ: تحوُّل البدنِ أو بعضِه إلى شيء بالقصد ليباشره، فتسمية المصادم للشيء بلا قصد للمباشرة مسًّا مجازٌ، ولا قصد للعذاب، فقد شبَّه العذاب بحيوان مؤذ كالأسد والثعبان الشديد، بدليل أنَّه أثبت للعذاب ما هو من لوازم الحيوان المضرِّ القاصِدِ للمباشَرة الضارَّة، ففي ذلك مبالغة بأنَّ العذاب طالب لهم، وفي ذلك استعارة مكنيَّة، أو في (يَمَسُّ) استعارة تَبَعِيَّة من غير استعارة في العذاب، و(ال) في العذاب للكمال، أو للاستغراق في كلِّ عذاب، أو للجنس، أو للعهد في العذاب الذي أنذروا به، إذ عهد أنَّ جزاء التكذيب عذاب شديد فظيع.

٥. ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ أي: بسبب كونهم، أو بالفسق الذي كانوا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ يخرجون عن التصديق والطَّاعة، فهم معذَّبون على الشرك وما دونه من المعاصي، لأنَّ المشرك مخاطب بفروع الشريعة وبأصلها، لهذه الآية ونحوها.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١ . أشار تعالى إلى وظيفة الرسل، وتحقيق ما في عهدتهم، لبيان أن ما يقترحه الكفار عليه، ﷺ، ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا، بقوله سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب لأهل الإيمان والأعمال الصالحة، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ بالعقاب لأهل الكفر والمعاصي، ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ للأعمال والأخلاق، فهم أهل البشارة، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من العذاب الذي أنذروا به دنيويّا وأخرويّا، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل.

٢ . ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: الذي أنذروا به عاجلا أو آجلا ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: عن أمر الله في ترك الإيمان ومباشرة الأعمال الطالحة واكتساب الأخلاق الرديئة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١ . يدل على ما اخترناه ما ذكر من الجزاء على تكذيب الرسل في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي: تلك سنتنا في إهلاك المكذبين للرسل: ما نرسل المرسلين إليهم إلا مبشرين من آمن وأصلح عملا بالجزاء الحسن اللائق بهم، ومنذرين من أصر على الشرك والإفساد في الأرض بالجزاء السيئ الذي يستحقونه.

٢ . ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذي ينزل بالجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعده الله للكافرين، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله تعالى على شيء فاتهم؛ لأن الله تعالى يقيهم من كل فزع: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾، ولك أن تقول: إن هؤلاء الكملة لا يحزنون في الدنيا أيضا مما يحزن منه الكفار والفساق كفوات شهوات الدنيا ولذاتها، أو لا يكون حزنهم كحزنهم في شدته وطول أمده، فإنهم إذا عرض لهم الحزن لسبب صريح كموت الولد، والقريب، والصديق، أو فقد المال، وقلة النصير ـ يكون حزنهم رحمة وعبرة، مقرونا بالصبر وحسن الأسوة، لا يضرهم في أنفسهم ولا أبدانهم، ولا يغير شيئا من

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦٤.

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٣٥١

عاداتهم وأعمالهم، فالإيمان بالله يعصمهم من إرهاق البأساء والضراء، ومن بطر السراء والنعماء، عملا بقوله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: والذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها الرسل يصيبهم العذاب في الدنيا أحيانا، ولا سيما عند الجحود والعناد الذي يكون في المجموع دون بعض الأفراد، وفي الآخرة على سبيل الشمول والاطراد، وذلك بسبب فسقهم، أي كفرهم وإفسادهم، فهؤلاء قد ذكروا في مقابل الذين آمنوا وأصلحوا أنفسهم وأعمالهم ومعاملاتهم، فالتكذيب يقابل الإيمان، والفسق يقابل الإصلاح، وإن كان أعم منه في اللغة والاصطلاح، فهو يطلق على الكفر والخروج من الطاعة، وفسر ابن زيد الفسق بالكذب هنا وفي كل القرآن، وهو تفسير غير مسلم.

٤. والمس: اللمس باليد وما يدرك به، ويطلق على ما يصيب المدرك مما يسوءه غالبا من ضر، وشر، وكبر، ونصب، ولغوب، وعذاب الضراء والبأساء، وهذا الاستعمال كثير في القرآن يعد بالعشرات، ويسند الفعل إلى سبب السوء والألم، وقد أسند إلى ما يسر في مقابلة إسناده إلى ما يسوء في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وفي الآية السابعة عشرة من هذه السورة وقد تقدم، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ وذكر مس الضر في أواخر (سورة يونس) وقابله بإرادة الخير، وقد ورد المس بمعنى الوقاع في (سورة البقرة)، ولم يرد في القرآن بمعنى اللمس باليد إلا في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي القرآن، وفسر بعضهم المس بالاطلاع والمطهرين بالملائكة.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بين الله تعالى وظيفة الرسل فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلا ببشارة أهل الطاعة بالفوز بالجنة جزاء وفاقا على طاعتهم، وبإنذار من أضرّ على الشرك

(١) تفسير المراغي ٧/١٢٨.

والإفساد في الأرض، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة.

٢. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن صدق من أرسلناه إليه من رسلنا وعمل صالحا فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذي ينزل بالمكذبين الجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعده للكافرين ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شيء فاتهم، لأن الله يحفظهم من كل فزع وهول كما قال سبحانه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وكذلك هم لا يحزنون في الدنيا كحزن المشركين في شدته وطول مدته، فإذا عرض لهم الحزن بسبب صحيح كموت ولد أو قريب أو فقد مال أو قلة نصير يكون حزنهم مقرونا بالصبر وحسن الأسوة فلا يضرهم في أنفسهم ولا في أبدانهم، ولا يغير شيئا من أخلاقهم وعاداتهم، فالإيمان يعصمهم من عنت البأساء وبطر النعماء، مسترشدين بنحو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي والذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها الرسل يصيبهم العذاب في الدنيا أحيانا عند الجحود والعناد، وفى الآخرة على سبيل الدوام والاطراد، جزاء كفرهم وإفسادهم، وخروجهم عن أمر الله وطاعته، وارتكابهم مناهيه ومحارمه.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. حين تبلغ الموجة أقصى مدها، بعرض هذه المشاهد المتوالية، والتعقيبات الموحية، والإيقاعات التي تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر.. تختم ببيان وظيفة الرسل، الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق، وإن هم إلا مبلغين، مبشرين ومنذرين، ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٩٤.

٢. لقد كان هذا الدين يعد البشرية للرشد العقلي، ويؤهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان استخداما كاملا في إدراك الحق الذي تنبث آياته في صفحات الوجود، وفي أطوار الحياة، وفي أسرار الخلق؛ والذي جاء هذا القرآن لكشفه وتجليته وتوجيه الإدراك البشري إليه..

٣. وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية؛ التي تلوي الأعناق وتجبر المنكرين على الإذعان، أمام القهر بالخارقة المادية البادية للعيان! إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله، وهي في ذاتها خوارق معجزة.. ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود، ويتألف منها قوامه، وإلى مخاطبة هذا الإدراك بكتاب من عند الله باهر، معجز في تعبيره ومعجز في منهجه، ومعجز في الكيان الاجتماعي العضوي الحركي الذي يرمي إلى إنشائه على غير مثال، والذي لم يلحق به من بعده أي مثال! وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة، وتوجيها طويلا، حتى يألف الإدراك البشري هذا اللون من النقلة، وهذا المدى من الرقي؛ وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشري، في ظل التوجيه الرباني، والضبط القرآني، والتربية النبوية.. قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية في آن واحد، بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية التي كانت سائدة في قسم من الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي؛ وعن منهج التصورات الحسية المادية التي كانت سائدة في قسم من تلك الفلسفة وفي بعض الفلسفة الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية كذلك، مع الخروج من الحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية!

٤. وجانب من تلك التربية وهذا التوجيه يتمثل في بيان وظيفة الرسول، وحقيقة دوره في الرسالة على النحو الذي تعرضه هاتان الآيتان ـ كما ستعرضه الموجة التالية في سياق السورة ـ فالرسول بشر، يرسله الله ليبشر وينذر، وهنا تنتهي وظيفته، وتبدأ استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة، وينتهي الأمر بالجزاء الإلهي وفق هذه الاستجابة.. فمن آمن وعمل صالحا يتمثل فيه الإيمان فلا خوف عليه مما سيأتي ولا هو يحزن على ما أسلف، فهناك المغفرة على ما أسلف، والثواب على ما أصلح.. ومن كذب بآيات الله التي جاءه بها الرسول، والتي لفته إليها في صفحات هذا الوجود، يمسهم العذاب بسبب كفرهم، الذي يعبر عنه هنا بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ حيث يعبر القرآن غالبا عن الشرك والكفر بالظلم والفسق في معظم المواضع..

٥. تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض، وبيان محكم عن الرسول ووظيفته وحدود عمله في هذا الدين.. تصور يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها؛ ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله، ويجعل للإنسان ـ من خلال ذلك ـ حرية اتجاهه وتبعة هذا الاتجاه، ويبين مصائر الطائعين لله والعصاة بيانا حاسما؛ وينفي كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله، مما كان سائدا في الجاهليات.. وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلي؛ دون أن يضرب بها في تيه الفلسفات الذهنية، والجدل اللاهوتي، الذي استنفد طاقة الإدراك البشري أجيالا بعد أجيال!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ تعقيب على ما في الآيات السابقة، من دعوة الناس إلى الله على لسان رسله، وأمهل الله سبحانه المكذبون منهم، وأخذهم بالبأساء والضراء حينا، وبالنّعماء والسراء حينا آخر، وذلك ليكون لهم في أنفسهم نظر، ولهم إلى الله رجعة، حتى إذا بلغ بهم الكتاب أجله، ولم تنفعهم الآيات والنّذر، أخذهم الله بعذاب بئيس، وأوردهم موارد الهالكين.

٢. وفي هذه الآية، بيان لموقف الرسل ممن أرسلوا إليهم.. فما للرسل سلطان على الناس، أن يؤمنوا أو يضلّوا، وإنما هم دعاة إلى الخير والهدى، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها.. وليس الرسل كذلك، هم الذين يملكون العفو والمغفرة، أو يسوقون العذاب والهلاك للمعاندين والمشركين، فذلك إلى الله وحده، لا يملكه أحد غيره، وما على الرسل إلا البلاغ.

٣. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هو بيان لأثر من آثار الرسل في الناس، وأن هناك في الناس من يهتدى بهم، ويؤمن بالله عن طريقهم.. وهؤلاء الذين اتبعوا الرسل وآمنوا بالله، وعملوا الصالحات، قد فازوا وسعدوا، وأمنوا من هول يوم القيامة، ولم يقع في نفوسهم حزن وحسرة على فائت فاتهم من حظوظ لدنيا، وخير الآخرة.. فما فاتهم في الدنيا مما كان يعدّه المشركون بالله نعيما استهلكوا فيه أنفسهم، هو رذل خسيس إلى جانب النعيم المقيم المعدّ لهم في جنات الخلد، أما خير الآخرة فلم يفتهم

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٨٧.

منه شيء فقد آمنوا بالله، وهذا هو رأس كل خير.. ثم هداهم الإيمان إلى الأعمال الصالحة، التي ترضى الله الذي آمنوا به، وتدخلهم في جنّاته.

٤. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ هو كشف للوجه الآخر من دعوة الرسل، وأنه إذا آمن بهم كثير من الناس، فقد كفر بهم كثير من الناس أيضا.. ولكل من المؤمنين والكافرين حسابه وجزاؤه.. وقد بينت الآية السابقة عاقبة المؤمنين وجزاءهم، وأنه لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون..

٥. وأما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، فأولئك ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، والفسوق، هو الخروج، يقال فسق الفرخ من البيضة: إذا خرج منها، والفاسق هو من يخرج عن حدود الله، وفي هذا يقول الله تعالى عن إبليس ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾

٦. في قوله تعالى: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ إشارة إلى أن عذاب الله شديد لا يطاق، وأن مسّة من هذا العذاب، تحيل حياة من تصيبه إلى شقاء دائم، وبلاء متصل.. نعوذ بالله من عذاب الله.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، هذه هي وظيفة الرسول، يبشر الطائع، وينذر العاصي، وهذه الوظيفة على بساطة تحديدها، ووضوح مفهومها هي من أشق الوظائف، وأكثرها صعوبة، لأنها تمس حياة الطغاة مباشرة، وتعارضهم في مصالحهم ومنافعهم، وتنتهي وظيفة الرسول بثواب من آمن وعمل صالحا، وعقاب من كفر وكذّب بآيات الله.

٢. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، لأن المجرم هو الذي يخاف ويحزن، أما البريء فهو في أمان واطمئنان.

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، الفسق أعم من الكفر، فكل كافر فاسق، ولا عكس، والمراد بالفسق هنا الكفر بدليل قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾

ابن عاشور:

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٢.

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ عطف على جملة ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، والمناسبة أنّ صدوفهم وإعراضهم كانوا يتعلّلون له بأنّهم يرومون آيات على وفق مقترحهم وأنّهم لا يقنعون بآيات الوحدانية، ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخر ما حكي عنهم في تلك الآية، فأنبأهم الله بأنّ إرسال الرسل للتبليغ والتبشير والنذارة لا للتّلهّي بهم باقتراح الآيات.

٢. وعبّر بـ ﴿نُرْسِلُ﴾ دون أرسلنا للدلالة على تجدّد الإرسال مقارنا لهذين الحالين، أي ما أرسلنا وما نرسل، فقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ حالان مقدّرتان باعتبار المستقبل ومحقّقتان باعتبار الماضي، والاستثناء من أحوال محذوفة، أي ما أرسلناهم إلّا في حالة كونهم مبشّرين ومنذرين.

٣. والقصر إضافي للردّ على من زعموا أنّه إن لم يأتهم بآية كما اقترحوا فليس برسول من عند الله، فهو قصر قلب، أي لم نرسل الرسول للإعجاب بإظهار خوارق العادات.

٤. وكنّى بالتبشير والإنذار عن التبليغ لأنّ التبليغ يستلزم الأمرين وهما الترغيب والترهيب، فحصل بهذه الكناية إيجاز إذ استغنى بذكر اللازم عن الجمع بينه وبين الملزوم.

٥. والفاء في قوله: ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ للتفريع، أي فمن آمن من المرسل إليهم فلا خوف إلخ، و﴿فَمَنْ﴾ الأظهر أنّها موصولة كما يرجّحه عطف ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ عليه، ويجوز أن تكون شرطية لا سيما وهي في معنى التفصيل لقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، فإن كانت شرطية فاقتران ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بالفاء بيّن، وإن جعلت موصولة فالفاء لمعاملة الموصول معاملة الشرط، والاستعمالات متقاربان.

٦. ومعنى ﴿أَصْلَحَ﴾ فعل الصلاح، وهو الطاعة لله فيما أمر ونهى، لأنّ الله ما أراد بشرعه إلّا إصلاح الناس كما حكى عن شعيب ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]

٧. والمسّ حقيقته مباشرة الجسم باليد وهو مرادف اللمس والجسّ، ويستعار لإصابة جسم جسما آخر كما في هذه الآية، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في سورة المائدة

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٠٨.

[٧٣]، ويستعار أيضا للتّكيّف بالأحوال كما يقال: به مسّ من الجنون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

٨. وجمع الضمائر العائدة إلى (من) مراعاة لمعناها، وأمّا إفراد فعل ﴿أَمَّنْ﴾ و﴿أَصْلَحَ﴾ فلرعي لفظها.

٩. والباء للسببية، و(ما) مصدرية، أي بسبب فسقهم، والفسق حقيقته الخروج عن حدّ الخير، وشاع استعماله في القرآن في معنى الكفر وتجاوز حدود الله تعالى، وتقدّم تفصيله عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ في سورة البقرة [٢٦]

١٠. وجيء بخبر (كان) جملة مضارعية للإشارة إلى أنّ فسقهم كان متجدّدا متكرّرا، على أنّ الإتيان بـ (كان) أيضا للدلالة على الاستمرار لأنّ (كان) إذا لم يقصد بها انقضاء خبرها فيما مضى دلّت على استمرار الخبر بالقرينة، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ التبشير هو الإخبار بالبشرى، وهي الخبر السار، والإنذار هو الإخبار بالسوء في المستقبل تحذيرا وإعذارا، فالتبشير وعد بما يلقى في النفس السرور والاطمئنان، والإنذار وعيد بالعذاب، والجزاء المماثل للإثم، وقصر الله تعالى المرسلين على الإنذار والتبشير؛ لأنه ليس عليهم أن يحملوا الناس على الهداية إن لم يهتدوا، ولا يتحملوا وزر العصاة إن عصوا أمر ربهم، إنما الثواب لمن أطاع، والعذاب لمن عصاه، وذكر سبحانه وتعالى ذلك بالنص؛ لأن النبي ﷺ كادت نفسه تذهب عليهم حسرات حتى يؤمنوا، وقال تعالى له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء] فالله سبحانه بين له أنه لا يهدى من أحب، وأنه ليس عليه هدايتهم وأن رسالته غايتها الإنذار والتبشير كسائر المرسلين، وأنه بعد تبليغ الرسالة يكون الخير لهم، والتبعة عليهم.

٢. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن أذعن للحق، وآمن بما جئت

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٠٧.

به، وجعل هواه تبعا لما تدعو إليه فله الجزاء الأوفى، ودعم الإذعان الحق بالعمل الصالح، فالإيمان من غير عمل أجوف أجرد لا ينتج بذاته، ومن آمن وعمل صالحا فإنه لا يحزن على ما فاته في الماضي بل يطمئن بذكر الله، ولا يخاف من المستقبل لأنه يرجو ما عند الله تعالى.

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أولئك هم المقابلون للذين أذعنوا للحق وعملوا عملا صالحا، وهؤلاء كذبوا بآيات الله، ويراد بالتكذيب للآيات الإعراض عن الأدلة القاطعة المثبتة لوحدانية الله تعالى من كونيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة، وآيات قرآنية بينة واضحة باهرة، فلم يكن تكذيبهم للنبي ﷺ فقط، بل كان تكذيبهم للأدلة الواضحة التي تشبه الحس المرئي والبارز المحسوس، وهذه الآيات هي التي ساقها الله لهم، وهو خالق الكون ومدبره، وقال في عقوبتهم: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي يصيبهم العذاب بسبب فسقهم، أي خروجهم عن الحق، وإنكارهم لما يوجب العقل الإيمان به، وأردفوا كذلك بفعل الموبقات، فإذا كان المؤمنون قد أذعنوا للحق، وزكوه بالعمل الصالح، فأولئك أنكروا الحق، ودعموا الإنكار بارتكاب الموبقات والزور من الأعمال، وعبر سبحانه عن إصابة العذاب وإدخالهم جهنم بـ ﴿يَمَسُّهُمُ﴾؛ لأن موضع الإحساس بالألم هو الجلد، فمسه بالعذاب هو الإيلام الشديد، اللهم قنا عذاب النار.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ إلى آخر الآيتين يبين الله تعالى بالآيتين أنهم هم الظالمون، ولا يهلك بعذاب الله إن أتاهم إلا لظلمهم، ولذا غير سياق الكلام فوجه وجه البيان إلى النبي ﷺ ليكون هو المخبر عن شأن عذابه فيكون أقطع للعذر وجيء بلفظ المتكلم ليدل به على صدوره من ساحة العظمة والكبرياء.

٢. فكان ملخص المضمون أمره تعالى نبيه ﷺ أن يقيم عليهم الحجة أن لو أتاهم عذاب الله لم يهلك إلا الظالمين منهم ثم يقول تعالى لرسوله: إنا نحن الملقين إليك الحجة الآتين بالعذاب نخبرك أن إرسالنا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٩٥.

الرسل إنما هو للتبشير والإنذار فمن آمن وأصلح فلا عليه، ومن كذب بآياتنا فهو الذي يمسه عذابنا لفسقه وخروجه عن طور العبودية فلينظروا في أمر أنفسهم من أي الفريقين هم؟

٣. وقد تقدم في المباحث السابقة استيفاء البحث عن معنى الإيمان والإصلاح والفسق ومعنى نفي الخوف والحزن عن المؤمنين.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. إنّ على الناس مواجهة مصيرهم من خلال وعي رسالات المرسلين، ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فها هم الأنبياء يبشّرون الناس بالجنّة التي وعد الله بها عباده المتقين، وينذرونهم النار التي توعّد الله بها الكافرين والظالمين، وهم لا يدّخرون جهدا فيما يثيرونه أمامهم من دلائل الإيمان وبراهينه، وعناصر القناعة الفكرية والروحيّة، بالمستوى الذي لا يترك هناك شبهة إلّا وأوضحها، ولا يدع مشكلة إلّا وحلّها، وبذلك تبرز أمامهم قصة المصير واضحة جليّة.

٢. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ حياته ومسيرته ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإنه سيقف موقف الآمن الفرح المطمئن.

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أما الذين كذّبوا بالإيمان وبآيات الله في وحيه ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فإنهم ينتظرون العذاب كنتيجة طبيعيّة لكل أفكار الفسق وخطواته العملية في الحياة، وماذا يبقى للإنسان بعد ذلك إلا أن يختار مصيره بنفسه، في الجنة أو في النار، من خلال خطّ الفكر والعمل؟

٤. إنّ قضية الرسالات تتحرك من أجل إيجاد تفاعل فكري وروحي وعملي بين الرسل والناس من خلال الرسالة التي تبشّر بالنتائج الطيبة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، وتنذر بالنتائج السيئة للمكذبين بآيات الله، لينطلق الناس في عملية فكر وتأمل وحوار من أجل مواجهة مصيرهم الذي يتحدّد بالموقف الإيجابي أو السلبي من الرسالة، وهذا هو دور الرسالات، فهي تعمل من أجل إثارة الفكرة وإيجاد

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١١١.

الدوافع النفسية نحو الحركة على أساس العناصر الحية التي تخاطب فيها الرسالات وعي الإنسان في قناعاته وفي مصالحه الحيوية في حاضره ومستقبله.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فالرسل كلهم جاؤوا الأمم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن وأصلح ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ لمن كفر ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ بالرسل وما جاؤوا به ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وعمل صالحاً ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بل هم آمنون في الآخرة مستبشرون.

٢. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فلم يؤمنوا برسولهم ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يباشرهم العذاب بسبب ما كانوا في الدنيا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ أي ما تكرر من فسقهم كله، يؤاخذون به كله أوله وآخره.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. تشير الآية الكريمة إلى مركز الأنبياء، فتقول: ليست الأصنام العديمة الروح هي وحدها العاجزة عن القيام بأي أمر، فإن الأنبياء العظام والقادة الإلهيين أيضا لا عمل لهم سوى إبلاغ الرسالة والإنذار والتبشير، فكل ما هنالك من نعم إنّما هي من الله وبأمره، وأنّهم إن أرادوا شيئا طلبوه من الله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾

٢. والاحتمال الآخر في ربط هذه الآية بالآيات السابقة هو أنّ تلك الآيات كانت تتكلم عن البشارة والإنذار، وهنا يدور القول على أنّ هذا هو هدف بعثة الأنبياء، فهم مبشرون ومنذرون، ثمّ تقول: إنّ طريق النجاة ينحصر في أمرين:

أ. فالذين يؤمنون ويصلحون أنفسهم و﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فلا خوف عليهم من العقاب

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤٨.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٩٠.

الإلهي، ولا حزن على أعمالهم السابقة، ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

ب. أمّا أولئك الذين لا يصدقون بآياتنا، بل يكذبون بها فإنّ عقابهم على فسقهم وعصيانهم عذاب من الله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

٣. من الجدير بالانتباه أنّ الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات الله بعبارة ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾، فكأنّ هذا العقاب يطاردهم في كل مكان حتى يشملهم بأشد ما يكون من العذاب.

٤. كذلك ينبغي القول أنّ لكلمة (فسق) معنى واسعا أيضا، يشمل كل أنواع العصيان والخروج عن طاعة الله وعبوديته وحتى الكفر في بعض الأحيان، وهذا المعنى هو المقصود في هذه الآية، لذلك لا محل للبحوث التي عقدها الفخر الرازي ومفسّرون آخرون بشأن معنى (الفسق) وشمولها الذنوب، ومن ثمّ الدفاع عن ذلك.

٢٨. الرسول ووظيفته والرد على دعاوى المعاندين

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهَّ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، الضالّ، والمهتدي(١).

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، ﴿الْأَعْمَى﴾ الكافر الذي عمي عن حقّ الله وأمره ونعمه عليه، ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ العبد المؤمن الذي أبصر بصرا نافعا، فوحّد الله وحده، وعمل بطاعة ربّه، وانتفع بما آتاه الله(٢).

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لّما خوّفهم النبي ﷺ بالعذاب سألوه العذاب استهزاء وتكذيبا: إلى متى يكون هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت من الصادقين؟ فقال الله للنبي ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ يعني: مفاتيح الله بنزول العذاب، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يعني: غيب نزول العذاب متى ينزل بكم، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ لقولهم في حم السجدة: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] رسلا فنؤمن بهم، فأمّا أنت ـ يا محمد ـ فلا نصدّقك فيما تقول، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ يقول: ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ من

---

(١) تفسير مجاهد، ص ٣٢٢.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٥٧.

القرآن[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ بالهدى فلا يبصره، وهو الكافر، ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ بالهدى، وهو المؤمن، ﴿أَفَلَا﴾ يعني: فهلّا ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أنهما لا يستويان[2].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾:

أ. لم يحتمل ما قال ابن عباسٍ حيث قال إنهم قالوا لرسول الله ﷺ لم ينزل الله عليك كنزًا تستغني به؛ فإنك محتاج، ولا جعل لك جنة تأكل منها فتشبع من الطعام؛ فإنك تجوع، فنزل عند ذلك هذا، لا يحتمل أن يقولوا له ذلك، فيقول لهم: إني لا أقول لكم إني ملك، وليس عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب، فإن كان من السؤال شيء من ذلك، فإنما يكون على سؤال سألوا لأنفسهم؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ونحو ذلك من الأسئلة التي سألوا لأنفسهم، فنزل عند ذلك ما ذكر، فهذا لعمري يحتمل، فيقول لهم: إنه ليس عندي خزائن الله فاجعل لكم هذا، ولا أعلم الغيب؛ ولا أقول لكم: ﴿إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.

ب. الثاني: جائز أن يكون النبي عليه السلام أوعدهم بالعذاب وخوفهم، فسألوا العذاب استهزاء وتكذيبًا، فقالوا: متى يكون!؟ كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فقال عند ذلك: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ ومفاتيحه، أُنْزِلُ عليكم العذاب متى شئت، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ومتى وقت نزول العذاب عليكم، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ نزلت من السماء بالعذاب، إنما أنا رسول، بشر مثلكم، ما أتبع إلا ما يوحى إليَّ، هذا محتمل جائز أن يكون على أثر ذلك نزل.

ج. ويحتمل وجهًا آخر وهو: أنه يخبر ابتداء في: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾؛ لأني لو قلت: عندي خزائن الله، وأنا أعلم الغيب، وإني ملك ـ كان ذلك أشد اتباعًا لي وأرغب وأكثر لطاعتي، لكن

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٩.

أقول: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ ما أتبع إلا ما يوحى إليَّ، لتعلموا أني صادق في قولي، ومحق فيما أدعوكم إليه.

٢. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾:

أ. يعلم بالإحاطة أن هذا ونحوه خرج على الجواب لأسئلة كانت منهم لرسول الله ﷺ لكن لسنا نعلم ما كانت تلك الأسئلة التي كانت من أُولَئِكَ، حتى كان هذا جوابًا لهم، فلا نفسر، ولكن نقف؛ مخافة الشهادة على الله.

ب. ويحتمل: أن يكون جوابًا لما ذكر في آية أخرى، وهو قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾، فقال عند ذلك: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾، وقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ جوابًا لسؤال عن وقت الساعة، أو وقت نزول العذاب.

ج. وقوله عز وجل: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ جواب لقولهم: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ فقال عند ذلك: لا أقول: إني أعلم الغيب؛ حتى أعلم وقت نزول العذاب أو قيام الساعة، ولا أقول: إني ملك حتى أرقى في السماء.

٣. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾:

أ. أي: تعرفون أنتم أنه لا يستوي الأعمى، أي: من عمي بصره، والبصير: أي: من لم يعم بصره، فكيف لا تعرفون أنه لا يستوي من عمي عن الآيات ومن لم يعم عنها!؟

ب. أو نقول: إذا لم يستو الأعمى والبصير، كيف يستوي من يتعامى عن الحق ومن لم يتعام!؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان.

٤. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾:

أ. في آيات الله وما ذكركم.

ب. أو نقول: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في وعظكم، بالله تعالى.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ هذا مثل ضربه الله سبحانه للعلماء والجهال، وكذلك ما أشبهه من سائر الأمثال، فقس عليه ما شاكله من المقال.

الشريف المرتضى:

ذكر الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. استدلّ بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم السّلام قالوا: فلو لا أن حال الملائكة أفضل من حال النبيّ لما قال ذلك، ويقال لهم:

أ. لا دلالة في هذه الآية على أنّ حال الملائكة أفضل من حال الأنبياء؛ لأنّ الغرض في الكلام إنّما هو نفي ما لم يكن عليه، لا التفضيل لذلك على ما هو عليه، ألا ترى أنّ أحدنا لو ظنّ به أنّه على صفة وليس عليها جاز أن ينفيها عن نفسه بمثل هذا اللفظ وإن كان على أحوال هي أفضل من تلك الحال وأرفع.

ب. وليس يجب إذا انتفى ممّا تبرأ منه من علم الغيب وكون خزائن الله تعالى عنده أن يكون فيه فضل أن يكون ذلك معتمدا في كلّ ما يقع النفي له والتبرّء منه، وإذا لم يكن ملكا كما لم يكن عنده خزائن الله جاز أن ينتفي من الأمرين، من غير ملاحظة؛ لأنّ حاله دون هاتين الحالتين.

ج. وممّا يوضح هذا ويزيل الاشكال فيه أنّه تعالى حكى عنه في آية أخرى: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا﴾، ونحن نعلم أنّ هذه منزلة غير جليلة وهو على كلّ حال أرفع منها وأعلى، فما المنكر من أن يكون نفي الملكية عنه في أنّه لا يقتضي أنّ حاله دون حال الملك بمنزلة نفي هذه المنزلة.

د. والتعلّق بهذه الآية خاصّة ضعيف جدا، وفيما أوردناه كفاية وبالله التوفيق.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٨.

(٢) نفائس التأويل: ٢/ ٢٦٧

(٣) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٢.

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ أي لا أقدر على إغناء فقير ولا إفقار غني ولا في يدي مفاتيح عذاب الله لأنه خوفهم به فقالوا: استهزاء متى يكون؟ ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي علم الغيب في نزول العذاب عليهم متى يكون وعلم جميع ما غاب من ماض ويجيء من مستقبل إلا أن المستقبل لا يعلمه إلا الله أو من أطلعه الله على علمه من أنبيائه.. وأما الماضي فقد يعلمه المخلوقون من أحد وجهين إما من معاينة أو خبر والخبر قد يكون من وجهين من مخلوق عاين أو خالق أخبر وإن كان الإخبار عن مستقبل فهو من آيات الله المعجزة، وإن كان من ماض فإن علم به غير المخبر والمخبر لم يكن معجزاً، وإن لم يعلم به أحد وأعلم به المخبر وحده كان معجزاً.. فنفى رسول الله ﷺ عن نفسه علم الغيب لأنه لا يعلمه إلا الله وأن ما أخبر به من غيب فهو عن الله عز وجل ووحيه.

٢. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ يريد بذلك أنه من جملة البشر وليس بملك لينفي عن نفسه غلو النصارى في عيسى في قولهم إنه ابن الله؛ ثم في نفيه أن يكون ملكاً وجهان:

أ. أحدهما: أنه بين بذلك فضل الملائكة على الأنبياء لأنه دفع عن نفسه منزلة ليست له.

ب. الثاني: أنه أراد أن لست ملكاً من السماء فأعلم غيب السماء الذي تشاهده الملائكة ويغيب عن البشر.

٣. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ إني لا أخبركم إلا بما أخبرني الله عز وجل ولا أفعل إلا ما أمرني به ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي العالم والجاهل والمؤمن والكافر.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: الرزق، أي لا أقدر على إغناء فقير، ولا إفقار غني، قاله الكلبي.

ب. الثاني: مفاتيح خزائن العذاب لأنه خَوَّفهُم منه، فقالوا متى يكون هذا؟ قاله مقاتل.

٢. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فيه وجهان:

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١١٦.

أ. أحدهما: علم الغيب في نزول العذاب عليهم متى يكون؟، قاله مقاتل.

ب. الثاني: علم جميع ما غاب من ماض ومستقبل، إلا أن المستقبل لا يعلمه إلا الله أو من أطلعه الله تعالى على علمه من أنبيائه، وأما الماضي فقد يعلمه المخلوقون من أحد الوجهين: إما من معاينة أو خبر، فإن كان الإِخبار عن مستقبل، فهو من آيات الله المعجزة، وإن كان عن ماض فإن علم به غير المخبر والمخبر لم يكن معجزاً، وإن لم يعلم به أحد وعلم به المخبِر وحده كان معجزاً، فنفى رسول الله ﷺ عن نفسه علم الغيب، لأنه لا يعلمه غير الله تعالى، وإن ما أخبر به من غيب فهو عن الله ووحيه.

٣. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه يريد أنه لا يقدر على ما يعجز عنه العباد، وإن قدرت عليه الملائكة.

ب. الثاني: أنه يريد بذلك أنه من جملة البشر وليس بمَلَك، لينفي عن نفسه غُلُوَّ النصارى في المسيح وقولهم: إنه ابن الله.

٤. ثم في نفيه أن يكون ملكاً وجهان:

أ. أحدهما: أنه بَيَّنَ بذلك فضل الملائكة على الأنبياء، لأنه دفع عن نفسه منزلة ليست له.

ب. الثاني: أنه أراد إني لست ملكاً في السماء، فأعلم غيب السماء الذي تشاهده الملائكة ويغيب عن البشر، وإن كان الأنبياء أفضل من الملائكة مع غيبهم عما تشاهده الملائكة.

٥. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أن أخبركم إلا بما أخبرني الله به.

ب. الثاني: أن أفعل إلا ما أمرني الله به.

٦. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: الجاهل والعالم.

ب. الثاني: الكافر والمؤمن.

٧. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: فيما ضربه الله من مثل الأعمى والبصير.

ب. الثاني: فيما بينه من آياته الدالة على توحيده وصدق رسوله.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لعباده: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ أغنيكم منها ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الذي يختص بعلم الله تعالى فاعرفكم مصالح دنياكم، وإنها أعلم قدر ما يعلمني الله من أمر البعث والجنة والنار، وغير ذلك، ولا أدعي أني ملك، لأني إنسان تعرفون نسبي، لا أقدر على ما يقدر عليه الملك، وما أتبع إلا ما يوحي الله به إلي، وبين لهم أن الملك من عند الله، والوحي هو البيان الذي ليس بإيضاح نحو الإشارة والدلالة، لأن كلام الملك كان له على هذا الوجه، وإنها أمره بأن يقول ذلك لئلا يدعو فيه ما ادعت النصارى في المسيح، ولئلا ينزلوه منزلة خلاف ما يستحقه.

٢. ثم أمره بأن يقول لهم: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾:

أ. أي هل يستوي العارف بالله تعالى وبدينه العالم به مع الجاهل به وبدينه، فجعل الأعمى مثلاً للجاهل والبصير مثلاً للعارف بالله ونبيه، هذا قول الحسن والجبائي.

ب. وقال البلخي: معناه هل يستوي من صدق على نفسه واعترف بحاله التي هو عليها من الحاجة والعبودية لخالقه، ومن ذهب عن البيان وعمي عن الحق، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنصفوا من أنفسكم وتعملوا بالواجب عليكم من الإقرار بوحدانيته تعالى ونفي الشركاء والتشبيه عنه، وهذا وإن كان لفظه لفظ الاستفهام فالمراد به الإخبار أي أنهما لا يستويان.

ج. وقال مجاهد: الأعمى الضال والبصير المهتدي.

٣. ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ تنبيهاً لهم على الفكر في ما يدعوهم إلى معرفته ويدلهم عليه من آياته وأمثاله التي بينها في كتابه، للفرق بين الحق والباطل، والكافر والمؤمن.

٤. ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ قال الحسن: يعني خزائن الغيب الذي فيه العذاب لقولهم: ائتنا بعذاب الله، ولا أعلم الغيب متى يأتيكم العذاب.

٥. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من ملائكة الله، وإنها أنا بشر تعرفون نسبي، ولكني رسول الله

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٤٢.

يوحى إلي، ولا أتبع إلا ما يوحى إلي ولا أؤدي إلا ما يأمرني بأدائه واستدل الجبائي والبلخي وغيرهما بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من الأنبياء لأنه قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فلولا أن الملائكة أفضل وأعلى منزلة ما جاز ذلك، وهذا ليس بشيء لأن الفضل الذي هو كثرة الثواب لا معنى له ها هنا، وإنما المراد ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فأشاهد من أمر الله وغيبته عن العباد ما يشاهده الملائكة المقربون المختصون بملكوت السماوات وإن لم يكن في ذلك استحقاق ثواب زائد.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ﴿خَزَائِنُ﴾ الخزن: إحراز الشيء بحيث لا تناله الأيدي، خَزَنَ خُزُنُ خزنًا، نحو: نصر ينصر نصرًا فهو خازن، والشيء مخزون، ومنه خزن اللحم، إذا تغير؛ لأنه يخبأ حتى ينتن.

ب. الغيب: ما غاب عنك، ومنه: غابت الشمس، وكل ما يدرك بالحواس ويعلم بالاستدلال فليس بغيب، وقيل: الغيب ما غاب عن الحواس.

ج. الاتباع: طلب اللحوق بالسابق، وكل من اقتدى بغيره فيما يفعله أو يعتقده فهو متبع له، ولما كان النبي ﷺ يعمل بحسب الوحي كان متبعًا له.

د. الوحي: إلقاء المعنى إليه من وجه خفي.

هـ. البصير: ما كان على صفة يبصر المبصَر إذا وجد، والمُبْصِر: من يبصره، فيقتضي وجود المرئي، والبصير لا يقتضيه، والبصير ليس بصفة زائدة على كونه حيًّا لا آفة به، وللمبصر بكونه مبصرًا حالة؛ ولذلك يقال: إنه تعالى بصير فيما لم يزل، ولا يقال: مبصر.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: إن أهل مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد، ألا أَنْزَلَ عليك كنزًا، وجعل لك جنة وأشباه ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، عن الكلبي؛ أي لا أدعي ما لم أُعْطَ.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٦٨.

ب. وقيل: لما قالوا: لولا أنزل عليه آية من ربه، نزلت الآية منبهًا أنه عبد ليس له من ذلك شيء وإنما هو إلى الله تعالى، عن الأصم وأبي مسلم.

ج. وقيل: قالوا: إنما أنت بشر مثلنا فلا نجيبك، فنزلت الآية، حكاه الأصم.

د. وقيل: لما قالوا: ائتنا بعذاب الله، نزلت الآية جوابًا لقولهم، وخزائنه عذابه، عن الحسن.

٣. لما تقدم أنه تعالى يُصَرِّف الآيات، واقترح الكفار منه أشياء بين أنه لا يدعي الربوبية، وإنما يدعي النبوة، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أيها الناس.

٤. ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾:

أ. يعني مقدوراته، عن أبي علي.

ب. وقيل: أرزاق الخلق حتى تؤمنوا طمعًا في المال.

ج. وقيل: ملكه وآياته عن الأصم.

د. وقيل: خزائنه، عن الحسن.

٥. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي لا أدعى درجة فوق ما أنا فيه فلا أعلم الغيب.

٦. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾:

أ. وأستغني عما يحتاج إليه البشر.

ب. وقيل: إنما أشاهد من السماوات والأرض ما تشاهدون، عن الأصم.

ج. وقيل: ليس لي منزلة الملك.

٧. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ربي، فأعمل بحسب الوحي.

٨. ثم بَيَّنَ أن عارف الحق لا يستوي مع الجاهل، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾:

أ. أي الذي يبصر الأشياء، والذي لا يبصر.

ب. وقيل: العالم والجاهل.

ج. وقيل: البصير المؤمن، والأعمى الكافر، لا يستوي المؤمن والكافر.

د. وقيل: من يبصر الحق ويتبعه، ومن يعمى عن الحق، ويتبع الباطل.

هـ. وقيل: من يبصر الثواب والعقاب، ومن لا يبصر.

٩. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾:

أ. أي: هلا تتفكرون لتعلموا أن المؤمن والكافر لا يستويان.

ب. وقيل: لتعلموا الحق والباطل.

١٠. تدل الآية الكريمة على:

أ. على عظيم منزلة الملائكة.

ب. أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لأنه تعالى أمره ألا يدعي منزلة الملك، كما لا يدعي علم الغيب، ولا القدرة على مقدورات القديم سبحانه.

ج. أن ما يعلم بالدليل ليس بغيب، حتى يصح النفي على الإطلاق.

د. أن الأنبياء لا يعلمون الغيب، فإذا كانوا كذلك فالأئمة أولى.

هـ. وجوب التفكر والنظر في الأدلة.

و. أنه ليس يغير شيئًا مما أوحي إليه، لذلك كان متَّبِعًا.

ز. أنه لم يدع الربوبية ولا صفة من صفاتها، وإنما هو عبد ورسول؛ لئلا تعتقد أمته فيه ما اعتقدت النصارى في المسيح، فيبطل قول الغلاة من الروافض.

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿هَلْ﴾ استفهام، ومعناه الإنكار؛ أي لا يستوي.

ب. ﴿خَزَائِنُ﴾: قيل: لا بد من همزهِ لأن كل جماعة واحدها فعولة أو فعالة أو فعيلة لا بد من هَمْزِهِ، نحو: ركوبة وركائب، وحمولة وحمائل، وسفينة وسفائن.

ج. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي ما أتبع.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥١.

١. الخزائن، جمع الخزانة، وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي، ومنه خزن اللحم خزنا إذا تغير، لأنه يخبأ حتى ينتن.

٢. أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقول بعد اقتراحهم الآيات منه: إني لا أدعي الربوبية، وإنما أدعي النبوة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾:

أ. يريد: خزائن رحمة الله، عن ابن عباس.

ب. وقيل: خزائن الله مقدوراته، عن الجبائي.

ج. وقيل: أرزاق الخلق حتى يؤمنوا طمعا في المال.

٣. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾:

أ. الذي يختص الله بعلمه، وإنما أعلم قدر ما يعلمني الله تعالى من أمر البعث، والنشور، والجنة، والنار، وغير ذلك.

ب. وقيل: عاقبة ما تصيرون إليه، عن ابن عباس.

٤. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ لأني إنسان تعرفون نسبي، يريد، لا أقدر على ما يقدر عليه الملك، وقد استدلّ بهذا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وهذا بعيد لأن الفضل الذي هو كثرة الثواب، لا معنى له ههنا، وإنما المراد لا أقول لكم: إني ملك فأشاهد من أمر الله وغيبه عن العباد ما تشاهده الملائكة.

٥. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ يريد: ما أخبركم إلا بما أنزله الله إلي، عن ابن عباس، وقال الزجاج: أي ما أنبأتكم به من غيب فيما مضى، وفيما سيكون، فهو بوحي من الله، عز وجل.

٦. ثم أمره سبحانه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾:

أ. أي: هل يستوي العارف بالله سبحانه، العالم بدينه، والجاهل به وبدينه، فجعل الأعمى مثلا للجاهل، والبصير مثلا للعارف بالله وبنبيه، وهذا قول الحسن، واختاره الجبائي، وفي تفسير أهل البيت: هل يستوي من يعلم ومن لا يعلم.

ب. وقيل: معناه هل يستوي من صدق على نفسه، واعترف بحاله التي هو عليها من الحاجة والعبودية لخالقه، ومن ذهب عن البيان، وعمي عن الحق، عن البلخي.

٧. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنصفوا من أنفسكم، وتعملوا بالواجب عليكم من الإقرار بالتوحيد،

ونفي التشبيه، وهذا استفهام يراد به الإخبار: يعني إنهما لا يستويان.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. سبب نزولها: أنّ أهل مكّة قالوا: يا محمّد، لو أنزل الله عليك كنزا فتستغني به، فإنّك فقير محتاج؛ أو تكون لك جنّة تأكل منها، فإنك تجوع، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

٢. قال الزّجّاج: هذه الآية متّصلة بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، فأعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي، ولا يعلم الغيب فيخبرهم به إلّا بوحي، ولا يقول: إنه ملك، لأنّ الملك يشاهد من أمور الله تعالى ما لا يشاهده البشر، وقرأ ابن مسعود، وابن جبير، وعكرمة، والجحدريّ: (إنّي ملك) بكسر اللام.

٣. في الأعمى والبصير قولان:

أ. أحدهما: أنّ الأعمى: الكافر، والبصير: المؤمن، قاله ابن عباس، وقتادة.

ب. الثاني: الأعمى: الضّالّ، والبصير: المهتدي، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد.

٤. في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: فيما بيّن لكم من الآيات الدّالّة على وحدانيّته وصدق رسوله.

ب. الثاني: فيما ضرب لكم من مثل الأعمى والبصير وأنهما لا يستويان.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. هذا من بقية الكلام على قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧] فقال الله تعالى قل لهؤلاء الأقوام، إنما بعثت مبشرا ومنذرا، وليس لي أن أتحكم على الله تعالى وأمره الله تعالى أن ينفي عن نفسه أمورا ثلاثة:

أ. أولها: قوله: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ ذلك أن القوم كانوا يقولون له إن كنت رسولا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣١.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٣٨.

من عند الله، فاطلب من الله حتى يوسع علينا منافع الدنيا وخيراتها، ويفتح علينا أبواب سعادتها، فقال تعالى: قل لهم إني لا أقول لكم عندي خزائن الله، فهو تعالى يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير لا بيدي والخزائن جمع خزانة، وهو اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه، بحيث لا تناله الأيدي.

ب. ثانيها: قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ومعناه أن القوم كانوا يقولون له إن كنت رسولا من عند الله فلا بدّ وأن تخبرنا عما يقع في المستقبل من المصالح والمضار، حتى نستعد لتحصيل تلك المصالح، ولدفع تلك المضار، فقال تعالى: قل إني لا أعلم الغيب فكيف تطلبون مني هذه المطالب؟ والحاصل أنهم كانوا في المقام الأول يطلبون منه الأموال الكثيرة والخيرات الواسعة، وفي المقام الثاني كانوا يطلبون منه الاخبار عن الغيوب، ليتوسلوا بمعرفة تلك الغيوب إلى الفوز بالمنافع والاجتناب عن المضار والمفاسد.

ج. ثالثها: قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ومعناه أن القوم كانوا يقولون ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] ويتزوج ويخالط الناس، فقال تعالى: قل لهم إني لست من الملائكة.

٢. اختلفوا في الفائدة في ذكر نفي هذه الأحوال الثلاثة:

أ. فالقول الأول: أن المراد منه أن يظهر الرسول من نفسه التواضع لله والخضوع له والاعتراف بعبوديته، حتى لا يعتقد فيه مثل اعتقاد النصارى في المسيح عليه السلام.

ب. والقول الثاني: أن القوم كانوا يقترحون منه إظهار المعجزات القاهرة القوية، كقولهم ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخر الآية، فقال تعالى في آخر الآية ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] يعني لا أدعي إلا الرسالة والنبوّة، وأما هذه الأمور التي طلبتموها، فلا يمكن تحصيلها إلا بقدرة الله، فكان المقصود من هذا الكلام إظهار العجز والضعف وأنه لا يستقل بتحصيل هذه المعجزات التي طلبوها منه.

ج. والقول الثالث: أن المراد من قوله: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ معناه إني لا أدعي كوني موصوفا بالقدرة اللائقة بالإله تعالى، وقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي ولا أدعي كوني موصوفا بعلم الله تعالى، وبمجموع هذين الكلامين حصل أنه لا يدعي الإلهية، ثم قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وذلك

لأنه ليس بعد الإلهية درجة أعلى حالا من الملائكة، فصار حاصل الكلام كأنه يقول لا أدعي الإلهية ولا أدعي الملكية ولكني أدعي الرسالة، وهذا منصب لا يمتنع حصوله للبشر، فكيف أطبقتم على استنكار قولي ودفع دعواي؟

٣. قال الجبائي: الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء، لأن معنى الكلام لا أدعي منزلة فوق منزلتي ولولا أن الملك أفضل وإلا لم يصح ذلك، قال القاضي: إن كان الغرض بها نفى طريقة التواضع؛ فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل، وإن كان المراد نفي قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة، لم يدل على كونهم أفضل.

٤. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ظاهره يدل على أنه لا يعمل إلا بالوحي وهو يدل على حكمين:

أ. الأول: أن هذا النص يدل على أنه ﷺ لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام وأنه ما كان يجتهد بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي، ويتأكد هذا بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤]

ب. الثاني: ان نفاة القياس قالوا: ثبت بهذا النص أنه ﷺ ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه، لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠] وذلك ينفي جواز العمل بالقياس، ثم أكد هذا الكلام بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير.

٥. ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين وأن لا يكون غافلا عن معرفته.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الانعام]، فالمعنى ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٣٠.

به، والخزانة ما يخزن فيه الشيء ومنه الحديث (فإنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته)، وخزائن الله مقدوراته، أي لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون.

٢. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أيضا ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل، أي لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر، واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء، وقد مضى في (البقرة) القول فيه فتأمله هناك.

٣. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ظاهره أنه لا يقطع أمرا إلا إذا كان فيه وحي، والصحيح أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد، والقياس على المنصوص، والقياس أحد أدلة الشرع.

٤. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن، عن مجاهد وغيره، وقيل: الجاهل والعالم، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه، وتعنّتهم بإنزال الآيات التي تضطرّهم إلى الإيمان أنه لم يكن عنده خزائن الله حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات، والمراد: خزائن قدرته التي تشتمل على كلّ شيء من الأشياء، ويقول لهم: إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به، ويعرّفهم بما سيكون في مستقبل الدهر.

٢. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تكلّفوني من الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر، وليس في هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية، بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

٣. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي ما أتبع إلا ما يوحيه الله إليّ، وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملا بما يفيده القصر في هذه الآية، والمسألة مدوّنة في الأصول والأدلة عليها معروفة، وقد

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٦.

صحّ عنه ﷺ أنه قال: (أوتيت القرآن ومثله معه)

٤. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ هذا الاستفهام للإنكار، والمراد: أنه لا يستوي الضالّ والمهتدي، أو المسلم والكافر أو من اتبع ما أوحي إليه ومن لم يتبعه، والكلام تمثيل.

٥. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما، فإنه بين، لا يلتبس على من له أدنى عقل وأقلّ تفكر.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُل﴾ لهم تبرئة لنفسك من القدرة على ما يقترحونه من الآيات ﴿لَآ أَقُولُ لَكُم عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ﴾ جمع خزينة، بمعنى مخزونة، (فعيلة) بمعنى (مفعولة)، وهي ما يُنتفع به من مالٍ وصِحَّةِ بدن ودين، وغير ذلك من الأجسام والأعراض، أو جمع خزانة، بمعنى الموضع الذي يحرز فيه الشيء ويحافَظ عليه به، فيقدَّر مضاف، أي: خزائن رزق الله، أو أطلق اسم المحلّ على الحالّ، أو اللازم على الملزوم، أو الخزائن قضاء الأشياء التي قضاها الله، استعار لقضائها لفظ (خَزَائِن) لجامع الحفظ وعدم الوصول والفخامة، فإنَّ قضاءه مانع من التغيُّر مطلقًا، كما تمنع مواضع الخزن تغيُّر ما فيها، والوصول إليه، أو الخزائن بمعنى المقدورات، إطلاقًا لاسم المحلِّ على الحالّ، مجاز مرسل مبنيٌّ على مجاز آخر، إذ خزينة بمعنى الشيء المخزون، وجعل المُقَدَّر مخزونا مجازٌ، وذلك ردٌّ على قولهم: إن كنت رسولاً فادع الله أن يوسِّع رزقنا ومنافعنا.

٢. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ عطف على (لَآ أَقُولُ)، فهو من مقول (قُلْ)، كأنَّه قيل: وقل لا أعلم الغيب، و(لَا) نافية، ولو عَطَفَ على (عِندِي خَزَآئِنُ الله) لكانت (لا) زائدةً، فيكون من جملة ما نُفِي بـ (لَا): (أَقُولُ)، ووجه الزيادة: النصُّ على الكُلِّيَّة، ولو لم تزد لاحتملت الآية ـ بحسب اللفظ ـ أنَّ المعنى: لا أقول لكم الكلامين جميعًا بل بعضهما، واحتملت أنَّ المعنى: لا أقول لكم هذا ولا أقول هذا، وقد يرجَّح العطف على ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ مع زيادة (لَا) هنا، لأنَّ المقصود نفي دعوى أنَّه مَلكَ الخزائن، ودعوى أنَّه عَلِمَ

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٦٦.

الغيب، بخلاف ما في سورة هود، والغيب: ما لا يدركه الحسُّ، ولا تقتضيه بديهة العقل، ولم ينصب عليه دَلِيل، وهذا ردٌّ على قولهم: إن كنت رسولاً فأخبرنا بما سيقع من خيرٍ أو شرٍّ فنستعدَّ.

٣. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ لم يَدَّعِ أنَّه ملَك، ولا نسبوا إليه أنَّه ملَك، فالمعنى: لا أقول لكم أنَا كمَلَك في القدرة على ما يقدِر عليه المَلَك، كالصعود إلى السماء والنزول منها بكتاب، والكتاب إنَّما هو أيضًا بإذن الله تعالى لا باختيار الملَك، وفي علم ما لا يعلم البشر، ولا يدلُّ هذا على أنَّ الملَك أفضل من النبيِّ ﷺ ، ولا من غيره؛ لأنَّ الفضل بالثواب، والفضل هنا بقوَّة الملَك على الطيران ونحوه، ممَّا ليس معتبرًا بالثواب، كعدم الأكل والشرب وكثرة العبادة، فإنَّ ثوابهم عليها لا يساوي ثواب المؤمن، فضلاً عن النبيء، وكانوا يقولون: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الَاسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وَيَتَزَوَّجُ، ويخالط الناس، فردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمُ إِنِّي مَلَكٌ﴾

٤. أنَّه ما يدَّعي إلَّا النبوَّة الممكنة للبشر التي هي غاية كمالَاتِهم بقوله: ﴿إِنَ اَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ لا أقول من جهة نفسي شيئًا، وهذا قيد في قوله: ﴿لَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: لا أعلم الغيب، وهو ما لم يوح إليَّ، واستدلَّ بهذا من قال: النبيءُ ﷺ لا يقول باجتهاده، مع قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، ويجاب برجوع (هُوَ) إلى القرآن، قيل: الوحي إمَّا ظاهر بلسان الملَك كالقرآن، أو بإشارة الملك كحديث: (إنَّ روح القدس نفث في رُوعي أنَّ نفسًا لن تموت حتَّى تستكمل رزقها)؛ أو بإلهام، بحيث يعلم أنَّه من الله؛ وإمَّا باطن، بالتأمل في الأحكام المنصوص عليها، وهذا وحي باعتبار المآل، لأنَّ عدم إنكار الله عليه بعد ذلك تقرير له، فهو كالوحي ابتداء، وزيد وحي الرؤيا.

٥. وأعاد ﴿لَآ أَقُولُ﴾ لأنَّ نفي كونه ملَكًا أو نفي اتِّباع غير ما يوحى ليس من جنس ثبوت الخزائن وعلم الغيب، كما أنَّ مجموع ذلك ليس من جنس نفي استواء الأعمى بالبصير، فأعاد لذلك لفظ (قُلْ) في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَاعْمَىٰ﴾ الجاهل والضالُّ، والكافر ومدَّعي الأُلُوهِيَّة والملَكيَّة ونحوهما من المستحيلات، وهم المعاندون، وذلك مُتَّصِل بقوله: ﴿إِنَ اتَّبِعُ﴾، ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ العالم والمؤمن والمهتدي ومدَّعي المستقيم كالنبوءة، وهم النبيء ﷺ ومتَّبعوه، والبصير بذلك كالماشي، والمتناول ببصر وجهه ما يصلح ويُجانِبُ الضرَّ، بخلاف القسم الأوَّل فإنَّه كفاقد البصر يمشي ويتناول، لا يطَّلع على ما يَضُرُّ فضلاً عن أن يجانبه، وَقَدَّمَه لأنَّه الذي يقع حتَّى يخرج عنه بالتعلُّم والتفكُّر، وهم لا يتفكَّرون كما قال الله تعالى :

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أتهملون عقولكم فلا تتفكَّرون!؟ أو ألا تسمعون فلا تتفكَّرون!؟ أو أتسمعون هذا الحقَّ فلا تتفكَّرون، فتميِّزوا الحقَّ وتتَّبعوا الوحي وتؤمنوا به!؟

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات، وأخرى غير ذلك: لا أدعي أن خزائن رزق الله مفوضة إليّ، فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهبا، وغير ذلك، (والخزائن: جمع خزانة، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه، بحيث لا تناله الأيدي)

٢. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: من أفعاله تعالى حتى تسألوني عن وقت الساعة، أو وقت نزول العذاب أو نحوهما، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيقه البشر، من الرقيّ في السماء ونحوه، أو تعدّوا عدم اتصافي بصفاتهم قادحا في أمري، كما ينبئ عنه قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، والمعنى: إني لا أدعي شيئا من هذه الأشياء الثلاثة، حتى تقترحوا عليّ ما هو من آثارها وأحكامها، وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك، دليلا على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التي لا تعلق لها بشيء مما ذكر قطعا، بل إنما هي عبارة عن تلقي الوحي من جهة الله عز وجل، والعلم بمقتضاه فقط، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: ما أتبع فيما أقول لكم إلا ما يوحى إليّ من جهته تعالى، شرفني بذلك وأنعم به عليّ، إذ يكشف لي عن الملائكة فيخبرونني.

٣. ثم كرر الأمر تثنية للتبكيت بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للضال والمهتدي على الإطلاق، والاستفهام إنكاري، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق، ومن يعلمها، وفيه الإشعار بكمال ظهورها، ومن التنفير عن الضلال، والترغيب في الاهتداء ـ ما لا يخفى، أفاده أبو السعود.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦٥.

٤. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر، أي: أفلا تتفكرون فتهتدوا، ولا تكونوا ضالين أشباه العميان.

٥. جعل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ تبرؤا من دعوى الألوهية، لأن قسمة الأرزاق بين العباد، ومعرفة الغيب، مخصوصان به تعالى، ولذا كرر في الملكية لفظ ﴿وَلَا أَقُولُ﴾، والمعنى: لا أدعي الألوهية ولا الملكية، وأورد على هذا أن المراد: لا أملك أن أفعل ما أريد مما تقترحونه، وليس المراد التبرؤ عن دعوى الإلهية، وإلا لقيل: لا أقول لكم إني إله، كما قيل: ولا أقول لكم إني ملك، وأيضا في الكناية عن الألوهية بـ ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ ما لا يخفى من البشاعة، بل هو جواب عن اقتراحهم عليه ﷺ أن يوسع عليهم خيرات الدنيا ـ قاله الخفاجي في (العناية) ـ، قال أبو السعود: وجعل هذا تبرؤا عن دعوى الإلهية، مما لا وجه له قطعا.

٦. التفاضل بين البشر والملائكة:

أ. قال الجبائي: (الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء، لأن المعنى: لا أدعي منزلة فوق منزلتي، ولولا أن الملك أفضل، وإلا لم يصح ذلك)

ب. قال القاضي: (إن كان الغرض بها نفى طريقة التواضع، فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل، وإن كان المراد نفي قدرته على أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة، لم يدل على كونهم أفضل)

ج. وقرر الزمخشري الأول تأييدا لمذهبه فقال في تفسير الآية: (أي لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله، وهي قسمه بين الخلق وأرزاقه، وعلم الغيب، وإني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى، وأفضله، وأقربه منزلة منه، أي: لم أدع إلهية ولا ملكية، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، حتى تستبعدوا دعواي وتستنكروها، وإنما أدعي ما كان مثله لكثير من البشر، وهو النبوة)

د. وتعقبه الناصر في (الانتصاف) بقوله: (هو يبنى على القاعدة المتقدمة له، في تفضيل الملائكة على الأنبياء، ولعمري إن ظاهر هذه الآية يؤيده، فلذلك انتهز الفرصة في الاستدلال بها، ولمخالفه أن يقول: إنما أوردت الآية ردّا على الكفار في قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾.. الآية ـ فردّ قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ بأنه

بشر، وذلك شأن البشر، ولم يدّع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء، لأنه لا خلاف أن الأنبياء، يأكلون الطعام، وأن الملائكة ليسوا كذلك، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها، ولا يوجب عليه ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وكذلك رد قولهم ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ بأنه لا يملك خزائن الله تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به.

هـ. ثم قال الناصر: ولم يحسن الزمخشريّ في قوله: (ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة) فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل كالملكية، ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ، والمنزلة عبارة عن المحل الذي ينزل الله فيه العبد من علوّ وغيره، فإطلاقها على الإلهية تحريف، والله الموفق للصواب.

٧. الآية الكريمة والاجتهاد:

أ. قال الرازي: ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ يدل على أنه ﷺ لا يعمل إلا بالوحي، وهو يدل على حكمين:

• الأول: أن هذا النص يدلّ على أنه ﷺ لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام، وأنه ما كان يجتهد، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾

• الثاني: أن نفاة القياس قالوا: ثبت بهذا النص أنه ﷺ ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه، بقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾، وذلك ينفي جواز العمل بالقياس، ثم أكد هذا الكلام بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى، والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى علم البصير، ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين، وأن لا يكون غافلا عن معرفته)، انتهى.

ب. وفي (فتح الرحمن): تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء، عملا بما يفيده القصر في هذه الآية، والمسألة مدونة في الأصول، وقد صح عنه ﷺ أنه قال أوتيت القرآن ومثله معه.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. الآيات الأربع التي قبل هذه الآيات قد بينت أركان الدين وأصول العقائد، وهي توحيد الله عز وجل، والرسالة أو وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام، والجزاء على الأعمال، وقد جاءت الآيتان الأوليان من هذه الآيات الأربع بعدهن مفصلتين لما فيهن من بيان وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل ﷺ وإزالة أوهام الناس فيها، ومن بيان أمر الجزاء في الآخرة، وكون الأمر فيه لله تعالى وحده على الوجه الذي يزيد عقيدة التوحيد تقريرا وتأكيدا وبيانا وتفصيلا، وذهب الرازي إلى أن هذا من بقية الكلام على قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وما قلناه أظهر.

٢. وقد بدئت الآية بالأمر بالقول ـ على ما علمنا من أسلوب هذه السورة في بيان المسائل التي يتعلق بها التبليغ ـ فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي قل أيها الرسول الذي لم يبعث إلا كما بعث غيره من الرسل مبشرا من أجاب دعوته بحسن الثواب ومنذرا من ردها سوء العقاب، لهؤلاء الكفار المشاغبين لك بغير علم يميزون به بين شئون الألوهية وحقيقة الرسالة، الذين يقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون أن البشر لا يقدرون عليه؛ لأنهم ـ وإن قالوه تعجيزا ـ يتوهمون أن الرجل من البشر لا يكون رسولا إلا أن يخرج من حقيقة البشرية ويصير إلها قادرا على ما لا يقدر عليه البشر، وعالما بكل ما يعجز عن علمه البشر وإن لم يكن من موضوع الرسالة التي عهد إليه أمر تبليغها، أو يصير ملكا من الملائكة في متعلق قدرته ومتناول علمه؛ لأن أمر الرسالة في خيالهم ينافي البشرية التي حقرها في أنفسهم جهلهم وسوء حالهم وفساد أعمالهم ـ قل لهؤلاء: لا أقول لكم عندي خزائن الله أتصرف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشئون المخلوقات، بمعنى المخزونات، فالخزائن جمع خزينة أو خزانة، وهي ما يخزن فيها الشيء من يريد حفظه ومنع غيره من التصرف فيه ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيها كما يشاء، ولا يقدر أحد من خلقه على التصرف في شيء منها إلا ما أعطاه تعالى إياه، ومكنه من التصرف فيه، والمتصرف بما يعطى من الخزانة لا يكون متصرفا في الخزانة نفسها، فالمستخدمون عند الملك أو الرجل الغني يعطون أجورهم من خزانته، فيتصرفون فيها دون

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٥١

الخزانة، وجميع الأحياء العاملين يتصرفون بها يعطيهم الله تعالى من خزائن الموجودات، كل بحسب ما أوتي من الاستعداد في دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات، ولا يقدر أحد منهم أن يتجاوز ذلك إلى ما لم يؤته ولم يصل إليه استعداده، فالتصرف المطلق في كل شيء إنما هو لله القادر على كل شيء، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول ـ المبلغ عن الله تعالى أمر دينه ـ قادرا على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالأسباب، فضلا عن التصرف الذاتي بغير سبب الذي طلبه المشركون منه، وجعلوه شرطا للإيمان له، كتفجير الينابيع والأنهار من أرض مكة وإيجاد الجنات والبساتين فيها، وإسقاط السماء عليهم كسفا، والإتيان بالله والملائكة قبيلا، وغير ذلك مما اقترحوه وحكاه الله تعالى عنهم في (سورة الإسراء) وغيرها.

٣. بدأ بنفي القدرة على التصرف فيما ليس من شأن البشر التصرف فيه؛ لعدم تسخير الله تعالى إياه لهم بإقدارهم على أسبابه، وثنى بنفي علم الغيب الخاص بالله تعالى فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: ولا أقول لكم: إني أعلم الغيب، وهو ما حجب الله علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به ككونه مما لا تدركه مشاعرهم الظاهرة ولا الباطنة؛ لأنها لم تخلق مستعدة لإدراكه ولا لطرق الاستدلال عليه، أو لأنها مستعدة له بالقوة غير متمكنة من أسبابه بالفعل كعالم الآخرة، فالغيب من جنس المعلومات كخزائن الله من جنس المقدورات، يراد بهما ما اختص بالله تعالى، فلم يمكن عباده من علمه والتصرف فيه، أي: لم يعطهم القوى، ولم يسخر لهم الأسباب الموصلة إلى ذلك.

٤. والغيب قسمان: غيب حقيقي مطلق، وهو ما غاب علمه عن جميع الخلق حتى الملائكة، وفيه يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ وغيب إضافي، وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر مثلا، وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها، فلا يدخل في عموم معنى الغيب الوارد في كتاب الله، وهذه الأسباب منها ما هو علمي كالدلائل العقلية والعملية، فإن بعض علماء الرياضيات وغيرها يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بالألوف من الأعوام، ومنها ما هو عملي كالتلغراف الهوائي أو اللاسلكي الذي يعلم المرء به بعض ما يقع في أقاصي

البلاد وأجواز البحار التي بينه وبينها ألوف من الأميال، ومنها ما قد يصل إلى حد العلم من الإدراكات النفسية الخفية كالفراسة والإلهام، وأكثر هذا النوع من الانكشاف لوائح تلوح للنفس لا تجزم بها إلا بعد وقوعها، فما يصل منها إلى حد العلم الذي يجزم به صاحبه لاستكمال شروطه يشبه ما ينفرد بإدراكه بعض الممتازين بقوة الحاسة، كزرقاء اليمامة التي كانت ترى على بعد عظيم ما لا يراه غيرها، أو بقوة بعض المدارك العقلية كالعلماء الذين أشرنا إليهم آنفا، وأظهر شروط هذا النوع من الإدراك قوة الاستعداد الفطرية في النفس لذلك، وتوجه النفس إلى المدارك توجها قويا لا يعارضه اشتغال قوى بغيرها من المدركات، وكثيرا ما يقع هذا في حال مرض عصبي أو انفعال نفسي قوي يحصر هم النفس كله فيه، وقد تقدم في تفسير ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ من هذه السورة في هذا الجزء كلام نفيس في هذه الإدراكات الخفية الخاصة، ومن الناس من يعدها من خوارق العادات؛ لخفاء أسبابها عنه، ويرده أنها مما يكثر ويتكرر حتى صار معتادا من أهله الكثيرين المختلفين في الملل والنحل والأخلاق والآداب، وما كان كذلك لا يكون من الخوارق كما قال محيي الدين بن العربي، ولكنا مع هذا نقول: إن بعضه يصح أن يسمى كرامة كما يعلم من تفسيرنا للآية التاسعة من هذه السورة.

٥. سؤال وإشكال: قد علمنا أن الرسالة الإلهية لا تتوقف على إقدار الرسول على التصرف في المخلوقات من غير طريق الأسباب التي سخرها الله للناس؛ لأن موضوعها علمي تعليمي، فهي عبارة عن تبليغ ما علمه الله للرسول بوحيه إليه، وليس من موضوعها تغيير شيء من خلق؛ ولذلك لم يعط الله تعالى أحدا من رسله قدرة على هداية أحد بالفعل، قال تعالى لخاتم رسله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ولو كان لهم شيء من التصرف في الخلق لجعله نوح ـ نبي الله ـ في هداية ولده، وإبراهيم ـ خليل الله ـ في هداية أبيه آزر، ولكن علم الغيب من موضوع الرسالة، فإن أصل موضوعها رؤية الملائكة، والتلقي عنهم، وذلك من عالم الغيب الذي أمرنا بالإيمان به اتباعا للرسول ﷺ الذي رأى بعينيه وسمع بأذنيه ووعى بقلبه، وقد أثبت تعالى عالم الغيب المتعلق بالرسالة للرسل عليهم السلام، فقال في آخر (سورة الجن): ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، فكيف أمر رسوله أن يتنصل في هذه

الآية من ادعاء عالم الغيب، وأن يستدل على ذلك بعد نفي التصرف بقوله في أواخر الأعراف: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، والجواب:

أ. أولا: إن ما يظهر الله تعالى عليه الرسل هو من الغيب الإضافي لا الحقيقي المطلق الذي لم يؤت أحدا من خلقه الاستعداد لعلمه.

ب. ثانيا: إن إظهاره تعالى إياهم على شيء خاص من هذا الغيب لا يجعل ذلك داخلا في علومهم الكسبية، فإن الوحي ضرب من العلم الضروري يجده النبي في نفسه عندما يظهره الله تعالى عليه، فإذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية إليه كما يعلم مما ورد في فترات الوحي، وهو مقتضى الإجماع على أن النبوة غير مكتسبة، نعم قد يكون توجه قلب الرسول إلى الله تعالى عند بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحي في الحكم الذي استشرف له وتوجه إلى الله تعالى ليبينه له كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، وكذلك رؤية نبينا ﷺ للملك على هيئته التي خلقه الله عليها مرتين، هي خصوصية لا يعد مثلها من علوم الرسل الكسبية، وأما رؤية الملك متمثلا بصورة بشر أو جسم آخر فهو سبب عام لرؤيته، ولكنه لا يتمثل إلا لأمر عظيم، أو آية لنبي أو صديق.

٦. فعلم مما قررناه أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم الكسبية، كما أنهم لم يعطوا قوة التصرف في خزائن ملك الله، وهي ما لم يمكن البشر من أسبابه فيكون من أعمالهم الكسبية، ولا أعطاهم إياه أيضا على سبيل الخصوصية، كما أظهرهم على بعض الغيب الذي هو موضوع الرسالة، ونفي ادعاء الرسول لكل من الأمرين يتضمن التبرؤ من ادعاء الإلهية ـ كما قيل ـ أو ادعاء شيء من صفات الإله وهو أولى ويستلزم الأول؛ لأن كلا منهما خاص بالإله الذي هو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وقدرته وعلمه صفتان ذاتيتان له، ويتضمن بيان جهل المشركين بحقيقة الإلهية وحقيقة الرسالة؛ إذ كانوا يقترحون على الرسول من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب، ومن الإخبار بما يكون في مستقبل الزمان ما لا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات، فقد سألوه عن وقت الساعة، وعن وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، وعن وقت نصر الله تعالى إياه عليهم، وغير ذلك من أمور الغيب.

٧. وإذا كان الله تعالى لم يؤت الرسل ما لم يؤت غيرهم من أسباب التصرف في المخلوقات ومن علم الغيب، وكان كل من التصرف بالقدرة الذاتية وعلم الغيب خاصا به عز وجل يستحيل أن يشاركه غيره فيه ـ فمن أين جاءت دعوى التصرف في الكون وعلم الغيب لمن هم دون الرسل منزلة وكرامة عند الله تعالى من المشايخ المعروفين وغير المعروفين، حتى صاروا يدعون من دون الله تعالى لما عز نيله بالأسباب والسنن الإلهية (والدعاء هو العبادة) كما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام؟ وقد قال المفسرون: إن نفي النبي ﷺ لهذين عن نفسه هو عبارة عن نفي ادعاء الإلهية وبيان لكون ما اقترحوه عليه مما لا يقدر عليه غير الله تعالى، فضلال المشركين في فهم الرسالة وجعلهم إياها شعبة من الربوبية لا يزال منتشرا في أذهان الناس، حتى بعض المؤمنين باسم القرآن المتبركين بجلد مصحفه وورقه وبالتغني به في المآتم وغيرها، الجاهلين بما أنزل لبيانه من توحيد الله تعالى وشئون ربوبيته وألوهيته، ومن حقيقة الرسالة ووظيفة الرسل، ومن معنى الجزاء على العقائد والأعمال، دع ما دون هذه الأصول الثلاثة من أمور الدين، إذ نرى بعض هؤلاء المعدودين في عرفهم وعرف الناس من أتباع القرآن يدعون التصرف في خزائن الله وعلم الغيب لمن دون الرسل كما قلنا آنفا.

٨. من مباحث البلاغة في قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أنه أعاد فيه ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ ولم يعدها في نفي علم الغيب، ونكتة ذلك أن نفي علم الغيب ونفي التصرف في خزائن الله يؤلفان التبرؤ من دعوى واحدة، هي دعوى الصفات الخاصة بالله تعالى، وأما نفي ادعاء الملكية فهو شيء آخر، فأعيد العامل لإفادة ذلك، كأنه قال: إنني لا أدعي صفات الإله حتى تطلبوا مني ما لا يقدر عليه أو ما لا يعلمه إلا الله، ولا أدعي أني ملك ـ وهو دون ما قبله ـ حتى تطلبوا مني ما جعله الله في قدرة الملائكة ولم يجعله من مقدور البشر، بل ادعيت أني عبد الله ورسوله، وإنما وظيفة العبد الطاعة، ووظيفة الرسول التبليغ، وعبر عن هذا بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعل من حيث أنا عبد رسول إلا اتباع ما يوحيه إلى من أرسلني من تبليغ دينه بالتبشير والإنذار والعمل به كما بينت لكم آنفا ـ أي في الآيتين اللتين قبل هذه الآية.

٩. ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: هل يستوي أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم الذي دعوتكم إليه فلا يميز بين التوحيد والشرك، ولا بين صفات الله وصفات الخلق، المقلد في ضلاله وجهالاته لمن لا علم عنده ولا

عقل من آبائه وأجداده، وذو البصيرة المهتدي إليه، المستقيم في سيره عليه، على بينة وبرهان، يجعل ما يرى القلب أوضح مما ترى العينان؟ الاستفهام إنكاري، أي: لا يستويان كما أن أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان، بل الفرق بين الأولين أقوى وأظهر، فكأين من أعمى العينين بصير القلب كان من أعلم العلماء وأهدى الفضلاء، وكأين من بصير العينين أعمى القلب هو أضل من الأنعام.

١٠. ولذلك قال مقرعا لهم: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في ذلك، فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الإسلام، وتفرقوا بين صفات الرب الإله وصفات الإنسان، وتعقلوا حجة الرسالة مما في هذه الأرض من أنواع الهداية والعرفان، وأخبار الغيب التي لم يؤتها إنس ولا جان، على ما فيه من بلاغة البيان، والأسلوب البديع الذي لم يعهدوه قبل الآن، فمتى كان في قدرة مثلي شيء من ذلك، ولقد لبثت فيكم عمرا من قبله يزيد على الأربعين سنة، عاطلا من هذه البلاغة وهذه المعرفة!.

١١. هذه الآية حجة من حجج الله تعالى للمستقلين في هداية الدين، على المقلدين فيه لآبائهم ومشايخهم الجاهلين.

١٢. ومن مباحث استنباط المذاهب في الآية أن المعتزلة استدلت بها على تفضيل الملائكة على الأنبياء والرسل، وناقشهم جمهور الأشاعرة في ذلك لمخالفته لمذهبهم:

أ. وقد قرر الطوفي المسألة في تفسيره (الإشارات الإلهية، إلى المباحث الأصولية) عند قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ بقوله: (يحتج به من يرى الملائكة أفضل من الأنبياء وقد سبق ذلك، وتقريره هاهنا أن الكفار كانوا يعتقدون أن الملك أفضل من النبي؛ ولذلك طلبوا رؤية الملائكة وأن يرسل إليهم ملك، ثم إن النبي ﷺ أقرهم على هذا الاعتقاد وقال: أنا لا أدعي أني ملك كما يعتقدون في الملك، بل أنا بشر أتبع ما يوحى إلي، وحينئذ يقال: النبي عليه السلام أقرهم على اعتقاد تفضيل الملك، وكل ما أقر النبي ﷺ عليه فهو حق، وللخصم منع الأولى)، ومراده بمنع الأولى منع المقدمة الأولى من القياس التي يسمونها الصغرى، وهي أن النبي ﷺ أقرهم على التفضيل.

ب. وقرر الزمخشري ذلك في ضمن تفسير الآية، فقال: أي لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله ـ وهي قسمه بين الخلق أرزاقه وعلم الغيب ـ وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه، أي لم أدع إلهية ولا ملكية؛ لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع

من منزلة الملائكة حتى تستبعدوا دعواي وتستنكروها، وإنما أدعي ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة.

ج. وقال أحمد بن المنير في تعقبه له: وهو ينبني على القاعدة المتقدمة في تفضيل الملائكة على الأنبياء، ولعمري إن ظاهر هذه الآية يؤيده، فلذلك انتهز الفرصة في الاستدلال بها، ثم ذكر أن لمخالفه أن يجعلها ردا على إنكارهم الشئون البشرية على الرسول كأكل الطعام والمشي في الأسواق، بأن يقال: إنه لم يدع الملكية حتى يستنكر منه ذلك، وهذه التفرقة بين الرسول والملك لا تستلزم تفضيلا، وقد أراد ابن المنير بالقاعدة المتقدمة له ما ذكره في تفسير: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾

د. وقد ذكرنا ملخص ما قرره الزمخشري فيها وما رد به عليه ابن المنير في تفسيرها، وهي في أواخر (سورة النساء)

هـ. وقال الرازي في ذلك: قال الجبائي: الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء؛ لأن معنى الكلام لا أدعي منزلة فوق منزلتي، ولولا أن الملك أفضل لم يتم ذلك، قال القاضي: إن كان الغرض بما نفي طريقة التواضع فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل، وإن كان المراد نفي قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة لم يدل على كونهم أفضل.

و. واختار أبو السعود وتبعه الألوسي ما ذهب إليه ابن المنير من كون نفي دعوى الملكية للرد على استنكارهم أكل الطعام والمشي في الأسواق، وتكليفهم إياه نحو الرقي في السماء وكون هذا لا يقتضي التفضيل فيما هو محل النزاع، قال الألوسي: وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من أن هذا القول منه ﷺ من باب التواضع وإظهار العبودية نظير قوله ﷺ: (لا تفضلوني على ابن متى) في رأي، بل هو ليس بشيء كما لا يخفى، وقيل: إن الأفضلية مبنية على زعم المخاطبين، وهو من ضيق العطن)

ز. وما نقله الألوسي عن القاضي زكريا لا بد أن يكون غير ما نقله الرازي عن القاضي، وإذا أطلق القاضي عند متكلمي الأشاعرة كالرازي ينصرف إلى أبي بكر الباقلاني، والقاضي زكريا عند المتأخرين، كالألوسي هو زكريا الأنصاري، وقد علمت أن القاضي الذي ذكره الرازي جعل إرادة التواضع بنفي الملكية مقتضيا تفضيل الملك على الرسول، وما نقله الألوسي عن القاضي زكريا ضده.

ح. وقد ذكروا في المقام الفرق بين الانتقال هنا من نفي دعوى الإلهية إلى نفي دعوى الملكية، والانتقال في آية (سورة النساء) من عدم استنكاف المسيح من العبودية لله إلى نفي استنكاف الملائكة عنها

على طريقة الترقي، وقد بين المحققون أن كلا من الانتقالين وقع في موقعه الذي اقتضته البلاغة؛ فإن مقام الاستنكاف يقتضي أن يكون المتأخر فيه هو الأعلى؛ لئلا يكون ذكره لغوا، ومقام نفي الادعاء يقتضي العكس لا من لا يتجزأ على دعوى الإلهية قد يتجزأ على ما دونها ولا عكس، أي أن من لا يتسامى إلى دعوى الملكية لا يتسامى إلى ما فوقها من دعوى الإلهية بالأولى، هذا صفوة ما قالوا في هذه المسألة.

ط. والحق أن ظواهر القرآن الواردة في الملائكة والرسل تدل على أن الملائكة أفضل من البشر، ولعله لولا ذلك لما قال تعالى في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بل لقال على جميع من خلقنا، ومقتضى ذلك أن خواص الملائكة ـ كالمقربين ـ أفضل من خواص البشر كالرسل، ولا يتحتم أن يقتضي كون عوام الملائكة أفضل من خواص البشر كالرسل، وقد ينافيه كون بعض الملائكة مسخرين لمصالح البشر، ولكن ليس في المسألة نص قاطع في المعنى الذي جعلوه محل الخلاف كما قلنا في تفسير آية النساء المشار إليها هنا، وإن النفي هنا وارد في بيان تحقيق معنى الرسالة ووظيفة الرسول وكونها لا تستلزم أن يقدر على ما لا يقدر عليه إلا الله، أو أن يعلم بكسبه ما لا يعلمه إلا الله، ولا تستلزم أن يكون من الملائكة؛ يقدر على ما يقدرون، ويعلم ما يعلمون، والأشاعرة لا ينكرون تفضيل الملائكة من هذه الجهة، وإنما يفضلون الأنبياء عليهم بكثرة الثواب في الآخرة لما احتملوه من المشقة في سبيل الله، والأولى أن يفوض هذا الأمر إلى الله تعالى، ولا يجعل محل القيل والقال؛ إذ لا فائدة لنا في ذلك، ولا علم لنا بما يترتب على أعمال الملائكة من الجزاء عند الله تعالى.

١٣. واستنبطوا من الآية أيضا أصلين من أصول الفقه وقواعد الشرع، قال الرازي في بيانهما: قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ظاهره يدل على أنه لا يعمل إلا بالوحي، وهو يدل على حكمين:

أ. (الحكم الأول): أن هذا النص يدل على أنه ﷺ لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام، وأنه ما كان يجتهد، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي، ويتأكد هذا بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾

ب. (الحكم الثاني): أن نفاة القياس قالوا: ثبت بهذا النص أنه عليه السلام ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه، فوجب ألا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ وذلك ينفي جواز العمل بالقياس، ثم أكد هذا الكلام بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى

وَالْبَصِيرُ﴾ وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى، والعمل بالوحي يجري مجرى عمل البصير، ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين، وألا يكون غافلا عن معرفته.

١٤. أقر الرازي هنا هاتين المسألتين وأيدهما أشد التأييد، ولم يحام عن القياس وهو الركن الذي بنى عليه جل فقه أصحابه الشافعية والجمهور، حتى كأنه من غلاة الظاهرية، وقد حررنا هذه المسألة في هذا الجزء من التفسير عند الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ بعد كلام في ذلك عند تفسير ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ونقول هنا ردا على المسألتين:

أ. إن الآية لا تدل على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد في الأحكام، وأن جميع أحكامه يجب أن تكون بالنص؛ فإن هذه الآية مكية، نزلت في أوائل الإسلام حيث لا حكومة للإسلام ولا أحكام، وحيث الدعوة الإسلامية قاصرة على أصول الدين وكلياته وهي التوحيد والرسالة والبعث والجزاء، والترغيب في الفضائل والعمل الصالح، والتنفير عن الرذائل وعمل السوء، ولا حاجة إلى الاجتهاد في شيء من ذلك، ويقول مثبتوا الاجتهاد له ﷺ: إن الله تعالى أذن له به عند الحاجة إليه، واستدل بعضهم على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي بما أراكه فيه نصا أو دلالة واجتهادا، وبينا في تفسيرها أن المانعين يستدلون بها أيضا، وأنها ليست نصا في المنع ولا الإثبات وبيناه هنالك أن آية النجم خاصة بالقرآن، إذ لم يقل أحد: إن النبي ﷺ لم ينطق إلا بالوحي، بل ثبت أن الوحي كان ينقطع عنه أياما كثيرة، وقد حكم ﷺ في أسرى بدر باجتهاده، وعاتبه الله تعالى على ذلك ولم يقره عليه، والقائلون بالمنع لا يحصرون الوحي في القرآن، وإذا كان حكمه ﷺ بالاجتهاد فيما لا نص فيه من الوحي مبنيا على إذن الله تعالى له بالاجتهاد ـ يكون متبعا فيه لما أوحي إليه.

ب. وكذلك يقال في القياس: إذا ثبت الإذن به في كتاب الله تعالى أو على لسان رسوله ﷺ يكون الحكم به اتباعا للوحي، وثبوته في السنة يرجع إلى القرآن، إذ أمر باتباع الرسول، وشهد له بأنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه، وقد بينا أن القياس وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون المنصوص على علته في الكتاب أو السنة وما قطع فيه بنفي الفارق هو القياس الصحيح الذي لا وجه للخلاف فيه ـ ومن العلماء من لا يسميه قياسا ـ وأن قياس الشبه ونحوه من الأقيسة البعيدة

عن النصوص لا دليل عليه ولا حجة فيه، وراجع تفصيل القول في ذلك في تفسير الآية الأولى والآية الثانية بعد المائة من (سورة المائدة)

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. كان الكلام في الآيات السالفة في بيان أركان الدين وأصول العقائد، وهي: توحيد الله عزّ وجل، ووظيفة الرسل عليهم السلام، والجزاء على الأعمال يوم الحساب، وهنا ذكر وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل ﷺ، وأزال أوهام الناس فيها، وأرشد إلى أمر الجزاء في الآخرة وكون الأمر فيه لله تعالى وحده على وجه يزيد عقيدة التوحيد تقريرا وتأكيدا، وبيانا وتفضيلا.

٢. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي قل أيها الرسول الذي بعث كما بعث غيره من الرسل مبشرا من أجاب دعوته بحسن الثواب، ومنذرا من لم يقبلها بسوء العقاب، لهؤلاء المكذبين لك بغير علم يميزون به بين شئون الألوهية وحقيقة النبوة، فيقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون أنه ليس في مقدور البشر، فهم إما أن يقولوه تعجيزا، وإما أن يظنوا أن الإنسان لا يكون رسولا إلا إذا خرج من حقيقة البشرية وصار قادرا على ما لا يقدر عليه البشر وعالما بكل ما يعجز عن علمه البشر: لا أقول لكم عندي خزائن الله، أتصرف بها خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشئون المخلوقات، فكل هذا لله وحده يتصرف فيه بما يشاء، فيعطى لعباده من خزائنه بحسب ما أوتى كل منهم من الاستعداد في دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات، ولا يقدر أحد أن يتجاوز ذلك إلى ما لم يؤته ولم يصل إليه استعداده، فالتصرف المطلق إنما هو لله القادر على كل شيء وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول المبلّغ عنه أمر الدين قادرا على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالأسباب فضلا عن التصرف بغير سبب مما طلبه المشركون منه وجعلوه شرطا للإيمان به كتفجير الينابيع والأنهار في أرض مكة، وإيجاد الجنات والبساتين فيها، وإسقاط السماء عليهم كسفا، والإتيان بالله والملائكة قبيلا.

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٢٩.

٣. سؤال وإشكال: إن الله أثبت علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسل عليهم السلام كقوله في سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ فكيف أمره هنا أن يتنصل من ادعاء علم الغيب؟ والجواب: إن إظهار شيء خاص من عالم الغيب على يدى الرسل ـ لا يجعل ذلك داخلا في علومهم الكسبية، فإن الوحى ضرب من العلم الضروري يجده النبي في نفسه حينما يظهره الله عليه، فإذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية للوصول إليه، يؤيد ذلك ما جاء في فترات الوحى في السيرة النبوية، وقد يكون توجه قلب الرسول إلى الله تعالى في بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحى في الحكم الذي طلب من ربه بيانه ـ يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾

٤. والخلاصة ـ إن الأنبياء لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم المكتسبة، كذلك لم يعطوا التصرف في خزائن ملك الله، فلم يمكّنهم ما لم يمكّن البشر من أسبابه حتى يكون من كسبهم وعملهم، ولا هو أعطاهم ذلك على سبيل الخصوصية.

٥. ونفى الدعاء الرسول من الأمرين يتضمن التبرؤ من ادعاء الألوهية أو ادعاء شيء من صفات الإله القادر على كل شيء العليم بكل شيء ويتضمن جهل المشركين حقيقة الألوهية وحقيقة الرسالة، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيها وراء الأسباب، وطلبوا منه الإخبار بما يكون في الزمان المستقبل ولا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات، فقد سألوه عن وقت الساعة، وعن وقت نزول العذاب بهم، وعن وقت نصر الله تعالى له عليهم.

٦. وإذا علمت أن الأنبياء لم يؤتوا ذلك فأحر بمن دونهم منزلة عند الله من القديسين الأولياء المقرّبين ألا يكون لهم ذلك، فادعاؤه لهم جهل عظيم وإثم كبير، ولا ينبغي التحدث به لا بين العامة ولا بين الخاصة، كما يجب محوه من الأذهان لدى الجاهلين بسنن الله في الأكوان.

٧. ثم أمره أن يبين وظيفة الرسول فقال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي قل لهم: ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحيه إلىّ وتنزيله الذي ينزله علىّ، فأمضى لوحيه وأعمل بأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة على صحة ما أقول وليس ذلك بالمنكر في عقولكم، ولا بالمستحيل وجوده، فما وجه إنكاركم لذلك؟

٨. ثم وبخهم على ضلالهم فأمر رسوله أن يبين لهم أن الضال والمهتدى ليسا سواء فقال: ﴿قُلْ

﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين المكذبين: هل يستوى أعمى البصيرة الضالّ عن الصراط المستقيم الذي دعوتكم إليه، فلم يميز بين التوحيد والشرك، ولا بين صفات الله وصفات البشر، وذو البصيرة المهتدى إليه، المستقيم في سيره عليه بالحجة والبرهان حتى صار ذلك في مرآة قلبه أوضح مما ترى العينان، وتسمع الأذنان، والخلاصة ـ إنهما لا يستويان، كما أن أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان.

٩. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما أذكر لكم من الحجج فتعلموا صحة ما أقول لكم وأدعوكم إليه، وتميزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام، وتعقلوا ما في القرآن من ضروب الهداية والعرفان بذلك الأسلوب الرائع الذي لم تعهدوه من قبل؟ فهل يكون ذلك في مقدورى وقد لبثت فيكم عمرا من قبل عاطلا من هذه المعرفة، وتلك البلاغة الساحرة، وذلك البيان الخلاب؟

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. هذه الموجة بقية في مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة، وطبيعة الرسول؛ بمناسبة طلبهم للخوارق ـ التي ذكرنا نماذج منها في الفقرة السابقة في هذا السياق ـ وبقية في تصحيح التصورات الجاهلية ـ والبشرية بصفة عامة ـ عن الرسالات والرسل؛ بعد ما عبثت بهذه التصورات جاهليات العرب وغيرهم من الأمم حولهم؛ فابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة، وحقيقة الوحي، وحقيقة الرسول؛ ودخلت بها في خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل؛ حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة، واختلط الوحي بالجن والجنون أيضا! وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب؛ وأن يأتي بالخوارق؛ وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر!

٢. ثم جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته، ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل، التي شاعت في الجاهليات كلها، وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم، وكلها تشترك في تشويه

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٩٥.

صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه!

٣. وبعد بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول، وتقديمها للناس مبرأة من كل ما علق بصورة النبوة وصورة النبي من أوهام وأضاليل، يقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها، ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها.. فالرسول الذي يقدمها للناس بشر، لا يملك خزائن الله، ولا يعلم الغيب، ولا يقول لهم: إني ملك.. وهو لا يتلقى إلا من ربه، ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه، والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند الله، وعليه أن يلزمهم، وأن يهش لهم، وأن يبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة.

٤. كما أن عليه إنذار الذين تتحرك ضمائرهم من خشية الآخرة؛ ليصلوا إلى مرتبة التقوى وفي هذا وذلك تنحصر وظيفته، كما أنه في (البشرية) وفي (تلقي الوحي) تنحصر حقيقته، فتصح في التصورات حقيقته ووظيفته جميعا.. ثم إنه بهذا التصحيح، وبهذا الإنذار، تستبين سبيل المجرمين، عند مفرق الطريق، ويتضح الحق والباطل، وينكشف الغموض والوهم حول طبيعة الرسول وحول حقيقة الرسالة، كما ينكشف الغموض حول حقيقة الهدى وحقيقة الضلال، وتتم المفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين في نور وفي يقين.

٥. وفي ثنايا الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق جوانب من حقيقة الألوهية، وعلاقة الرسول بها، وعلاقة الناس جميعا ـ الطائعين منهم والعصاة ـ ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال عن هذه الحقيقة، فالهدى إليها بصر والضلال عنها عمى، والله كتب على نفسه الرحمة متمثلة في التوبة على عباده والمغفرة لما يرتكبونه من المعاصي في جهالة متى تابوا منها وأصلحوا بعدها، وهو يريد أن تستبين سبيل المجرمين، فيؤمن من يؤمن عن بينة، ويضل من يضل عن بينة، ويتخذ الناس مواقفهم في وضوح لا تغشيه الأوهام والظنون.

٦. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، لقد كان المعاندون من قريش يطلبون أن يأتيهم رسول الله ﷺ بآية من الخوارق يصدقونه بها ـ وهم كانوا كما أسلفنا يعلمون صدقه ولا يشكون فيه ـ وتارة كانوا يطلبون أن تكون هذه الآية تحويل الصفا والمروة ذهبا! وتارة تكون إبعادهما عن مكة ليصبح

مكانهما خصبا مخضرا بالزروع والثمار! وتارة تكون إنباءهم بما سيقع لهم من أحداث مغيبة! وتارة تكون طلب إنزال ملك عليه! وتارة تكون طلب كتاب مكتوب في قرطاس يرونه يتنزل عليه من السماء.. إلى آخر هذه المطالب التي يوارون وراءها تعنتهم وعنادهم! ولكن هذه المطالب كلها إنما كانوا يصوغون فكرتها من تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة وصورة النبي في الجاهليات من حولهم، وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب وأساطيرهم حول النبوة، بعد ما انحرفوا عما جاءتهم به رسلهم من الحق الواضح في هذه الأمور..

٧. ولقد شاعت في الجاهليات المتنوعة صور من (النبوءات) الزائفة، يدعيها (متنبئون) ويصدقها مخدوعون.. ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون! حيث يدعي المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب، والاتصال بالجن والأرواح، وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى والتعاويذ، أو بالدعوات والصلوات، أو بغيرها من الوسائل والأساليب، وتتفق كلها في الوهم والضلالة، وتختلف بعد ذلك في النوع والشكل والمراسم والأساليب[١]:

أ. (فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالأرواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء، ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها موكلة (بالأرباب!) لا تطيع الكاهن، ولكنها تلبي دعواته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول في يقظته أو منامه، وترشده بالعلامات والأحلام، ولا تلبي سائر الدعوات والصلوات! ولكنهما ـ نبوءة السحر ونبوءة الكهانة ـ تخالفان نبوة الجذب والجنون المقدس، لأن الساحر والكاهن يدريان بما يطلبان، ويريدان قصدا ما يطلبانه بالعزائم والصلوات، ولكن المصاب بالجذب أو الجنون المقدس مغلوب على أمره، ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لا يعنيها، ولعله لا يعيها، ويكثر بين الأمم التي تشيع فيها نبوة الجذب أن يكون مع المجذوب مفسر يدعي العلم بمغزى كلامه، ولحن رموزه وإشاراته، وقد كانوا في اليونان يسمون المجذوب (مانتي) (Manti) ويسمون المفسر: (بروفيت) (Prophet) أي المتكلم بالنيابة عن غيره، ومن هذه الكلمة نقل الأوربيون كلمة النبوة بجميع معانيها، وقلما يتفق الكهنة والمجذوبون، إلا أن يكون الكاهن متوليا للتفسير والتعبير عن مقاصد

---

(١) النصوص المقتبسة بين قوسين عن كتاب: (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) للعقاد

المجذوب، ومضامين رموزه وإشاراته، ويحدث في أكثر الأحيان أن يختلفا ويتنازعا لأنهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة، فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والأوضاع المصطلح عليها، والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث في أكثر الأحيان من آبائه وأجداده، وتتوقف الكهانة على البيئة التي تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة في الأرجاء القريبة والبعيدة؛ ولا يتوقف الجذب على هذه البيئة، لأنه قد يعتري صاحبه في البرية، كما يعتريه في الحاضر المقصود من أطراف البلاد)

ب. (وقد كثر عدد الأنبياء في قبائل بني إسرائيل كثرة يفهم منها أنهم كانوا في أزمنتهم المتعاقبة يشبهون في العصور الحديثة أصحاب الأذكار، ودراويش الطرق الصوفية، لأنهم جاوزوا المئات في بعض العهود، واصطنعوا من الرياضة في جماعاتهم ما يصطنعه هؤلاء الدراويش من التوسل إلى حالة الجذب تارة بتعذيب الجسد، وتارة بالاستماع إلى آلات الطرب، جاء في كتاب صموئيل الأول: (أن شاول أرسل لأخذ داوود رسلا.. فرأوا جماعة الأنبياء يتنبئون، وشاول واقف بينهم رئيسا عليهم، فهبط روح الله على رسل شاول، فتنبئوا هم أيضا، وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء.. فخلع هو أيضا ثيابه، وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل، وانتزع عاريا ذلك النهار كله وكل الليل).. (وجاء في كتاب صموئيل كذلك: (أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة، وأمامهم رباب ودف وناي وعود، وهم يتنبئون، فيحل عليهم روح الرب، فتتنبأ معهم، وتتحول إلى رجل آخر)

ج. (وكانت النبوة صناعة وراثية يتلقاها الأبناء من الآباء كما جاء في سفر الملوك الثاني: (إذ قال بنو الأنبياء يا ليشع: هو ذا الموضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا، فلنذهب إلى الأردن)، وكانت لهم خدمة تلحق بالجيش في بعض المواضع، كما جاء في سفر الأيام الأول، حيث قيل: (إن داوود ورؤساء الجيش أفرزوا للخدمة بني أساف وغيرهم من المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج)

٨. وهكذا حفلت الجاهليات ـ ومنها الجاهليات التي انحرفت عن التصور الصحيح الذي جاءت به الرسالات السماوية ـ بمثل هذه التصورات الباطلة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي، وكان الناس ينتظرون ممن يدعي النبوة مثل هذه الأمور؛ ويطالبونه بالتنبؤ بالغيب تارة؛ وبالتأثير في النواميس الكونية عن طريق الكهانة أو طريق السحر تارة.

٩. ومن هذا المعين كانت اقتراحات المشركين على رسول الله ﷺ ولتصحيح هذه الأوهام كلها

جاءت التقريرات المكررة في القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول.. ومنها هذا التقرير: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

١٠. إنه ﷺ يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشرا مجردا من كل الأوهام التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة، وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء.. لا ثراء، ولا ادعاء.. إنها عقيدة يحملها رسول، لا يملك إلا هداية الله، تنير له الطريق! ولا يتبع إلا وحي الله يعلمه ما لم يكن يعلم.. إنه لا يقعد على خزائن الله، ليغدق منها على من يتبعه، ولا يملك مفاتح الغيب ليدل أتباعه على ما هو كائن؛ ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكا.. إنما هو بشر رسول؛ وإنما هي هذه العقيدة وحدها، في صورتها الناصعة الواضحة البسيطة.. إنها العقيدة هتاف هذه الفطرة، وقوام هذه الحياة ودليل الطريق إلى الآخرة، وإلى الله، فهي مستغنية بذاتها عن كل زخرف.. من أرادها لذاتها فهو بها حقيق، وهي عنده قيمة أكبر من كل قيمة، ومن أرادها سلعة في سوق المنافع، فهو لا يدرك طبيعتها، ولا يعرف قيمتها، وهي لا تمنحه زادا، ولا غناء..

١١. لذلك كله يؤمر رسول الله ﷺ أن يقدمها للناس هكذا، عاطلة من كل زخرف، لأنها غنية عن كل زخرف؛ وليعرف من يفيئون إلى ظلها أنهم لا يفيئون إلى خزائن مال، ولا إلى وجاهة دنيا، ولا إلى تميز على الناس بغير التقوى إنما يفيئون إلى هداية الله وهي أكرم وأغنى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾

١٢. ثم ليعلموا أنهم حينئذ إنما يفيئون إلى النور والبصيرة، ويخرجون من الظلام والعماء: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

١٣. سؤال وإشكال: ثم.. إن اتباع الوحي وحده هداية وبصر، والمتروك بغير هذا الهادي متروك أعمى.. هذا ما تقرره هذه الآية في وضوح وصرامة.. فما شأن العقل البشري في هذا المجال؟ والجواب: سؤال جوابه في التصور الإسلامي واضح بسيط.. إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي، وإدراك مدلولاته.. وهذه وظيفته.. ثم هذه هي فرصته في النور والهداية؛ وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأما حين يستقل هذا العقل البشري

بنفسه بعيدا عن الوحي، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف، وسوء الرؤية، ونقص الرؤية، وسوء التقدير، وسوء التدبير، يتعرض لهذا كله بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلا واحدا، تجربة بعد تجربة، وحادثة بعد حادثة، وصورة بعد صورة.. حيث يتعذر عليه أن يرى الوجود جملة، ليقيم على أساس هذه الرؤية الكاملة أحكاما، ويضع على أساسها نظاما، ملحوظا فيه الشمول والتوازن.. ومن ثم يظل ـ حين ينعزل عن منهج الله وهداه ـ يرتاد التجارب، ويغير الأحكام، ويبدل النظام، ويضطرب بين الفعل وردود الفعل، ويتخبط من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال.. وهو في ذلك كله يحطم كائنات بشرية عزيزة، وأجهزة إنسانية كريمة.. ولو اتبع الوحي لكفى البشر هذا الشر كله؛ وجعل التجارب والتقلبات في (الأشياء) وفي (المادة) وفي (الأجهزة) وفي (الآلات).. وهي مجاله الطبيعي الذي يمكن أن يستقل فيه، والخسارة في النهاية مواد وأشياء، لا أنفس وأرواح! ويتعرض لهذا كله ـ بعد طبيعة تركيبه ـ بسبب ما ركب في الكيان البشري من شهوات وأهواء ونزعات، لا بد لها من ضابط، يضمن أن تؤدي وظائفها في استمرار حياة البشرية وارتقائها، ولا تتعدى هذا الحد المأمون فتؤدي إلى تدمير الحياة أو انتكاسها! وهذا الضابط لا يمكن أن يكون هو العقل البشري وحده؛ فلا بد لهذا العقل الذي يضطرب تحت ضغط الأهواء والشهوات والنزعات ـ وهي شتى ـ من ضابط آخر يضبطه هو ذاته؛ ويحرسه بعد أن يضبطه من الخلل أيضا، ويرجع إليه هذا العقل بكل تجربة، وكل حكم ـ في مجال الحياة البشرية ـ ليقوّم به تجربته وحكمه، وليضبط به اتجاهه وحركته.

١٤. والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة في الصواب كدرجة الوحي، باعتبار أن كليهما ـ العقل والوحي ـ من صنع الله فلا بد أن يتطابقا.. هؤلاء إنما يستندون إلى تقريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر، ولم يقل بها الله سبحانه! والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي ـ حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر ـ إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله.. فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به، لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل، وأن الفطرة وحدها تنحرف، وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي، وهو النور والبصيرة والذين يزعمون أن الفلسفة تغني العقل عن الدين؛ أو أن العلم ـ وهو من منتجات

العقل ـ يغني البشرية عن هدى الله؛ إنما يقولون قولا لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك.. فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التي قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو على العلم، هي أبأس حياة يشقى فيها (الإنسان) مهما فتحت عليه أبواب كل شيء ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد؛ ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق.. وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة على الجهل والتلقائية! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون! فإن الإسلام منهج حياة يكفل للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبه الذاتي، وعيوب الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات، ثم يقيم له الأسس، ويضع له القواعد، التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة؛ كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها ـ وفق شريعة الله ـ فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك!

١٥. والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير، وبترك وحي الله وهداه أعمى، واقتران الحديث عن تلقي الرسول ﷺ من الوحي وحده، بالإشارة إلى العمى والبصر، بالسؤال التحضيضي على التفكير: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، اقتران الإشارات وتتابعها على هذا النحو في السياق، أمر ذو دلالة في التعبير القرآني.. فالتفكر مطلوب، والحض عليه منهج قرآني؛ ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحي، الذي يمضي معه مبصرا في النور؛ لا مطلق التفكر الذي يخبط في الظلام أعمى، بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير..

١٦. والعقل البشري حين يتحرك في اطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق، إنما يتحرك في مجال واسع جدا.. يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله، الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضا؛ كما يحتوي أغوار النفس ومجالي الأحداث، ومجالات الحياة جميعا.. فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف المنهج، وسوء الرؤية والتواء الأهواء والشهوات! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعا، فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان.. العقل.. إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدى الرباني.. فلا تضل إذن ولا تطغى.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. إذ بيّن الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة، محامل الرسالة التي يحملها رسله إلى عباده، وأنها رسالة قائمة على البلاغ بما يؤمر الرسول بتبليغه إلى قومه.. وأن من استجاب منهم فقد فاز، ومن أبى واستكبر فقد خاب وخسر.

٢. إذ بين الله سبحانه وتعالى هذا الذي كان بين الرسل وأقوامهم، فقد بيّن سبحانه وتعالى موقف النبيّ الكريم من قومه، وأنّه ليس بدعا من الرسل، فما هو إلا بشير ونذير، وأن هذه المقترحات التي يقترحها عليه السفهاء من المشركين، ليست من وظيفة الرسول، ولا من محامل رسالته.. فالرسول مبلّغ وليس منشئا لرسالته.. فما جاءه من عند الله بلّغه، وما لم يجئه أمسك عنه، وإلا كان متجاوزا الحدود المرسومة له..

٣. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ هو إقرار على لسان الرسول نفسه، يواجه به الذين يرون في الرسول قوى لا يراها الرسول نفسه.. ومن شأن الإنسان أن يستكثر من الفضائل التي تضاف إليه، فإذا لم يتحدث بها هو عن نفسه دعا الناس إلى أن يتحدثوا بها عنه، فإذا تحرّج من هذا، لم يتحرج مما يراه الناس فيه ابتداء، من غير أن يحملهم عليه.. وهنا نجد الرسول الكريم يعرض نفسه على قومه، نازعا عنه كل تلك الأثواب الفضفاضة، التي يلبسونها إياه، من نسج خيالاتهم وأوهامهم، مجرّدا من كل قوة إلا قوة إيمانه بالله، واستقامته على الحق الذي يدعو إليه:

أ. فالنبيّ لا يملك للناس سعة في الرزق، لأنّه يرزق مثلهم، ولا يرزق غيره: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ فخزائن الله لله، يعطى منها ما يشاء لمن يشاء!.

ب. والنبيّ لا يعلم الغيب، ولا يدرى ما يطلع به يومه، أو غده، عليه أو على الناس، مما يحمد أو يسوء.. فعالم الغيب والشهادة هو الله وحده.

ج. والنبيّ.. بشر من البشر، وإنسان من الناس، هو مثلهم، مقيّد بقيود هذا الجسد البشرى، وليس

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٨٨.

هو ملك من ملائكة الرحمن يستطيع أن يفعل ما لا يفعله الإنسان، من خوارق ومعجزات.

د. والنبيّ ملزم بالوقوف عند حدود رسالته، يبلغها كما أنزلت إليه، لا يزيد عليها شيئا، ولا ينقص منها شيئا.. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾

٤. وهذا الإقرار من النبي، والاعتراف على نفسه هذا الاعتراف الواضح الصريح، هو دليل من أدلة النبوة، وآية من آيات صدق النبيّ وأنه مأمور بأن ينقل إلى النّاس ما يوحى إليه من ربّه، ولو كان أمرا متعلقا به، في خاصة نفسه، أو أهله..

٥. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ هو تعقيب على هذا الاعتراف من النبيّ يلقى به إلى أسماع من يستمعون إلى هذا الاعتراف، وأن هؤلاء المستمعين، بين أعمى لا يرى مواقع الخير، ولا يهتدى إلى طريق الحق، وبصير، يتهدّى إلى الخير، ويستقيم على طريق الهدى.. وأنه لا يستوى الجاهل والعالم، ولا الأعمى ولا البصير، ولا الضال ولا المهتدى.. وفي الاستفهام الإنكاري تنبيه للغافلين من غفلتهم، وإيقاظ للنائمين من نومهم، ليستقبلوا هذا النور الذي بين يدى النبيّ وليفتحوا عيونهم عليه، وليسيروا على هديه، إن أرادوا لأنفسهم النجاة والسلامة والخير.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، طلب المشركون من النبي ﷺ أن يخبرهم بالغيب ويفجر الينابيع، ويأتي بالملائكة، ويرقى إلى السماء، ويسقطها عليهم، وما إلى ذلك مما لا يمت إلى موضوع الرسالة بصلة، فأنزل الله سبحانه هذه الآية، وأمره النبي أن يقول لهم: انه ليس بإله، ولا ملك، وإنما هو بشر يوحى اليه وكفى.

٢. وبتعبير ثان أن للإله صفات تخصه، ومنها أنه قادر على كل شيء عالم بكل شيء وأيضا للملك صفات تخصه، ومنها أنه يرقى إلى السماء، ولا يأكل الطعام، ولا يمشي في الأسواق، أما الرسول فهو بشر كسائر الناس، وإنما يمتاز عنهم بنزول الوحي عليه من ربه، مبشرا من استجاب له بحسن الثواب، ومنذرا

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٤.

من أعرض بسوء العقاب، وليس من موضوع الرسالة واختصاصها أن يتنبأ بالغيب، ويأتي بالخوارق، فالخلط بين صفات الله وصفات ملائكته ورسله جهل وعمى.

٣. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، أي فرق بعيد بين الجاهل الضال الذي لا يفرق بين صفات الله وصفات الرسول، وبين من يعرف أن الرسول بشر يجري عليه ما يجري على غيره من الناس إلا أنه يوحى اليه ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أن الرسول ليس إلها ولا ملكا، وانه بشير ونذير، فتنتصفوا من أنفسكم، وتؤمنوا بلا إله إلا الله محمد رسول الله؟

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾، لمّا تقضّت المجادلة مع المشركين في إبطال شركهم ودحض تعاليل إنكارهم نبوءة محمد ﷺ بأنّهم لا يؤمنون بنبوته إلّا إذا جاء بآية على وفق هواهم، وأبطلت شبهتهم بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وكان محمد ﷺ ممّن شمله لفظ المرسلين، نقل الكلام إلى إبطال معاذيرهم فأعلمهم الله حقيقة الرسالة واقترانها بالآيات فبيّن لهم أنّ الرسول هو الذي يتحدّى الأمّة لأنّه خليفة عن الله في تبليغ مراده من خلقه، وليست الأمّة هي التي تتحدّى الرسول، فآية صدق الرسول تجيء على وفق دعواه الرسالة، فلو ادّعى أنّه ملك أو أنّه بعث لإنقاذ الناس من أرزاء الدنيا ولإدناء خيراتها إليهم لكان من عذرهم أن يسألوه آيات تؤيّد ذلك، فأمّا والرسول مبعوث للهدى فآيته أن يكون ما جاء به هو الهدى وأن تكون معجزته هو ما قارن دعوته ممّا يعجز البشر عن الإتيان بمثله في زمنهم، فقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من غرض إلى غرض.

٢. وافتتاح الكلام بالأمر بالقول للاهتمام بإبلاغه، كما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]، وقد تكرّر الأمر بالقول من هنا إلى قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] اثنتي عشرة مرة.

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١١٠.

٣. والاقتصار على نفي ادّعاء هذه الثلاثة المذكورة في الآية ناظر إلى ما تقدّم ذكره من الآيات التي سألوها من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧]، وقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٥] الآية.

٤. وافتتح الكلام بنفي القول ليدلّ على أنّ هذا القول لم يقترن بدعوى الرسالة فلا وجه لاقتراح تلك الأمور المنفي قولها على الرسول لأنّ المعجزة من شأنها أن تجيء على وفق دعوى الرسالة.

٥. واللام في ﴿لَكُمْ﴾ لام التبليغ، وهي مفيدة تقوية فعل القول عندما لا تكون حاجة لذكر المواجه بالقول كما هنا لظهور أنّ المواجه بالقول هم المكذّبون، ولذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] مجرّدا عن لام التبليغ، فإذا كان الغرض ذكر المواجه بالقول فاللام حينئذ تسمّى لام تعدية فعل القول فالذي اقتضى اجتلاب هذه اللام هنا هو هذا القول بحيث لو قاله قائل لكان جديرا بلام التبليغ.

٦. والخزائن جمع خزانة ـ بكسر الخاء ـ وهي البيت أو الصندوق الذي يحتوي ما تتوق إليه النفوس وما ينفع عند الشدّة والحاجة، والمعنى أنّي ليس لي تصرّف مع الله ولا أدّعي أني خازن معلومات الله وأرزاقه.

٧. و﴿خَزَائِنُ اللهِ﴾ مستعارة لتعلّق قدرة الله بالإنعام وإعطاء الخيرات النافعة للناس في الدنيا، شبّهت تلك التعلّقات الصّلوحية والتنجيزية في حجبها عن عيون الناس وتناولهم مع نفعها إيّاهم، بخزائن أهل اليسار والثروة التي تجمع الأموال والأحبية والخلع والطعام، كما أطلق عليها ذلك في قوله تعالى: ﴿وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، أي ما هو مودع في العوالم العليا والسفلى ممّا ينفع الناس، وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]

٨. وتقديم المسند وهو قوله: ﴿عِنْدِي﴾ للاهتمام به لما فيه من الغرابة والبشارة للمخبرين به لو كان يقوله.

٩. وقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ عطف على ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ فهو في حيّز القول المنفي، وأعيد حرف النفي على طريقة عطف المنفيات بعضها على بعض فإنّ الغالب أن يعاد معها حرف النفي للتنصيص على أنّ تلك المتعاطفات جميعها مقصودة بالنفي بآحادها لئلّا يتوهّم أنّ المنفي مجموع الأمرين، والمعنى لا

أقول أعلم الغيب، أي علما مستمرا ملازما لصفة الرسالة، فأمّا إخباره عن بعض المغيّبات فذلك عند إرادة الله اطلاعه عليه بوحي خاصّ، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] وهو داخل تحت قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾

١٠. وعطف: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ على ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ بإظهار فعل القول فيه، خلافا لقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ لعلّه لدفع ثقل التقاء حرفين: (لا) وحرف (إنّ) الذي اقتضاه مقام التأكيد، لأنّ ادّعاء مثله من شأنه أن يؤكّد، أي لم أدّع أنّي من الملائكة فتقولوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، فنفي كونه ملكا جواب عن مقترحهم أن ينزل عليهم ملك أو أن يكون معه ملك نذيرا، والمقصود نفي أن يكون الرسول من جنس الملائكة حتى يكون مقارنا لملك آخر مقارنة تلازم كشأن أفراد الجنس الواحد، وكانوا يتوهّمون أنّ الرسالة تقتضي أن يكون الرسول من غير جنس البشر فلذلك قالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، فالمعنى نفي ماهية الملكية عنه لأنّ لجنس الملك خصائص أخرى مغايرة لخصائص البشر، وهذا كما يقول القائل لمن يكلّفه عنتا: إنّي لست من حديد.

١١. من تلفيق الاستدلال أن يستدلّ الجبائي بهذه الآية على تأييد قول أصحابه المعتزلة بتفضيل الملائكة على الأنبياء مع بعد ذلك عن مهيع الآية، وقد تابعه الزمخشري، وكذلك دأبه كثيرا ما يرغم معاني القرآن على مسايرة مذهبه فتنزو عصبيته وتنزوي عبقريته، وهذه مسألة سنتكلّم عليها في مظنّتها.

١٢. وجملة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّه لمّا نفي أن يقول هذه المقالات كان المقام مثيرا سؤال سائل يقول: فماذا تدّعي بالرسالة وما هو حاصلها لأنّ الجهلة يتوهّمون أنّ معنى النبوءة هو تلك الأشياء المتبرّأمنها في قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ﴾، فيجاب بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، أي ليست الرسالة إلّا التبليغ عن الله تعالى بواسطة الوحي، فمعنى ﴿أَتَّبِعُ﴾ مجاز مرسل في الاقتصار على الشيء وملازمته دون غيره، لأنّ ذلك من لوازم معنى الاتّباع الحقيقي وهو المشي خلف المتّبع ـ بفتح الموحّدة ـ، أي لا أحيد عن تبليغ ما يوحى إليّ إلى إجابة المقترحات من إظهار الخوارق أو لإضافة الأرزاق أو إخبار بالغيب، فالتّلقّي والتبليغ هو معنى الاتّباع، وهو كنه الرسالة عن الله تعالى، فالقصر المستفاد هنا إضافي، أي دون الاشتغال بإظهار ما تقترحونه من الخوارق للعادة، والغرض من

القصر قلب اعتقادهم أنّ الرسول لا يكون رسولا حتّى يأتيهم بالعجائب المسئولة، وقد حصل بذلك بيان حقيقة الرسالة تلك الحقيقة التي ضلّ عن إدراكها المعاندون، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وإذ قد كان القصر إضافيا كان لا محالة ناظرا إلى قلب اعتقادهم بالنسبة لمطالبهم باتّباع مقترحاتهم، أي لا أتّبع في التبليغ إليكم إلّا ما يوحى إليّ، فليس في هذا الكلام ما يقتضي قصر تصرّف الرسول ﷺ على العمل بالوحي حتّى يحتجّ بها من ينفي من علمائنا جواز الاجتهاد للنبي ﷺ في أمور الدين لأنّ تلك مسألة مستقلّة لها أدلّة للجانبين، ولا مساس لها بهذا القصر، ومن توهّمه فقد أساء التأويل.

١٣. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، هذا ختام للمجادلة معهم وتذييل للكلام المفتتح بقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾، أي قل لهم هذا التذييل عقب ذلك الاستدلال.

١٤. شبّهت حالة من لا يفقه الأدلّة ولا يفكّك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه، وشبّهت حالة من يميّز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القويّ البصر حيث لا تختلط عليه الأشباح، وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلّتهم وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبّسون بها والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها ليعلموا أيّ الحالين أولى بالتخلّق.

١٥. وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ استفهام إنكار، وهو معطوف بالفاء على الاستفهام الأول، لأنّه مترتّب عليه لأنّ عدم استواء الأعمى والبصير بديهي لا يسعهم إلّا الاعتراف بعدم استوائهما فلا جرم أن يتفرّع عليه إنكار عدم تفكّرهم في أنّهم بأيّهما أشبه، والكلام على الأمر بالقول مثل ما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]، والتفكّر: جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في الآيات السابقة كان بيان الله سبحانه وتعالى للآيات الكبرى تتابع عليهم آية بعد آية، وهم معرضون، والله تعالى يذكرهم بسلطانه في الأرض وفى السماء وفى أنفسهم، وبين أن من يشركونهم مع الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يدفعون عنهم شيئا لو أخذ الله تعالى سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم، ولا يملكون أن يدفعوا العذاب إذا أتاهم بغتة أو جهرة، ولم يبين علاقتهم بالمؤمنين وكلامهم في النبي ﷺ وحوارييه، وفى هذه الآيات يتكلم في ذلك، فيقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾

٢. كان المشركون يستكثرون أن يكون محمدا نبيّا مرسلا، ولم يكن من الأغنياء العظماء في أموالهم، بل كان يتيما فقيرا، فقد قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف] وحسبوا أن النبي يجب أن يكون محدّثا عن الغيب، وقد ذكر النبي ﷺ أنه لا يعلم الغيب، وأمره الله تعالى أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف]، وقد كانوا يقولون إنهم يريدون ملكا رسولا، وقد أخبر تعالى عنهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان]

٣. وقد تولى الله سبحانه وتعالى ردهم في هذه الآيات، وأمره بأن يقول لهم: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ أمره الله تعالى بأن يحدد مضمون الرسالة، ولا يتوهموا أن الرسالة تقتضى أن يكون الرسول مالكا للأموال والخزائن، ولا أن يكون عليما بالغيب، وأن الرسول لم يدع شيئا من ذلك، وإن الرسول ليست له خاصة إلا أنه يبشر وينذر، وأنه يوحى إليه من رب العالمين، وأنه مع من يدعوهم يتبع ما يوحى إليه من ربه.

٤. إن الرسالة الإلهية يضعها الله تعالى في عباده المصطفين الأخيار من البشر، ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وإن محمدا ﷺ ما تطاول بفضل مال ولا ثروة، ولا غنى، ولكنه كان فقيرا بين الفقراء قريبا منهم متدانيا إليهم يخفق قلبه معهم، ويحس بآلامهم، وكان من البشر، ليخاطب البشر، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٥٠٨.

لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، وإن التفرقة ليست بالغنى والفقر، وإنما التفرقة بالهداية والضلال، والعلم والجهل؛ ولذا قال سبحانه في التفرقة بين من استبصر وأدرك ولو فقيرا، وبين من ضل وغوى، ولو كان غنيا.

٥. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، أمر الله تعالى نبيه بأن ينبههم إلى أنه لا يستوى العالم والجاهل والمهدى والضال، والرشيد والسفيه، وكان أمر الله تعالى بذلك لنبيه، وتكرار الأمر بأن يقول لهم ما يقول؛ لفضل التنبيه، ولتقوية الإيمان بأنه يتكلم عن ربه، ولأنه الذى يتولى محاجاتهم، والاستفهام هنا لنفى الوقوع مع التنبيه إلى هذا، والمراد من الأعمى غير المدرك للحقيقة وغير المهتدى، ومن طمس الله تعالى على بصيرته فأصبح الحق لا يصل إليه، والمبصر من أدرك كل هذا، ففي الكلام تشبيه الضلال بالعمى، وإدراك الحق والإذعان له والاهتداء بالبصر؛ لأنه يعيش في نور البصيرة، الأول يعيش في ظلام الجهل والضلال.

٦. وقدم العمى في الذكر على البصر؛ لأن المشركين يدعون أنهم مع ضلالهم وجهلهم، وبعدهم أعلى من أتباع النبي ﷺ من المؤمنين، وذلك لكثرة أموالهم، وقلة أموال المؤمنين، فبين سبحانه أنهم لا يمكن أن يساووهم فضلا أن يعلوا عليهم؛ لأن الأعمى ولو غنيا، لا يساوى المبصر ولو فقيرا، وكان عليهم بدل أن يفضلوا أنفسهم على المؤمنين لفقرهم أن يتفكروا ويتدبروا في أسباب الفقر والغنى، وأسباب الفضل وأسباب العلو، وأن يتعرفوا الهدى والضلال، وأن يتدبروا في حاضر أمرهم وقابله، وأن يعتبروا بالعظات والأمثال التي تساق إليهم، وأن يكشفوا عن أنفسهم غمة الاغترار والإعراض عن الحق، وألا يكونوا في غيهم يعمهون.

٧. ولذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الفاء هنا موضعها قبل الاستفهام، ولكن الاستفهام له الصدارة فقدم عليها عن تأخير في نسق الكلام، والمعنى أنه كان يترتب على عدم المساواة بين الأعمى البصير أن يتدبروا ويتفكروا، والاستفهام للتحريض على التفكير.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. لعل المراد بخزائن الله ما ذكره بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾، وخزائن الرحمة هذه هي ما يكشف عن أثره، قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وهي فائضة الوجود التي تفيض من عنده تعالى على الأشياء من وجودها، وآثار وجودها وقد بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] أن مصدر هذا الأثر الفائض هو قوله، وهو كلمة ﴿كُنْ﴾ الصادرة عن مقام العظمة والكبرياء، وهذا هو الذي يخبر عنه بلفظ آخر في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

٢. فالمراد بخزائن الله هو المقام الذي يعطي بالصدور عنه ما أريد من شيء من غير أن ينفد بإعطاء وجود أو يعجزه بذل وسماحة، وهذا مما يختص بالله سبحانه، وأما غيره كائنا ما كان ومن كان فهو محدود وما عنده مقدر إذا بذل منه شيئا نقص بمقدار ما بذل، وما هذا شأنه لم يقدر على إغناء أي فقير، وإرضاء أي طالب، وإجابة أي سؤال.

٣. وأما قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فإنما أريد بالعلم الاستقلال به من غير تعليم بوحي وذلك أنه تعالى يثبت الوحي في ذيل الآية بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، وقد بين في مواضع من كلامه أن بعض ما يوحيه لرسله من الغيب، كقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦] وكقوله بعد سرد قصة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقوله في قصة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقوله بعد قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، فالمراد بنفي علم الغيب نفي أن يكون مجهزا في وجوده بحسب الطبع بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العادة إلى العلم به من خفيات الأمور كائنة ما كانت.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٩٦.

٤. وأما قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فهو كناية عن نفي آثار الملكية من أنهم منزهون عن حوائج الحياة المادية من أكل وشرب ونكاح وما يلحق بذلك، وقد عبر عنه في مواضع أخرى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وإنما عبر عن ذلك هاهنا بنفي الملكية دون إثبات البشرية ليحاذي به ما كانوا يقترحونه عليه ﷺ بمثل قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]

٥. ومن هنا يظهر أن الآية بما في سياقها من النفي بعد النفي ـ كأنها ـ ناظرة إلى الجواب عما كانوا يقترحونه على النبي ﷺ من سؤال الآيات المعجزة والاعتراض بما كان يأتي به من أعمال كأعمال المتعارف من الناس كما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ ـ إلى أن قال ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، وقوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ [الإسراء: ٥١]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]

٦. فمعنى قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾، قل: لم أدع فيما أدعوكم إليه وأبلغكموه أمرا وراء ما أنا عليه من متعارف حال الإنسان حتى تبكتوني بإلزامي بما تقترحونه مني فلم أدع أني أملك خزائن الألوهية حتى تقترحوا أن أفجر أنهارا أو أخلق جنة أو بيتا من زخرف، ولا ادعيت أني أعلم الغيب حتى أجيبكم عن كل ما هو مستور تحت أستار الغيوب كقيام الساعة ولا ادعيت أني ملك حتى تعيبوني وتبطلوا قولي بأكل الطعام والمشي في الأسواق للكسب.

٧. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ بيان لما يدعيه حقيقة بعد رد ما اتهموه به من الدعوى من جهة دعواه الرسالة من الله إليهم أي ليس معنى قولي: إني رسول الله إليكم أن عندي خزائن الله ولا أني أعلم الغيب ولا أني ملك بل إن الله يوحي إلي بما يوحي.

٨. ولم يثبته في صورة الدعوى بل قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾، ليدل على كونه مأمورا بتبليغ ما يوحى إليه

ليس له إلا اتباع ذلك فكأنه لما قال لا أقول لكم كذا ولا كذا ولا كذا قيل له: فإذا كان كذلك وكنت بشرا مثلنا وعاجزا كأحدنا لم تكن لك مزية علينا فماذا تريد منا؟ فقال: إن أتبع إلا ما يوحى إلي أن أبشركم وأنذركم فأدعوكم إلى دين التوحيد.

٩. والدليل على هذا المعنى قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن مدلوله بحسب ما يعطيه السياق: أني وإن ساويتكم في البشرية والعجز لكن ذلك لا يمنعني عن دعوتكم إلى اتباعي فإن ربي جعلني على بصيرة بما أوحى إلي دونكم فأنا وأنتم كالبصير والأعمى ولا يستويان في الحكم وإن كانا متساويين في الإنسانية فإن التفكر في أمرهما يهدي الإنسان إلى القضاء بأن البصير يجب أن يتبعه الأعمى، والعالم يجب أن يتبعه الجاهل.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ وهذه هي الصورة المشرقة الواقعية للشخصية النبويّة التي يريد الله للنبيّ أن يقدّم بها نفسه إلى الناس، فهو لا يريده كائنا غيبيّا يبرز إليهم من خلال الجوّ الغيبي الضبابي الذي يوحي بكون ذاته سرا خفيا مقدسا بعيدا عن التصوّر البشريّ الطبيعي، ولا يريد له أن يبدو في نظرهم شخصية أسطورية تملك في حوزتها كل خزائن الله الذهبيّة والفضية ونحو ذلك مما يدخل في عالم التقييم المادي، بالمستوى الذي يستطيع فيه غرف ما يشاء من المال لمن يشاء من الناس.

٢. ﴿خَزَائِنُ اللهِ﴾: الخزن: حفظ الشيء في الخزانة، ثم يعبر به عن كل حفظ كحفظ السرّ ونحوه، والمراد به ـ هنا ـ قيل: مقدوراته التي منعها الناس لأن الخزن ضرب من المنع، وقيل: جوده الواسع وقدرته، وقيل ـ كما في تفسير الميزان ـ (هو المقام الذي يعطي بالصدور عنه ما أريد من شيء من غير أن ينفد بإعطاء وجود، أو يعجزه بذل وسماحة، وهذا مما يختص بالله سبحانه، وأما غيره، كائنا ما كان ومن كان، فهو محدود وما عنده مقدّر إذا بذل منه شيئا نقص بمقدار ما بذل، وما هذا شأنه لم يقدر على إغناء أيّ فقير، وإرضاء أيّ طالب وإجابة أيّ سؤال)، والظاهر أن المراد بها خزائن رحمته وقدرته وملكه وإرادته مما يعتبر بالكناية

---

(١) من وحى القرآن: ٩/ ١١٢.

عن كل خصائص الألوهية في عطائها للخلق بما يملكه الله من القدرة المطلقة والإرادة المطلقة والملك المطلق فيما يصدر منه، ولعل هذا ما يريده المفسرون مع اختلاف التعبير.

٣. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ولا يريده إنسانا يقف بين الناس ليتحدث عن أسرارهم الكامنة في صدورهم وعمّا ينتظر كل واحد منهم من أحداث المستقبل، على أساس ما يحمله من علم الغيب الإلهيّ، كما هو دور النبي في تصوّر الكثيرين، الذين يربطونه بشخصية الكاهن الذي كان يمثّل بعضا من ذلك.

٤. ﴿الْغَيْبِ﴾: كل غائب عن الحاسة وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب، والمراد هنا ـ كما يقول الراغب ـ (ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السّلام، وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد)، والظاهر أن المراد به العلم بخفايا الأمور وقضايا المستقبل التي لا يملك الإنسان الوسائل إلى معرفتها مما يحتاج فيه إلى إعلام الله، ولا يشمل الأمور التي يمكن للناس أن يعرفوها بوسائلهم الخاصة مثل القضايا التاريخية التي هي في معرض العلم وإن لم يعلم بها الإنسان فعلا، كما ورد في قوله تعالى، في قصة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقوله في قصة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقوله ـ بعد قصة نوح ـ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، فإن هذا كان غيبا عن الرسول، لكنه (يدخل في مصطلح علم الغيب)

٥. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولا يريد له الشخصيّة الملائكيّة ليأخذ بألباب الناس فيدهش العقول بأجنحته المتنوّعة المتعدّدة، وقدرته الأسطوريّة الخارجة عن كلّ حدّ، لأنَّ الله يريد للناس أن يؤمنوا به من خلال رسالته بعيدا عن كل أشكال الضغط النفسي أو المادي، وعن كل ألوان الإغراء أو الاستعراض، الذي يوحي للإنسان بالانجذاب العاطفي، والانسحاق الشعوري.

٦. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وهكذا أراده أن يقف بينهم عبدا خاشعا بين يديه، لا يملك أيّة مقوّمات ذاتية كبيرة، أو أيّة قدرات شخصية مطلقة، رسولا أمينا على الدور الذي أوكله الله إليه، فهو ينتظر أمر الله ووحيه في كل صغيرة أو كبيرة ليتبعه ويبلّغه للناس، وربما كان الحديث عن الاتباع موحيا بالصفة المطيعة المتواضعة التي تجسدها شخصيته ليكون في ذلك بعض الإيحاء لهم بالطاعة لله والاستغراق في دور

العبد المطيع الذي يتمثل حركة العبد ـ النبيّ، في شخصية العبد ـ المؤمن، وإذا كان التوجيه الإلهيّ يفرض على الرسول أن يقدم نفسه إلى الناس بهذه الصفة فقد نجد فيه الدرس الفكري الذي يريدنا أن لا نغرق أنفسنا بالأسرار العميقة التي يحاول البعض أن يحيط بها شخصية النبيّ، للإيحاء بأنه يرتفع فوق مستوى البشر في إمكاناته الذاتية وقدراته الكبيرة، بل بصفته الرسالية من حيث أخلاقه وخطواته ومشاريعه المتصلة برسالته.

٧. وذلك هو السبيل للتعامل مع شخصية الأنبياء والأولياء، بالأسلوب القريب إلى الوعي الإنساني العاديّ، فيما يمكن للإنسان أن يعيشه ويتصوّره ويتمثله في نفسه، ليشعر بأن النبي قريب منه بصفاته البشريّة المثلى التي يمكن أن تكون أساسا للتمثّل والاتّباع والاقتداء، وفي ضوء ذلك، نجد في الأبحاث السائرة في هذا الاتجاه، انحرافا عن الخط القرآني الذي يرسم للناس في دراستهم لشخصية النبي ﷺ.

٨. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وهكذا وقف النبيّ ليقدّم نفسه للناس من خلال شخصيته الرساليّة، التي تسعى لفتح عيونهم على الحقيقة الإلهيّة في الفكر والعقيدة والتشريع، وليوحي إليهم بأن الذين لا ينفتحون على الإشراق المنبعث من داخلها، مثلهم كمثل الأعمى الذي لا يبصر شيئا، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وليختم ذلك بالدعوة إلى التفكير الواعي العميق الذي يربطهم بالحقيقة من أقرب طريق.

٩. هنا نقطة، وهي مسألة نفي النبي في حوارة مع المشركين علمه بالغيب، فقد جاء في الميزان، قال: (المراد بنفي علم الغيب، نفي أن يكون مجهّزا في وجوده بحسب الطبع بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العادة إلى العلم به من خفيات الأمور كائنة ما كانت)، وهذا هو التصور القرآني الصحيح الذي يؤكد نفي الفعلية لعلم الغيب من الناحية الوجودية بمعنى أن يكون مجهّزا في تكوينه البشري بالقدرة الخاصة لعلم الغيب بحيث يتحرك نحوه ـ في فعليته ـ بشكل طبيعي، بل المسألة هي أن الله قد يطلعه على بعض غيبه مما يحتاجه في نبوته من أمور المستقبل ومن خفايا الأمور كما في قصة عيسى عليه السّلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] ونحو ذلك، ولعل هذا هو الذي أشار إليه أمير المؤمنين علي عليه السّلام في إخباره بالمغيبات عن سؤاله (هل هذا علم بالغيب؟) ـ في تصورهم

للمعنى الذاتي للعلم من خلال القدرات الخاصة التي يملكها في ذلك ـ فأجاب (وإنما هو تعلُّم من ذي علم) وهذا هو الذي عبر عنه بعض المفسرين (هو علم الغيب بالعرض) أي تعلم من عالم الغيب.

١٠. وخلاصة الفكرة: هي أن الله كان يطلع رسله بطريقة التعليمات التدريجية المحدودة على الغيب كما في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦] ولم يكن علم الغيب منطلقا من قدرة تتحرك بالفعلية ليعلم بالغيب كل ما أراد من خلالها بحيث إن الله أعطاه ذلك من خلال القاعدة المنتجة للعلم في نفسه، والله العالم.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ في قولي إني رسول الله إليكم ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ من الأموال وما يحتاج الناس إليه فهي بيدي فإذا لم أدّعِ هذا، فليس لكم أن تقترحوا علي ما ليس في وسعي، بل عليكم أن تنظروا في دلائل صدقي.

٢. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي وقل لهم: ﴿لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وهذا أقوى من نفي دعوى علم الغيب، وهو عام يخصه ما أوحاه إليه ليبلغه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن:٢٦ ـ ٢٨] وذلك لأن الآخرة غيب والجنة والنار والملائكة كل ذلك غيب بلغته الرسل إلى أممهم ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فليس لكم أن تكذبوا رسالتي، بدعوى أني بشر آكل الطعام وأمشي في الأسواق ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ فأقول ما أمرني الله به، لا أتبع غير وحيه.

٣. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فالمؤمن المتبع لما أوحاه الله كالبصير، والكافر كالأعمى، ومن تفكّر واستعمل عقله علم أن البصير أعرف بالهدى من الأعمى.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٤٩.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٩١.

١. هذه الآية استمرار للردّ على اعتراضات الكفار والمشركين المختلفة، والرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الاعتراضات في جمل قصيرة:

أ. الأوّل: هو أنّهم كانوا يريدون من رسول الله ﷺ القيام بمعجزات عجيبة وغريبة، وكان كل واحد يتقدم باقتراح حسب رغبته، بل إنّهم لم يكونوا يقنعون بمشاهدة معجزات طلبها آخرون، فمرّة كانوا يطلبون بيوتا من ذهب، ومرّة يريدون هبوط الملائكة، ومرّة يريدون أن تتحول أرض مكّة القاحلة المحرقة إلى بستان مليء بالمياه والفواكه وغير ذلك ممّا كانوا يطلبونه من النّبي ﷺ، ممّا سيأتي شرحه في تفسير الآية من سورة الإسراء، ولعلهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يروا للنبي مقام الألوهية وامتلاك الأرض والسماء، فللردّ على هؤلاء يأتي الأمر من الله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ و(الخزائن) جمع الخزينة، بمعنى المكان الذي تخزن فيه الأشياء التي يراد حفظها وإخفاؤها عن الآخرين، واستنادا إلى الآية: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يتّضح أنّ (خزائن الله) تشمل مصدر ومنبع جميع الأشياء، وهي في الحقيقة تستقي من ذات الله اللامتناهية منبع جميع الكمالات والقدرات.

ب. ثمّ تردّ الآية على الّذين كانوا يريدون من رسول الله ﷺ أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل ويطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكي يدفعوا الضرر ويستجلبوا النفع، فتقول: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾:

- سبق أن قلنا إنّه لا يكون أحد مطلعا على كل شيء إلّا إذا كان حاضرا وشاهدا في كل مكان وزمان، وهو الله وحده، أمّا الذي يكون وجوده محددا بمكان وزمان معينين فلا يمكن بالطبع أن يطلع على كل شيء ولكن ما من شيء يحول دون أن يمنح الله جزءا من عمله هذا إلى الأنبياء والقادة الإلهيين لإكمال مسيرة القيادة، حسبما يراه من مصلحة، وهذا بالطبع لا يكون علما بالغيب بالذات، بل هو (علم بالغيب بالعرض) أي أنّه تعلم من عالم الغيب.
- هنالك آيات عديدة في القرآن تدل على أنّ الله لا يظهر علمه هذا للأنبياء والقادة الإلهيين وحدهم، بل قد يظهره لغيرهم أيضا، ففي الآيتين (٢٦ و٢٧) من سورة الجن نقرأ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾
- لا شك أنّ مقام القيادة، وخاصة القيادة العالمية العامة، يتطلب الاطلاع على كثير من المسائل

الخافية على عامّة الناس، فإذا لم يطلع الله مبعوثيه وأولياءه على علمه، فإنّ مراكزهم القيادية لن تكون كاملة.

• وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّنا نلاحظ أنّ بعض الكائنات الحيّة لا بدّ لها أن تعلم الغيب للمحافظة على حياتها، فيهبها الله ما تحتاجه من علم، فنحن ـ مثلا ـ قد سمعنا عن بعض الحشرات التي تتنبأ في الصيف بما سيكون عليه الجو في الشتاء، أي أنّ الله قد وهبها هذا العلم بالغيب، لأنّ حياتها ستتعرض لخطر الفناء دون هذه المعرفة، وسوف نفصل هذه الموضوع أكثر إن شاء الله عند تفسير الآية من سورة الأعراف.

ج. في الجملة الثّالثة ردّ على الذين كانوا يتصورون النّبي ﷺ ملكا، أو أن يصاحبه ملك، وان لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام والسير في الطرقات، وغير ذلك، فقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ يتّضح من هذه الآية بجلاء أن كل ما عند رسول الله ﷺ من علم، وكل ما فعله كان بوحي من السماء، وإنّه لم يكن يفعل شيئا باجتهاده ولا بالعمل بالقياس ولا بأي شيء آخر كما يرى بعض ـ وإنّما كان يتبع الوحي في كل أمر من أمور الدين.

٢. وفي الختام يؤمر رسول الله ﷺ أنّ يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم ويغلقون عقولهم فلا يفكرون أن ينظر إليهم على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيدا ويتفهمونها؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

٣. إنّ ذكر هذه الجملة في أعقاب الجمل الثلاث السابقة:

أ. قد يكون لأنّ رسول الله ﷺ سبق أن قال: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ و﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ و﴿لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ بل ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، ولكن هذا كلّه لا يعني إنّني مثلكم، أيّها المشركون، بل أنا إنسان بصير بالواقع بينما المشرك أشبه بالأعمى، فهل يستويان؟

ب. ثمّة احتمال آخر لربط هذه الجمل، وهو أن الأدلة والبراهين على التوحيد وعلى صدق رسول الله ﷺ واضحة جلية، ولكنّها تتطلب عينا بصيرة لكي تراها، فإذا كنتم لا تقبلونها فليس لأنها أدلة غامضة معقدة، بل لكونكم تفتقرون إلى العين البصيرة، فهل يستوي الأعمى والبصير؟

٢٩. من يجدي فيهم الإنذار

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: (مرّ الملأ من قريشٍ على النبي ﷺ وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك، ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾!؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء!؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك، فأنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾(١).

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ، وعنده خبّاب، وبلال، وصهيب، فقالوا: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا!؟ أتأمرنا أن نكون تبعا لهؤلاء!؟ اطردهم عنك فلعلّنا نتبعك، فأنزل الله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾(٢).

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، يقول: لعلهم يتقون النار بالصلوات الخمس(٣).

---

(١) أحمد ٧/ ٩٢، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ٢٠.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٥٩.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٧.

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: مشى عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، والحارث بن عامر بن نوفل، ومطعم بن عدي بن الخيار بن نوفل، في أشراف الكفار من عبد مناف إلى أبي طالب، فقالوا: لو أنّ ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد، فإنها هم عبيدنا وعسفاؤنا[(١)]؛ كان أعظم له في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتّباعنا إيّاه وتصديقه، فذكر ذلك أبو طالب للنبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك ـ يا رسول الله ـ حتى ننظر ما يريدون بقولهم، وما يصيرون إليه من أمرهم؟ فأنزل الله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، قال وكانوا بلالا، وعمار بن ياسر، وسالما مولى أبي حذيفة، وصبيحا مولى أسيد، ومن الحلفاء ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين، ومرثد بن أبي مرثدٍ وأشباههم، ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا﴾ الآية، فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر من مقالته؛ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الآية[(٢)].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، هؤلاء المؤمنون[(٣)].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: أنذر بالقرآن من يرجون الوصول إلى ربهم برغبتهم فيما عنده، فإن القرآن شافع مشفع[(٤)].

مقاتل:

---

(١) العسفاء: الأجراء، واحدهم عسيف.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٦٢.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٦.

(٤) تفسير القمّي ١/ ٢١٠.

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾، نزلت في الموالي: عمار، وأبي ذر الغفاري، وسالم، ومهجع، والنمر بن قاسط.. وعامر بن فهيرة، وابن مسعود، ونحوهم، وذلك أنّ أبا جهل وأصحابه قالوا: انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمدا من موالينا وأعرابنا رذالة،كلّ حي وسفلتهم ـ يعنون الموالي ـ، ولو كان لا يقبل إلا سادات الحي وسراة الموالي تابعناه، وذكروا ذلك لأبي طالب، فقالوا: قل لابن أخيك أن يطرد هؤلاء الغرباء والسفلة حتى يجيبه سادات قومه وأشرافهم، قال أبو طالب للنبي ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لعل سراة قومك يتّبعونك، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآيات[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ يعني: يعلمون ﴿أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني: الموالي، وفقراء العرب[٢].

٣. روي أنّه قال: ويعلمون أنّه ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: من دون الله ﴿وَلِيٌّ﴾ يعني: قريب ينفعهم، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ في الآخرة يشفع لهم إن عصوا الله[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يعني: لكي ﴿يَتَّقُونَ﴾ المعاصي[٤].

ابن عياض:

روي عن الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) أنّه قال: ليس كل خلقه عاتب، إنّما عاتب الذين يعقلون، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾[٥].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٦]:

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٧.

(٦) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٨٤.

١. سؤال وإشكال: سألت عن قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾، فقلت: كيف أمر أن ينذر به الخائف دون الآخر؟ والجواب: الإنذار هو: التحذير مما أعد الله عز وجل للعاصي، وحكم به على المخالفين؛ فقد أمره سبحانه أن ينذر خلقه أجمعين، فلما قبل قوم، وأنكر آخرون ـ قال عز وجل: أنذر به الخائف؛ إذ قد غلب العاصي، فكان المنتفع به المصدق ـ الخائف لله سبحانه فيه؛ وذلك موجود في اللغة: إذا وعظ رجل جماعة، وكان فيها من لا يقبل عظته ـ قال: (أعظ بها من يؤمن بالله سبحانه)، يريد: إن لم يستمع هؤلاء المعرضون ـ انتفع به من كان من المؤمنين، فلما أن كان المعرضون عن الله عز وجل لا يذكرون حشرا، ولا يخافون وعيدا، وكان المؤمنون يخافون الله عز وجل ويخشونه، قال أنذر به الذين يخشون؛ لما أن كان أولئك لا يحذرونه ولا يقبلونه، وقد كان إلى جميع الخلق كافة، وقد قال الله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات]، فقال: ﴿مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾، فأما من لا يخشاها فليس له في إنذاره حيلة؛ لقلة قبوله، ومن لم يقبل الإنذار، فلم ينتفع به، وإذا لم ينتفع به فهو مقيم على غفلته، غير حذر ولا نذر لما ينذر به، فلم تبق التذكرة والتفهيم إلا لمن قبلها وأخذ بحظه منها.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ اختلف فيه:

أ. قال بعضهم: هو صلة قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الآية، أيئس الكفرة عما سألوا من الأشياء رسول الله ﷺ ثم أمر بالإنذار الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم وهم المؤمنون، أي: يعلمون أنهم يحشرون إلى ربهم، وأن ليس لهم ولي يدفع عنهم ما يحل بهم، ولا شفيع يسأل لهم ما لم يعطوا.

ب. وجائز أن يكون تخصيص الأمر بإنذار المؤمنين لما كان الإنذار ينفعهم ولا ينفع غيرهم.

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٩١.

٢. ليس فيه لا ينذر غيرهم؛ وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾، ليس فيه أنه لا ينذر من لم يتبع الذكر ولا خشي الرحمن ولكن أنبأ أنه إنما ينفع هَؤُلَاءِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أخبر أن الذكرى تنفع المؤمنين ولا تنفع أُولَئِكَ، ينذر الفريقين: من اتبع، ومن لم يتبع، ومن انتفع، ومن لم ينتفع، ويكون قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾، يعني: ليس لأُولَئِكَ أولياء ولا شفعاء؛ لأنهم يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾، ونحوه أخبر أن ليس لهم ولي ولا شفيع دونه.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن ينذر بهذه الآيات أي يخوف بها من هو مقر بالبعث والنشور من المؤمنين، ومن يقر بذلك من الكفار ويعتقد أنه لا معونة عند الشركاء يومئذ، لأن الأمر هناك له تعالى وحده، وقد كان خلق من مشركي العرب يعتقدون ذلك، فأمر الله أن يخص هؤلاء بالإنذار، لأن الحجة لهم ألزم وإن كانت لازمة للجميع.

٢. ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾:

أ. أي يعلمون ذلك، فهم خائفون منه أي عاملون بما يؤديهم إلى السلام عنده.

ب. وقال الفراء: يخافون الحشر إلى ربهم علماً بأنه سيكون فلذلك فسَّره المفسرون يخافون بمعنى يعلمون.

ج. وقال الجبائي: أمر الله أن يخوف بالعقاب من هو خائف، لأنه لما أعلمهم أن الله يعذبهم بكفرهم إذا حشروا، كانوا يخافون الحشر لكونهم شاكين فيما أخبرهم به النبي ﷺ من الحشر والعذاب، وكانوا يخافون ذلك لشكهم فيه، وإن كانوا غير مؤمنين، والأول قول البلخي والزجاج.

٣. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ أو من يدفع عنهم ما يريد الله إنزاله بهم من عذابه، وعقوباته، ولا شفيع يشفع يدفع بشفاعته عنهم ما يريد الله إنزاله بهم من ذلك على ما قالت النصارى إنهم أبناء الله

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٤٤.

وأحباؤه.

٤. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا معاصيه، والهاء في قوله: (به) قال الزجاج: راجعة إلى القرآن، وقال الجبائي: راجعة إلى العذاب، وقال البلخي: راجعة إلى الإنذار.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الإنذار: الإعلام بموضع المخافة لتتقى، وأصله: استدفاع المخُوف، ومنه النذر؛ لأنه استدفاع المخوف بما يعقد على النفس من عمل البر، نذرت أنذر نذرًا، وأنذرته إنذارًا.

ب. الخوف والفزع من النظائر، وهو يرجع إلى الاعتقاد، إذا اعتقد في شيء مضرة أو ظنه فهو الخوف، وليس بجنس سوى الاعتقاد والظن.

ج. الحشر: الجمع.

د. الولي والنصير والمعين نظائر.

هـ. الشفع: خلاف الوتر، وأصله: الضم والاجتماع، وشفع هذا الأمر إذا جعله مقدرًا، والشفيع لأنه يشفع لغيره لإنجاح حاجته.

و. التقوى: اجتناب المحارم، وأصله من الوقاية، وقى يقي وقاية.

٢. أمر سبحانه بعد تقديم البينات بالإنذار والوعظ، فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي خوِّف وعِظْ به:

أ. قيل: بِالله، عن الضحاك.

ب. وقيل: بالقرآن.

ج. وقيل: بما تقدم ذكره من أحوال القيامة.

٣. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾:

أ. قيل: يعلمون.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٧١.

ب. وقيل: هو نفس الخوف.

٤. ﴿أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾:

أ. أي يُجْمَعُوا إلى حكمه وجزائه.

ب. وقيل: أراد المؤمنين الَّذِينَ آمنوا بالبعث والقيامة، وخافوا أهواله؛ أي اقصدهم بذلك، عن الحسن وأبي مسلم، يعني، اقصد بموعظتك هؤلاء؟ فهم الَّذِينَ ينتفعون به، وإن كان ينذر غيرهم.

ج. وقيل: عنى به الكافرين، ووجهه أنهم شَكُّوا في الحشر، فيخافون إذا خُوّفوا، عن أبي علي.

د. وقيل: هو لمن آمن بالبعث من مؤمن أو كافر، وخص بالذكر؛ لأن الحجة له ألزم، عن الزجاج، وأراد بخوف الحشر خوف عقوبات الحشر أن ينزل بهم.

٥. ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أي لهَؤُلَاءِ المنذرين ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿وَلِيَ﴾:

أ. قيل: معين.

ب. وقيل: قريب يقوم بأمره، ويدْفع العذاب عنه.

٦. ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ليس لهم شفيع يدفع العذاب منهم بشفاعته ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

أ. أي لكي يتقوا، فإن التقوى تنفعهم، وتدفع العذاب عنهم.

ب. وقيل: ليزدادوا تقوى عند تخويفك إياهم.

٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه أراد من الجميع التقوى لأن قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي لكي يتقوا، ومعناه: أُرِيد منهم التقوى.

ب. أن العذاب لا ينقطع بولي ولا شفيع.

ج. أن الكفار وإن لم يؤمنوا بالبعث فهم غير آمنين، بل خائفون، وهكذا يكون حال الشاك.

د. أن التقوى فعلهم، خلاف ما تقوله المُجْبِرَة.

٨. الهاء في قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ يعود على قوله: ﴿مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، وليس موضعه نصب؛ لأنه في موضع الحال ليخافوا، كأنه قيل: متخلين من ولي وشفيع.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبَرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أمر سبحانه بعد تقديم البينات بالإنذار، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ﴾ أي: عظ وخوف ﴿بِهِ﴾:

أي: بالقرآن، عن ابن عباس.

وقيل: بالله، عن الضحاك.

٢. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾:

أ. يريد المؤمنين يخافون يوم القيامة، وما فيها من شدة الأهوال، عن ابن عباس، والحسن.

ب. وقيل: معناه يعلمون، عن الضحاك.

ج. وقيل: يخافون أن يحشروا علما بأنه سيكون، عن الفراء قال: ولذلك فسره المفسرون بيعلمون، قال الزجاج: المراد بهم كل معترف بالبعث، من مسلم وكتابي، وإنما خصر الذين يخافون الحشر، دون غيرهم، وهو ينذر جميع الخلق، لأن الذين يخافون الحشر، الحجة عليهم أوجب، لاعترافهم بالمعاد.

د. قال الصادق عليه السلام: (أنذر بالقرآن من يرجون الوصول إلى ربهم، ترغبهم فيما عنده، فإن القرآن شافع مشفع لهم)

٣. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: غير الله، عن الضحاك، وقال الزجاج: إن اليهود والنصارى، ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم الله، عز اسمه، أن أهل الكفر ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع، وهذا الذي قاله ظاهر في أهل الكفر، والمفسرون على أن الآية في المؤمنين، ويكون معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: على أن شفاعة الأنبياء وغيرهم للمؤمنين، إنما تكون بإذن الله لقوله سبحانه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فذلك راجع إلى الله تعالى.

٤. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ كي يخافوا في الدنيا، وينتهوا عما نهيتم عنه، عن ابن عباس.

٥. الهاء في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى ﴿مَا﴾ من قوله! ﴿مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وليس مع اسمه وخبره في موضع نصب على الحال من ﴿يَخَافُونَ﴾ كأنه قيل: متخلين من ولي وشفيع

ابن الجوزي:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥٢.

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ قال الزّجّاج: يعني بالقرآن، وإنما ذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم، وإن كان منذرا لجميع الخلق، لأن الحجّة على الخائفين الحشر أظهر، لاعترافهم بالمعاد، فهم أحد رجلين: إما مسلم، فينذر ليؤدّي حقّ الله عليه في إسلامه، وإما كتابيّ، فأهل الكتاب مجمعون على البعث، وذكر الوليّ والشّفيع، لأنّ اليهود والنّصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحبّاؤه، فأعلم عزّ وجلّ أنّ أهل الكفر ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع، وقال غيره: ليس لهم من دونه وليّ، أي: ليس لهم غير الله وليّ ولا شفيع، لأن شفاعة الشّافعين بأمره.

٢. قال أبو سليمان الدّمشقيّ: هذه الآية متعلّقة بقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾، روى سعد بن أبي وقّاص قال:

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. لما وصف الله تعالى الرسل بكونهم مبشرين ومنذرين، أمر الرسول في هذه الآية بالإنذار فقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾

٢. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الإنذار الأعلام بموضع المخافة وقوله: ﴿بِهِ﴾:

أ. قال ابن عباس والزجاج بالقرآن، والدليل عليه قوله تعالى قبل هذه الآية ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وهو أولى، لأن الإنذار والتخويف إنما يقع بالقول وبالكلام لا بذات الله تعالى.

ب. وقال الضحاك ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي بالله.

٣. في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أقوال:

أ. الأول: أنهم الكافرون الذين تقدم ذكرهم، وذلك لأنه ﷺ كان يخوفهم من عذاب الآخرة، وقد كان بعضهم يتأثر من ذلك التخويف، ويقع في قلبه أنه ربما كان الذي يقوله محمد حقا، فثبت أن هذا الكلام لائق بهؤلاء، لا يجوز حمله على المؤمنين لأن المؤمنين يعلمون أنهم يحشرون إلى ربهم، والعلم خلاف الخوف

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٢.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٤٠.

والظن، ولقائل أن يقول: إنه لا يمتنع أن يدخل فيه المؤمنون، لأنهم وإن تيقنوا الحشر فلم يتيقنوا العذاب الذي يخاف منه، لتجويزهم أن يموت أحدهم على الإيمان والعمل الصالح وتجويز أن لا يموتوا على هذه الحالة، فلهذا السبب كانوا خائفين من الحشر، بسبب أنهم كانوا مجوزين لحصول العذاب وخائفين منه.

ب. الثاني: أن المراد منه المؤمنون لأنهم هم الذين يقرون بصحة الحشر والنشر والبعث والقيامة فهم الذين يخافون من عذاب ذلك اليوم.

ج. الثالث: أنه يتناول الكل لأنه لا عاقل إلا وهو يخاف الحشر، سواء قطع بحصوله أو كان شاكا فيه لأنه بالاتفاق غير معلوم البطلان بالضرورة فكان هذا الخوف قائما في حق الكل ولأنه عليه السلام كان مبعوثا إلى الكل، وكان مأمورا بالتبليغ إلى الكل، وخص في هذه الآية الذين يخافون الحشر، لأن انتفاعهم بذلك الإنذار أكمل، بسبب أن خوفهم يحملهم على إعداد الزاد ليوم المعاد.

٤. سؤال وإشكال: تمسك المجسمة بقوله تعالى: ﴿أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ وهذا يقتضي كون الله تعالى مختصا بمكان وجهة لأن كلمة (إلى) لانتهاء الغاية، والجواب: المراد إلى المكان الذي جعله ربهم لاجتماعهم وللقضاء عليهم.

٥. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قال الزجاج: موضع ﴿لَيْسَ﴾ نصب على الحال كأنه قيل: متخلين من ولي ولا شفيع، والعامل فيه يخافون.

٦. إن كان المراد من ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الكفار، فالكلام ظاهر، لأنهم ليس لهم عند الله شفعاء، وذلك لأن اليهود والنصارى كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] والله كذبهم فيه وذكر أيضا في آية أخرى فقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال أيضا ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وإن كان المراد المسلمين، فنقول: قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لا ينافي مذهبنا في إثبات الشفاعة للمؤمنين لأن شفاعة الملائكة والرسل للمؤمنين، إنما تكون بإذن الله تعالى لقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلما كانت تلك الشفاعة بإذن الله، كانت في الحقيقة من الله تعالى.

٧. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه وأنذرهم لكي يخافوا في الدنيا وينتهوا عن الكفر والمعاصي، قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ وهذا يدل على أنه تعالى أراد من الكفار التقوى والطاعة، والكلام

على هذا النوع من الاستدلال قد سبق مرارا.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، والإنذار الإعلام وقد تقدم في (البقرة)، وقيل: ﴿بِهِ﴾ أي بالله، وقيل: باليوم الآخر، وخص الذين يخافون أن يحشروا لأن الحجة عليهم أوجب، فهم خائفون من عذابه، لا أنهم يترددون في الحشر، فالمعنى ﴿يَخَافُونَ﴾ يتوقعون عذاب الحشر، وقيل: ﴿يَخَافُونَ﴾ يعلمون، فإن كان مسلما أنذر ليترك المعاصي، وإن كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق، وقال الحسن: المراد المؤمنون، قال الزجاج: كل من أقر بالبعث من مؤمن وكافر، وقيل: الآية في المشركين أي أنذرهم بيوم القيامة، والأول أظهر.

٢. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من غير الله ﴿شَفِيعٍ﴾ هذا رد على اليهود والنصارى في زعمهما أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة] والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله، فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار، ومن قال الآية في المؤمنين قال شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله فهو الشفيع حقيقة إذن، وفي التنزيل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء]، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ]، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي في المستقبل وهو الثبات على الايمان.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الإنذار: الإعلام، والضمير في به راجع إلى ما يوحى؛ وقيل إلى الله؛ وقيل: إلى اليوم الآخر، وخصّ الذين يخافون أن يحشروا؛ لأنّ الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك، قيل: ومعنى يخافون: يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون، فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين؛ وقيل معنى الخوف على حقيقته، والمعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٣١.

(٢) فتح القدير: ٢/ ١٣٦.

من الحشر عند أن يسمع النبي ﷺ يذكره وإن لم يكن مصدقا به في الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبي ﷺ، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع.

٢. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا وليّ لهم يواليهم ولا نصير يناصرهم ولا شفيع يشفع لهم من دون الله، وفيه ردّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم، وهم أهل الكتاب، أو أن أصنامهم تشفع لهم، وهم المشركون.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَأَنذِرْ﴾ خوِّف ﴿بِهِ﴾ بالقرآن لعلمه من المقام، ومن قوله: ﴿مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أو بما يوحى إليك، أو بالله، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُواْ إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ هم المؤمنون الموفون يزدادون بالإنذار به خيرًا، والذين آمنوا وقصَّروا في العمل أو التقوى، والمشركون المقرُّون بالحشر، والمتردِّدون فيه، والإنذار حقيقة في التخويف الأوَّل وفي المكرَّر، ولا يختصُّ بالأَوَّلِ، والمتردِّد لا يخلو من خوف به، وأعرض عن المشركين والمتّكلين على شفاعة الأصنام الجازمين بانتفاء الحشر بعد إنذارك إيَّاهم، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]، ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ [يونس: ١٠١]

٢. وإذا أُمِر بإنذار هؤلاء الأقسام فأولى أنَّه مأمور بإنذار خالي الأذهان، فالإنسان إمَّا في خير فلا بدَّ من مصاحبته، أو مستعدٌّ للخير فلا بدَّ من إعانته، أو خالي الذهن فلا بدَّ من إرشاده، أو معاند فلا بدَّ من مفارقته والإعراض عنه، وعن ابن عبَّاس أنَّ المراد بـ (الَّذِينَ): المؤمنون، وقال بعضٌ: المؤمنون المفرِّطون، ويبحث بِأَنَّهُ ليس للمفرِّطين وليٌّ ولا شفيعٌ سواه تعالى، يخافون الحشر بدون نصرته، وإنَّما الذين يخافونه الحشر بدون نصرته تعالى.

٣. ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الجملة حال من واو (يُحْشَرُوا)، ولا يختصُّ هذا بتفسير ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ بالمشركين الذين لم يجزموا بإنكار البعث، فكما أنَّ المشركين لا يجدون شفيعًا ولا وليًّا لأنَّه

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٧٠.

لا وليَّ ولا شفيع إلَّا الله على الحقيقة، وهو لا يليهم يوم الحشر بخير، ولا يشفع لهم، كذلك المؤمنون لا وليَّ ولا شفيع لهم إلَّا الله، يليهم بخير ويشفع لهم، وأمَّا شفاعة الأنبياء والملائكة والشهداء والعلماء ونحوهم فبإذن الله فهو الشفيع، ولا يعطِّل الحاليَّة كون المشركين لا يجزمون بأن لا وليَّ ولا شفيع إلَّا الله، إذ لا يلزم معرفة صاحب الحال بها، تقول: جاء زيد أحمر الوجه، وهو لا يدري بحمرته، وهذا العموم أولى من أن يقال المراد: يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعًا لهم.

٤. ﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ راجين الاتقاء، أو كي يتَّقوا، وهو متعلِّق بـ (أَنذِرْ) على الوجهين، والتقوى: ترك المخالفة في الأمر والنهي، والمراد بالاتِّقاء: تحصيل التقوى بزيادتها أو بإيجادها، فتشمل الموفِّي والمفرِّط والمشرك.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما أخبر تعالى: أن أولئك المشركين كالصم البكم العمي، بل الموتى، إذ لم يتعظوا بتصريف الآيات الباهرة، أمر بتوجيه الإنذار إلى من يتأثر بها يوحي إليه، اطراحا لأولئك الفجار، فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي: بما يوحي، المتقدم ذكره ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: من دون الله تعالى، ﴿وَلِيٌّ﴾ أي: ناصر ينصرهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم وينجيهم من العذاب، غيره تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: الاعتقادات الفاسدة، والأعمال الطالحة، والأخلاق الرديئة.

٢. قال الخفاجي في (العناية): خص بالذكر هؤلاء، لأنهم الذين ينفعهم الإنذار، ويقودهم إلى التقوى وليس المراد الحصر حتى يرد أن إنذاره لغيرهم لازم أيضا.

٣. جملة ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ في موضع الحال من ﴿يُحْشَرُوا﴾، فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة، والمراد بـ (الوليّ) و(الشفيع) الآلهة التي كان المشركون يزعمون أنها شفعاؤهم، وحينئذ فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة للمسلمين، لأن شفاعة الرسل يومئذ إنما تكون بإذنه تعالى، فكأنها منه تعالى.

رضا:

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦٨.

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أمر الله تعالى رسوله بهذا الإنذار الخاص بعد أمره بتبليغ الناس حقيقة رسالته، وكونها لا تستلزم أن يكون له من التصرف والعلم ما لا يكون إلا لله تعالى، ولا أن يكون ملكا من الملائكة، والمناسبة بينها أن الموصوفين بما ذكر في هذه الآية أجدر من غيرهم بفهم حقيقة الرسالة والانتفاع بنذر الرسول، فهي كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: وأنذر بما يوحى إليك جماعة المؤمنين بك، الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، أي: يخافون شدة وطأة الحشر والقدوم على الله عز وجل، وما فيه من شدة الحساب وما يتبعه من الجزاء على الأعمال في يوم ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وكل يأتيه فيه فردا ليس له من دونه ولي ينصره، ولا شفيع يدفع عنه، إذ أمر النجاة متوقف على مرضاته عز وجل، فإن هؤلاء هم الذين يرجى أن يتقوا الله تعالى اهتداء بإنذارك، ويتحروا ما يؤدي إلى مرضاته، لا يصدهم عن تقواه الاتكال على الأولياء، ولا الاعتماد على الشفعاء؛ لصحة توحيدهم، وعلمهم أن الشفاعة لله جميعا ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ وأن نجاتهم وسعادتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم وتزكيتهم لأنفسهم لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم، أو اعتمادهم على شفاعة الشفعاء لهم، كالمشركين وغيرهم من الكافرين الذين جهلوا أن مدار سعادة الدنيا والآخرة على تزكي النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة، وما يلزم من الأعمال الصالحة التي يترتب عليها رضاء الله عنها لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها.

٢. هذا ما يتبادر إلى الفهم من معنى الآية مؤيدا بآيات كثيرة أخرى، بل بجملة الدين وكلياته التي أشرنا إليها آنفا، وبنحوه فسرها الحافظ ابن كثير في تفسيره المأثور، وهاك نص عبارته: أي: وأنذر بالقرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون، الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٦٠

أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي يوم القيامة، ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أي يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل، لعلهم يتقون فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه)، فالآية قد نزلت في إنذار المؤمنين الذين يخافون الله ويرجونه، وقد روى أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وغيرهم عن عبد الله بن مسعود أنها نزلت هي وما بعدها في صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين السابقين الأولين، وسيأتي بيان ذلك.

٣. ولما كانت نافية للشفاعة عنهم لجأ بعض مفسري الخلف إلى تأويلها:

أ. وذهب بعضهم أنها لا تحتاج إلى تأويل (لأن شفاعة الملائكة والرسل للمؤمنين إنما تكون بإذن الله؛ لقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فلما كانت تلك الشفاعة بإذن الله كانت في الحقيقة من الله تعالى) قاله الرازي في وجه نزول الآية في المؤمنين، وذكر فيها وجهين آخرين أحدهما: أنها نزلت في الكفار، وثانيهما: أنها عامة، ومن المعلوم أن كل ما يتعلق بالكفار في هذه السورة فالمراد به مشركو مكة وماحولها، وإنما يدخل فيه غيرهم بدلائل العموم، وكان أولئك المشركون ينكرون الحشر ويثبتون الشفاعة عند الله لآلهتهم وأوليائهم الذين اتخذوا لهم التماثيل والأصنام، كإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، إلا من شذ منهم فقال بالبعث، ولا أذكر الآن أنه كان في مكة أحد منهم عند نزول السورة، ولا يعقل أن تكون الآية نزلت في إنذار هذا الشاذ النادر.

ب. ولكن أبا السعود تنطع في التأويل فذهب إلى أن الإنذار هنا موجه (إلى من يتوقع منهم التأثر في الجملة وهم المجوزون منهم للحشر على الوجه الآتي سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين في شفاعة آبائهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالأولين، أو في شفاعة الأصنام كالآخرين، أو مترددين فيهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم إذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقا، وأما المنكرون للحشر رأسا، والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام، فهم خارجون ممن أمر بإنذارهم، وقد قيل: هم المفرطون في الأعمال من المؤمنين، ولا يساعده سباق النظم الكريم ولا سياقه، بل فيه ما يقضي باستحالة صحته، كما ستقف عليه) ـ هذه عبارته ـ وقد جعل جملة ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ حالا من ضمير ﴿يُحْشَرُوا﴾ قال: (والمعنى: أنذر به

الذين يخافون أن يحشروا غير منصورين من جهة أنصارهم على زعمهم، ومن هذا اتضح أن لا سبيل إلى كون المراد بالخائفين المفرطين من المؤمنين؛ إذ ليس لهم ولي سواه تعالى يخافون الحشر بدون نصرته، وإنما الذي يخافونه الحشر بدون نصرته عز وجل)

ج. وقد لخص كلامه السيد الألوسي في (روح المعاني) وقال: (هو تحقيق لم أره لغيره، ويصغر لديه ما في التفسير الكبير، ولعل ما روي عن ابن عباس والحسن لم يثبت عنهما فتدبر)، ومراده بما روي عن الحبر والحسن هو أن الآية نزلت في المؤمنين.

د. ونقول: قد تدبرنا الكلام فوجدنا أن هذا الذي سميته تحقيقا تنطع وتكلف بعيد عن سباق الآية وسياقها، ولولا إعجابك بهذا الرجل واعتمادك عليه في جل تفسيرك لما خفي عن ذهنك المنير تكلفه هذا الذي خالف فيه المأثور المتبادر من النظم الكريم الموافق للحال الذي نزلت فيه السورة، فجعل الإنذار موجها إلى من لا يكاد يوجد أحد منهم في مكة من أهل الكتاب وشذاذ المشركين، ولا حاجة في حال توجيه الإنذار إلى المؤمنين إلى تخصيصه بالمفرطين منهم، ولم يكن في المؤمنين يومئذ مفرط ولا مقصر، بل كلهم سابق بالخيرات مشمر، فهم السابقون الأولون الذين شهد الله تعالى لهم، وأثبت في كتابه رضاءه عنهم، والمأثور أن هؤلاء الذين أمر ﷺ بإنذارهم هم الذين نهى عن طردهم بقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن أمر الله تعالى رسوله بتبليغ الناس حقيقة رسالته، أمره بإنذار من يخشون الحساب والجزاء فقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي وأنذر بما يوحى إليك ـ المؤمنين بالله الذين يخافون أهوال الحشر وشدة الحساب وما يتبع ذلك من الجزاء على الأعمال عند القدوم على الله في ذلك اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ يوم لا ولى ينصر، ولا شفيع يدفع العذاب إن أريد النجاة منه، بل أمر ذلك

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٣٤.

متوقف على مرضاة الله.

٢. فهؤلاء المؤمنون هم الذين يرجى أن يتّقوا الله اهتداء بهداك وخوفا من إنذارك ويتحرّوا ما يؤدى إلى مرضاته، لا يصدهم عن ذلك اتكال على الأولياء ولا اعتماد على الشفعاء، علما منهم أن الشفاعة لله جميعا: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، كما أنهم يستيقنون أن نجاتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم وتزكيتهم لأنفسهم لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم أو شفاعة الشافعين لهم، كما هو حال المشركين الذين جهلوا أن مدار السعادة في الدنيا والآخرة مرتبط بتزكية النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها.

٣. والآية بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. إنها عزة هذه العقيدة، واستعلاؤها على قيم الأرض الزائفة، وتخلصها من الاعتبارات البشرية الصغيرة.. لقد أمر رسول الله ﷺ أن يقدمها للناس دون زخرف ولا طلاء؛ ودون إطماع في شيء من قيم الأرض ولا إغراء.. كذلك أمر أن يوجه عنايته إلى من يرجى منهم الانتفاع بالدعوة، وأن يؤوي إليه الذين يتلقونها مخلصين؛ ويتجهون بقلوبهم إلى الله وحده يريدون وجهه؛ وألا يقيم وزنا بعد ذلك لشيء من قيم المجتمع الجاهلي الزائفة؛ ولا لشيء من اعتبارات البشر الصغيرة: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

٢. أنذر به هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، حالة أن ليس من دونه ولي ينصرهم ولا شفيع يخلصهم، ذلك أنه ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه، وهو لا يشفع يومئذ ـ بعد الإذن ـ إلا لمن ارتضى الله أن يشفع عند الله فيهم.. فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم الذي ليس فيه ـ من دون الله ـ ولي ولا شفيع، أحق بالإنذار، وأسمع له، وأكثر انتفاعا به.. لعلهم أن يتوقوا في حياتهم الدنيا ما يعرضهم

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٠٠.

لعذاب الله في الآخرة، فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موح، بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه، ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقي والحذر؛ فلا يقعون فيما نهوا عنة بعد ما تبين لهم.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ هو توجيه للنبيّ الكريم أن يتّجه بدعوته إلى حيث تجد آذانا تسمع، وقلوبا تعي فإنه حينئذ يرجو لدعوته استجابة ونجحا في نفوس مهيأة للاستماع والتعقل.. والضمير في (به) يعود إلى القرآن الكريم.

٢. والنبي ﷺ وإن كان مأمورا بأن يدعو النّاس جميعا إلى الله، وأن يقوم فيهم بشيرا ونذيرا، إلّا أن الفاته إلى من فيهم الاستعداد للاستماع والاستجابة، أولى ممن لا يسمع ولا يعقل، ولا يجيب.. أو قل إن دعوته وما تحمل من هدى ونور ـ وإن كانت موجهة إلى الناس جميعا ـ إنّما يفيد منها، وينتفع بهديها، هم أولئك الذين يخشون ربهم، ويخافون عذابه، وبهذا يبدو غيرهم وكأنه غير مدعوّ إلى هذا الخير المساق إلى الناس كلّهم، وفي هذا ما فيه من تضييع لهؤلاء الصادّين عن سبيل الله، وإهدار لوجودهم بين الناس..!

٣. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ جملة حالية، وصاحب الحال هو الضمير في (يحشروا).. أي أن هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، في حال لبس معهم فيها ولىّ يتولى أمرهم عند الله، أو شفيع يشفع لهم، فيخلصهم من عذابه ـ هؤلاء هم الذين يعملون للقاء الله حسابا، ومن ثمّ فإنهم يستمعون لكلمات الله، ويستجيبون لرسول الله، فيكونون ممن رضى الله عنهم، ووقاهم عذاب الجحيم.

٤. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الرجاء هنا معلق بهؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم غير مصحوبين بولىّ أو شفيع، فهذا الخوف من شأنه أن يبعث الإيمان والتقوى في أصحابه.. فهم ـ والحال كذلك ـ على رجاء من التقوى وعلى مداناة منها، إن هم استقاموا على هذا الطريق، واحتملوا ما يلقاهم عليه من مشقة وأذى.

مُغْنِيَّة:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٩١.

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾، الضمير في يعود إلى القرآن الذي تقدمت اليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾

٢ . اختلف المفسرون في المراد من قوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ هل هم المؤمنون، أو الكافرون بالنظر إلى أن بعضهم كان يتأثر من تخويف النبي وإنذاره، كما جاء في تفسير الرازي، وفي رأينا أن النبي ﷺ بعد أن أنذر الناس بما تقوم به الحجة عليهم أمره الله سبحانه في هذه الآية أن يستمر ويتابع إنذار المؤمنين بالقرآن ليزدادوا إيمانا وعلما بالدين وأحكامه، وأيضا أن ينذر به غير المؤمنين ممن ترجى هدايته بمتابعة الانذار وتكراره.

٣ . ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي حين تنذرهم يا محمد يستمعون اليك، وينتفعون بانذارك لهم، ويدركون أنه لا ولي ينصرهم من دون الله، ولا شفيع يشفع عنده إلا بإذنه.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١ . ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الأظهر أنّه عطف على قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ٥٠] لأنّ ذلك مقدّمة لذكر من مثّلت حالهم بحال البصير وهم المؤمنون، وضمير ﴿بِهِ﴾ عائد إلى ﴿مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] وهو القرآن وما يوحى به إلى الرسول ﷺ غير مراد به الإعجاز.

٢ . و﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون الممثّلون بحال البصير، وعرّفوا بالموصول لما تدلّ عليه الصلة من المدح، ومن التعليل بتوجيه إنذاره إليهم دون غيرهم، لأنّ الإنذار للذين يخافون أن يحشروا إنذار نافع، خلافا لحال الذين ينكرون الحشر، فلا يخافونه فضلا عن الاحتياج إلى شفعاء.

٣ . و﴿أَنْ يُحْشَرُوا﴾ مفعول ﴿يَخَافُونَ﴾، أي يخافون الحشر إلى ربّهم فهم يقدّمون الأعمال الصالحة وينتهون عمّا نهاهم خيفة أن يلقوا الله وهو غير راض عنهم، وخوف الحشر يقتضي الإيمان بوقوعه، ففي

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ١١٣.

الكلام تعريض بأنّ المشركين لا ينجع فيهم الإنذار لأنّهم لا يؤمنون بالحشر فكيف يخافونه.. ولذلك قال فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]

٤. وجملة: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ حال من ضمير ﴿أَنْ يُحْشَرُوا﴾، أي يحشروا في هذه الحالة، فهذه الحال داخلة في حيّز الخوف، فمضمون الحال معتقد لهم، أي ليسوا ممّن يزعمون أنّ لهم شفعاء عند الله لا تردّ شفاعتهم، فهم بخلاف المشركين الذين زعموا أصنامهم شفعاء لهم عند الله.

٥. وقوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ حال من ﴿وَلِيّ﴾ و﴿شَفِيع﴾، والعامل في الحال فعل ﴿يَخَافُونَ﴾، أي ليس لهم ولي دون الله ولا شفيع دون الله ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا، وهو تعريض بالمشركين الذين اتّخذوا شفعاء وأولياء غير الله.

٦. وفي الآية دليل على ثبوت الشفاعة بإذن الله كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولصاحب (الكشاف) هنا تكلّفات في معنى ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ وفي جعل الحال من ضمير ﴿يُحْشَرُوا﴾ حالا لازمة، ولعلّه يرمي بذلك إلى أصل مذهبه في إنكار الشفاعة.

٧. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاء مسوق مساق التعليل للأمر بإنذار المؤمنين لأنّهم يرجى تقواهم، بخلاف من لا يؤمنون بالبعث.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، الكلام السابق في المشركين، وإعراضهم عن الآيات وختم الله تعالى على قلوبهم مع توالى الآيات والنذر عليهم وإعراضهم، وقد يتوهم متوهم أن الإنذار لا جدوى منه، ولكن ليس الناس جميعا كذلك، بل فيهم من تؤثر فيه الموعظة ويجدى فيه الإنذار، والحق أن الناس قسمان: قسم تعتريه الرهبة من الغيب، ويخاف الحشر إن ذكر به، فلم يكن فيه اغترار يقسو به قلبه، ويصرفه عن المنذرات والاستماع إلى داعى الحق، وصنف غلبت عليه شقوته لا تجدى فيه موعظة، ولا يرهب الغيب وما فيه؛ لأنه يعمه في غيه، وهم في

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥١١.

غفلتهم ساهون، وهؤلاء لا يجدى فيهم النذير، وهم الذين ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وأبصارهم غشاوة.

٢. وقد ذكر الزمخشري أن الذين يخافون أن يحشروا منهم المسلمون الذين يؤمنون بالبعث والنشور، ولكن تتقاصر أعمالهم، فيجديهم النذير، ومنهم أهل الكتاب الذين لم يفسدهم الغرور، ومنهم بعض المشركين الذين لم يطمس على قلوبهم، بل لا يزال في قلوبهم نافذة ينفذ منها الندم، فإن علموا بالحشر خافوه فآمنوا، ومن المشركين من يؤمنون بالحشر، ولكن يظنون أن الشركاء الذين يبتدعونهم يشفعون لهم، فإذا أعلموا الحق فيه اتبعوه، وما ذكرناه في تقسيمنا يعم هذه الأنواع وغيرها.

٣. والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى ما أوحى إلى النبي ﷺ وهو القرآن الكريم، وقد ذكرنا ضروب الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم.

٤. ويلاحظ بعض أمور:

أ. أولها: أن الإنذار للجميع فلا يختص الذين يخافون دون غيرهم، ولكن الذين ينتفعون به هم الذين يخافون الحشر، وما وراءه من حساب وعقاب.

ب. ثانيها: أن العنصر المميز بين أهل الخير وغيرهم هو الخوف والخشية من الله فأولئك يكون فيهم رأفة، ومع الرأفة يتفتح القلب للهداية، ويدخله النور، ومع الغلظة يكون الظلام، وكأن الغلظة حجارة قوية تجعل ما وراءها في ظلام دامس.

ج. ثالثها: أن الغرور باعتقاد شفيع يشفع أو ولى يناصر من دون الله تعالى يسدّ مسالك النور والهداية، فلا بد أن يكون كل الإحساس لله سبحانه وتعالى.

د. رابعها: أن الإنذار في هذه الحال يجعل للتقوى مكانا، فيكون الرجاء فيها، وهو من العبد لا من الرب، ولذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٩٨.

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الضمير في ﴿بِهِ﴾ راجع إلى القرآن وقد دل عليه قوله في الآية السابقة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ حال والعامل فيه يخافون أو يحشرون.

٢. والمراد بالخوف معناه المعروف دون العلم وما في معناه إذ لا دليل عليه بحسب ظاهر المعنى المتبادر من السياق.

٣. والأمر بإنذار خصوص الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم لا ينافي عموم الإنذار لهم ولغيرهم كما يدل عليه قوله في الآيات السابقة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ بل لما كان خوف الحشر إلى الله معينا لنفوسهم على القبول ومقربا للدعوة إلى أفهامهم أفاد تخصيص الأمر بالإنذار بهم ووصفهم هذا الوصف تأكيدا لدعوتهم وتحريضا له أن لا يسامح في أمرهم ولا يضعهم موضع غيرهم بل يخصهم بمزيد عناية بدعوتهم لأن موقفهم أقرب من الحق وإيمانهم أرجى فالآية بضميمة سائر آيات الأمر بالإنذار العام تفيد من المعنى: أن أنذر الناس عامة ولا سيما الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم.

٤. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ نفي مطلق لولاية غير الله وشفاعته فيقيده الآيات الأخر المقيدة كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف ٨٦.

٥. وإنما لم يستثن في الآية لأن الكلام يواجه به الوثنيون الذين كانوا يقولون بولاية الأوثان وشفاعتها، ولم يكونوا يقولون بذلك بالإذن والجعل فإن الولاية والشفاعة عن إذن يحتاج القول به إلى العلم به، والعلم إلى الوحي والنبوة، وهم لم يكونوا قائلين بالنبوة، وأما الذي أثبتوه من الولاية والشفاعة فكأنه أمر متهيئ لأوليائهم وشركائهم بالضرورة من طبعها لا بإذن من الله كأن أقوياء الوجود من الخليقة لها نوع من التصرف في ضعفائه بالطبع وإن لم يأذن به الله سبحانه، وإن شئت قلت: لازمه أن يكون إيجادها إذنا اضطراريا في التصرف في ما دونها.

٦. وبالجملة قيل: (ما لهم من دونه ولي ولا شفيع) ولم يقل: إلا بإذنه لأن المشركين إنما قالوا إن الأوثان أولياء وشفعاء من غير تقييد فنفي ما ذكروه من الولي والشفيع من دون الله محاذاة بالنفي لإثباتهم،

وأما الاستثناء فهو وإن كان صحيحا كما وقع في مواضع من كلامه تعالى لكن لا يتعلق به غرض هاهنا.

٧. وقد تبين مما تقدم أن الآية على إطلاق ظاهرها تأمر بإنذار كل من لا يخلو من استشعار خوف من الحشر في قلبه إذا ذكر بآيات الله سواء كان ممن يؤمن بالحشر كالمؤمنين من أهل الكتاب أو ممن لا يؤمن به كالوثنيين وغيرهم لكنه يحتمله فيغشى الخوف نفسه بالاحتمال أو المظنة فإن الخوف من شيء يتحقق بمجرد احتمال وجوده وإن لم يوقن بتحققه.

٨. وقد اختلفت أنظار المفسرين في الآية:

أ. فمن قائل: إن الآية نزلت في المؤمنين القائلين بالحشر، وأنهم هم الذين عنوا في الآية التالية بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾

ب. ومن قائل: إنها نزلت في طائفة من المشركين الوثنيين يجوزون الحشر بعد الموت وإن لم يثبت وجود القائل بهذا القول بين مشركي مكة أو العرب يوم نزول السورة مع كون خطابات السورة متوجهة إلى المشركين من قريش أو العرب بحسب السياق.

ج. ومن قائل: إن المراد بهم كل معترف بالحشر من مسلم أو كتابي، وإنما خص هؤلاء المعترفون بالأمر بالإنذار مع أن وجوب الإنذار عام لجميع الخلق لأن الحجة أوجب عليهم لاعترافهم بالمعاد.

د. لكن الآية لم تأخذ في وصفهم إلا الخوف من الحشر، ولا يتوقف الخوف من الشيء على العلم بتحققه ولا الاعتراف بوجوده بل الشك ـ وهو الاحتمال المتساوي طرفاه ـ والمظنة وهي الإدراك الراجح على ما له من المراتب يجامع الخوف كالعلم وهو ظاهر، فالآية إنما تحرض النبي ﷺ على إنذار كل من شاهد في سيماه علائم الخوف من أي طائفة كان لأن بناء الدعوة الدينية على أساس الحشر وإقامة المحاسبة على السيئة والحسنة والمجازاة عليها، وأدنى ما يرجى من تأثير الدعوة الدينية في واحد أن يجوزه فيخافه، وكلما ازداد احتمال وقوعه ازداد الخوف وقوي التأثير حتى يتلبس باليقين وينتفي احتمال الخلاف بالكلية، فهناك التأثير التام.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا هو المجتمع الذي يريد الله لرسوله أن يدخل عليه بالدعوة إليه، وليس المجتمعات الغنيّة اللاهية المستكبرة التي أغلقت قلوبها عن كل النداءات التي ترهق الإحساس، وتحرّك الشعور، وتقود الإنسان إلى خط المسؤولية النابضة بحركة الحياة المسؤولة، والتي ابتعدت عن كل الأجواء الروحية التي تدفع الخطوات في طريق السلام الأمين.. فإن هذه المجتمعات لا تمثل في حساب الدعوة، القيمة الكبيرة، فيما يتداوله الناس من حسابات القيم، لأن الإسلام لا يعطي القيمة للجهات المنتفخة بالكبرياء والخيلاء، بل يعطيها لتلك الجهات الجدّية المنفتحة على المستقبل في قلق الإنسان أمام قضيّة المصير.

٢. لذا رأينا الله يوجّه رسوله، وكل داعية يسير في خطّ الرسالة ـ إلى أن ينظر إلى النّاس من خلال ما يحملونه في داخلهم من الخوف على المصير، فمن كان سائرا في أجواء اللّامبالاة أمام ذلك، فلا مجال للحديث معه إلا لإقامة الحجة عليه، أو إخراجه من هذا الجوّ اللامسؤول، فلا يتوقف الداعية أمامه طويلا، لأنَّ في ذلك تضييعا للجهد بلا فائدة، فقد أغلق هذا الإنسان قلبه عن كل شيء أما الذين يعيشون إشراقة الخوف من الله، عندما يذكر أمامهم اسمه، أو تخطر في أفكارهم فكرة الوقوف بين يديه، ويتصورون خطورة الموقف الذي يشعرون معه بالوحدة الموحشة التي لا يملكون معها وليّا ولا شفيعا من دون الله.. فلا بدَّ للرسول وللداعية من أن يشعر بأن أمثال هؤلاء هم الذين تتحرك الدعوة في حياتهم، لأن الخوف من الله، يربطهم بالكلمات المنطلقة من وحية في عمليّة تأمّل وتدبّر وتفكير ويدفعهم ذلك إلى القناعة والالتزام الدقيق بالخط العملي للفكر الإسلاميّ العميق.

٣. ومن هم هؤلاء؟ إنهم الفقراء الطيبون، الذين لم يرهقهم ترف الغنى بمغرياته وانفعالاته، ولم يحجب قلوبهم عن البساطة الطاهرة التي تلتقي بالحقيقة والعفويّة والطهر، هؤلاء الذين لا يشعرون بأن الرسالة تفقدهم الامتيازات التي يملكونها كما يتصور الأغنياء المترفون، بل يحسّون بأنّها تمنحهم فرصا لم تكن لهم وتفتح لهم أبوابا كانت مغلقة عليهم، وتوحي لهم بالمعاني الجديدة لإنسانيتهم، وبالآفاق الرحبة لوجودهم، وبذلك تبرز الرسالة في وعيهم، كمنطلق للإشراق الروحي والإنساني فيما يشبه الحلم الوردي

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١١٧.

الجميل.

٤. وهذا ما يفسّر أن جنود الرسالات في بدايات الدعوة، هم الفقراء والبسطاء في الأغلب، لأنهم يفهمونها جيّدا من خلال ارتباطها بالجانب الإنساني والروحي للحياة، أمّا الآخرون من الأغنياء والمستكبرين، فإنهم يقفون في خطّ المواجهة المضادّ الذي يشعر بالرسالة، كما لو كانت الخطر الزاحف على كل وجودهم بالموت.

٥. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ ممن يعيشون قلق المصير في الدار الآخرة أمام الآيات التي تتحدث عن يوم القيامة وعن أحواله وعذاباته من خطوط وأعمال، فهؤلاء هم الذي انفتحت قلوبهم للتقوى، وتحركت مواقفهم للطاعة.

٦. وليس المراد اختصاص الإنذار بهؤلاء فلا إنذار للذين أغلقت عقولهم عن التفكير بنتائج المسؤولية السلبية والإيجابية، وختم الله على قلوبهم، بل إن الإنذار عام للجميع، ولكن المراد ـ والله العالم ـ أن حركة الإنذار في الوعي والالتزام تنطلق من الجدّية في قلق المعرفة الذي يجعل الإنسان يلاحق علامات الاستفهام في وجدانه ليبحث ـ من خلالها ـ عن جواب، ويتابع القضايا المثارة في الآيات، ليتدبرها في طريق الوصول إلى الحقيقة، أما الذي لا يفكر في الأمور بطريقة مسئولة، فإنه لا يستمع إلى الإنذار استماع وعي وفهم وتدبر لأنه يتحرك في الحياة في الخط اللاهي العابث، ويرى في حركة الانتماء إلى هذا الاتجاه أو ذاك لعبا وعبثا ومضيعة للوقت.

٧. وفي ضوء هذا فإن التخصيص بهؤلاء وارد في مقام بيان واقعية الإنذار المؤثر بالنفس، فلا يبقى هناك مجال للجدل الدائر بين المفسرين، بين قائل، إن الآية نزلت في المؤمنين القائلين بالحشر وأنهم هم الذين عنوا في الآية التالية بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، وقائل: إنها نزلت في طائفة من المشركين الوثنيين يجوزون الحشر بعد الموت وإن لم يثبت وجود القائل بهذا القول بين مشركي مكة أو العرب يوم نزول السورة مع كون خطابات السورة متوجهة إلى المشركين من قريش أو العرب بحسب السياق، وقائل: إن المراد بهم كل معترف بالحشر من مسلم أو كتابي، وإنما حصر هؤلاء المعترفون بالأمر بالإنذار مع أن وجوب الإنذار عام لجميع الخلق لأن الحجة أوجبت عليهم الاعتراف بالمعاد.

٨. إن ملاحظتنا ـ في هذا المجال ـ هي أن الآية تؤكد على الاهتمام بهؤلاء الناس الذي يعيشون همَّ

الحشر إلى ربهم، فيدفعهم ذلك إلى الاستماع بوعي والتفكير بمسؤولية فيهتدون بما يسمعونه من الآيات، وليست في وارد الحديث عن الأفكار المسبقة التي يحملها المنذرون في الإيمان بيوم الحشر أو غيره.

٩. إنها إشارة إلى الإنذار الجديّ المتحرّك في الواقع المشمول بالدعوة في مقابل الذين يعيشون الحياة استرخاء وضياعا وترفا وغفلة عن مستقبل الدنيا والآخرة، من هؤلاء الذين قد يفكرون بأن على النبي أن يطرد المؤمنين الذين لا يصنفون من الدرجة العليا في السلّم الطبقي.

١٠. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ لأن الله هو ـ وحده ـ الولي للخلق كلهم وهذا ما يؤمن به أمثال هؤلاء، ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يملك الضغط على إرادة الله بحيث يمكن لهم اللجوء إليه للحصول على الأمن من خلاله، لأن الشفعاء الذين ثبتت لهم الشفاعة لا يملكون الشفاعة بعيدا عن إرادته وإذنه لأن الشفاعة لا تنفع إلا بإذنه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] فلا استقلال لهم بالشفاعة كما يحدث في الدنيا للتحرك من ذات الشفيع في الاستفادة من خطوته الضاغطة على صاحب الحق، بل تتحرك من المنهج الذي وصفه الله لهم في برنامج الشافعة وليس معناها أن تكون صورية تمثيلية، بل إن الله يكرمهم بها فيشفعهم بمن يريدون الشفاعة له طبقا للبرنامج الذي يعرفونه في الأشخاص الذين يشفعون لهم بحيث يعرفون أن الله يرتضي ذلك لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

١١. وهذا ما جعل الآية الثانية تحذّر الرسول بشكل حاسم، من الاستجابة لبعض الكلمات التي يحاول هؤلاء المستكبرون من خلالها، إبعاد الفقراء عن أجواء الرسول، ليخلو لهم الموقف، وليمارسوا معه أساليب اللف والدوران، وليغرقوا حياته بالعبث واللغو والضوضاء، فيما اعتادوه من أحاديث وممارسات، وليثيروا أمامه المشاكل التي تثقل تفكيره، وترهق مسيرته.. وتوحي له باليأس والإرهاق الشديد.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي بما يوحى إليك ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الذين ينتفعون بالإنذار،

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٠.

لأنك إذا أنذرتهم خافوا أن يحشروا إلى ربهم ليسألهم ويحاسبهم ويجزيهم بما عملوا ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ ﴿أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ في حال أنهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ من دون ربهم ﴿وَلِيَ﴾ يتولى أمورهم ويدبر ما يصلح شأنهم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يتدخل فيما بينهم وبين ربهم بشفاعته فيصرف عنهم العقاب، وقوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي فيما بينهم وبين ربهم يحول دون جزائهم، فهم الذين ينتفعون بالإنذار، أنذرهم بالقرآن.

٢. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ العذاب، والإنذار بالقرآن: تلاوة ما فيه من الوعيد، وتقييد الإنذار به؛ لأن العربي إذا سمعه عرف أنه خارق في إحكامه وحسن نظمه، فعرف أنه كلام الله، فالإنذار به إنذار مقرون بالحجة.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، وفي هذه الآية يأمر نبيّه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي أن هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب وجزاء، وفي ضوء هذا الاحتمال والخوف من المسؤولية تتولّد فيهم القابلية على التلقّي والقبول.

٢. سبق أن قلنا: إنّ وجود القائد المؤهل والبرنامج التربوي الشامل لا يكفيان وحدهما لهداية الناس، بل ينبغي أن يكون لدى هؤلاء الناس الاستعداد لتقبل الدعوة، تماما مثل أشعة الشمس التي لا تكفي وحدها لتشخيص معالم الطريق، بل لا بدّ من وجود العين الباصرة أيضا، ومثل البذرة السليمة التي لا يمكن أن تنمو بغير وجود الأرض الصالحة للزراعة.

٣. يتّضح من هذا أنّ الضمير في (به) يعود على القرآن، وهذا يتبيّن من القرائن، على الرغم من أنّ القرآن لم يذكر في الآيات السابقة صراحة، كما أنّ المقصود من (يخافون) أي يحتملون وجود الضرر، إذ يخطر ببال كل عاقل يستمع إلى دعوة الأنبياء الإلهيين، بأنّ من المحتمل أن تكون دعوة هؤلاء صادقة، وأنّ الإعراض عنها يوجب الخسران والضرر، ويستنتج من ذلك أنّ من الخير له أن يدرس الدعوة ويطلع على

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٩٦.

الأدلة، وهذا واحد من شروط الهداية، وهو ما يطلق عليه علماء العقائد اسم (لزوم دفع الضرر المحتمل) ويعتبرونه دليل وجوب دراسة دعوى من يدعي النّبوة، ولزوم المطالعة لمعرفة الله.

٤. ثمّ يقول: إنّ أمثال هؤلاء من ذوي القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذي ليس فيه غير الله ملجأ ولا شفيع: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس وادعهم إلى الله، إذ أنّ الأمل في هدايتهم موجود: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

٥. بديهي أنّ نفي (الشفاعة) و(الولاية) في هذه الآية عن غير الله لا يتناقض مع شفاعة أولياء الله وولايتهم، إذ إنّنا سبق أن أشرنا إلى أنّ المقصود هو نفي الشفاعة والولاية بالذات، أي أنّ هذين الأمرين مختصان ذاتا بالله، فإذا كان لأحد غيره مقام الشفاعة والولاية فبإذن منه وبأمره، كما يصرح القرآن بذلك: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

٣٠. المستضعفون والصبر معهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، يعني: يعبدون ربّهم بالغداة والعشيّ، يعني: الصلاة المكتوبة[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يطلبون ثواب الله[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يعني: يعبدون ربهم بالصلاة المكتوبة ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ يعني: صلاة الصبح، وصلاة العصر، وذلك أنّ ناسا من الفقراء كانوا مع النبي ﷺ، فقال قوم من الأشراف: إذا صلّينا فأخّر هؤلاء، وليصلّوا خلفنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ﴾ الآية[٣].

٤. روي أنّه قال: أتى العباس رجال من قريش، فيهم صفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، فقالوا: إنّ رسول الله قد أدنى دوننا هذه العبدّى[٤]، وسفلة[٥]، أصحابه، فلو كلّمته

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٦٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٤٧.

(٣) أورده الثعلبي ٤/ ١٥٠.

(٤) العبدّى: جماعة العبيد الذين ولدوا في العبودية.

(٥) السّفلة ـ بفتح السين وكسر الفاء ـ: السّقاط من الناس.

في ذلك، فكلمه العباس في ذلك، فقال: (يا عباس، ما أحبّ إليّ ما سرّهم، ولكن ليس إليّ من ذلك شيء)، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إلى آخر الآية، فدعا العباس، فتلاها عليه، فأتاهم، فأبلغهم، قالوا: فكلّمه، فليجعل لنا أحد طرفي النهار فلنجلس معه ليس معنا منهم أحد، فذكر ذلك له العباس، فقال: (ما ذاك إليّ)، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى آخر الآية [الكهف: ٢٨]، فدعا العباس، فتلاها عليه، فرجع العباس وقد اشتد جزعه من ذلك، فأتى عليّ بن أبي طالب، فقال: هلكت، والله، وقصّ عليه القصة، فقال له علي: وما يعرضك للتنزيل من الله!؟ ألم أنهك عن ذلك!؟ ومالك ولهذا؟ قال أنشدك الله، يا ابن أخي، لما أدركتني؛ فقد هلكت، ائت رسول الله ﷺ، فكلّمه في شأني، فأتاه عليّ، فذكر له الذي لقي العباس، فقال رسول الله ﷺ: (إنّها لم تنزل فيه، إنّما نزلت في الذين بعثوه)[1].

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) ونحوهم، وذلك أنّ أبا جهل وأصحابه قالوا: انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمدا من موالينا وأعرابنا رذالة، كلّ حي وسفلتهم ـ يعنون: الموالي ـ، ولو كان لا يقبل إلا سادات الحي وسراة الموالي تابعناه، وذكروا ذلك لأبي طالب، فقالوا: قل لابن أخيك أن يطرد هؤلاء الغرباء والسفلة حتى يجيبه سادات قومه وأشرافهم، قال أبو طالب للنبي ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لعل سراة قومك يتّبعونك، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآيات[2].

ابن عمر:

روي عن ابن عمر (ت ٧٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية، أنهم الذين يشهدون الصلوات المكتوبة[3].

النخعي:

روي عن إبراهيم النخعي (ت ٩٦ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ذكره في الإيماء ٣/ ٥٤٤، وقال: (الحسن بن عمارة متروك.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٦٥.

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، هم أهل الذّكر، لا تطردهم عن الذّكر[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، هي الصلوات الخمس الفرائض[2].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أنها الصلاة المفروضة؛ الصبح[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، يعني: يعبدون، ألا ترى أنّه قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [غافر: ٤٣]، يعني: تعبدون[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، يعبدون ربهم بالغداة والعشي، يعني: الصلاة المفروضة[5].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: صليت الصبح مع سعيد بن المسيب، فلمّا سلّم الإمام ابتدر الناس القاصّ، فقال سعيد: ما أسرعهم إلى هذا المجلس! قال مجاهد: فقلت: يتأولون ما قال الله تعالى، قال: وما قال؟ قلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال وفي هذا ذا!؟ إنما ذاك في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن، إنما ذاك في الصلاة[6].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]،

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٦٧.
(٢) ابن جرير ٩/ ٢٦٤.
(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٨.
(٤) ابن جرير ٩/ ٢٦٨.
(٥) ابن جرير ٩/ ٢٦٥.
(٦) ابن جرير ٩/ ٢٦٦.

الصلوات الخمس[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، المصلين المؤمنين؛ بلالا، وابن أمّ عبدٍ[2].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، الصلاة المفروضة؛ الصبح، والعصر[3].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، المصلّين؛ بلال، وابن أمّ عبد، كانا يجالسان محمدا ﷺ، فقالت قريش تحقرة لهما: لولاهما وأشباههما لجالسناه، فنهي عن طردهم حتى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[4].

٦. روي أنّه قال: كان أشراف قريشٍ يأتون النبي ﷺ، وعنده بلال، وسلمان، وصهيب، وغيرهم؛ مثل ابن أمّ عبدٍ، وعمار، وخبّاب، فإذا أحاطوا به قال أشراف قريش: بلال حبشيّ، وسلمان فارسيّ، وصهيب روميّ، فلو نحّاهم لأتيناه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[5].

٧. روي أنّه قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: لعلهم يطيعون[6].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. عن حمزة بن عيسى، قال دخلت على الحسن البصري، فسألته، فقلت: يا أبا سعيد، أرأيت قول الله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] أهم هؤلاء القصّاص؟ قال:

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٦٥.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٦٦.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٦٤.

(٤) تفسير مجاهد، ص ٣٢٢.

(٥) ابن عساكر ٢٤/ ٢٢٥.

(٦) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٧.

لا، ولكنهم المحافظون على الصلوات في الجماعة[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، يعني: صلاة مكة؛ حين كانت الصلاة ركعتين غدوة، وركعتين عشية، قبل أن تفترض الصلوات الخمس[2].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، كان يقرئهم القرآن، من ذا الذي يقصّ على النبي ﷺ![3].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، هما الصلاتان: صلاة الصبح، وصلاة العصر[4].

٢. روي أنّه قال: إنّ ناسا من كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إن سرّك أن نتّبعك فاطرد عنّا فلانا وفلانا ـ ناسا من ضعفاء المسلمين ـ، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية، وقد قال قائلون من الناس لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن سرّك أن نتّبعك فاطرد عنّا فلانا وفلانا ـ لأناس كانوا دونهم في الدنيا ازدراهم المشركون ـ، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى آخرها[6].

المعتمر:

روي عن منصور بن المعتمر (ت ١٣٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٦٤.

(٢) ذكره يحيى بن سلام كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ٧٠.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٦٨.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٦٥.

(٥) ابن جرير ٩/ ٢٦١.

(٦) ابن جرير ٩/ ٢٦١.

وَالْعَشِيِّ﴾، هم أهل الذّكر[1].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: كان رجال يستبقون إلى مجلس رسول الله ﷺ؛ منهم بلال، وصهيب، وسلمان، فيجيء أشراف قومه وسادتهم، وقد أخذ هؤلاء المجلس، فيجلسون ناحية، فقالوا: صهيب روميّ، وسلمان فارسيّ، وبلال حبشيّ، يجلسون عنده، ونحن نجيء فنجلس ناحية! حتى ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ: إنّا سادة قومك وأشرافهم، فلو أدنيتنا منك إذا جئنا، قال فهمّ أن يفعل؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية[2].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال عيينة بن حصن للنبي ﷺ: إن سرّك أن نتّبعك فاطرد عنك فلانا وفلانا؛ فإنه قد آذاني ريحهم، يعني: بلالا، وسلمان، وصهيبا، وناسا من ضعفاء المسلمين؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، قال وأنزل في عيينة: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨][3].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يعني: الصلاة له ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ طرفي النهار[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، يعني: يبتغون بصلاتهم وجه ربهم[5].

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٦٨.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٨.

(٣) عبد الرزاق ٢/ ٢٠٧.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٢.

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: ما بينك وبين أن تكون من الظالمين إلا أن تطردهم[(١)].

٢. روي أنّه قال: قال رجل للنبي ﷺ: إني أستحيي من الله أن يراني مع سلمان وبلال وذويهم، فاطردهم عنك، وجالس فلانا وفلانا، قال فنزل القرآن: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ما بينك وبين أن تكون من الظالمين إلا أن تطردهم، ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، ثم قال وهؤلاء الذين أمروك أن تطردهم فأبلغهم منّي السلام، وبشّرهم، وأخبرهم أني قد غفرت لهم، وقرأ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال لتعرفها[(٢)].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، معنى ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ هو: لا تبعد ولا تقصي، فكان ذلك من الله عز وجل تفهيما لنبيه، وأمرا بحفظهم، وردا على من سأل طردهم، ومحمد فلم يطرد أحدا، وإنما قالت قريش لما دعاهم إلى الله سبحانه، فقالوا: كيف نؤمن يا محمد، وقد سبقنا من ليس له قدر فينا ولا رئاسة، من أوساط الناس واتباعنا!؟ فاطردهم؛ فإن طردتهم آمنا بك؛ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية؛ تقريعا لهم، وردا عليهم، وأمرا بخلاف قولهم.

٢. وشهد الله سبحانه لمن اتبع رسوله بالدين، وإخلاص النيات، فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٩.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٦٣.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٨٥.

وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، فأخبر أنهم يقصدونه، ويطلبون ما عنده؛ فكان هذا مدحا لهم، وثناء عليهم، وذما لغيرهم، ثم أخبر نبيه: أنه إن فعل ذلك كان من الظالمين، وهو فلم يكن ليفعل ذلك بالمؤمنين؛ بل كان شفيقا عليهم، عارفا بحقوقهم، وكانت مسألتهم هذه لمحمد ﷺ كمسألة أصحاب نوح، حين سألوه طرد من كان معه من المؤمنين؛ حسدا لهم لما سبقوهم إلى الإيمان بالله عز وجل، فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، والأرذلون في اللغة فهم: الذين لا خطر لهم ولا قيمة ولا رئاسة، سقاط الناس، ومن لا ينظر إليه منهم؛ فسموهم بهذا الاسم؛ احتقارا لهم، واستخفافا بهم، وكانوا عند الله سبحانه أفضل منهم، وأعلا درجة، وأعظم مرتبة؛ فكان من قول نوح: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٣٠،٢٩]، فسألوا محمدا صلى الله عليه وآله ما سأل إخوانهم المبطلون في سالف الدهر نوحا وغيره من الأنبياء، وكذلك أهل الباطل أفعالهم متقاربة، وأمورهم متشابهة؛ ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨]، يعني: الأولين والآخرين، فيما يسألون الأنبياء، ويتقحمون به من جميع الأشياء؛ فنعوذ بالله من الحيرة والعمى، والضلالة بعد الهدى.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾:

أ. يذكر في بعض القصة أن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يسبقون إلى مجلس رسول الله ﷺ فيجلسون قريبًا منه، فيجيء أشراف القوم وساداتهم، وقد أخذ أُولَئِكَ المجلس فيجلس هَؤُلَاءِ ناحية، فقالوا: نحن نجيء فنجلس ناحية، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقالوا: إنا سادات قومك وأشرافهم، فلو أدنيتنا منك في المجلس، فهمّ أن يفعل ذلك، فأنزل الله هذه الآية يعاتب نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية.

ب. إلى هذا يذهب عامة أهل التأويل، لكنه بعيد؛ إذ ينسبون رسول الله ﷺ إلى أوحش فعل

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٩١.

وأفحشه ما لو كان فيه إسقاط نبوته ورسالته؛ إذ لا يحتمل أن يكون النبي ﷺ يقرب أعداءه ويدني مجلسهم منه، ويبعد الأولياء، هذا لا يفعله سفيه فضلا أن يفعله رسول الله المصطفى على جميع بريته، أو يخطر بباله شيء من ذلك، وكان فيه ما يجد الكفرة فيه مطعنا يقولون: يدعو الناس إلى التوحيد والإيمان به والاتباع له، فإذا فعلوا ذلك وأجابوه طردهم وأبعد مجلسهم منه، هذا لعمري مدفوع في عقل كل عاقل، ولكن إن كان فجائز أن يكون منهم طلب ذلك طلبوا منه أن يدني مجلسهم ويبعد أُولَئِكَ؛ هذا يحتمل، وأما أن يهم أن يفعل ذلك أو خطر بباله شيء من ذلك فلا يحتمل.

ج. وجائز أن يكون هذا من الله ابتداء تأديبًا وتعليمًا؛ يعلم رسوله صحبة أصحابه ومعاملته معهم؛ كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ونهاه أن يمد عينه إلى ما متّع أُولَئِكَ؛ كقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية، ويخبره عن عظيم قدرهم عند الله، وقد ذكرنا أن العصمة لا تمنع النهي والحظر، بل العصمة تزيد في النهي والزجر.

٢. أخبر أن ليس عليه من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فإنما عليك البلاغ وعليهم الإجابة؛ وهو كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾.

٣. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾:

أ. يشبه أن يكونوا يجتمعون إلى رسول الله ﷺ في كل غداة ومساء، فيسمعون منه، ثم يفترقون على ما عليه أمر الناس من الاجتماع في كل غداة ومساء عند الفقهاء وأهل العلم.

ب. وجائز أن يكون ذكر الغداة والعشي كناية عن الليل كله وعن النهار جملة؛ كقوله: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، ليس يريد بـ ﴿وَالضُّحَى﴾ الضحوة خاصة ولكن النهار كله، ألا ترى أنه قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ذكر الليل دل أنه كان الضحى كناية عن النهار جملة؛ فعلى ذلك الغداة والعشي يجوز أن يكون كناية عن الليل والنهار جملة.

ج. وجائز أن يكون أصحاب الحرف والمكاسب، لا يتفرغون للاجتماع إلى رسول الله ﷺ والاستماع منه في عامة النهار، ولكن يجتمعون إليه ويستمعون منه بالغداة والعشي، فكان ذكر الغداة والعشي لذلك أو لما ذكرنا.

د. وجائز أن يكون المراد بذكر الغداة والعشي صلاة الغداة، وصلاة العشاء؛ يقول: لا تطرد من

يشهد هاتين الصلاتين، وإنّماكان يشهدهما أهل الإيمان وأما أهل النفاق: فإنهم كانوا لا يشهدون هاتين الصلاتين، ويحتمل غير ما ذكرنا.

٤. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الظلم على وجوه: ظلم كفر، وظلم شرك، وظلم يكون بدونه، وهو أن يمنع أحدا حقه أو أخذ منه حقا بغير حق؛ فهو كله ظلم، والظلم ـ هاهنا والله أعلم ـ: يشبه أن يكون هو وضع الحكمة في غير أهلها؛ لأنه لو كان منه ها ذكر من طرد أُولَئِكَ وإدناء أُولَئِكَ، لم يكن أهلا للحكمة، ويجوز أن يوصف واضع الحكمة في غير موضعها بالظلم؛ على ما روي في الخبر: (أن من وضع الحكمة في غير أهلها فقد ظلمها، ومن منعها عن أهلها فقد ظلمهم)

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي لا تطردوهم يا معشر الناس، ولهذه الآية نظائر في القرآن وفي كلام العرب، وهو تعريض لغير المخاطب، قال الشاعر:

وأريد قتلك لا محالة عنوة ... ولك السلامة أن تكون كذلكا

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ روينا أن سبب نزول هذه الآية أن الملأ من قريش أتوا رسول الله ﷺ وعنده جماعة من ضعفاء المسلمين مثل بلال وعمار وصهيب وخباب بن الأرت وابن مسعود فقالوا: يا محمد اطرد عنا موالينا وحلفائنا فإنما هم عبيدنا وعسفانا فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فأنزل الله هذه الآية ونزل في الملأ من قريش: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ في قوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يعبدونه بدعائهم يريدون وجهه أي يريدونه بدعائهم لأن العرب تذكر وجه إرادة له مثل قوله: هذا وجه الصواب أي الصواب تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من حساب عملهم من شيء من ثواب أو عقاب ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٨.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٣.

عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأن كل واحد مؤاخذ بحساب عمله دون غيره.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، روي أن سبب نزول هذه الآية أن الملأ من قريش أتوا النبي ﷺ وعنده جماعة من ضعفاء المسلمين مثل بلال، وعمار، وصهيب، وخباب بن الأرت، وابن مسعود، فقالوا: يا محمد اطرد عنا موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعتقاؤنا، فلعلك إن طردتهم نتبعك، فقال عمر: لو فعلت ذلك حتى نعلم ما الذي يريدون وإِلَامَ يصيرون، فَهَمَّ رسول الله ﷺ بذلك حتى نزلت هذه الآية، ونزل في الملأ من قريش ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية، فأقبل عمر فاعتذر من مقالته فأنزل الله فيه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

٢. في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أربعة تأويلات:

أ. أحدها: أنها الصلوات الخمس، قاله ابن عباس، ومجاهد.

ب. الثاني: أنه ذكر الله، قاله إبراهيم النخعي.

ج. الثالث: تعظيم القرآن، قاله أبو جعفر.

د. الرابع: أنه عبادة الله، قاله الضحاك.

٣. معنى قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: يريدون بدعائهم، لأن العرب تذكر وجه الشيء إرادة له مثل قولهم: هذا وجه الصواب تفخيماً للأمر وتعظيماً.

ب. الثاني: معناه يريدون طاعته لقصدهم الوجه الذي وجَّهَهُم إليه.

٤. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيه ثلاث أقوال:

أ. أحدها: يعني ما عليك من حساب عملهم من شيء من ثواب أو عقاب، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني وما من حساب عملك عليهم من شيء، لأن كل أحد مؤاخذ بحساب عمله دون

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١١٨.

غير، قاله الحسن.

ب. الثاني: معناه ما عليك من حساب رزقهم وفقرهم من شيء

ج. الثالث: ما عليك كفايتهم ولا عليهم كفايتك، والحساب الكفاية كقوله تعالى: ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦] أي تاماً كافياً، قاله ابن بحر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . سبب نزول هذه الآية: ما رواه ابن مسعود وغيره: أن ملأ من قريش ـ وقال الفراء: من الكفار، منهم عيينة بن حصين الفزاري ـ دخلوا على النبي ﷺ وعنده بلال وسلمان وصهيب وعمار، وغيرهم، فقال عيينة بن حصين يا رسول الله لو نحيت هؤلاء عنك، لآتاك أشراف قومك، وأسلموا، وكان ذلك خديعة منهم له وكان الله تعالى عالماً ببواطنهم.

٢ . أمر الله نبيه أن ﴿لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ والْعَشِيِّ﴾ يعني أنه نهاه عن طردهم لأنهم يريدون بإسلامهم ودعائهم وجه الله:

أ. قال الضحاك: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ يعني بذلك الصلاة المفروضة في هذين الوقتين.

ب. وقال إبراهيم هم أهل الذكر.

ج. وقال قوم: الدعاء ها هنا هو التحميد والتسبيح.

٣ . ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ شهادة للمعنيين بالآية بالإخلاص وأنهم يريدون بعبادتهم الله خالصاً.

٤ . ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ نصب الدال، لأنه جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ ونصب فيكون لأنه جواب لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ﴾

٥ . ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. قال قوم: يعني من حساب رزقهم في الدنيا ليس رزقهم في يدك ولا رزقك في أيديهم، بل الله رازق الجميع.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٤٥.

ب. وقال الجبائي وهو الأظهر: ما عليك من أعمالهم، ولا عليهم من أعمالك، بل كل واحد يؤاخذ بعمله، ويجازى على فعله، لا على فعل غيره.

٦. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إخبار منه تعالى أنه لو طرد كل هؤلاء تقرباً إلى الكبراء منهم كان بذلك ظالماً، والنبي ﷺ وإن لم يقدم على القبيح جاز أن ينهى عنه، لأنه قادر عليه وإن كان النهي والزجر يمتنع منه، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وإن كان الشرك مأموناً منه.

٧. قراءات ووجوه: قرأ ابن عامر (بالغدوة) هنا وفي الكهف ـ بضم الغين وإسكان الدال وإثبات واو بعدها، الباقون بفتح الغين والدال وإثبات ألف بعد الدال.. وقال البلخي: قراءة ابن عامر غلط، لأن العرب إذا أدخلوا الألف واللام قالوا: الغداة يقولون: رأيتك بالغداة، ولا يقولون بالغدوة، فإذا نزعوا الألف واللام قالوا رأيتك غدوة، وإنما كتبت واو في المصحف، كما كتبوا الصلاة والزكاة والحياة كذلك، قال أبو علي الفارسي: الوجه الغداة، لأنها تستعمل نكرة وتتعرف باللام فأما غدوة فمعرفة أبداً، وهو علم صيغ له، قال سيبويه: غدوة وبكرة جعل كل واحد منهما اسماً للجنس كما جعلوا أم حنين اسماً لدابة معروفة، كذلك هذا ووجه قراءة ابن عامر أن سيبويه قال زعم الخليل أنه يجوز أن تقول أتيتك اليوم غدوة وبكرة، فجعلها بمنزلة ضحوة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الطرد والإقصاء والتشريد نظائر، وهو الإبعاد، طرده طردًا.

ب. الوجه: الجارحة المعروفة، سميت بذلك لأنها تواجهك، والوجه: نفس الشيء أيضا، يقال: هذا وجه الرأي؛ أي الرأي.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: إن مَلأ من قريش مروا برسول الله ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٧٢.

ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد، أرضيت بهَؤُلَاءِ من قومك؟ اطردهم، فلعلنا نتبعك، فنزلت الآية، عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة.

ب. وقيل: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، وجماعة من المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ، فوجدوه خاليًا مع هَؤُلَاءِ من ضعفة المسلمين، وعليهم ثياب الصوف، فقالوا: لو نفيت هَؤُلَاءِ لجالسناك، فقال ﷺ: ما أنا بطاردهم، فقالوا: فاجعل لنا مجلسًا تعرف به العرب فضلنا، فإنا نستحيي من العرب أن يرونا مع هَؤُلَاءِ الأعْبُد، فإذا نحن جئناك أقمتهم فإذا فرغنا فاقعد معهم، واكتب لنا بذلك كتابًا، فَهَمَّ به النبُّي ﷺ، فنزل جبريل بهذه الآية إلى قوله: ﴿بِالشَّاكِرِينَ﴾، وعن سلمان وخباب قالا: فينا نزلت الآية.

ج. وقيل: قال عيينة بن حصن: إنْ سَرَّكَ أن نتبعك فاطرد فلانًا وفلانًا فقد آذانا ريحهم، نحو بلال وسلمان، فنزلت الآية.

د. وقيل: قالوا: اجعل لنا يومًا، ولهم يوما فأبى، فقالوا: اجعل المجلس واحدًا، وأقبل علينا بوجهك، وول ظهرك إليهم، فنزلت الآية، عن الكلبي.

هـ. وقيل: جاء عتبة وشيبة ومطعم بن عدي والملأ من قريش إلى أبي طالب، وسألوه أن يسأل النبي ﷺ أن يطرد هَؤُلَاءِ، فألم أبو طالب به، فنزلت الآية، عن عكرمة، بَيَّنَ تعالى أنه أرسل رسوله للدين، فيجب أن يكون غرضه الدين وأهله دون أرباب الدنيا، وبَيَّنَ أن الوسيلة إليه بالدين لا بالدنيا.

٣. نهى تعالى رسوله عن إجابة ما اقترح عليه المشركون من طرد المؤمنين تكبرًا واغترارًا بالدنيا، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ أي لا تبعد ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾:

أ. قيل: هو الدعاء والثناء.

ب. وقيل: هو ذكر الله، عن إبراهيم.

ج. وقيل: يوحدونه ويمجدونه، عن الأصم، وعلى هذا أراد دوام ذلك لاختصاصه بالوقتين.

د. وقيل: العبادة، عن الضحاك.

هـ. وقيل: الصلاة المكتوبة، عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب.

و. وقيل: هو قراءة القرآن، عن أبي جعفر.

٤. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾:

أ. قيل: يريدونه، وذكر الوجه للتعظيم والتفخيم كقولهم: هذا وجه الأمر، وهو وجه القوم.

ب. وقيل: يريدون طاعته ورضاه.

٥. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. قيل: ما عليك من حساب عملهم، نفي ما عليهم، كقوله حكاية عن نوح: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ عن الحسن وأبي علي.

ب. وقيل: من كفايتهم، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: من حساب رزقهم أي فقرهم.

د. وقيل: لا تؤاخذ بهم، ولا يؤاخذون بك، عن أبي علي.

هـ. وقيل: من حساب هَؤُلَاءِ الكفار إن لم يؤمنوا ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لا تطرد، فإن طردت تكن من الظالمين لنفسك في طردهم.

و. وقيل: معناه فتكون واضعًا للطرد في غير موضعه؛ لأن الطرد والاستخفاف يستحقه الكافرون دون المؤمنين.

٦. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن الواجب في الدعاء الإخلاص؛ لذلك قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

ب. أن الفضل بالدين لا بالمال والجاه، وأن من ظن ذلك ذهب مذهب الكفار.

ج. أنه ينبغي للمؤمن أن يوالي المؤمنين وإن كانوا فقراء، ولا يوالي العصاة وإن كانوا كبراء وأغنياء.

د. أن الدعوة فعلهم؛ لذلك مدحهم عليها، فيبطل قولهم في المخلوق.

هـ. أن أحدًا لا يؤاخذ بذنب غيره، خلاف مذهب الجبر في أطفال المشركين، وإحالة الذنوب على غير من أذنب.

٧. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ جزم للنهي، وكُسِرَ لالتقاء الساكنين.

ب. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب للجحود، وهو قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾

ج. ﴿فَتَكُونَ﴾ نصب لأنه جواب لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ أي لا تطردهم فتكون من الظالمين وقيل: عطفًا على قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، تقديره: لا تطرد فتكون بطردهم من الظالمين، عن أبي مسلم.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. نهى سبحانه رسوله ﷺ عن إجابة المشركين، فيما اقترحوه عليه من طرد المؤمنين، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾:

أ. يريد يعبدون ربهم بالصلاة المكتوبة، يعني صلاة الصبح والعصر، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة.

ب. وقيل: إن المراد بالدعاء ههنا الذكر، أي: يذكرون ربهم طرفي النهار، عن إبراهيم، وروي عنه أيضا أن هذا في الصلوات الخمس.

٢. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يعني: يطلبون ثواب الله، ويعملون ابتغاء مرضاة الله، لا يعدلون بالله شيئا، عن عطا، قال الزجاج: شهد الله لهم بصدق النيات، وأنهم مخلصون في ذلك له، أي: يقصدون الطريق الذي أمرهم بقصده، فكأنه ذهب في معنى الوجه إلى الجهة والطريق.

٣. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يريد: ما عليك من حساب المشركين شيء ولا عليهم من حسابك شيء إنما الله الذي يثيب أولياءه، ويعذب أعداءه، عن ابن عباس، في رواية عطا، وأكثر المفسرين، يردون الضمير إلى الذين يدعون ربهم، وهو الأشبه، وذكروا فيه وجهين:

أ. أحدهما: ما عليك من عملهم، ومن حساب عملهم من شيء عن الحسن، وابن عباس، وهذا كقوله تعالى في قصة نوح ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وهذا لأن المشركين ازدروهم لفقرهم وحاجتهم إلى الأعمال الدينية، وهم برفع المشركين عليهم في المجلس، فقيل له: ما عليك من حسابهم من شيء أي: لا يلزمك عار بعملهم، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ ثم قال وما من حسابك عليهم من شيء تأكيدا لمطابقة الكلام، وإن كان مستغنى عنه بالأول.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥٤.

ب. الثاني: ما عليك من حساب رزقهم من شيء فتملهم وتطردهم، أي: ليس رزقهم عليك، ولا رزقك عليهم، وإنما يرزقك وإياهم الله الرازق، فدعهم يدنوا منك، ولا تطردهم.

٤. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. لهم بطردهم، عن ابن زيد.

ب. وقيل: فتكون من الضارين لنفسك بالمعصية، عن ابن عباس، قال ابن الأنباري: عظم الأمر في هذا على النبي ﷺ، وخوف الدخول في جملة الظالمين، لأنه كان قد هم بتقديم الرؤساء وأولي الأموال على الضعفاء مقدرا أنه يستجر باسلامهم اسلام قومهم، ومن لف لفهم، كان ﷺ لم يقصد في ذلك إلا قصد الخير، ولم ينو به ازدراء بالفقراء، فأعلمه الله أن ذلك غير جائز.

٥. قراءات ووجوه: قرأ ابن عامر: (بالغدوة والعشي) في كل القرآن بواو، والباقون: (بالغداة) بالألف.. قال أبو علي: الوجه (الغداة) لأنها تستعمل نكرة، وتتعرف باللام، فأما (غدوة) فمعرفة لم تتنكر، وهو علم، صيغ له، قال سيبويه: غدوة وبكرة: جعل كل واحد منهما اسما للجنس، كما جعلوا أم حبين اسما لدابة معروفة، قال وزعم يونس، عن أبي عمرو، وهو القياس أنك إذا قلت لقيته يوما من الأيام غدوة أو بكرة، وأنت تريد المعرفة، لم تنون، وهذا يقوي قراءة من قرأ بالغداة والعشي، ووجه قراءة ابن عامر أن سيبويه قال زعم الخليل أنه يجوز أن تقول أتيتك اليوم غدوة وبكرة، فجعلها بمنزلة ضحوة، ومن حجته أن بعض أسماء الزمان جاء معرفة بغير ألف ولام، نحو ما حكاه أبو زيد من قولهم: لقيته فينة غير مصروف، والفينة بعد الفينة، فألحق لام المعرفة، ما استعمل معرفة، ووجه ذلك أنه يقدر فيه التنكير والشياع، كما يقدر فيه ذلك إذا ثنى، وذلك مستمر في جميع هذا الضرب من المعارف، ومثل ذلك ما حكاه سيبويه من قول العرب: هذا يوم اثنين مباركا، وأتيتك يوم اثنين مباركا، فجاء معرفة بلا ألف ولام، كما جاء بالألف واللام ومن ثم انتصب الحال، ومثل ذلك قولهم: هذا ابن عرس مقبل: إما أن يكون جعل عرسا نكرة، وإن كان علما، وإما أن يكون أخبر عنه بخبرين.

٦. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: جواب للنفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

ب. قوله: ﴿فَتَكُونَ﴾: نصب لأنه جواب للنهي، وهو قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ أي: لا تطردهم فتكون من الظالمين، وقد بينا تقديره الفينة: الحين والساعة في مواضع.

٧. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. روى الثعلبي بإسناده عن عبد الله بن مسعود، قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ، عنده صهيب، وخباب، وبلال، وعمار، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعا لهم؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم تبعناك! فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ إلى آخره.

ب. وقال سلمان وخباب: فينا نزلت هذه الآية، (جاء الأقرع علي بن حابس التميمي، وعيينة بن حصين الفزاري، وذووهم من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ قاعدا مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، في ناس من ضعفاء المؤمنين، فحقروهم، وقالوا: يا رسول الله! لو نحيت هؤلاء عنك، حتى نخلو بك، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن يرونا مع هؤلاء الأعبد، ثم إذا انصرفنا، فإن شئت فأعدهم إلى مجلسك! فأجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، فقالا له: أكتب لنا بهذا على نفسك كتابا، فدعا بصحيفة وأحضر عليا ليكتب، قال ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبرائيل عليه السلام بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فنحى رسول الله ﷺ الصحيفة، وأقبل علينا، ودنونا منه، وهو يقول: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فكنا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عز وجل ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا، ويدنو حتى كادت ركبتنا تمس ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه، حتى يقوم، وقال لنا: (الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات)

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٢.

أ. روى سعد بن أبي وقّاص قال نزلت هذه الآية في ستّة: فيّ، وفي ابن مسعود، وصهيب، وعمّار، والمقداد، وبلال، قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنّا لا نرضى أن نكون أتباعا لهؤلاء، فاطردهم عنك، فدخل على رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل، فنزلت هذه الآية.

ب. وقال خبّاب بن الأرتّ: نزلت فينا، كنّا ضعفاء عند النبيّ ﷺ؛ يعلّمنا بالغداة والعشيّ ما ينفعنا، فجاء الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، فقالا: إنّا من أشراف قومنا، وإنّا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك، قال: (نعم)، فقالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتابا، فأتي بأديم ودواة، ودعا عليّا ليكتب، فلما أراد ذلك، ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، فرمى بالصّحيفة ودعانا، فأتيناه وهو يقول: (سلام عليكم كتب ربّكم على نفسه الرّحمة)، فدنونا منه يومئذ حتى وضعنا ركبنا على ركبته.

ج. وقال ابن مسعود: مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خبّاب، وصهيب، وبلال، وعمّار، فقالوا: يا محمّد، رضيت بهؤلاء، أتريد أن نكون تبعا لهم!؟ فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾

د. وقال عكرمة: جاء عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، ومطعم بن عديّ والحارث بن نوفل، في أشراف بني عبد مناف، إلى أبي طالب فقالوا: لو أنّ ابن أخيك يطرد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم في صدورنا، وأدنى لاتّباعنا إيّاه، فأتاه أبو طالب فحدّثه بذلك، فقال عمر بن الخطّاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون، فنزلت هذه الآيات، فأقبل عمر يعتذر من مقالته.

هـ. وروى أبو صالح عن ابن عباس: أنّ هذه الآيات نزلت في الموالي، منهم بلال، وصهيب، وخبّاب، وعمّار، ومهجع، وسلمان، وعامر بن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة؛ وأنّ قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ نزلت فيهم أيضا.

٢. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في هذا الدّعاء خمسة أقوال:

أ. أحدها: أنه الصلاة المكتوبة، قاله ابن عمر، وابن عباس، وقال مجاهد: هي الصّلوات الخمس؛ وفي رواية عن مجاهد، وقتادة قالا: يعني صلاة الصّبح والعصر، وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشيّ؛ ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك.

ب. الثاني: أنه ذكر الله تعالى، قاله إبراهيم النّخعيّ، وعنه كالقول الأول.

ج. الثالث: أنه عبادة الله، قاله الضّحّاك.

د. الرابع: أنه تعلّم القرآن غدوة وعشيّة، قاله أبو جعفر.

هـ. الخامس: أنه دعاء الله بالتوحيد، والإخلاص له، وعبادته، قاله الزّجّاج.

٣. قرأ الجمهور: (بالغداة)؛ وقرأ ابن عامر ها هنا وفي سورة الكهف أيضا: (بالغدوة) بضم الغين وإسكان الدال وبعدها واو، قال الفرّاء: والعرب لا تدخل الألف واللام على (الغدوة) لأنها معرّفة بغير ألف ولام، ولا تضيفها العرب؛ يقولون: أتيتك غداة الخميس، ولا يقولون: غدوة الخميس، فهذا دليل على أنها معرفة، وقال أبو عليّ: الوجه: الغداة، لأنها تستعمل نكرة، وتتعرّف باللام؛ وأما غدوة، فمعرفة، وقال الخليل: يجوز أن تقول: أتيتك اليوم غدوة وبكرة، فجعلها بمنزلة ضحوة، فهذا وجه قراءة ابن عامر.

٤. سؤال وإشكال: دعاء القوم كان متّصلا بالليل والنهار، فلماذا خصّ الغداة والعشيّ؟ والجواب: أنه نبّه بالغداة على جميع النهار، وبالعشيّ على الليل، لأنه إذا كان عمل النهار خالصا له، كان عمل الليل أصفى.

٥. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ قال الزّجّاج: أي يريدون الله، فشهد الله لهم بصحّة النّيات، وأنهم مخلصون في ذلك.

٦. أما الحساب المذكور في الآية، ففيه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه حساب الأعمال، قاله الحسن.

ب. الثاني: حساب الأرزاق.

ج. الثالث: أنه بمعنى الكفاية، والمعنى: ما عليك من كفايتهم، ولا عليهم كفايتك.

٧. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن الأنباريّ: عظم هذا الأمر على النبيّ ﷺ، وخوّف بالدّخول في جملة الظالمين، لأنه كان قد همّ بتقديم الرّؤساء على الضّعفاء.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وخباب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء عن قومك؟ أفنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ أطردهم عن نفسك، فلعلك إن طردتهم اتبعناك، فقال ﷺ: (ما أنا بطارد المؤمنين) فقالوا فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا أقمنا فأقعدهم معك إن شئت، فقال: (نعم) طمعا في إيمانهم.

ب. روي أن عمر قال له: لو فعلت حتى ننظر إلى ماذا يصيرون، ثم ألحوا وقالوا للرسول ﷺ: اكتب لنا بذلك كتابا فدعا بالصحيفة وبعلي ليكتب فنزلت هذه الآية، فرمى الصحيفة، واعتذر عمر عن مقالته، فقال سلمان وخباب: فينا نزلت، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا وندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام، فنزل قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال: (الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن اصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم المات)

٢. احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه:

أ. الأول: أنه ﷺ طردهم والله تعالى نهاه عن ذلك الطرد، فكان ذلك الطرد ذنبا.. والجواب عنه أنه ﷺ ما طردهم لأجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما عين لجلوسهم وقتا معينا سوى الوقت الذي كان يحضر فيه أكابر قريش فكان غرضه منه التلطف في إدخالهم في الإسلام ولعلّه ﷺ كان يقول هؤلاء الفقراء من المسلمين لا يفوتهم بسبب هذه المعاملة أمر مهم في الدنيا وفي الدين، وهؤلاء الكفار فإنه يفوتهم الدين والإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى فأقصى ما يقال إن هذا الاجتهاد وقع خطأ إلا أن الخطأ في الاجتهاد مغفور.

ب. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد ثبت أنه طردهم، فيلزم أن يقال: إنه كان من الظالمين.. والجواب عنه أن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه، والمعنى أو أولئك

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٤١.

الضعفاء الفقراء كانوا يستحقون التعظيم من الرسول ﷺ فإذا طردهم عن ذلك المجلس كان ذلك ظلما، إلا أنه من باب ترك الأولى والأفضل لا من باب ترك الواجبات، وكذا الجواب عن سائر الوجوه فإنا نحمل كل هذه الوجوه على ترك الأفضل والأكمل والأولى والأحرى.

ج. الثالث: أنه تعالى حكى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [هود: ٢٩] ثم إنه تعالى أمر محمدا عليه السلام بمتابعة الأنبياء عليهم السلام في جميع الأعمال الحسنة، حيث قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فبهذا الطريق وجب على محمد ﷺ أن لا يطردهم، فلما طردهم كان ذلك ذنبا.. والجواب عنه أننا نحمله على ترك الأفضل والأكمل والأولى والأحرى.

د. الرابع: أنه تعالى ذكر هذه الآية في سورة الكهف، فزاد فيها فقال: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] ثم إنه تعالى نهاه عن الالتفات إلى زينة الحياة الدنيا في آية أخرى فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١] فلما نهى عن الالتفات إلى زينة الدنيا، ثم ذكر في تلك الآية أنه يريد زينة الحياة الدنيا كان ذلك ذنبا.. والجواب عنه أننا نحمله على ترك الأفضل والأكمل والأولى والأحرى.

هـ. الخامس: نقل أن أولئك الفقراء كلما دخلوا على رسول الله ﷺ بعد هذه الواقعة فكان عليه السلام يقول (مرحبا بمن عاتبني ربي فيهم) أو لفظ هذا معناه، وذلك يدل أيضا على الذنب.. والجواب عنه أننا نحمله على ترك الأفضل والأكمل والأولى والأحرى.

٣. قراءات ووجوه: قرأ ابن عامر بالغدوة والعشي بالواو وضم الغين وفي سورة الكهف مثله والباقون بالألف وفتح الغين، قال أبو علي الفارسي: الوجه قراءة العامة بالغداة لأنها تستعمل نكرة فأمكن تعريفها بإدخال لام التعريف عليها، فأما (غدوة) فمعرفة وهو علم صيغ له، وإذا كان كذلك، فوجب أن يمتنع إدخال لا م التعريف عليه، كما يمتنع إدخاله على سائر المعارف، وكتبة هذه الكلمة بالواو في المصحف لا تدل على قولهم، ألا ترى أنهم كتبوا (الصلاة) بالواو وهي ألف فكذا هاهنا، قال سيبويه (غدوة وبكرة) جعل كل واحد منهما اسما للجنس كما جعلوا أم حبين اسما لدابة معروفة، قال وزعم يونس عن أبي عمرو أنك إذا قلت لقيته يوما من الأيام غدوة أو بكرة وأنت تريد المعرفة لم تنون، فهذه الأشياء تقوي قراءة العامة، وأما وجه قراءة ابن عامر فهو أن سيبويه قال زعم الخليل أنه يجوز أن يقال أتيتك اليوم غدوة وبكرة

فجعلهما بمنزلة ضحوة.

٤. في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قولان:

أ. الأول: أن المراد من الدعاء الصلاة، يعني يعبدون ربهم بالصلاة المكتوبة، وهي صلاة الصبح وصلاة العصر وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد، وقيل: المراد من الغداة والعشى طرفا النهار، وذكر هذين القسمين تنبيها على كونهم مواظبين على الصلوات الخمس.

ب. الثاني: المراد من الدعاء الذكر قال إبراهيم: الدعاء هاهنا هو الذكر والمعنى يذكرون ربهم طرفي النهار.

٥. سؤال وإشكال: تمسك المجسمة في إثبات الأعضاء لله تعالى بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وسائر الآيات المناسبة له مثل قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، والجواب: أن قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] يقتضي الوحدانية التامة، وذلك ينافي التركيب من الأعضاء والأجزاء، فثبت أنه لا بدّ من التأويل، وهو من وجهين:

أ. الأول: قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ المعنى يريدونه إلا أنهم يذكرون لفظ الوجه للتعظيم، كما يقال هذا وجه الرأي وهذا وجه الدليل.

ب. الثاني: أن من أحب ذاتا أحب أن يرى وجهه، فرؤية الوجه من لوازم المحبة، فلهذا السبب جعل الوجه كناية عن المحبة وطلب الرضا وتمام هذا الكلام تقدم في قوله: ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٥]

٦. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ اختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿حِسَابِهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إلى ماذا يعود:

أ. القول الأول: أنه عائد إلى المشركين، والمعنى ما عليك من حساب المشركين من شيء ولا حسابك على المشركين وإنما الله هو الذي يدبر عبيده كما يشاء وأراد، والغرض من هذا الكلام أن النبي ﷺ يتحمل هذا الاقتراح من هؤلاء الكفار، فلعلّهم يدخلون في الإسلام ويتخلصون من عقاب الكفر، فقال تعالى: لا تكن في قيد أنهم يتقون الكفر أم لا فإن الله تعالى هو الهادي والمدبر.

ب. القول الثاني: أن الضمير عائد إلى الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وهم الفقراء، وذلك

أشبه بالظاهر، والدليل عليه أن الكناية في قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ عائدة لا محالة إلى هؤلاء الفقراء، فوجب أن يكون سائر الكنايات عائدة إليهم.

٧. على هذا التقدير ذكروا في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قولين:

أ. أحدهما: أن الكفار طعنوا في إيمان أولئك الفقراء وقالوا يا محمد إنهم إنما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنهم يجدون بهذا السبب مأكولا وملبوسا عندك، وإلا فهم فارغون عن دينك، فقال الله تعالى إن كان الأمر كما يقولون، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر وإن كان لهم باطن غير مرضي عند الله، فحسابهم عليه لا زم لهم، لا يتعدى إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم، كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، سؤال وإشكال: أما كفى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ حتى ضم إليه قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، والجواب: جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة قصد بهما معنى واحد وهو المعنى في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعا، كأنه قيل لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه.

ب. الثاني: ما عليك من حساب رزقهم من شيء فتملهم وتطردهم، ولا حساب رزقك عليهم، وإنما الرازق لهم ولك هو الله تعالى، فدعهم يكونوا عندك ولا تطردهم.

٨. هذه القصة شبيهة بقصة نوح عليه السلام إذ قال له قومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] فأجابهم نوح عليه السلام و﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢، ١١٣] وعنوا بقولهم ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ الحاكة والمحترفين بالحرف الخسيسة، فكذلك هاهنا.

٩. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي ومعناه، ما عليك من حسابهم من شيء فتطردهم، بمعنى أنه لم يكن عليك حسابهم حتى أنك لأجل ذلك الحساب تطردهم.

١٠. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يجوز أن يكون عطفا على قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ على وجه التسبب لأن كونه ظالما معلول طردهم ومسبب له، وأما قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ففيه قولان:

أ. الأول: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسك بهذا الطرد.

ب. الثاني: أن تكون من الظالمين لهم لأنهم لما استوجبوا مزيد التقريب والترحيب كان طردهم

ظلما لهم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، قال المشركون: ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء ـ يعنون سلمان وصهيبا وبلالا وخبابا ـ فاطردهم عنك، وطلبوا أن يكتب لهم بذلك، فهم النبي ﷺ بذلك، ودعا عليا ليكتب، فقام الفقراء وجلسوا ناحية، فأنزل الله الآية، ولهذا أشار سعد بقوله في الحديث الصحيح: فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، وسيأتي ذكره، وكان النبي ﷺ إنما مال إلى ذلك طمعا في إسلامهم، وإسلام قومهم، ورأى أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئا، ولا ينقص لهم قدرا، فمال إليه فأنزل الله الآية، فنهاه عما هم به من الطرد لا أنه أوقع الطرد، روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا، قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

٢. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾:

أ. قيل: المراد بالدعاء المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن.

ب. وقيل: الذكر وقراءة القرآن.

ج. ويحتمل أن يريد الدعاء في أول النهار وآخره، ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق، ويختموه بالدعاء طلبا للمغفرة.

٣. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾:

أ. أي طاعته، والإخلاص فيها، أي يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره.

ب. وقيل: يريدون الله الموصوف بأن له الوجه كما قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٣١.

[الرحمن] وهو كقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد]

٤. خص الغداة والعشي بالذكر، لأن الشغل غالب فيهما على الناس، ومن كان في وقت الشغل مقبلا على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل.

٥. وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره الله في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف]، فكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون القيام، وقد أخرج هذا المعنى مبينا مكملا ابن ماجه في سننه عن خباب في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب، قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: (نعم) قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بصحيفة ودعا عليا ـ ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الانعام] ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الانعام] قال فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف] ولا تجالس الأشراف ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف] يعني عيينة والأقرع، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف]، أي هلاكا، قال أمر عيينة والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا، قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم، رواه عن أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا عمرو بن محمد العنقزي حدثنا أسباط عن السدي عن أبي سعيد الأزدي وكان قارئ الأزد عن أبي الكنود

عن خباب، وأخرجه أيضا عن سعد قال نزلت هذه الآية فينا ستة، في وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال، قال قالت قريش لرسول الله ﷺ إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهم فاطردهم، قال فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية.

٦. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من جزائهم ولا كفاية أرزاقهم، أي جزاؤهم ورزقهم على الله، وجزاؤك ورزقك على الله لا على غيره، ﴿مِنْ﴾ الأولى: للتبعيض، والثانية: زائدة للتوكيد، وكذا ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ المعنى وإذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، فإن فعلت كنت ظالما، وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيان للأحكام، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل السلام، وهذا مثل قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر] وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله.

٧. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي، ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي، المعنى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، وما من حسابك، عليهم من شي فتطردهم، على التقديم والتأخير، والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه، وقد تقدم في (البقرة) مستوفى، وقد حصل من قوة الآية والحديث النهي عن أن يعظم أحد لجاهه ولثوبه، وعن أن يحتقر أحد لخموله ولرثاثة ثوبيه.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الدعاء: العبادة مطلقا؛ وقيل: المحافظة على صلاة الجماعة؛ وقيل: الذكر وقراءة القرآن؛ وقيل: المراد: الدعاء لله بجلب النفع ودفع الضرر، قيل: والمراد بذكر الغداة والعشيّ: الدوام على ذلك والاستمرار؛ وقيل: هو على ظاهره.

٢. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ في محل نصب على الحال، والمعنى: أنهم مخلصون في عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى: أي يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٧.

٣. ﴿ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا كلام معترض بين النهي وجوابه، متضمن لنفي الحامل على الطرد: أي حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شيء وحسابك على نفسك ما عليهم منه شيء فعلام تطردهم؟ هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله: ﴿ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا﴾ وطعن عندك في دينهم وحسبهم، فكيف وقد زكّاهم الله عزّ وجلّ بالعبادة والإخلاص، وهذا هو مثل قوله تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ وقوله: ﴿وأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ وقوله: ﴿إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾

٤. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهو من تمام الاعتراض: أي إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم، وجالسهم، ولا تطردهم، مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل.

٥. و(من) في ﴿ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ للتبعيض، والثانية: للتوكيد، وكذا في ﴿ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

٦. ﴿فتكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب للنهي، أعني: ﴿ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين، وحاشاه عن وقوع ذلك، وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الإسلام كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وقيل: إن ﴿فَتكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ معطوف على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ على طريق التسبب، والأوّل أولى.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ يعبدونه، أو يطلبونه، كحديث: (الدعاء مخُّ العبادة)، وقيل: الدعاء الصلاة، وقيل: الذِكر، وقيل: قراءة القرآن، ﴿بِالْغَدَاةِ﴾ في الغداة ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ عبَّر بهما عن جميع الأوقات بحسب طاقتهم، وخصَّ اللفظ بالوقتين لشرفهما، ولأنّهما طرفان لكن في النهار، فما قيل عن ابن

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٧١.

عبَّاس من صلاة الفجر وصلاة العصر تمثيلٌ، فقد قيل عنه: الصلوات الخمس، وأصل الغداة: الغَدَوَة ـ بفتح الدال والواو ـ قلبت ألفًا لتحرُّكها بعد فتح.

٢. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ حال من واو (يَدْعُونَ)، وجملة (يَدْعُونَ) علَّة للنهي عن الطرد، لأنَّ الموصول كالمشتقِّ، فهو مؤذن بعِلِّيَّته، وجملة (يُرِيدُونَ) تأكيد لهذه العلِّيَّة، لأنَّ الإخلاص المعنيَّ بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ من أقوى موجبات الإكرام المضادِّ للطرد، ووجه الله: اللهُ، ومعنى إرادته: إخلاص العمل له تعالى، أو وجهه: جهته، أي: الجهة التي يريد أن تسلك، وهي السبيل الذي أمرهم به؛ أو كناية عن المحبَّة والرضا، فإنَّ من أحبَّك أحبَّ أن يَرى ذاتك، أو ذِكرُ الوجه تعظيمٌ.

٣. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. روي أنَّه جاء الأقرع بن حابس وعيينة وعبَّاس بن مرداس ـ قيل ـ ومعهم بعض قريش، فوجدوا النبيء ﷺ جالسًا مع ناس من ضعفاء المؤمنين، كعمَّار بن ياسر وصهيب وبلال وخبَّاب وسلمان، فلمَّا رأوهم حوله حقروهم، وقالوا: يا رسول الله: لو جلست في صدر المجلس وأبعدت عنك هؤلاء ورائحة جُبَبِهم ـ وكانوا في جُبب من صوف لها رائحة كريهة لمداومة لبسها لعدم غيرها ـ لجَلسنا إليك وأخذنا عنك، كرهوهم لذلك، وكرهوا بعضًا لذلك ولكونه مولى كسلمان وبلال وبكر الغنوي أنَّهم كلَّهم موالٍ، فقال النبيء ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين، قالوا: فإنَّا نحبُّ أن تجعل لنا مجلسًا تعرف به العرب فضلنا، فإنَّ وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنَّا، وإذا فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتابًا فأتى بالصحيفة، ودعا عليًّا ليكتب، فنزل جبريل بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ إلخ، فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة، قال عمَّار: ثمَّ دعانا وهو يقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكنَّا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركَنا فأنزل الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٢٨]، فكان يقعد معنا ولا يقوم حتَّى نقوم، وندنو منه حتَّى كادت ركبنا تمسُّ ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتَّى يقوم لئلَّا نثقل عليه، وروي أنَّه نهاه الله أن يطردهم ترضية لقريش، وفيه أنَّ القصَّة في المدينة ولا رأى لهم فيها إلَّا من أخلص الإيمان منهم، وفيه أنَّ الأقرع وعيينة والعبَّاس إنَّما دُعُوا إلى الإسلام وكانوا مؤلَّفة فيها لا في مكَّة، وكذا سلمان أسلم في المدينة، وروي أنَّه لَمَّا قالوا: أقِم عنك هؤلاء الأعبد إذا جئنا، قال عمر : (لو فعلت حتَّى ننظر إلى

ماذا يصير أمرهم)، فدعا بالصحيفة وعليٍّ ليكتب فنزل ذلك.

ب. وروي أنَّه لَمَّا قالوا: أقِم عنك هؤلاء الأعبد إذا جئنا، قال عمر : (لو فعلت حتَّى ننظر إلى ماذا يصير أمرهم)، فدعا بالصحيفة وعليٍّ ليكتب فنزل ذلك.

ج. وروي أنَّ عتبة وشيبة ابني ربيعة، وقُرَضَة بن عمرو بن نوفل، ومطعم بن عدي في أشراف الكفَّار من ابن عبد مناف، أتوا أبا طالب وقالوا: لو طرد ابن أخيك هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له في صدورنا، وأَطوَع له عندنا، وأدنى لاتِّبَاعِنا إيَّاه وتصديقه، فذكر ذلك أبو طالب للنبيء ﷺ، فقال عمر : لو فعلت يا رسول الله حتَّى تنظر ما يكون منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ إلى ﴿بِالشَّاكِرِينَ﴾، وأنزل في أئمَّة الكفر: ﴿وَكَذَالِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ واعتذر عمر من قوله، فنزل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُومِنُونَ بِئَايَاتِنَا﴾

د. والحلفاء: ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقِد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو ومرثد بن أبي مرثد ونحوهم، وزادوا في الطعن على ذلك بأن قالوا: لا إيمان في قلوبهم بل أظهروا الإيمان لتطعمهم وتكسوهم، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ حساب هؤلاء المؤمنين، (مَا) في القرآن أبدًا حجازيَّة، ولو لم تعمل عمل (ليس) لتقدُّم الخبر مثلاً كما هنا.

٤. ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اِكْتَفِ بظاهر حالهم من الإيمان وحسابُ باطنهم على الله لا تحاسَبُ بهم، ولا يحاسَبون بك، بل كلٌّ وعمله واعتقاده، ولعلَّ إيمانهم ونفعهم في الإسلام خير من إيمان هؤلاء ونفعهم لو آمنوا ونفعوا، وما عليك من حساب رزقهم شيء ولا عليهم من حساب رزقك شيء، وما على الأمَّة إلَّا الطَّاعة وما عليك إلَّا التبليغ، ورزق كلِّ أحد على الله، وذلك كما قال قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمُ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]

٥. ويجوز عود الهاءين الأوَّلَين لنحو الأقرع وعيينة، والأخير لنحو عمَّار وصهيب، أي: لا تؤاخَذ بكفرهم ولا تعاقَب، ولا يؤاخَذون بشأنك، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ولا تثاب ثوابها فضلاً عن أن تطرد المؤمنين طمعًا في إيمانهم، وعن ابن عبَّاس : لا تؤاخَذ بحسابهم حتَّى يهمَّك إيمانهم، ويدعوك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين، وعلى كلِّ حال يكون (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ) زيادة فائدة، ومقابلة لما قبله، وكأنَّهما جملة واحدة، (فَتَطْرُدَ) منصوب في جواب نفيهما معًا، وأمَّا (تَكُونَ) فمنصوب في

جواب (لَا تَطْرُد)، أي: لا تطرد الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه فتكونَ من الظالمين، و(مِنْ) الداخلة على (شَيْءٍ) في الموضعين صلة للتأكيد، و(شَيْء) فاعل لـ (عَلَيْكَ) ولـ (عَلَيْهِم) لاعتمادهما على النفي، و(مِنْ حِسَابِكَ) حال من (شيء)، وكذا (مِنْ حِسَابِهِم)، ويجوز جعل (شيء) مبتدأ، و(مِنْ حِسَابِ) حال منه على قول سيبويه بجواز الحال منه، وهذا أرجح في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ﴾ ليَسْلَمَ من القِلَّة في تقديم الحال على عاملها المعنويِّ، وهو (عَلَيْهِمْ) النائب عن (ثبت) أو عن (ثابت) الرافع لمكتفًى به عن خبر المبتدأ، أو خبر (مَا)

٦. وقُدِّم (عَلَيْكَ) و(حِسَابِكَ) لأنَّهُا خطاب له ﷺ؛ وبذلك قَرُبَ من ردِّ العَجُز على الصدر، نحو: (عادات السادات سادات العادات)، وذلك تعظيم له ﷺ، وإلَّا فمقتضى الظاهر: وما عليهم من حسابك من شيءٍ، وقيل: قدَّم (عَلَيْكَ) في الأولى: قصدًا إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ﷺ، إذ هو الداعي إلى تصدِّيه ﷺ لحسابهم.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

وراء ما ذكرنا(٢) روايات لا تصحّ ولا يوثق بها، إذا علمت ذلك تبين أنه ﷺ لم يطردهم بالفعل، وإنما همّ بإبعادهم عن مجلسه آن قدوم أولئك، ليتألفهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان فنهاه الله عن إمضاء ذلك الهمّ، فما أورده الرازيّ من كونه ﷺ طردهم، ثم أخذ يتكلف في الجواب عنه، لمنافاته العصمة على زعمه، فبناء على واه، والقاعدة المقررة أن البحث في الأثر فرع ثبوته، وإلا فالباطل يكفي في رده، كونه باطلا، وقد أوضحت ذلك في كتابي (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث)، والمعنى: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

١. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي يعبدونه ويسألونه، ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال سعيد بن المسيّب وغيره:

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٦٩.

(٢) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

المراد به الصلاة المكتوبة.

٢. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ المراد بالوجه الذات، كما في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ومعنى إرادة الذات الإخلاص لها، والجملة حال من ﴿يُدْعَوْنَ﴾ أي: يدعون ربهم مخلصين له فيه، وتقييده به لتأكيد علّيته للنهي، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام، المضاد للطرد.

٣. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، كقول نوح عليه السلام في الذين قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٣] أي: إنما حسابهم على الله عز وجل، وليس عليّ من حسابهم من شيء كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء.

٤. قال أبو السعود: (الجملة اعتراض وسط بين النهي وجوابه، تقريرا له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوّغا لطردهم من أقاويل الطاعنين في دينهم، كدأب قوم نوح حيث قالوا، ﴿ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: ما عليك شيء من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة، حتى تتصدى له، وتبني على ذلك ما تراه من الأحكام، وإنما وظيفتك، حسبما هو شأن منصب النبوة، اعتبار ظواهر الأعمال، وإجراء الأحكام على موجبها، وأما بواطن الأمر فحسابها على العليم بذات الصدور، كقوله تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ وذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ مع أن الجواب قد تم بما قبله، للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷺ، بنظمه في سلك ما لا شبهة فيه أصلا، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام، عليهم، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وأما ما قيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة جملة واحدة، لتأدية معنى واحد، على نهج قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فغير حقيق بجلالة شأن التنزيل)، والقول المذكور للزمخشري، حيث ذهب إلى أن الجملتين في معنى جملة واحدة، تؤدي مؤدّى ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ الآية، وأنه لا بد منهما.

هذا، وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك، ولا أنت بحسابهم، حتى يهمك إيمانهم، ويحرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين، وأغرب المهايميّ حيث قال: والعماة، لكونهم أرباب شرف ومال، يكرهون مجالستهم، لقلة شرفهم ومالهم، فقال عز وجل لأشرف الناس: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما يعود عليك من نقصهم في الشرف والمال عليهم من شيء فإذا لم يلحقك

نقصهم، ولم يأخذوا كمالك بسلبه عنك، فلا وجه لطردهم)، وفيه بعد، لعدم ملاقاته لآية نوح السالفة، ولا يخفى مراعاة النظائر.

٥. قال الخفاجي في (العناية): قدم خطابه ﷺ في الموضعين، تشريفا له، وإلا كان الظاهر (وما عليهم من حسابك من شيء بتقديم (على) ومجرورها، كما في الأول، وفي النظم رد العجز على الصدر، كما في قوله: عادات السادات، سادات والعادات.

٦. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الظلم: وضع الشيء في غير محله، أي: فلا تهمّ بطردهم عنك، فتضع الشيء في غير موضعه.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. روى أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني وغيرهم، عن عبد الله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل فيهم القرآن ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ وقيل: إلى قوله: ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

ب. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن عكرمة قال: مشى عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وقرظة بن عمرو بن نوفل، والحارث بن عامر بن نوفل في أشراف الكفار من بني عبد مناف إلى أبي طالب، فقالوا له: لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد، فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا ـ كان له أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه، فذكر ذلك أبو طالب للنبي ﷺ فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون إليه من أمرهم، فأنزل الله ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ قال: وكانوا بلالا، وعمار بن ياسر، وسالما

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٦٣

مولى أبي حذيفة، وصبيحا مولى أسيد، ومن الحلفاء: ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين، ومرثد بن أبي مرثد، وأشباههم، ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا﴾ الآية، فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الآية، هذا أقوى ما أورد السيوطي في الدر المنثور، واختصر الروايتين في لباب النقول، ولا ينافي هذا نزول السورة دفعة واحدة، وكون هذه الآيات ليست مما استثناه بعضهم وبيناه في الكلام عليها قبل الشروع في تفسيرها؛ لأن قولهم إن كذا نزل في كذا يصدق بنزوله وحده وبنزوله في ضمن سورة كاملة أو سياق من سورة، لكن ظاهر ما زاده عكرمة من نزول ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ في عمر يدل على أن نزولها كان بعد اعتذاره، وأن اعتذاره كان بعد نزول ما قبلها، ويعارض هذا الظاهر ما ورد في نزولها دفعة واحدة، وكون هذه الآية ليست مما استثني، وهو أثبت من هذه الرواية، وما ورد في سبب نزول الآية أيضا وسيأتي قريبا، وحينئذ يقال: إما أن الزيادة غير مقبولة، وإما أن ظاهر العبارة غير مراد، وإنما لم نرد الرواية من أصلها مع أن في سندها من المقال ما فيه؛ لأن نزول الآيات الأولى في ضعفاء الصحابة هو الواقع الذي لا مندوحة عنه، والروايات فيه مبنية للواقع، يؤيد فيه بعضها بعضا، فلا يضر في مثله ضعف الراوي ببدعة أو بتدليس أو تحديث بعد اختلاط أو نحو ذلك من العلل التي في رجال هذه الرواية.

٢. أما كون هذا هو الواقع فمعلوم من السيرة النبوية ومن سنة الله تعالى في خلقه المبينة في آيات كثيرة من كتابه، وهو أن أول أتباع خاتم الرسل ﷺ كأتباع من تقدمه من إخوانه الرسل صلى الله عليهم وسلم أكثرهم من الضعفاء الفقراء، وأن أعداءه كأعدائهم هم المترفون من الأكابر والرؤساء، وأن هؤلاء الأعداء المستكبرين عن الإيمان كانوا يحتقرون السابقين إلى الإيمان ويذمونهم ويعدون أنفسهم معذورين أو محقين بعدم رضائهم لأنفسهم بمساواتهم، وتارة يقترحون على الرسل طردهم وإبعادهم، قال الله تعالى في (سورة سبأ): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وقال تعالى في (سورة هود) حاكيا قول الملأ، أي الأشراف من قوم نوح عليه السلام له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ وقوله لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقد حكى الله عن كفار قريش أنهم قالوا في

هؤلاء الضعفاء السابقين إلى الإسلام: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وقال في شأنهم من (سورة مريم): ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾.

٣. ومعنى الآية هنا: ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، أي في النهار وآخره أو في عامة الأوقات؛ لأنه يكنى بطرفي الشيء عن جملته، يقال: يفعل كذا صباحا ومساءا إذا كان مداوما عليه، وإذا أريد بالغدو والعشي حقيقتها فيحتمل أن يراد بالدعاء الصلاة؛ لأنها كانت في أول الإسلام صلاتين: إحداهما في الصباح والأخرى في المساء، وروي عن مجاهد أن المراد صلاتا الصبح والعصر؛ وإلا فالدعاء يشمل الدعاء الحقيقي والصلاة والقرآن المشتملين عليه، والغداة والغدوة كالبكرة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والعشي آخر النهار، وقيل: من المغرب إلى العشاء، وقيل: من بعد الزوال، وقرأ ابن عامر (بالغدوة) بضم الغين وفتح الواو، ويساعده رسم المصحف؛ لأن الكلمة فيه بالواو كالصلاة والزكاة، والباقون بالغداة بفتح الغين، وقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها حسب القاعدة، واستعملت (غدوة) بالضم ـ بالتنوين وبغير التنوين كبكرة، ومعرفة بالألف واللام كما نقل سيبويه عن الخليل، فإذا نونت قصد بها صباح يوم غير معين، وإذا لم تنون قصد بها صباح معين، ولعل الأكثر في استعمالها أن تكون بغير الألف واللام، وقد ظن أبو عبيد أن هذا مطرد، ولم يعلم أن قراءة ابن عامر رواية متواترة يثبت بها تعريف الغدوة في أصح الكلام، بل ظن أنها خطأ جاء من جهة الرسم فخطأ من قرأ بذلك، وحسبك في تخطئته هو أن القراءة متواترة، وإن لم ينقل الخليل وكذا المبرد تعريفها عن العرب، والمشهور أن منع صرف (غدوة وبكرة) للعلمية الجنسية، وقيل للعلمية الشخصية.

٤. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ حال من ضمير (يدعون)، أي: يدعون ربهم بالغداة والعشي مريدين بهذا الدعاء وجهه سبحانه وتعالى، مبتغين مرضاته، أي يتوجهون به إليه وحده مخلصين له الدين، فلا يشركون معه أحدا، ولا يرجون من غيره عليه ثوابا، ولا يتوقعون به من أحد مدحا ولا نفعا، فهذا التعبير يدل على الإخلاص لله تعالى في العمل وابتغاء مرضاته به وحده وعدم الرياء فيه، كما قال تعالى حكاية عن المطعمين الطعام على حبه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ وكما قال في الأتقى الذي ينفق ماله ليتزكى به عند الله تعالى ويكون مقبولا مرضيا لديه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ

وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ولعل أصل ابتغاء الوجه بالعمل هو أن يعمل ليواجه به من عمل لأجله، فيعتني بإتقانه ما لا يعتني بإتقان ما يعمل ليرسل إلى من عمل له، أو لأنه مطلوب في الجملة من غير أن يلاحظ العامل أن من يعمل له يراه، فضلا عن كونه هو الذي يعرضه بنفسه على من يريد التقرب إليه به، وذلك أن الأعمال التي تعمل للملوك والأمراء منها ما لا يرونه البتة كأن يكون لما لا يطلعون عليه من أعمال الخدمة في قصورهم، ومنها ما يرونه رؤية إجمالية مع كثير من أمثاله، وما يرونه منها يعرضه عليهم عمالهم وحجابهم، ومنها ما قد يعرضه العامل بنفسه ويقابل وجه الملك به، ولا شك أن هذا النوع من العمل هو الذي يعتنى به أكمل الاعتناء، ولا يفكر العامل له في وقعه عند الحجاب أو الوزراء أو غيرهم من بطانة الملك أو حاشيته؛ لعلمه بأنه هو الذي سيعرضه عليه ويلقاه به، فيكون همه محصورا في جعله مرضيا عنده، جديرا بقبوله وحسن الجزاء عليه.

٥. لا يغرنك ما تخيله بعض الصوفية من جعل ابتغاء الله تعالى منافيا لابتغاء مرضاته أو ابتغاء وجهه، فالحق أن لا منافاة، وأن الكمال في الجمع بين الأمرين، وأن العمل لأجل الذات التي يفسرون بها الوجه مع عدم قصد الرضاء ولا الثواب من النظريات التي لا يسهل إثبات إمكانها ولا مشروعيتها، ولا ينكر ما يعرض لبعض الناس من الأحوال النفسية التي ينحصر تخيلهم فيها، حتى يظنوا أنها حقيقة ثابتة في نفسها، وصاحب تلك الحال لا يعرف حقيقة الذات، ولا يعقل معنى كون العمل لها، نعم إن من الواقع الذي لا ينكر أن يقصد العامل بعمله النجاة من عقاب النار أو الفوز بنعيم الجنة، وإن هذا حسن ومحمود شرعا، ولكنه دون مرتبة الكمال الذي هدى إليه القرآن، وهو أن يقصد المؤمن بالعمل الصالح تزكية نفسه وتكميلها؛ لتكون أهلا للقاء الله، ومحلا لمرضاته وثوابه في دار كرامته، وأعلى الثواب رضوان الله تعالى، وكمال العرفان والعلم به المعبر عنه في الأحاديث الشريفة برؤية وجهه الكريم، بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل.

٦. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾:

أ. أي ما عليك شيء ما من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، لا على دعائهم ولا على غيره من أعمالهم الدينية ـ كما تدل على ذلك صلة الموصول ـ وإلا فظاهر تأكيد النفي عمومه، كما أنه ليس عليهم شيء ما من أمر حسابك على أعمالك حتى يمكن أن يترتب على هذا أو ذاك طردك إياهم

بإساءتهم في عملهم أو محاسبتك على عملك، فإن الطرد جزاء، وإنما يكون على عمل سيئ يستوجبه، ولا يثبت إلا بحساب، والمؤمنون ليسوا عبيدا للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم، بل هي لله تعالى يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل، وحسابهم عليه تعالى لا عليهم، وإنما الرسل هداة معلمون، لا أرباب ولا مسيطرون ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾، وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية فليس للناس عليهم هذا الحق بالأولى، والمأثور عن النصارى أن المسيح عليه السلام كان يسمى معلما، وأن أتباعه في عهده كانوا يسمون تلاميذ، وأما أتباع نبينا ﷺ فقد اختار لهم كلمة الأصحاب الدالة على المساواة تواضعا، على أن من أصول شريعته الكاملة أنه ﷺ مساو في أحكامها لسائر المؤمنين فيما يجب ويندب ويحل ويحرم ويباح ويكره إلا ما خصه الله تعالى به من الأحكام، ولم تكن تلك الأحكام الخاصة من قبيل ما يعهد الناس من امتياز الملوك على الرعايا من أمور الأبهة والزينة والعظمة الدنيوية والنعيم، بل هي أحكام شاقة لا يقوى على القيام بها غيره ﷺ كوجوب قيام الليل عليه، وكون ما يتركه صدقة للأمة لا إرثا لذريته، وكفالته عدة أزواج من الأرامل أكثرهن مسنات يساوي بينهن وبين عائشة الجميلة الصورة البارعة الذكاء في كل ما يملك من نفسه وذات يده (وحكمة تعددهن قد فصلناها في تفسير آية تعدد الزوجات من أول (سورة النساء)

ب. وقيل: إن المراد هنا الحساب على الرزق إذ زعم المشركون أن أولئك الضعفاء ما آمنوا به ﷺ إلا لأنهم يجدون عنده رزقا، وأنهم ليسوا بصادقين في إيمانهم فكأن الله تعالى يقول له ليس عليك من حساب رزقهم ولا عليهم من حساب رزقك شيء وإنما يرزقكم الله جميعا، وحمل الآية على هذا ضعيف، وإن نقل عن ابن زيد، والأول منقول عن عطاء، وعليه الجمهور، وإذا صح أن كبراء المشركين طعنوا في إيمان ضعفاء المسلمين فالأقرب أنهم قصدوا بذلك الكيد؛ للتفرقة بينهم وبين الرسول ﷺ وصد سائر الضعفاء عنه بأن عاقبتهم الطرد والإبعاد، كما يصدون الأقوياء والكبراء بإثارة الحمية والكبرياء، فإن كان فيهم من أساء الظن ببعض أولئك السابقين الكرام لاحتقارهم إياهم، فإنما كان في أول العهد بإسلامهم، قبل أن كان ما كان من فتنتهم، فقد فتنوهم بأنواع من العذاب ليرجعوا إلى الشرك كالجوع والحبس، والضرب، بل كانوا يكوون بعضهم بالنار كما فعلوا بآل ياسر، أو بوضعهم عراة الأبدان على الرمل المحمى بهجير الصيف كما فعلوا ببلال.

٧. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب للنهي عن الطرد، وأما قوله قبله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فهو جواب لنفي الحساب تنتهي به الجملة الاعتراضية المعللة لعدم جواز الطرد ببناء نفيه على نفي سببه الذي يتوقف جوازه عليه، وجوز الزمخشري وغيره عطف الثاني على الأول، وأورد عليه إيرادات أجيب عنها بسهولة، وجوز بعضهم كون الأول جواب النهي والثاني معطوفا عليه، وأوردوا عليه ما لا يجاب عنه إلا بتكلف، والمعنى على الأول ـ وهو الصحيح ـ لا تطرد هؤلاء فتكون بطردك إياهم من جنس الظالمين ومعدودا في زمرتهم؛ لأن طردهم لا يكون حقا وعدلا إلا إذا كان جزاء على إساءتهم في الأعمال التي يعملونها لمن له حق حسابهم قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين وجزائهم عليها، ولست أنت بصاحب هذا الحق حتى يتأتى أن تجري فيه على صراط العدل، ذلك بأن عملهم هو عبادة الله تعالى وحده يريدون بها وجهه، فحسابهم وجزاؤهم عليه وحده، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ فوجه الكون من الظالمين أن الطرد لو حصل يكون حكما غير جائز ممن لا يملك الحكم لذاته ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ والله لم يفوض إليه هذا النوع منه، ثم إنه جائز في موضوعه، مع كونه غير جائز في صورته وشكله؛ إذ هو ظلم للمحكوم عليهم؛ لأنهم أولى الناس بقربه ﷺ والاستفادة منه، وظلم لنفس الحاكم ـ وحاشا أن يقع منه ـ لأنه ينافي مصلحة الدعوة، فلما كان ظلما من الجهات الثلاث قال: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل: فتظلمهم، أو: فتكون ظالما، أو: فيكونوا من المظلومين.

٨. والآية متممة لبيان وظائف الرسول من الجهة السلبية؛ إذ صرح فيها بأنه ﷺ لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم بعد أن صرح بأنه لا يملك التصرف في الكون، ولا يعلم الغيب، وبأنه ليس ملكا، وليس الغرض منها التشديد في تنفير النبي ﷺ عن طرد المؤمنين؛ لأنه كان رضي بذلك كما زعم بعض المفسرين، وحاشاه ﷺ أن يرضى بذلك أو يميل إليه بعد أن عاتبه ربه على الإعراض والتلهي عن الأعمى (عبد الله بن أم مكتوم) لما جاءه يطلب العلم والهدى منه وهو ﷺ متصد لدعوة بعض كبراء قريش، طامع في هدايتهم، وخاف أن يفوته ذلك بإقباله على ذلك الأعمى الفقير، كما هو مبين في أول سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ والمروي أنها نزلت قبل (سورة الأنعام)، وقد اغتر من زعم ذلك برواية منكرة باطلة، وهي ما رواه ابن أبي شيبة، وابن ماجه، وابن جرير، وأبو الشيخ، والبيهقي في الدلائل، وغيرهم، عن خباب قال:

جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري فوجد رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا؛ فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإن نحن جئنا فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: (نعم) قالوا: اكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بصحيفة، ودعا عليا ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، فرمى رسول الله ﷺ الصحيفة ثم دعانا فأتيناه، قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده لسنده عند ابن أبي حاتم: ورواه ابن جرير من حديث أسباط به، وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر) اهـ، وأقول: إن هذه الرواية باطلة من وجوه؛ منها ما ذكره الحافظ ابن كثير من تأخر إسلام الأقرع وعيينة، وظاهر ما في الإصابة أن الأقرع بن حابس أسلم قبيل فتح مكة، وصرح الحافظ الذهبي بأنه أسلم بعد الفتح، ويؤيده ما في السير، وأما عيينة فقد أسلم سنة خمس، ولم يعرف الرجلان النبي ﷺ قبل إسلامهما، ولم يكونا من أشراف مكة، بل كانا من جفاة الأعراب، ولما أسلما كانا من صنف المؤلفة قلوبهم، ومنها أنهما ذكرا قدوم الوفود على النبي ﷺ ولم يكن ذلك في مكة، بل كان الناس فيها يصدون عنه صدودا، وإنما كان في أواخر عمره ﷺ بعد الهجرة، ومنها ما تقدم آنفا من عدم جواز إجابته ﷺ مثل هذا الطلب، ولو مع القصد الحسن بعد قوله تعالى له: ﴿كَلَّا﴾ في (سورة عبس)

٩. سؤال وإشكال: استشكل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بناء على أن تعليل نفي ملك النبي ﷺ لطردهم يتم بنفي كونه يملك شيئا من حسابهم، وأن هذه الزيادة وإن كانت حقا لا يظهر لها دخل في التعليل، والجواب:

أ. على طريقتنا بأن طرد القوي للضعيف أو الكبير للصغير قد يترتب على محاسبة كل منهما للآخر، فكم من قوي حاسب ضعيفا على عمل وجازاه عليه بالطرد، وكم من ضعيف حاسب قويا على حقه وطالبه به، أو على حق من حقوق أمته فطرده القوي لمناقشته إياه الحساب، فلما بين هاهنا أنه لا حق لأحد الفريقين في حساب الآخر على شيء ما، علم أن القوي منهما لا حق له في طرد الضعيف بحال من الأحوال، فإذا لا يكون طرده إياه ـ إن وقع ـ إلا ظلما، وعلى تقدير التسليم يقال: إنه لا يستنكر في الكلام المراد به

الهداية والإرشاد أن يزاد فيه من الفوائد الاستطرادية ما يناسب المقام، فلما بين تعالى للرسول أنه لم يجعل من حقه على المؤمنين أن يحاسبهم على أعمالهم الدينية ويجازيهم عليها؛ لأن هذا من حق ربهم وإلههم، لا من حق رسولهم ـ بين له أيضا أنه لم يجعل من حق المؤمنين على الرسول أن يحاسبوه على شيء من أعماله الخاصة به ولا العامة كتبليغ الدين وبيانه، ولو شاء لفعل، كما جعل حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لبعض المؤمنين على بعض، سواء في ذلك أئمتهم ورعيتهم، فالإمام (السلطان) راع، وهو مسئول عن رعيته، لأهل الحل والعقد من الأمة أن يحاسبوه كما يحاسب هو من دونه من العمال، وليس لأحد من الناس أن يحاسب الرسول على سياسته أو تبليغه دعوة ربه، ولكن للرسول أن يحاسب الناس على معاملة بعضهم لبعض عندما يكونون أمة مقيدة في أعمالها الدينية بشريعة ذلك الرسول، ولما نزلت سورة الأنعام لم يكن المسلمون كذلك، والظاهر أن عموم النفي فيها قد خصص بعد الهجرة عند من فهم منه العموم، وعندنا أن المراد منه في الأصل خصوص العبادة والإخلاص فيها، وهو محكم باق على عمومه.

ب. وقال الزمخشري في نكتة ضم الجملة الثانية إلى الأولى: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعا، كأنه قيل: لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه) اهـ، أي لا يؤاخذ أحد منكما بحساب الآخر.

ج. وقال أبو السعود وذكر قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ مع أن الجواب قد تم بما قبله للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷺ بنظمه في سلك ما لا شبهة فيه أصلا، وهو انتقاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريق قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾)، ثم زعم أن ما قاله الزمخشري غير حقيق بجلالة شأن التنزيل، وتبعه الألوسي كعادته ولم يعز الكلام إليه هنا، ولعل المتأمل يرى أن ما قلناه هو الحقيقي بجلال شأن التنزيل؛ لأنه ـ على كونه هو المتبادر من الكلام ـ مبني على التأسيس، وبقائه محكما لم يطرأ عليه نسخ ولا تخصيص، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

د. قال الألوسي: وتقديم خطابه ﷺ في الموضعين قيل: للتشريف له ـ عليه أشرف الصلاة وأفضل السلام ـ وإلا كان الظاهر: وما عليهم من حسابك من شيء، بتقديم على ومجرورها كما في الأول، وقيل: إن تقديم عليك في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ﷺ إذ هو الداعي إلى

تصديه ﷺ لحسابهم) اهـ، والصواب أن التقديم في الموضوعين جاء على الأصل العام في اللغة، وهو تقديم الأهم بحسب سياق الكلام، والأهم في الأول النفي، وفي الثاني المنفي، أعني الأهم في كل موضع ما يتعلق به ﷺ، لأنه تعليل لانتفاء عمل له (وهو الطرد) مترتب على ذلك النفي، ولو كان الثاني تعليلا لعمل لهم لقال: وما عليهم من حسابك من شيء فيطردوك، وما شرحناه في تفسير الجملتين يغني عن التفصيل في بيان هذا المعنى.

١٠. والآية تدل على نفي الرياسة الدينية المعهودة في الملل الأخرى، وهي سيطرة رؤساء الدين على أهل دينهم في عقائدهم وعباداتهم ومحاسبتهم عليها، وعقاب من يرون عقابه منهم حتى بالطرد من الدين والحرمان من حقوقه، ويجب في بعض تلك الملل أن يعترف كل مكلف من ذكر وأنثى للرئيس الديني بأعماله النفسية والبدنية، وللرئيس أن يغفر له ما يعترف به من المعاصي، ويعتقدون أن مغفرة الله تعالى تتبع مغفرته، وإذا كان الله تعالى لم يجعل للرسول الذي أوجب طاعته حق محاسبة الناس على أعمالهم الدينية ونيتهم فيها، ولا حق طردهم من حضرته ـ دع حق طردهم من الدين ـ فكيف يمكن أن يكون لمن دونه من الأمراء أو القضاء أو غيرهم من الرؤساء مثل هذا الحق!؟

١١. ويستنبط من الآية ألا يجوز لرؤساء المدارس الدينية ولا ينبغي لغيرهم ـ عقاب أحد من طلاب العلم بالحرمان من بعض الدروس فضلا عن طرده من المدرسة، وحرمانه من تلقي الدين والعلم ألبتة، ولكن قد يجوز ذلك بمقتضى نظام لا لأجل الانتقام، وقد كان من هدي الرسول ﷺ تأليف قلوب ضعفاء الإيمان حتى بعد قوة الإسلام وإعزازه، بل كان يعامل المنافقين بما يقتضيه ظاهر إسلامهم، عملا بقاعدة بناء الأحكام على الظواهر، وأن الله هو الذي يتولى السرائر فأين هذا من طرد كملة المؤمنين السابقين الأولين، الذين لم يكن لهم حظ دنيوي من إسلامهم إلا الصبر والبلاء المبين؟

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. نهى الله تعالى رسوله أن يطيع المترفين من كفار قريش في شأن المؤمنين المستضعفين فقال: ﴿وَلَا

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٣٤.

تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحّدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أي أول النهار وآخره، أو المراد عامة الأوقات إذ يقال هو يفعل كذا صباحا ومساء: إذا كان مداوما عليه، والدعاء إما الصلاة، وقد كان في أول الإسلام صلاتان إحداهما في الصباح والأخرى في المساء، وإما الأعم الشامل للدعاء الحقيقي والصلاة والقرآن المشتملين عليه.

٢. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: أي يدعون ربهم في هذين الوقتين مريدين بهذا الدعاء ابتغاء مرضاته تعالى: أي يتوجهون إليه وحده مخلصين له الدين، فلا يشركون معه أحدا ولا يرجون من غيره على الدعاء ثوابا، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾

٣. والعبرة من هذا أن أول أتباعه كانوا كأتباع من تقدمه من الرسل صلوات الله عليهم من الضعفاء والفقراء، وأن أعداءه هم المترفون من الرؤساء والسادة كأعدائهم وأنهم كانوا يحتقرون السابقين إلى الإيمان ويذمونهم ويعدون أنفسهم معذورين بعدم رضاهم بمساواتهم؛ بل قد اقترحوا على الرسل طردهم وإبعادهم كما في هذه الآية وكما في قوله في سورة هود حاكيا قول الأشراف من قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، وقوله لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾

٤. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ أي ما عليك شيء من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى، كما أنه ليس عليهم شيء من أمر حسابك على أعمالك، حتى يكون هذا أو ذاك سببا في طردك إياهم بإساءتهم في عملهم أو في محاسبتك على عملك، فإن الطرد جزاء والجزاء إنما يكون على سيئ الأعمال ولا يثبت ذلك إلا بالحساب، والمؤمنون ليسوا بعبيد للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم، بل هي لله يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل، وحسابهم عليه تعالى لا عليهم، والرسل هداة مرشدون، لا أرباب مسيطرون: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية، فأجدر بالناس ألا يكون لهم هذا الحق على أنبيائهم.

٥. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تطرد هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى فتكون بطردك

إياهم في زمرة الظالمين معدودا من جنسهم، لأن الطرد لا يكون حقا إلا على الإساءة في الأعمال التي يعملونها لمن له حق حسابهم وجزائهم عليها، ولست أنت بصاحب هذا الحق حتى تجرى فيه على صراط العدل، فإن عملهم هو عبادة الله وحده، فحسابهم وجزاؤهم عليه كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾

٦. والخلاصة ـ إن هذه الآية الكريمة أفادت:

أ. أن الرسول لا يملك التصرف في الكون.

ب. أنه لا يعلم الغيب.

ج. أنه ليس بملك.

د. أنه لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله؛ فاتجهوا لعبادته ودعائه في الصباح والمساء؛ يريدون وجهه سبحانه! ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه.. وهي صورة للتجرد، والحب، والأدب.. فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء، وهو لا يبغي وجه الله، إلا إذا تجرد، وهو لا يبغي وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب، وهو لا يفرد الله سبحانه بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب، وصار ربانيا يعيش لله وبالله..

٢. ولقد كان أصل القصة أن جماعة من (أشراف) العرب، أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام؛ لأن محمدا ﷺ يؤوي إليه الفقراء الضعاف، من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب وسلمان وابن مسعود.. ومن إليهم.. وعليهم جباب تفوح منها رائحة العرق لفقرهم؛ ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش في مجلس واحد! فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول الله ﷺ أن يطردهم عنه.. فأبى..

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٠٠.

فاقترحوا أن يخصص لهم مجلسا ويخصص للأشراف مجلسا آخر، لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف، كي يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم في المجتمع الجاهلي! فهمّ ﷺ رغبة في إسلامهم أن يستجيب لهم في هذه، فجاءه أمر ربه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

٣. روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص، قال كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا! قال وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما.. فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

٤. ولقد تقوّل أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف، الذين يخصهم رسول الله ﷺ بمجلسه وبعنايته؛ وطعنوا فيهم وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم في مجلس رسول الله ﷺ من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام.. فقضى الله سبحانه في هذه الدعوى بقضائه الفصل؛ ورد دعواهم من أساسها ودحضها دحضا: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

٥. فإن حسابهم على أنفسهم، وحسابك على نفسك، وكونهم فقراء مقدر عليهم في الرزق هذا حسابهم عند الله، لا شأن لك به، كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به، ولا دخل لهذه القيم في قضية الإيمان والمنزلة فيه، فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله، ولا تقوّم بقيمة.. فكنت من الظالمين.. وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون من الظالمين! وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب في مجلس رسول الله ﷺ وبقي ضعاف الجاه الأقوياء بالله في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم؛ والذي يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه، واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذي قرره الله..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٩٢.

١. سؤال وإشكال: هنا سؤال: هل طرد النبيّ من يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه؟ أو هل همّ بطردهم؟ وإلا فما معنى هذا النهى من الله تعالى للنبيّ الكريم؟ والجواب: أن النبيّ ﷺ لم يكن منه طرد لجماعة مؤمنة تدعو ربها بالغداة والعشى، بل ولم يكن منه همّ بهذا الأمر.. وكيف يساغ هذا؟ ورسالته ﷺ قائمة على دعوة النّاس أن يدعو ربهم بالغداة والعشى؟ فكيف يدعو إلى أمر، ثم يقف هذا الموقف ممن يأتون هذا الأمر؟

٢. سؤال وإشكال: إذن فما معنى هذا النهى الموجه من الله سبحانه إلى النبي الكريم؟ والجواب: الواقع أن هذا النهى، وإن كان في ظاهره موجها إلى النبي ﷺ - هو ردّ على المشركين من زعماء قريش، الذين كانوا يأخذون على النبيّ أنه لا يألف إلا هؤلاء الفقراء المستضعفين، ولا يألفه إلا هؤلاء.. وأن مجلسا يضم مثل تلك الجماعة في فقرها، وضعفها، ليأنف زعماء قريش أن يكون لهم مكان فيه.. ولهذا جاء النهى إلى النبيّ الكريم، ليقرع أسماع المشركين، وليريهم أن محمدا لن يتخلى أبدا عن هؤلاء الفقراء الذين تزدرى أعينهم، وأنه إذا كان ألف صحبة هؤلاء الفقراء وأنس بهم قبل أن يتلقى أمر ربه بشأنهم - فإنه الآن وقد جاءه من ربّه هذا النهى الذي يلبس صورة الأمر بالحفاظ على تلك الجماعة الفقيرة المؤمنة، وملء يده منها، وإعطائها وجهه كله - إنه لن يتخلّى أبدا عن تلك الجماعة، ولو وقعت السماء على الأرض.. إنه لن يعصى أمر ربّه، ولن يخرج عنه بحال أبدا.. هذا ما تعرفه قريش فيما عرفت من محمد، وأخذه بكل كلمة جاءته من ربه، أو يقول أنها جاءته من ربه، كما تزعم قريش، إذن، فهذا النهى هو كبت لقريش، ولزعمائها خاصة، واستخفاف بهم، وأنهم أقلّ شأنا، وأخفّ ميزانا عند الله الذي يدعوهم محمد إليه، وأن حساب النّاس في هذا الدين الذي يدعو إليه، ليس بجاههم وسلطانهم، وأنسابهم، وأحسابهم، وإنما هو مائدة ممدودة من الله لعباد الله، فمن أخذ مكانه منها، لم يكن لأحد أن يزحزحه عنه.. إنه في ساحة الله، وعلى مائدة الله.. وعلى ما تطول يد الإنسان من هذه المائدة يكون حظه من الخير، ومكانه من الله..

٣. في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بيان كاشف لحساب الناس عند الله، وأنهم عنده بأعمالهم، لا بأحسابهم وأموالهم.. وهذا هو النبيّ الكريم، حامل رسالة السماء، ومبعوث ربّ العالمين، هو والناس عند الله في ميزان العمل على سواء.. كلّ مجزىّ بعمله، من إحسان أو إساءة..

٤. فهؤلاء الفقراء المستضعفون الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ، يرجون رحمته، ويخشون عذابه ـ إنما يعملون لأنفسهم، كلّ يطلب لها السلامة والنجاة، فكيف يطردهم النبيّ ـ كما تتوهم قريش ـ من هذا الميدان الذي اختاروا العمل فيه، طالبين النجاة من عذاب الله، والفوز برضوانه؟ إن النبيّ لا يحمل عنهم ما يكون منهم من تقصير في جانب الله، إذا هم طردوا من هذا المورد العذب الذي يتزودون منه في طريقهم إلى الله.. فكيف يطردهم؟ أيحمل عنهم وزرهم يوم القيامة؟ إنهم محاسبون على أعمالهم، وإنهم لمجزيّون عنها.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي إن النبيّ لن يضارّ بما يحملون من سيئات، إذ أن كلّ نفس تحمل ما كسبت.. والله سبحانه يقول: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨]

٥. ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي إنك لن تحمّلهم شيئا من حسابك.. وإذن، فدع هؤلاء يعملون لأنفسهم، كما تعمل أنت لنفسك، وإنه لمن الظلم أن يرفع أحد يدهم عن العمل الذي يريدون به وجه الله، وحسن المآب إليه..

٦. ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ حكما قاطعا بالظلم على من يتصدّى لمن يؤمن بالله، ويشغل قلبه ولسانه وجوارحه بذكره.

٧. ولا شك أن المشركين من زعماء قريش إذ يرون هذا الحساب الذي بين النبيّ ـ صاحب الرسالة ـ وبين أضعف الناس شأنا، وأنزلهم منزلة في نظرهم ـ إنهم إذ يرون هذا الحساب، يجدون أنه قائم على العدل والإحسان، وأن الناس عند الله ـ حتى الأنبياء ـ بأعمالهم، وليس بما لهم من رياسات دينية أو مادية.. إنهم ليرون ذلك لو عقلوا.. وقد عقل كثير منهم، وأسرع إلى الإسلام، يأخذ لنفسه مكانا مع السابقين الأولين إليه.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٥.

وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، الغداة والعشي كناية عن مداومة ذكرهم لله وعبادتهم له، كما تقول: الحمد لله بكرة وأصيلا.

٢. ووجه الله كناية عن الله، لأنه تعالى ليس كمثله شيء وضمير حسابهم وعليهم وتطردهم يعود إلى المؤمنين الذين يدعون ربهم، ومعنى ما عليك من حسابهم أن حسابهم وحساب غيرهم لا يدخل في موضوع النبوة، ولا هو من شئونها، وانما حسابهم على الله وحده، تماما كحسابك أنت يا محمد، لا فرق بينك وبينهم من هذه الحيثية.

٣. ان المسلم يؤمن إيمانا قاطعا بأن محمدا ﷺ أشرف الخلق على الإطلاق، وفي الوقت نفسه يؤمن بأن عظمة محمد لا تخول له أن يحاسب أحدا، أو يعاقبه أو يثيبه، أن الحساب والجزاء لله ومن الله وحده لا شريك له، وبهذه الفضيلة امتاز الإسلام عن جميع الأديان، بنفي السبيل للإنسان على إنسان كائنا من كان وبها نعتز نحن المسلمين ونفاخر الاشتراكيين والشيوعيين والقوميين والديمقراطيين، وجميع أهل الأديان والمذاهب.

٤. وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن المترفين من قريش مروا برسول الله ﷺ، وعنده عمار بن ياسر وخباب وبلال وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ ألهؤلاء نكون تبعا، فنحّهم عنك، حتى نخلوا بك، ثم إذا انصرفنا فأعدهم إلى مجلسك أن شئت.. وقيل أن النبي ﷺ أراد أن يجيبهم إلى ما طلبوا فنزلت الآية، وظاهر اللفظ لا يأبى ذلك، بخاصة قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لهم حيث أنهم أولى بمجلسك والاستفادة منك، وبتعبير ثان أن النبي أراد أن يقرب الأغنياء ليستفيدوا منه، فقال له الجليل: الفقراء أولى بالاستفادة، فإن تركت هذا الأولى: ظلمت الفقراء المؤمنين من حيث الاستفادة.

٥. سؤال وإشكال: ألا يتنافى ترك الأولى والأرجح مع العصمة؟ والجواب: أن ترك الأولى: جائز، وليس محرما، حتى يتنافى مع العصمة.. هذا، إلى أن النبي لم يحاول طرد الفقراء استنكافا من فقرهم، بل حرصا وطمعا في إسلام الرؤوس، فنبه سبحانه النبي إلى أن الإسلام غني عن هؤلاء المتكبرين الطغاة، وان لهم يوما يستسلمون فيه أذلاء صاغرين، كما حدث بالفعل.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ عطف على قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] لأنّه في معنى أنذرهم ولازمهم وإن كره ذلك متكبّرو المشركين، فقد أجريت عليهم هنا صلة أخرى هي أنسب بهذا الحكم من الصلة التي قبلها، كما أنّ تلك أنسب بالحكم الذي اقترنت معه منها بهذا، فلذلك لم يسلك طريق الإضمار، فيقال: ولا تطردهم، فإنّ النبي ﷺ جاء داعيا إلى الله فأولى الناس بملازمته الذين هجّيراهم دعاء الله تعالى بإخلاص فكيف يطردهم فإنّهم أولى بذلك المجلس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]

٢. المعنى(٢) أنّ رسول الله ﷺ لحرصه على إيمان عظماء قريش ليكونوا قدوة لقومهم ولعلمه بأنّ أصحابه يحرصون حرصه ولا يوحشهم أن يقاموا من المجلس إذا حضره عظماء قريش لأنّهم آمنوا يريدون وجه الله لا للرياء والسمعة ولكن الله نهاه عن ذلك، وسمّاه طردا تأكيدا لمعنى النهي، وذلك لحكمة: وهي كانت أرجح من الطمع في إيمان أولئك، لأنّ الله اطّلع على سرائرهم فعلم أنّهم لا يؤمنون، وأراد الله أن يظهر استغناء دينه ورسوله عن الاعتزاز بأولئك الطغاة القساة، وليظهر لهم أنّ أولئك الضعفاء خير منهم، وأنّ الحرص على قربهم من الرسول ﷺ أولى من الحرص على قرب المشركين، وأنّ الدين يرغب الناس فيه وليس هو يرغب في الناس كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]

٣. ومعنى ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يعلنون إيمانهم به دون الأصنام إعلانا بالقول، وهو يستلزم اعتقاد القائل بما يقوله، إذ لم يكن يومئذ نفاق وإنّما ظهر المنافقون بالمدينة.

٤. والغداة: أوّل النهار، والعشيّ من الزوال إلى الصباح، والباء للظرفية، والتعريف فيهما تعريف الجنس، والمعنى أنّهم يدعون الله اليوم كلّه، فالغداة والعشي قصد بهما استيعاب الزمان والأيام كما يقصد بالمشرق والمغرب استيعاب الأمكنة، وكما يقال: الحمد لله بكرة وأصيلا، وقيل: أريد بالدعاء الصلاة، وبالغداة والعشي عموم أوقات الصلوات الخمس، فالمعنى ولا تطرد المصلّين، أي المؤمنين.

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١١٥.

(٢) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

٥. جملة ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿يَدْعُونَ﴾، أي يدعون مخلصين يريدون وجه الله، أي لا يريدون حظا دنيويا، والوجه حقيقة الجزء من الرأس الذي فيه العينان والأنف والفم، ويطلق الوجه على الذات كلّها مجازا مرسلا، والوجه هنا مستعار للذات على اعتبار مضاف، أي يريدون رضى الله، أي لا يريدون إرضاء غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ وتقدّم في سورة البقرة [١١٥]، فمعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أنّهم آمنوا ودعوا الله لا يريدون بذلك عرضا من الدنيا، وقد قيل: إنّ قريشا طعنوا في إيمان الضعفاء ونسبوهم إلى النفاق، إلّا أنّ هذا لم يرد به أثر صحيح، فالأظهر أنّ قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ثناء عليهم بكمال إيمانهم، وشهادة لهم بأنّهم مجرّدون عن الغايات الدنيوية كلّها، وليس المقصود به الرّدّ على المشركين.

٦. وجملة ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ تعليل للنهي عن طردهم، أو إبطال لعلّة الهمّ بطردهم، أو لعلّة طلب طردهم، فإنّ إبطال علّة فعل المنهي عنه يؤول إلى كونه تعليلا للنهي، ولذا فصلت هذه الجملة، والحساب: عدّ أفراد الشيء ذي الأفراد ويطلق على إعمال النظر في تمييز بعض الأحوال عن بعض إذا اشتبهت على طريقة الاستعارة بتشبيه تتبّع الأحوال بعدّ الأفراد، ومنه جاء معنى الحسبة - بكسر الحاء -، وهي النظر في تمييز أحوال أهل السوق من استقامة وضدّها، ويقال: حاسب فلانا على أعماله إذا استقراها وتتبّعها، قال النابغة: (يحاسب نفسه بكم اشتراها) فالحساب هنا مصدر حاسب، والمراد به تتبّع الأعمال والأحوال والنظر فيما تقابل به من جزاء.

٧. وضمير الجمع في قوله: ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ﴾ يجوز أن يكونا عائدين إلى ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ وهو معاد مذكور، وهو المناسب لتناسق الضمائر مع قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، فالمعنى أنّهم أهل الحقّ في مجلسك لأنّهم مؤمنون فلا يطردون عنه وما عليك أن تحسب ما عدا ذلك من الأمور العارضة لهم بزعم المشركين، وأنّ حضور أولئك في مجلسك يصدّ كبراء المشركين عن الإيمان أي أنّ ذلك مدحوض تجاه حقّ المؤمنين في مجلس رسولهم وسماع هديه.

٨. وقيل معنى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ أنّ المشركين طعنوا في إخلاص هؤلاء النفر، قالوا: يا محمد إنّ هؤلاء إنّما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنّهم يجدون مأكولا وملبوسا عندك، فقال الله تعالى: ما

يلزمك إلّا اعتبار ظاهرهم وإن كان لهم باطن يخالفه فحسابهم على الله، أي إحصاء أحوالهم ومناقشتهم عليها على نحو قول نوح ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٣]، فمعنى حسابهم على هذا الوجه تمحيص نياتهم وبواطنهم، والقصد من هذا تبكيت المشركين على طريقة إرخاء العنان، وليس المراد استضعاف يقين المؤمنين، و﴿حِسَابَهُمْ﴾ على هذا الوجه من إضافة المصدر إلى مفعوله.

٩. ويجوز أن يكون الضميران عائدين إلى غير مذكور في الكلام ولكنّه معلوم من السياق الذي أشار إليه سبب النزول، فيعود الضميران إلى المشركين الذين سألوا طرد ضعفاء المؤمنين من مجلس النبي ﷺ فيكون ضمير ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ عائدا إلى المؤمنين، ويختلف معاد الضميرين اعتمادا على ما يعيّنه سياق الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وقول عباس بن مرداس في وقعة حنين:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم بالمسلمين وأحرزوا ما جمّعوا

أي أحرز المشركون ما جمعه المسلمون من الغنائم، والمعنى: ما عليك من حساب المشركين على الإيمان بك أو على عدم الإيمان شيء فإنّ ذلك موكول إليّ فلا تظلم المؤمنين بحرمانهم حقّا لأجل تحصيل إيمان المشركين، فيكون من باب قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]، وعلى هذا الوجه يجوز كون إضافة ﴿حِسَابُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي محاسبتك إيّاهم، ويجوز كونها من إضافته إلى فاعله، أي من حساب المشركين على هؤلاء المؤمنين فقرهم وضعفهم.

١٠. و﴿عَلَيْكَ﴾ خبر مقدّم، و(على) فيه دالّة على معنى اللزوم والوجوب لأنّ الرسول ﷺ همّ أو كان بحيث يهمّ بإجابة صناديد قريش لما سألوه، فيكون تنبيها على أنّ تلك المصلحة مدحوضة.

١١. و(من) في قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ زائدة لتوكيد النفي للتنصيص على الشمول في سياق النفي، وهو الحرف الذي بتقديره بني اسم (لا) على الفتح للدلالة على إرادة نفي الجنس.

١٢. وتقديم المسندين على المسند إليهما في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ تقديم غير واجب لأنّ للابتداء بالنكرتين هنا مسوّغا، وهو وقوعها في سياق النفي، فكان تقديم المجرورين هنا اختياريا فلا بدّ له من غرض، والغرض يحتمل مجرّد الاهتمام ويحتمل الاختصاص، وحيث تأتّى معنى الاختصاص هنا فاعتباره أليق بأبلغ كلام، ولذلك جرى عليه كلام

(الكشاف)، وعليه فمعنى الكلام قصر نفي حسابهم على النبي ﷺ ليفيد أنّ حسابهم على غيره وهو الله تعالى، وذلك هو مفاد القصر الحاصل بالتقديم إذا وقع في سياق النفي، وهو مفاد خفي على كثير لقلّة وقوع القصر بواسطة التقديم في سياق النفي، ومثاله المشهور قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] فإنّهم فسّروه بأنّ عدم الغول مقصور على الاتّصاف بفي خمور الجنّة، فالقصر قصر قلب.

١٣. وقد اجتمع في هذا الكلام خمسة مؤكّدات، وهي (من) البيانية، و(من) الزّائدة، وتقديم المعمول، وصيغة الحصر في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، والتأكيد بالتّتميم بنفي المقابل في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، فإنّه شبيه بالتوكيد اللفظي، وكلّ ذلك للتنصيص على منتهى التبرئة من محاولة إجابتهم لاقتراحهم.

١٤. ويفيد هذا الكلام التعريض برؤساء قريش الذين سألوا إبعاد الفقراء عن مجلس الرسول ﷺ حين ما يحضرون وأوهموا أنّ ذلك هو الحائل لهم دون حضور مجلس الرسول ﷺ والإيمان به والكون من أصحابه، فخاطب الله رسوله بهذا الكلام إذ كان الرسول هو المسئول أن يقضي أصحابه عن مجلسه ليعلم السائلون أنّهم سألوه ما لا يقع ويعلموا أنّ الله أطلع رسوله ﷺ على كذبهم، وأنّهم لو كانوا راغبين في الإيمان لما كان عليهم حساب أحوال الناس ولاشتغلوا بإصلاح خويصتهم، فيكون الخطاب على نحو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقد صرّح بذلك في قوله بعد ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وإذ كان القصر ينحلّ على نسبتي إثبات ونفي فالنسبة المقدّرة مع القصر وهي نسبة الإثبات ظاهرة من الجمع بين ضمير المخاطب وضمير الغائبين، أي عدم حسابهم مقصور عليك، فحسابهم على أنفسهم إذ كلّ نفس بما كسبت رهينة.

١٥. وقد دلّ على هذا أيضا قوله بعده ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإنّه ذكر لاستكمال التعليل، ولذلك عطف على العلّة، لأنّ مجموع مدلول الجملتين هو العلّة، أي حسابهم ليس عليك كما أنّ حسابك ليس عليهم بل على نفسك، إذ كلّ نفس بما كسبت رهينة، ولا تزر وازرة وزر أخرى، فكما أنّك لا تنظر إلّا إلى أنّهم مؤمنون، فهم كذلك لا يطلب منهم التفريط في حق من حقوق المؤمنين لتسديد رغبة منك في شيء لا يتعلّق بهم أو لتحصيل رغبة غيرهم في إيمانه، وتقديم المسند على المسند إليه هنا كتقديمه في نظيره السابق.

١٦. وفي قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ تعريض بالمشركين بأنّهم أظهروا أنّهم أرادوا بطرد ضعفاء المؤمنين عن مجلس الرسول ﷺ النصح له ليكتسب إقبال المشركين عليه والإطماع بأنّهم يؤمنون به فيكثر متّبعوه، ثم بهذا يظهر أن ليس المعنى: بل حسابهم على الله وحسابك على الله، لأنّ هذا غير مناسب لسياق الآية، ولأنّه يصير به قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ مستدركا في هذا المقام، ولذلك لم يتكرّر نظير هذه الجملة الثانية: مع نظير الجملة الأولى فيما حكى الله عن نوح ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ في سورة الشعراء [١١٣] لأنّ ذلك حكي به ما صدر من نوح وما هنا حكي به كلام الله تعالى لرسوله، فتنبّه، ويجوز أن يكون تقديم المسند في الموضعين من الآية لمجرّد الاهتمام بنفي اللزوم والوجوب الذي دلّ عليه حرف (على) في الموضعين لا سيما واعتبار معنى القصر في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ غير واضح، لأنّنا إذا سلّمنا أن يكون للرسول ﷺ شبه اعتقاد لزوم تتّبع أحوالهم فقلب ذلك الاعتقاد بالقصر، لا نجد ذلك بالنسبة إلى ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إذ لا اعتقاد لهم في هذا الشأن.

١٧. وقدّم البيان على المبيّن في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنّ الأهمّ في المقامين هو ما يختصّ بالمخاطب المعرّض فيه بالذين سألوه الطرد لأنّه المقصود بالذات، وإنّما جيء بالجملة الثانية لاستكمال التعليل كما تقدّم.

١٨. وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ منصوب في جواب النهي الذي في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، وإعادة فعل الطرد دون الاقتصار على قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، لإفادة تأكيد ذلك النهي وليبنى عليه قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لوقوع طول الفصل بين التفريع والمفرّع عليه، فحصل بإعادة فعل ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ غرضان لفظي ومعنوي، على أنّه يجوز أن يجعل ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ منصوبا في جواب النفي من قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي لا تطردهم إجابة لرغبة أعدائهم.

١٩. وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ عطف على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ متفرّع عليه، أي فتكون من الظالمين بطردهم، أي فكونه من الظالمين منتف تبعا لانتفاء سببه وهو الطرد، وإنّما جعل طردهم ظلما لأنّه لما انتفى تكليفه بأن يحاسبهم صار طردهم لأجل إرضاء غيرهم ظلما لهم، وفيه تعريض بالذين سألوا طردهم

لإرضاء كبريائهم بأنّهم ظالمون مفطرون على الظلم؛ ويجوز أن يجعل قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ منصوبا في جواب النهي، ويجعل قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جيء به على هذا الأسلوب لتجديد ربط الكلام لطول الفصل بين النهي وجوابه بالظرف والحال والتعليل؛ فكان قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ كالمقدّمة لقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وليس مقصود بالذات للجوابية؛ فالتقدير: فتكون من الظالمين بطردهم.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، جاء النهى من الله تعالى بألا يطرد أهل التقى ولو كانوا عبيدا أو فقراء، فإن هؤلاء يقوم بهم عمود الدين، وإذا كانت الضلالة لا تساوى الهداية، والعمى لا يستوى مع البصر، فإنه لا يصح أنه يطرد الفقراء لرجاء إجابة الأغنياء، ولا يطرد الضعفاء لرجاء إجابة الأقوياء، يروى عن ابن مسعود أنه مر الملأ من قريش بالنبي ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، وروى عن خباب بن الأرت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال جاء الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى فوجدوا النبي ﷺ قاعدا مع بلال وصهيب وعمار وخباب في أناس من الضعفاء من المؤمنين؛ فلما رأوهم حوله أتوه، فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، هذا ما قيل في سبب نزول هذه الآية، والنص يومئ إلى هذا المعنى.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾، نهى الله النبي عن أن يطرد هؤلاء الضعفاء، وإن كان النبي ﷺ يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للدخول في الإسلام لينال بقوتهم قوة، ولكن الله تعالى بين أن القوة في الإيمان لا في غطرسة المتغطرسين وإن أولئك وإن كانوا ضعفاء فقراء فإنهم

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥١٢.

أقوياء بعزة الإيمان وبعزة الحق ولا تفرقة بين أتباع الأنبياء بالطبقية، إنما التفرقة بقوة الإيمان والتقوى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات]، وإن الرفعة بين أتباع الأنبياء بالإيمان والعبادة.

٢. وقد ذكر الذين نهى النبي ﷺ عن طردهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشى، ومعنى يدعون يعبدون مخلصين؛ لأن العبادة دعاء، والدعاء: التضرع الخالص، وهو مخ العبادة، وهو لبها، ولذلك عبر عن العبادة بالدعاء ـ وبالغداة والعشى: المراد في الصباح والمساء، أي أنهم في عامة أوقاتهم ذكروا الله تعالى ربهم الذى خلقهم وكلأهم وحماهم، يريدون وجه الله، لا يقصدون عرضا من أعراض الدنيا، وينصرفون إليه تعالى لا يريدون إلا ذاته الكريمة ولا يقصدون سواه، فكيف يطرد هؤلاء لأجل ناس لا يعرفون إلا عرض الدنيا وإن الله تعالى قد أمر النبي ﷺ بأن يكون مع هؤلاء، فإنهم قوة، والإيمان يملأ النفس قوة؛ لأنها قوة الصبر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف]

٣. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، جاء هذا النص الكريم بعد قوله تعالت كلماته: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يقصدون بعبادتهم ذاته العلية ولا يقصدون شيئا سواها، مهما يكن، وإن الله تعالى يتولى حسابهم بالجزاء، وما يعود عليك من حسابهم شيء ولا يعود عليهم من حسابك شيء فهم عباد مجزيون بأعمالهم، كما أنك يا محمد مجزى بعملك، فليس لك أن تطردهم.

٤. وهذا التعبير ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يشبه ما نقل عن نوح عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء]، ويؤدى التعبير على هذا أن هؤلاء آمنوا بربهم وحسابهم عند ربهم، وما علىّ من حسابهم من شيء كما لا يحاسبون على عملي فكل له عمله، فكيف أطردهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي فإن طردتهم استجابة لغيرهم وأنت لا تتحمل مغبة أعمالهم، ولا ما هم فيه كنت من الظالمين؛ إذ لا وزر كان منهم يستوجب الطرد إلا مسارعتهم للإيمان بما جئت وتلكؤ غيرهم، إن ذلك لظلم عظيم إن كان، ولا يمكن أن يكون من محمد ﷺ.

٥. وهناك تخريج آخر، لقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بأن المعنى ما عليك شيء من حساب رزقهم إن كانوا فقراء وما من حسابك في الفقر والغنى عليهم من شيء أي إنك أنت هاد ومرشد، داع إلى من يقرب منك ومن يجيب، وسواء أكان فقيرا أم كان غنيا، فكيف ترد فقيرا مهديا لفقره وتقرب غنيا غير مهدى لغناه فإن تطردهم من بعد فإنك تكون من الظالمين، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك.

٦. إن الضعفاء أول من يتبع الأنبياء؛ لأنهم غير مشغولين بالمال والبنين وزخارف الحياة، وضجاتها، ولجاجة القوة وخصوصا ما يكون منها على غير أساس من الأخلاق، فنفوسهم تكون أقرب إلى الفطرة والاستقامة؛ ولذلك كان غالب الذين اتبعوا النبي ﷺ من الضعفاء والعبيد، وكل الذين يحسون بآلام الحياة الدنيا، ورجاء حياة أخرى، ولقد سأل هرقل ملك الرومان أبا سفيان ابن حرب الذى كان قائد الشرك إبان ذاك عمن يتبع النبي ﷺ أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: فكذلك أتباع الرسل.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في معنى هذه الروايات[٢] الثلاث المتقدمة بعض روايات أخر، والرجوع إلى ما تقدم في أول السورة من استفاضة الروايات على نزول سورة الأنعام دفعة ثم التأمل في سياق الآيات لا يبقي ريبا أن هذه الروايات إنما هي من قبيل ما نسميه تطبيقا بمعنى أنهم وجدوا مضامين بعض الآيات تقبل الانطباق على بعض القصص الواقعة في زمن النبي ﷺ فعدوا القصة سببا لنزول الآية لا بمعنى أن الآية إنما نزلت وحدها ودفعة لحدوث تلك الواقعة ورفع الشبهة الطارئة من قبلها بل بمعنى أن الآية يرتفع بها ما يطرأ من قبل تلك الواقعة من الشبهة كما ترتفع بها الشبه الطارئة من قبل سائر الوقائع من أشباه الواقعة ونظائرها كما يشهد بذلك ما ترى في هذه الروايات الثلاث الواردة في سبب نزول قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية فإن الغرض فيها واحد لكن القصص مختلفة في عين أنها متشابهة فكأنهم جاءوا إلى النبي ﷺ واقترحوا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٠٠.

(٢) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

عليه أن يطرد عنه الضعفاء كرة بعد كرة وعنده في كل مرة عدة من ضعفاء المؤمنين وفي مضمون الآية انعطاف إلى هذه الاقتراحات أو بعضها، وعلى هذه الوتيرة كانوا يذكرون أسباب نزول الآيات بمعنى القصص والحوادث الواقعة في زمنه ﷺ مما لها مناسبة ما مع مضامين الآيات الكريمة من غير أن تكون للآية مثلا نظر إلى خصوص القصة والواقعة المذكورة، ثم شيوع النقل بالمعنى في الأحاديث والتوسع البالغ في كيفية النقل أوهم أن الآيات نزلت في خصوص الوقائع الخاصة على أن تكون أسبابا منحصرة، فلا اعتماد في أمثال هذه الروايات الناقلة لأسباب النزول وخاصة في أمثال هذه السورة من السور التي نزلت دفعة على أزيد من أنها تكشف عن نوع ارتباط للآيات بالوقائع التي كانت في زمنه ﷺ، ولا سيما بالنظر إلى شيوع الوضع والدس في هذه الروايات والضعف الذي فيها وما سامح به القدماء في أخذها ونقلها.

٢. روى في الدر المنثور، عن الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن عمر بن عبد الله ابن المهاجر: أن الآية نزلت في اقتراح بعض الناس ـ أن يطرد النبي ﷺ الضعفاء ـ من أصحاب الصفة عن نفسه في نظير من القصة، ويضعفه ما تقدم في نظيره أن السورة إنما نزلت دفعة وفي مكة قبل الهجرة.

٣. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ظاهر السياق على ما يؤيده ما في الآية التالية: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، أن المشركين من قومه ﷺ اقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين به فنهاه الله تعالى في هذه الآية عن ذلك.

٤. وذلك منهم نظير ما اقترحه المستكبرون من سائر الأمم من رسلهم أن يطردوا عن أنفسهم الضعفاء والفقراء من المؤمنين استكبارا وتعززا، وقد حكى الله تعالى ذلك عن قوم نوح فيما حكاه من محاجته عليه السلام حجاجا يشبه ما في هذه الآيات من الحجاج قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ ـ إلى أن قال ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

٥. والتطبيق بين هذه الآيات والآيات التي نحن فيها يقضي أن يكون المراد بالذين يدعون ربهم

بالغداة والعشي ويريدون وجهه هم المؤمنين، وإنما ذكر دعاءهم بالغداة والعشي وهو صلاتهم أو مطلق دعائهم ربهم للدلالة على ارتباطهم بربهم بما لا يداخله غيره تعالى وليوضح ما سيذكره من قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

٦. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي وجه الله، قال الراغب في مفرداته: (أصل الوجه الجارحة قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، ولما كان الوجه أول ما يستقبلك وأشرف ما في ظاهر البدن استعمل في مستقبل كل شيء وفي أشرفه ومبدئه فقيل: وجه كذا ووجه النهار، وربما عبر عن الذات بالوجه في قول الله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، قيل: ذاته وقيل أراد بالوجه هاهنا التوجه إلى الله بالأعمال الصالحة، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾، قيل: إن الوجه في كل هذا ذاته ويعني بذلك كل شيء هالك إلا هو وكذا في أخواته، وروي أنه قيل ذلك لأبي عبد الله بن الرضا فقال: سبحان الله لقد قالوا قولا عظيما إنما عنى الوجه الذي يؤتى منه ومعناه: كل شيء من أعمال العباد هالك وباطل إلا ما أريد به الله، وعلى هذا الآيات الأخر، وعلى هذا قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾)

٧. أما الانتقال الاستعمالي من الوجه بمعنى الجارحة إلى مطلق ما يستقبل به الشيء غيره توسعا فلا ريب فيه على ما هو المعهود من تطور الألفاظ في معانيها لكن النظر الدقيق لا يسوغ إرادة الذات من الوجه فإن الشيء أيا ما كان إنما يستقبل غيره بشيء من ظواهر نفسه من صفاته وأسمائه، وهي التي تتعلق بها المعرفة فإنا إنما نعرف ما نعرف بوصف من أوصافه أو اسم من أسمائه ثم نستدل بذلك على ذاته من غير أن نماس ذاته مساسا على الاستقامة، فإنا إنما ننال معرفة الأشياء أولا بأدوات الحس التي لا تنال إلا الصفات من أشكال وتخاطيط وكيفيات وغير ذلك من دون أن ننال ذاتا جوهرية ثم نستدل بذلك على أن لها ذوات جوهرية هي القيمة لأعراضها وأوصافها التابعة لما أنها تحتاج إلى ما يقيم أودها ويحفظها ففي الحقيقة قولنا: ذات زيد مثلا معناه الشيء الذي نسبته إلى أوصاف زيد وخواصه كنسبتنا إلى أوصافنا وخواصنا فإدراك الذوات إدراكا فكريا يكون دائما بضرب من القياس والنسبة، وإذا لم يمكن إدراك الذوات الماهوية بإدراك تام فكري إلا من طريق أوصافها وآثارها بضرب من القياس والنسبة فالأمر في الله سبحانه ولا حد لذاته ولا نهاية لوجوده أوضح وأبين، ولا يقع العلم على شيء إلا مع تحديد ما له فلا

مطمع في الإحاطة العلمية به تعالى قال: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، لكن وجه الشيء لما كان ما يستقبل به غيره كانت الجهة بمعنى الناحية أعني ما ينتهي إليه الإشارة وجها فإنها بالنسبة إلى الشيء الذي يحد الإشارة كالوجه بالنسبة إلى الإنسان يستقبل غيره به، وبهذه العناية تصير الأعمال الصالحة وجها لله تعالى كما أن الأعمال الطالحة وجه للشيطان وهذا بعض ما يمكن أن ينطبق عليه أمثال قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾) وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ وغير ذلك، وكذا الصفات التي يستقبل بها الله سبحانه خلقه كالرحمة والخلق والرزق والهداية ونحوها من الصفات الفعلية بل الصفات الذاتية التي نعرفه تعالى بها نوعا من المعرفة كالحياة والعلم والقدرة كل ذلك وجهه تعالى يستقبل خلقه بها ويتوجه إليه من جهتها كما يشعر به بعض الأشعار أو الدلالة قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: [الرحمن: ٢٧] فإن ظاهر الآية أن قوله: ﴿ذُوالْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾) نعت للوجه دون الرب فافهم ذلك.

٨. وإذا صح أن ناحيته تعالى جهته ووجهه صح بالجملة أن كل ما ينسب إليه تعالى نوعا من نسبة القرب كأسمائه وصفاته وكدينه، وكالأعمال الصالحة وكذا كل من يحل في ساحة قربه كالأنبياء والملائكة والشهداء وكل مغفور له من المؤمنين وجه له تعالى، وبذلك يتبين:

أ. أولا: معنى قوله سبحانه: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقوله فيمن يقتل في سبيل الله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] فالآيات تدل بانضمام الآية الأولى إليهن أن هذه الأمور كلها باقية ببقائه تعالى لا سبيل للهلاك والبوار إليها، ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فدل الحصر الذي في الآية على أن ذلك كله وجه لله سبحانه وبعبارة أخرى كلها واقعة في جهته تعالى مستقرة مطمئنة في جانبه وناحيته.

ب. وثانيا: أن ما تتعلق به إرادة العبد من ربه هو وجهه كما في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨]، وقوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] فكل ذلك وجهه تعالى لأن صفات فعله تعالى كالرحمة والمرضاة والفضل ونحو ذلك من

وجهه، وكذلك سبيله تعالى من وجهه على ما تقدم، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]

٩. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. الحساب هو استعمال العدد بالجمع والطرح ونحو ذلك، ولما كان تمحيص الأعمال وتقديرها لتوفية الأجر أو أخذ النتيجة ونحوهما لا يخلو بحسب العادة من استعمال العدد بجمع أو طرح سمي ذلك حسابا للأعمال، وإذ كان حساب الأعمال لتوفية الجزاء، والجزاء إنما هو من الله سبحانه فالحساب على الله تعالى أي في عهدته وكفايته كما قال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ [الشعراء: ١١٣]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٦] وعكس في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦] للدلالة على سلطانه تعالى وهيمنته على كل شيء وعلى هذا فالمراد من نفي كون حسابهم عليه أو حسابه عليهم نفي أن يكون هو الذي يحاسب أعمالهم ليجازيهم حتى إذا لم يرتض أمرهم وكره مجاورتهم طردهم عن نفسه أو يكونوا هم الذين يحاسبون أعماله حتى إذا خاف مناقشتهم أو سوء مجازاتهم أو كرههم استكبارا واستعلاء عليهم طردهم، وعلى هذا فكل من الجملتين: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾، (وما عليهم)، مقصودة في الكلام مستقلة.

ب. وربما أمكن أن يستفاد من قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفي أن يحمل عليه حسابهم أي أعمالهم المحاسبة حتى يستثقله وذلك بإيهام أن للعمل ثقلا على عامله أو من يحمل عليه فالمعنى ليس شيء من ثقل أعمالهم عليك، وعلى هذا فاستتباعه بقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ـ ولا حاجة إليه لتمام الكلام بدونه ـ إنما هو لتتميم أطراف الاحتمال وتأكيد مطابقة الكلام، ومن الممكن أيضا أن يقال: إن مجموع الجملتين أعني قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كناية عن نفي الارتباط بين النبي ﷺ وبينهم من حيث الحساب.

ج. وربما قيل: إن المراد بالحساب حساب الرزق دون حساب الأعمال والمراد: ليس عليك حساب رزقهم، وإنما الله يرزقهم وعليه حساب رزقهم، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ﴾، جيء به تأكيدا لمطابقة الكلام على ما تقدم في الوجه السابق، والوجهان وإن أمكن توجيههما بوجه لكن الوجه هو الأول.

١٠. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الدخول في جماعة الظالمين متفرع على طردهم أي طرد الذين يدعون ربهم فنظم الكلام بحسب طبعه يقتضي أن يفرع قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، على قوله في أول الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ﴾، إلا أن الكلام لما طال بتخلل جمل بين المتفرع والمتفرع عليه أعيد لفظ الطرد

ثانيا في صورة الفرع ليتفرع عليه قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بنحو الاتصال ويرتفع اللبس، فلا يرد عليه أن الكلام مشتمل على تفريع الشيء على نفسه فإن ملخصه: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتطردهم، وذلك أن إعادة الطرد ثانيا لإيصال الفرع أعني قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، إلى أصله كما عرفت.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ملاحظات حول سبب النزول:

أ. جاء في الدر المنثور، أخرج أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسعود قال مرّ الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك منّ الله عليهم من بيننا؟ أو نحن نكون تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾

ب. وجاء في رواية أخرى في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة، وابن ماجة، وأبو يعلى، وأبو نعيم في الحلية، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن خباب، قال جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدا النبي ﷺ قاعدا مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، في أناس ضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فخلوا به، فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب ستأتيك فنستحي أن ترانا العرب قعودا مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فلتقعد معهم إن شئت قال نعم، قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتابا، فدعا بالصحيفة ودعا عليا ليكتب، ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبرئيل بهذه الآية ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فألقى رسول الله الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، فكنا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله:

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١١٧.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية، قال فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها، تركناه حتى يقوم.

ج. قال العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان ـ تعليقا على أمثال هذه الروايات ـ: (الرجوع إلى ما تقدّم في أول السورة من استفاضة الروايات على نزول سورة الأنعام دفعة، ثم التأمّل في سياق الآيات، لا يبقي ريبا أن هذه الروايات إنما هي من قبيل ما نسميه تطبيقا بمعنى أنهم وجدوا مضامين بعض الآيات تقبل الانطباق على بعض القصص الواقعة في زمن النبي ﷺ، فعدّوا القصة سببا لنزول الآية، لا بمعنى أن الآية إنما نزلت وحدها ودفعة لحدوث تلك الواقعة ورفع الشبهة، كما ترتفع بها الشبه الطارئة من قبل سائر الوقائع من أشباه الواقعة ونظائرها، كما يشهد بذلك ما ترى في هذه الروايات الثلاث الواردة في سبب نزول قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية فإن الغرض فيها واحد لكن القصص مختلفة في عين أنها متشابهة فكأنهم جاءوا إلى النبي ﷺ واقترحوا عليه أن يطرد عنه الضعفاء كرّة بعد كرّة وعنده في كل مرة عدة من ضعفاء المؤمنين، وفي مضمون الآية انعطاف إلى هذه الاقتراحات أو بعضها، وعلى هذه الوتيرة كانوا يذكرون أسباب نزول الآيات بمعنى القصص والحوادث الواقعة في زمنه ﷺ مما لها مناسبة ما مع مضامين الآيات الكريمة من غير أن تكون للآية مثلا نظر إلى خصوص القصة والواقعة المذكورة، ثم شيوع النقل بالمعنى في الأحاديث والتوسّع البالغ في كيفية النقل، أو هم أن الآيات نزلت في خصوص الوقائع الخاصة على أن تكون أسبابا منحصرة، فلا اعتماد في أمثال هذه السورة من السور التي نزلت دفعة على أزيد من أنها تكشف عن نوع ارتباط للآيات بالوقائع التي كانت في زمنه ﷺ، ولا سيّما بالنظر إلى شيوع الوضع والدسّ في هذه الروايات والضعف الذي فيها وما سامح به القدماء في أخذها ونقلها.

د. وقد روى في الدر المنثور عن الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن عمر بن عبد الله بن المهاجر أن الآية نزلت في اقتراح بعض الناس أن يطرد النبي ﷺ الضعفاء من أصحاب الصفّة عن نفسه في نظير من القصة ويضعفه ما تقدم في نظيره أن السورة إنما نزلت دفعة وفي مكة قبل الهجرة.

٢. مهما كانت القصة، فإن الذي يهمنا ـ في هذا المجال ـ هو مواجهة المسألة من ناحية المبدأ، فإن الله يريد الإيحاء للنبيّ ﷺ وللدعاة من بعده، بأن هؤلاء الذين يعيشون الإيمان في خشوع الروح، وخضوع الإرادة لله، فيدعون ربهم بالغداة والعشي، يريدون وجهه، ولا يريدون غيره، ابتهالا وإخلاصا ويقينا..

هم القريبون إلى الله بالفكر والروح والعمل، لأنهم الذين استجابوا له ولرسوله، فكيف يمكن أن يبعدهم الرسول عنه، وما هو المبرّر له في ذلك كله؟ وهل كان النبيّ يفكر لرسالته بالمستوى الطبقي الذي يعيشه الناس من حوله؟ وهل كانت الرسالة إلّا لتغيير مثل هذا الواقع الذي يعيش فيه الناس المستضعفون اضطهاد الناس المستكبرين فيما يعيشونه من نزعة العلوّ والاستكبار؟ وماذا بعد ذلك؟ إنّ طردهم من حوله، يعني النظرة السلبيّة لحركة الإيمان عندهم في إخلاص العبادة لله، وهذا مما لا يمكن أن يقرّه الإسلام من مؤمن، فكيف يقرّه من الرسول؟

٣. وقد أراد الله تأكيد المبدأ، بالتركيز على أن كل إنسان يتحمل مسئولية عمله، فيحاسب عليه، أمام الله، فسلطة حساب الناس منوطة بالله فقط إلّا بحدود ما يتعلق بالمسؤولية العامة، الأمر الذي يفقد معه أي إنسان مبرر محاسبة غيره وبذلك لا يملك الرسول ولا الداعية أن يقوم بأيّ تصرف سلبيٍّ ضد أولئك المستضعفين فيطردهم من حوله، لأن الله يريده أن يحيطهم بالعناية والرعاية، انسجاما مع الأجواء الروحية البعيدة عن التكلّف والامتيازات الطبقية، التي يريد الله للحياة الإسلامية أن تعيشها فيها.. فإذا انحرفت الخطى عن ذلك وابتعدت الممارسات عن هذا الخط فإن الجو سيكون جوّ ظلم يطبع الحياة بالعدوان، وهذا ما لا يريده الله للنبي والذي آمنوا، فيما أوكله إليهم من مهمة وفي ما حمَّلهم إياه من رسالة.

٤. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إيمانا به، وانفتاحا عليه، والتزاما بطاعته، وحركة في سبيل الحصول على رضاه في مواقع القرب منه من خلال حالة الخشوع الروحي الذي امتلأت به عقولهم والخضوع الإرادي الذي عاشت له أرواحهم، فهم لا يفكرون بالموقع الاجتماعي، ولا بالربح المادي، ولا بالشهوة الجامحة، ولكنهم يتحركون في حياتهم على مستوى مواقعهم ومواقفهم وأوضاعهم للوصول إلى الله.

٥. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فهم يريدونه في معنى ذاته في سرّ الألوهية فيها، وهذا ما يوحي به التعبير عن الذات بالوجه لأنها مظهر الذات في المعنى المادي للصورة وعلى هذا، جاء قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أو ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٥]:

أ. وقد ذكر صاحب الميزان أن المراد بالوجه هنا (الناحية أعني ما ينتهي إليه الإشارة وجها فإنها بالنسبة إلى الشيء الذي يحدّ الإشارة كالوجه بالنسبة إلى الإنسان يستقبل غيره به، وبهذه الغاية تصير

الأعمال الصالحة وجها لله تعالى، كما أن الأعمال الطالحة وجه للشيطان، وهذا بعض ما يمكن أن ينطبق عليه أمثال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾ [الروم: ٣٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ [الإنسان: ٩]، وغير ذلك، وكذا الصفات التي يستقبل بها الله سبحانه خلقه كالرحمة والخلق والرزق والهداية ونحوها من الصفات الفعلية، بل الصفات الذاتية التي نعرفه تعالى بها نوعا من المعرفة كالحياة والعلم والقدرة، كل ذلك وجهه تعالى يستقبل خلقه بها ويتوجه إليه من جهتها كما يشعر به بعض الإشعار أو الدلالة قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] فإن ظاهر الآية أن قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ نعت للوجه دون الرب)

ب. ونلاحظ على ذلك، أن ما ذكره لا يخلو من التكلّف في حمل الكلمة على هذا المعنى لأن الآيات التي وردت فيها الكلمة ذات مضمون واحد من حيث التعبير عن الله ففي قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧] يراد بالوجه الذات لبيان الحقيقة الوجودية، وهو فناء الخلق كله إلا الله في ذاته فهو الباقي، لا ناحيته وصفاته ونحو ذلك، وهكذا قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فإن الظاهر من الآية الأولى: أنك ستجد الله في أي موقع وجدت فيه، لأن الله لا يحدّه مكان، وكذا في الآية الثانية: فإن الظاهر منها أن هؤلاء الناس الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدونه، هو، لا غيره بمعنى أنهم يتوجهون إلى ذاته المقدسة في مقابل التوجه إلى غيره، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ [الإنسان: ٩] فإن الظاهر منها أن الإطعام لله هو للحصول على القرب منه لا لحساب غيره أو لطمع معين، والله العالم.

٦. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فليست لك علاقة بهم في واقع المسؤولية العملية، فيما خصّ علاقتهم بالله، فلست أنت الذي تحاسبهم على أعمالهم، كما أنهم ليسوا مسئولين عن أعمالك ولا يحاسبون عليها، فهم أشخاص مستقلون في وجودهم وفي مسئوليتهم، فالله هو الذي يملك الحساب كله، ودورك معهم دور الرسول المبلغ للرسالة، وتنتهي مهمتك الرسالية عند هذا الحد ليواجهوا استقلالهم وحريتهم في مسئولياتهم العملية ولذلك فلا سلطة لهم عليك من خلال ذلك.

٧. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ لأن الطرد يملكه الذي يملك السيطرة على الناس، وإذا كان الله جعل لك

الولاية على الناس في مواقع نبوتك وحاكميتك، فلم يجعلها الله لك لطرد المؤمنين عن مجلسك فإن هذا لا يتناسب مع موقعك الرسالي، ولا يتناسب مع قربهم من الله ومحبته لهم ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ لا تطردهم من عندك كما أراد المتكبرون المحتقرون لهم، والدعاء: طلب الحاجات من الله، والرغبة إليه في قضائها، و(الغداة): أول النهار، وأما ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ فقال الراغب: (العشي: من زوال الشمس إلى الصباح) وفي (لسان العرب): (وأما العشي، فقال أبو الهيثم: إذا زالت الشمس دعي ذلك الوقت العشي، قال الأزهري: وصلاتا العشي هما الظهر والعصر، وقال الأزهري: يقع العشي على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها كل ذلك عشي، فإذا غابت الشمس فهو العشاء، وقيل: العشي: من زوال الشمس إلى الصباح) وقد جاء في روايات (حديث الغدير): وراح يصلي عشية، مع وصفهم تلك الحال بشدة الحر، فالراجح: أن العشي من زوال الشمس، وأما آخره فإما الغروب، وإما بعد ذلك.

٢. والآية الكريمة تفيد: أن المذكورين يكثرون ذكرالله في أوقات الفضيلة، وقد جاء في الغداة روايات كثيرة تدل على فضل الذكر فيها، وجاءت روايات في فضل الذكر بعد العصر إلى غروب الشمس، فأما الذكر من بعد الزوال إلى بعد العصر فلعله في الصلوات وأدبارها.

٣. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الراجح في معناه: يريدون التقرب إليه، والتوسل إلى رضوانه، لأن الراضي يقبل على المرضي عنه بوجهه، كما أن الساخط يعرض عن المسخوط عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧] وهو تعبير عن الغضب عليهم، فإرادة وجهه: إرادة نظره إلى عبده أي رضوانه، وقد قال أولاد يعقوب: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ إلى قولهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٨ ـ ٩] يريدون نظره بوجهه إليهم وحدهم، كناية عن حبّه لهم وحدهم، وليس بمعنى الذات، فالمعنى في الآية هذه وأمثالها: خلوص النية للتقرب إلى الله وطلب رضوانه، ليس لهم غرض

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٠.

دنيوي لا رياء ولا سمعة ولا غير ذلك، فهم أهل للتقريب والإكرام لا للطرد والإبعاد.

٤. قال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى عليه السلام: (ومحمد ﷺ فلم يطرد أحداً، وإنما قالت له قريش لما دعاهم إلى الله سبحانه، فقالوا: كيف نؤمن يا محمد وقد سبقنا من ليس له قدر فينا ولا رئاسة من أوساط الناس وأتباعنا، فاطردهم فإن طردتهم آمنا بك، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، تعريفاً لهم ورداً عليهم، وأمر بخلاف قولهم، وشهد الله سبحانه لمن اتبع رسوله بالدين وإخلاص النيات، فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فأخبر أنهم يقصدون ويطلبون ما عنده، فكان هذا مدحاً لهم وثناء عليهم)

٥. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ وهذا وجه آخر للنهي عن طردهم يفيد: أنه لا يحتاج إلى طردهم؛ لأنه لا يحاسب بعملهم ولا يحاسبون بعمله، وهو يشير إلى أن ضعف الإنسان وحقارته ليس لقلة ماله أو رجاله، إنما هو لقلة عمله الذي يستحق به المدح والثواب، أو سوء عمله الذي يستحق به الذم والعقاب.

٦. وهؤلاء الذين نهيت عن طردهم سواء كان عملهم صالحاً أو سيئاً ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بسبب مجاورتهم، فلا حاجة إلى طردهم لأجل أعمالهم التي لا تعلمها، وإنما ترى منها خيراً، وكذلك لا ينالون بمجاورتك شيئاً من حسابك يصير عليهم فينقصوا عليك من حسناتك، ولهذا فلا حاجة لك في طردهم، وفيه ـ أيضاً ـ إشارة إلى أنه لو حسن طردهم لما حسن إلا لحاجة النبي ﷺ خاصة لا لإرضاء الكفار المتكبرين، فلا يتصور وقوعه من الرسول ﷺ ولذلك لم يذكر.

٧. والحاصل: لا تطرد الذين يدعون ربهم المذكورين ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ﴾ منصوب في جواب النهي، يفيد: أنه لو طردهم لكان من الظالمين، وحاشاه ﷺ من أن يطرد المؤمنين أو يكون من الظالمين، ولكن هذا ردٌّ على المتكبرين كما أفاده المرتضى عليه السلام، وبيان لقدر المؤمنين عند الله وكرامتهم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ملاحظات حول سبب النزول:

أ. ذكرت روايات عديدة في سبب نزول هاتين الآيتين، ولكنّها متشابهة، من ذلك ما جاء في تفسير (الدار المنثور): مرّت جماعة من قريش بمجلس رسول الله ﷺ حيث كان (صهيب) و(عمار) و(بلال) و(خباب) وأمثالهم من الفقراء والعمال حاضرين فيه، فتعجبوا من ذلك (لأنّهم كانوا يحسبون أن شخصية المرء مرهونة بالثروة والجاه والمقام، ولم يستطيعوا إدراك المنزلة المعنوية لهؤلاء الأشخاص، ولا ما سيكون لهم من دور بناء في إيجاد المجتمع الإسلامي والإنساني الكبير) فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك، أفنحن نكون تبعا لهم؟، أهؤلاء الذين منّ الله عليهم!؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم اتّبعناك، فأنزل الله الآية.

ب. بعض مفسّري أهل السنة، مثل صاحب تفسير (المنار) يورد حديثا أشبه بذاك، ثمّ يقول: إنّ عمر بن الخطاب كان حاضرا واقترح على رسول الله ﷺ أن يقبل عرض هؤلاء الملأ من قريش، ليتبيّن مدى صدق قولهم؟ فنزلت الآيتان في رفض اقتراحه.

ج. ينبغي ألّا يغرب عن البال أنّ ذكر سبب نزول بعض آيات هذه السورة لا يتنافى مع نزول السورة كلها في مكان واحد، فقد سبق أن قلنا: إنّ من الممكن أن تقع حوادث مختلفة في أوقات مختلفة قبل نزول السورة، ثمّ تنزل السورة بشأن تلك الحوادث.

د. يلزم هنا أن نذكر أنّه جاء في رواية أنّ الملأ من قريش - حينما رفض رسول الله ﷺ عرضهم - اقترحوا عليه شيئا آخر، وقالوا له: لو نحيت هؤلاء حتى نخلو بك.. فإذا انصرفنا، فإذا شئت أعدتهم إلى مجلسك، فأجابهم النّبي إلى ذلك، فقالوا له: اكتب لنا بهذا على نفسك كتابا، فدعا بصحيفة وأحضر عليا ليكتب، فنزل جبرائيل بالآية تنهى عن ذلك، غير أنّ هذه الرواية، على الرغم من كونها لا تنسجم مع روح تعاليم الإسلام التي رفضت دوما المساومة في مثل هذه الحالات، وأكّدت باستمرار على وحدة المجتمع الإسلامي، فإنّها لا تنسجم مع الآية السابقة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ فكيف يمكن لرسول الله ﷺ

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٩٨.

قبول الاقتراح دون انتظار للوحي، ثمّ إنّ عبارة ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ في بداية الآية تدل على أنّهم قد طلبوا طرد أولئك، لا التناوب معهم، والبون شاسع بين طلب الطرد وطلب التناوب، وهذا يدل على أنّ سبب نزول الآية هو ما أوردناه أوّلا.

٢. في هذه الآية إشارة إلى واحد من احتجاجات المشركين، وهو أنّهم كانوا يريدون من النّبي ﷺ أن يقرّ ببعض الامتيازات لطبقة الأغنياء ويفضلهم على طبقة الفقراء، إذ كانوا يرون في جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول الله ﷺ منقصة لهم أي منقصة! مع أنّ الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الامتيازات الزائفة الجوفاء، كانوا يصرون على هذا الطلب في طرد أولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستندا إلى أدلة حية، فيقول: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، معنى (الوجه) في اللغة معروف، ولكن الكلمة قد تعني (الذات) كما في هذه الآية.

٣. ممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يشر إلى هؤلاء الأشخاص إشارة خاصّة، بل اكتفى بصفتهم البارزة وهي أنّهم يذكرون الله صباح مساء، أي دائما، وانّ ذكرهم الله هذا ليس فيه رياء، بل هو لذات الله وحده، فهم يريدونه وحده ويبحثون عنه، وليس ثمّة امتياز اسمى من هذا.

٤. يتبيّن من آيات قرآنية مختلفة أنّ هذا لم يكن أوّل طلب من نوعه يتقدم به هؤلاء المشركون الأغنياء المتكبرون إلى رسول الله ﷺ، بل لقد تكرر اعتراضهم على النّبي بشأن اجتماع الفقراء حوله، ومطالبتهم إياه بطردهم.

٥. في الحقيقة كان هؤلاء يستندون في طلبهم ذاك إلى سنة قديمة خاطئة تقيم المرء على أساس ثروته، وكانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقية القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة، ويرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم والمعايير، في سيرة النّبي نوح عليه السّلام نرى أنّ أشراف زمانه كانوا يقولون له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ واعتبروا ذلك دليلا على بطلان رسالته.

٦. إنّ واحدا من دلائل عظمة الإسلام والقرآن، وعظمة مدرسة الأنبياء عموما، هو أنّها وقفت ثابتة لا تتزحزح في وجه أمثال هذه الطلبات، وراحت تحطم هذه الامتيازات الموهومة في كل المجتمعات التي تعتبر التمايز الطبقي مسألة ثابتة، لتعلن أنّ الفقر ليس نقصا في أشخاص مثل سلمان وأبي ذر والخباب وبلال، كما أنّ الثروة ليست امتيازا اجتماعيا، أو معنويا لهؤلاء الأثرياء الفارغين المتحجرين المتكبرين.

٧. ثمّ تقول الآية: إنّه ليس ثمّة ما يدعو إلى إبعاد هؤلاء المؤمنين عنك، لأنّ حسابهم ليس عليك، ولا حسابك عليهم: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، ولكنّك مع ذلك إذا فعلت تكون ظالما: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يختلف المفسّرون في توضيح المقصود من (الحساب) هنا، منهم من يقول: إنّ المقصود هو حساب رزقهم، أي أنّهم وإن كانوا فقراء فإنّهم لا يثقلون عليك بشيء لأنّ حساب رزقهم على الله، كما أنّك أنت أيضا لا تحملهم ثقل معيشتك، إذ ليس من حساب رزقك عليهم من شيء غير أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا، لأن الظاهر أن القصد من الحساب هو حساب الأعمال، كما يقول كثير من المفسّرين.

٨. سؤال وإشكال: لماذا يقول الله أن حساب أعمالهم ليس عليك، مع أنّهم لم يبدر منهم أي عمل سيء يستوجب هذا القول؟ والجواب: إنّ المشركين كانوا يتهمون أصحاب رسول الله ﷺ الفقراء بالابتعاد عن الله بسبب فقرهم، زاعمين أنّهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند الله لزمه الترفية والتوسعة عليهم في معيشتهم، بل كانوا يتهمونهم بأنّهم لم يؤمنوا إلّا لضمان معيشتهم والوصول إلى لقمة العيش، فيرد القرآن على ذلك مبينا أنّنا حتى لو فرضنا أنّهم كذلك، فإن حسابهم على الله، ما دام هؤلاء قد آمنوا وأصبحوا في صفوف المسلمين، فلا يجوز طردهم بأي ثمن، وبهذا يقف في وجه إحتجاج أشراف قريش، وشاهد هذا التّفسير ما جاء في حكاية النّبي نوح عليه السّلام التي تشبه حكاية أشراف قريش، فأولئك كانوا يقولون لنوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فيرد عليهم نوح قائلا: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، من هنا يجب على الأنبياء أن يتقبلوا كل امرئ يظهر الإيمان بدون أي تمييز ومن أية طبقة كان فكيف بالمؤمنين الأطهار الذين لا يريدون إلّا وجه الله، وكل ذنبهم هو أنّهم فقراء صفر اليدين من الثروة، ولم يتلوثوا بالحياة الدنيئة لطبقة الأشراف!

٩. إنّنا نعلم أنّ دائرة صلاحيات رجال الدين المسيحيين المعاصرين قد اتسعت اتساعا مضحكا بحيث إنّهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب، فبإمكانهم طرد الأشخاص وتكفيرهم أو قبولهم لأتفه الأمور، إلّا أنّ القرآن، في هذه الآية وفي آيات أخرى ينفي صراحة أن يكون لأحد الحقّ، بل ولا لرسول الله ﷺ نفسه في أن يطرد أحدا أظهر إيمانه ولم يفعل ما يوجب إخراجه من الإسلام، وأن غفران الذنوب والحساب بيد الله وحده، ولا يحق لأحد التدخل في هذا أبدا، والكلام هنا على (الطرد الديني) لا (الطرد

الحقوقي) فلو كانت إحدى المدارس وقفا على طبقة خاصّة من الطلاب، وقبل أحدهم فيها لتوفر شروط القبول فيه، ثمّ فقد بعض تلك الشروط، فإن طرده وإخراجه من تلك المدرسة لا مانع فيه، كذلك لو أنّ مدير مدرسة أعطيت له صلاحيات معينة لغرض إدارة شؤونها، فله كل الحقّ في الاستفادة من تلك الصلاحيات لحفظ النظام ورعاية مصالح المدرسة (فما ورد في حديث صاحب تفسير المنار عند تفسيره الآية ممّا يخالف هذا المعنى ناشي من الاشتباه بين الطرد الديني والطرد الحقوقي)

٣١. فتنة العباد بعضهم ببعض

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية، هم أناس كانوا مع النبي ﷺ من الفقراء، فقال أناس من أشراف الناس: نؤمن لك، وإذا صلّينا معك فأخّر هؤلاء الذين معك فليصلّوا خلفنا[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني: أنّه جعل بعضهم أغنياء، وبعضهم فقراء، فقال الأغنياء للفقراء: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني: هؤلاء هداهم الله! وإنما قالوا ذلك استهزاء وسخريّا[٢].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، يقول: ابتلينا بعضهم ببعض[٣].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ لو كان بهم كرامة على الله ما أصابهم هذا من الجهد[٤].

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٦٧.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٧١.

(٣) عبد الرزاق ١/ ٢٠٨.

(٤) نسبه السيوطي إلى ابن المنذر.

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يقول: وهكذا ابتلينا فقراء المسلمين من العرب والموالي بالعرب من المشركين: أبي جهل، والوليد، وعتبة، وأمية، وسهيل بن عمرو، ونحوهم؛ ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أنعم الله عليهم بالإسلام ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾!؟ يقول الله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ يعني: بالموحدين منكم من غيره، وفيهم نزلت في الفرقان: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾[1].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. سؤال وإشكال: سألت عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، فقلت: ما معنى ذلك؟ والجواب: الفتنة هي: المحنة، والفتنة تكون من: العذاب، وهذه لغة في اليمن إذا غاظ إنسان إنسانا، قال فتنتني؛ قال الله سبحانه: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، يقول: يمتحنون، وقد امتحن الله سبحانه المؤمنين بجهاد الظالمين، وفتن الظالمين بمحاربة المحقين، وعذبهم على ذلك، وأوجب عليهم النكال فيه وبه، ومعنى فتنهم هو: عذبهم؛ لأن الفتنة قد تكون من العذاب؛ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠]، فقال: فتنوا، يريد: عذبوا، وقد فسرنا لك في مسائلك الأولى: الفتنة على كم هي من الوجوه.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾:

أ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ لا يتكلم إلا على أمر سبق، فهو يحتمل أن يقول لما قالوا: يا مُحَمَّد أرضيت بِهَؤُلَاءِ الأعبد من قومك، أفنحن نكون تبعًا لِهَؤُلَاءِ، ونحن سادة القوم وأشرافهم!؟ فقال عند ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٣.

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٨٦.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٩٥.

﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: كما فضلتكم على هَؤُلَاءِ في أمر الدنيا فكذلك فضلتهم عليكم في أمر الدِّين، ويكونون هم المقربين إلى رسول الله ﷺ والمدنين مجلسهم إليه، وأنتم أتباعهم في أمر الدِّين، وإن كانوا هم أتباعكم في أمر الدنيا؛ فكذلك امتحان بعضهم ببعض.

ب. ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن يقال: كما كان له امتحان كل في نفسه ابتداء محنة؛ كقوله: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، وكقوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ الآية، فعلى ذلك له أن يمتحن بعضكم ببعض.

٢. أشد المحن أن يؤمر المتبوع ومن يرى لنفسه فضلا بالخضوع للتابع ومن هو دونه عنده، يشتد ذلك عليه ويتعذر؛ لما كانوا يرون هم لأنفسهم الفضل والمنزلة في أمر الدنيا، فظنوا أنهم كذلك يكونون في أمر الدِّين؛ وعلى ذلك يخرج امتحانه إبليس بالسجود لآدم لما رأى لنفسه فضلا عليه فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، ولم ير الخضوع لمن دونه عدلا وحكمة، فصار ما صار؛ فعلى ذلك هَؤُلَاءِ لم يروا أُولَئِكَ الضعفة أن يكونوا متبوعين عدلا وحكمة، وظنوا أنهم لما كانوا مفضلين في أمر الدنيا، وكان لهَؤُلَاءِ إليهم حاجة - يكونون في أمر الدِّين كذلك، ويقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ونحوه من الكلام.

٣. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾:

أ. قال بعضهم: هو موصول بالأول بقوله: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا﴾ يقول الكافر قول الكفر والمؤمن قول الإيمان ثم ابتدأ فقال: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ أي: يقول الكفرة ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾، ليس بمفصول من قوله: ﴿لِيَقُولُوا﴾ ولكن موصول به ﴿لِيَقُولُوا﴾ يعني الكفرة ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾

ب. ثم يحتمل قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وبالحظ بالتقريب والإدناء في المجلس وجعلهم متبوعين من بيننا بعد ما كانوا أتباعًا لنا فقال عند ذلك ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: عرف هَؤُلَاءِ نعمة الله تعالى، ووجهوا شكر نعمه إليه وأنتم وجهتم شكر نعمه إلى غيره بعد ما عرفتم أنه هو المنعم عليكم والمسدي إليكم.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي امتحنا بعضهم ببعض، ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي لئلا يقولوا، ويسلموا ويقبلوا ما أتاهم الله ولا يغتموا، ولكن اللام في الأفعال المستقبلة وهي لام كي وكيلا وهي تنصب من الأفعال ما كان مستقبلاً تقوم مقام قوله لئلا.

٢. ويمكن أيضاً وجه آخر: أن يكون أراد ليقولوا هؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا ونحن نشهد بفضلهم، ونسلم في ذلك لأمر خالقنا.. ويمكن: أن تكون الألف من قوله أهؤلاء صلة وزيادة، وليس لها معنى غير ما ذكرنا، فكل ذلك جائز في قولنا.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني لاختلافهم في الأرزاق والأخلاق والافتتان والابتلاء والاختبار، ويجوز أن يكون تكليف ما يشق على النفس مع قدرتها عليه ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وهذا قول الملأ من قريش في ضعفاء المؤمنين وفيما من الله تعالى به عليهم قولان

أ. أحدهما: أي ما تفضل الله عليهم من اللطف في إيمانهم.

ب. الثاني: ما ذكرهم في شكرهم على طاعتهم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني لاختلافهم في الأرزاق، والأخلاق، والأحوال، وفي إفتان الله تعالى لهم قولان:

أ. أحدهما: أنه ابتلاؤهم واختبارهم ليختبر به شكر الأغنياء وصبر الفقراء، قاله الحسن، وقتادة.

ب. الثاني: تكليف ما يشق على النفس مع قدرتها عليه.

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٩.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٤.

(٣) تفسير الماوردي: ٢/ ١١٩.

٢. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وهذا قول الملأ من قريش للضعفاء من المؤمنين، وفيما مَنَّ الله تعالى به عليهم قولان:

أ. أحدهما: ما تفضل الله به عليهم من اللطف في إيمانهم.

ب. الثاني: ما ذكره من شكرهم على طاعته.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى الآية أنه تعالى أخبر أنه يمتحن الفقراء بالأغنياء والأغنياء بالفقراء فيختبر صبر الفقراء على ما يرون من حال الأغنياء، وإعراضهم عنهم إلى طاعة الرسل ويختبر شكر الأغنياء وإقرارهم لمن يسبقهم من الفقراء، والموالي والعبيد إلى الإيمان بالرئاسة في الدين والتقدم فيه.

٢. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ليس المراد باللام لام الغرض لأن الله لو قصد ذلك لكان قد قصد بها فعل أن يقولوا هذا القول فيكفروا به ويعصوا ويتعالى الله عن ذلك فكيف يقصده!؟ وقد عابهم من قولهم وهو يعاقبهم عليه وعابهم به، ولكن اللام لام العاقبة، والمعنى إني فعلت ذلك بهم ليصبروا ويشكروا، فكان عاقبة أمرهم أن قالوا ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ومثله قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وقال الشاعر:

وام سماك فلا تجزعي　　　فللشكل ما تلد الوالدة

٣. الذي قال: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هو عيينة بن حصين وأصحابه وقال الزجاج: أي ليقول الكبراء ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي ليكون ذلك آية بينة أنهم اتبعوا الرسول وصبروا على الشدة في حال شديدة.

٤. ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ قال الجبائي: أي شددنا التكليف على أشراف العرب وكبرائهم بأن أمرناهم بالإيمان برسول الله وبتقديم هؤلاء الضعفاء على نفوسهم لتقدمهم إياهم في الإيمان، وكونهم أفضل عند الله، وهذا أمر كان شاقاً عليهم، فلذلك سماه الله فتنة.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/١٤٦.

٥. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي فعلنا هذا بهم ليقول بعضهم لبعض على وجه الاستفهام منه لا على وجه الإنكار ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني بالإيمان إذ رأوا النبي ﷺ يقدم هؤلاء عليهم ويفضلهم وليرضوا بذلك من فعل رسول الله، ولم يجعل هذه الفتنة والشدة في التكاليف ليقولوا ذلك على وجه الإنكار، لأن إنكارهم ذلك كفر بالله ومعصية له والله تعالى لا يريد ذلك ولا يرضاه، لأنه لو أراد ذلك منهم، وفعلوه كانوا مطيعين له لا عاصين وقد ثبت خلافه.

٦. ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ معناه أن الله تعالى أعلم بالشاكرين له ولنعمه من خلقه فيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من الثواب والتعظيم والإجلال، والشاكرون المعنيون بالآية هم هؤلاء الضعفاء ويدخل معهم في ذلك سائر المؤمنين.

٧. سؤال وإشكال: على هذا الوجه الذي ذكرتموه قد وجد من الكفار القول على ما أراده فيجب أن يكونوا مطيعين، ليس في الآية ذلك وأنهم على أي وجه قالوه على وجه الإنكار أو على وجه الاستفهام؟ وإنما بين أنه فعل بهم ليقولوا ذلك على وجه الاستفهام لا على وجه الإنكار، فإن كانوا قالوه على ما أراده الله فهم مطيعون وإن قالوه منكرين فهم عصاة، فلما علمنا أن الله تعالى ذمهم بهذا القول علمنا أنهم لم يقولوه على وجه المراد منهم إنما قالوه على خلاف ما أريد منهم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الفتنة: الاختبار والامتحان، قال الكسائي: أهل نجد يقولون: أَفْتَنَّا القوم، وسواهم فتونًا، وأهل تهامة يقولون: فَتَنَّاهم، وبذلك نزل القرآن.

ب. الشكر: الاعتراف بالنعمة مع القيام بحقها من تعظيم المنعم، وضده الكفر، والشكر يكون بالقلب واللسان.

٢. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا﴾ أي امتحنا، وشددنا التكليف ﴿بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني الغني بالفقير، والفقير

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٧٢.

بالغني:

أ. والامتحان ما على الأغنياء من تعظيم الفقراء وإيفاء حقهم، وترك التهاون بهم، وتفضيلهم على هَؤُلَاءِ الرؤساء من الكفرة؛ لأنهم إذا رأوهم قالوا:، هَؤُلَاءِ سبقونا بالإيمان، وفضلوا علينا، وأما الفقراء بالصبر على أذاهم، وعلى ما حرموا من الدنيا مع منزلتهم والتوسيع على غيرهم.

ب. وقيل: خالفنا بين أحوالهم ليظهر صنيع كل واحد، فالغني مكلف بالشكر وإعطاء الحق، والفقير بالصبر وترك الجزع.

٣. ﴿لِيَقُولُوا﴾:

أ. قيل: كان عاقبة ذلك أن قالوا: أَهَؤُلَاءِ أنعم الله عليهم دوننا، إنكارًا لذلك.

ب. وقيل: لكي يستخبروا هَؤُلَاءِ أنعم الله عليهم، فيؤمنوا كما آمن أولئك، عن أبي علي.

ج. وقيل: ليظهر هذا القول منهم كما علمه من ضمائرهم استخْفافًا بالمؤمنين.

٤. ثُمَّ رد عليهم فقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ يعني: يعلم الشاكر فيعظمه ويفضله، ويعرف قدره دون الكافر.

٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنهم امتحنوا ليقولوا إما استخبارًا، وإما إرادة اللحوق بهم: أَهَؤُلَاءِ، ولا تعلق للمخالفين؛ لأن مثل هذا السؤال على طريق الاستخبار لا يقبح، وفيه لطف؛ لأنهم إذا علموا ما فضلوا به رغبوا في الإيمان.

ب. أن الفقر لا يؤثر في حال الرجل إذا كان مؤمنًا، وقد روي عن النبي ﷺ في أخبار أنه قال: (انظروا إلى من دونكم في الدنيا، وإلى من فوقكم في الدين لتكونوا شاكرين صابرين)، وروي أنه قال: (يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بكذا سنة)، وروي: أن آخر من يدخل الجنة من الصحابة عبد الرحمن لكثرة ماله)، وروي: (أن عليا لما توفي لم يخلف شيئًا)

٦. قرأ ابن عامر: (بالغُدْوَةِ والعشي) بالواو وضم الغين، وفي سورة ﴿الْكَهْفِ﴾ مثله، وقرأ الباقون ﴿بِالْغَدَاةِ﴾ بالألف وفتح الغين في السورتين، وقرأ ابن أبي عبلة: (بالغدوات والعشيات) وأصله الواو، ولذلك يجمع غدوات، وتقلب فتحة الواو إلى الدال، فصارت الواو ألفًا.

٧. مسائل لغوية ونحوية:

أ. الكاف في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كاف التشبيه، والمشبه به اختلاف أحوالهم في الغنى والفقر، والقوة والضعف والعز والذل، وتقديره: اختلاف أحوالهم في الأرزاق والابتلاء كاختلاف سائر أحوالهم.

ب. اللام في قوله: ﴿لِيَقُولُوا﴾: قيل: لام العاقبة أي: صار أمرهم إلى هذا القول، عن أبي مسلم.

ج. الألف في قوله: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ ألف إنكار.

د. ذكرنا ما جاء في لام العاقبة من الآيات والشعر، نحو قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وكقول الشاعر: لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ، وقيل: هو لام ﴿كَيْ﴾ أي ليقولوا: أَهَؤُلَاءِ مَنَّ الله عليهم؟ على الاستفهام لا على الإنكار، وذلك ليخبروا بحالهم فيما مَنَّ الله عليهم، فيرغبوا في منزلتهم، عن أبي علي.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أخبر الله سبحانه أنه يمتحن الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: كما ابتلينا قبلك الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، ابتلينا هؤلاء الرؤساء من قريش بالموالي، فإذا نظر الشريف إلى الوضيع قد آمن قبله، حمي آنفا أن يسلم، ويقول: سبقني هذا بالإسلام، فلا يسلم، وإنما قال سبحانه: ﴿فَتَنَّا﴾ وهو لا يحتاج إلى الاختبار، لأنه عاملهم معاملة المختبر.

٢. ﴿لِيَقُولُوا﴾ هذه لام العاقبة، المعنى: فعلنا هذا ليصبروا ويشكروا، فآل أمرهم إلى هذه العاقبة.

٣. ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا﴾ والاستفهام معناه الانكار، كأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلة، أو خصوا بمنة، وقال أبو علي الجبائي: المعنى في فتنا: شددنا التكليف على أشراف العرب، بأن أمرناهم بالإيمان وبتقديمهم هؤلاء الضعفاء على نفوسهم، لتقدمهم إياهم في الإيمان وهذا أمر كان شاقا عليهم، فلذلك سماه الله فتنة.

٤. قوله: ﴿لِيَقُولُوا﴾ أي: فعلنا هذا بهم ليقول بعضهم لبعض على وجه الاستفهام لا على وجه الانكار، أهؤلاء من الله عليهم بالإيمان إذا رأوا النبي يقدم هؤلاء عليهم، وليرضوا بذلك من فعل رسول

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥٥.

الله، ولم يجعل هذه الفتنة والشدة في التكليف، ليقولوا ذلك على وجه الانكار، لأن إنكارهم لذلك كفر بالله، ومعصية، والله سبحانه، لا يريد ذلك، ولا يرضاه، ولأنه لو أراد ذلك وفعلوه، كانوا مطيعين له، لا عاصين، وقد ثبت خلافه.

٥. قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ هذا استفهام تقرير أي: إنه كذلك، كقول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وهذا دليل واضح على أن فقراء المؤمنين وضعفاءهم، أولى بالتقريب والتقديم والتعظيم من أغنيائهم، ولقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (من أتى غنيا فتواضع لغنائه ذهب ثلثا دينه)

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ المعنى: وكما ابتلينا قبلك الغنيّ بالفقير، ابتلينا أيضا بعضهم ببعض، و(فتنّا) بمعنى: ابتلينا واختبرنا.

٢. ﴿لِيَقُولُوا﴾، يعني الكبراء: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ يعنون الفقراء والضّعفاء ﴿مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالهدى؟ وهذا استفهام معناه الإنكار، كأنهم أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلة، قال ابن السّائب: ابتلى الله الرّؤساء بالموالي؛ فإذا نظر الشريف إلى الوضيع قد آمن قبله، أنف أن يسلم، ويقول: سبقني هذا!

٣. ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: بالذين يشكرون نعمته إذا منّ عليهم بالهداية، والمعنى: إنما يهدي الله من يعلم أنه يشكر، والاستفهام في (أليس)، معناه التّقرير، أي: إنه كذلك.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. بيّن الله تعالى في هذه الآية أن كل واحد مبتلى بصاحبه:

أ. فأولئك الكفار الرؤساء الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين في الإسلام مسارعين إلى قبوله فقالوا: لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين وأن نعترف

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٥.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٤٤.

لهم بالتبعية، فكان ذلك يشق عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥] ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]

ب. وأما فقراء الصحابة فكانوا يرون أولئك الكفار في الراحات والمسرات والطيبات والخصب والسعة، فكانوا يقولون كيف حصلت هذه الأحوال لهؤلاء مع أنا بقينا في هذه الشدة والضيق والقلة.

٢. فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ فأحد الفريقين يرى الآخر متقدما عليه في المناصب الدينية والفريق الآخر يرى الفريق الأول متقدما عليه في المناصب الدنيوية، فكانوا يقولون أهذا هو الذي فضله الله علينا، وأما المحققون فهم الذين يعلمون أن كل ما فعله الله تعالى فهو حق وصدق وحكمة وصواب ولا اعتراض عليه، إما بحكم المالكية على ما هو قول أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ أو بحسب المصلحة على ما هو قول المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ فكانوا صابرين في وقت البلاء، شاكرين في وقت الآلاء والنعماء وهم الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

٣. احتج أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال من وجهين:

أ. الأول: أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ تصريح بأن إلقاء تلك الفتنة من الله تعالى، والمراد من تلك الفتنة ليس إلا اعتراضهم على الله في أن جعل أولئك الفقراء رؤساء في الدين والاعتراض على الله كفر وذلك يدل على أنه تعالى هو الخالق للكفر.

ب. الثاني: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ والمراد من قوله تعالى: ﴿مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو أنه من عليهم بالإيمان بالله ومتابعة الرسول، وذلك يدل على أن هذه المعاني إنما تحصل من الله تعالى لأنه لو كان الموجد للإيمان هو العبد، فالله ما من عليه بهذا الإيمان بل العبد هو الذي من على نفسه بهذا الايمان، فصارت هذه الآية دليلا على قولنا في هذه المسألة من هذين الوجهين.

٤. أجاب المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ:

أ. بأن الفتنة في التكليف ما يوجب التشديد، وإنما فعلنا ذلك ليقولوا أهؤلاء؟ أي ليقول بعضهم لبعض استفهاما لا إنكارا ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بالإيمان؟

ب. وأجاب الكعبي عنه بأن قال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ ليصبروا أو ليشكروا، فكان عاقبة أمرهم أن قالوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ على ميثاق قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ

لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]

٥. أجاب أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ عن الوجهين أنه عدول عن الظاهر من غير دليل لا سيما والدليل العقلي قائم على صحة هذا الظاهر، وذلك لأنه لما كانت مشاهدة هذه الأحوال توجب الأنفة، والأنفة توجب العصيان والإصرار على الكفر، وموجب الموجب موجب، كان الإلزام واردا.

٦. في كيفية افتتان البعض بالبعض وجوه:

أ. الأول: أن الغنى والفقر كانا سببين لحصول هذا الافتتان كما ذكرنا في قصة نوح عليه السلام، وكما قال في قصة قوم صالح ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]

ب. الثاني: ابتلاء الشريف بالوضيع.

ج. الثالث: ابتلاء الذكي بالأبله.

٧. وبالجملة فصفات الكمال مختلفة متفاوتة، ولا تجتمع في إنسان واحد ألبتة، بل هي موزعة على الخلق وصفات الكمال محبوبة لذاتها، فكل أحد يحسد صاحبه على ما آتاه الله من صفات الكمال، فأما من عرف سر الله تعالى في القضاء والقدر رضي بنصيب نفسه وسكت عن التعرض للخلق، وعاش عيشا طيبا في الدنيا والآخرة.

٨. سؤال وإشكال: قال هشام بن الحكم: إنه تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند حدوثها، واحتج بهذه الآية، لأن الافتتان هو الاختبار والامتحان، وذلك لا يصح إلا لطلب العلم والجواب: قد مر غير مرة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي كما فتنا من قبلك كذلك فتنا هؤلاء، والفتنة الاختبار، أي عاملناهم معاملة المختبرين، ﴿لِيَقُولُوا﴾ نصب بلام كي، يعني الأشراف والأغنياء، ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ يعني الضعفاء والفقراء، ﴿مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٣٤.

٢. سؤال وإشكال: قال النحاس: وهذا من المشكل، لأنه يقال: كيف فتنوا ليقولوا هذه الآية؟ لأنه إن كان إنكارا فهو كفر منهم، والجواب: في هذا جوابان:

أ. أحدهما: أن المعنى اختبر الأغنياء بالفقراء أن تكون مرتبتهم واحدة عند النبي ﷺ، ليقولوا على سبيل الاستفهام لا على سبيل الإنكار: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾

ب. والجواب الآخر: أنهم لما اختبروا بهذا فآل عاقبته إلى أن قالوا هذا على سبيل الإنكار، وصار مثل قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص]

٣. ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فيمن عليهم بالإيمان دون الرؤساء الذين علم الله منهم الكفر، وهذا استفهام تقرير، وهو جواب لقولهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وقل: المعنى أليس الله بأعلم من يشكر الإسلام إذا هديته إليه.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي مثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض، والفتنة الاختبار: أي عاملناهم معاملة المختبرين.

٢. اللام في ﴿لِيَقُولُوا﴾ للعاقبة: أي ليقول البعض الأوّل مشيرين إلى البعض الثاني ﴿أهؤُلاءِ الذين مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا﴾ أي أكرمهم بإصابة الحق دوننا، قال النحاس: وهذا من المشكل، لأنه يقال: كيف فتنوا ليقولوا هذا القول وهو إن كان على طريقة الإنكار كفر، وأجاب بجوابين: الأوّل أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار؛ الثاني أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبته هذا القول منهم كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وحَزَناً﴾

٣. ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير، والمعنى: أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر، وهو أعلم بالشاكرين له، فما بالكم تعترضون بالجهل وتنكرون الفضل.

أَطَّفَيِّش:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٧.

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ أي: فتنَّا مثل الأقرع بمثل عَمَّار، والمراد ما تقدَّم لا مسألة أخرى، كأنَّه قيل: فتنَّا بعضًا ببعض على الوصف المذكور في الآية ضمنًا.

٢. وإنَّما أعاده ليرتِّب عليه قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ تعليل أو عاقبة لـ (فَتَنَّا)، سواء أبقي على ظاهره وهو: ابتلينا، أو أوَّلناه بـ (خذلنا)، كما قيل: إنَّه لا يَصِحُّ تعليلاً إلَّا على تضمين (خذلنا)، ووَاوُ (يَقُولُوا) لنحو الأقرع، أي: ليقول الأكابر الأغنياء، والتشبيه غير مراد على الحقيقة، وإلَّا لزم تشبيه الشيء بنفسه؛ وممَّا يتخرَّج به عمَّا هو ظاهر اللفظ من تشبيه الشيء بنفسه أن يجعل المشبَّه به الأمر المقرَّر في العقول، والمشبَّه ما دلَّ عليه الكلام من الأمر الخارجيِّ، أو أن يقال: مثل ذلك الفَتْن العظيم فَتَنَّا بعض الناس ببعض غير من ذُكر في القصَّة من المؤمنين والكافرين، وذلك في أمر الدِّين، وأن يقال: مثل ما فتنَّا الكفَّار بحسب غِناهم وفقر المؤمنين حتَّى أهانوهم، فتنَّاهم بحسب سبق المؤمنين إلى الإيمان، وتخلُّفهم عنه حتَّى حسدوهم، ويجوز كون اللام بمعنى الباء، ليكون مصدر (يَقُول) مع اللام بدل اشتمال من قوله: ﴿بِبَعۡضٖ﴾

٣. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ منصوب المحلِّ على الاشتغال، أي: أَأَختارَ الله هؤلاء؟ أو فضَّل هؤلاء، أو مبتدأٌ خبرُه ما بعد، والنصب أولى، لأنَّ طلب الهمزة للفعل أولى من عدم الإضمار، والمشار إليه: المؤمنون الموالي الفقراءُ الضعفاء.

٤. ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ بالإيمان والتوفيق لما يسعدهم دنيًا وأخرى، وامتازوا بالخير عنَّا، ما الذي يدعو إليه محمَّد خيرًا، ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]، ونحن الأشراف وهم سفلة، أو اعترفوا بفضل المؤمنين الفقراء عليهم بالسبق إلى الإيمان لكن خافوا أن يدخلوا في الإسلام فينقادوا لهم ويكونوا تبعًا لهم، وكأنَّه قيل: أَنَنْقادُ إلى ما نكون به تحتهم لِسَبقِهم إليه!؟.

٥. ويجوز أن يكون الفَتْنُ من الجهة المذكورة والجهة الأخرى جميعًا، وهي أن يقول المؤمنون الفقراء: كيف أعطى الله هؤلاء القوم راحة ومسرَّة ومالاً وطيب العيش مع أنَّهم غير منقادين للإسلام؟

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٧٥.

ونحن منقادون له وقد بقينا في ضيق المعيشة!؟، والاستفهام إنكار للياقة ما ذكر بعده، والله يفعل في ملكه ما يشاء لا اعتراض عليه، والقوم بطروا واعترضوا، وهؤلاء المؤمنون صبروا وقت البلاء وشكروا وقت النعماء، كما قال الله في حقِّهم ردًا على القوم، ومبيِّنًا لسبب تقديمهم وتفضيلهم: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن شكر وَاسْتَمَرَّ على الشكر فيثيبه عليه، وبمن كفر وَاسْتَمَرَّ فيعاقبه؛ أو بمن يشكر لقضائه فيوَفِّقه للشكر، وبمن قضى عليه بالكفر فيخذله.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ﴾ هم الشرفاء ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم المستضعفون، بما مننا عليهم بالإيمان، وقوله: ﴿لِيَقُولُوا﴾ أي: الشرفاء ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ أي المستضعفون، ﴿مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: بشرف الإيمان مع أن الشرفاء على زعمهم، أولى بكل شرف، فلو كان شرفا لانعكس الأمر، فهو إنكار لأن يخصّ هؤلاء من بينهم بإصابة الحق، والسبق إلى الخير، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]

٢. ثم أشار تعالى إلى أنه إنما منّ عليهم بنعمة الإيمان لأنه علم أنهم يعرفون قدر هذه النعمة، فيشكرونها حق شكرها، وأما أولئك، فلا يعرفون قدرها، فلا يشكرونها، بقوله سبحانه ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾؟ فهو ردّ لقولهم ذلك، وإبطال له، وإشارة إلى أن مدار استحقاق الإنعام، معرفة شأن النعمة، والاعتراف بحق المنعم، كما أن فيه من الإشارة إلى أن أولئك المستضعفين عارفون بحق نعم الله تعالى في تنزيل القرآن، والتوفيق للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك، مع التعريض بأن القائلين بمعزل عن ذلك كله ـ ما لا يخفى.

٣. قال الحافظ ابن كثير: إن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس، من الرجال والنساء، والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] الآية ـ وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ـ حين سأله عن تلك المسائل ـ: (فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٧١.

الرسل) وكان مشركو مكة يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا﴾ كقوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]؟ قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال في جوابهم هنا: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، أي: له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

٤. قال قال الحاكم الجشمي في التهذيب: دلت الآية الكريمة على:

أ. أن الواجب في الدعاء الإخلاص به، لأنه تعالى قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ـ هكذا قال الحاكم ـ وهكذا جميع الطاعات، لا تكون لغرض الدنيا، قال النفس الزكية عليه السلام: إذا دعا الإمام ثم وجد أفضل منه، وجب عليه أن يسلم الأمر له، فإن لم يفعل ذلك فسق، لأنه إن لم يفعل دل على أنه طالب للدنيا،

ب. ودلت على أن الغداة والعشيّ لهما اختصاص بفضل العمل والدعاء، فلذلك خصهما بالذكر.

ج. دلت على أن أحدا لا يؤخذ بذنب غيره، وهي كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقد تقدم ما ذكر فيها ورد أن الميت ليعذّب ببكاء أهله، على أن المراد إذا أوصاهم بذلك.

د. ودلت على أن حديث النفس لا يؤاخذ به، لأنه قد روي أنه ﷺ قد همّ بذلك.

هـ. ودلت على أن الفقر لا يؤثر في حال المؤمن، وقد ورد في الحديث عنه ﷺ: يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بكذا سنة، روي أن عليّا عليه السلام لم يخلف شيئا بعد وفاته.

٥. قال ابن الفرس: قد يؤخذ من هذه الآية أن لا يمنع من يذكّر الناس بالله وأمور الآخرة في جامع أو طريق أو غيره، قال وقد اختلف المتأخرون في مؤذن يؤذن بالأسحار، ويبتهل بالدعاء، يردّد ذلك إلى الصباح، وتأذى به الجيران، هل يمنع؟ واستدل (من قال لا يمنع) بهذه الآية، وبقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٤].. الآية)

٦. ﴿وَكَذَلِكَ﴾:

أ. جعل الزمخشري (ذلك) إشارة إلى هذا الفتن المذكور، حيث قال ومثل ذلك الفتن العظيم، فتنا

بعض الناس ببعض، أي: ابتليناهم بهم، وعبر عنه بذلك، إيذانا بتفخيمه، كقولك: ضربت زيدا ذلك الضرب، ولا يلزم منه تشبيه الشيء بنفسه، لأن المثل ليس بمراد، إنما جيء به مبالغة، كما يقال: (ذلك كذلك) كذا قرره العلامة، يعني: أن التشبيه كما يجعل كناية عن الاستمرار، لأن ما له أمثال يستمر نوعه بتجدد أمثاله، كما أشار إليه شراح الحماسة في قوله:

هكذا يذهب الزمان ويفنى العـ ... ـلم فيه ويدرس الأثر

والاستمرار يقتضي التحقق والتقرر ويستلزمه، فجعل في أمثال هذا بواسطة الإشارة إلى البعيد عبارة عن تحقق أمر عظيم، وكونه عظيما مستفاد من لفظ (ذلك) المشار به إلى هذا الفتن القريب المذكور، وليست الكاف فيه زائدة، ومن قال إنها مقحمة أراد أن التشبيه فيه غير مقصود فيه، بل المراد لازمه الكنائي أو المجازي، والزمخشري، لما في هذا الوجه من البلاغة والدقة، اختاره فيما ورد فيه كذلك ـ قاله الخفاجي في (العناية) ـ.

ب. وقال أبو السعود: (ذلك) إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل، ومحله في الأصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف، والتقدير: فتنا بعضهم ببعض فتونا كائنا مثل ذلك الفتون، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة، فصار نفس المصدر المؤكد، لا نعتا له، والمعنى: ذلك الفتون الكامل فتنا، قال الشهاب: هذا الإقحام للمبالغة، مطرد في عرفي العرب والعجم)

ج. وقيل: الكاف ليست بزائدة، والمشار إليه هو المشبه به، الأمر المقرر في الذهن، والمشبه ما دل عليه الكلام من الأمر الخارجي، والمبالغة إنما يفيدها الإبهام الذهني والتفسير بقوله: ﴿فَتَنَّا﴾، وهو ما يعلمه كل أحد من الفتن من هو ـ انظر (العناية) ـ.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: ومثل ذلك الفتن ـ أي الابتلاء والاختبار العظيم الذي دل عليه النظم الكريم بمعونة وقائع الأحوال، وما كان عند نزول السورة من التفاوت بين المؤمنين

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٧٠

والكفار، فتنا بعضهم ببعض، أي جعلنا ـ بحسب سنتنا في غرائز البشر وأخلاقهم ـ بعضهم فتنة لبعض تظهر به حقيقة حاله غير مشوبة بشيء من الشوائب التي تلتبس بها في العادة، كما يظهر للصائغ حقيقة الذهب والفضة يفتنها بالنار أو بعرضها على الفتانة (حجر الصائغ)

٢. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي ليترتب على هذا الفتن أن يقول المفتونون من الأقوياء المستكبرين، في شأن الضعفاء من المؤمنين: أهؤلاء الصعاليك من العبيد والموالي والفقراء والمساكين من الله عليهم فخصهم بهذه النعمة العظيمة من جملتنا ومجموعنا أو من دوننا؟ المن: الإثقال بنعمة عظيمة أو نعم كثيرة، والاستفهام للإنكار والتعجيب، يعنون أنه لا يتأتى ذلك لأنهم هم المفضلون عند الله تعالى بما أعطاهم من الغنى والثروة والجاه والقوة، فلو كان هذا الدين خيرا لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء، قياسا على ما أعطاهم قبله من الجاه والثراء، ومن شواهد هذا القياس ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، قال المفسرون: أي عظيم بالمال والجاه كالوليد بن المغيرة المخزومي من مكة وهي إحدى القريتين، أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف وهي القرية الأخرى، وقيل: المراد بعظيم مكة أبو جهل، والشواهد على هذا القياس الحملي كثيرة عنهم وعن غيرهم.

٣. وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ وهذا الاستفهام التقريري على أكمل وجه؛ لبنائه على إحاطة علمه تعالى، ووجه الرد أن الحقيقي بمن الله وزيادة نعمه إنما هم الذين يقدرونها قدرها، ويعرفون حق المنعم بها، فيشكرونها له باستعمالها فيما تتم به حكمته وتنال مرضاته ـ لا من سبق إنعامه عليهم فكفروا وبطروا، وعتوا عن أمره، واستكبروا بل هؤلاء جديرون بأن يسلب منهم ما كان أنعم به عليهم، وبهذا مضت سنته في عباده، ولولا ذلك لكانت النعم خالدة تالدة لا تنزع ممن أوتيها، بل تزاد وتضاعف له وإن كفر بها، وإذا لما افتقر غني، ولا ضعف قوي، ولا ذل عزيز ولا ثل عرش أمير، وهل الحق الواقع إلا خلاف هذا؟ وهل فتن أولئك الكبراء إلا بالواقع لهم من الغنى والقوة، فظنوا لقصر نظرهم، وغرورهم بحاضرهم، وجهلهم بسنة الله في أمثالهم ـ أنه تعالى ما أعطاهم ذلك إلا تكريما لذواتهم، وتفضيلا لهم على غيرهم، حتى إن أحدهم ليحسب أن هذا حق له على ربه في الدنيا والآخرة، وإن كان لا يؤمن بالآخرة، كما بين تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ

هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ وأنزل في العاص بن وائل من طغاة قريش ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي في الآخرة ـ الآيات، وقال بعض المغرورين بهذا القياس:

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

٤. وقد كشف الله تعالى هذا الغرور في آيات كثيرة وضرب لأصحابه الأمثال كمثل ذي الجنتين في سورة الكهف، وزجر أهله وأضدادهم في سورة الفجر، وفصل لهم الحقيقة في سورة الإسراء، بقوله: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾، وهذا الرد على المشركين هنا يدل على أنه لا يدوم لهم من النعم، ما اغتروا به، ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذي صبروا عليه، بل لا بد أن تنعكس الحال، فيسلب أولئك الأقوياء ما أعطوا من القوة والمال، وتدول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين فيكونوا هم الأئمة الوارثين؛ لأن الله تعالى وفقهم للإيمان، وأودع في أنفسهم الاستعداد للشكر وهو يوجب المزيد ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وكذلك كان، وصدق وعد الرحمن وظهر إعجاز القرآن، وما بعد بيان الله تعالى من بيان، وإننا نرى الناس عن هدايته غافلين، وبوجوه إعجازه جاهلين، حتى إن فيمن يسمون المسلمين منهم من يفتتن بشبهة أولئك المشركين الداحضة، فيجعلها حجة ناهضة؛ تارة على تفضيل الأغنياء على الفقراء، وتارة على تفضيل الأمم القوية على الأمم الضعيفة، جاهلين أن الفضيلة الصحيحة في شكر النعم باستعمالها فيما يرضي الرب لا في أعيان النعم التي ترى في اليد، فرب غني شاكر، ورب فقير صابر، وكم من منعم سلب النعمة بكفرها، وكم من محروم أوتي النعم بالاستعداد لشكرها، ثم زيدت بقدر شكره لها، وكم من قوي أضعفه الله ببغيه، وكم من ذليل أعزه الله بإيمانه وعدله.

٥. هذا وإن ظاهر حكاية قول المفتونين يدل من المشركين على أن المراد بقوله: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ فتنا كبراء المشركين بضعفاء المؤمنين ـ أي اختبرنا به حالهم في كون تركهم للإيمان لم يكن إلا جحودا ناشئا عن الكبر والعلو في الأرض، لا عن حجة ولا شبهة مما يظهرونه، ومفهومه أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتتنوا بغنى كبراء المشركين وقوتهم، وقد زعم بعض المفسرين أنهم فتنوا وإن لم تبين الآية كيف كان ذلك، إذ لم تحك شيئا عن لسانهم، وقد ورد في الاختبار العام قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي جعلنا كلا منكم اختبارا للآخر في اختلاف حاله معه بالغنى

والفقر، أو القوة والضعف، أو الصحة والمرض، أو العلم والجهل، أو غير ذلك ـ هذا يحتقر هذا ويبغي عليه، وهذا يحسد هذا ويكيد له، فاصبروا فإنه لا يسلم من هذه الفتن إلا الصابرون، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الصابرين الشاكرين.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين الله تعالى أن مقال المشركين في شأن المستضعفين ابتلاء من الله وفتنة فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ومثل ذلك الفتن أي الابتلاء والاختبار، فتنا بعضهم ببعض: أي جعلنا بحسب سنتنا في غرائز البشر وأخلاقهم ـ بعضهم فتنة لبعض تظهر به حقيقة حاله، كما يظهر للصائغ حقيقة الذهب والفضة بفتنتهما بالنار.

٢. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي لتكون العاقبة أن يقول المفتونون من الأقوياء في شأن الضعفاء من المؤمنين: أهؤلاء الصعاليك من العبيد والموالي والفقراء والمساكين خصهم الله بهذه النعمة العظيمة من جملتنا أو من مجموعنا؟

٣. والخلاصة ـ إن ذلك لن يكون، لأنهم هم المفضّلون عند الله بما آتاهم من غنى وثروة وجاه وقوة، فلو كان هذا الدين خيرا لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء كما أعطاهم من قبل الجاه والثروة، وقد حكى الله عنهم مثل هذا بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾

٤. ثم رد عليهم مقالتهم الدالة على العتوّ والاستكبار بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي إن المستحقّ لمنّ الله وزيادة نعمه إنما هو من يقدّرها قدرها، ويعرف حق المنعم بها فيشكره عليها، لا من سبق الإنعام عليه فكفر وبطر وعتا واستكبر، وبهذا مضت سنة الله في عباده، ولولا هذا لكانت النعم خالدة لا تنزع ممن أوتيها وإن كفر بها، وهل فتن أولئك الكبراء إلا بما حصل لهم من الغنى والقوة؟ فظنوا جهلا منهم بسنة الله في أمثالهم أنه تعالى ما أعطاهم ذلك إلا تكريما لذواتهم، وتفضيلا لهم على غيرهم.

٥. وفى الآية إيماء إلى أن ما اغترّوا به من النعم لن يدوم، ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذي

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٣٧.

صبروا عليه، بل لا بد أن تنعكس الحال فيسلب الأقوياء ما أعطوا من قوة ومال، وتدول الدّولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين فيكونوا هم الأئمة الوارثين ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ كذلك فيها إشارة إلى أن تركهم للإيمان لم يكن إلا جحودا ناشئا عن الكبر والعلوّ في الأرض لا عن حجة ولا عن شبهة، وإلى أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتنوا بغنى كبراء المشركين وقوتهم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون: كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقونا إليه؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمنُّ الله عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه! وكانت هذه هي الفتنة التي قدرها الله لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التي يطلع بها على البشرية، مشرقة الآفاق، مصعدة بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة؛ التي كانت يومذاك غريبة على العرب وعلى الدنيا كلها؛ وما تزال غريبة في ما يسمونه الديمقراطيات على اختلاف أشكالها وأسمائها! ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾

٢. ويرد السياق القرآني على هذا الاستفهام الاستنكاري الذي يطلقه الكبراء: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ هذا الرد الحافل بالإيحاءات والإيماءات، إذ يقرر ابتداء أن الهدى جزاء يجزي به الله من يعلم من أمرهم أنهم إذا هدوا سيشكرون هذه النعمة، التي لا كفاء لها من شكر العبد، ولكن الله يقبل منه جهده ويجزيه عليه هذا الجزاء الهائل الذي لا يعد له جزاء.

٣. وإذ يقرر أن نعمة الإيمان لا تتعلق بقيمة من قيم الأرض الصغيرة التي تسود في الجاهليات البشرية، إنما يختص الله بها من يعلم أنهم شاكرون عليها، لا يهم أن يكونوا من الموالي والضعاف والفقراء، فميزان الله لا مكان فيه لقيم الأرض الصغيرة التي تتعاظم الناس في الجاهليات! وإذ يقرر أن اعتراض

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٠١.

المعترضين على فضل الله إنما ينشأ من الجهالة بحقائق الأشياء، وأن توزيع هذا الفضل على العباد قائم على علم الله الكامل بمن يستحقه من هؤلاء العباد، وما اعتراض المعترضين إلا جهل وسوء أدب في حق الله..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. كان أكثر ما دخل على زعماء قريش وسادتها الذين آثروا الكفر على الإيمان واستحبّوا العمى على الهدى ـ كان أكثر ما دخل عليهم من دعوة الإسلام، وصدّهم عنها، أن سبقهم إليها جماعات ممن لم يكونوا أصحاب سيادة أو رئاسة فيهم ـ بل كانوا من الفقراء والمستضعفين والأرقّاء من الرجال والنساء ـ فأنف هؤلاء السادة أن ينضموا إلى ركب العبيد، وحسبوا أن الدين والدنيا على سواء، وأن من كان عزيزا في الدنيا، فهو سيد وعزيز في الدّين، وبدا لهؤلاء السادة أن ما جاء به محمد ليس فيه ما يرفع من مقام السادة، أو حتى يحتفظ لهم بمكانهم الذي هم فيه ـ وإذن فزهدهم في هذا الدين، وصرف وجوههم عنه هو الموقف، الذي ينبغي عليهم أن يلتزموه، وأن يدعو هذا الدين للعبيد والإماء، ومن هو مثلهم ضعفا وفقرا، فلن يزيدهم هذا الدين، إلا فقرا وضعفا.. هكذا كان تقدير السادة والزعماء من مشركي قريش، وهكذا كان تصورهم للرسالة الإسلامية، وما تحمل من هدى ونور.. وهذا ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]

٢. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ هو بيان لهذا الموقف الذي وقفه سادة قريش وكبراؤها من دعوة الإسلام، وأنهم إنما ضلّوا الطريق إلى الإيمان بالله بسبب أنّ جماعة من المستضعفين والفقراء قد سبقوهم إليه، فقد كان ذلك فتنة لهم، وكان لسان حالهم يقول ما حكاه القرآن عنهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يقولونها تهكما وسخرية.. إذ كيف يختار الله لدينه منهم من هم أنزل الناس منزلة فيهم؟

٣. وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.. فالله سبحانه وتعالى هو الذي اختار هؤلاء الذين سبقوا إلى الإسلام، ودعاهم إلى مائدته، وأقامهم في الصفوف الأولى منها، لما علم سبحانه

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٩٥.

وتعالى من قبولهم لدعوته، وشكرهم لفضله ونعمته، أما هؤلاء السادة المتكبرون، فليسوا أهلا لأن يدعو من الله، ولا أن يكونوا في السابقين إلى مائدة الإسلام، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾، معنى الفتنة هنا الاختبار، واختبار الله لعبده أن يظهره للملإ على حقيقته عن طريق أفعاله وأعماله، كما بينا ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٩٤ من سورة المائدة، فقرة: معنى الاختبار من الله، واللام في ليقولوا للعاقبة، أي اختبرنا الأغنياء بالفقراء، ليشكروا الله على نعمته عليهم، فآل أمرهم إلى التكبر والاستعلاء، قال الإمام علي: (لا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلا بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع الغنى والاقتدار، وقد قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون على فرعون وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما العصي، فشرطا إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذل؟، فهلا ألقي عليهما اسارة من ذهب؟)، ـ إلى قوله ـ: (ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالهم)

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الواو استئنافية كما هي في نظائره، والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ السامع لمّا شعر بقصّة أومأ إليها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية يأخذه العجب من كبرياء

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ١٢١.

عظماء أهل الشرك وكيف يرضون البقاء في ضلالة تكبّرا عن غشيان مجلس فيه ضعفاء الناس من الصالحين، فأجيب بأنّ هذا الخلق العجيب فتنة لهم خلقها الله في نفوسهم بسوء خلقهم.

٢. وقعت هذه الجملة اعتراضا بين الجملتين المتعاطفتين تعجيلا للبيان، وقرنت بالواو للتنبيه على الاعتراض، وهي الواو الاعتراضية، وتسمّى الاستئنافية؛ فبيّن الله أنّ داعيهم إلى طلب طردهم هو احتقار في حسد؛ والحسد يكون أعظم ما يكون إذا كان الحاسد يرى نفسه أولى بالنعمة المحسود عليها، فكان ذلك الداعي فتنة عظيمة في نفوس المشركين إذ جمعت كبرا وعجبا وغرورا بما ليس فيهم إلى احتقار للأفاضل وحسد لهم، وظلم لأصحاب الحق، وإذ حالت بينهم وبين الإيمان والانتفاع بالقرب من مجلس الرسول ﷺ.

٣. والتشبيه مقصود منه التعجيب من المشبّه بأنّه بلغ الغاية في العجب.

٤. واسم الإشارة عائد إلى الفتون المأخوذ من (فتنّا) كما يعود الضمير على المصدر في نحو ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي فتنّا بعضهم ببعض فتونا يرغب السامع في تشبيهه وتمثيله لتقريب كنهه فإذا رام المتكلّم أن يقرّبه له بطريقة التشبيه لم يجد له شبيها في غرائبه وفظاعته إلّا أن يشبّهه بنفسه إذ لا أعجب منه، على حدّ قولهم: والسفاهة كاسمها، وليس ثمّة إشارة إلى شيء متقدّم مغاير للمشبّه، وجيء باسم إشارة البعيد للدلالة على عظم المشار إليه، وقد تقدّم تفصيل مثل هذا التشبيه عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ في سورة البقرة [١٤٣]

٥. والمراد بالبعض المنصوب المشركون فهم المفتونون، وبالبعض المجرور بالباء المؤمنون، أي فتنّا عظماء المشركين في استمرار شركهم وشرك مقلّديهم بحال الفقراء من المؤمنين الخالصين كما دلّ عليه قوله: ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] فإنّ ذلك لا يقوله غير المشركين، وكما يؤيّده قوله تعالى في تذييله ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

٦. والقول يحتمل أن يكون قولا منهم في أنفسهم أو كلاما قالوه في ملئهم، وأيّا ما كان فهم لا يقولونه إلّا وقد اعتقدوا مضمونه، فالقائلون ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم المشركون.

٧. واللام في قوله: ﴿لِيَقُولُوا﴾ لام التعليل، ومدخولها هو أثر العلّة دالّ عليها بعد طيّها على طريقة الإيجاز، والتقدير: فتنّاهم ليروا لأنفسهم شفوفا واستحقاقا للتقدّم في الفضائل اغترارا بحال الترفّه

فيعجبوا كيف يدعى أنّ الله يمنّ بالهدى والفضل على ناس يرونهم أحطّ منهم، وكيف يعدّونهم دونهم عند الله، وهذا من الغرور والعجب الكاذب، ونظيره في طيّ العلّة والاقتصار على ذكر أثرها قول إياس بن قبيصة الطائي:

وأقدمت والخطّيّ يخطر بيننا لأعلم من جبانها من شجاعها

أي ليظهر الجبان والشجاع فأعلمهما.

٨. والاستفهام مستعمل في التعجّب والإنكار، كما هو في قوله: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]، والإشارة مستعملة في التحقير أو التعجيب كما هي في قوله تعالى حكاية عن قول المشركين ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ في سورة الأنبياء [٣٦]، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لقصد تقوية الخبر.

٩. وقولهم: ﴿مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ قالوه على سبيل التهكّم ومجاراة الخصم، أي حيث اعتقد المؤمنون أنّ الله منّ عليهم بمعرفة الحق وحرم صناديد قريش، فلذلك تعجّب أولئك من هذا الاعتقاد، أي كيف يظنّ أنّ الله يمنّ على فقراء وعبيد ويترك سادة أهل الوادي، وهذا كما حكى الله عنهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذه شنشنة معروفة من المستكبرين والطغاة، وقد حدث بالمدينة مثل هذا، روى البخاري أنّ الأقرع بن حابس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّما بايعك سرّاق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينة فقال له رسول الله: أرأيت إن كانت أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيرا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان أخابوا وخسروا (أي أخاب بنو تميم ومن عطف عليهم) فقال: نعم قال: فو الذي نفسي بيده إنّهم لخير منهم.

١٠. وفي الآية معنى آخر، وهو أن يكون القول مضمرا في النفس، وضمير ﴿لِيَقُولُوا﴾ عائدا إلى المؤمنين الفقراء، فيكونوا هم البعض المفتونين، ويكون البعض المجرور بالباء صادقا على أهل النعمة من المشركين، وتكون إشارة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ راجعة إلى عظماء المشركين ويكون المراد بالمنّ إعطاء المال وحسن حال العيش، ويكون الاستفهام مستعملا في التحيّر على سبيل الكناية، والإشارة إلى المشركين معتبر فيها ما عرفوا به من الإشراك وسوء الاعتقاد في الله، والمعنى: وكذلك الفتون الواقع لعظماء المشركين، وهو فتون الإعجاب والكبرياء حين ترفّعوا عن الدخول فيما دخل فيه الضعفاء والعبيد من تصديق محمد ﷺ وصحبته استكبارا عن مساواتهم، كذلك كان فتون بعض آخر وهم بعض المؤمنين حين يشاهدون طيب

عيش عظماء المشركين في الدنيا مع إشراكهم بربّهم فيعجبون كيف منّ الله بالرزق الواسع على من يكفرون به ولم يمنّ بذلك على أوليائه وهم أولى بنعمة ربّهم، وقد أعرض القرآن عن التصريح بفساد هذا الخاطر النفساني اكتفاء بأنّه سمّاه فتنة، فعلم أنّه خاطر غير حقّ، وبأنّ قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ مشير إلى إبطال هذه الشبهة، ذلك بأنّها شبهة خلطت أمر شيئين متفارقين في الأسباب، فاشتبه عليهم الجزاء على الإيمان وما أعدّ الله لأهله من النعيم الخالد في الآخرة، المترتّب عليه ترتّب المسبّب على السبب المجعول عن حكمة الله تعالى، بالرزق في الدنيا المترتّب على أسباب دنيوية كالتجارة والغزو والإرث والهبات، فالرزق الدنيوي لا تسبّب بينه وبين الأحوال القلبية ولكنّه من مسبّبات الأحوال الماديّة فالله أعلم بشكر الشاكرين، وقد أعدّ لهم جزاء شكرهم، وأعلم بأسباب رزق المرزوقين المحظوظين، فالتخليط بين المقامين من ضعف الفكر العارض للخواطر البشرية والناشئ عن سوء النظر وترك التأمّل في الحقائق وفي العلل ومعلولاتها، وكثيرا ما عرضت للمسلمين وغيرهم شبه وأغلاط في هذا المعنى صرفتهم عن تطلّب الأشياء من مظانّها وقعدت بهم عن رفو أخلالهم في الحياة الدنيا أو غرّتهم بالتفريط فيما يجب الاستعداد له كل ذلك للتخليط بين الأحوال الدينية الأخروية وبين السنن الكونية الدنيوية، كما عرض لابن الراوندي من حيرة الجهل في قوله:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقّاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصيّر العالم النّحرير زنديقا

ولا شكّ أنّ الذين استمعوا القرآن ممّن أنزل عليه ﷺ قد اهتدوا واستفاقوا، فمن أجل ذلك تأهّلوا لامتلاك العالم ولاقوا.

١١. و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ ابتدائية، و(بين) ظرف يدلّ على التوسّط، أي منّ الله عليهم مختارا لهم من وسطنا، أي منّ عليهم وتركنا، فيؤول إلى معنى من دوننا.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ تذييل للجملة كلّها، فهو من كلام الله تعالى وليس من مقول القول، ولذلك فصل، والاستفهام تقريري، وعديّ ﴿بِأَعْلَمَ﴾ بالباء لأنّه بصيغة التفضيل صار قاصرا، والمعنى أنّ الله أعلم بالشاكرين من عباده فلذلك منّ على الذين أشاروا إليه بقولهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ بمنّة الإيمان والتوفيق.

١٢. ومعنى علمه تعالى بالشاكرين أنّه أعلم بالذين جاءوا إلى الرسول ﷺ مستجيبين لدعوته بقريحة طالبين النجاة من الكفر راغبين في حسن العاقبة، فهو يلطف بهم ويسهّل لهم الإيمان ويحبّبه إليهم ويزيّنه في قلوبهم ويزيدهم يوما فيوما تمكّنا منه وتوفيقا وصلاحا، فهو أعلم بقلوبهم وصدقهم من الناس الذين يحسبون أنّ رثاثة حال بعض المؤمنين تطابق حالة قلوبهم في الإيمان فيأخذون الناس ببزّاتهم دون نيّاتهم، فهذا التذييل ناظر إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]

١٣. وقد علم من قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أنّه أيضا أعلم بأضدادهم، ضدّ الشكر هو الكفر، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] فهو أعلم بالذين يأتون الرسول ﷺ مستهزءين متكبّرين لا همّ لهم إلّا تحقير الإسلام والمسلمين، وقد استفرغوا وسعهم ولبّهم في مجادلة الرسول ﷺ وتضليل الدهماء في حقيقة الدين، ففي الكلام تعريض بالمشركين.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. إن هذا بلا ريب اختبار لنفوس الأقوياء فقوله: ﴿فَتَنَّا﴾ معناها اختبرنا، وكان فتنة لهم من ناحيتين:

أ. الأولى: أن جاههم مع كبريائهم سيكون حاجزا لا يسهل دخول الإيمان في قلوبهم.

ب. الثانية: سيجدون أن الذين يسبقونهم إلى الإسلام هم الضعفاء، فيكون ذلك صعوبة نفسية أخرى لا تسهل دخول الحق إلى قلوبهم، ويقول قائلهم الضال: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف]

٢. والكاف في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا﴾ للتشبيه، وقد شبهت الصورة الكلية لاختبار الله تعالى لخلقه، أو على الحقيقة معاملته معاملة المختبر لهم شبهت تلك الصورة بهذه الحالة القائمة، التي آمن فيها الضعفاء وسبقوا بها الأقوياء، وصار لهم فضل السبق، والتشبيه للتقريب والتوضيح.

٣. واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ للعاقبة أي وما كانت هي الباعث على الاختبار، ولكن كانت عاقبة ونتيجة الاختبار.

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥١٥.

٤ . ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، يثبت الله سبحانه وتعالى هذا النص بثلاثة أمور:

أ. أولها: أن الفضل ليس بالغنى، ولا بالجاه ولا بالقوة في الدنيا، ولكن بمقدار شكر الله تعالى على ما أنعم، والإنسان في الوجود محفوف بنعم الله تعالى تحوط به من يوم خروجه إلى الحياة إلى وقت مفارقتها، وواجب عليه الشكر لها فشكر النعم واجب بمقتضى العقل والنقل، وبمقدار شكر النعمة يكون الفضل.

ب. ثانيها: أن أولئك الذين يسارعون إلى الإيمان بوحدانية الديان، هم أصحاب الفضل؛ لأنهم هم الذين يسارعون إلى الشكر، ودعوة الله وعبادته، والإذعان له.

ج. ثالثها: أن الله هو وحده العالم بمن يستحق الفضل وبمن يشكره وهو المستحق للفضل منه، وأفعل التفضيل على غير بابه، والمراد أنه سبحانه يعلم الشاكرين علما ليس فوقه علم، فهو وحده العليم، السميع البصير.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١ . ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا﴾ إلى آخر الآية، الفتنة هي الامتحان، والسياق يدل على أن الاستفهام في قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ للتهكم والاستهزاء، ومعلوم أنهم لا يسخرون إلا ممن يستحقرون أمره ويستهينون موقعه من المجتمع، ولم يكن ذلك إلا لفقرهم ومسكنتهم وانحطاط قدرهم عند الأقوياء والكبرياء منهم.

٢ . فالله سبحانه يخبر نبيه أن هذا التفاوت والاختلاف إنما هو محنة إلهية يمتحن بها الناس ليميز به الكافرين من الشاكرين، فيقول أهل الكفران والاستكبار في الفقراء المؤمنين: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فإن السنن الاجتماعية عند الناس توصف بها عند المستن بها من الشرافة والخسة، وكذا العمل يوزن بها لعامله من الوزن الاجتماعي فالطريقة المسلوكة عند الفقراء والأذلاء والعبيد يستذلها الأغنياء والأعزة، والعمل الذي أتى به مسكين أو الكلام الذي تكلم به عبد أو أسير مستذلا لا يعتني به أولو الطول والقوة، فانتحال الفقراء والأجراء والعبيد بالدين، واعتناء النبي بهم وتقريبه إياهم من نفسه كالدليل عند الطغاة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٠٤.

المستكبرين من أهل الاجتماع على هوان أمر الدين وأنه دون أن يلتفت إليه من يعتني بأمره من الشرفاء والأعزة.

٣. ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ جواب عن استهزائهم المبني على الاستبعاد، بقولهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ومحصله أن هؤلاء شاكرون لله دونهم ولذلك قدم هؤلاء لمنه وأخرهم فكنى سبحانه عن ذلك بأن الله أعلم بالشاكرين لنعمته أي إنهم شاكرون، ومن المسلم أن المنعم إنما يمن وينعم على من يشكر نعمته وقد سمى الله تعالى توحيده ونفي الشريك عنه شكرا في قوله حكاية عن قول يوسف عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]

٤. فالآية تبين أنهم بجهالتهم يبنون الكرامة والعزة على التقدم في زخارف الدنيا من مال وبنين وجاه، ولا قدر لها عند الله ولا كرامة، وإنما الأمر يدور مدار صفة الشكر والنعمة بالحقيقة هي الولاية الإلهية.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. تتتابع الآيات لتحدثنا عن وجود شيء من هذا القبيل في نظرة المستكبرين إلى المؤمنين المستضعفين، حيث يتطلّعون إليهم من فوق ليتساءلوا بازدراء وتهكّم: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ في عملية اختبار وامتحان لإظهار ما في أعماقهم من مشاعر الكبرياء وأفكار الشرّ في النظرة السلبية للمستضعفين المؤمنين.

٢. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ماذا يمثّلون من قيمة ومنزلة وجاه ليكونوا موضع اختيار الله ورعايته لهم.. فكأنّهم يفرضون على الله طريقتهم في التقييم، وأسلوبهم في تقدير الأشياء، لأنهم لا يفهمون للقضايا مقياسا غير ما يحملونه من مقاييس، فلا يمكن للفقير أو للضعيف أن يحصل على أيّة امتيازات إلهيّة إلا من خلال ما يمنحهم البشر من امتيازات.

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٢٨.

٣. ولكنَّ الله ينكر عليهم ذلك ليتساءل: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فللّه مقاييسه الدقيقة للأشياء، التي لا تدخل في حسابات الحجم الجسدي أو المادي أو المعنوي، فيما تعنيه معنويات الدنيا.. وتلك هي موازين الطاعة لله فيما أمر به أو نهى عنه، والشكر له فيما أنعم وأعطى.. فمن أخذ بها كان قريبا إليه وإن ابتعدت به الدنيا عن زخارفها وأمورها، ومن أعرض عنها، كان بعيدا عنه، وإن أحاطت به الشهوات والأطماع من كل جانب ومكان.. وليس هناك من يعرف الناس، كما يعرفهم الله، فهو الذي خلقهم وأحاط بسرّهم وعلانيتهم، وهو الذي يعرف من يشكر النعمة فيستحق المغفرة والرضوان، ومن يكفر بالنعمة فيستحق العقاب والخذلان، فكيف تتدخَّلون في الحكم على ما لم تحيطوا بعلمه، لتميّزوا بين من ينبغي لله أن يمنَّ عليه وبين من لا ينبغي له أن يمنحه المنّ والرحمة.. لتنكروا هنا، ولتستجيبوا هناك!؟ ويتركهم الله في ضلالتهم، ويلتفت إلى نبيّه فيوحي إليه بالعمل على تكريمهم وإحاطتهم بكل ألوان الرعاية والمحبة والرحمة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ كذلك الفتن الذي فتنا المستكبرين من قريش بالمؤمنين الفقراء الذين يدعون ربهم، كذلك الفتن فتنا بعض الناس ببعض امتحَنًّا بعض الناس ببعض، يمتحن الكبراء أو المستكبرين بالفقراء والمستضعفين، وفي كلام الإمام علي عليه السلام في الخطبة (القاصعة): (فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون بن عمران عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصى فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عِزِّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلا ألقي عليهما أساورة من ذهب إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه) هكذا يبتلى من يراه الناس عظيماً بمن يرونه حقيراً، ولعل مثل هذا وقريباً منه يحدث لغالب كبراء الناس من الرؤساء والعلماء ومشائح القبائل وكبار الأغنياء

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٣.

وغيرهم، فنسأل الله الثبات على الحق.

٢. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ امتحناهم ليظهر ما يكون منهم عند الفتنة، وقولهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ سؤال احتقار للمشار إليهم لنفي أن يمن الله عليهم ويختارهم من بين المستكبرين يريدون ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما عليه المستضعفون ﴿خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١] لأنا أحبّ إلى الله منهم، ولذلك يعطينا ويمنعهم، ونحن أحق منهم أن يمن الله علينا لو كان خيراً ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فهم أحق بالنعمة لا الكافرون.

٣. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ﴾ التعليل من المتشابه، ومثله متعدد في هذه السورة، والأقرب في تأويله: أن المراد بيان علم الله سبحانه بما يكون منهم عند الفتنة قبل أن يفتنهم، فلما جعلوا الفتنة سبباً لهذا القول وترتب القول على الفتنة وهو سبحانه يعلم ذلك من قبل، كان كأنه فتنهم ليقولوا، فهو مجاز عن علم الله به وعدم مبالاته به، حتى كأنه مقصود.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. يحذر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أصحاب المال والثروة من أن هذه الأمور اختبار لهم، فإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحملوا العواقب المؤلمة، فالله يمتحن بعضهم ببعض: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، و(الفتنة) تعني هنا الامتحان وأي امتحان أصعب ممّا يمر به الأغنياء الذين كانوا قد اعتادوا لسنوات طويلة على الترفع على الطبقات الدنيا، فلا يشاركونهم أفراحهم وأتراحهم، بل حتى أنّهم يبعدون قبور موتاهم عن قبورهم، أمّا الآن فيطلب منهم أن يتخلوا عن كل ذلك وأن يحطموا كل تلك العادات والسنن، ويكسروا القيود والسلاسل ليلتحقوا بدين طلائعه من الفقراء ومن يسمون بالطبقة الدنيا.

٢. ثمّ تضيف الآية أنّ الأمر يصل بهؤلاء إلى أنّهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظرة احتقار ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ ثمّ تجيب الآية على المعترضين مؤكدة أنّ هؤلاء الأشخاص

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٣٠٣.

أناس شكروا نعمة التشخيص الصحيح بالعمل، كما أنّهم شكروا نعمة دعوة رسول الله ﷺ بقبولها، فأي نعمة أكبر، وأي شكر أرفع، ولذلك رسخ الله الإيمان في قلوبهم: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

٣٢. المؤمنون والسلام والرحمة والتوبة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

أنس:

روي عن أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: أتى رسول الله ﷺ رجال، فقالوا: إنّا أصبنا ذنوبا كثيرة عظيمة، فسكت عنهم رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله على الرجال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾[١].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: كنّا إذا دخلنا على أبي العالية قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٢].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿غَفُورٌ﴾ يعني: لما كان منه قبل التوبة، ﴿رَحِيمٌ﴾ لمن تاب[٣].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، ليس من جهالته أن لا

(١) أورده الثعلبي ٤/ ١٥٢.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٧٥.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٢.

يعلم حلالا ولا حراما، ولكن من جهالته حين دخل فيه[1].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، من جهل أنّه لا يعلم حلالا من حرام، ومن جهالته ركب الأمر[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، من عمل بمعصية الله فذاك منه جهل حتى يرجع[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، الجهالة: العمد[4].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، الدنيا كلها جهالة[5].

٢. روي أنّه قال: نزلت في الذين نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن طردهم، وكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام[6].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنه قيل له: ﴿السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، ما هذه الجهالة؟ قال: هم قوم لم يعلموا ما لهم ممّا عليهم، قيل: أرأيت لو كانوا علموا؟ قال: فليخرجوا منها؛ فإنّها جهالة[7].

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٧٥.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٧٥.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٧٥.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠١.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠١.

(٦) أورده الثعلبي ٤/ ١٥١.

(٧) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠١.

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة[(١)].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كل ذنب عمله عبد فهو بجهالة[(٢)].

٢. روي أنّه قال: ﴿رَحِيمٌ﴾، قال رحيم بعباده[(٣)].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ جاء عمر إلى النبي ﷺ، فاعتذر إليه من مقالته، واستغفر الله تعالى منها، وقال: يا رسول الله، والله ما أردتّ بهذا إلا الخير، فنزل في عمر: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية[(٤)].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: رحم الله عبدا تاب إلى الله قبل الموت، فإن التوبة مطهرة من دنس الخطيئة، ومنقذة من شقاء الهلكة، فرض الله بها على نفسه لعباده الصالحين، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[(٥)].

ابن جريج:

---

(١) الكافي ٢/ ٣١٩.

(٢) تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ٧١.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٢.

(٤) تفسير الثعلبي ٤/ ١٥٢.

(٥) تفسير العياشي ١/ ٣٦١.

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: أخبرت أنّ قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ كانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ بدأهم، فقال: (سلام عليكم)، وإذا لقيهم فكذلك أيضا[١].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: يصدّقون بالقرآن أنّه من الله ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: مغفرة الله عليكم، كان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال: (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر معهم، وأسلّم عليهم)، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ نزلت في عمر بن الخطاب، تاب من بعد السوء، يعني: الشرك، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٤]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذا يدل على أن النهي عن الطرد ليس للإبعاد خاصة في المجلس، ولكن في كل شيء في بشاشة الوجه واللطف في الكلام وفي كل شيء لأنه قال: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٢. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

أ. قال بعضهم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هو هو أن يبدأهم بالسلام فذلك الذي كتب على نفسه الرحمة.

ب. وقال بعضهم قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: لم يأخذهم في أول ما وقعوا في المعصية ولكن أمهلهم إلى وقت وجعل لهم المخرج من ذلك بالتوبة وعلى ذلك ما روي عن ابن عباسٍ أنه

---

(١) نسبه السيوطي إلى ابن المنذر.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٣.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٣.

(٤) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٩٦.

قال (فتح الله للعبد التوبة إلى أن يأتيه الموت).

٣. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. أي: كل من عمل سوءًا بجهالة ثم تاب من بعد ذلك وأصلح أنه يغفر له ما كان منه، ومن قرأها بالنصب عطفه على قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لذلك.

ب. وجائز أن يكون قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: كتب على خلقه الرحمة أن يرحم بعضهم بعضًا.

ج. وجائز ما ذكرنا أنه كتب على نفسه الرحمة أي: أوجب أن يرحم ويغفر لمن تاب.

٤. ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾:

أ. جائز أن يكون الآية في الكافر إذا تاب يغفر الله له ما كان منه في حال الكفر والشرك كقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

ب. وجائز أن تكون في المؤمنين، ثم ذكر عملا بجهالة وإن لم يكن يعمل بالجهل لأن الفعل فعل الجهل وإن كان فعله لم يكن على الجهل؛ وكذلك ما ذكر من النسيان والخطأ في الفعل؛ لأن فعله فعل ناس وفعل مخطئ وإن لم يفعله الكافر على النسيان والخطأ، وإلا لو كان على حقيقة الخطأ والنسيان لكان لا يؤاخذ به؛ لقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾، لكن الوجه ما ذكرنا أن الفعل فعل نسيان وخطأ وإن لم يكن ناسيًا ولا مخطئًا فيه، وعلى ذلك الفعل فعل جهل وإن لم يكن جاهلا والفعل فعل جهل وإن لم يكن بالجهل، والمؤمن جميع ما يتعاطى من المساوي يكون لجهالة؛ لأنه إنما يعمل السوء إما لغلبة شهوة أو للاعتماد على كرم ربه بالعفو عنه والصفح عن ذلك ويعمل السوء على نية التوبة والعزم عليها في آخره، على هذه الوجوه الثلاثة يقع المؤمن في المعصية وأما على التعمد فلا يعمل.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي لم يتعمدها، ولم يقاطع الله فيها ولم يقصدها.

٢. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي من بعد السوء وقصده، ورجع منه إلى طاعة ربه، فإنه غفور رحيم.. ويحتمل وجهاً آخر: وهو جهل التجاهل، قال الشاعر:

ألا ليت حقاً ما رأيت فإنني ... رأيت معي في نوم عيني محمدا
يجادل عني القوم عند خصامهم ... ويدني لجهلاتي قضيباً مهندا

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ يعني ضعفاء المسلمين ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تكرمة لهم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب الله ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي خطيئة.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ يعني به ضعفاء المسلمين وما كان من شأن عمر.

٢. ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه أمر بالسلام عليهم من الله تعالى، قاله الحسن.

ب. الثاني: أنه أمر بالسلام عليهم من نفسه تكرمة لهم، قاله بعض المتأخرين.

٣. وفي السلام قولان:

أ. أحدهما: أنه جمع السلامة.

ب. الثاني: أنه السلام هو الله ومعناه ذو السلام.

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٩.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٤.

(٣) تفسير الماوردي: ٢/ ١٢٠.

٤. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: معناه أوجب الله على نفسه.

ب. الثاني: كتب في اللوح المحفوظ على نفسه.

٥. ﴿الرَّحْمَةُ﴾ يحتمل المراد بها هنا وجهين:

أ. أحدهما: المعونة.

ب. الثاني: العفو.

٦. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ في الجهالة تأويلان:

أ. أحدهما: الخطيئة، قاله الحسن، ومجاهد، والضحاك.

ب. الثاني: ما جهل كراهية عاقبته، قاله الزجاج.

ج. ويحتمل ثالثاً: أن الجهالة هنا ارتكاب الشبهة بسوء التأويل.

٧. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ يعني تاب من عمله الماضي وأصلح في المستقبل.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه الآية متصلة بالسابقة: نهى الله تعالى نبيه ﷺ في الأولى عن أن يطردهم، ثم أمره في هذه الآية أن يقول لمن ورد عليه منهم ـ أعني المؤمنين المصدقين بآيات الله وحججه وبراهينه عربياً كان أو أعجمياً ضعيفاً كان أو قوياً ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيبدأهم بالتحية، ويبشرهم بالرحمة ويقوي قلوبهم ويعرفهم أن من أذنب منهم ثم تاب، فتوبته مقبولة كل ذلك خلافاً على الكافرين فيما أرادوه عليه من طردهم والغلظة عليهم.

٢. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام في اللغة أربعة أشياء:

أ. أحدها: سلمت سلاماً مصدر.. معنى السلام الذي هو مصدر سلمت دعاء للإنسان أن يسلم في دينه ونفسه، ومعناه التخلص.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٤٨.

ب. ثانيها: السلام جمع سلامة.

ج. ثالثها: السلام من أسماء الله.. معناه ذو السلام أي الذي يملك السلام الذي هو تخليص من المكروه.

د. رابعها: السلام شجر.. وهو شجر عظيم سمي بذلك لسلامته من الآفات، والسلام حجار صلبة لسلامتها من الرخاوة.

هـ. ويسمى الصلح: السلام والسلم والسلم، لأن معناه السلامة من الشر، والسلام دلوها مروة واحدة نحو دلو السقائين، والسلم السبب إلى لشيء، والسلم الذي يرتقى عليه لأنه يسلمك إلى حيث تريد.

٣. ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ ليس المراد أنهم يجهلون أنه سوء، لأنه لو أتى المسلم ما يجهل أنه سوء لكان كمن لم يتعمد سوءاً، وتحتمل الآية أمرين:

أ. أحدهما: أنه عمله وهو جاهل بالمكروه فيه أي لم يعرف أن فيه مكروهاً.

ب. والآخر ـ أنه أقدم مع علمه أن عاقبته مكروهة فآثر العاجل، فجعل جاهلاً لأنه آثر القليل على الراحة الكثيرة والعاقبة الدائمة.

ج. ويحتمل عندي أن يكون أراد ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ بمعنى أنه لا يعرفها سوءاً، لكن لما كان له طريق إلى معرفته وجب عليه التوبة منه، فإذا تاب قبل الله توبته.

٤. سؤال وإشكال: قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ هل فعل الصلاح شرط في قبول التوبة أو لا؟ فإن لم يكن شرطاً فلم علق الغفران بمجموعهما، والجواب: لا خلاف أن التوبة متى حصلت على شرائطها التي قدمنا ذكرها في غير موضع، فإنه يقبل التوبة ويسقط العقاب، وإن لم يعمل بعدها عملاً صالحاً غير أنه إذا تاب وبقي بعد التوبة، فإن لم يعمل الصالح عاد إلى الإصرار، لأنه لا يخلو في كل حال من واجب عليه أو ندب من تجديد معرفة الله ومعرفة نبيه، وغير ذلك من المعارف وكثير من أفعال الجوارح، فأما أن قدرنا اخترامه عقيب التوبة من غير فعل صلاح، فإن الرحمة بإسقاط العقاب تلحقه بلا خلاف.

٥. قراءات ووجوه: قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: (أنه من عمل.. فأنه غفور رحيم) بفتح الهمزة فيهما وافقهم أهل المدينة في الأولى منهما، الباقون بالكسر فيهما:

أ. قال أبو علي الفارسي من كسر (أنه) الأولى جعلها تفسير للرحمة كما أن قوله: ﴿لهم مغفرة وأجر كريم﴾ تفسير للوعد، وأما كسر (إن) في قوله: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلأن ما بعد الفاء حكمه الابتداء، ومن ثم حمل قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ على إرادة المبتدأ بعد الفاء وحذفه، ومن فتح (أن) في قوله: (أنه) فإنه جعل (أن) الأولى بدلاً من الرحمة كأنه قال: كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم.

ب. وأما فتحها بعد الفاء فأنه غفور رحيم، فعلى أنه أضمر له خبراً تقديره، فله أنه غفور رحيم أي فله غفرانه، أو أضمر مبتدأ تكون (أن) خبره، كأنه قال فأمره أنه غفور رحيم.

ج. وأما قراءة نافع: بفتح الأولى وكسر الثانية: فالقول فيهما أنه أبدل من الرحمة واستأنف ما بعد الفاء، قال سيبويه: بلغنا أن الأعرج قرأ ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾.. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ونظيره قول ابن مقبل:

وإني إذا ملت ركابي مناخها فإني على حظي من الأمر جامح

د. يريد أن قوله: (وإني إذا ملت ركابي) محمول على ما قبله كما أن قوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ محمول على ما قبله، وقوله: فإني على حظي مستأنف مثل قوله: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مستأنف به منقطع عما قبله، قال الفراء: واختاره الزجاج ويجوز أن يحمل (فأنه) على التكرار، قال لأن الكتاب يحتاج إلى (أن) مرة واحدة ولكن الخبر هو موضعها فلما دخلت في ابتداء الكلام أعيدت إلى موضعها، كما قال: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ فلما كان موضع (أن) أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم دخلت في أول الكلام وآخره، ومثله ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ ومثله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ﴾ قال ولك أن تكسر (أن) بعد الفاء في هذه الأحرف، قال أبو علي هذا غير صحيح، لأن (من) لا يخلو من أن تكون للجزاء الجازم الذي بني اللفظ عليه أو تكون موصولة، ولا يجوز أن يقدر التكرير مع الموصولة فلو كانت موصولة لبقي المبتدأ بلا خبر، ولا يجوز ذلك في الجزء الجازم، لأن الشرط يبقى بلا جزاء على إثبات الفاء في قوله: (فأن له) ويمتنع من أن يكون بدلاً لأنه لا يكون بين المبدل والمبدل منه الفاء العاطفة ولا التي للجزاء، فإن قيل: هي زائدة بقي الشرط بلا جزاء، فإذا بطل الأمر ان ثبت ما قدمناه.

هـ. وأما من كسرهما فعلى مذهب الحكاية كأنه لما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالكسر، ودخلت الفاء جواباً

للجزاء.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. السلام: أصله السلامة، وهو على أربعة أوجه: أولها: سَلِمْت سلامًا مصدر، والسلام: جمع سلامة، والسلام من أسماء الله تعالى، ومعناه: أَدُّوا السلام، والسَّلامُ: شجر صلب سمي لسلامته على الدهر، واحدتها سَلَمة، وجلد مسلوم: مدبوغ بالسلم، والسِّلم بالكسر: شجرة واحدتها سلامة، والسِّلام بالكسر: الحجارة أيضًا واحدتها سلمة، والسلام أيضًا: المسالمة، والسَّلْم يفتح ويكسر: الصلح يذكر ويؤنث، ودار السلام: الجنة، قيل: دار الله، وقيل: دار السلامة.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في القوم الَّذِينَ نهى الله عن طردهم، فكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، عن عكرمة والحسن.

ب. وقيل: نزلت في عمر بن الخطاب ثم اختلفوا، فقال بعضهم: لما التمسوا من رسول الله ﷺ أن يطردهم ليؤمنوا به أشار عمر بذلك طمعًا في إيمانهم، فلما نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ جاء عمر يعتذر، وقال: ما أردت إلا الخير، فنزل فيه ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾، عن الكلبي، وقال بعضهم: إنما سأل الكفار النبي ﷺ ذلك بمراسلة عمر، فلما نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ جاء عمر يعتذر، فنزلت الآية ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾

ج. وقيل: نزلت الآية في قوم من الصحابة، وذلك أن الرؤساء لَمَّا أرادوا أن يَخُصَّهُمْ النبي ﷺ بمجلسه بعث النبي ﷺ ليفعل ما أرادوا، فلما نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ جاؤوا معتذرين شاكرين لما رفع الله من قدرهم، فنزلت الآية فيهم..

د. وقيل: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة وسالم ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعمار وجماعة من الصحابة عن عطاء.

هـ. وقيل: إن جماعة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنا أصبنا ذنوبًا كثيرة، فسكت

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٧٧.

عنهم، فنزلت الآية، عن أنس بن مالك.

و. وقيل: إنها عامة في العرب والعجم كل من آمن، حكاه الأصم.

٣. بَيَّنَ تعالى حكمه في الفريقين، وأمر رسوله بتعظيم المؤمنين الَّذِينَ سألوا طردهم بيانًا لفضلهم، وتفخيمًا لشأنهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بأدلتنا:

أ. قيل: بالقرآن.

ب. وقيل: بمحمد ومعجزاته.

ج. وقيل: بسائر آياته تعالى.

٤. ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. قيل: أمره أن يسلم عليهم من الله تعالى، فهو تحية من الله تعالى على لسان نبيه، عن الحسن.

ب. وقيل: أمر نبيه أن يسلم عليهم تكرمة لهم وتحية، عن أبي علي.

ج. وقيل: اقبل عذرهم واعترافهم وبَشّرْهم بالسلامة مما اعتذروا منه، عن ابن عباس.

د. وقيل: أمره بحسن وعد من الله لمن آمن به عن أبي مسلم.

هـ. وقيل: السلام هو الله، ومعناه: الله مطلع عليكم حافظ لكم ناصر إياكم.

٥. ﴿كَتَبَ﴾:

أ. أي: أوجب على نفسه الإنعام على خلقه.

ب. وقيل: أوجب على نفسه إيجابًا مؤكدًا.

ج. وقيل: كتبه الله في اللوح المحفوظ.

د. وقيل: كتبه في القرآن.

هـ. وقيل: قضى.

٦. ﴿رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب عليه، والنفس والذات بمعنى.

٧. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ أي معصية ﴿بِجَهَالَةٍ﴾:

أ. قيل: كل من عمل معصية فهو جاهل، عن الحسن ومجاهد والضحاك.

ب. وقيل: إنه جاهل بمقدار ما [فاته من] الثواب وما استحقه من العقاب.

ج. وقيل: جهل حتى آثر المعصية على الطاعة.

٨. ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ أي رجع وندم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد عمله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي أصلح عمله بعد التوبة ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ يغفر الذنب ﴿رَحِيمٌ﴾ يرحم بإيجاب الثواب له، وإنما شرط التوبة مع قوله: (كتب على نفسه الرحمة)؛ تنبيهًا على أنه يغفر للتائب لا محالة، وتحذيرًا من القنوط من الرحمة، وحثًا على التوبة، وزجرًا عن الإصرار، وفي قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تمدح وتحقيق للرحمة عند المغفرة.

٩. تدل الآية الكريمة على:

أ. عظيم منزلة المؤمنين؛ حيث أمر الله تعالى نبيه بإكرامهم بالتحية والتقريب، وإبطالاً لما اقترحوا من طردهم.

ب. أن هذا القول لا يجوز إلا للمؤمنين، فتدل على أنه لا يجوز أن يسلم على أهل الذمة والكفار، خلاف ما قاله بعضهم.

ج. أن الرحمة تنال بالتوبة دون الإصرار، خلاف قول المرجئة.

د. أن أفعالهم حادثة من جهتهم؛ لذلك صحت الإضافة والمدح والذم، فيبطل قول الْمُجْبِرَةِ.

هـ. أن التوبة لا تكفي في وجوب الرحمة حتى ينضم إليها العمل الصالح.

و. أن الرحمة واجبة عند التوبة خلاف من يقول: إنه تفضل.

ز. وجوب النظر وجواز الحجاج في الدين، وبطلان قول أصحاب المعارف.

١٠. قراءات ووجوه: قرأ أبو جعفر ونافع ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ﴾ بنصب الألف ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ بكسر الألف، وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب بالنصب فيهما، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بكسر الألف فيهما، أما قراءة نافع فنصب ﴿أَنَّ﴾ لوقوع الكناية عليه، وهو بدل من الرحمة، وكسر ﴿فَإِنَّهُ﴾ على الابتداء، وأما عاصم وابن عامر فجعلا كل واحد منهما مفعول ﴿كَتَبَ﴾ قال الكسائي: من كسر الأول فعلى استئناف الكلام، ومن نصب فعلى تكرار الفعل، أي إنه وأنه، وأما من كسرهما فعلى الابتداء، قالوا: تم الكلام عند قوله: ﴿الرَّحْمَةُ﴾، ثم استأنف ﴿إِنَّهُ﴾

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. سؤال وإشكال: ما عامل الإعراب في قوله: ﴿إِذَا﴾؟ والجواب: تقديره: سلام عليكم إذا

جاؤوك.

ب. موضع ﴿جَاءَكَ﴾ فخبر؛ لأن ﴿إِذَا﴾ مضاف إليه كقولك: (حين جاءك الَّذِينَ)

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. اختلف في من نزلت فيه هذه الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في الذين نهى الله عز وجل نبيه عن طردهم، وكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام، عن عكرمة.

ب. وقيل: نزلت في جماعة من الصحابة منهم حمزة، وجعفر، ومصعب بن عمير، وعمار، وغيرهم، عن عطاء.

ج. وقيل: إن جماعة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوبا كثيرة، فسكت عنهم رسول الله ﷺ، فنزلت الآية، عن أنس بن مالك.

د. وقيل: نزلت في التائبين، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

٢. أمر سبحانه نبيه بتعظيم المؤمنين، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا وبراهيننا ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ذكر فيه وجوه:

أ. أحدها: إنه أمر نبيه ﷺ أن يسلم عليهم من الله تعالى، فهو تحية من الله على لسان نبيه ﷺ، عن الحسن.

ب. ثانيها: إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يسلم عليهم تكرمة لهم، عن الجبائي.

ج. ثالثها: إن معناه اقبل عذرهم واعترافهم، وبشرهم بالسلامة مما اعتذروا منه، عن ابن عباس.

٣. ﴿سَلَامٌ﴾ قال المبرد: السلام في اللغة أربعة أشياء: مصدر سلمت سلاما، وجمع سلامة، واسم من أسماء الله عز وجل، وشجر في قوله: (إلا سلام وحرمل):

أ. ومعنى السلام الذي هو مصدر أنه دعاء للإنسان بأن يسلم من الآفات.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥٧.

ب. والسلام: اسم الله، تأويله ذو السلام أي الذي يملك السلام: الذي هو التخلص من المكروه.

ج. وأما السلام، الشجر: فهو شجر قوي، سمي بذلك لسلامته من الآفات.

د. والسلام: الحجارة سمي بذلك لسلامتها من الرخاوة.

هـ. والصلح يسمى السلام والسلم لأن معناه السلامة من الشر.

و. والسلم: الدلو التي لها عروة واحدة، لأنها أسلم الدلاء من الآفات.

٤. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

أ. أي: أوجب ربكم إيجابا مؤكدا، عن الزجاج قال: إنما خوطب الخلق بما يعقلون، وهم يعقلون أن الشيء المؤخر إنما يحفظ بالكتاب.

ب. وقيل: معناه كتبه في اللوح المحفوظ، وقد سبق بيان هذا في أول السورة.

٥. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ قال الزجاج: يحتمل الجهالة ههنا وجهين:

أ. أحدهما: إنه عمله وهو جاهل بمقدار المكروه فيه أي: لم يعرف أن فيه مكروها.

ب. والآخر: إنه علم أن عاقبته مكروهة، ولكنه آثر العاجل، فجعل جاهلا بأنه آثر النفع القليل على الراحة الكثيرة، والعافية الدائمة، وهذا أقوى، ومثله قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ الآية وقد ذكرنا ما فيه هناك.

٦. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: رجع عن ذنبه، ولم يصر على ما فعل، وأصلح عمله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٧. قراءات ووجوه: قرأ أهل المدينة ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ بالفتح، فإنه بالكسر، وقرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب أنه فإنه بفتح الألف فيهما، وقرأ الباقون إنه فإنه بالكسر فيهما.. قال أبو علي: من كسر فقال: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ جعله تفسيرا للرحمة، كما أن قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تفسير للوعد، وأما كسر ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلأن ما بعد الفاء حكمه الابتداء، ومن ثم حمل قوله: ﴿فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ على إرادة المبتدأ بعد الفاء وحذفه، وأما من فتح أن في قوله: أنه فإنه جعل أن الأولى: بدلا من الرحمة، كأنه قال كتب ربكم على نفسه أنه من عمل، وأما فتحها بعد الفاء، فعلى أنه أضمر له خبرا، وتقديره فله أنه غفور رحيم أي: فله غفرانه، أو أضمر مبتدأ يكون أنه خبرا له أي: فأمره أنه غفور رحيم، وعلى هذا التقدير يكون

الفتح في قول من فتح: ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم، تقديره: فله أن له نار جهنم إلا أن إضماره هنا أحسن، لأن ذكره قد جرى في قوله: ﴿إِنَّ لَهُ﴾ وإن شئت قدرت: فأمره أن له نار جهنم، فيكون خبر هذا المبتدأ المضمر، وأما قراءة (كتب ربكم أنه) فإنه فالقول فيها أنه أبدل من الرحمة، ثم استأنف ما بعد الفاء.

٨. سؤال وإشكال: ما المشبه وما المشبه به في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾؟ والجواب: فيه جوابان:

أ. أحدهما: التفصيل الذي تقدم في صفة المهتدين، وصفة الضالين، شبه بتفصيل الدلائل على الحق من الباطل في صفة غيرهم، من كل مخالف للحق.

ب. الثاني: إن المعنى: كما فضلنا ما تقدم من الآيات لكم، نفصله لغيركم.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال:

أ. أحدها: أنها نزلت في رجال أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنّا أصبنا ذنوبا عظيمة، فسكت عنهم رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، قاله أنس بن مالك.

ب. الثاني: أنها نزلت في الذين نهي عن طردهم، فكان النبيّ ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسّلام، وقال: (الحمد لله الذي جعل في أمّتي من أمرني أن أبدأهم بالسّلام)، قاله الحسن وعكرمة.

ج. الثالث: أنها نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وحمزة، وجعفر، وعثمان بن مظعون، وأبي عبيدة، ومصعب بن عمير، وسالم، وأبي سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعمّار، وبلال، قاله عطاء.

د. الرابع: أنّ عمر بن الخطّاب كان أشار على رسول الله ﷺ بتأخير الفقراء، استمالة للرؤساء إلى الإسلام، فلما نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، جاء عمر بن الخطّاب يعتذر من مقالته ويستغفر منها، فنزلت فيه هذه الآية، قاله ابن السّائب.

هـ. الخامس: أنها نزلت مبشّرة بإسلام عمر بن الخطّاب؛ فلما جاء وأسلم؛ تلاها عليه رسول الله

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٥.

ﷺ، حكاه أبو سليمان الدّمشقيّ.

٢. ﴿يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ معناه: يصدّقون بحججنا وبراهيننا.

٣. ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه أمر بالسّلام عليهم تشريفا لهم؛ وقد ذكرناه عن الحسن، وعكرمة.

ب. الثاني: أنه أمر بإبلاغ السّلام إليهم عن الله تعالى، قاله ابن زيد.

٤. قال الزّجّاج: ومعنى السّلام: دعاء للإنسان بأن يسلم من الآفات، وفي السّوء قولان:

أ. أحدهما: أنه الشّرك.

ب. الثاني: المعاصي.

٥. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة والكسائيّ: (إنّه من عمل منكم سوءا) (فإنّه غفور) بكسر الألف فيهما، وقرأ عاصم، وابن عامر: بفتح الألف فيهما، وقرأ نافع، بنصب ألف (أنّه) وكسر ألف (فإنّه غفور)، قال أبو عليّ: من كسر ألف (إنّه) جعله تفسيرا للرّحمة؛ ومن كسر ألف (فإنّه غفور) فلأنّ ما بعد الفاء حكمه الابتداء، ومن فتح ألف (أنّه من عمل) جعل (أنّ) بدلا من الرّحمة، والمعنى: كتب ربّكم (أنّه من عمل)، ومن فتحها بعد الفاء أضمر خبرا تقديره: فله (أنّه غفور رحيم) والمعنى: فله غفرانه، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ معناه: فله أنّ له نار جهنّم، وأما قراءة نافع، فإنه أبدل من الرّحمة: واستأنف ما بعد الفاء.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. اختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾:

أ. فقال بعضهم هو على إطلاقه في كل من هذه صفته.

ب. وقال آخرون: بل نزل في أهل الصفة الذين سأل المشركون الرسول ﷺ طردهم وإبعادهم، فأكرمهم الله بهذا الإكرام، وذلك لأنه تعالى نهى الرسول ﷺ أولا عن طردهم ثم أمره بان يكرمهم بهذا

(١) التفسير الكبير: ١٣/ ٦.

النوع من الإكرام، قال عكرمة: كان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام ويقول: (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأه بالسلام) وعن ابن عباس: أن عمر لما اعتذر من مقالته واستغفر الله منها، وقال للرسول ﷺ: ما أردت بذلك إلا الخير نزلت هذه الآية.

ج. وقال بعضهم: بل نزلت في قوم أقدموا على ذنوب، ثم جاءوه ﷺ مظهرين للندامة والأسف، فنزلت هذه الآية فيهم.

د. والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل هذه الآية على عمومها، فكل من آمن بالله دخل تحت هذا التشريف.

هـ. سؤال وإشكال: لي هاهنا إشكال، وهو: أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه[1]؟

٢. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ مشتمل على أسرار عالية، وذلك لأن ما سوى الله تعالى فهو آيات وجود الله تعالى، وآيات صفات جلاله وإكرامه وكبريائه، وآيات وحدانيته، وما سوى الله فلا نهاية له، وما لا نهاية له فلا سبيل للعقل في الوقوف عليه على التفصيل التام، إلا أن الممكن هو أن يطلع على بعض الآيات ويتوسل بمعرفتها إلى معرفة الله تعالى ثم يؤمن بالبقية على سبيل الإجمال ثم إنه يكون مدة حياته كالسائح في تلك القفار، وكالسابح في تلك البحار، ولما كان لا نهاية لها فكذلك لا نهاية لترقي العبد في معارج تلك الآيات، وهذا مشرع جملي لا نهاية لتفاصيله، ثم إن العبد إذا صار موصوفا بهذه الصفة فعند هذا أمر الله محمدا ﷺ بأن يقول لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيكون هذا التسليم بشارة لحصول السلامة، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ بشارة لحصول الرحمة عقيب تلك السلامة، أما السلامة فالنجاة من بحر عالم الظلمات ومركز الجسمانيات ومعدن الآفات والمخالفات وموضع التغييرات والتبديلات، وأما الكرامات فبالوصول إلى الباقيات الصالحات والمجردات المقدسات، والوصول إلى فسحة عالم الأنوار والترقي إلى معارج سرادقات الجلال.

---

(١) لم يذكر الجواب

٣. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾:

أ. ذكر الزجاج عن المبرد، أن السلامة في اللغة أربعة أشياء، فمنها سلمت سلاما وهو معنى الدعاء، ومنها أنه اسم من أسماء الله تعالى، ومنها الإسلام، ومنها اسم للشجر العظيم، أحسبه سمي بذلك لسلامته من الآفات، وهو أيضا اسم للحجارة الصلبة، وذلك أيضا لسلامتها من الرخاوة، ثم قال الزجاج: قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام هاهنا يحتمل تأويلين:

• أحدهما: أن يكون مصدر سلمت تسليما وسلاما مثل السراح من التسريح، ومعنى سلمت عليه سلاما، دعوت له بأن يسلم من الآفات في دينه ونفسه، فالسلام بمعنى التسليم.

• الثاني: أن يكون السلام جمع السلامة، فمعنى قولك السلام عليكم، السلامة عليكم.

ب. قال أبو بكر بن الأنباري: قال قوم السلام هو الله تعالى فمعنى السلام عليكم يعني الله عليكم أي على حفظكم وهذا بعيد في هذه الآية لتنكير السلام في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ولو كان معرفا لصح هذا الوجه، وأقول كتبت فصولا مشبعة كاملة في قولنا سلام عليكم وكتبتها في سورة التوبة، وهي أجنبية عن هذا الموضع فإذا نقلته إلى هذا الموضع كمل البحث.

٤. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قوله كتب كذا على فلان يفيد الإيجاب، ولكمة (على) أيضا تفيد الإيجاب ومجموعهما مبالغة في الإيجاب، فهذا يقتضي كونه سبحانه راحما لعباده رحيما بهم على سبيل الوجوب واختلف العقلاء في سبب ذلك الوجوب:

أ. فقال أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ: له سبحانه أن يتصرف في عبيده كيف شاء وأراد، إلا أنه أوجب الرحمة على نفسه على سبيل الفضل والكرم.

ب. وقال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ إن كونه عالما بقبح القبائح وعالما بكونه غنيا عنها، يمنعه من الإقدام على القبائح ولو فعله كان ظلما، والظلم قبيح، والقبيح منه محال، وهذه المسألة من المسائل الجلية في علم الأصول.

٥. دلت هذه الآية على أنه لا يمتنع تسمية ذات الله تعالى بالنفس وأيضا قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] يدل عليه، والنفس هاهنا بمعنى الذات والحقيقة، وأما بمعنى الجسم والدم فالله سبحانه وتعالى مقدس عنه، لأنه لو كان جسما لكان مركبا والمركب ممكن وأيضا

أنه أحد، والأحد لا يكون مركبا، وما لا يكون مركبا لا يكون جسما وأيضا أنه غني كما قال: ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ﴾ والغني لا يكون مركبا وما لا يكون مركبا لا يكون جسما وأيضا الأجسام متماثلة في تمام الماهية، فلو كان جسما لحصل له مثل، وذلك باطل لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فأما الدلائل العقلية فكثيرة ظاهرة باهرة قوية جلية والحمد لله عليه.

٦. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

أ. قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ: قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ينافي أن يقال: إنه تعالى يخلق الكفر في الكافر، ثم يعذبه عليه أبد الآباد، وينافي أن يقال: إنه يمنعه عن الإيمان ثم يأمره حال ذلك المنع بالإيمان، ثم يعذبه على ترك ذلك الإيمان.

ب. جواب أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ: أن الله تعالى ضار نافع محيي مميت، فهو تعالى فعل تلك الرحمة البالغة وفعل هذا القهر البالغ ولا منافاة بين الأمرين.

٧. من الناس من قال إنه تعالى لما أمر الرسول بأن يقول لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ كان هذا من قول الله تعالى ومن كلامه، فهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قال لهم في الدنيا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وتحقيق هذا الكلام أنه تعالى وعد أقواما بأنه يقول لهم بعد الموت ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ثم إن أقواما أفنوا أعمارهم في العبودية حتى صاروا في حياتهم الدنيوية كأنهم انتقلوا إلى عالم القيامة، لا جرم صار التسليم الموعود به بعد الموت في حق هؤلاء حال كونهم في الدنيا، ومنهم من قال لا، بل هذا كلام الرسول ﷺ، وقوله: وعلى التقديرين فهو درجة عالية.

٨. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾:

أ. هذا لا يتناول التوبة من الكفر، لأن هذا الكلام خطاب مع الذين وصفهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ فثبت أن المراد منه توبة المسلم عن المعصية.

ب. والمراد من قوله تعالى: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ ليس هو الخطأ والغلط، لأن ذلك لا حاجة به إلى التوبة، بل المراد منه، أن تقدم على المعصية بسبب الشهوة، فكان المراد منه بيان أن المسلم إذا أقدم على الذنب مع العلم بكونه ذنبا ثم تاب منه توبة حقيقة فإن الله تعالى يقبل توبته.

٩. قراءات ووجوه: قرأ نافع ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ﴾ بفتح الألف ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ بكسر الألف،

وقرأ عاصم وابن عامر بالفتح فيهما، والباقون بالكسر فيهما، أما فتح الأولى: فعلى التفسير للرحمة، كأنه قيل: كتب ربكم على نفسه أنه من عمل منكم، وأما فتح الثانية: فعلى أن يجعله بدلا من الأولى: كقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج: ٤]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٦٣] قال أبو علي الفارسي: من فتح الأولى: فقد جعلها بدلا من الرحمة، وأما التي بعد الفاء فعلى أنه أضمر له خبرا تقديره، فله أنه غفور رحيم، أي فله غفرانه، أو أضمر مبتدأ يكون (أن) خبره كأنه قيل: فأمره أنه غفور رحيم، وأما من كسرهما جميعا فلأنه لما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فقد تم هذا الكلام، ثم ابتدأ وقال: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فدخلت الفاء جوابا للجزاء، وكسرت إن لأنها دخلت على مبتدأ وخبر كأنك قلت فهو غفور رحيم، إلا أن الكلام بأن أوكد هذا قول الزجاج، وقرأ نافع الأولى: بالفتح والثانية: بالكسر، لأنه أبدل الأولى: من الرحمة، واستأنف ما بعد الفاء.

١٠. ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ قال الحسن: كل من عمل معصية فهو جاهل، ثم اختلفوا:

أ. فقيل: إنه جاهل بمقدار ما فاته من الثواب وما استحقه من العقاب.

ب. وقيل: إنه وإن علم أن عاقبة ذلك الفعل مذمومة، إلا أنه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل، ومن آثر القليل على الكثير قيل في العرف إنه جاهل.

ج. وحاصل الكلام أنه وإن لم يكن جاهلا إلا أنه لما فعل ما يليق بالجهال أطلق عليه لفظ الجاهل، وقيل نزلت هذه الآية في عمر حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما اقترحوه، ولم يعلم بأنها مفسدة ونظير هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]

١١. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾:

أ. قوله تعالى: ﴿تَابَ﴾ إشارة إلى الندم على الماضي.

ب. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ إشارة إلى كونه آتيا بالأعمال الصالحة في الزمان المستقبل.

ج. ثم قال: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو غفور بسبب إزالة العقاب، رحيم بسبب إيصال الثواب الذي هو النهاية في الرحمة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام والسلامة بمعنى واحد، ومعنى ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمكم الله في دينكم وأنفسكم، نزلت في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام) فعلى هذا كان السلام من جهة النبي ﷺ، وقيل: إنه كان من جهة الله تعالى، أي أبلغهم منا السلام، وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى:

أ. وفي صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم!؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك) فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي، فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه في معنى الآية، ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم، فإن في ذلك غضب الله، أي حلول عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه.

ب. وقال ابن عباس: نزلت الآية في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

ج. وقال الفضيل بن عياض: جاء قوم من المسلمين إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم، فنزلت الآية، وروي عن أنس بن مالك مثله سواء.

٢. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

أ. أي أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعده الحق، فخوطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئا فقد أوجبه على نفسه.

ب. وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

٣. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٣٥.

أ. أي خطيئة من غير قصد.

ب. قال مجاهد: لا يعلم حلالا من حرام ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل، وقد مضى هذا المعنى في النساء.

ج. وقيل: من آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل.

٤. قراءات ووجوه: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قرأ بفتح ﴿أَنّ﴾ من ﴿فَإِنَّهُ﴾ ابن عامر وعاصم، وكذلك ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ ووافقهما نافع في ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾، وقرأ الباقون بالكسر فيهما، فمن كسر فعلى الاستئناف، والجملة مفسرة للرحمة، و﴿أَنْ﴾ إذا دخلت على الجمل كسرت وحكم ما بعد الفاء الابتداء والاستئناف فكسرت لذلك، ومن فتحهما فالأولى: في موضع نصب على البدل من الرحمة، بدل الشيء من الشيء وهو هو فأعمل فيها ﴿كَتَبَ﴾ كأنه قال كتب ربكم على نفسه أنه من عمل، وأما ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ بالفتح ففيه وجهان، أحدهما: أن يكون في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر، كأنه قال فله أنه غفور رحيم، لأن ما بعد الفاء مبتدأ، أي فله غفران الله، والوجه الثاني: أن يضمر مبتدأ تكون ﴿أَنْ﴾ وما عملت فيه خبره، تقديره: فأمره غفران الله له، وهذا اختيار سيبويه، ولم يجز الأول، وأجازه أبو حاتم، وقيل: إن ﴿كُتُبٌ﴾ عمل فيها، أي كتب ربكم أنه غفور رحيم، وروي عن علي بن صالح وابن هرمز كسر الأولى: على الاستئناف، وفتح الثانية: على أن تكون مبتدأة أو خبر مبتدأ أو معمولة لكتب على ما تقدم، ومن فتح الأولى: وهو نافع ـ جعلها بدلا من الرحمة، واستأنف الثانية: لأنها بعد الفاء، وهي قراءة بينة.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا﴾ هم الذين نهاه الله عن طردهم، وهم المستضعفون من المؤمنين، كما سيأتي بيانه ﴿فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمره الله بأن يقول لهم هذا القول تطييبا لخواطرهم وإكراما لهم، والسلام، والسلامة: بمعنى واحد، فمعنى سلام عليكم: سلمكم الله، وقد كان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام؛ وقيل: إن هذا السلام هو من جهة الله: أي أبلغهم منا السلام.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤٠.

٢. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان؛ وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيرا بسعة مغفرة الله وعظيم رحمته.

٣. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ونافع بفتح أن من أنه، وقرأ الباقون بكسرها، فعلى القراءة الأولى: تكون هذه الجملة بدلا من الرحمة: أي كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره، وعلى القراءة الثانية: تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف، وموضع بجهالة النصب على الحال، أي عمله وهو جاهل، قيل: والمعنى أنه فعل فعل الجاهلين، لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه، فقد فعل فعل أهل الجهل والسفه لا فعل أهل الحكمة والتدبير؛ وقيل المعنى: أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلّق به من المضرة، فتكون فائدة التقييد بالجهالة: الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدي إلى الضرر.

٤. ﴿ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد عمله وأَصْلَحَ ما أفسده بالمعصية، فراجع الصواب وعمل الطاعة ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم بفتح الهمزة من ﴿فَأَنَّهُ﴾، وقرأ الباقون بالكسر، فعلى القراءة الأولى: تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف: أي فأمره أن الله غفور رحيم، وهذا اختيار سيبويه، واختار أبو حاتم أن الجملة في محل رفع على الابتداء والخبر مضمر، كأنه قيل: فله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء، وأما على القراءة الثانية: فالجملة مستأنفة.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ حالة كونك واقفًا أو ماشيًا أو قاعدًا أو راكبًا أو مضطجعًا ﴿الَّذِينَ يُومِنُونَ بِئَايَاتِنَا﴾ نازلة أو معجزة، هم الذين يَدْعُون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه، الممنون عليهم بالهدى، الشاكرون، ومقتضى الظاهر: (وإذا جاءوك)، لكن وضع الظاهر ليصفهم بالعلم، فإنَّ الإيمان بالآيات عِلْمٌ، فيكون قد وصفهم بالعمل الصالح بالغداة والعشيِّ، فهم جامعون لفضلَي العلم والعمل الموجِبَيْن

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٧٦.

للتقريب والعزِّ وترك الطرد، والتبشيرِ بالسلام من الله، وبدْئِه ﷺ به.

٢. ﴿فَقُلْ﴾ قبلهم تطييبًا لخاطرهم، وهذا أمر إيجاب عليه، وقيل: ندب، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ من الله على لساني ومِنِّي، وقال عكرمة: منه ﷺ ، وقيل: من الله تعالى، وقيل: ليس بتحيَّة، بل إخبار بأنَّ لهم السلامة، وابن عبَّاس على أنَّه تَحِيَّة من الله تعالى ، ولهم التبشير بالرحمة في الآخرة كما قال:

٣. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾ قضى، أو كتب في اللوح المحفوظ، وقيل: هذا من كلامه ﷺ غير داخل فيما حكي بالقول، وقيل: هذا مستأنف في قومٍ قالوا: أصبنا ذنوبًا عظامًا، فنزل فيهم، وقيل: لم تنزل في قوم مخصوصين بل عَامَّة، وفيه أنَّ المثبت مقدَّم على النافي، ومن أين لقائله الجزم بالنفي مع أنَّ النزول في مخصوصين لا ينافي العموم.

٤. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ﴾ يا أيُّها المذكورون بالعبادة والعلم، أو يا أيُّها الناس مطلقًا، الداخل فيهم هؤلاء أوَّلاً وبالذات، ﴿سُوءًا﴾ ذنبًا ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ ثابتًا مع جهالة، حالٌ مؤكِّدة، فإنَّ الذنب أبدًا جهالة، أي: سفه، قال الحسن: (كلُّ من عمل معصية من عالم أو جاهل فهو جاهل)، أي: سفيه، أو المراد: عدم العلم بحرمة عمله، إلَّا أنَّ العالم بالحرمة كذلك يغفر له إذا تاب، ولكن خصَّ الجهالة تلويحًا إلى أنَّه يبعد عن المؤمن أن يعصي مع علمه بالحرمة، وأنَّه لا يعمل ذنبًا إلَّا وهو غير عالم بأنَّه ذنب، كما أنَّ عمر قال: (يا رسول الله، أَقِمْ هؤلاء المؤمنين الضعفاء عنك إذا جاء هؤلاء المدَّعون للشرف فتنظر ما يصير إليه أمرهم)، قاله ولم يعلم بأنَّ ذلك سفه، وبكى واعتذر، وقال: (ما أردت إلَّا خيرًا)، وأمَّا أن يقال: الجهالة شامل لفعل السوء مع العلم بأنَّه ذنب لِشِبْهِ العالم حينئذ بالجاهل، إذ فعل ما يهلكه، ويُفَوِّته الخيرَ الدائم، واختار اللذَّة العاجلة القليلة المتكدِّرة على الدائمة الكثيرة التي لا تتكدَّر، ففيه الجمع بين الحقيقة والمجاز، فإمَّا أن يجوِّز وإمَّا أن يُحمل على عموم المجاز وهو أولى لأنَّه أوسع، وأمَّا أن تُحمل الجهالة على عدم العلم فقط، أو على عدم العلم بما يفوته من الثواب وما يستحقُّه من العقاب، ففيه تقصير عن بعض ما تشمله الآية.

٥. ﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ﴾ بعد عمل السوء من عمله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله بالتوبة من ذلك السوء بالتدارك، والعزم على عدم العود ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي: الله، بفتح الهمزة كما نصَّ عليه أبو عمرو الداني، ونصَّت المشارقة أنَّ أبا عمرو الداني هو أعلم الناس بقراءة نافع، وشُهِر الكسر عن نافع.

٦. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والمصدر من (غَفُورٌ رَّحِيمٌ) بواسطة (أَنَّ) بدل من (الرَّحْمَةَ) بدل مطابق، كأنَّه قيل: (كتب على نفسه الغفران والرحمة لمن عمل سوءًا وتاب وأصلح)

٧. سؤال وإشكال: أجمع الناس على أنَّ الأنعام نزل دفعة، فكيف يقال: سبب نزول كذا وسبب نزول كذا هو كذا من آياتها؟ بل هي على العموم، فكلٌّ من فعل كذا فله كذا؟ والجواب: نزلت على طبق ما سيقع، فكانت مصداقًا له.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هؤلاء هم الذين سأل المشركون طردهم وإبعادهم، فأكرمهم الله تعالى بهذا الإكرام:

أ. قال البيضاويّ: (وصفهم تعالى بالإيمان بالقرآن، واتباع الحجج، بعد ما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأهم بالتسليم، أو يبلّغ سلام الله تعالى إليهم، ويبشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله، بعد النهي عن طردهم، إيذانا بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرّب ولا يطرد، ويعز ولا يذل، ويبشّر من الله بالسلامة في الدنيا، والرحمة في الآخرة)

ب. وسلف عن ابن جرير أنها نزلت في عمر، وأخرج الفريابيّ وابن أبي حاتم عن ماهان، قال جاء ناس إلى النبيّ ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوبا عظاما، فما ردّ عليهم شيئا، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾.. الآية.

ج. ولا يخفى أن الآية تشمل جميع ذلك، وربما تتعدد الوقائع المشتركة في حكم واحد، فتنزل الآية بيانا للكل، وتقدم لنا في مقدمة هذا التفسير، في بحث سبب النزول، أن قول السلف: نزلت في كذا، قد يقصدون به أن واقعته مما يشملها لفظ الآية، لنزولها إثرها، فتذكره، وأجل فكرك في أطرافه، فإنه مهم جدّا، وبمعرفته يندفع إشكال الرازيّ الذي قرره هنا.

٢. ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على ذاته المقدسة، تفضلا منه وإحسانا وامتنانا، ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ بدل من ﴿الرَّحْمَةَ﴾، وقرئ بكسر الهمزة على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف، وقوله:

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٧٦.

﴿بِجَهَالَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: عمله وهو جاهل، وفيه معنيان:

أ. أحدهما: أنه فاعل فعل الجهلة، لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة، وهو عالم بذلك، أو ظانّ، فهو من أهل السفه والجهل، لا من أهل الحكمة والتدبير، ومنه قول الشاعر:

على أنها قالت عشية زرتها   جهلت على عمد ولم تك جاهلا

ب. الثاني: أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته ـ كذا في الكشاف ـ.

ج. فعلى الأول، الجهل: بمعنى السفه والمخاطرة من من غير نظر للعواقب، كما في قوله: (فنجهل فوق جهل الجاهلينا)، وكانت العرب تتمدح به، فلا حاجة لتقدير مفعول، وعلى الثاني، المراد: الجهالة بمضارّ ما يفعله.

٣. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: العمل، كقوله: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، روى أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لما قضى الله على الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي)

٤. نقل بعض المفسرين عن الحاكم أنه قال دلت الآية الكريمة على وجوب تعظيم المؤمنين، ودلت على أنه ينبغي إنزال المسرة بالمؤمن، لأنه أمر بأن يقول لهم ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ لتطيب قلوبهم)

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هاتان الآيتان متممتان للسياق فيما قبلهما بالجمع بين الإرشاد السلبي والإيجابي للرسول ﷺ في سياسته للمؤمنين، فبعد أن نهاه ربه عن طرد المستضعفين منهم من حضرته استمالة لكبراء المتكبرين من قومه، وطمعا في إقبالهم عليه وسماعهم لدعوته وإيمانهم به ـ كما اقترح عليه بعضهم ـ أمره بأن يلقاهم كسائر المؤمنين بالتحية والسلام والتبشير برحمة الله ومغفرته على الوجه المبين في الآية الأولى من هاتين الآيتين، وقد تقدم في سبب نزول: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ من رواية عكرمة أن عمر بن الخطاب كان

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٧٢

استحسن إجابة أشراف الكفار إلى اقتراحهم، وأنه لما نزلت الآيات في ذلك أقبل فاعتذر، فنزلت هذه الآية في قبول اعتذاره، وتقدم أن الرواية ضعيفة، وأن هذه الزيادة فيها غير مقبولة، وأن روايات نزول الأنعام دفعة واحدة أقوى منها، وهي معارضة لها، والآن رأيت في التفسير الكبير للرازي استشكال هذا باتفاق الناس على نزول هذه السورة دفعة واحدة، وقد تقدم التحقيق في مسألة نزول السورة دفعة واحدة وفي زيادة رواية عكرمة، ويعارضه أيضا ما أخرجه جل رواة التفسير المأثور عن ماهان قال: أتى قوم إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوبا عظاما، فما رد عليهم شيئا، فانصرفوا، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الآية فدعاهم فقرأها عليهم، ولكن الرواية من مراسيل ماهان، لا يحتج بها، وليست صريحة كرواية عكرمة في معارضة نزول السورة دفعة واحدة، إذ يجيز أن يكون النبي ﷺ تلاها على من سألوه عن ذنوبهم عند نزولها في ضمن السورة، ومثل هذا التعبير كثير في كلام رواة التفسير.

٢. الظاهر أن الآية نزلت في معاملة جميع المؤمنين لا في عمر وحده كما في رواية عكرمة، ولا فيمن سألوه عن ذنوبهم كما في رواية ماهان ـ وإن فرضنا صحة الروايتين ـ ولا فيمن نهي عن طردهم خاصة كما يقول بعض المفسرين، بل في جماعة المؤمنين الذين كان أكثرهم من الفقراء المستضعفين الذين اقترح عليه ﷺ طردهم فيدخلون فيها بمعونة السياق دخولا أوليا، وهذا ما تفهمه عبارتها، وما سواه فمتكلف لتطبيقه على الروايات.

٣. وبعد كتابة ما تقدم، والتوجه إلى بيان معنى الآية ومراجعة المصحف الشريف فيها وفيما قبلها، كان أول ما تبادر إلى ذهني أن المراد بالذين يؤمنون بالآيات هنا هم الذين كانوا يدخلون في الإسلام آنا بعد آن، عن بينة وبرهان، لا من آمنوا وأسلموا من قبل ممن نهي عن طردهم وغيرهم، ذلك بأن الفعل المضارع (يؤمنون) يفيد وقوع الإيمان في الحال أو الاستقبال، ولا يعبر به عمن آمنوا في الماضي إلا بضرب من التجوز في الاستعمال ـ كما يعبر بالماضي عن المستقبل أحيانا لنكتة تقتضي ذلك ـ كإرادة تصوير ما مضى كأنه واقع الآن، أو إفادة ما يتلو ذلك الماضي من التجدد والاستمرار، ولا يظهر شيء من ذلك في هذه الآية ظهورا بينا يرجح صرف الفعل عن أصل معناه، ولكن قد يراد به التعبير عن الشأن، فإنه يكثر في الفعل المضارع إذا كان صلة للموصول، ويرجح الأصل هنا تطبيق السياق على حال الناس في زمن نزول السورة، والجملة الشرطية التي افتتحت بها الآية، وإننا نبين ذلك بما يظهر به التناسب بين الآيات أتم الظهور.

٤. كان جمهور الناس كافرين، إما كفر جحود وعناد، وإما كفر جهل وتقليد للآباء والأجداد، وكان يدخل في الإسلام الأفراد بعد الأفراد، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء، وكان النبي ﷺ يكون تارة مع هؤلاء المؤمنين يعلمهم ويرشدهم، وتارة يتوجه إلى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم، وكان المعاندون من كبرائهم يقترحون عليه الآيات الكونية للتعجيز، وتارة يحقرون شأنه بوجوده في عامة أوقاته مع أولئك الفقراء والمساكين، وقد اقترحوا عليه طردهم من حضرته، ولعلهم كانوا يريدون بذلك أن ينفضوا من حوله، وأن يكون منفردا لغيرهم عن الإيمان به، وكان ﷺ حريصا على إيمان أولئك الكبراء لما تقدم بيانه، فأرشده ربه جلت حكمته في هذا السياق القولي الأخير من هذه السورة إلى أن يبين لمقترحي الآيات الكونية من الكفار أن حقيقة الرسالة لا تقتضي أن تكون قدرة الرسول وعلمه كقدرة الله تعالى وعلمه، ولا أن يكون ملكا من الملائكة حتى يقدر على ما لا يقدر عليه البشر من الآيات، وبأن ينذر الذين يخشون ربهم من المؤمنين إنذارا خاصا بهم؛ لأنهم هم الذين يرجى أن ينتفعوا بكل إنذار، وبألا يطرد من حضرته منهم أولئك الذين يدعون ربهم بالعشي والإبكار، بباعث النية الصحيحة والإخلاص، ويستلزم ذلك أن يستمر على معاملتهم الأولى التي أمره الله تعالى بها في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ فبعد هذا الإرشاد في شأن الكفار المعاندين والمؤمنين السابقين حسن أن يرشد الله رسوله ﷺ إلى شيء في شأن الفريق الثالث من الناس، وهم الذين يجيئون الرسول آنا بعد آن مؤمنين بآيات الله المثبتة للتوحيد والرسالة، فيدخلون في الإسلام مذعنين لأمر الله ورسوله ـ وهم الذين أراد رؤساء المشركين تنفيرهم وحاولوا صدهم ـ فأمره أن يبين لهم قبل كل شيء أنهم صاروا في سلام وأمان من الله تعالى؛ لأن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة فهو لا يؤاخذهم بما كان قبل الإسلام، ومن عمل بعده سوءا بجهالة فما عليه إلا أن يمحو أثره بالتوبة والإصلاح.

٥. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام والسلامة مصدران من الثلاثي، يقال: سلم فلان من المرض أو من البلاء سلاما وسلامة، ومعناهما البراءة والعافية، والسلام والمسالمة مصدران من الرباعي أيضا، يقال: سالمه أي بارأه وتاركه، ومنه تركه الحرب، والسلام من أسماء الله تعالى، يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص، وعجز، وفناء، وغير ذلك من عيوب الخلق وضعفهم،

واستعمل السلام في المتاركة وفي التحية معرفة ونكرة، يقال: سلام عليكم، والسلام عليكم، وهو بمعنى الدعاء بالسلامة من كل ما يسوء، ويفيد تأمين المسلم عليه من كل أذى يناله من المسلم، فهو آية المودة والصفاء، وثبت في التنزيل أن السلام تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جل وعلا، وملائكته الكرام ويحيي بها بعضهم بعضا، وهو تحية الإسلام الذي هو دين السلم والمسالمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ واختلفوا في هذا السلام هنا: أهو تحية أمر الله تعالى رسوله أن يبدأ بها الذين يؤمنون بآياته إذا جاءوه إكراما خاصا بهم مخالفا للأصل العام ـ وهو كون القادم هو الذي يلقي السلام ـ أم هو تحية منه تعالى أمر رسوله أن يبلغهم إياها عنه، أم هو إخبار عنه تعالى بسلامتهم وأمنهم من عقابه، ققى عليه ببشارتهم بمغفرته ورحمته؟ روي الأول عن عكرمة فهو، خاص بمن قال: إن الآية نزلت فيهم، والثاني عن الحسن، والثالث عن ابن عباس وهو أظهرها، والمراد بالآيات آيات القرآن، المشتملة على حجج الله وآياته في الأنفس والآفاق، وهذه الآية معطوفة على آية النهي ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، إلخ، والآية التي بينهما معترضة بين فيها ابتلاء كبراء المشركين بضعفاء المؤمنين ورغبتهم في طردهم.

٦. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ تقدم مثله في الآية الثانية عشرة من هذه السورة، وكتابتها إيجابها على ذاته العلية، وله أن يوجب على نفسه ما شاء ولا يوجب عليه أحد شيئا، فالرحمة من شئون الربوبية الواجبة لها لا عليها، وإن في نظام الفطرة البشرية وما سخر الله للبشر من أسباب المعيشة المادية، وما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية، ومن هداية الوحي الوهبية ـ لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية، وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية، بل هي التي وسعت كل شيء، ولكن كتابتها أمر آخر خص به بعض الخلق كما يأتي في سورة الأعراف،.

٧. وقد بين لنا سبحانه أصلا من أصول الدين، في هذه الرحمة المكتوبة للمؤمنين، فقال: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، ويعقوب (أنه) بفتح الهمزة، وقرأ الباقون (إنه) بكسرها:

أ. فأما قراءة الفتح فعلى البدل من الرحمة، أي بدل البعض من الكل؛ إذ ذكر من أنواع الرحمة المكتوبة ما هم أحوج إلى معرفته بنص الوحي، وهو حكم من يعمل السوء من المؤمنين، وكيف يعامله الله تعالى، وأما سائر أنواعها، وما هو إحسان غير مكتوب منها، فيمكن أن يستدل عليها بالنظر في الأنفس

والآفاق، وهو ما أشرنا إليه في تفسير كتابتها.

ب. وأما قراءة الكسر فعلى الاستئناف النحوي أو البياني، كأنه قيل: ما هذه الرحمة؟ أو: ما حظنا منها في أعمالنا؟ وهل من مقتضاها ألا نؤاخذ بذنب، وأن يغفر لنا كل سوء بلا شرط ولا قيد؟ فجاء الجواب: إنه ـ أي الحال والشأن ـ من عمل منكم عملا تسوء عاقبته وتأثيره لضرره الذي حرمه الله لأجله حال كونه متلبسا بجهالة دفعته إلى ذلك السوء، كغضب شديد حمله على السب أو الضرب، أو شهوة مغتلمة قادته إلى انتهاك عرض، فالجهالة هنا هي السفه والخفة التي تقابلها الروية والحكمة والعفة، وقيل: إنها الجهل الذي يقابله العلم؛ لأن كل من يعمل السوء لا بد أن يكون جاهلا، فإما أن يجهل ما فيه من القبح والضرر، وإما أن يجهل سوء عاقبته وقبح تأثيره في نفسه، وما يترتب على ذلك من سخط ربه وعقابه، ذهابا مع الأماني واغترارا بتأول النصوص، ومن هنا قال الحسن البصري: كل من عمل معصية فهو جاهل.

٨. وحاصل المعنى:

أ. على القراءة الأولى: كتب ربكم على نفسه الرحمة الخاصة التي هي المغفرة والرحمة لمن تاب من بعد عمل السوء بجهالة وأصلح عمله.

ب. وعلى الثانية: إن سألتم عن حظكم من هذه الرحمة فالجواب أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي ثم رجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعرا بقبحه، نادما عليه خائفا من عاقبته، وأصلح عمله بأن أتبع العمل السيئ التأثير في النفس عملا يضاده ويذهب بأثره من قلبه، حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها، وتصير كما كانت أهلا لنظر الرب وقربه.

٩. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فشأنه سبحانه في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة، فيغفر له ما تاب عنه، ويتغمده برحمته وإحسانه، وهذه قاعدة من قواعد الدين وأس من إساسه، أمر الله تعالى رسوله أن يبلغها لمن يدخلون فيه ليهتدوا بها، حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله، والغفلة عن تزكية أنفسهم، والمبادرة إلى تطهيرها من إفساد الذنوب لها، إلى أن تحيط بها خطيئتها، وقد بينا هذه القاعدة مرارا في تفسير الآيات المقررة لها؛ تارة بالإيجاز، وتارة بالإطناب، وتارة بالتوسط بينهما، وكان أوسع ما كتبناه فيها تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ

يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَلِيمًا﴾، وندع أصحاب المذاهب الكلامية والفقهية من المفسرين يتجادلون في كون الآية مؤيدة لمذهب المعتزلة أو غير مؤيدة له، فإن هذه المجادلات تصرف المشتغلين بها عن الموعظة والحكمة التي أنزلها الله تعالى لبيانهما.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . بعد أن نهى سبحانه نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته، استمالة لكبراء المتكبرين من قومه، وطمعا في إقبالهم عليه وسماعهم لدعوته، كما اقترحه بعض المشركين، أمره بأن يلقى الذين يدخلون في الإسلام آنا بعد آن عن بينة وبرهان ـ بالتحية والسلام، والتبشير برحمة الله ومغفرته، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين إما كفر جحود وعناد، وإما كفر جهل وتقليد للآباء والأجداد، وكان يدخل في الإسلام الأفراد بعد الأفراد، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء، وكان النبي ﷺ يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم، وتارة يتوجه إلى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم.

٢ . ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي وإذا جاءك القوم الدين يصدّقون بكتابنا وحججنا، ويقرون بذلك قولا وعملا، سائلين عن ذنوبهم التي فرطت منهم، هل لهم منها توبة، فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: سلام عليكم أي أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها.

٣ . ثم ذكر العلة في هذا فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي قل لهم: أوجب على ذاته المقدسة تفضلا منه وإحسانا، الرحمة بخلقه، فإن فيما سخّر للبشر من أسباب المعيشة المادية، وفيما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية ـ لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية، وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية.

٤ . ثم بين أصلا من أصول الدين في هذه الرحمة للمؤمنين فقال: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن من عمل منكم عملا تسوء عاقبته، للضرر الذي حرّمه الله لأجله، حال كونه ملتبسا بجهالة دفعته إلى ذلك السوء، كغضب شديد حمله على السب والضرب، أو شهوة مغتلمة قادته إلى انتهاك العرض، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعرا بقبحه، نادما

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٣٩.

عليه، خائفا من عاقبته، وأصلح عمله بأن اتبع ذلك العمل السيّئ بعمل يضاده، ويذهب أثره من قلبه، حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها، وتصير أهلا للقرب من ربها ـ فشأنه تعالى في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة، فيغفر له ما تاب عنه، ويتغمده برحمته وإحسانه.

٥. وقد بين سبحانه في هذه الآية من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ما هم أحوج إلى معرفته بنص الوحي وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين، وبقية أنواعها يمكن أن يستدل عليها بالنظر في الأنفس والآفاق، وأمر نبيه بتبليغها لمن يدخلون في الدين ليهتدوا بها حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من إفساد الذنوب خوف أن تحيط بها خطيئتها: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يمضي السياق يأمر رسول الله ﷺ وهو رسول الله أن يبدأ أولئك الذين أسبغ عليهم فضل السبق بالإسلام؛ والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف!.. أن يبدأهم بالسلام.. وأن يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة؛ متمثلا في مغفرته لمن عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٢. وهو التكريم ـ بعد نعمة الإيمان واليسر في الحساب، والرحمة في الجزاء، حتى ليجعل الله سبحانه الرحمة كتابا على نفسه للذين آمنوا بآياته؛ ويأمر رسوله ﷺ أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه، وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله، متى تابوا من بعده وأصلحوا ـ إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب؛ فما يذنب الإنسان إلا من جهالة؛ وعلى ذلك يكون النص شاملا لكل سوء يعمله صاحبه؛ متى تاب من بعده وأصلح، ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة من الذنب ـ أيا

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٠٢.

كان ـ والإصلاح بعده، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة..

٣. نحن في حاجة إلى وقفة طويلة أمام هذه النصوص[١].. والبشرية بجملتها في حاجة إلى هذه الوقفة كذلك.. إن هذه النصوص لا تمثل مجرد مبادئ وقيم ونظريات في (حقوق الإنسان!).. إنها أكبر من ذلك بكثير.. إنها تمثل شيئا هائلا تحقق في حياة البشرية فعلا.. تمثل نقلة واسعة نقلها هذا الدين للبشرية بجملتها.. تمثل خطا وضيئا على الأفق بلغته هذه البشرية ذات يوم في حياتها الحقيقية.. ومهما يكن من تراجع البشرية عن هذا الخط الوضيء الذي صعدت إليه في خطو ثابت على حداء هذا الدين، فإن هذا لا يقلل من عظمة تلك النقلة؛ ومن ضخامة هذا الشيء الذي تحقق يوما؛ ومن أهمية هذا الخط الذي ارتسم بالفعل في حياة البشر الواقعية.. إن قيمة ارتسام هذا الخط وبلوغه ذات يوم، أن تحاول البشرية مرة ومرة ومرة الارتفاع إليه؛ ما دام أنها قد بلغته؛ فهو في طوقها إذن وفي وسعها.. والخط هناك على الأفق، والبشرية هي البشرية؛ وهذا الدين هو هذا الدين.. فلا يبقى إلا العزم والثقة واليقين..

٤. وقيمة هذه النصوص أنها ترسم للبشرية اليوم ذلك الخط الصاعد بكل نقطه ومراحله.. من سفح الجاهلية الذي التقط الإسلام منه العرب، إلى القمة السامقة التي بلغ بهم إليها، وأطلعتهم في الأرض يأخذون بيد البشرية من ذلك السفح نفسه إلى تلك القمة التي بلغوها! فأما ذلك السفح الهابط الذي كان فيه العرب في جاهليتهم ـ وكانت فيه البشرية كلها ـ فهو يتمثل واضحا في قولة: (الملأ) من قريش: (يا محمد، رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك!).. أو في احتقار الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، للسابقين من أصحاب رسول الله ﷺ بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، وأمثالهم من الضعفاء؛ وقولهما للنبي ﷺ: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا؛ فإن وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد!)..

٥. هنا تتبدى الجاهلية بوجهها الكالح! وقيمها الهزيلة، واعتباراتها الصغيرة.. عصبية النسب والجنس واعتبارات المال والطبقة.. وما إلى ذلك من اعتبارات، هؤلاء بعضهم ليسوا من العرب! وبعضهم

(١) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

ليسوا من طبقة الأشراف! وبعضهم ليسوا من ذوي الثراء!.. ذات القيم التي تروج في كل جاهلية! والتي لا ترتفع عليها جاهليات الأرض اليوم في نعراتها القومية والجنسية والطبقية! هذا هو سفح الجاهلية.. وعلى القمة السامقة الإسلام! الذي لا يقيم وزنا لهذه القيم الهزيلة ولهذه الاعتبارات الصغيرة، ولهذه النعرات السخيفة!.. الإسلام الذي نزل من السماء ولم ينبت من الأرض، فالأرض كانت هي هذا السفح.. هذا السفح الذي لا يمكن أن ينبت هذه النبتة الغريبة الجديدة الكريمة.. الإسلام الذي يأتمر به ـ أول من يأتمر ـ محمد ﷺ محمد رسول الله الذي يأتيه الوحي من السماء؛ والذي هو من قبل في الذؤابة من بني هاشم في الذروة من قريش.. والذي يأتمر به أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ؛ في شأن (هؤلاء الأعبد).. نعم هؤلاء الأعبد الذين خلعوا عبودية كل أحد؛ وصاروا أعبد الله وحده؛ فكان من أمرهم ما كان! وكما أن سفح الجاهلية الهابط يرتسم في كلمات الملأ من قريش، وفي مشاعر الأقرع وعيينة.. فإن قمة الإسلام السامقة ترتسم في أمر الله العلي الكبير، لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٦. ويتمثل في سلوك رسول الله ﷺ مع (هؤلاء الأعبد).. الذين أمره ربهم أن يبدأهم بالسلام وأن يصبر معهم فلا يقوم حتى يقوموا وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ـ وهو بعد ذلك ـ رسول الله وخير خلق الله، وأعظم من شرفت بهم الحياة! ثم يتمثل في نظرة (هؤلاء الأعبد) لمكانهم عند الله؛ ونظرتهم لسيوفهم واعتبارها (سيوف الله) ونظرتهم لأبي سفيان (شيخ قريش وسيدهم) بعد أن أخره في الصف المسلم كونه من الطلقاء الذين أسلموا عام الفتح وذهبوا طلقاء عفو رسول الله ﷺ وقدّمهم هم في الصف كونهم من السابقين إلى الإسلام، وهو في شدة الابتلاء.. فلما أن عاتبهم أبو بكر في أمر أبي سفيان، حذره صاحبه رسول الله ﷺ أن يكون قد أغضب (هؤلاء الأعبد)! فيكون قد أغضب الله ـ يا الله! فما يملك أي تعليق أن يبلغ هذا المدى وما نملك إلا أن نتملاه! ـ ويذهب أبو بكر يترضى (الأعبد) ليرضى الله: (يا إخوتاه، أغضبتكم)؟ فيقولون: (لا يا أخي، يغفر الله لك)! أي شيء هائل هذا الذي تحقق في حياة البشرية؟

أية نقلة واسعة هذه التي قد تمت في واقع الناس؟ أي تبدل في القيم والأوضاع، وفي المشاعر والتصورات، في آن؟ والأرض هي الأرض والبيئة هي البيئة، والناس هم الناس، والاقتصاد هو الاقتصاد.. وكل شيء على ما كان، إلا أن وحيا نزل من السماء، على رجل من البشر، فيه من الله سلطان.. يخاطب فطرة البشر من وراء الركام، ويحدو للهابطين هنالك عند السفح، فيستجيشهم الحداء ـ على طول الطريق ـ إلى القمة السامقة.. فوق.. فوق.. هنالك عند الإسلام! ثم تتراجع البشرية عن القمة السامقة؛ وتنحدر مرة أخرى إلى السفح، وتقوم ـ مرة أخرى ـ في نيويورك، وواشنطن، وشيكاغو.. وفي جوها نسبرج.. وفي غيرها من أرض (الحضارة!) تلك العصبيات النتنة، عصبيات الجنس واللون، وتقوم هنا وهناك عصبيات (وطنية) و(قومية) و(طبقية) لا تقل نتنا عن تلك العصبيات..

٧. ويبقى الإسلام هناك على القمة.. حيث ارتسم الخط الوضيء الذي بلغته البشرية.. يبقى الإسلام هناك ـ رحمة من الله بالبشرية ـ لعلها أن ترفع أقدامها من الوحل، وترفع عينيها عن الحمأة.. وتتطلع مرة أخرى إلى الخط الوضيء وتسمع مرة أخرى حداء هذا الدين؛ وتعرج مرة أخرى إلى القمة السامقة على حداء الإسلام..

٨. ونحن لا نملك ـ في حدود منهجنا في هذه الظلال ـ أن نستطرد إلى أبعد من هذه الإشارة.. لا نملك أن نقف هنا تلك (الوقفة الطويلة) التي ندعو البشرية كلها أن تقفها أمام هذه النصوص ودلالتها، لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذي يرتسم من خلالها في تاريخ البشرية؛ وهي تصعد على حداء الإسلام من سفح الجاهلية الهابط، إلى تلك القمة السامقة البعيدة.. ثم تهبط مرة أخرى على عواء (الحضارة المادية) الخاوية من الروح والعقيدة!.. ولتحاول كذلك أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى؛ بعد أن فشلت جميع التجارب، وجميع المذاهب، وجميع الأوضاع، وجميع الأنظمة، وجميع الأفكار؛ وجميع التصورات، التي ابتدعها البشر لأنفسهم بعيدا عن منهج الله وهداه.. فشلت في أن ترتفع بالبشرية مرة أخرى إلى تلك القمة؛ وأن تضمن للإنسان حقوقه الكريمة في هذه الصورة الوضيئة؛ وأن تفيض على القلوب الطمأنينة ـ مع هذه النقلة الهائلة ـ وهي تنقل البشرية إليها بلا مذابح؛ وبلا اضطهادات؛ وبلا إجراءات استثنائية تقضي على الحريات الأساسية؛ وبلا رعب، وبلا فزع، وبلا تعذيب، وبلا جوع، وبلا فقر، وبلا عرض واحد من أعراض النقلات التي يحاولها البشر في ظل الأنظمة البائسة

التي يضعها البشر؛ ويتعبد فيها بعضهم بعضا من دون الله.. فحسبنا هذا القدر هنا.. وحسبنا الإيحاءات القوية العميقة التي تفيض بها النصوص ذاتها، وتسكبها في القلوب المستنيرة.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ـ هو بيان لوجه كريم من وجوه الدعوة الإسلامية، وأنها لا تصدّ أحدا يرد شريعتها، ويريد الارتواء منها.. وهؤلاء الذين وقفوا من النبيّ ومن أصحابه هذا الموقف العناديّ العنيف ـ هؤلاء لن يغلق الإسلام بابه دونهم، ولن يقبض الله يد رحمته عنهم.. بل هم حيث طرقوا باب الإسلام فتح لهم على مصراعيه، واستقبلتهم على عتباته رحمة الله ومغفرته، فمحت كل ما علق بهم من آثام وسيئات، وإذا هم مواليد جدد في الإسلام، يدخلونه وصفحات كتابهم بيضاء لم يمسسها سوء.. وأنهم منذ اليوم؛ هم الذين يملون ما يكتب في هذه الصفحات، من خير أو شر.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ استدعاء لأولئك الذين تخلّفوا عن الإسلام، وحثّ لخطاهم على أن يسبقوا حتى لا يكونوا في مؤخرة الركب.. وهذا هو السرّ في التعبير بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ الذي يدل على الحال المتجددة في المستقبل الممتدّ..

٣. في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ هو التحية الطيبة المباركة التي يلقاهم بها الله على لسان رسوله، وهم على عتبة الإسلام.. وفي هذا الترحيب بهم أنس لهم، وطمأنينة لمستقبلهم، فهم في أمن وسلام، وفي خير وعافية: (سلام عليكم).. أي سلام يشتمل عليكم، ظاهرا وباطنا.

٤. فإذا أنسوا لهذه التحية الكريمة، تلقّوا تحية أعظم وأكرم.. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فهذه الرحمة التي أوجبها الله على نفسه، رحمة منه وكرما وفضلا، هي التي تضفى على الداخلين في الإسلام، لأمن والسلام، بالتجاوز عمّا اقترفوا من قبل من آثام.. فهم أبناء لإسلام منذ اليوم الذي دخلوا فيه، ولا شيء عليهم مما اقترفوه من قبل.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٩٦.

٥. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا السوء الذي فعلوه بجهالة، هو ما كان منهم من حرب على الإسلام، وأذى للمسلمين، الأمر الذي جعلهم يدخلون الإسلام وأشباح هذه المنكرات تقضّ مضاجعهم، وتكاد تفسد عليهم حياتهم مع الدين الذي دخلوا فيه.. فكان قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ـ كان هذا ردّا لاعتبارهم، وتصحيحا لوجودهم، وسكنا لنفوسهم، وبردا وسلاما على قلوبهم.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، قال رسول الله ﷺ: أدبني ربي فأحسن تأديبي، وأي أدب كأدب خالق السموات والأرض؟، وأية نفس ينمو ويثمر فيها الأدب الإلهي كنفس محمد؟

٢. لقد أدب سبحانه هذه النفس الطيبة الزاكية، ليؤهلها لرسالته، رسالة الرحمة للعالمين التي بها وبصاحبها تمت مكارم الأخلاق.. أدّب الله محمدا في العديد من آياته، ومنها هذه الآية، وهي تعلّم رسول الله وخير خلق الله كيف يسلك ويعامل الضعفاء والمساكين.. فكان يلقاهم بالبشاشة والترحاب، ويقول: سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة، ويحبس نفسه معهم، ما داموا في مجلسه، حتى يكونوا هم الذين ينصرفون.

٣. وإذا كان النبي مقصود الله بهذا التأديب فنحن مقصودون بالتأسي والاقتداء به، فلا نكرم أحدا لمال أو جاه أو جنس ولون، وإنما نكرم ونحترم للدين والخلق الكريم، قال بعض المفسرين الجدد: كانت الحياة البشرية قبل محمد ﷺ في الحضيض، فرفعها محمد إلى القمة، وتراجعت الآن عن القمة السامقة، وانحدرت في نيويورك وواشنطن وشيكاغو، حيث العصبيات النتنة، عصبيات الجنس واللون، أجل، لا جنس ولا لون، ولا جاه ولا ثراء، لا فضل في الإسلام إلا بالتقوى، وفي هذا المبدأ الإسلامي الإلهي يكمن

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٧.

السر لتواضع المراجع الكبار من علماء المسلمين.. يصل اليهم الصغير والكبير على السواء، دون بواب وحجاب، ويخاطبهم على سجيته بما شاء، ودون تكلف وتحفظ.. أما البابا ومن اليه من رؤساء الأديان فلا يحلم بمجالسته ومخاطبته إلا وزير وكبير، على أن يحدّد له من قبل وقت المقابلة وأمدها.

٤. وعودا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، السلام عليكم ورحمة الله، هذه هي تحية الإسلام، دعاء بالنجاة لمن تحييه من كل سوء، والعيش بأمان واطمئنان، وبرحمة الله ورضوانه، إذ لا نجاة ولا أمان مع غضبه جل وعلا، أما إذا عطفت بركات الله على رحمته فقد دعوت لصاحبك بالرزق الواسع، والعطاء الجزيل.. وأين مرحبا وصباح الخير ونهارك سعيد من هذه التحية الإلهية الإسلامية!؟

٥. وسبق قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في الآية ١٢ من هذه السورة، وقلنا في تفسيرها: أن رحمته تعالى لا تنفك عن ذاته القدسية، تماما كقدرته وعلمه.

٦. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، المراد بالجهالة هنا السفاهة، أما التوبة فقد عقدنا لها فصلا خاصا بعنوان التوبة والفطرة عند تفسير الآية ١٨ من سورة النساء ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا هو الرب الذي نعبده، يغفر لمن أناب، ويرحم العباد، وكل من رحم الناس وعمل لصالحهم فقد عبد الله في عمله، وان جحده بلسانه، وكل من اعتدى على حق من حقوقهم فقد كفر بالله ـ عمليا ـ وإن هلل وكبّر.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] وهو ارتقاء في إكرام الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي، فهم المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾

٢. ومعنى ﴿يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أنّهم يوقنون بأنّ الله قادر على أن ينزّل آيات جمّة، فهم يؤمنون بما نزّل

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٢٤.

من الآيات وبخاصّة آيات القرآن وهو من الآيات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]

٣. وقوله: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: معناه حيّهم بتحيّة الإسلام، وهي كلمة (سلام عليكم)، وقيل: أبلغهم السلام من الله تعالى تكرمة لهم لمضادّة طلب المشركين طردهم، وقد أكرمهم الله كرامتين

أ. الأولى: أن يبدأهم النبي ﷺ بالسلام حين دخولهم عليه وهي مزيّة لهم، لأنّ شأن السلام أن يبتدئه الداخل، ثم يحتمل أنّ هذا حكم مستمرّ معهم كلّما أدخلوا على رسول الله ﷺ ويحتمل أنّه للمرّة التي يبلّغهم فيها هذه البشارة، فنزّل هو منزلة القادم عليهم لأنّه زفّ إليهم هذه البشرى.

ب. الثانية: هي بشارتهم برضى الله عنهم بأنّ غفر لهم ما يعملون من سوء إذا تابوا من بعده وأصلحوا، وهذا الخبر وإن كان يعمّ المسلمين كلّهم فلعلّه لم يكن معلوما، فكانت البشارة به في وجوه المؤمنين يومئذ تكرمة لهم ليكونوا ميموني النقيبة على بقية إخوانهم والذين يجيئون من بعدهم.

٤. والسلام: الأمان، كلمة قالتها العرب عند لقاء المرء بغيره دلالة على أنّه مسالم لا محارب لأنّ العرب كانت بينهم دماء وترات وكانوا يثأرون لأنفسهم ولو بغير المعتدي من قبيلته، فكان الرجل إذا لقي من لا يعرفه لا يأمن أن يكون بينه وبين قبيلته إحن وحفائظ فيؤمّن أحدهما الآخر بقوله: السلام عليكم، أو سلام، أو نحو ذلك، وقد حكاها الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ثم شاع هذا اللفظ فصار مستعملا في التكرمة، ومصدر سلّم التسليم، والسلام اسم مصدر، وهو يأتي في الاستعمال منكّرا مرفوعا ومنصوبا؛ ومعرّفا باللام مرفوعا لا غير، فأمّا تنكيره مع الرفع كما في هذه الآية، فهو على اعتباره اسما بمعنى الأمان، وساغ الابتداء به لأنّ المقصود النوعية لا فرد معيّن، وإنّما لم يقدّم الخبر لاهتمام القادم بإدخال الطمأنينة في نفس المقدوم عليه، أنّه طارق خير لا طارق شرّ، فهو من التقديم لضرب من التفاؤل، وأمّا تعريفه مع الرفع فلدخول لام تعريف الجنس عليه.

٥. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ كلمة (على) في الحالتين للدلالة على تمكّن التلبّس بالأمان، أي الأمان مستقرّ منكم متلبّس بكم، أي لا تخف، وأمّا إن نصبوا مع التنكير فعلى اعتباره كمصدر سلم، فهو مفعول مطلق أتى بدلا من فعله، تقديره: سلّمت سلاما، فلذلك لا يؤتى معه بـ (على)، ثم إنّهم يرفعونه أيضا على هذا الاعتبار فلا يأتون معه بـ (على) لقصد الدلالة على الدوام والثبات بالجملة الاسمية بالرفع، لأنّه يقطع عنه

اعتبار البدلية عن الفعل ولذلك يتعيّن تقدير مبتدأ، أي أمركم سلام، على حدّ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، والرفع أقوى، ولذلك قيل: إنّ إبراهيم ردّ تحيّة أحسن من تحية الملائكة، كما حكي بقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩]، وقد ورد في ردّ السلام أن يكون بمثل كلمة السلام الأولى، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦] وورد بالتعريف والتنكير فينبغي جعل الردّ أحسن دلالة، فأمّا التعريف والتنكير فهما سواء لأنّ التعريف تعريف الجنس، ولذلك جاء في القرآن ذكر عيسى ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ [مريم: ١٥] وجاء أنّه قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ [مريم: ٣٣]

٦. وجملة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ مستأنفة استئنافا ابتدائيا وهي أول المقصود من المقول، وأمّا السلام فمقدّمة للكلام، وجوّز بعضهم أن تكون كلاما ثانيا، وتقدّم تفسير نظيره في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ في هذه السورة [١٢]، فقوله هنا ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ تمهيد لقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾

٧. وقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ قرأه نافع، وابن عامر، وعاصم، ويعقوب - بفتح الهمزة - على أنّه بدل من ﴿الرَّحْمَةُ﴾ بدل اشتمال، لأنّ الرحمة العامّة تشتمل على غفران ذنب من عمل ذنبا ثم تاب وأصلح، وقرأه الباقون - بكسر الهمزة - على أن يكون استئنافا بيانيا لجواب سؤال متوقّع عن مبلغ الرحمة، (ومن) شرطية، وهي أدلّ على التعميم من الموصولة، والباء في قوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ للملابسة، أي ملتبسا بجهالة، والمجرور في موضع الحال من ضمير ﴿عَمِلَ﴾

٨. والجهالة تطلق على انتفاء العلم بشيء ما، وتطلق على ما يقابل الحلم، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ في سورة النساء [١٧]، والمناسب هنا هو المعنى الثاني، أي من عمل سوءا عن حماقة من نفسه وسفاهة، لأنّ المؤمن لا يأتي السيّئات إلّا عن غلبة هواه رشده ونهاه، وهذا الوجه هو المناسب لتحقيق معنى الرحمة، وأمّا حمل الجهالة على معنى عدم العلم بناء على أنّ الجاهل بالذنب غير مؤاخذ، فلا قوة لتفريع قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ عليه، إلّا إذا أريد ثم تفطّن إلى أنّه عمل سوءا.

٩. والضمير في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ عائد إلى ﴿سُوءًا﴾ أي بعد السوء، أي بعد عمله، ولك أن تجعله عائدا إلى المصدر المضمون في (عمل) مثل ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]

١٠. ومعنى ﴿أَصْلَحَ﴾ صيّر نفسه صالحة، أو أصلح عمله بعد أن أساء، وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ في سورة المائدة [٣٩]، وعند قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ في سورة البقرة [١٦٠]

١١. وجملة: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ دليل جواب الشرط، أي هو شديد المغفرة والرحمة، وهذا كناية عن المغفرة لهذا التائب المصلح.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، السلام والسلامة بمعنى واحد، ومعنى ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمكم الله في دينكم وأنفسكم؛ نزلت في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم؛ فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: (الحمد لله الذى جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام) فعلى هذا كان السلام من جهة النبي ﷺ، وقيل: إنه كان من جهة الله تعالى، أي أبلغهم منا السلام؛ وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى، وفى صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها؛ قال فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم!؟ فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال: (يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك) فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا؛ يغفر الله لك يا أخي؛ فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه في معنى الآية.

٢. ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم؛ فإن في ذلك غضب الله، أي حلول عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه، وقال ابن عباس: نزلت الآية في أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وقال الفضيل بن عياض: جاء قوم من المسلمين إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم؛ فنزلت الآية، وروى عن أنس بن مالك مثله سواء.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعده الحق، فخوطب العباد

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥١٧.

على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئا فقد أوجبه على نفسه، وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

٣. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي خطيئة من غير قصد، قال مجاهد: لا يعلم حلالا من حرام ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل، وقيل: من آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل.

٤. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قرأ بفتح (أنّ) من (فأنّه) ابن عامر وعاصم، وكذلك ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾، وقرأ الباقون بالكسر فيهما؛ فمن كسر فعلى الاستئناف، والجملة مفسرة للترجمة؛ و(إنّ) إذا دخلت على الجمل كسرت وحكم ما بعد الفاء الابتداء والاستئناف فكسرت لذلك، ومن فتحها فالأولى في موضع نصب على البدل من الرحمة، بدل الشيء من الشيء وهو هو فأعمل فيها (كتب) كأنه قال كتب ربكم على نفسه أنه من عمل؛ وأما ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ بالفتح ففيه وجهان:

أ. أحدهما: أن يكون في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر، كأنه قال فله أنه غفور رحيم؛ لأن ما بعد الفاء مبتدأ، أي فله غفران الله، الوجه.

ب. الثاني: أن يضمر مبتدأ تكون (أنّ) وما عملت فيه خبره؛ تقديره: فأمره غفران الله له، وهذا اختيار سيبويه، ولم يجز الأول، وأجازه أبو حاتم.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قد تقدم معنى السلام، والمراد بكتابته الرحمة على نفسه إيجابها على نفسه أي استحالة انفكاك فعله عن كونه معنونا بعنوان الرحمة، والإصلاح هو التلبس بالصلاح فهو لازم وإن كان بحسب الحقيقة متعديا وأصله إصلاح النفس أو إصلاح العمل.

٢. والآية ظاهرة الاتصال بالآية التي قبلها يأمر الله سبحانه فيها نبيه ﷺ ـ بعد ما نهاه عن طرد المؤمنين عن نفسه ـ أن يتلطف بهم ويسلم عليهم ويبشر من تاب منهم عن سيئة توبة نصوحا بمغفرة الله ورحمته فتطيب بذلك نفوسهم ويسكن طيش قلوبهم، ويتبين بذلك:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٠٥.

أ. أولا: أن الآية ـ وهي من آيات التوبة ـ إنما تتعرض للتوبة عن المعاصي والسيئات دون الكفر والشرك بدليل قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ﴾ أي المؤمنين بآيات الله.

ب. وثانيا: أن المراد بالجهالة ما يقابل الجحود والعناد اللذين هما من التعمد المقابل للجهالة فإن من يدعو ربه بالغداة والعشي يريد وجهه وهو مؤمن بآيات الله لا يعصيه تعالى استكبارا واستعلاء عليه بل لجهالة غشيته باتباع هوى في شهوة أو غضب.

ج. وثالثا: أن تقييد قوله: ﴿تَابَ﴾ بقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ للدلالة على تحقق التوبة بحقيقتها فإن الرجوع حقيقة إلى الله سبحانه واللواذ بجنابه لا يجامع لطهارة موقفه التقذر بقذارة الذنب الذي تطهر منه التائب الراجع، وليست التوبة قول: (أتوب إلى الله) قولا لا يتعدى من اللسان إلى الجنان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

د. ورابعا: أن صفاته الفعلية كالغفور والرحيم يصح تقييدها بالزمان حقيقة فإن الله سبحانه وإن كتب على نفسه الرحمة لكنها لا تظهر ولا تؤثر أثرها إلا إذا عمل بعض عباده سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح، وقد تقدم في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ إلى آخر الآيتين [النساء: ١٧]

٣. في تفسير البرهان، روي عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ ـ الآية نزلت في علي وحمزة وزيد، وفي عدة من الروايات أن الآيات السابقة نزلت في أعداء آل البيت عليه السلام والظاهر أنها جميعا من قبيل الجري والتطبيق أو الأخذ بباطن المعنى فإن نزول السورة بمكة دفعة يأبى أن يجعل أمثال هذه الروايات من أسباب النزول ولذلك طوينا عن إيرادها.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ ممن استجابوا لدعوة الله في رسالتك واتبعوك فبادلهم حبا بحب، واحتراما باحترام.

٢. ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ في تحية إسلامية مليئة بالحنان والمحبة والقرب والاحتضان الروحي

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٢٩.

والإيحاء بمعنى السلام الذي يعيشه المؤمن في علاقته بالمؤمن ونظرته إليه، ليشعروا بالأمن معك، على كرامتهم وعلى أنفسهم، فلا تستسلم للوضع الطبقي الذي يحتقر أمثالهم لتطردهم وتستهين بهم لتحترم المستكبرين، وحدثهم عن الله سبحانه وعن رحمته بعباده المؤمنين فقد ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في هدايته وعفوه ومغفرته.

٣. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ فعصى ربه وخالف أمره ونهيه ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من دون وعي لما ينبغي له أن يفعله مما يتناسب مع موقعه العبودي أمام ربه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وانتبه للواقع السيّئ الذي وضع نفسه فيه، واستيقظت الندامة في عقله وروحه فقرر أن يغيّر موقفه من السلب إلى الإيجاب في علاقته بالله فتاب وأصلح عمله فانطلق إلى مواقع طاعة الله ورضاه ليصلح أمره في عمله، وعلاقته بربه ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الذنب برحمته فلا يبقى للذنب أثر في حياته.

٤. وهكذا يوحي الله بالسلوك العملي الملائم لما يريده ويرضاه، فإذا جاء هؤلاء المؤمنون بدين الله وآياته إلى مجتمع المسلمين فيجب أن يتلقاهم الرسول والمؤمنون من الدعاة إلى الله، بكل رحابة صدر، وسعة قلب ويبادروهم بالسلام الذي يردونه عليهم أو يبدءونه معهم، وليبعثوا في داخلهم الطمأنينة، وذلك بالتحدث إليهم عن رحمة الله التي كتبها على نفسه لعباده المؤمنين الخاطئين، فمن عمل منهم سوءا بجهالة، ثم انتبه إلى نفسه، وتاب منه وأصلح طريقه فإن الله سبحانه يتوب عليه ويغفر له ذنبه برحمته لأنه الغفور الرحيم.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ يعم كل مؤمن، ولا يخص الذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

٢. ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تكريمٌ لهم وتأمين ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أوجب على نفسه، تحقيق للرحمة أنها واقعة لهم على كل حال، لكن إذا عمل أحدهم ﴿سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٤.

فالرحمة له من بعد التوبة والإصلاح، وهي بشرى بقبول توبته والمغفرة لمن تاب وأصلح كلما عمل سوءاً.

٣. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ كالقيد الواقعي، لبيان أن ذلك لا يليق بالمؤمن وأنه يكون جهالة بمعنى سفاهة وقع فيها، بسبب غفلته وذهوله عن الإيمان ومفارقته عند غلبة غضبة أو شهوة.

٤. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي أصلح ما أفسد لأن عامل السوء قد يكون أفسد بل ذلك كثير في معاصي المعاملة والغيبة والنميمة والكذب وأذى المسلم وغير ذلك، فهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة:١٦٠] وهذا أظهر من تفسيره بإصلاح العمل؛ لأنه يقال فيه: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة:٦٢]

٥. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يفيد: أنه يغفر للتائب ويرحمه، لأنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو تأكيد للوعد.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. يرى بعض المفسّرين أنّ الآية نزلت بشأن الذين نهت الآيات السابقة عن طردهم وإبعادهم، ويرى بعض آخر أنّها نزلت في فريق من المذنبين قدموا على رسول الله ﷺ وقالوا: إنّهم قد أذنبوا كثيرا، فسكت النّبي ﷺ حتى نزلت الآية، ومهما يكن سبب نزول الآية، فالذي لا شك فيه أنّ معناها واسع وشامل، لأنّها تبدأ أوّلا بالطلب من رسول الله ﷺ أن لا يطرد المذنبين مهما عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يستقبلهم ويتقبلهم: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾

٢. يحتمل أن يكون هذا السّلام من الله بوساطة رسوله ﷺ، أو أنّه من الرّسول ﷺ مباشرة، وهو ـ على كلا الاحتمالين دليل على القبول والترحيب والتفاهم والمحبّة.

٣. ثمّ تقول الآية ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (كتب) تأتي في كثير من الأحيان كناية عن الإلزام والتعهد، إذ إنّ من نتائج الكتابة توكيد الأمر وثبوته.

٤. وفي الجزء الأخير من الآية ـ وهو توضيح وتفسير لرحمة الله ـ يتحدث بلهجة عاطفية: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد سبق القول أنّ (الجهالة) في

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٣٠٤.

مثل هذه المواضع تعني طغيان الشهوة وسيطرتها، والإنسان بسبب هذه الأهواء المستفحلة، لا بسبب عدائه لله وللحق ـ يفقد المقدرة العقيلة والسيطرة على الشهوات، مثل هذا الشخص ـ وإن كان عالما بالذنب والحرمة ـ يسمى جاهلا، لأنّ علمه مستتر وراء حجب الأهواء والشهوات، وهذا الشخص مسئول عن ذنوبه، ولكنّه يسعى لإصلاح نفسه وجبران أخطائه لأنّ أفعاله لم تكن عن روح عداء وخصام.

٥. تأمر الآية رسول الله ﷺ أن لا يطرد أي شخص مؤمن مهما تكن طبقته وظروفه وعنصره، بل عليه أن ينظر إلى الجميع بعين المساواة، وأن يحتضنهم ويعمل على إصلاحهم حتى وإن كانوا ملوثين بالذنوب.

٣٣. تفصيل الآيات وبيان سبيل المجرمين

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، نبين الآيات[١].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ معناه نميّزها[٢].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، أمّا ﴿نُفَصِّلُ﴾ فنبين[٣].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، يعني: نبين الآيات، يعني: هكذا نبين أمر الدّين[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ يعني: وليتبيّن لكم ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: طريق الكافرين من المؤمنين، حتى يعرفهم، يعني: هؤلاء النفر؛ أبا جهل، وأصحابه[٥].

---

(١) عبد الرزاق ١/ ٢١٧.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٤.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٢.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: نبين[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يأمرونك بطرد هؤلاء[٢].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرئ بالياء والتاء جميعًا، فمن قرأ بالتاء نصب السبيل بجعل الخطاب لرسول الله ﷺ أي: لتعرف سبيل المجرمين، ومن قرأ بالياء رفع (السبيل) كأنه قال نفصل الآيات وجوهًا، أي:

أ. نبين الآيات ما يعرف السامعون أنها آيات من عند الله غير مخترعة من عند الخلق ولا مفتراة ما يبين سبيل المجرمين من سبيل المهتدين.

ب. الثاني: نفصل الآيات ما بالخلق حاجة إليها وإلى معرفتها.

ج. الثالث: نبين من لآيات ما بين المختلفين، أي: بين سبيل المجرمين وبين سبيل المهتدين.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾:

أ. تأويله ما ذكرنا أن من قرأ بالتاء حمله على خطاب رسول الله ﷺ أي: نبين من الآيات لتعرف سبيل المجرمين بالنصب.

ب. ومن قرأ بالياء نبين من الآيات ليتبين سبيل المجرمين من سبيل غير المجرمين.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٤]:

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٧٨.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٧٦، وهي قراءة نافع وأبي جعفر، ينظر: النشر ٢/ ٢٥٨.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٩٧.

(٤) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٩.

١. معنى قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي لتنظر سبيلهم، وتطلع وترى أمورهم، وقصدهم لغير طريق الحق وميلهم، فتجتنب عند ذلك طريقهم.

٢. واللام تقرأ بالنصب من قوله: ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ لوقوع الفعل عليها، ومن قرأها بالرفع جعلها هي التي تبين، وتصح لجميع الناظرين وتستبين، وكلا المعنيين صواب عند أهل العلم لا ينكر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾:

أ. أراد أن يكون خطاباً للنبي ﷺ كأنه قال ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، والنبي ﷺ وإن كان مستبيناً لطريق المجرمين عالماً به فيجوز أن يكون ذلك على وجه التأكيد، ولأن يستديم ذلك.

ب. ويحتمل أن يكون المراد به الأمة، فكأنه قال ليزداد استبانة.

٢. لم يحتج أن يقول: ولتستبين سبيل المؤمنين:

أ. لأن سبيل المجرمين إذا بانت، فقد بان معها سبيل المؤمنين، لأنها خلافها.

ب. ويجوز أن يكون المراد، ولتستبين سبيل المجرمين ولتستبين سبيل المؤمنين، وحذف إحدى الجملتين لدلالة الكلام عليه، كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ ولم يقل تقيكم البرد، لأن الساتر يستر من الحر والبرد، لكن جرى ذكر الحر، لأنهم كانوا في مكانهم أكثر معاناة له من البرد، وكذلك سبيل المجرمين، خص بالذكر، لأن الكلام في وصفهم، وترك ذكر المؤمنين لدلالة الكلام عليه.

٣. هذه الآية معطوفة على الآيات التي احتج الله بها على مشركي العرب، وغيرهم فلذلك قال: (وكذلك) أي كما قدمنا ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نميزها ونبينها ونشرحها لتلزمهم الحجة و﴿لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ من عاند بعد البيان أو ذهب عن فهم ذلك بالإعراض عنه لمن أراد التفهم منهم، ومن المؤمنين ليجانبوها ويسلكوا غيرها.

٤. قراءات ووجوه: قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً و(ليستبين) بالياء، الباقون بالتاء، وقرأ أهل المدينة

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٥١.

(سبيل) بالنصب، الباقون بالرفع:

أ. من قرأ بالتاء ورفع السبيل، فلأن السبيل يذكر ويؤنث، فالتذكير لغة تميم، والتأنيث لغة أهل الحجاز فأنَّث ـ ها هنا ـ كما قال ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾.

ب. ومن قرأ بالياء فإنه ذكَّر السبيل، لأنه الطريق، وهو يذكر، كما قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

ج. ومن قرأ بالتاء، ونصب (السبيل) أراد أن يكون خطاباً للنبي ﷺ.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. التفصيل: هو الكشف حتى يظهر الفرق بالأدلة بين المعاني الملتبسة، وأصله: الفصل، فَصَلَهُ يَفْصِلُهُ، وفَصَّلَهُ تَفْصِيلاً، والفواصل: رؤوس الآي، والمفاصل: مفاصل الأعضاء، والفصيل: المنفصل عن أمه، والفيصل: الحاكم؛ لأنه يفصل الأمور، وفي الحديث: من أنفق نفقة فاصلة فله كذا) تفسيره في الحديث: أنها التي فصلت بين إيمانه وكفره، والفصل والفرق من النظائر.

ب. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ البَيْن: القطع في الأصل، ومنه: ما أبين من الحي فهو ميت)، وبانَ الشيء انفصل يبين بينونة، وبانَ الشيء اتضح كأنه انقطع عن غيره حتى ظهر، وأبان فهو بين ومبين، والبيان: هو الكشف عن الشيء ويُقال: بانَ وأستبان، وأبان وبَيَّنَ: ظهر، واستبنت الشيء وتبينته: عرفته.

٢. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾:

أ. قيل: معناه كما فصلنا هذا نفصل في هذه السورة.

ب. وقيل: كذلك تحقيق لا تشبيه أي يبين الآيات ويصرفها ﴿نُفَصِّلُ﴾ نبين، عن قتادة وابن زيد.

٣. ﴿الْآيَاتِ﴾:

أ. الحجج؛ أي نبين لكم الحجج على صحة قولكم، وبطلان ما يقوله هَؤُلَاءِ الكفار.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٧٧.

ب. وقيل: ما ذكرنا من أخبار الأمم.

٤. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ بالرفع؛ أي لتَظْهَرَ طريق ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ وبالنصب:

أ. لتعرف يا محمد أو أيها السامع سبيل المجرمين، يقال: استبنت الشيء عرفته.

ب. وقيل: لتعرف رؤساء المشركين يوم القيامة.

ج. وقيل: معناه لتظهر طريق الحق وطريق الباطل إلا أنه اقتصر على سبيل المجرمين وخصه قيل: لأنه معلوم كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وحذف البرد.

د. وقيل: إنه يتضمن هذا المعنى فهو غير محذوف كما تتضمن صفة ضارب الضرب والمضروب.

٥. سؤال وإشكال: ما سبيل المجرمين؟ والجواب:

أ. ما هم عليه من الكفر والعناد والإقدام على المعاصي والجرائم المؤدية إلى النار.

ب. وقيل: سبيلهم ما عاملهم الله به من الإذلال واللعن والبراءة منهم، والأمر بقتلهم وسبيهم، ونحو ذلك.

٦. قراءات ووجوه: اختلفوا في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ على ثلاث قراءات، فقرأ أبو جعفر ونافع (لتستبينَ) بالتاء بالنصب على الخطاب، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر (ليستبينُ) بالياء على التذكير ﴿سَبِيلِ﴾ بالرفع لإسناد الفعل إليه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو [وحفص عن] عاصم ويعقوب ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء على التأنيث ﴿سَبِيلِ﴾ بالرفع، وأهل الحجاز يؤنِّثون السبيل، وبنو تميم يذكِّرونه، وقد نطق القرآن بهما، فقال سبحانه: ﴿الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ وقال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

٧. مسائل لغوية ونحوية:

أ. الكاف في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كاف التشبيه، وفي المشبه والمشبه به قولان:

• الأول: التفصيل الذي تقدم في صفة الضال والمهتدي شبيه بتفصيل الدلائل على الحق والباطل.

• الثاني: كما فصلنا ما تقدم من الآيات لكم نفصله لغيركم، عن أبي علي.

ب. الواو في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾:

أ. قيل: زائدة.

ب. وقيل: واو عطف تقديره: ليظهر لكم الحق ولتستبين سبيل، فهو محمول على المعنى.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . عطف سبحانه على الآيات التي احتج بها على مشركي مكة، وغيرهم فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما قدمناه من الدلالات على التوحيد، والنبوة، والقضاء.

٢ . ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: وهي الحجج والدلالات أي: نميزها، ونبينها، ونشرحها، على صحة قولكم، وبطلان ما يقوله هؤلاء الكفار.

٣ . ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾:

أ . بالرفع أي: ليظهر طريق من عاند بعد البيان إذا ذهب عن فهم ذلك، بالإعراض عنه، لمن أراد التفهم لذلك من المؤمنين، ليجانبوها، ويسلكوا غيرها.

ب . وبالنصب: ليعرف السامع أو السائل أو لتعرف أنت يا محمد سبيلهم، وسبيلهم: يريد به ما هم عليه من الكفر، والعناد، والإقدام على المعاصي، والجرائم المؤدية إلى النار.

ج . وقيل: إن المراد بسبيلهم: ما عاجلهم الله به من الإذلال، واللعن، والبراءة منهم، والأمر بالقتل، والسبي، ونحو ذلك.

٤ . والواو في ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ للعطف على مضمر محذوف والتقدير: لتفهموا، ولتستبين سبيل المجرمين والمؤمنين، وجاز الحذف لأن فيما أبقى دليلا على ما ألقى.

٥ . قراءات ووجوه: قرأ أهل المدينة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء ﴿سَبِيلِ﴾ بالنصب، قرأ أهل الكوفة، غير حفص: (وليستبين) بالياء، ﴿سَبِيلِ﴾ بالرفع، وقرأ زيد، عن يعقوب: (وليستبين) بالياء، ﴿سَبِيلِ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء ﴿سَبِيلِ﴾ با لرفع، الحجة: من قرأ (لتستبين) بالتاء ﴿سَبِيلِ﴾ رفعا، جعل السبيل فاعلا، وأنثه كما في قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾، قال سيبويه: استبان الشيء واستبنته، ومن قرأ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء، ﴿سَبِيلِ﴾ نصبا، ففي الفعل ضمير المخاطب، و﴿سَبِيلِ﴾ مفعوله، وهو على قولك استبنت الشيء ومن قرأ بالياء، ﴿سَبِيلِ﴾ رفعا فالفعل مسند إلى السبيل، إلا أنه ذكر كما في قوله

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥٨.

سبحانه ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ والمعنى: وليستبين سبيل المؤمنين، وسبيل المجرمين، فحذف، لأن ذكر إحدى السبيلين يدل على الآخر، ومثله ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ ولم يذكر البرد لدلالة الحر عليه، ومن قرأ بالياء، ونصب اللام، فتقديره: وليستبين السائل سبيل المجرمين الاعراب ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف في موضع نصب بأنه مفعول ﴿نُفَصِّلُ﴾ وذلك مجرور الموضع بإضافة الكاف إليه.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: وكما فصّلنا لك في هذه السورة دلائلنا وأعلامنا على المشركين، كذلك نبيّن لك حجّتنا في كلّ حقّ ينكره أهل الباطل، قال ابن قتيبة: ومعنى تفصيلها: إتيانها متفرّقة شيئا بعد شيء.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: (ولتستبين) بالتاء، (سبيل) بالرفع، وقرأ نافع، وزيد عن يعقوب: بالتاء أيضا، إلّا أنهما نصبا السبيل، وقرأ حمزة، والكسائيّ، وأبو بكر عن عاصم: (وليستبين) بالياء، (سبيل) بالرفع، فمن قرأ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالياء أو التاء، فلأنّ السبيل تذكر وتؤنث على ما بيّنّا في آل عمران، ومن نصب اللام، فالمعنى: ولتستبين أنت يا محمّد سبيل المجرمين.

٣. في سبيلهم التي بيّنت له، قولان:

أ. أحدهما: أنها طريقهم في الشّرك، ومصيرهم إلى الخزي، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنها مقصودهم في طرد الفقراء عنه، وذلك إنما هو الحسد، لا إيثار مجالسته واتّباعه، قاله أبو سليمان.

٤. سؤال وإشكال: كيف انفردت لام (كي) في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وسبيلها أن تكون شرطا لفعل يتقدّمها أو يأتي بعدها؟ والجواب: أجاب عنه ابن الأنباريّ بجوابين:

أ. أحدهما: أنها شرط لفعل مضمر، يراد به: ونفعل ذلك لكي تستبين.

ب. الثاني: أنها معطوفة على لام مضمرة، تأويله: نفصّل الآيات لينكشف أمرهم، ولتستبين

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٦.

سبيلهم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾، المراد كما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد والنبوة والقضاء والقدر، فكذلك نميز ونفصل لك دلائلنا وحججنا في تقرير كل حق ينكره أهل الباطل، وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ عطف على المعنى كأنه قيل ليظهر الحق وليستبين، وحسن هذا الحذف لكونه معلوما.

٢. قراءات ووجوه: اختلف القراء في قوله ليستبين:

أ. فقرأ نافع ﴿لِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء وسبيل بالنصب والمعنى لتستبين يا محمد سبيل هؤلاء المجرمين.

ب. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ليستبين بالياء ﴿سَبِيلِ﴾ بالرفع والباقون بالتاء و﴿سَبِيلِ﴾ بالرفع على تأنيث سبيل، وأهل الحجاز يؤنثون السبيل، وبنو تميم يذكرونه، وقد نطق القرآن بهما فقال سبحانه ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [إبراهيم: ٣]

٣. سؤال وإشكال: لم قال ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يذكر سبيل المؤمنين؟ والجواب:

أ. ذكر أحد القسمين يدل على الثاني، كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ولم يذكر البرد.

ب. وأيضا فالضدان إذا كانا بحيث لا يحصل بينهما واسطة، فمتى بانت خاصية أحد القسمين بانت خاصية القسم الآخر والحق والباطل لا واسطة بينهما، فمتى استبانت طريقة المجرمين فقد استبانت طريقة المحقين أيضا لا محالة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

---

(١) التفسير الكبير: ١٣/ ٩.

(٢) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٣٧.

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ التفصيل التبيين الذي تظهر به المعاني، والمعنى: وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نفصل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل، وقال القتبي: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نأتي بها شيئا بعد شي، ولا ننزلها جملة متصلة.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقال: هذه اللام تتعلق بالفعل فأين الفعل الذي تتعلق به؟ فقال الكوفيون: هو مقدر، أي وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين، قال النحاس: وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه، والتقدير: وكذلك نفصل الآيات فصلناها، وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى، أي ليظهر الحق وليستبين، قرئ بالياء والتاء، ﴿سَبِيلِ﴾ برفع اللام ونصبها، وقراءة التاء خطاب للنبي ﷺ، أي ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين:

أ. سؤال وإشكال: قد كان النبي ﷺ يستبينها؟ والجواب: عند الزجاج أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته، فالمعنى: ولتستبينوا سبيل المجرمين.

ب. سؤال وإشكال: فلم لم يذكر سبيل المؤمنين؟ ففي هذا جوابان:

• أحدهما: أن يكون مثل قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل] فالمعنى، وتقيكم البرد ثم حذف، وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف.

• والجواب الآخر: أن يقال: استبان الشيء واستبنته، وإذا بان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين.

٣. السبيل يذكر ويؤنث، فتميم تذكره، وأهل الحجاز تؤنثه، وفي التنزيل ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ [الأعراف] مذكر ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [آل عمران] مؤنث، وكذلك قرئ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالياء والتاء، فالتاء خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤٠.

١. ﴿وكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ﴾ أي مثل ذلك التفصيل نفصلها، والتفصيل: التبيين، والمعنى: أن الله فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبين لهم حكم كل طائفة.

٢. ﴿ولِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال الكوفيون: هو معطوف على مقدّر: أي وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين، قال النحاس: وهذا الحذف لا يحتاج إليه، وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى: قرئ لِتَسْتَبِينَ بالفوقية والتحتية، فالخطاب على الفوقية للنبي ﷺ؛ أي لتستبين يا محمد سبيل المجرمين، وسبيل: منصوب على قراءة نافع، وأما على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحفص بالرفع، فالفعل مسند إلى سبيل، وأما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل أيضا، وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة بالرفع، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَكَذَالِكَ نُفَصِّلُ الَايَاتِ﴾ في التوحيد ودلائل النبوءة والبعث، إقامةً للحجَّة على المنكرين والمتردِّدين، والمؤمنين تأكيدًا لهم فيما علموا أو تعليمًا لهم فيما لم يعلموا، ومثلُ ذلك التفصيل السابق للآيات الماضية نفصِّل سائر الآيات الباقيات؛ أو على كَيفِيَّة التفصيل المعهود نفصِّل مطلق الآيات الماضية والآتية، مثل أن تفعل شيئًا ثمَّ تذكر أنَّك فعلته على الوصف المشاهد، وأنَّ شأني كذلك في أفعالي؛ أو المراد ما مضى كذلك.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ هذا من الاستفعال للتعدية، كـ (خَرَجَ) لازمًا، وإذا قيل: (استخرج) تعدَّى، وذلك أنَّ (بَانَ) لازمٌ تعدَّى إذا كان بهذه الصيغة؛ والمعنى: لتستوضح يا محمَّد، أو تُميِّز، أو تظهر، وهو متعلِّق بمحذوف، أي: وفصَّلنا ذلك التفصيل لِتستَبِينَ، أو معطوفًا على محذوف، أي: نفصِّل أو فصَّلنا الآيات ليظهر الحقُّ ولِتستبين.

٣. ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وسبيل المحقِّين؛ أو لتستبين سبيل المجرمين من سبيل المحقِّين، واقتصر اللفظ على سبيل المجرمين لأنَّ ذكر أحد المتقابلين يدلُّ على الآخر، ولا سيما في باب التَّمايُز، وكان المذكور

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٧٩.

سبيل المجرمين لأنَّ المقام للنهي عنها والتخلِّي، وهو قبل التحلِّي، ولكثرة المجرمين ولظنِّهم أنَّهم على الحقِّ، فكان بيانه أَهَمَّ، أي: لتستبين يا محمَّد سبيل المجرمين فتَجتَنِب، وتُعَامِلَ أهلها بما يليق بهم، وأهل الحقِّ بما يليق بهم.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: آيات القرآن، في صفة المطيعين والمجرمين، ومرّ قريبا الكلام على (كذلك)

٢ . ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ بتأنيث الفعل بناء عل تأنيث الفاعل، وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره، فإن (السبيل) مما يذكر ويؤنث، وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور، لم يقصد تعليله بها بعينها، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة، من جملتها ما ذكر، أو علة لفعل مقدّر، هو عبارة عن المذكور، فيكون مستأنفا، أي: ولتستبين سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل، وقرئ بنصب (السبيل) على أن الفعل متعد، وتاؤه للخطاب، أي ولتستوضح أنت، يا محمد! سبيل المجرمين، فتعاملهم بما يليق بهم أفاده أبو السعود.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١ . ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: ومثل ذلك التفصيل الواضح وعلى نحوه نفصل الآيات المنزلة في بيان الحقائق التي يهتدي بها أهل النظر الصحيح والفقه الدقيق لما فيها من العلم والحكمة والمواعظ والعبرة.

٢ . ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين فيمتازون بها عن جماعة المسلمين، قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمر، ويعقوب، وحفص، عن عاصم (ولتستبين) بالتاء و(سبيل) بالرفع ـ أي ولتظهر سبيل المجرمين وتعرف ـ والسبيل يؤنثه أهل الحجاز، ويذكره بنو تميم، وجاء التنزيل

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٧٨.

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٣٧٦

باللغتين ـ وقرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على أنه خطاب للنبي ﷺ أي ولتتبين أيها الرسول طريق المجرمين فلا يخفى عليك شيء منها، وقرأ الباقون (وليستبين) بالياء ورفع (سبيل) على لغة التذكير، ففائدة اختلاف القراءات هنا لفظية، وهي تذكير السبيل وتأنيثها، ومجيء فعل الاستبانة لازما ومتعديا، يقال: بان الشيء واستبان بمعنى: وضح وظهر، ويقال: استبنت الشيء بمعنى استوضحته وتبينته، أي: عرفته بينا، وأما فائدة الجمع بين الغيبة والخطاب فيها فهي أن تفصيل الآيات هو في نفسه موضح لسبيل المجرمين، وأنه ينبغي للمخاطب بذلك أولا وبالذات ثم لغيره أن يستبينه منها بتأملها وفهمها والاعتبار بها، فكم من آية بينة في نفسها يغفل الناس عنها ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

٣. والعطف في قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ قيل: إنه عطف على علة محذوفة لقوله: ﴿نُفَصِّلُ﴾ لم يقصد تعليله بها بخصوصها، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة من جملتها ما ذكر، أي: وكذلك نفصل الآيات لما في تفصيلها من الأحكام والحكم، وبيان الحجج والمواعظ والعبر، ولأجل أن تستبين سبيل المجرمين، فيكون من عطف الخاص على العام، وقيل: إنه علة لفعل مقدر هو عين المذكور، أي: ولأجل أن تستبين سبيل المجرمين؛ لأن الشيء يعرف بضده، بل بين قبله سبيل المجرمين من الكفار أيضا، وقال الزمخشري: (ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين؛ من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل)، ويسرني أن هذا القول يؤيد ما قدمته في بيان أصناف الناس في زمن نزول السورة، وما أرشدت إليه الآيات في معاملة كل صنف منهم، وأن ما قلته خير مما قاله ولله الحمد: وفي الآية من محاسن إيجاز القرآن ما لا يخفى، وسيأتي مثل هذا التعبير في قوله تعالى من هذه السورة: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وقوله من سورة الأعراف: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا أذكر أن في القرآن غيرهما.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بين سبحانه أنه فصل الحقائق للمؤمنين ليبتعدوا عن سلوك سبيل المجرمين، ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك التفصيل البديع الواضح نفصل لك أدلتنا في بيان الحقائق التي يهتدى بها أهل النظر والفكر لما فيها من العلم والحكمة، والموعظة والعبرة، ولتتضح لك وللمؤمنين طريق المجرمين، إذ يعلم من هذا التفصيل أن ما خالفه هو سبيل المجرمين والأشياء تعرف بأضدادها كما قيل (وبضدها تتميز الأشياء)

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾، ختام هذه الفقرة التي قدمت طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول في هذه النصاعة الواضحة، كما قدمت هذه العقيدة عارية من كل زخرف؛ وفصلت الاعتبارات والقيم التي جاءت هذه العقيدة لتلغيها من حياة البشرية؛ والاعتبارات والقيم التي جاءت لتقررها..

٢. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، بمثل هذا المنهج، وبمثل هذه الطريقة، وبمثل هذا البيان والتفصيل.. نفصل الآيات، التي لا تدع في هذا الحق ريبة؛ ولا تدع في هذا الأمر غموضا؛ ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق؛ فالحق واضح، والأمر بين، بمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك النموذج..

٣. على أن كل ما سبق في السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ومن بيان للحقائق وتقرير للوقائع، يعتبر داخلا في مدلول قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾

٤. أما ختام هذه الآية القصيرة: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾، فهو شأن عجيب!.. إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة! إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب، إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٤٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٠٦.

المجرمين أيضا.. إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق! إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله سبحانه ليتعامل مع النفوس البشرية.. ذلك أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر؛ والتأكد من أن هذا باطل محض وشر خالص؛ وأن ذلك حق محض وخير خالص.. كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق؛ ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل..

٥. وأنه يسلك سبيل المجرمين؛ الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عدوا منهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾، ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين، أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون؛ عن ثقة، وفي وضوح، وعن يقين.

٦. إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح، واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات، ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم، فهما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقتان.. ولا بد من وضوح الألوان والخطوط..

٧. ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين؛ ووضع العنوان المميز للمؤمنين، والعنوان المميز للمجرمين، في عالم الواقع لا في عالم النظريات، فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون، بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم، بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين..

٨. وهذا التحديد كان قائما، وهذا الوضوح كان كاملا، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية، فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول ﷺ ومن معه، وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين.. ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان الله سبحانه يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة ـ ومنها ذلك النموذج

الأخير ـ لتستبين سبيل المجرمين! وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدّلتها وأفسدتها التحريفات البشرية.. حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك.. لا يجدي معها التلبيس! ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا.. إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين، في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام، يسيطر عليها دين الله، وتحكم بشريعته.. ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام، تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه اسما، وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله.. وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله ـ وحده ـ هو خالق هذا الكون المتصرف فيه، وأن الله ـ وحده ـ هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله، وأن الله ـ وحده ـ هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله.. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله ـ بهذا المدلول ـ فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله ـ بهذا المدلول ـ فهي أرض لم تدن بدين الله، ولم تدخل في الإسلام بعد..

٩. وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين؛ وهم من سلالات المسلمين، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام.. ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله ـ بذلك المدلول ـ ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول..

١٠. وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام! أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام في جانب؛ وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر.. أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين؛ واختلاط الشارات والعناوين؛ والتباس الأسماء والصفات؛ والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق! ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام!.. تهمة تكفير (المسلمين)! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها

لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله! هذه هي المشقة الكبرى.. وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين.. ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة، وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف؛ وألا تقعدهم عنها لومة لائم، ولا صيحة صائح: انظروا! إنهم يكفرون المسلمين! إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن والكفر بيّن.. الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ـ بذلك المدلول ـ فمن لم يشهدها على هذا النحو؛ ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين.. المجرمين..

١١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾.. أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة؛ كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة، ولا يعوّقها غبش، ولا يميعها لبس، فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم (المسلمون) وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم (المجرمون).. كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان، وأنهم وقومهم على مفرق الطريق، وأنهم على ملة وقومهم على ملة، وأنهم في دين وقومهم في دين: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ هو بيان لما تحمله دعوة الإسلام من آيات بينات، وبيان مبين، بحيث ينفضح على أضوائها أولئك الذين يسلكون طريقا غير طريقها، إذ يرى كل عاقل أنهم يمشون في ظلام، ويعيشون في ضلال.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٩٨.

(٢) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٨.

١ . ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾، ذكر سبحانه في كتابه صفات الصالحين، وأيضا ذكر صفات المجرمين، ليظهر كل فئة بسماتها.. هذا، إلى أن معرفة إحدى الفئتين تستدعي معرفة الأخرى، تماما كالهداية والضلالة.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الواو استئنافية كما تقدّم في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، والجملة تذييل للكلام الذي مضى مبتدئا بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾

٢ . والتفصيل: التبيين والتوضيح، مشتقّ من الفصل، وهو تفرّق الشيء عن الشيء ولمّا كانت الأشياء المختلطة إذا فصلت يتبيّن بعضها من بعض أطلق التفصيل على التبيين بعلاقة اللزوم، وشاع ذلك حتّى صار حقيقة، ومن هذا القبيل أيضا تسمية الإيضاح تبيينا وإبانة، فإنّ أصل الإبانة القطع، والمراد بالتفصيل الإيضاح، أي الإتيان بالآيات الواضحة الدلالة على المقصود منها.

٣ . والآيات: آيات القرآن، والمعنى نفصّل الآيات ونبيّنها تفصيلا مثل هذا التفصيل الذي لا فوقه تفصيل، وهو تفصيل يحصل به علم المراد منها بيّنا.

٤ . وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ عطف على علّة مقدّرة دلّ عليها قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ لأنّ المشار إليه التفصيل البالغ غاية البيان، فيعلم من الإشارة إليه أنّ الغرض منه اتّضاح العلم للرسول، فلمّا كان ذلك التفصيل بهذه المثابة علم منه أنّه علّة لشيء يناسبه وهو تبيّن الرسول ذلك التفصيل، فصحّ أن تعطف عليه علّة أخرى من علم الرسول ﷺ، وهي استبانته سبيل المجرمين، فالتقدير مثلا: وكذلك التفصيل نفصّل الآيات لتعلم بتفصيلها كنهها، ولتستبين سبيل المجرمين، ففي الكلام إيجاز الحذف.

٥ . وهكذا كلّما كان استعمال (كذلك) نفعل بعد ذكر أفعال عظيمة صالحا الفعل المذكور بعد الإشارة لأن يكون علّة لأمر من شأنه أن يعلّل بمثله صحّ أن تعطف عليه علّة أخرى كما هنا، وكما في قوله:

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٢٧.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] بخلاف ما لا يصلح، ولذلك فإنّه إذا أريد ذكر علّة بعده ذكرت بدون عطف، نحو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

٦. و﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ طريقهم وسيرتهم في الظلم والحسد والكبر واحتقار الناس والتصلّب في الكفر.

٧. والمجرمون هم المشركون، وضع الظاهر موضع المضمر للتنصيص على أنّهم المراد ولإجراء وصف الإجرام عليهم، وخصّ المجرمين لأنّهم المقصود من هذه الآيات كلّها لإيضاح خفيّ أحوالهم للنبي ﷺ والمسلمين.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ التفصيل التبيين الذى تظهر به المعاني والمعنى: وكما فصّلنا لك في هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نفصّل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل، وقال القتبي ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نأتي بها شيئا بعد شيء ولا ننزلها جملة متصلة.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقال: هذه اللام تتعلق بالفعل؛ فأين الفعل الذى تتعلق به؟ فقال الكوفيون: هو مقدّر؛ أي وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين؛ قال النحاس: وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه، والتقدير: وكذلك نفصل الآيات فصلناها، وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى؛ أي ليظهر الحق وليستبين، قرئ بالياء والتاء، (سبيل) برفع اللام ونصبها، وقراءة التاء خطاب للنبي ﷺ، أي ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين.

والجواب: فقد كان النبي ﷺ يستبينها؟ والجواب: عند الزجاج ـ أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته؛ فالمعنى: ولتستبينوا سبيل المجرمين.

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥١٩.

٣. سؤال وإشكال: لم لم يذكر سبيل المؤمنين؟ والجواب: في هذا جوابان؛

أ. أحدهما: أن يكون مثل قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل] المعنى؛ وتقيكم البرد ثم حذف؛ وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف.

ب. الآخر ـ أن يقال: استبان الشيء واستبنته؛ وإذا بان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين.

٤. والسبيل يذكر ويؤنث؛ فتميم تذكره، وأهل الحجاز تؤنثه؛ وفى التنزيل ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ [الأعراف] مذكر ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [آل عمران] مؤنث؛ وكذلك قرئ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالياء والتاء؛ فالتاء خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ تفصيل الآيات بقرينة المقام شرح المعارف الإلهية وتخليصها من الإبهام والاندماج.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ اللام فيه للغاية، وهو معطوف على مقدر طوي عن ذكره تعظيما وتفخيما لأمره وهو شائع في كلامه تعالى، كقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [انعام: ٧٥]

٣. فالمعنى: وكذلك نشرح ونميز المعارف الإلهية بعضها من بعض ونزيل ما يطرأ عليها من الإبهام لأغراض هامة منها أن تستبين سبيل المجرمين فيتجنبها الذين يؤمنون بآياتنا، وعلى هذا فالمراد بسبيل المجرمين السبيل التي يسلكها المجرمون قبال الآيات الناطقة بتوحيد الله سبحانه والمعارف الحقة التي تتعلق به وهي سبيل الجحود والعناد والإعراض عن الآيات وكفران النعمة.

٤. وربما قيل إن المراد بسبيل المجرمين السبيل التي تسلك في المجرمين، وهي سنة الله فيهم من لعنهم في الدنيا وإنزال العذاب إليه بالآخرة، وسوء الحساب وأليم العقاب في الآخرة، والمعنى الأول أوفق

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٠٦.

بسياق الآيات المسرودة في السورة.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ وننوّعها في أغراضها المتعددة ومضامينها المنوعة، وهكذا يفصِّل الله آياته للناس، فلا يترك أمرا مما يحتاجونه من أمور هدايتهم وضلالهم ومعاشهم ومعادهم، إلّا وفصّله لهم ليهتدوا به ويتضح لهم سبيل الحق.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا يبقى هناك عذر لمعتذر من أيّ شبهة أو شكّ أو حالة غموض، وهكذا تقوم الحجة على الناس ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيي عن بيّنة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التفصيل الكامل المبين للمعنى ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ فلا يصح دعوى: أن القرآن رموز لا يفهما إلا الإمام أو الشيخ.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرئ برفع ﴿سَبِيلِ﴾ على أنها فاعل (تستبين) أي تتبين، وقرى بنصب ﴿سَبِيلِ﴾ على أنها مفعول به، أي تستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، والمجرمين هنا ظاهر في الذين هم ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ والذين هم ﴿بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ وأمثالهم ممن مر ذكرهم في السورة، التي تبين فيها سوء سبيل المجرمين وضلالتها، وأنها سبيل العذاب والخذلان، وسبيل التمرد عن قبول الحق والعناد وغير ذلك من عيوبها، فتفصيل الآيات لحكم عديدة، ومنها تبين سبيل المجرمين.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. من أجل توكيد هذا الموضوع تشير الآية الكريمة إلى أنّ الله سبحانه يوضح آياته وأوامره

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٣٠.

(٢) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٥.

(٣) تفسير الأمثل: ٤/ ٣٠٥.

توضيحا بيّنا لكي يتبيّن طريق الباحثين عنه والمطيعين له، كما يتبيّن طريق الآثمين المعاندين من أعداء الله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ جملة (ولتستبين) معطوفة في الواقع على جملة محذوفة تدرك بالقرينة، فيكون المعنى لتستبين سبيل المؤمنين المطيعين ولتستبين سبيل المجرمين.

٢. من الواضح في هذه الآية أنّ (المجرم) ليس كل مذنب، لأنّ رسول الله ﷺ مكلّف في هذه الآية أن يتقبل المذنبين الذين يقبلون عليه، مهما يكن جرمهم الذي ارتكبوه عن جهل، وعليه فإن المجرمين هنا هم أولئك المذنبون المعاندون الذين لا يستسلمون للحق، أي بعد هذه الدعوة العامّة إلى الله، التي تشمل حتى المجرمين النادمين يتّضح بشكل كامل طريق المعاندين الذين لا يرجعون عن عنادهم.

٣٤. العبادة والأهواء والضلالة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ من الآلهة، ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إن اتبعت أهواءكم، وذلك حين دعي إلى دين آبائه(١).

ابن مسعود:

روي عن هزيل بن شرحبيل، قال جاء رجل إلى أبي موسى، وسلمان بن ربيعة، فسألهما عن ابنةٍ وابنة ابنٍ، وأخت، فقالا: للابنة النصف، وللأخت النصف، وائت عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ)، فإنّه سيتابعنا، فأتى عبد الله، فأخبره، فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، لأقضينّ فيها بقضاء رسول الله ﷺ؛ للابنة النصف، ولابنة الابن السدس، وما بقي فللأخت(٢).

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٣):

١. معناه ـ والله أعلم ـ:

أ. إني نهيت بما أكرمت من العقل واللب أن أعبد الذين تعبدون من دون الله.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٢) ابن أبي شيبة ١٠/ ١٥٨.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٩٨.

ب. أو يقول: إني نهيت بما أكرمت من الوحي والرسالة أن أعبد الذين تدعون من دون الله.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. روى أبو العالية أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية عند الكعبة وأظهر لهم المفارقة.

٢. هذه الآية فيها خطاب للنبي ﷺ وأمر له بأن يقول للكافرين: إن الله قد نهاني أن أعبد هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله وتدعونها آلهة وأنها تقربكم إلى الله زلفى، وأن يقول لهم إني لا أتبع أهواءكم في عبادة الأوثان، وإني لو فعلت ذلك لكنت قد ضللت عن الصواب، وبعدت عن الرشد ولم أكن من المهتدين إلى الخير والصلاح، ومعناه معنى الشرط وتقديره قد ضللت إن عبدتها، وقال الزجاج: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي وما أنا من النبيين الذين سلكوا طريق الهدى.

٣. قراءات ووجوه: روي عن يحيى بن وثاب أنه قرأ (ضللت) بكسر اللام، والقراء كلهم على فتحها، وهما لغتان، فمن كسر اللام فتح الضاد من (يضل)، ومن فتح اللام كسر الضاد، فقال: (يضل) وقال أبو عبيدة اللغة الغالبة بالفتح.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. النهي: قول القائل لمن دونه: لا تفعل، إذا كره المنهي عنه، وقيل: هو الزجر عن الفعل بطريقة لا تفعل، والغرض في النهي انتفاء انفعل كما أن الغرض من الأمر إيجاد الفعل.

ب. الهوى: هوى النفس مقصور، وجمعه: أهواء، وهواء الجو ممدود، وجمعه: أهوية.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قال بعضهم: يا محمد اعبد إلهنا، ونعبد إلهك، فأنزل الله تعالى هذه الآية في ذلك، حكاه الأصم.

٣. أمر تعالى نبيه ﷺ أن يظهر البراءة منهم ومما يعبدون، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٥٢.

(٢) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٨٢.

﴿نُهِيتُ﴾ أي زُجِرْتُ ومنعت بالنهي، يعني نهاني ربي، فجاء على ما لم يُسَمَّ فاعله للتفخيم ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني نهيت عن عبادة الأوثان التي تعبدونها، وقد بينا ما قيل في ﴿تَدَّعُونَ﴾، وما فيه من محذوف.

٤. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾:

أ. قيل: فيه ضمير أي لا أعبدها، ولا أتبع أهواءكم في عبادتها.

ب. وقيل: لا أتبع أهواءكم في طرد المؤمنين على ما سألوا.

٥. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ يعني لو فعلت ذلك واتبعت أهواءكم ضللت ﴿إِذًا﴾ وما كنت ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي لسلكت طريقًا غير طريق الهدى.

٦. تدل الآية الكريمة على:

أ. جواز المحاجة في الدين.

ب. أن اتباع الهوى يضل عن المحجة، وأن الواجب اتباع الدليل.

ج. أن اتباع الهوى ضلالة.

د. أن العبادة واتباع الهوى والضلال فعل العبد؛ لذلك صح الأمر والنهي والمدح والذم، فيبطل قولهم في المخلوق.

٧. قراءات ووجوه: قراءة العامة ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام، وعن يحيى بن وثاب وأبي رجاء العطاردي بكسر اللام، وهما لغتان، ضَلَّ يَضِلُّ مثل: قَر يقِرّ، وضَل يَضَلُّ، مثل: مَلّ يَمَلُّ ضلالاً فيهما، وهو ضال، وأضله غيره إضلالاً، والفتح أفصح وأخف وأكثر استعمالاً.

٨. مسائل لغوية ونحوية:

أ. سؤال وإشكال: ما معنى ﴿مِنْ﴾، و﴿أَذِنَ﴾، في قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ و﴿ضَلَلْتُ إِذًا﴾؟

والجواب: معنى ﴿إِذًا﴾ الجزاء كأنه قيل: قد ضللت إن اتبعت أهواءكم، وأما ﴿مِنْ﴾ فعلى إضافة الدعاء إلى ﴿دُونَ﴾ بمعنى ابتداء الغاية، وتحقيقه عبادة غير الله باطلة إلا أنه جعل ﴿دُونَ﴾ على جهة ابتداء الغاية.

ب. قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ فيه محذوف، قيل: تدعونه إلهًا، وقيل: تدعونه في مهمات أموركم على وجه العبادة.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أمر الله سبحانه نبيه، بأن يظهر البراءة مما يعبدونه، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: الأصنام التي تعبدونها، وتدعونها آلهة.

٢. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾:

أ. في عبادتها أي: إنما عبدتموها على طريق الهوى، لا على طريق البينة والبرهان، عن الزجاج.

ب. وقيل: معناه: لا أتبع أهواءكم في طرد المؤمنين.

٣. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن أنا فعلت ذلك، عن ابن عباس ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾:

أ. الذين سلكوا سبيل الدين.

ب. وقيل: معناه وما أنا من المهتدين النبيين الذين سلكوا طريق الهدى.

٤. قراءات ووجوه: روي في الشواذ عن يحيى بن وثاب ﴿ضَلَلْتُ﴾ بكسر اللام. والقراء كلهم على فتحها، الحجة: وهما لغتان ضللت تضل، وضللت تضل، قال أبو عبيدة: واللغة الغالبة الفتح

٥. معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾: إضافة الدعاء إلى ﴿دُونَ﴾ بمعنى ابتداء الغاية، ومعنى إذا الجزاء، والمعنى: قد ضللت إن عبدتها.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: الأصنام، وفي معنى ﴿تَدْعُونَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: تدعونهم آلهة.

ب. الثاني: تعبدون؛ قاله ابن عباس.

٢. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ أهواؤهم: دينهم، قال الزّجّاج: أراد إنما عبدتموها على طريق الهوى،

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٥٩.

(٢) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٧.

لا على طريق البيّنة والبرهان.

٣. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ معنى (إذا) معنى الشّرط؛ والمعنى: قد ضللت إن عبدتها، وقرأ طلحة، وابن أبي ليلى: (قد ضللت) بكسر اللام.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. لما ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين، ذكر في هذه الآية أنه تعالى نهي عن سلوك سبيلهم، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد، لا على سبيل الحجة والدليل، لأنها جمادات وأحجار وهي أخس مرتبة من الإنسان بكثير، وكون الأشرف مشتغلا بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل، وأيضا أن القوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبونها، ومن المعلوم بالبديهة أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معموله ومصنوعه، فثبت أن عبادتها مبنية على الهوى، ومضادة للهدى، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾

ب. ثم قال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من المهتدين في شيء والمقصود كأنه يقول لهم أنتم كذلك.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. قيل: ﴿تَدْعُونَ﴾ بمعنى تعبدون.

ب. وقيل: تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة، أراد بذلك الأصنام.

٢. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء، ومن طرد من أردتم طرده، ﴿قَدْ

---

(١) التفسير الكبير: ١٣/ ٩.

(٢) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٣٧.

ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي قد ضللت إن اتبعت أهواءكم، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي على طريق رشد وهدى.

٣. قراءات ووجوه: قرئ ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام وكسرها وهما لغتان، قال أبو عمرو بن العلاء: ضللت بكسر اللام لغة تميم، وهي قراءة يحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف، والأولى: هي الأصح والأفصح، لأنها لغة أهل الحجاز، وهي قراءة الجمهور، وقال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضللت أضل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ [سبأ] فهذه لغة نجد، وهي الفصيحة، وأهل العالية يقولون: ضللت بالكسر أضل.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أمره الله سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار ويخبرهم بأنه نهي عن عبادة ما يدعونه ويعبدونه من دون الله، أي نهاه عن ذلك وصرفه وزجره.

٢. ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم: ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ أي لا أسلك المسلك الذي سلكتموه في دينكم من اتباع الأهواء والمشي على ما توجبه المقاصد الفاسدة التي يتسبب عنها الوقوع في الضلال.

٣. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي اتبعت أهواءكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم وطرد من أردتم طرده ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إن فعلت ذلك، وهذه الجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها، والمجيء بها اسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات.

٤. قرئ ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام وكسرها وهما لغتان، قال أبو عمرو: ضللت بكسر اللام لغة تميم، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف، والأولى: هي الأصح والأفصح، لأنها لغة أهل الحجاز، وهي قراءة الجمهور، قال الجوهري: والضلال والضلالة: ضدّ الرشاد، وقد ضللت أضلّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ قال فهذه: يعني المفتوحة لغة نجد وهي الفصيحة، وأهل العالية يقول: ضللت بالكسر أضلّ.

أَطَّفَيِّش:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤٠.

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُل﴾ لهم يا محمَّد قطعًا لأطماعهم في أن تتَّبعهم في المسح على آلهتهم، إذ قالوا: اِمسحْ عليها نؤمنْ بإلهك، ﴿إِنَّي نُهِيتُ﴾ بالآيات النقليَّة والعقليَّة في شأن التوحيد، كقوله تعالى: ﴿قل اِنِّي نُهِيتُ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر: ٦٦]، ﴿أَنَ اَعْبُدَ﴾ أي: عن أن أعبد ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: تعبدون، أو تسمُّونهم آلهة، واختار (الَّذِينَ) لاعتقادهم في الأصنام أنَّهم عقلاء، أو قريبون من العقلاء.

٢. ﴿قُل﴾ لهم أيضًا قطعًا لأطماعهم في أن تتابعهم، وتلاينهم في المسح على آلهتهم: ﴿لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُم﴾ في عبادتهم أو مماسَّتها، إنَّما أنتم على محض الهوى والجهالة لا على الهدى فكيف أتَّبعكم وأترك الحجَّة العقليَّة والنقليَّة!؟ وقيل: لا أتَّبع أهواءكم في طرد المؤمنين، وكرَّر (قُلْ) مع قرب ذكره اعتناءً بالمأمور، وفرقًا بأنَّ الأوَّل لِمَا هو من جهة الله تعالى وهو النهي الثاني لِمَا هو من جهته ﷺ، وهو الانتهاء عمَّا يطالبون من المداهنة، وجَمَعَ الأهواء مع أنَّ هواهم كلِّهم عبادة غير الله لتعدُّدها في الحقيقة؛ لأنَّ كلَّ واحد يجعل لنفسه صنمًا يعبده ولا يعبد غيره من الأصنام، أو تتَّفق جماعة على صنم، وأخرى على آخر، وهذا أولى مِمَّا قيل: إنَّه جمع ولو كان واحدًا في نفسه لكن مُتَعَدِّدٌ بالإضافة إليهم.

٣. ﴿قَد ضَّلَلْتُ إِذًا﴾ هي (إِذًا) التي هي حرف جواب وجزاء، لم يذكر المضارع بعدها؛ أو الظرفيَّة الماضويَّة المعوِّض تنوينُها عن الجملة بلا إضافة نحو (حِينَ) إليها، أو الاستقباليَّة معوِّضًا عن شرطها التنوينُ، والأوَّل والثالث أنسب بفتح الذال، وهكذا في غير هذا الموضع، أي تحقَّق ضلالي في مقابلة اتِّبَاعي أهواءكم لو اتَّبَعتُها، أو حين اتَّبعتُها لو اتَّبعتُها، أو إذا اتَّبعتُها لو كنت أَتَّبِعُها، ﴿وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ تعريض للمشركين بأنَّهم على غير هدى، تأكيدٌ للفعليَّة بعطف الاسميَّة عليها الدالَّة على التحقُّق والثبوت، أي: لست من أعداد المهتدين في شيء ما، فضلاً عن أن أقول إن اهتديتُ، أو أنا مهتد قولاً دالًّا على الهدى التامِّ مع أنِّي مُتَّبع لأهوائكم لو اتَّبَعتها، وكيف أتَّبعها وأترك الحجج النقليَّة والعقليَّة!؟.

٤. وتوحيده ﷺ بالحجَّة والتقليد، ويكفي غيرَه التقليدُ الجازم على الصحيح عندنا معشر الإباضيَّة

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٨٠.

الوهبيَّة، وهو الذي حكاه القشيريُّ عن الأشعريِّ، قائلاً: إنَّ ما حكي عن الأشعريِّ من أنَّ توحيد المقلِّد غير صحيح افتراءٌ عليه.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: تعبدونه أو تسمونه آلهة، ثم كرر الأمر تأكيدا لقطع أطماعهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ أي: في عباده الأصنام، وطرد من ذكر، ثم قال البيضاوي: (هو إشارة إلى الموجب للنهي، وعلة الامتناع عن متابعتهم، واستجهال لهم، وبيان لمبدأ ضلالهم، وأن ما هم عليه هوى، وليس بهدى، وتنبيه لمن تحرّى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد)

٢. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم، لمخالفة الأمر الإلهي والعقل جميعا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي: للحق إن اتبعت ما ذكر، وفيه تعريض بأنهم كذلك.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. بعد أن أرشد الله تعالى رسوله إلى ما تقدم من سياسة المؤمنين، وتبليغهم ما ذكر من أصول حكمة الدين، عاد إلى تلقينه ما يحاج به المشركين، من بلاغ الوحي وناصع البراهين، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِّ﴾ النهي: الزجر عن الشيء بالقول ـ مثل: لا تكذب واجتنب قول الزور ـ والكف عنه بالفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ والدعاء: النداء وطلب الخير أو دفع الضر من الأعلى، وإنما يكون عبادة إذا كان في أمر وراء الأسباب المسخرة للعباد التي ينالونها بكسبهم لها واجتهادهم فيها وتعاونهم عليها، فإن ما نعجز عن نيله بالأسباب المسخرة لنا لا نطلبه إلا من الخالق المسخر للأسباب ـ وقد بينا ذلك مرارا كثيرة ـ فالله تعالى يقول لرسوله هنا: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم وتستغيثونهم من دون الله، أي غير الله من الملائكة وعباد الله الصالحين، بله ما دونهم من الأصنام والأوثان التي لا علم لها ولا عمل، وهذا النهي

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٧٨.

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٣٧٨

يصدق بنهي الله تعالى إياه عن ذلك في آيات القرآن الكثيرة وأمره بضده وهو دعاء الله تعالى وحده، وبنهي العقل والفطرة السليمة، فإن النبي ﷺ كان قبل البعثة موحدا، ولم يكن قط مشركا، ولأجل هذا قال: (نهيت) بالبناء للمفعول.

٢. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي قل لهم: لا أتبع أهواءكم في عبادتهم ولا في غيرها من أعمالكم التي تتبعون بها الهوى، ولستم في شيء منها على بينة ولا هدى، ولماذا؟ لأنني إن اتبعتها فقد ضللت ضلالا أخرج به من جنس المهتدين، فلا أكون منهم في شيء، فإن هذا الضلال لا يقاس بغيره؛ لأنه هو الضلال البعيد عن صراط الهدى.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين، ذكر هنا أنه نهى عن سلوك سبيلهم هو عبادة غير الله، وأن هذه العبادة إنما هي بمخض الهوى والتقليد، لا سبيل الحجة والبرهان، فهي جمادات وأحجار ينحتونها بأيديهم ويركبونها ثم يعبدونها.

٢. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الداعين لك إلى الإشراك: إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم وتستغيثون بهم من دون الله أي غير الله من الملائكة والصالحين من عباده، دع ما دونهم من الأصنام والأوثان التي لا علم لها ولا عمل، وهذا النهى شامل لنهى الله عنه في كتابه الكريم في كثير من الآيات، ولأمره بضده وهو دعاؤه وحده، ولنهى العقل والفطرة السليمة قبل إرسال الأنبياء.

ثم أمره أن يبين لهم أن هذه العبادة مبنية على الرأي والهوى وهي ضلال وغيّ، ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي قل لهم: لا أتبعكم على ما تدعوننى إليه لا في هذه العبادة ولا في غيرها من الأعمال، لأنها مؤسسة على الهوى، وليست على شيء من الحق والهدى، فإن فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق وسرت على غير هدى، فصرت ضالا مثلهم وخرجت من عداد المهتدين، وفى هذا

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٤٠.

تعريض بأنهم ليسوا من الهداية في شيء ثم أمره أن يقول لهم: إني على هدى من ربى فيما أتبعه.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذه الموجة عودة إلى (حقيقة الألوهية) بعد بيان (حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول) في الموجة السابقة لها في السياق المتلاحم؛ وبعد استبانة سبيل المجرمين واستبانة سبيل المؤمنين ـ كما ذكرنا ذلك في نهاية الفقرة السابقة.

٢. وحقيقة الألوهية في هذه الموجة تتجلى في مجالات شتى؛ نجملها هنا ـ قبل تفصيلها في استعراض النصوص القرآنية:

أ. تتجلى في قلب رسول الله ﷺ وهو يجد في نفسه بينة من ربه، هو منها على يقين، لا يزعزعه تكذيب المكذبين، ومن ثم يخلص نفسه لربه، ويفاصل قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم يقينه من هداه ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾

ب. وتتجلى في حلم الله على المكذبين، وعدم استجابته لاقتراحاتهم أن ينزل عليهم خارقة مادية حتى لا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها ـ كما جرت سنته تعالى ـ وهو قادر عليه، ولو كان رسول الله ﷺ يملك هذا الذي يستعجلون به، ما أمسكه عنهم، ولضاقت بشريته بهم وبتكذيبهم، فإمهالهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلم الله ورحمته، كما أنها مجال تتجلى فيه ألوهيته: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾

ج. وتتجلى في علم الله بالغيب؛ وإحاطة هذا العلم بكل ما يقع في هذا الوجود؛ في صورة لا تكون إلا لله؛ ولا يصورها هكذا إلا الله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

---

(١) في ظلال القرآن: ٢، ص: ١١٠٩.

د. وتتجلى في هيمنة الله على الناس وقهره للعباد في كل حالة من حالاتهم، في النوم والصحو، في الموت والحياة، في الدنيا والآخرة: ﴿وَهُوَالَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ، ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وهُوَالْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ، ويُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا، وهُمْ لا يُفَرِّطُونَ، ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ، أَلا لَهُ الْحُكْمُ وهُوَأَسْرَعُ الْحاسِبِينَ﴾.

هـ. وتتجلى في فطرة المكذبين أنفسهم، حين يواجهون الهول؛ فلا يدعون إلا الله لرفعه عنهم.. ثم هم مع ذلك يشركون، وينسون أن الله، الذي يدعونه لكشف الضر، قادر على أن يذيقهم ألوان العذاب فلا يدفعه عنهم أحد: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾..

٣. تحتشد هذه الموجة بالمؤثرات الموحية، التي تتمثل في شتى الإيقاعات التي تواجه القلب البشري بحقيقة الألوهية في شتى مجاليها.. ومن بين هذه المؤثرات العميقة، ذلك الإيقاع المتكرر: (قل.. قل.. قل..) خطابا لرسول الله ﷺ ليبلغ عن ربه، ما يوحيه إليه؛ وما لا يملك غيره؛ ولا يتبع غيره؛ ولا يستوحي غيره:

٤. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.. يأمر الله سبحانه رسوله ﷺ، أن يواجه المشركين بأنه منهي من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أندادا لله.. ذلك أنه منهي عن اتباع أهوائهم ـ وهم إنما يدعون الذين يدعون من دون الله عن هوى لا عن علم، ولا عن حق ـ وأنه إن يتبع أهواءهم هذه يضل ولا يهتدي، فما تقوده أهواؤهم وما تقودهم إلا إلى الضلال.

٥. يأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يواجه المشركين هذه المواجهة، وأن يفاصلهم هذه المفاصلة؛ كما

أمره من قبل في السورة بمثل هذا وهو يقول: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى؟ قُلْ: لا أَشْهَدُ، قُلْ: إِنَّما هُوَإِلهٌ واحِدٌ، وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾..

٦. ولقد كان المشركون يدعون رسول الله ﷺ أن يوافقهم على دينهم، فيوافقوه على دينه! وأن يسجد لآلهتهم فيسجدوا لإلهه! كأن ذلك يمكن أن يكون! وكأن الشرك والإسلام يجتمعان في قلب! وكأن العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه! وهو أمر لا يكون أبدا، فالله أغنى الشركاء عن الشرك، وهو يطلب من عباده أن يخلصوا له العبودية؛ ولا يقبل منهم عبوديتهم له إذا شابوها بشيء من العبودية لغيره.. في قليل أو كثير..

٧. ومع أن المقصود في الآية أن يواجههم رسول الله ﷺ بأنه منهي عن عبادة أيٍّ مما يدعون ويسمون من دون الله، فإن التعبير بـ (الذين) في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾.. يستوقف النظر، فكلمة الذين تطلق على العقلاء، ولو كان المقصود هي الأوثان، والأصنام، وما إليها لعبر بـ (ما) بدل (الذين).. فلا بد أن يكون المقصود بالذين نوعا آخر ـ مع الأصنام والأوثان وما إليها ـ نوعا من العقلاء الذين يعبر عنهم بالاسم الموصول: (الذين) فغلب العقلاء، ووصف الجميع بوصف العقلاء..

٨. وهذا الفهم يتفق مع الواقع من جهة؛ ومع المصطلحات الإسلامية في هذا المقام من جهة: فمن جهة الواقع نجد أن المشركين ما كانوا يشركون بالله الأصنام والأوثان وحدها، ولكن كانوا يشركون معه الجن والملائكة والناس.. وهم ما كانوا يشركون الناس إلا في أن يجعلوا لهم حق التشريع للمجتمع وللأفراد، حيث يسنون لهم السنن، ويضعون لهم التقاليد؛ ويحكمون بينهم في منازعاتهم وفق العرف والرأي.. وهنا نصل إلى جهة المصطلحات الإسلامية.. فالإسلام يعتبر هذا شركا؛ ويعتبر أن تحكيم الناس في أمور الناس تأليه لهم؛ وجعلهم أندادا من دون الله.. وينهى الله عنه نهيه عن السجود للأصنام والأوثان؛ فكلاهما في عرف الإسلام سواء.. شرك بالله، ودعوة أنداد من دون الله!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ التفات إلى هؤلاء المشركين، الذين أرادوا النبيّ ﷺ على أن يطرد من اجتمع إليه من الفقراء والمستضعفين، ثم ليتحدث بعد هذا إليهم هم، إن كان له معهم حديث! وقد أمر الله النبيّ أن يلقى هؤلاء المشركين بهذا القول الفصل فيما بينهم وبينه:

٢. ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي تلقيت نهيا من ربى ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ من أصنام، أو ملائكة أو جنّ، أو كواكب، وما أشبه ذلك..

٣. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ بيان لضلال هؤلاء المشركين، وأنهم إنما يعبدون آلهة من صنعة أهوائهم، ونزغات شياطينهم، لا يقلبها عقل، ولا يتعامل معها عاقل.. وتكرار الأمر (قل) هو ـ كما قلنا ـ مزيد من عناية الله سبحانه بالرسول الكريم، وإشعار له بأنه مأنوس برحمة الله، إذ يضع سبحانه وتعالى على فمه كلماته، وآياته، ليلقى بها المشركين، ويفضح باطلهم، ويكشف ضلالهم.

٤. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ هو تتمة مقول القول، في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ لأن من يتبع أصحاب الهوى يضلّ ولا يهتدى أبدا، وأنتم أيها المشركون أصحاب هوى وضلال، فلو اتبعتكم كنتم مثلكم من الضالين، وحاشا لله أن أفعل هذا، وأن ألقى بنفسي إلى التهلكة.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، في الآية السابقة أشار سبحانه إلى سبيل المجرمين، وفي هذه بيّن هذا السبيل، وأنه عبادة غير الله ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، لأن دعوتهم لا مصدر لها إلا الهوى والضلال، فكيف يتبعها الرسول الأعظم؟، ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾، أي اني أعبد الله عن علم، وأنتم كفرتم به، وعبدتم الأصنام عن جهل، وفي أي منطق يكون العالم تابعا للجاهل، والمبطل قائدا للمحق.

٢. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، لما دعاهم رسول الله إلى الإيمان قالوا له: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٩٨.

(٢) التفسير الكاشف: ٣/ ١٩٨.

مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأمره الله سبحانه أن يقول لهم: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ بل هو عند الله ينزله في الوقت الذي يريد، ولا قدرة لي على تقديمه أو تأخيره ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ في تنزيل العذاب وتقديمه وتأخيره، وفي كل شيء ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي يقول الحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ لا يظلم أحدا في فصله وقضائه.

٣. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ باهلاك من ظلم منكم غضبا لله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعجل أو يؤجل العذاب على ما تقتضيه حكمته.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى إبطال الشرك بالتبري من عبادة أصنامهم فإنّه بعد أن أبطل إلهية الأصنام بطريق الاستدلال من قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤] الآية، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠] الآية وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦] الآية، جاء في هذه الآية بطريقة أخرى لإبطال عبادة الأصنام وهي أنّ الله نهى رسوله ﷺ عن عبادتها وعن اتّباع أهواء عبدتها.

٢. وبني ﴿نُهِيتُ﴾ على صيغة المجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل لظهور المراد، أي نهاني الله، وهو يتعدّى بحرف (عن) فحذف الحرف حذفا مطّردا مع (أن)

٣. وأجري على الأصنام اسم الموصول الموضوع للعقلاء لأنّهم عاملوهم معاملة العقلاء فأتى لهم بما يحكي اعتقادهم، أو لأنّهم عبدوا الجنّ وبعض البشر فغلّب العقلاء من معبوداتهم.

٤. ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون وتلجئون إليهم في المهمّات، أي تدعونهم، و﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ حال من المفعول المحذوف، فعامله ﴿تَدْعُونَ﴾، وهو حكاية لما غلب على المشركين من الاشتغال بعبادة الأصنام ودعائهم عن عبادة الله ودعائه، حتّى كأنّهم عبدوهم دون الله، وإن كانوا إنّما أشركوهم بالعبادة مع الله ولو

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٢٩.

في بعض الأوقات، وفيه نداء عليهم باضطراب عقيدتهم إذ أشركوا مع الله في العبادة من لا يستحقّونها مع أنّهم قائلون بأنّ الله هو مالك الأصنام وجاعلها شفعاء لكن ذلك كالعدم لأنّ كلّ عبادة توجّهوا بها إلى الأصنام قد اعتدوا بها على حقّ الله في أن يصرفوها إليه.

٥. وجملة ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ استئناف آخر ابتدائي، وقد عدل عن العطف إلى الاستئناف ليكون غرضا مستقلا، وأعيد الأمر بالقول زيادة في الاهتمام بالاستئناف واستقلاله ليكون هذا النفي شاملا للاتّباع في عبادة الأصنام وفي غيرها من ضلالتهم كطلب طرد المؤمنين عن مجلسه.

٦. والأهواء جمع هوى، وهو المحبّة المفرطة، وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في سورة البقرة [١٢٠]، وإنّما قال: ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ دون لا أتّبعكم للإشارة إلى أنّهم في دينهم تابعون للهوى نابذون لدليل العقل، وفي هذا تجهيل لهم في إقامة دينهم على غير أصل متين.

٧. وجملة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ جواب لشرط مقدّر، أي إن اتّبعت أهواءكم إذن قد ضللت، وكذلك موقع (إذن) حين تدخل على فعل غير مستقبل فإنّها تكون حينئذ جوابا لشرط مقدّر مشروط بـ (إن) أو (لو) مصرّح به تارة، كقول كثيّر:

لئن عاد لي عبد العزيز بمثلها وأمكنني منها إذن لا أقيلها

ومقدّر أخرى كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]

٨. وتقديم جواب (إذن) على (إذن) في هذه الآية للاهتمام بالجواب، ولذلك الاهتمام أكّد بـ ﴿قَدْ﴾ مع كونه مفروضا وليس بواقع، للإشارة إلى أنّ وقوعه محقّق لو تحقّق الشرط المقدّر الذي دلّت عليه (إذن)

٩. وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ عطف على ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾، عطف عليه للدلالة على أنّه جزاء آخر للشرط المقدّر، فيدلّ على أنّه إن فعل ذلك يخرج عن حالة التي هو عليها الآن من كونه في عداد المهتدين إلى الكون في حالة الضلال، وأفاد مع ذلك تأكيد مضمون جملة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ لأنّه نفى عن نفسه ضدّ الضلال فتقرّرت حقيقة الضلال على الفرض والتقدير، وتأكيد الشيء بنفي ضدّه طريقة عربية قد اهتديت إليها ونبّهت عليها عند قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ في هذه السورة [١٤٠]، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]

١٠. وقد أتي بالخبر بالجار والمجرور فقيل: ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ولم يقل: وما أنا مهتد، لأنّ المقصود نفي الجملة التي خبرها ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، فإنّ التعريف في ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ تعريف الجنس، فإخبار المتكلم عن نفسه بأنّه من المهتدين يفيد أنّه واحد من الفئة التي تعرف عند الناس بفئة المهتدين، فيفيد أنّه مهتد إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه، وهي أبلغ من التصريح، قال في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]: قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك: فلان عالم، لأنّك تشهد له بكونه معدودا في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم، وقال عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ في سورة الشعراء [١٣٦]، سؤال وإشكال: لو قيل: أوعظت أو لم تعظ، كان أخصر، والمعنى واحد، والجواب: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق لأنّ المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشرته، فهو أبلغ في قلّة الاعتداد بوعظه من قوله: أم لم تعظ، وقال الخفاجي إنّ أصل هذا لابن جنّي، ولهذا كان نفي هذا الخبر مفيدا نفي هذه النسبة الكنائية فكانت أبلغيّته في النفي كأبلغيّته في الإثبات، لأنّ المفاد الكنائي هو هو، ولذلك فسّره في (الكشاف) بقوله: (وما أنا من الهدى في شيء)، ولم يتفطّن لهذه النكتة بعض الناظرين نقله عنه الطيبي فقال: إنّه لمّا كان قولك: هو من المهتدين، مفيدا في الإثبات أنّ للمخبر عنه حظوظا عظيمة في الهدى فهو في النفي يوجب أن تنفى عنه الحظوظ الكثيرة، وذلك يصدق بأن يبقى له حظّ قليل، وهذا سفسطة خفيت عن قائلها لأنّه إنّما تصحّ إفادة النفي ذلك لو كانت دلالة المثبت بواسطة القيود اللفظية، فأمّا وهي بطريق التكنية فهي ملازمة للفظ إثباتا ونفيا لأنّها دلالة عقلية لا لفظية، ولذا قال التفتازانيّ (هو من قبيل تأكيد النفي لا نفي التأكيد) فهو يفيد أنّه قد انسلخ عن هذه الزمرة التي كان معدودا منها وهو أشدّ من مطلق الاتّصاف بعدم الهدى لأنّ مفارقة المرء فئته بعد أن كان منها أشدّ عليه من اتّصافه بما يخالف صفاتهم قبل الاتّصال بهم، وقد تقدّم قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ في سورة البقرة [٦٧]، وأحلنا بسطه على هذا الموضع.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. قيل: ﴿تَدْعُونَ﴾ بمعنى تعبدون.

ب. وقيل: تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة؛ أراد بذلك الأصنام.

٢. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء، ومن طرد من أردتم طرده، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي قد ضللت إن اتبعت أهواءهم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي على طريق رشد وهدى.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. الآيات من تتمة الاحتجاجات على المشركين في التوحيد وما يرتبط به من المعارف في النبوة والمعاد، وهي ذات سياق متصل متسق.

٢. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، أمر بأن خبرهم بورود النهي عليه عن عبادة شركائهم هو نهي عن عبادتهم بنوع من الكناية

٣. ثم أشار إلى ملاك النهي عنها بقوله: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ وهو أن عبادتهم اتباع للهوى وقد نهي عنه ثم أشار بقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبب الاستنكاف عن اتباع الهوى وهو الضلال والخروج عن جماعة المهتدين وهم الذين اتصفوا بصفة قبول هداية الله سبحانه، وعرفوا بذلك، فاتباع الهوى ينافي استقرار صفة الاهتداء في نفس الإنسان، ويمانع إشراق نور التوحيد على قلبه إشراقا ثابتا ينتفع به.

٤. وقد تلخص بذلك كله بيان تام معلل للنهي أو الانتهاء عن عبادة أصنامهم، وهو أن في عبادتها اتباعا للهوى، وفي اتباع الهوى الضلال والخروج عن صف المهتدين بالهداية الإلهية.

فضل الله:

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٢٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١١٤.

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه صورة رائعة من صور الرسول الداعية في مواجهته للمشركين، فيما يريد أن يثيره لديهم من قضايا العقيدة، في انطلاقة التوحيد أمام الشرك، من خلال التصوّر الرحب لما هو الله، في الفكر والقلب والضمير، حيث يفرّغ كل شيء غير الله من أيّ معنى يتّصل بالألوهيّة، أو يقترب منها، أو يلامسها، ولو من بعيد، لأن الأشياء لا تملك ـ في عمق وجودها ـ أيّ لون من ألوان الاستقلال الذاتي، فكيف تملك إعطاء الوجود لغيرها!؟ وهكذا يتجلّى الرسول في إشراقة الموقف الحق، فنراه وهو يرفض كل دعواتهم للشرك، ويجابه كل تحدياتهم واقتراحاتهم التعجيزيّة، ولكن لا من ناحية تدّعي لنفسها الاحاطة في نطاق المعرفة بل من ناحية الشخصية المتحركة في خط العبودية لخالقها، العالم بكل شيء المدبّر لأمور عباده، فيأمرهم بما يرى أنه الصلاح، وينهاهم عما يرى أنه الفساد.

٢. وبذلك يقف الرسول ـ العبد لله، في موقف الخاضع لنواهيه، ليقول لهم: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فقد آمنت بالله على قاعدة الفطرة، التي أثبتت أن لا إله غيره.. وها أنا ذا أحسّ إحساس العبد الخاشع أمام ربّه بأنّ العبودية هي لله وحده، فلا مجال لعبادة أو طاعة غيره، فيما نهاني عنه ممن تدعون من دونه من غير قاعدة أو برهان.. فإنكم لم تنطلقوا في دعوتكم لغيره إلا من أهوائكم المنطلقة من الشهوات، فكيف يختار العاقل الواعي لنفسه أن يتّبع الهوى، ويترك الحجّة والدليل والفطرة والوجدان؟

٣. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فإن ذلك يؤدي إلى الضلال والضياع بعيدا عن خط الهدى، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وهذا ما لا يمكن أن أختاره لنفسي، مهما اشتدت الضغوط، وكثرت التحدّيات.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وهو يعم عبادتها

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٤٤.

(٢) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٥.

بالدعاء وعبادتها بغيره كالذبح وغيره، كما يأتي ذكره في هذه السورة، وهذا تنبيه للمشركين على أن من دين الرسول ﷺ اجتناب الشرك.

٢. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ لأني ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فكيف أدع الحق الواضح لأتبع الباطل الذي لا برها ن له وإنما هو مجرد اتباع الأهواء ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ إن اتبعت أهواءكم ضلالاً لا أهتدي معه أو بعده، فهو ضلال مجرد، أو ضلال يسبب الخذلان وسلب التوفيق، وفي هذا دلالة للمشركين أنهم ضالون بطريقة حكيمة فيها رفق ولطف في التعبير.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ما يزال الخطاب في هذه الآيات موجها إلى المشركين وعبدة الأصنام المعاندين ـ كدأب معظم آيات هذه السورة ـ يبدو من سياق هذه الآيات أنّهم دعوا رسول الله ﷺ إلى اعتناق دينهم، الأمر الذي يستدعي نزول الآية: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ استعمال (الذين) التي هي للجمع المذكر العاقل، لا للإشارة إلى الأصنام، يدل على أنّ الكلام يجري وفق وجهة نظر المشركين.

٢. جملة (نهيت) التي وردت بصيغة الماضي ومبنية للمجهول تشير إلى أنّ النهي عن عبادة الأصنام ليس أمرا جديدا، بل كان دائما قائما وسيبقى كذلك.

٣. ثمّ بجملة ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، بالنظر لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة العقلية، لأنّ العقل يدرك بسهولة أن الإنسان أشرف من الجماد، فكيف يمكن للإنسان أن يخضع لأي مخلوق آخر فضلا عن المخلوق الأدنى هذا مع أنّ هذه الأصنام هي من صنع الإنسان نفسه فكيف يتخذ الإنسان ما خلقه بنفسه معبودا يعبده ويلجأ إليه في كل مشاكله؟ وبناء على ذلك، فإنّ منشأ عبادة الأصنام ليس سوى التقليد الأعمى والإتّباع المقيت للأهواء والشهوات.

٤. في ختام الآية يؤكّد القرآن مرّة أخرى على أنّه إذا فعل ذلك ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٣٠٧.

٣٥. بينات النبوة ومطالب المعاندين واستعجالهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧ ـ ٥٨]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، لقامت الساعة[(١)].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: قال الله عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لو أني أمرت أن أعلمكم الذي أخفيتم في صدوركم من استعجالكم بموتي لتظلموا أهل بيتي من بعدي، فكان مثلكم كما قال الله عز وجل[(٢)].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ معناه على بيان[(٣)].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، ذبح الموت[(٤)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٣.

(٢) تفسير القمي ١/ ٢٠٢.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٤.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٨١.

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، يعني: بيان من ربي بما أمرني من عبادته وترك عبادة الأصنام، حين قالوا له: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ يعني: بالعذاب، فقال لهم عليه السلام: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب، يعني: كفار مكة، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يعني: ما القضاء إلا لله في نزول العذاب بكم في الدنيا[2].

٣. روي أنّه قال: قل لهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ يعني: بيدي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يعني: أمر العذاب ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وليس ذلك بيدي، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾[3].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. أخبر أن ما يعبدون هم من دون الله إنما يعبدونه اتباعًا لهوى أنفسهم وأن ما يعبده هو ليس يتبع هوى نفسه، ولكن إنما يتبع الحجة والسمع وما يستحسنه العقل؛ ألا ترى أنه قال: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على حجة من ربي!؟ يخبر أن ما يعبده هو يعبده اتباعًا للحجة والعقل، وما يعبدون اتباعًا لهوى أنفسهم، وما يتبع بالهوى يجوز أن يترك اتباعه ويتبع غيره لما تهوى نفسه وأما ما يتبع بالحجة والسمع وما يستحسنه العقل فإنه لا يجوز أن يترك اتباعه ويتبع غيره وفيه تعريض بسفههم؛ لأنه قال: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي: لو اتبعت هواكم لضللت أنا، وأنتم إذا اتبعتم أهواءكم لعبادتكم غير الله ضلال ولستم من المهتدين؛ فهو تعريض بالتسفيه لهم والشتم منه.

٢. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾:

أ. قيل: على بيان من ربي وحجة.

ب. وقيل على دين من ربي.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٤) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٩٨.

٣. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾:

أ. قيل بالقرآن.

ب. وقيل: العذاب ما أوعدتكم.

ج. ويحتمل كذبتم ما وعدتكم.

٤. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: العذاب كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، وغيره فقال ما عندي ما تستعجلون به من العذاب، ثم هذا يدل على أن قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أن المراد بالخزائن العذاب أي: ليس عندي ذلك، إنما ذلك إلى الله وعنده ذلك وهو قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾، أي: ما الحكم والقضاء إلا لله.

٥. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ اختلف في تلاوته وتأويله:

أ. قرأ بعضهم بالضاد وآخرون بالصاد:

- فمن قرأ بالصاد ﴿يَقُصُّ﴾ ويقول يبين الحق؛ لأن القصص هو البيان، وقال آخر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: خير المبينين.

- ومن قرأ بالضاد يقول يقضي بحكم.

ب. ثم اختلف فيه:

أ. قال بعضهم أي: يقضي بالحق وكذلك روي في حرف ابن مسعود أنه قرأ ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾

ب. وقيل فيه إضمار، أي: يقضي ويحكم وحكمه الحق.

ج. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: القاضين والفصل والقضاء واحد؛ لأنه بالقضاء يفصل والله أعلم.

٦. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾:

أ. عن ابن عباسٍ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم.

ب. وقيل: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: لعجلته لكم بالقضاء فيما بيننا، يخبر عن رحمة الله وحلمه، أي: لو كان بيدي لأرسلته عليكم، لكن الله بفضله ورحمته يؤخر ذلك عنكم.

ج. ثم فيه نقض على المعتزلة في قولهم بأن الله لا يفعل بالعبد إلا الأصلح في الدِّين؛ لأنه قال: ﴿قُلْ

لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، ثم لا يحتمل أن تأخير العذاب والهلاك خير لهم وأصلح، ثم هو يهلكهم ويكون عظة لغيرهم وزجرًا لهم، ثم إن الله تعالى أخر ذلك العذاب عنهم وإن كان فيه شر لهم؛ فدل أن الله قد يفعل بالعبد ما ليس ذلك بأصلح له في الدِّين.

٧. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾، أي: عليم بمن الظالم منا؟ وهم كانوا ظلمة.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى قوله عز وجل فيما ذكر من قوله وأمره لنبيه ﷺ: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾: أي ليس عندي الذي تطلبون من العذاب، وتستعجلون من مناقشة الحساب.

٢. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ أي ما الحكم إلا لله، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي يخبر بالحق ويقصه قصاً، ويبينه للناس وينصه نصاً، وهو خير الفاصلين: أي وهو خير القاطعين الذين يقطعون الحقوق ويفصلونها ويبينون أمرها.. وقرئ أيضاً: ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ مأخوذ من قضى يقضي قضاء، وكلاهما صواب.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي الحق الذي بان له والمعجز الذي ظهر على يديه وهو القرآن ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي وكذبتم بالبينة وتركتم.

٢. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ هو العذاب الذي أوعدوا به كما قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج:٤٧]

٣. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ أي في الثواب والعقاب وتمييز الحق من الباطل (يقض الْحَقَّ) وقرئ يقص الحق بالصاد غير معجمة ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ من القصص وهو الإخبار به فأما القضاء فهو الحكم بالحق وإتمامه.

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٩٠.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٤.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ في البينة هنا قولان:

أ. أحدهما: الحق الذي بان له.

ب. الثاني: المُعْجِزُ في القرآن.

٢. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: وكذبتم بالبينة.

ب. الثاني: وكذبتم بربكم.

٣. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: ما يستعجلون به من العذاب الذي أُوعِدُوا به قبل وقته، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، قاله الحسن.

ب. الثاني: ما استعجلوه من اقتراح الآيات لأنه طلب الشيء في غير وقته، قاله الزجاج.

٤. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: الحكم في الثواب والعقاب.

ب. الثاني: الحكم في تمييز الحق من الباطل.

٥. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾:

أ. قرأ ابن كثير ونافع وعاصم ﴿يَقُصُّ﴾ بصاد غير معجمة من القَصَص وهو الإِخبار به.

ب. وقرأ الباقون ﴿يَقْضِي﴾ بالضاد معجمة من القضاء، وهو صنع الحق وإتمامه.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. الحق في قوله: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ يحتمل أمرين:

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١٢١.

(٢) تفسير الطوسي: ٤/ ١٥٣.

أ. أحدهما: أن يكون صفة لمصدر محذوف وتقديره يقضي القضاء الحق أو يقص القصص الحق.

ب. الثاني: أن يكون مفعولاً به يعجل الحق كقول الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما		داود أو صنع السوابغ تبع

أي صنعهما داود عليه السلام.

٢. في هذه الآية أمر من الله لنبيه أن يقول للكفار إنه على بينة من ربه، أي على أمر بين من معرفة الله وصحة نبوته، لا متبع للهوى.

٣. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ الهاء راجعة إلى البيان، لأن البينة والبيان واحد، وتقديره وكذبتم بالبيان الذي هو القرآن، وقال قوم: بينة من ربي من نبوتي ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ يعني بالله، وعلى الأول يكون تقديره كذبتم بما أتيتكم، لأنه هو البيان.

٤. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ (ما) بمعنى ليس، والذي استعجلوا به يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: العذاب، كما قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾.

ب. الثاني: أن يكونوا استعجلوا الآيات التي اقترحوها عليه فأعلمهم الله أن ذلك عند الله وأن الحكم له تعالى: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ وكتبت يقضي بغير ياء، لأنها أسقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين، كما كتبوا ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ بغير واو، ومن قرأ: بالصاد من القصص حمله على أن جميع ما أنبأ به وأمر به، فهو من أقاصيص الحق.

٥. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ قال الحسن: ﴿بَيِّنَةٍ﴾ النبوة و(كذبتم به) بالنبوة التي جاءت من عند الله و﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب جواب لقولهم: (أتنا بعذاب الله)

٦. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾في قراءة ابن مسعود (يقص بالحق) ولم يقرأ به أحد، وقوله: ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ يدل على بطلان قول من يقول: إن الظلم والجور بقضاء الله، لأن ذلك كله ليس بحق.

٧. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أمر الله تعالى نبيه أن يقول للكفار ما كان عندي ما تستعجلون به من كون العذاب وإنزاله بكم برأيي وإرادتي لفعلت ذلك بكم ولأنزلته عليكم و﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بذلك ولا نفصل ولا نقطع، ولكن ليس ذلك إلي وإنما هو إلى الله ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبمن ينبغي إمهاله منهم ومن يجب معالجته بالعقوبة فهو يدبر

ذلك بحسب ما يعلم من وجه الحكمة والصواب.

٨. قراءات ووجوه: قرأ أهل الحجاز وعاصم ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ من القصص وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد، الباقون ـ بالضاد ـ المعجمة من فوقها من القضاء، وكان أبو عمرو يقوي القراءة بالضاد بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾، ويقول الفصل في القضاء لا في القصص ويقوي ذلك بقوله: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، وحجة من قرأ بالصاد قوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ﴾، وأما الفصل الذي قوى به أبو عمرو قراءته فقد جاء الفصل في القول كما جاء في الحكم والقضاء في نحو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ وقال: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ وقال: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فذكر في القصص أنه تفصيل.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. البينة: الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل، والبيان: هو الدلالة، عند شيخنا أبي علي وأبي هاشم، وقيل: هو العلم الحادث، عن أبي عبد الله البصري، والتبيين: حصول الفصل بين الملتبس.

ب. الاستعجال: طلب الشيء قبل وقته.

ج. الحُكْمُ: فصل الأمر على موجب الحكمة، وأصله المنع كالحكم؛ لأنه يخلص مما منع منه الحكم، وقيل: القضاء والحكم واحد، عن أبي مسلم.

د. القضاء: فصل الأمر على التمام يقال: قضى بمعنى صنعه على تمام، قال الشاعر:

وعليهما مَسْرُودتان قضاهما   داودُ أَوْ صَنَعَ السَّوابغَ تُبَّعُ

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في النضر بن الحارث.

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٨٤.

ب. وقيل: نزلت في الرؤساء الَّذِينَ قالوا للنبي ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ونحوها استعجالاً للعذاب، عن الحسن.

ج. وقيل: نزلت في الَّذِينَ اقترحوا الآيات، عن الزجاج.

٣. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: لما اقترحوا عليه الآيات بَيَّنَ أولاً أنه على بينة من ربه بما ظهر من المعجزات، وبَيَّنَ أن ما استعجلوه ليس بيده، وإنما هو إلى الله تعالى.

ب. وقيل: تتصل بما قبله فإنه قال أعبد الله، ولا أعبد غيره كما تعبدون، ثم بين أنه على بينة وحجة من ذلك فإنه لا بينة معهم.

ج. يتصل ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ بما قبله:

• اتصال النقيض بالنقيض، كأنه قال أنا لا أعلم وقت عقوبتهم، وهو تعالى عالم بذلك فيؤخره إلى وقته، وهذا من حسن التصرف.

• وقيل: الله أعلم بحالهم؟ فلا يعاقبهم وإن استعجلوا، بل يمهلهم؛ لأن منهم من يؤمن ويصلح.

٤. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾:

أ. قيل: على حجة ومعجزة دالة على نبوتي، قيل: هو القرآن، عن أبي علي.

ب. وقيل: سائر معجزاته.

ج. وقيل: إني على حجة وبرهان في ما أدعو إليه من التوحيد والعدل.

د. وقيل: على يقين من ربي لا أشك فيما يأتيني من عنده.

٥. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾:

أ. قيل: بالقرآن.

ب. وقيل: بالبينات.

ج. وقيل: بربكم.

د. وقيل: باليقين.

٦. ثم ابتدأ، فقال: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾:

أ. قيل: ما تطلبونه من العذاب قبل وقته كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ وقال: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ عن الحسن.

ب. وقيل: هو اقتراح الآيات، عن الزجاج.

٧. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾:

أ. يعني الحكم الذي يفصل بين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب، عن أبي علي.

ب. وقيل: الحكم الذي يفصل كل حق من كل باطل، وكلاهما على الإطلاق لا يوصف به غير الله تعالى.

ج. وقيل: إذ الحكم أي الاختيار في إنزال الآيات إلا إلى الله تعالى، والحكم يكون بمعنى الاختيار، يقال: احتكم في مال فلان ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بالصاد يعني يقوله ويخبر به، وبالضاد معجمة من القضاء أي يفصل الحق من الباطل.

د. وقيل: يفصل بين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب.

هـ. وقيل: يعلم الحق، عن الأصم.

٨. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾؛ لأنه لا يظلم في قضاياه، ولا يجور ولا يميل عن الحق ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب، وفيه ضمير أي لأنزلته.

٩. ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:

أ. لفرغ من الأمر بأن أهلككم وأستريح منكم، غير أن الأمر فيه إلى الله تعالى وهو أعلم بالظالمين، ووقت عذابهم وما يصلحهم، فيفعل بحسب المصلحة.

ب. وقيل: يفصل الأمر بيني وبينكم من مطالبتي إياكم بعبادة الله، ومطالبتكم إياي بالعذاب، فلو أتيتكم به لم يبق بيننا مطالبة.

١٠. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه تعالى يؤخر العقوبة لضرب من المصلحة، إما لكي يؤمنوا أو غير ذلك من المصالح.

ب. أنه ﷺ يتبع الدليل، ويَدَعُ الهوى والإلف.

ج. أنه ﷺ كان يدعي العبودية، ويتبرأ عن ادعاء الربوبية، وأنه ليس عليه إلا البلاغ تنبيهًا لأمته

كي لا يقولوا فيه ما قالته النصارى في المسيح.

د. أن قضاءه تعالى حق.

هـ. أن الكفر والمعاصي ليس بقضائه ولا خلقه؛ فيفسد قولي المُجْبِرَة في المخلوق والإرادة والقضاء.

و. أن التكذيب والاستعجال والظلم فِعْلُهم، فيبطل قولهم في المخلوق.

ز. أن قولنا: ظالم اسم ذم في الشرع على ما نقوله.

١١. قراءات ووجوه: قرأ ابن كثير ونافع وعاصم ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بالصاد من القصص، يعني يقول الحق، قالوا: لأنه مكتوب في جميع المصاحف بغير ياء، ولأنه قال: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ وإنما يقال: قضيت بالحق، وقرأ الباقون بالضاد من قضى يقضي، قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والفصل: الحكم، قالوا: وإنما حذف الياء لاستثقال الألف واللام كقوله: ﴿لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ﴾ ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ قالوا: وإنما حذف الباء من الحق؛ لأنه صفة المصدر، وتقديره: يقضي القضاء الحق.

١٢. مسائل لغوية ونحوية:

أ. سؤال وإشكال: لم قال ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ والبينة مؤنثة؟ والجواب: فيه أربعة أقوال:

- الأول: لأن البيان والبينة واحد كقوله: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾؛ لأنه بمعنى الإنعام، عن الزجاج.
- الثاني: كذبتم بمدلول البينة.
- الثالث: كذبتم بربكم؛ لأنه جرى ذكره.
- الرابع: كذبتم بالقرآن؛ لأنه المراد بالبينة.

ب. قيل ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ ﴿قَدْ﴾ فيه مضمرة؛ لأن الحال لا يكون بالفعل الماضي إلا مع ﴿قَدْ﴾ مضمرًا أو مظهرًا كقوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: وقد حصرت صدورهم.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٦٠.

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. البينة: الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل، والبيان: هو الدلالة، وقيل: هو العلم الحادث.

ب. الاستعجال: طلب الشيء في غير وقته، والحكم: فصل الأمر على التمام.

٢. لما أمر الله تعالى النبي ﷺ بأن يتبرأ مما يعبدونه، عقب ذلك سبحانه بالبيان، أنه على حجة من ذلك، وبينة، وأنه لا بينة لهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾:

أ. أي: على أمر بين، لا متبع لهوى، عن الزجاج.

ب. وقال الحسن: البينة: النبوة أي: على نبوة من جهة ربي.

ج. وقيل: على حجة من معجزة دالة على نبوتي، وهي القرآن، عن الجبائي.

د. وقيل: على يقين من ربي، عن ابن عباس.

٣. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بما أتيتكم به من البيان يعني القرآن ﴿مَا عِنْدِي﴾ أي: ليس عندي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾:

أ. قيل: معناه الذي تطلبونه من العذاب، كانوا يقولون يا محمد آتنا بالذي تعدنا، وهذا كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، عن ابن عباس والحسن.

ب. وقيل: هي الآية التي اقترحوها عليه استعجلوه بها.

٤. فأعلم الله تعالى أن ذلك عنده، فقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ بريد أن ذلك عند ربي، وعن ابن عباس: يعني ليس الحكم في الفصل بين الحق والباطل، وفي إنزال الآيات إلا لله.

٥. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي: يفصل الحق عن الباطل، ويقص الحق أي: يقوله، ويخبر به ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ لأنه لا يظلم في قضاياه، ولا يجوز عن الحق، وهذا يدل على بطلان قول من يزعم أن الظلم والقبائح بقضائه، لأن من المعلوم أن ذلك كله ليس بحق.

٦. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ أي: برأيي وإرادتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من إنزال العذاب بكل ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لفرغ من الأمر بأن أهلككم فأستريح منكم، غير أن الأمر فيه إلى الله تعالى.

٧. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبوقت عذابهم، وما يصلحهم، وفي هذا دلالة على أنه سبحانه إنما

يؤخر العقوبة لضرب من المصلحة، إما لأن يؤمنوا، أو لغير ذلك من المصالح، فهو يدبر ذلك على حسب ما تقتضيه الحكمة.

٨. قراءات ووجوه: قرأ أهل الحجاز، وعاصم ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بالصاد، والباقون: (يقضي الحق)، الحجة: حجة من قرأ ﴿يَقْضِي﴾ قوله: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، وحكي عن أبي عمرو أنه استدلّ بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾: في أن الفصل في الحكم ليس في القصص، وحجة من قرأ ﴿يَقُصُّ﴾ قوله: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾: وقالوا: قد جاء الفصل في القول أيضا في نحو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ وأما قوله الحق: فيحتمل أمرين: يجوز أن يكون صفة مصدر محذوف تقديره: يقضي القضاء الحق، أو يقص القصص الحق، ويجوز أن يكون مفعولا به مثل يفعل الحق كقوله:

وعليهما مسرودتان قضاهما داوود أو صنع السوابغ تبع

٩. سؤال وإشكال: لم قال كذبتم به، والبينة مؤنثة؟ والجواب:

أ. قيل: لأن البينة بمعنى البيان، فالهاء كناية عن البيان، عن الزجاج.

ب. وقيل: كناية عن الرب في قوله: ﴿رَبِّي﴾

١٠. قوله: ﴿كَذَّبْتُمْ﴾: قد مضمر معه، لأنه في موضع الحال، والحال لا يكون بالفعل الماضي، إلا ومعه قد إما مظهرة، أو مضمرة.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سبب نزولها أنّ النّضر بن الحارث وسائر قريش قالوا للنبيّ ﷺ: يا محمّد ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به، استهزاء؛ وقام النّضر عند الكعبة وقال: اللهمّ إن كان ما يقول حقّا، فائتنا بالعذاب؛ فنزلت هذه الآية؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس.

٢. البيّنة، هي الدّلالة التي تفصل بين الحقّ والباطل، قال الزّجّاج: أنا على أمر بيّن، لا متّبع لهوى.

٣. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ في هاء الكناية، ثلاثة أقوال:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٧.

أ. أحدها: أنها ترجع إلى الرّبّ.

ب. الثاني: ترجع إلى البيان.

ج. الثالث: ترجع إلى العذاب الذي طلبوه استهزاء.

٤. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: ما بيدي، وفي الذي استعجلوا به قولان:

أ. أحدهما: أنه العذاب؛ قاله ابن عباس، والحسن.

ب. الثاني: أنه الآيات التي كانوا يقترحونها؛ ذكره الزّجّاج.

٥. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه الحكم الذي يفصل به بين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب.

ب. الثاني: أنه القضاء بإنزال العذاب على المخالف.

٦. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع (يقصّ الحقّ) بالصّاد المشددة، من القصص؛ والمعنى: أنّ كلّ ما أخبر به فهو حقّ، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائيّ: (يقضي الحقّ) من القضاء؛ والمعنى: يقضي القضاء الحقّ.

٧. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يقول: لم أمهلكم ساعة، ولأهلكتكم.

٨. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنّ المعنى: إن شاء عاجلهم، وإن شاء أخّر عقوبتهم.

ب. الثاني: أعلم بما يؤول إليهم أمرهم، وأنه قد يهتدي منهم قوم، ولا يهتدي آخرون؛ فلذلك يؤخّرهم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لما نفى الله تعالى أن يكون الهوى متبعا، نبه على ما يجب اتباعه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ

---

(١) التفسير الكبير: ١٣/ ١٠.

رَبِّي﴾ أي في أنه لا معبود سواه، وكذبتم أنتم حيث أشركتم به غيره.

٢. كان رسول الله ﷺ يخوفهم بنزول العذاب عليهم بسبب هذا الشرك، والقوم لإصرارهم على الكفر كانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب، فقال تعالى قل يا محمد: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني قولهم ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] والمراد أن ذلك العذاب ينزله الله في الوقت الذي أراد إنزاله فيه، ولا قدرة لي على تقديمه أو تأخيره.

٣. ثم قال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وهذا مطلق يتناول الكل، والمراد هاهنا إن الحكم إلا لله فقط في تأخير عذابهم يقضي الحق أي القضاء الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي القاضين:

أ. احتج أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ بقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ على أنه لا يقدر العبد على أمر من الأمور إلا إذا قضى الله به، فيمتنع منه فعل الكفر إلا إذا قضى الله به وحكم به، وكذلك في جميع الأفعال، والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وهذا يفيد الحصر، بمعنى أنه لا حكم إلا لله.

ب. واحتج المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ بقوله: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ ومعناه أن كل ما قضى به فهو الحق، وهذا يقتضي أن لا يريد الكفر من الكافر، ولا المعصية من العاصي لأن ذلك ليس الحق.

٤. قراءات ووجوه:

أ. قرأ ابن كثير ونافع وعاصم ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بالصاد من القصص، يعني أن كل ما أنبأ الله به وأمر به فهو من أقاصيص الحق، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]

ب. وقرأ الباقون يقض الحق والمكتوب في المصاحف (يقض) بغير ياء لأنها سقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين كما كتبوا ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، وقوله: (يقضى الحق) قال الزجاج: فيه وجهان: جائز أن يكون ﴿الْحَقُّ﴾ صفة المصدر والتقدير: يقض القضاء الحق، ويجوز أن يكون يقض الحق يصنع الحق، لأن كل شيء صنعه الله فهو حق، وعلى هذا التقدير ﴿الْحَقُّ﴾ يكون مفعولا به وقضى بمعنى صنع، قال الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

أي صنعهما داوود واحتج أبو عمرو على هذه القراءة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ قال والفصل يكون في القضاء، لا في القصص، أجاب أبو علي الفارسي فقال القصص هاهنا بمعنى القول، وقد جاء الفصل في القول قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، وقال: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأعراف: ٣٢]

٥. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ المعنى ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ أي في قدرتي وإمكاني ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي، واقتصاصا من تكذيبكم به، ولتخلصت سريعا ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبما يجب في الحكمة من وقت عقابهم ومقداره، والمعنى: إني لا أعلم وقت عقوبة الظالمين، والله تعالى يعلم ذلك فهو يؤخره إلى وقته.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى، ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره، ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾:

أ. أي بالبينة لأنها في معنى البيان، كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء] على ما بيناه هناك، وقيل يعود على الرب، أي كذبتم بربي لأنه جرى ذكره.

ب. وقيل: بالعذاب.

ج. وقيل: بالقرآن.

٢. في معنى هذه الآية والتي قبلها ما أنشده مصعب بن عبد الله بن الزبير لنفسه، وكان شاعرا محسنا:

أأقعد بعد ما رجفت عظامي ... وكان الموت أقرب ما يليني
أجادل كل معترض خصيم ... وأجعل دينه غرضا لديني

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٣٨.

فأترك ما علمت لرأي غيري ... وليس الرأي كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهي شيء ... يصرف في الشمال وفي اليمين
وقد سنت لنا سنن قوام ... يلحن بكل فج أو وجئن
وكان الحق ليس به خفاء ... أغر كغرة الفلق المبين
وما عوض لنا منهاج جهم ... بمنهاج ابن آمنة الأمين
فأما ما علمت فقد كفاني ... وأما ما جهلت فجنبوني

٣. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾:

أ. أي العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الاسراء] ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال]

ب. وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها.

٤. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾:

أ. أي ما الحكم إلا لله في تأخير العذاب وتعجيله.

ب. وقيل: الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله.

٥. قراءات ووجوه: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي يقص القصص الحق، وبه استدلّ من منع المجاز في القرآن، وهي قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس، قال ابن عباس: قال الله تعالى: نحن نقص عليك أحسن القصص [يوسف]، والباقون (يقض الحق) بالضاد المعجمة، وكذلك قرأ علي ـ وأبو عبد الرحمن السلمي وسعيد بن المسيب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء، ولا ينبغي الوقف عليه، وهو من القضاء، ودل على ذلك أن بعده ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والفصل لا يكون إلا قضاء دون قصص، ويقوي ذلك قوله قبله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ ويقوي ذلك أيضا قراءة ابن مسعود (إن الحكم إلا لله يقضي بالحق) فدخول الباء يؤكد معنى القضاء، قال النحاس: هذا لا يلزم، لأن معنى ﴿يَقْضِي﴾ يأتي ويصنع فالمعنى: يأتي الحق، ويجوز أن يكون المعنى: يقضي القضاء الحق، قال مكي: وقراءة الصاد أحب إلي، لاتفاق الحرميين وعاصم على ذلك، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت في قراءة ابن

مسعود، قال النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم، لأن مثل هذه الباء تحذف كثيرا.،

٦. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضي الأمر إلى آخره، والاستعجال: تعجيل طلب الشيء قبل وقته، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بالمشركين وبوقت عقوبتهم.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ البينة: الحجّة والبرهان، أي إني على برهان من ربي ويقين، لا على هوى وشك، أمره الله سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية، لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التي لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة.

٢. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي بالربّ، أو بالعذاب، أو بالقرآن، أو بالبينة، والتذكير للضمير باعتبار المعنى، وهذه الجملة إما حالية بتقدير قد: أي والحال أن قد كذبتم به، أو جملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول الله ﷺ من الحجج الواضحة والبراهين البينة.

٣. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله، استهزاء، نحو قوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، وقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، وقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقيل: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من الآيات التي تقترحونها عليّ.

٤. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾: أي ما الحكم في كل شيء إلا لله سبحانه، ومن جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة، والمراد: الحكم الفاصل بين الحق والباطل.

٥. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم ﴿يَقُصُّ﴾ بالقاف والصاد المهملة، وقرأ الباقون يقضي بالضاد المعجمة والياء، وكذا قرأ عليّ وأبو عبد الرحمن السلمي وسعيد بن المسيب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء، فعلى القراءة الأولى: هو من القصص: أي يتبع الحق فيما يحكم به، وعلى القراءة الثانية: هو من القضاء: أي يقضي القضاء بين عباده، والحق منتصب على المفعولية، أو على أنه صفة لمصدر محذوف،

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤٠.

أي يقضي القضاء الحق، أو يقص القصص الحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي بين الحقّ والباطل بما يقضي به بين عباده ويفصله لهم في كتابه.

٦. ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقدورا لي وفي وسعي ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه لكم بسؤالي له وطلبي ذلك؛ أو المعنى: لو كان العذاب الذي تطلبونه وتستعجلون به عندي وفي قبضتي لأنزلته بكم، وعند ذلك يقضى الأمر بيني وبينكم.

٧. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبالوقت الذي ينزل فيه عذابهم وبما تقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجا لهم وإعذارا إليهم.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. زاد تأكيد المتقدِّم بقوله: ﴿قُلِ اِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي﴾ بيان واضح مميِّز بين الحقِّ والباطل، فأنا على يقين، أو البيِّنة: القرآن، أو الوحي والحجج العقليَّة فلا أخالف ذلك، ويقبح عليكم خلافه، واستقبح مخالفته بقوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ سواء جعلناه حالاً من ضمير (عَلَى بَيِّنَةٍ) أو من (رَبِّي)، أو من (بَيِّنَةٍ) الموصوف بقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾ بتقدير: (قَدْ) أو دونَه، و(مِنْ) للابتداء، أو للبيان، أي: على بيِّنة من معرفة ربِّي؛ أم جعلناه عطفًا على مدخول (قُلْ) لِصِحَّةِ: (قُلْ كذَّبتم به وما يحقُّ لكم التكذيب به)؛ لا على خبر (إِنَّ) لعدم صحَّة: (إنِّي كذَّبتم به)، ولا تثبت عندي واو الاستئناف.

٢. وهاء (بِهِ) لـ (رَبِّي)؛ أو للقرآن المعلوم من المقام؛ أو من (بَيِّنَةٍ)، لأنَّها القرآن أو البيان أو البرهان، أو التاء للمبالغة والأصل: (على أمر بيِّن)، كما تقول: فلان راوية فلان، ومعنى تكذيبهم لله تكذيبُهم وَحيَه، ومطلق إشراكٍ مَّا تكذيبٌ له سبحانه.

٣. وكان ﷺ يخوِّفهم على الإشراك بالعذاب، فكانوا يستعجلون به استهزاء، كقولهم: ﴿اللهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب، وقيل:

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٨١.

من الآيات المقترحة، وقضاء الأمر على قيام الساعة، وليس كذلك، كما أنَّه لا يحسن التفسير بأنَّه لو كان ذلك في حُكْمي لأهلكتكم عاجلاً غضبًا لرَبِّي تعالى.

٤. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله﴾ في تأخير العذاب الذي تستعجلونه فإنَّه تأخير لقضاء الله بتأخيره، وذلك أنَّ كلامهم على التأخير، أو: إن الحكم إلَّا لله في تأخيره واستعجاله، والمراد أوَّلاً بالذات: الكلام على تأخيره، أو إنِ الحكمُ في كلِّ شيءٍ إلَّا لله تعالى.

٥. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي: يذكره ولا يترك منه شيئًا مِمَّا كذَّبتم به، ذكرًا كقصِّ الأثر ـ وهو تتبُّعه ـ كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقيل: (يَقْضُّ) بمعنى: يقضي، كما قرأ به الكسائي، وقيل: بمعنى القول، كما جاء الفصل بمعنى القول، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ [التوبة: ١١]، والآية تدلُّ على أنَّه لا يقدر العبد على شيءٍ إلَّا إذا قضى الله تعالى به، كفرًا أو طاعة أو غيرهما.

٦. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الحاكمين ﴿قُل لَّوَ اَنَّ عِندِي﴾ أي: في حُكمي، أي: لو فُوِّض إليَّ من جهة ربِّي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الاَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُم﴾ بتعجيل العذاب الذي تستعجلونه غضبًا لرَبِّي لا انتقامًا لنفسي، فإنَّ كلَّ ما عندي أفعله لله لظهور حقِّه، وفي تعجيل العذاب استراحة غير مقصودة بالذَّات له ﷺ ، والاستعجال: مطالبة بالشيء قبل وقته، فلذلك كانت العجلة مذمومة، والإسراع: العملُ به في وقته، ولكن لم يكن عندي علم ذلك، والأمر إلى الله كما قال: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ بمن يُؤخذ منهم، وبوقت الأَخذِ، فلا قدرة لي على استعجال الأخذ، والإمهالُ رحمةٌ فقد يؤمن بعضٌ، أو يَلدُ مؤمنًا، وقيل: بحالهم، وقيل: بوقت عقوبة الظالمين.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ، لا يمكن التشكيك فيها ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ استئناف أو حال، والضمير للبينة، والتذكير باعتبار المعنى المراد، أعني: الوحي، أو

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٧٩.

القرآن، أو نحوهما، ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب.

٢. قال أبو السعود: استئناف مبين لخطئهم في شأن ما جعلوه منشأ لتكذيبهم بالبينة، وهو عدم مجيء ما وعد فيها من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بقولهم: العذاب الموعود في القرآن، وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه، في حكمي وقدرتي، حتى أجيء به، وأظهر لكم صدقه، أو ليس أمره بمفوّض إليّ.

٣. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: لو كان عندي لكنت أنا الحاكم، لكن ما الحكم في ذلك تعجيلا وتأخيرا إلا لله، وقد حكم بتأخيره، لما له من الحكمة العظيمة، لكنه محقق الوقوع لأنه ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي: يبينه بيانا شافيا، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: القاضين بين عباده.

٤. قرئ (يقض الحق) بالضاد، وانتصاب الحق على المصدرية، لأنه صفة مصدر محذوف قامت مقامه، أو على المفعولية، بتضمين (يقضي) معنى (ينفذ)، أو هو متعد من (قضى الدرع) إذا صنعها، قال الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما   داود أو صنع السّوابغ تبّع

قال الرازي: واحتج أبو عمر على هذه القراءة بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ قال والفصل يكون في القضاء، لا في القصص، وأجاب أبو عليّ الفارسي، فقال: القصص هاهنا بمعنى القول، وقد جاء الفصل في القول، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، وقال: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأعراف: ٣٢])، قال الشهاب: معنى (يقصه) أي يبيّنه بيانا شافيا، وهو عين القضاء.

٥. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: لو أن في قدرتي وإمكاني العذاب الذي تتعجلونه، بأن يكون أمره مفوضا إليّ من قبله تعالى، لقضي الأمر بيني وبينكم، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم:

أ. قال الخفاجي في (العناية): قضي الأمر بمعنى قطع، وقضاؤه كناية عن إهلاكهم.

ب. قال أبو السعود: وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل، الذي هو الله تعالى، وتهويل الأمر، ومراعاة حسن الأدب ـ ما لا يخفى، فما قيل في تفسيره: لأهلكتكم عاجلا، غضبا لربي، واقتصاصا من تكذيبكم به، ولتخلصت سريعا ـ بمعزل من توفية المقام حقه، ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾

اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية، من انتفاء كون أمر العذاب مفوضا إليه ﷺ، المستتبع لانتفاء قضاء الأمر، وتعليل له، والمعنى: والله تعالى أعلم بحال الظالمين، وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج، لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إليّ، فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب)

٦. سؤال وإشكال: ما الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: (لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال فناداني ملك الجبال، وسلّم عليّ، ثم قال يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين! فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)، هذا لفظ مسلم: فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأناهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا، ٧. سؤال وإشكال: قال ابن كثير: (هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه، حال طلبهم له، لأوقعه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال، أنه، إن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة، يكتنفانها جنوبا وشمالا، فلهذا استأني بهم، وسأل الرفق لهم)

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: قل لهم أيها الرسول أيضا: إني فيما أخالفكم فيه على بينة من ربي هداني إليها بالوحي والعقل، والبينة كل ما يتبين به الحق من الحجج والدلائل العقلية، والشواهد والآيات الحسية، ومنه تسمية شهادة الشهود بينة، والقرآن بينة مشتملة على أنواع كثيرة من البينات العقلية

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٧٨

والكونية، فهو على كونه من عند الله تعالى ـ للقطع بعجز الرسول كغيره عن الإتيان بمثله ـ مؤيد بالحجج والبينات المثبتة لما فيه من قواعد العقائد وأصول الهداية.

٢. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي والحال أنكم كذبتم به، أي بالقرآن الذي هو بينتي من ربي، فكيف تكذبون أنتم ببينة البينات على أظهر الحقائق وأبين الهدايات، ثم تطمعون أن أتبعكم على ضلال مبين لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد، وما كان التقليد بينة من البينات، وإنما هو براءة من الاستدلال، ورضاء بجهل الآباء والأجداد، فالكلام حجة مسكتة مبكتة على ما قبلها من نفي عبادته ﷺ للذين يدعونهم من دون الله، وقيل: إن المعنى وكذبتم بربي، أي: بآياته أو بدينه، وإلا فإن القوم كانوا يؤمنون بأن الله هو ربهم ورب السماوات والأرض وما بينهما، والقرآن ناطق بذلك، وفسر بعضهم التكذيب بالرب باتخاذ شريك له، ولم يكن اتخاذهم الشركاء تكذيبا بالربوبية؛ إذ لم يكونوا يقولون: إن غيره تعالى يخلق معه أو يرزق، وإنما كانوا يدعون غيره ليقربهم إليه ويشفع لهم عنده، وهذا الدعاء عبادة وشرك بالإلهية لا تكذيب بالربوبية.

٣. ولما ذكر بينته وتكذيبهم به قفى برد شبهة تخطر عند ذلك بالبال، ومن شأنها أن يقع عنها منهم السؤال، وهي أن الله أنذرهم عذابا يحل بهم إذا أصروا على عنادهم وكفرهم، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم، وقد استعجلوا النبي ﷺ ذلك، فكان عدم وقوعه شبهة لهم على صدق القرآن، لجهلهم بسنن الله تعالى في شئون الإنسان، فأمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي ليس عندما تطلبون أن يعجل الله لكم من وعيده، ولم أقل لكم: إن الله فوض أمره إلي حتى تطالبوني به وتعدون عدم إيقاعه حجة على تكذيبه.

٤. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ أي ما الحكم في ذلك وفي غيره من التصرف في شئون الأمم إلا لله وحده، وله في ذلك سنن حكيمة ومقادير منتظمة تجري عليها أفعاله وآجال مسماة تقع فيها، فلا يتقدم شيء عن أجله ولا يتأخر ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾

٥. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم (يقص) من القصص، وهو ذكر الخبر أو تتبع الأثر، أي يقص على رسوله القصص الحق في جميع أخباره ووعده ووعيده، أو يتتبع الحق ويصيبه في أقواله وأفعاله التي يتصرف بها في عباده، وقرأه الباقون (يقض) من القضاء وأصله يقضي بالياء فحذفت الياء في الخط كما حذفت في اللفظ لالتقاء الساكنين، ولما كانت المصاحف غير منقوطة كانت

الكلمة في المصحف الإمام هكذا (نقص) فاحتملت القراءتين، وحذف حرف المد الذي يسقط من اللفظ معهود في المصاحف، ومنه ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾، وقوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ومعناه يقضي في أمركم وغيره القضاء الحق، أو ينفذ الأمر ويفصله بالحق، وهو خير الفاصلين في كل أمر؛ لأنه الحكم العدل، المحيط علمه والنافذ حكمه في كل شيء، وتقدم تحقيق معنى القضاء في تفسير الآية الثانية من هذه السورة.

٦. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يستعجلونك بالعذاب كقولهم ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: (لو أن عندي ما تستعجلون به) بأن كان مما جعله الله في مكنتي وتصرفي بقدرتي الكسبية أو بجعله آية خاصة بي (لقضي الأمر بيني وبينكم) بإهلاكي للظالمين منكم الذين يصدونني عن تبليغ دعوة ربي ويصدون الناس عني، فإن الإنسان خلق من عجل، وإنما أستعجل أنا بإهلاك الظالمين منكم ما وعدني ربي من نصر المؤمنين المصلحين المظلومين، وخذلان الكافرين المفسدين الظالمين، وهو استعجال للخير، وأنتم تستعجلون الشر لأنفسكم، وتقطعون عليها طريق الهداية بإمهال الله لكم.

٧. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ الذين تمكن الظلم من أنفسهم، وأحاط بها، فلا رجاء برجوعهم عنه إلى الإيمان والحق والعدل، وبمن ألم بهم الظلم أو ألموا به، لكنه لم يمح نور الفطرة من أنفسهم، ولم يذهب باستعدادهم للاهتداء إلى الحق الذي أدعوهم إليه، ولما كان سبحانه وتعالى أعلم بالظالمين لم يجعل أمر عقابهم إلي، فهو عنده لا عندي، ولكل من عذاب الدنيا والآخرة أجل مسمى عنده، يراه قريبا وترونه بعيدا، وأيامه تعالى في عالم التكوين وشئون الأمم ليست قصيرة كأيامنا بل طويلة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، فهو لا يؤخر ما وعد به إلى الأجل المسمى عنده إلا لحكمة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

٨. هذا ما ظهر لنا في قضاء الأمر على تقدير كون ما يستعجلون به في مكنته ﷺ وليس المراد به إن كان يهلكهم كلهم كما هلكت الأمم التي كذبت الرسل من قبلهم، أي: ليس المراد بما يقضي من الأمر هنا عذاب الاستئصال ولا عذاب الآخرة، وإن كانوا قد استعجلوا كلا منهما، بل نصر الرسول عليهم، وفي

قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بإسناد الفعل إلى المفعول إشارة إلى أنه لو كان عنده ﷺ وقضي لما قضي إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي قل لهم أيها الرسول إني فيما أخالفكم فيه على بينة من ربى أي على بيان قد تبينته، وبرهان قد وضح لي من ربى بالوحى والعقل، إذ القرآن بينة مشتملة على ضروب كثيرة من البينات العقلية والكونية التي يعجز الرسول عن الإتيان بمثلها.

٢. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي والحال أنكم كذبتم به أي بالقرآن الذي هو بينتى من ربى، ومن عجيب أمركم أنكم تكذبون ببينة البينات، ثم تطمعون أن أتبعكم على ضلال من أمركم لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد، والتقليد براءة من الاستدلال، ورضا بجهل الآباء والأجداد، وفى هذا حجة دامغة، وبينة ناصعة على ما قبله، من نفى عبادته ﷺ للذين يدعونهم من دون الله.

٣. وبعد أن بين تكذيبهم به قفّى عليه برد شبهة تخطر حينئذ بالبال، وهي أن الله أنذرهم عذابا يحلّ بهم إذا أصروا على عنادهم وكفرهم، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم وقد استعجلوا النبي ﷺ ذلك فكان عدم وقوعه شبهة لهم على صدق القرآن، إذ هم يجهلون سنة الله في شئون الإنسان، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي ما الذي تستعجلون به من نقم الله وعذابه بيدي ولا أنا على ذلك بقادر، ولم أقل لكم إن الله فوض أمره إليّ حتى تطالبونى به، وتعدّون عدم إيقاعه عليهم حجة على تكذيبه.

٤. ثم أكد ما سبق بقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في هذا وفى غيره من التصرف في شئون الأمم إلا لله وحده، وله في ذلك سنن حكيمة تجرى عليها أفعاله وأحكامه، فلا يتقدم شيء منها عن ميقاته ولا يتأخر: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾

٥. ثم بين سبحانه أن كل ما قصه على رسوله فهو حق لا شبهة فيه فقال: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي يقص على رسوله القصص الحق في وعده ووعيده وجميع أخباره، وهو خير الحاكمين في

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٤٢.

كل أمر، فهو لا يقع في حكمه وقضائه حيف إلى أحد ولا جور وهو النافذ حكمه في كل شيء والمحيط علمه بكل شيء.

٦. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب بقولهم: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، لو أن عندي ما تستعجلون به بأن مكننى الله من التصرف فيه وجعله من قدرتى الكسبية، لقضى الأمر بيني وبينكم فأهلكتكم عاجلا غضبا لربى، واقتصاصا من تكذيبكم، ولتخلصت منكم سريعا لصدكم عن تبليغ دعوة ربى، وصدكم الناس عنى، وقد وعدني ربى بنصر المؤمنين المصلحين، وخذلان الكافرين المفسدين.

٧. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ الذين لا رجاء في رجوعهم عن الظلم إلى الإيمان والحق والعدل، ومن ثم لم يجعل أمر عقابهم إلى، بل جعله عنده ووقّت له ميقاتا هو أعلم به، ترونه بعيدا ويراه قريبا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي على أمر واضح مشرق من صلتى بربّى ومعرفتى به، تلك المعرفة التي لا يدخل عليها شك أو ريب، ولا يلحقها وهن أو ضعف.. وحرف (على) هنا يفيد الاستعلاء والتمكن، وهذا يعنى أن معرفة النبيّ بربّه معرفة كاملة، تملأ القلب يقينا واطمئنانا، فلا يتحول عنها أبدا.

٢. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ هو عطف على قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ من عطف الجمل.. أي إني على معرفة بربّى وقد آمنت به، وأنتم على ضلال وعمى فكذبتم به، ولم تتخذوه إلها واحدا تعبدونه.

٣. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي ليس في يدىّ العذاب الذي تستعجلونه، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النمل: ٥٣].. وما حكاه سبحانه وتعالى على لسانهم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٩٩.

أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]

٤. وقوله سبحانه ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ أي أن إلى الله سبحانه مرجع هذا الذي تستعجلون به من عذاب، إن شاء عجّل لكم العذاب، وإن شاء أخره، وإن شاء رحمكم وأخذ بكم إلى طريق الهدى.. أما أنا فلا أملك من هذا كله شيئا.. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي يقضى به، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ فما قضى به فهو الخير كله، وهو العدل كله.

٥. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إشارة إلى أن النبي ﷺ لو كان في يده هذا المقترح الذي يقترحونه عليه، ليكون آية صدقه عندهم، لجاءهم به، ولأرسل عليهم العذاب الذي طلبوه، ولقضى الأمر بينه وبينهم، ولم يعد ثمّة جدال، أو خلاف.. ولكن الأمر بيد الله، وهو حكيم حليم، لا يعجّل لكم ما تطلبون، مما فيه هلاككم، وقد اقتضت حكمته أن يمهلكم، فلعل في امتداد الزمن بكم ما يفسح المجال أمام الكثير منكم، ليهتدي ويؤمن بالله، ويفوز برضوانه.. فكل يوم يمر بكم دون أن يأتيكم هذا العذاب الذي تطلبونه، هو رحمة من الله بكم، ودعوة مجدّدة منه سبحانه إليكم، أن ترجعوا إليه، وتؤمنوا به، وتكونوا في عباده المخلصين.. وهذه فرصتكم.. إن أفلتت منكم فلن تعود أبدا.

٦. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد ووعيد لهؤلاء الذين أمهلهم الله، ولم يعجل لهم العذاب، ليصححوا عقيدتهم، ويرجعوا إلى ربهم.. ولكن الظالمين ظلوا على عتوّهم، وكفرهم، وعنادهم.. والله عليم بهم، وسيأخذهم بذنوبهم: ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من إبطال الشرك بدليل الوحي الإلهي المؤيّد للأدلّة السابقة إلى إثبات صدق الرسالة بدليل من الله مؤيّد للأدلّة السابقة أيضا، ليبأسوا من محاولة إرجاع الرسول ﷺ عن دعوته إلى الإسلام وتشكيكه في وحيه بقولهم: ساحر، مجنون، شاعر، أساطير الأولين،

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٣١.

وليبأسوا أيضا من إدخال الشكّ عليه في صدق إيمان أصحابه، وإلقاء الوحشة بينه وبينهم بما حاولوا من طرده أصحابه عن مجلسه حين حضور خصومه، فأمره الله أن يقول لهم إنّه على يقين من أمر ربّه لا يتزعزع، وعطف على ذلك جواب عن شبهة استدلالهم على تكذيب الوعيد بما حلّ بالأمم من قبلهم بأنّه لو كان صدقا لعجّل لهم العذاب، فقد كانوا يقولون: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ويقولون: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، فقال الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨]، وأكّد الجملة بحرف التأكيد لأنّهم ينكرون أن يكون على بيّنه من ربّه.

٢. وإعادة الأمر بالقول لتكرير الاهتمام الذي تقدّم بيانه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]

٣. والبيّنة في الأصل وصف مؤنّث بيّن، أي الواضحة، فهي صفة جرت على موصوف محذوف للعلم به في الكلام، أي دلالة بيّنة أو حجّة بيّنة، ثم شاع إطلاق هذا الوصف فصار اسما للحجّة المثبتة للحقّ التي لا يعتريها شك، وللدلالة الواضحة، وللمعجزة أيضا، فهي هنا يجوز أن تكون بمعنى الدلالة البيّنة، أي اليقين، وهو أنسب بـ ﴿عَلَى﴾ الدالة على التمكّن، كقولهم: فلان على بصيرة، أي أنّي متمكّن من اليقين في أمر الوحي، ويجوز أن يكون المراد بالبيّنة القرآن، وتكون (على) مستعملة في الملازمة مجازا مرسلا لأنّ الاستعلاء يستلزم الملازمة، أي أنّي لا أخالف ما جاء به القرآن.

٤. و﴿مِنْ رَبِّي﴾ صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ يفيد تعظيمها وكمالها، و(من) ابتدائية، أي بيّنة جائية إليّ من ربّي، وهي الأدلّة التي أوحاها الله إليه وجاء بها القرآن وغيره، ويجوز أن تكون (من) اتّصالية، أي على يقين متّصل بربّي، أي بمعرفته توحيده، أي فلا أتردّد في ذلك فلا تطمعوا في صرفي عن ذلك، أي أنّي آمنت بإله واحد دلّت على وجوده ووحدانيته دلائل خلقه وقدرته، فأنا موقن بما آمنت به لا يتطرّقني شك، وهذا حينئذ مسوق مساق التعريض بالمشركين في أنّهم على اضطراب من أمر آلهتهم وعلى غير بصيرة.

٥. وجملة ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ في موضع الحال من ﴿بَيِّنَةٍ﴾، وهي تفيد التعجّب منهم أن كذّبوا بما دلّت عليه البيّنة، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، أي أنا على بيّنة وأنتم كذّبتم بما دلّت عليه البيّنات فشتّان بيني وبينكم.

٦. والضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ يعود إلى البيّنة باعتبار تأويلها بالبيان أو باعتبار أن ما صدقها اليقين أو القرآن على وجه جعل (من) ابتدائية، أي وكذّبتم باليقين مكابرة وعنادا، ويعود إلى ربّي على وجه جعل (من) اتّصالية، أي كنت أنا على يقين في شأن ربّي وكذّبتم به مع أنّ دلائل توحيده بيّنة واضحة، ويعود إلى غير مذكور في الكلام، وهو القرآن لشهرة التداول بينهم في شأنه فإذا أطلق ضمير الغائب انصرف إليه بالقرينة.

٧. والباء التي عدّي بها فعل ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ هي لتأكيد لصوق معنى الفعل بمفعوله، كما في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، فلذلك يدلّ فعل التكذيب إذا عدّي بالباء على معنى الإنكار، أي التكذيب القويّ، ولعلّ الاستعمال أنّهم لا يعدّون فعل التكذيب بالباء إلّا إذا أريد تكذيب حجّة أو برهان ممّا يحسب سبب تصديق، فلا يقال: كذّبت بفلان، بل يقال: كذّبت فلانا قال تعالى: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]، والمعنى التعريضيّ بهم في شأن اعتقادهم في آلهتهم باق على ما بيّنّاه.

٨. وقوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ استئناف بياني لأنّ حالهم في الإصرار على التكذيب ممّا يزيدهم عنادا عند سماع تسفيه أحلامهم وتنقّص عقائدهم فكانوا يقولون: لو كان قولك حقّا فأين الوعيد الذي توعّدتنا، فإنّهم قالوا: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] فأمر بأن يجيب أن يقول ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، والاستعجال طلب التعجيل بشيء فهو يتعدّى إلى مفعول واحد، وهو المطلوب منه تعجيل شيء فإذا أريد ذكر الأمر المعجّل عدّي إليه بالباء، والباء فيه للتعدية، والمفعول هنا محذوف دلّ عليه قوله: ﴿مَا عِنْدِي﴾، والتقدير: تستعجلونني به، وأمّا قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] فالأظهر أنّ ضمير الغائب عائد لاسم الجلالة، وسيأتي في أوّل سورة النحل.

٩. ومعنى ﴿مَا عِنْدِي﴾ أنّه ليس في مقدرتي، كما يقال: ما بيدي كذا، فالعندية مجاز عن التصرّف بالعلم والمقدرة، والمعنى: أنّي لست العليم القدير، أي لست إلها ولكنّني عبد مرسل أقف عندما أرسلت به، وحقيقة (عند) أنّها ظرف المكان القريب، وتستعمل مجازا في استقرار الشيء لشيء وملكه إيّاه، كقوله:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وتستعمل مجازا في الاحتفاظ بالشيء كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥] ﴿وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ولا يحسن في غير ذلك.

١٠. والمراد بـ ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ العذاب المتوعّد به، عبّر بطريق الموصولية لما تنبئ به الصلة من كونه مؤخّرا مدّخرا لهم وأنّهم يستعجلونه وأنّه واقع بهم لا محالة، لأنّ التعجيل والتأخير حالان للأمر الواقع؛ فكان قوله: ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في نفسه وعيدا، وقد دلّ على أنّه بيد الله وأنّ الله هو الذي يقدّر وقته الذي ينزل بهم فيه، لأنّ تقديم المسند الظرف أفاد قصر القلب، لأنّهم توهّموا من توعّد النبي ﷺ إيّاهم أنّه توعّدهم بعقاب في مقدرته، فجعلوا تأخّره إخلافا لتوعّده، فردّ عليهم بأنّ الوعيد بيد الله، كما سيصرّح به في قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾، فقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ تصريح بمفهوم القصر، وتأكيد له، وعلى وجه كون ضمير ﴿بِهِ﴾ للقرآن، فالمعنى كذّبتهم بالقرآن وهو بيّنة عظيمة، وسألتم تعجيل العذاب تعجيزا لي وذلك ليس بيدي.

١١. وجملة ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ حال من اسم الجلالة أو استئناف، أي هو أعلم بالحكمة في التأخير أو التعجيل.

١٢. قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو جعفر ﴿يَقُصُّ﴾ - بضمّ القاف وبالصاد المهملة - فهو من الاقتصاص، وهو اتّباع الأثر، أي يجري قدره على أثر الحقّ، أي على وفقه؛ أو هو من القصص، وهو الحكاية أي يحكي بالحق، أي أنّ وعده واقع لا محالة فهو لا يخبر إلّا بالحق، و﴿الْحَقُّ﴾ منصوب على المفعولية به على الاحتمالين، وقرأ الباقون يقض - بسكون القاف وبضاد معجمة مكسورة - على أنّه مضارع (قضى)، وهو في المصحف بغير ياء، فاعتذر عن ذلك بأنّ الياء حذفت في الخطّ تبعا لحذفها في اللفظ في حال الوصل، إذ هو غير محلّ وقف، وذلك ممّا أجري فيه الرسم على اعتبار الوصل على النادر كما كتب ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، قال مكّي قراءة الصّاد (أي المهملة) أحبّ إليّ لاتّفاق الحرميين (أي نافع وابن كثير) عليها ولأنّه لو كان من القضاء للزمت الباء الموحّدة فيه، يعني أن يقال: يقص بالحق، وتأويله بأنّه نصب على نزع الخافض نادر، وأجاب الزّجاج بأنّ ﴿الْحَقُّ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، أي القضاء الحقّ، وعلى هذه القراءة ينبغي أن لا يوقف عليه لئلّا يضطرّ الواقف إلى إظهار الياء فيخالف الرسم المصحفي.

١٣. وجملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي يقصّ ويخبر بالحقّ، وهو خير من يفصل بين الناس، أو

يقضي بالحقّ، وهو خير من يفصل القضاء، والفصل يطلق بمعنى القضاء، قال عمر في كتابه إلى أبي موسى (فإنّ فصل القضاء يورث الضغائن)، ويطلق بمعنى الكلام الفاصل بين الحقّ والباطل، والصواب والخطأ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، فمعنى ﴿خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ يشمل القول الحقّ والقضاء العدل.

١٤. ﴿قُل لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ استئناف بياني لأنّ قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] يثير سؤالا في نفس السامع أن يقول: فلو كان بيدك إنزال العذاب بهم ماذا تصنع، فأجيب بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ الآية، وإذ قد كان قوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ استئنافا بيانيا فالأمر بأن يقوله في قوة الاستئناف البياني لأنّ الكلام لمّا بني كلّه على تلقين الرسول ما يقوله لهم فالسائل يتطلّب من الملقّن ماذا سيلقّن به رسوله إليهم، ومعنى ﴿عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ تقدّم آنفا، أي لو كان في علمي حكمته وفي قدرتي فعله، وهذا كناية عن معنى لست إلها ولكنّني عبد أتّبع ما يوحى إليّ.

١٥. وقوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾، فمعنى ﴿لَقُضِيَ﴾ تمّ وانتهى، والأمر مراد به النزاع والخلاف، فالتعريف فيه للعهد، وبني ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ للمجهول لظهور أنّ قاضيه هو من بيده ما يستعجلون به.

١٦. وتركيب (قضي الأمر) شاع فجرى مجرى المثل، فحذف الفاعل ليصلح التمثّل به في كلّ مقام، ومنه قوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩]؛ ولذلك إذا جاء في غير طريقة المثل يصرّح بفاعله كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]

١٧. وذلك القضاء يحتمل أمورا: منها أن يأتيهم بالآية المقترحة فيؤمنوا، أو أن يغضب فيهلكهم، أو أن يصرف قلوبهم عن طلب ما لا يجيبهم إليه فيتوبوا ويرجعوا.

١٨. وجملة: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ تذييل، أي الله أعلم منّي ومن كلّ أحد بحكمة تأخير العذاب وبوقت نزوله، لأنّه العليم الخبير الذي عنده ما تستعجلون به، والتعبير ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ إظهار في مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنّهم ظالمون في شركهم إذ اعتدوا على حقّ الله، وظالمون في تكذيبهم إذ اعتدوا على

حقّ الله ورسوله، وظالمون في معاملتهم الرسول ﷺ.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره، ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي بالبينة لأنها في معنى البيان؛ كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء]، وقيل يعود على الرب، أي كذبتم بربى لأنه جرى ذكره، وقيل: بالعذاب، وقيل: بالقرآن.

٢. وفى معنى هذه الآية والتي قبلها ما أنشده مصعب بن عبد الله بن الزبير لنفسه، وكان شاعرا محسنا:

أأقعد بعد ما رجفت عظامى ... وكان الموت أقرب ما يلينى
أجادل كلّ معترض خصيم ... وأجعل دينه غرضا لدينى
فأترك ما علمت لرأى غيرى ... وليس الرأي كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهي شيء ... يصرّف في الشّمال وفى اليمين
وقد سنّت لنا سنن قوام ... يلحن بكلّ فجّ أو وجين
وكان الحقّ ليس به خفاء ... أغرّ كغرّة القلق المبين
وما عوض لنا منهاج جهم ... بمنهاج ابن آمنة الأمين
فأمّا ما علمت فقد كفانى ... وأمّا ما جهلت فجنّبونى

٣. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي العذاب؛ فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء]، ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال]، وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها.

٤. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم إلا لله في تأخير العذاب وتعجيله، وقيل: الحكم الفاصل بين

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٢٠.

الحق والباطل لله.

٥. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي يقص القصص الحق؛ وبه استدلّ من منع المجاز في القرآن، وهي قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس؛ قال ابن عباس: قال الله عزّ وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف]، والباقون يقضى الحق بالضاد المعجمة، وكذلك قرأ علي وأبو عبد الرحمن السّلمى وسعيد بن المسيّب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء، ولا ينبغي الوقف عليه، وهو من القضاء؛ ودل على ذلك أن بعده ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والفصل لا يكون إلا قضاء دون قصص، ويقوّى ذلك قوله قبله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ويقوى ذلك أيضا قراءة ابن مسعود (إن الحكم إلا لله يقضى الحق) فدخول الباء يؤكد معنى القضاء، قال النحاس: هذا لا يلزم؛ لأن معنى (يقضى) يأتي ويصنع فالمعنى: يأتي الحق، ويجوز أن يكون المعنى: يقضى القضاء الحق، قال مكيّ: وقراءة الصاد أحب إليّ؛ لاتفاق الحرميين وعاصم على ذلك، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت في قراءة ابن مسعود، قال النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن مثل هذه الباء تحذف كثيرا.

٦. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضي الأمر إلى آخره، والاستعجال: تعجيل طلب الشيء قبل وقته ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بالمشركين وبوقت عقوبتهم.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾، البينة هو الدلالة الواضحة من البيان وهو الوضوح، والأصل في معنى هذه المادة هو انعزال شيء عن شيء وانفصاله عنه بحيث لا يتصلان ولا يختلطان، ومنه البين والبون والبينونة وغير ذلك، قد سميت البينة بينة لأن الحق يبين بها عن الباطل فيتضح ويسهل الوقوف عليه من غير تعب ومئونة.

٢. والمراد بمرجع الضمير في قوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ هو القرآن وظاهر السياق أن يكون التكذيب إنما تعلق بالبينة التي هو ﷺ عليها على ما هو ظاهر اتصال المعنى، ويؤيده قوله بعده: ﴿مَا عِنْدِي مَا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١١٥.

تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، فإن المحصل من الكلام مع انضمام هذا الذيل: أن الذي أيد الله به رسالتي من البينات وهو القرآن تكذبون به، والذي تقترحونه علي وتستعجلون به من الآيات ليس في اختياري ولا مفوضا أمره إلي فليس بيننا ما نتوافق فيه لما أني أوتيت ما لا تريدون وأنتم تريدون ما لم أوت.

٣. فمن هنا يظهر أن الضمير المجرور في قوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ راجع إلى البينة لكون المراد به القرآن، وأن قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أريد به نفي التسلط على ما يستعجلون به بالتكنية فإن الغالب فيما يقدر الإنسان عليه وخاصة في باب الإعطاء والإنفاق أن يكون ما يعطيه وينفقه حاضرا عنده أو مذخورا لديه وتحت تسلطه ثم ينفق منه ما ينفق فقد أريد بقوله: ﴿مَا عِنْدِي﴾ نفي التسلط والقدرة من باب نفي الملزوم بنفي اللازم.

٤. وقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، بيان لسبب النفي، ولذلك جيء فيه بالنفي والاستثناء المفيد للحصر ليدل بوقوع النفي على الجنس على أن ليس لغيره تعالى من سنخ الحكم شيء قط وأنه إلى الله سبحانه فحسب.

٥. كلام في معنى الحكم وأنه لله وحده:

أ. مادة الحكم تدل على نوع من الإتقان يتلاءم به أجزاء وينسد به خلله وفرجه فلا يتجزى إلى الأجزاء ولا يتلاشى إلى الأبعاض حتى يضعف أثره وينكسر سورته، وإلى ذلك يرجع المعنى الجامع بين تفاريق مشتقاته كالإحكام والتحكيم والحكمة والحكومة وغير ذلك.

ب. وقد تنبه الإنسان على نوع تحقق من هذا المعنى في الوظائف المولوية والحقوق الدائرة بين الناس فإن الموالي والرؤساء إذا أمروا بشيء فكأنما يعقدون التكليف على المأمورين ويقيدونهم به عقدا لا يقبل الحل وتقييدا لا يسعهم معه الانطلاق، وكذلك مالك سلعة كذا أو ذو حق في أمر كذا كان بينه وبين سلعته أو الأمر الذي فيه نوعا من الالتيام والاتصال الذي يمنع أن يتخلل غيره بينه وبين سلعته بالتصرف أو بينه وبين مورد حقه فيقصر عنه يده، فإذا نازع أحد مالك سلعة في ملكها كأن ادعاه لنفسه أو ذا الحق في حقه فأراد إبطال حقه فقد استوهن هذا الإحكام وضعف هذا الإتقان ثم إذا عقد الحكم أو القاضي الذي رفعت إليه القضية الملك أو الحق لأحد المتنازعين فقد أوجد هناك حكما أي إتقانا بعد فتور، وقوة إحكاما بعد ضعف ووهن، وقوله: ملك السلعة لفلان أو الحق في كذا لفلان حكم يرتفع به غائلة النزاع والمشاجرة،

ولا يتخلل غير المالك وذي الحق بين الملك والحق وبين ذيهما، وبالجملة الآمر في أمره والقاضي في قضائه كأنهما يوجدان نسبة في مورد الأمر والقضاء يحكمانه بها ويرفعان به وهنا وفتورا، وهو الذي يسمى الحكم.

ج. فهذه سبيل تنبه الناس لمعنى الحكم في الأمور الوضعية الاعتبارية ثم رأوا أن معناه يقبل الانطباق على الأمور التكوينية الحقيقية إذا نسبت إلى الله سبحانه من حيث قضائه وقدره فكون النواة مثلا تنمو في التراب ثم تنبسط ساقا وأغصانا وتورق وتثمر وكون النطفة تتبدل جسما ذا حياة وحس وهكذا كل ذلك حكم من الله سبحانه وقضاء، فهذا ما نعلقه من معنى الحكم وهو إثبات شيء لشيء أو إثبات شيء عند شيء.

د. ونظرية التوحيد التي يبني عليها القرآن الشريف بنيان معارفه لما كانت تثبت حقيقة التأثير في الوجود لله سبحانه وحده لا شريك له، وإن كان الانتساب مختلفا باختلاف الأشياء غير جار على وتيرة واحدة كما ترى أنه تعالى ينسب الخلق إلى نفسه ثم ينسبه في موارد مختلفة إلى أشياء مختلفة بنسب مختلفة، وكذلك العلم والقدرة والحياة والمشية والرزق والحسن إلى غير ذلك، وبالجملة لما كان التأثير له تعالى كان الحكم الذي هو نوع من التأثير والجعل له تعالى سواء في ذلك الحكم في الحقائق التكوينية أو في الشرائع الوضعية الاعتبارية.

هـ. وقد أيد كلامه تعالى هذا المعنى كقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله﴾: (الأنعام: ٥٧ يوسف: ٦٧) وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١] ولو كان لغيره تعالى حكم لكان له أن يعقب حكمه ويعارض مشيته، وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لله الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمن: ١٢] إلى غير ذلك، فهذه آيات خاصة أو عامة تدل على اختصاص الحكم التكويني به تعالى.

و. ويدل على اختصاص خصوص الحكم التشريعي به تعالى قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠] فالحكم لله سبحانه لا يشاركه فيه غيره على ظاهر ما يدل عليه ما مر من الآيات غير أنه تعالى ربما ينسب الحكم وخاصة التشريعي منه في كلامه إلى غيره كقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقوله لداود عليه السلام: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، وقوله للنبي ﷺ: ﴿أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾: [المائدة: ٤٩]،

وقوله: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات وضمها إلى القبيل الأول يفيد أن الحكم الحق لله سبحانه بالأصالة وأولا لا يستقل به أحد غيره، ويوجد لغيره بإذنه وثانيا، ولذلك عد تعالى نفسه أحكم الحاكمين وخيرهم لما أنه لازم الأصالة والاستقلال الأولية فقال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]

ز. والآيات المشتملة على نسبة الحكم إلى غيره تعالى بإذن ونحوه ـ كما ترى ـ تختص بالحكم الوضعي الاعتباري، وأما الحكم التكويني فلا يوجد فيها ـ على ما أذكر ـ ما يدل على نسبته إلى غيره وإن كانت معاني عامة الصفات والأفعال المنسوبة إليه تعالى لا تأبى عن الانتساب إلى غيره نوعا من الانتساب بإذنه ونحوه كالعلم والقدرة والحياة والخلق والرزق والإحياء والمشية وغير ذلك في آيات كثيرة لا حاجة إلى إيرادها.

ح. ولعل ذلك مراعاة لحرمة جانبه تعالى لإشعار الصفة بنوع من الاستقلال الذي لا مسوغ لنسبته إلى هذه الأسباب المتوسطة كما أن القضاء والأمر التكوينيين كذلك، ونظيرتها في ذلك ألفاظ البديع والبارئ والفاطر وألفاظ أخر يجري مجراها في الإشعار بمعاني تنبئ عن نوع من الاختصاص، وإنما كف عن استعمالها في غير مورده تعالى رعاية لحرمة ساحة الربوبية.

٦. لنرجع إلى ما كنا فيه من تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أريد بالحكم فيه القضاء التكويني، والجملة تعليل للنفي في قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ والمعنى ـ على ما يعطيه السياق ـ أن الحكم لله وحده وليس إلي أن أقضي بيني وبينكم، وهو الذي تستعجلون به باستعجالكم بما تقترحون علي من الآية.

٧. وعلى هذا فقوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ مستعمل استعمال الكناية كأنهم باقتراحهم إتيان آية أخرى غير القرآن كانوا يقترحون عليه ﷺ أن يقضي بينه وبينهم ولعل هذا هو السر في تكرار لفظ الموصول والصلة في الآية التالية حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ وكان مقتضى ظاهر السياق أن يقال: لو أن عندي ذلك، وذلك أنه أريد بقوله: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ في الآية الأولى: لازم الآية وهو القضاء بينه وبينهم على ما جرت به السنة الإلهية، وفي الآية الثانية: نفس الآية، ومن المحتمل أيضا أن يكون أمر الكناية بالعكس من ذلك فيكون المراد بما تستعجلون به هو القضاء بالصراحة في الآية

الأولى، والآية بالتكنية في الآية الثانية.

٨. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ قرأ عاصم ونافع وابن كثير من السبعة بالقاف والصاد المهملة من القص وهو قطع شيء وفصله من شيء ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] وقرأ الباقون بالقاف والضاد المعجمة من القضاء، وقد حذف الياء من الرسم على حد قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥] ولكن من القراءتين وجه، ومآلهما من حيث المعنى واحد فإن قص الحق وفصله من الباطل لازم القضاء والحكم بالحق وإن كان قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أنسب مع القص بمعنى الفصل.

٩. وأما أخذ قوله: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ من القص بمعنى الإخبار عن الشيء أو بمعنى تتبع الأثر على ما احتمله بعض المفسرين فمما لا يلائم المورد:

أ. أما الأول فلأن الله سبحانه وإن قص في كلامه كثيرا قصص الأنبياء وأممهم غير أن المقام خال عن ذلك فلا موجب لذكر هذا النعت له وتوصيفه تعالى به.

ب. وأما الثاني فلأن محصل معناه أن سنته تعالى أن يتبع الحق ويقتفي أثره في تدبير مملكته وتنظيم أمور خليقته، والله سبحانه وإن كان لا يحكم إلا الحق ولا يقضي إلا الحق إلا أن أدب القرآن الحكيم يأبى عن نسبة الاتباع والاقتفاء إليه تعالى، وقد قال تعالى فيما قال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠] ولم يقل: الحق مع ربك، لما في التعبير بالمعية من شائبة الاعتضاد والتأيد والإيهام إلى الضعف.

١٠. كلام في معنى حقيقة فعله وحكمه تعالى[١]:

أ. فعله وحكمه تعالى نفس الحق لا مطابق للحق موافق له، بيان ذلك أن الشيء إنما يكون حقا إذا كان ثابتا في الخارج واقعا في الأعيان من غير أن يختلقه وهم أو يصنعه ذهن كالإنسان الذي هو أحد الموجودات الخارجية والأرض التي يعيش عليها والنبات والحيوانات التي يغتذي بها، والخبر إنما يكون حقا إذا طابق الواقع الثابت في نفسه مستقلا عن إدراكنا والحكم والقضاء إنما يكون حقا إذا وافق السنة الجارية في الكون فإذا أمر الآمر بشيء أو قضى القاضي بشيء فإنما يكون حكم هذا وقضاء ذاك حقا مطلقا

(١) تقسيم الفروع هنا ليس منهجيا، وإنما من باب التبسيط فقط

إذا وافق المصلحة المطلقة المأخوذة من السنة الجارية في الكون، ويكون حقا نسبيا إذا وافق المصلحة النسبية المأخوذة من سنة الكون بالنسبة إلى بعض أجزائه من غير نظر إلى النظام العام العالمي.

ب. فإذا أمرنا آمر بالتزام العدل أو اجتناب الظلم فإنها يعد ذلك حقا لأن نظام الكون يهدي الأشياء إلى سعادتها وخيرها، وقد قضى على الإنسان أن يعيش اجتماعيا، وقضى على كل مجتمع مركب من أجزاء أن يتلاءم أجزاؤه ولا يزاحم بعضها بعضا، ولا يفسد طرف منه طرفا، حتى ينال ما قسم له من سعادة الوجود، ويتوزع ذلك بين أجزائه المجتمعين، فمصلحة هذا النوع المطلقة هي سعادته في الحياة، ويطابقها الأمر بالعدل والنهي عن الظلم فكل منهما حكم حق، ولا يطابقها الأمر بالظلم والنهي عن العدل فهما من الباطل، والتوحيد حق لأنه يهدي إلى سعادة الإنسان في حياته الحقيقية، والشرك باطل لأنه يجر الإنسان إلى شقاء مهلك وعذاب خالد.

ج. وكذلك القضاء بين متخاصمين إنما يكون حقا إذا وافق الحكم المشروع المراعى فيه المصلحة الإنسانية المطلقة أو مصلحة قوم خاص أو أمة خاصة، والمصلحة الحقيقية ـ كما عرفت ـ مأخوذة من السنة الجارية في الكون مطلقا أو نسبيا.

د. فقد تبين أن الحق أيا ما كان إنما هو مأخوذ من الكون الخارجي والنظام المنبسط عليه والسنة الجارية فيه، ولا ريب أن الكون والوجود مع ما له من النظام والسنن والنواميس فعله سبحانه منه يبتدئ وبه يقوم، وإليه ينتهي، فالحق أيا ما كان والمصلحة كيفما فرضت يتبعان فعله ويقتفيان أثره، ويثبتان بالاستناد إليه لا أنه تعالى يتبع الحق في فعله ويقفو أثره فهو تعالى حق بذاته وكل ما سواه حق به.

هـ. ونحن معاشر الآدميين لما كنا نطلب بأفعالنا الاختيارية تتميم نواقص وجودنا ورفع حوائج حياتنا، وكانت أفعالنا ربما طابقت سعادتنا المطلوبة لنا وربما خالفت اضطررنا في ذلك إلى رعاية جانب المصلحة التي نذعن بأنها مصلحة أي فيها صلاح حالنا وسعادة جدنا وأدى ذلك إلى الإذعان بقوانين جارية وأحكام عامة، واعتبار شرائع وسنن اجتماعية لازمة المراعاة واجبة الاتباع لموافاتها المصلحة الإنسانية وموافقتها السعادة المطلوبة.

و. وأدى ذلك إلى الإذعان بأن للمصالح والمفاسد ثبوتا واقعيا وظروفا من التحقق منحازا عن العالمين: الذهن والخارج ـ منعزلا عن الدارين: العلم والعين ـ وهي تؤثر أثرها في خارج الكون بالموافقة

والمخالفة فإذا طابقت أفعالنا أو أحكامنا المصالح الواقعية الثابتة في نفس الأمر ظهرت فيها المصلحة وانتهت إلى السعادة، وإذا خالفتها وطابقت المفاسد الواقعية الحقيقية ساقتنا إلى كل ضر وشر، وهذا النحو من الثبوت ثبوت واقعي غير قابل للزوال والتغير فللمصالح والمفاسد الواقعية وكذا لما معها من الصفات الداعية إلى الفعل والترك كالحسن والقبح وكذا للأحكام المنبعثة منها كوجوب الفعل والترك مثلا لكل ذلك ثبوت واقعي يتأبى عن الفناء والبطلان، ويمتنع عن التغير والتبدل وهي حاكمة فينا باعثة لنا إلى أفعال كذا أو صارفة، والعقل ينال هذه الأمور النفس الأمرية كما ينال سائر الأمور الكونية.

ز. ثم لما وجدوا أن الأحكام والشرائع الإلهية لا تفارق الأحكام والقوانين الإنسانية المجعولة في المجتمعات من جهة معنى الحكم، وكذا أفعاله تعالى لا تختلف مع أفعالنا من جهة معنى الفعل حكموا بأن الأحكام الإلهية والأفعال المنسوبة إلى الله سبحانه كأفعالنا في الانطباق على المصالح الواقعية والاتصاف بصفة الحسن، فللمصالح الواقعية تأثير في أفعاله تعالى وحكومة على أحكامه وخاصة من حيث إنه تعالى عالم بحقائق الأمور بصير بمصالح عباده.

ح. وهذا كله من إفراط الرأي، وقد عرفت مما تقدم أن هذه أحكام وعلوم اعتبارية غير حقيقية اضطرنا إلى اعتبارها وجعلها الحوائج الطبيعية وضرورة الحياة الاجتماعية لا خبر عنها في الخارج عن ظرف الاجتماع، ولا قيمة لها إلا أنها أمور متقررة في ظرف الوضع والاعتبار يميز بها الإنسان ما ينفعه من الأعمال مما يضره، وما يصلح شأنه مما يفسده، وما يسعده مما يشقيه.

ط. وقد ساقت العصبية المذهبية الطائفتين الباحثتين عن المعارف الدينية في صدر الإسلام إلى تقابل عجيب بالإفراط والتفريط في هذا المقام:

• فطائفة ـ وهم المفوضة ـ أثبتوا مصالح ومفاسد نفس أمرية وحسنا وقبحا واقعيين هي ثابتة ثبوتا أزليا أبديا غير متغير ولا متبدل وهي حاكمة على الله سبحانه بالإيجاب والتحريم، مؤثرة في أفعاله تكوينا وتشريعا بالحظر والترخيص فأخرجوه تعالى عن سلطانه، وأبطلوا إطلاق ملكه.

• وطائفة ـ وهم المجبرة ـ نفت ذلك كله، وأصرت على أن الحسن في الشيء إنما هو تعلق الأمر به، والقبح تعلق النهي به، ولا غرض ولا غاية في تكوين ولا تشريع، وأن الإنسان لا يملك من فعله شيئا ولا قدرة قبل الفعل عليه كما أن الطائفة الأولى: ذهبت إلى أن الفعل مخلوق للإنسان وأن الله سبحانه لا يملك

من فعل الإنسان شيئا ولا تتعلق به قدرته.

• والقولان - كما ترى - إفراط وتفريط فلا هذا ولا ذاك بل حقيقة الأمر أن هذه ونظائرها أمور اعتبارية وضعية لها أصل حقيقي وهو أن الإنسان - ونظيره سائر الحيوانات الاجتماعية كل على قدره - في مسيره الحيوي الذي لا يريد به إلا إبقاء الحياة ونيل السعادة ناقص محتاج يرفع جهات نقصه وحاجته بأعماله الاجتماعية الصادرة عن الشعور والإرادة فاضطره ذلك إلى أن يصف أعماله والأمور التي تتعلق بها أعماله في طريق الوصول إلى غاية سعادته والتجنب عن شقائه بأوصاف الأمور الخارجية من حسن وقبح ووجوب وحرمة وجواز وملك وحق وغير ذلك ويجري فيها نواميس الأسباب والمسببات فيضع في إثر ذلك قوانين عامة وخاصة، ويعتقد لذلك نوعا من الثبوت الذي يعتقده للأمور الحقيقية حتى يتم له بذلك أمر حياته الاجتماعية، فترانا نعتقد أن العدل حسن كما أن الورد حسن جميل، والظلم قبيح شاءه كما أن الميتة المنتنة كذلك، وأن المال لنا كما أن أعضاءنا لنا، والعمل الكذائي واجب كما أن الآثار واجبة لعللها التامة، وعلى هذا القياس، ولذلك ترى أن هذه الآراء تختلف بين الأقوام إذا اختلفت مقاصد مجتمعاتهم فترى هؤلاء يحسنون ما يقبحه آخرون وتجد طائفة تلغي من الأحكام ما تعتبره أخرى، وتلفى أمة تنكر ما تعرفه أمة أو تعجبها ما يستشنعه غيرها، وربما تترك سنة مأخوذة ثم تؤخذ ثم تترك في أمة واحدة على نسق الدوران بحسب مراحل السير الاجتماعي ومساسه بلوازم الحياة، هذا في المقاصد التي تختلف في المجتمعات، وأما المقاصد العامة التي لا يختلف فيه اثنان كأصل الاجتماع والعدل والظلم ونحو ذلك فما لها من وصف الحسن والقبح والوجوب والحرمة وغيرها لا تختلف البتة ولا يختلف فيه، هذا فيما يرجع إلينا.

ي. والله سبحانه لما قلب دينه في قالب السنن العامة الاجتماعية اعتبر في بيانه المعارف الحقيقية المسبوكة في قالب السنن الاجتماعية ما نعتبره نحن في مسير حياتنا فأراد منا أن نفكر فيما يرجع إلى معارفه، ونتلقى ما يلقيه إلينا من الحقائق كما نفكر ونتلقى ما عندنا من سنن الحياة فعد نفسه ربا معبودا، وعدنا عبادا مربوبين، وذكرنا أن له دينا مؤلفا من عقائد أصلية وقوانين عملية تستعقب ثوابا وعقابا وأن في اتباعه صلاح حالنا، وحسن عاقبتنا، وسعادة جدنا على نحو المسلك الذي نسلكه في آرائنا الاجتماعية، فهناك عقائد أصلية يجب علينا أن نعتقد بها ونلزمها، وهناك وظائف عملية وقوانين إلهية في العبادات والمعاملات

والسياسات يجب علينا أن نعمل بها ونراعيها كما أن الأمر في جميع المجتمعات الإنسانية على ذلك.

ك. وهذا هو الذي يسوغ لنا أن نبحث عن المعارف الدينية اعتقادية أو عملية كما نبحث عن المعارف الاجتماعية اعتقادية أو عملية، وأن نستند في المعارف الدينية من الآراء العقلية والقضايا العملية بعين ما نستند إليه في المعارف الاجتماعية فالله سبحانه لا يختار لعباده من الوظائف والتكاليف إلا ما فيه المصلحة التي تصلح شأنهم في دنياهم وآخرتهم، ولا يأمر إلا بالحسن الجميل، ولا ينهى إلا عن القبيح الشائه الذي فيه فساد دين أو دنيا، ولا يفعل إلا ما يؤثره العقل، ولا يترك إلا ما ينبغي أن يترك.

ل. إلا أنه تعالى ذكرنا مع ذلك بأمرين:

• أحدهما: أن الأمر في نفسه أعظم من ذلك وأعظم فإن ذلك كله معارف مأخوذة من مواد الآراء الاجتماعية وهي في الحقيقة لا تتعدى طور الاجتماع، ولا ترقى إلى عالم السماء كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وقال في مثل ضربه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ الآية [الرعد: ١٧] وقال ﷺ: (إنا معاشر الأنبياء أمرنا ـ أن نكلم الناس على قدر عقولهم)، إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة، وليس معنى هذا البحث نفي الحسن والمصلحة مثلا عن أفعاله تعالى بمعنى إثبات ما يقابله حتى يستتبع ذلك إثبات القبح والمفسدة أو سقوط أفعاله عن الاعتبار العقلائي كأفعال الصبيان تعالى عن ذلك كما أن نفي البصر بمعنى الجارحة عن العقل لا يوجب إثبات العمى له أو سقوطه عن مرتبة الإدراك بل تنزيه عن النقص.

• ثانيهما: أن جهات الحسن ومزايا المصالح وإن كانت تعلل بها أفعاله تعالى وشرائع أحكامه وتبين بها وظائف العبودية كما تعلل بها ما عندنا من الأحكام والأعمال العقلائية إلا أن بين البابين فرقا وهو أنها في جانبنا حاكمة على الإرادة مؤثرة في الاختيار فنحن بما أنا عقلاء إذا وجدنا فعلا ذا صفة حسن مقارنا لمصلحة غير مزاحمة بعثنا ذلك إلى اقتراف العمل وإذا وجدنا حكما على هذا النعت لم نتردد في تقنينه وحكمنا به وأجريناه في مجتمعنا مثلا، وليست هذه الوجوه والعلل أعني جهات الحسن والمصلحة إلا معاني أخذناها من سنة التكوين والوجود الخارجي الذي هو منفصل من أذهاننا مستقل دوننا فأردنا في اختيار الأعمال الحسنة ذوات المصلحة أن لا نخبط في مسيرنا وتنطبق أعمالنا على سنة التكوين وتقع في صراط الحقيقة،

فهذه الجهات والمصالح معان منتزعة من خارج الأعيان متفرعة عليه، وأعمالنا متفرعة على هذه الجهات محكومة لها متأثرة عنها، والكلام في أحكامنا المجعولة لنا نظير الكلام في أعمالنا، وأما فعله تعالى فهو نفس الكون الخارجي والوجود العيني الذي كنا ننتزع منه وجوه الحسن والمصلحة وكانت تتفرع عليه بما أنها انتزعت منه فكيف يمكن أن يعد فعله تعالى متفرعا عليها محكوما لها متأثرا عنها، وكذلك أحكامه تعالى المشرعة تستتبع الواقع لا أنها تتبع الواقع فافهم ذلك.

م. فقد تبين: أن جهات الحسن والمصلحة وما يناظرها في عين أنها موجودة في أفعاله تعالى وأحكامه، وفي أفعالنا وأحكامنا بما نحن عقلاء تختلف في أنها بالنسبة إلى أعمالنا وأحكامنا حاكمة مؤثرة، وإن شئت قلت دواع وعلل غائية، وبالنسبة إلى أفعاله وأحكامه تعالى لازمة غير منفكة وإن شئت قلت: فوائد مطردة، فنحن بما أنا عقلاء نفعل ما نفعل ونحكم ما نحكم لأنا نريد به تحصيل الخير والسعادة وتملك ما لا نملكه بعد، وهو تعالى يفعل ما يفعل ويحكم ما يحكم لأنه الله، ويترتب على فعله ما يترتب على فعلنا من الحسن والمصلحة، وأفعالنا مسئول عنها معللة بغاياتها ومصالحها، وأفعاله غير مسئول عنها ولا معللة بغاية لا يملكها بل مكشوفة بلوازمها ونعوتها اللازمة ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون فافهم ذلك.

ن. وهذا هو الذي يهدي إليه كلامه عز اسمه كقوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله: ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، ولو كان فعله تعالى كأفعالنا العقلائية لكان لحكمه معقب إلا أن يعتضد بمصلحة محسنة ولم يكن له ليفعل ما يشاء بل ما تشير إليه المصلحة المقارنة، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وغير ذلك من الآيات التي تعلل الأحكام بوجوه الحسن والمصلحة.

١١. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي لو قدرت على ما تقترحونه علي من الآية والحال أنها بحيث إذا نزلت على رسول لم تنفك عن الحكم الفصل بينه وبين أمته لقضي الأمر بيني وبينكم، ونجي بذلك أحد المتخاصمين المختلفين وعذب الآخر وأهلك، ولم يعذب بذلك ولا يهلك إلا أنتم لأنكم ظالمون، والعذاب الإلهي إنما يأخذ الظالمين بظلمهم، وهو سبحانه أنزه

ساحة من أن يشتبه عليه الأمر ولا يميز الظالمين من غيرهم فيعذبني دونكم.

١٢. ففي قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ نوع تكنية وتعليل أي إنكم أنتم المعذبون لأنكم ظالمون والعذاب الإلهي لا يعدو الظالمين إلى غيرهم، وفي الجملة إشارة إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [محمد: ٤٧]

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فليس لديَّ أيّ شك أو ريب، لأن الحقيقة تفرض نفسها في فكري وقلبي وشعوري، كما تشرق الشمس في الفضاء في رأد الضحى.. فكيف يترك الإنسان وهج الحقيقة، إلى ظلام الباطل؟

٢. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ من دون برهان، ولذلك لم تستطيعوا إثارة أيّة فكرة علميّة مضادة، ولم تستطيعوا مناقشة أيّ دليل للإيمان، بل كل ما فعلتموه هو إطلاق كلمة التحديّ، بأنه إذا كان هذا هو الحق من عندك فأرسل لنا العذاب، وأمطر علينا الحجارة من السماء، وهذا هو شأن الضعفاء المهزومين الذين لا يملكون قوّة المواجهة الفكرية، الحجة بالحجة، والوجدان بالوجدان، وهم يعلمون أن قضايا العذاب ليست بيد الرسل والأنبياء، وليس هذا هو دورهم، فلم يمنحهم الله سبحانه إمكانات التصرّف في الكون بالطريقة التي تحلو لهم، أو تطلب منهم، بل كل ما هناك أن الله كلفهم إبلاغ رسالته، وإقامة الحجة على الناس، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بيّنة.. وهذا هو كل شيء.. أما إنزال العذاب فهو شأنه، فإذا شاء أن يعذّب فله ذلك، وإذا شاء أن يعفو فله ذلك، لأن الحكم له في جميع الأمور، ما دامت الحياة ملكه.. وما دامت الخلائق طوع إرادته.

٣. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ في كل الأشياء.. فهو الذي يحدّد مواقع الرحمة والنقمة، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ ليبيّنه للناس فتقوم الحجة عليهم من خلاله، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ فيما يفصل به بين الحق والباطل، والخير والشرّ، والكفر والإيمان.

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٣٥.

٤. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ إن الكافرين والمشركين يستعجلون العذاب الذي وعدهم الله به تحديا للرسول، ظنا منهم أنّه لا يستطيع إليه سبيلا، ليظهروا عجزه أمام الناس، وليثيروا أساليب السخرية ضدّه.. فكيف واجه النبي ﷺ هذا المنطق؟ لقد وقف وقفة الرسول الذي يعرف قدراته جيّدا، فإنَّ الله لم يسلّطه على مقدّرات الكون، فيأمرها بإنزال العذاب على هؤلاء أو أولئك، لأن دوره الأوّل والأخير هو إبلاغ الرسالة، ثم لماذا يستعجلون ذلك..؟ وماذا يتخيّلون أن يحدث إذا كان الأمر بيده؟ فماذا يبقى هناك؟ إن الأمر سينتهي إلى الدمار، وسينتهي الأمر إلى النتيجة الحاسمة فيما بينه وبينهم، جزاء لظلمهم، فإن الله أعلم بالظالمين، الذين يظلمون أنفسهم بالمعصية والانحراف والتمرد عليه.

٥. ثم، ما هي تصوراتهم عن الله؟ هل يفكرون فيه كما يفكرون ببعضهم البعض كطاقات محدودة مغلوبة في العلم والقدرة، ليبيحوا لأنفسهم أسلوب اللّامبالاة والابتعاد عن خط المسؤولية في الإيمان به والانسجام مع رسالته ورسوله؟ وكيف يسيرون مع هذا اللون من التفكير الذي ينطلق من ضيق الأفق، وقلّة التأمّل وسطحيّة النظرة إلى الأمور؟

٦. وردت كلمة (الحكم لله) في نطاق الرد على الكافرين الذين يستعجلون العذاب لينزله الرسول عليهم بأسلوب التحدي، فكان الجواب: إن الحكم في القضايا الكونية مما ينزله من العذاب أو من الخير لله، لأنه هو الذي يملك الكون كله والإنسان كله فليس لأحد ـ حتى الرسول ـ أن يتصرف في أيّ شأن من شؤونه إلا بإذن الله، بما يمنحه من القدرة المحدودة هنا أو هناك، أو بما يجريه على يديه من كرامات ومعجزات تبعا لحاجة الرسالة إلى ذلك في رد التحدي أو إثبات نبوة النبي.

٧. وربما التقت هذه الكلمة بكلمة ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ [ال عمران: ٤٩] التي وردت في كلام عيسى المسيح عليه السّلام في حديث عن قدرته على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وقد ربط ذلك بإذن الله للإيحاء بأنه لا يملك هذه القدرة في ذاته من خلال الإمكانات الطبيعية المودعة فيه، بل إن الله هو الذي يجري ذلك على يديه ليكون نفخه في الطين، سببا للحياة في قبضة الطين وليكون لمسه للميت سببا في عودته للحياة، ومسّه للأبرص وللأكمه وسيلة للشفاء.. فالله هو الذي يخلق الطير ويحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ولكنه يجري ذلك على يد عيسى فيجعل لحركته شيئا من حيوية الحياة والشفاء.

٨. وربما تتحرك كلمة (إذن الله) لتوحي بأن الله يأذن للأشياء التي يستعملها النبي في إظهار المعجزة لتنتهي بالمسألة إلى ما يريده الله، ليبدو للناظر كما لو كان النبي هو الذي يفعل ذلك.

٩. ولا بد من الإشارة هنا إلى سوء استغلال الخوارج لفهمهم المغلوط لقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ حيث اتخذوها ذريعة لاتهام أمير المؤمنين عليه السّلام بالانحراف عن خط الله بما يقترب أو يلامس التكفير من خلال قبوله التحكيم في النزاع بينه وبين معاوية في واقعة صفين، لأنه لا يجوز تحكيم الرجال في دين الله لأن الحكم لله، فهو وحده الذي يحكم لا الناس:

أ. ولم ينتبهوا إلى أن نسبة الحكم لله على نحو الاختصاص يعني ـ في مضمونه الفكري ـ أن الله هو وحده المشرّع الذي يشرّع الأحكام ويقنّن القوانين وليس لغيره الحق في ذلك كله، أما مسألة التحكيم بين الناس فيما اختلفوا فيه من خلال اكتشاف الأمور المتنازع عليها لمعرفة الحق من الباطل في هذا أو ذاك، وإيكال الأمر للحكمين ليحكما في هذا الموضوع أو ذاك حسب رؤيتهما للواقع وفهمهما له، فلا علاقة لها بتحكيم الرجال في دين الله، لأنهما ليسا حكمين في حكم الله بل في موضوع الحكم.

ب. وإذا كان هناك نقد منهم لشخصية الحكمين، وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص، فإن الإمام عليّا عليه السّلام كان أوّل المعترضين عليهما، وقيل: إنه كان قد أراد أن يقيم عبد الله بن عباس ـ القوي الحجّة ـ من قبله، ولكن الضغوط القاسية التي ضغطت عليه جعلت الأمر يدور بين القبول بذلك، أو الفتنة التي قد تأكل الأخضر واليابس وتدمّر كل الواقع الذي يعيش حول أمير المؤمنين عليه السّلام مما قد تكون المصلحة الأهم في الأمر هو القبول تفاديا للفتنة الكبرى، قال الإمام علي عليه السّلام في التعليق على قضية التحكيم: (إنا لم نحكِّم الرجال، وإنما حكّمنا القرآن، هذا القرآن إنما هو خطٌّ مستور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال، ولما دعانا القوم إلى أن نحكِّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله سبحانه وتعالى، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه، وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنّته، فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به، وإن حكم بسنّة رسول الله ﷺ، فنحن أحق الناس به وأولاهم بها، وأما قولكم: لم جعلت بينك وبينهم أجلا في التحكيم؟ فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل، ويتثبّت العالم، ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق، وتنقاد لأول

الغيّ)

ج. وقد ناقش الفكرة في مجال آخر على أساس مستوى الشعار في حركة المضمون الحق في اتجاه الباطل، قال عليه السّلام في الخوارج لما سمع قولهم: (لا حكم إلّا الله) كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أمير برٍّ أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو، وتأمن به السُّبل، ويؤخذ به للضعيف من القويّ، حتى يستريح برّ، ويستراح من فاجر، وفي رواية أخرى أنه عليه السّلام لما سمع تحكيمهم قال: (حكم الله أنتظر فيكم)، وقال: (أما الإمرة البرّة فيعمل فيها التقيّ، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقيّ، إلى أن تنقطع مدته، وتدركه منيّته)

د. وهكذا نرى أنه يتحدث عن الشعار الصحيح الذي تلتقي فيه النظرية بالتطبيق، فالله ـ وحده ـ هو الحاكم الذي يرجع الجميع إليه في تشريعه، فلا حكم لغيره ولا حاكم غيره، ولكن مسألة الإمرة التي تمثل القوة التنفيذية لإدارة شؤون الحياة والناس، هي مسألة لا بد من أن تتصل بالإنسان في حركة الإدارة والإمرة في حياة الناس من خلاله، بما يملكه من وعي الواقع واستقامة السلوك والخبرة في إدارة الأمور.

هـ. ولكن يبقى العنوان الكبير (كلمة حق يراد بها باطل) يفرض نفسه على واقع كل الذين يحركون الشعارات الدينية والسياسية ليجتذبوا الناس إلى ما يريدون تحقيقه من أغراض سيئة بهدف الإثارة الشعبية غير المسؤولة، كما نلاحظه في كل زمان ومكان في حركة الصراع بين الحق والباطل، حيث نرى أهل الباطل يستخدمون كلمات الحق التي يتجمع الناس حولها وينفتحون عليها من أجل الوصول بهم إلى ما يريدونه من الغايات الشريرة التي تقف في نهاية الطريق من حيث لا يشعرون ولا يعلمون.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ تبين لي أن الحق هو التوحيد وأن الشرك ضلال بعيد، والبينة: هي القرآن الحكيم الذي هو من الله سبحانه، فرسول الله ﷺ على بيان الله

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٦.

الذي بينه لَه، لكن الكفار كذبوا بالقرآن فحرموا أنفسهم سبيل الهدى.

٢. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من القيامة أو العذاب، لأني لا أملك ذلك، وإنما أنا نذير لكم فإن آمنتم فقد تبين لكم الحق، وإن كفرتم فقد تبين، ولا عذر لكم في عدم إتياني بما تستعجلون، وليس لكم ولآبائكم أن تحكموا بما شئتم من شرك أو غيره أو لزوم اتباعي أو تركه لعدم ما اقترحتم.

٣. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِّ﴾ وقد أمر أن لا تعبدوا إلى إياه، فليس لكم أن تتحكموا باشتراط ما اقترحتم ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ يقص القصص وقد قص بالحق ما أصاب المشركين قبلكم بشركهم وتكذيبهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ لأنه يفصل بالحق ولا يغلط ولا ينسى، وهو يستطيع تنفيذ فصله بين عباده، فهو فصل نافذٌ يحق الحق ويبطل الباطل فلا بد أن يفصل بيننا وبينكم.

٤. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأن الساعة أو العذاب الذي أنذركم يقطع وقت الإنذار والدعوة إلى الطاعة والإيمان؛ لأنه يبطل الاختيار ويرفع التكليف، ولا يبقى إلا أن يحل عليكم ما أنذرتكم ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو أعلم بكم وهو يجزيكم بإجرامكم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الآية الكريمة تتضمّن جوابا آخر، وهو: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ (البيّنة) أصلا ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثمّ أطلقت على الدليل والحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحق والباطل، وفي المصطلح الفقهي تطلق (البيّنة) على الشاهدين العدلين، غير أنّ معنى الكلمة اللغوي واسع جدا، وشهادة العدل واحد من تلك المعاني، وكذلك كانت المعجزة بيّنة لأنّها تفصل بين الحق والباطل، وإذا قيل للآيات والأحكام الإلهية بينات فلكونها من مصاديق الكلمة الواسعة.

٢. وعليه، فرسول الله ﷺ يؤمر في هذه الآية أن يقول: إنّ دليلي في قضية عبادة الله ومحاربة الأصنام واضح وبيّن، وأن تكذيبكم وإنكاركم لا يقللان من صدق الدليل.

٣. ثمّ يشير إلى حجّة واهية أخرى من حججهم، وهي أنّهم كانوا يقولون: إن كنت على حق فعلا

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٣٠٨.

فعجل بالعقاب الذي تتوعدنا به، فيقول لهم رسول الله ﷺ: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، لأنّ الأعمال والأوامر كلها بيد الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾

٤. وبعد ذلك يقول مؤكدا: إنّ الله هو الذي: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ بديهي أنّ القادر على أن يفصل بين الحق والباطل على خير وجه هو الذي يكون أعلم الجميع، ومن السهل عليه التمييز بين الحق والباطل، ثمّ تكون له القدرة الكافية على استخدام علمه، وهاتان الصفتان (العلم والقدرة) هما من صفات الذات الإلهية اللامحدودة، وعليه فإنّه عزّ وجلّ خير من يقص الحق، أي يفصل الحق من الباطل.

٥. الآية التّالية تأمر رسول الله ﷺ أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أن ما تطلبونه مني على عجل كان في سعتي وقدرتي، وأجبتكم إليه لانتهى الأمر، ولم يعد بيني وبينكم شيء ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

٦. ولكيلا يظنوا أن عقابهم قد طواه النسيان، يقول في النهاية ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وسوف يعاقبهم في الوقت المناسب.

٧. يستفاد من آيات القرآن أنّ كثيرا من الأمم الماضية طلبوا مثل هذا الطلب من أنبيائهم، وهو: إذا كنت صادقا فيما تقول فلماذا لا ترسل علينا العقاب الذي تتوعدنا به؟ قوم نوح عليه السّلام طلبوا منه ذلك ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ونظير ذلك جاء على لسان قوم صالح وكذلك فعل قوم عاد مع نبيّهم هود، ويستفاد من سورة الإسراء أنّ هذا الطلب قد تكرر لرسول الله ﷺ، حتى أنّهم قالوا له: إننا لا نؤمن لك ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، كان الدافع إلى هذه الطلبات غير المعقولة السخرية والاستهزاء، أو الرغبة في رؤية المعجزة، وفي كلتا الحالتين كان الطلب أحمق:

أ. إذ في الحالة الثانية يكون تحقق الطلب سببا في إبادتهم، ولا يكون ثمّة مجال للاستفادة من ظهور المعجزة.

ب. وفي الحالة الأولى: كان لدى الأنبياء أدلة بينة توفر ـ على الأقل ـ احتمال التصديق عند كل ناظر بصير، فكيف يمكن مع هذا الاحتمال أن يطلب أحد القضاء على نفسه، أو أن لا يأخذ المسألة مأخذ الجد، غير أنّ التعصب والعناد بلاء عظيم يقفان بوجه كل فكر ومنطق.

٨. معنى ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ واضح، أي أنّ كل أمر في عالم الخلق والتكوين وفي عالم الأحكام والتشريع بيد الله، وبناء على ذلك إذا كان لرسول الله ﷺ أن يقوم بمهمّة فذلك أيضا بأمر من الله، فإذا أحيا المسيح عليه السّلام ميتا ـ مثلا ـ فهو بإذن الله، وكذلك كل منصب ـ بما في ذلك القيادة الإلهية والتحكيم والقضاء ـ إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر الله تعالى، ولكنّ الذي يؤسف له أنّ هذه الآية الواضحة استغلت على مدى التّأريخ:

أ. فمرّة تمسك بها الخوارج في قضية (الحكمين) التي أرادوها هم وأمثالهم في حرب (صفين) فكانت (كلمة حق أريد بها باطل) كما قال الإمام علي عليه السّلام، حتى أصبح شعارهم (لا حكم إلّا لله) لقد كانوا من الجهل والبلاهة أنّهم حسبوا أن من حكم بأمر الله والإسلام في أمر من الأمور يكون قد خالف ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ بينما كانوا يقرءون القرآن كثيرا، ولكن لا يفهمونه إلّا قليلا، فالقرآن نفسه في موضوع الاحتكام العائلي يصرح باختيار حكم من جانب الزوجة وحكم من جانب الزوج: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾

ب. واعتبر بعض آخر هذه الآية ـ كما يقول الفخر الرازي في تفسيره ـ دليلا على الجبرية، قائلين إنّنا إذا قبلنا بأنّ الأوامر في عالم الخلق بيد الله، فلا يبقى لأحد مجال للاختيار، ولكنّنا نعلم أنّ حرية إرادة عباد الله وحرية اختيارهم هي أيضا، بأمر من الله الذي شاء أن يكونوا أحرارا في اختيار ما يعملون، لكي يحملهم مسئولية أعمالهم والتكاليف الملقاة على عواتقهم.

٩. (يقص) في اللغة ترد بمعنى القطع، وفي القاموس: (قص الشعر والظفر أي قطع منهما بالمقص أي المقراض)، وعلى هذا يكون معنى و(يقص الحق) إنّ الله يقطع الحق عن الباطل ويفصل بينهما، ولذلك يتلوها بقوله: ﴿هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ﴾ للتوكيد، فالفعل (يقص) هنا لا يعني سرد حكاية، كما ظن بعض المفسّرين.

٣٦. مفاتح الغيب والكتاب المبين

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: أعطي نبيكم كلّ شيء إلا مفاتيح الغيب الخمس، ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ إلى آخر الآية [لقمان: ٣٤](١).

كعب:

روي عن كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: ما من شجرة ولا موضع إبرة إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله تعالى، فإنّ ملائكة السماء أكثر من عدد التراب(٢).

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ ـ روي أنّه قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، هنّ خمس: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤](٣).

٢ ـ روي أنّه قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، ما من شجرة في برٍّ ولا بحر إلا وبها ملك موكل، يكتب ما يسقط من ورقها(٤).

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٨٢.

(٢) أبو الشيخ في العظمة ٢/ ٧٤٢.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٨٢.

(٤) سعيد بن منصور (٨٨١).

٣. روي أنّه تلا هذه الآية: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، وقال: الرطب واليابس من كلّ شيء[1].

٤. روي أنّه قال: الرطب: الماء، واليابس: البادية[2].

٥. روي أنّه قال: خلق الله النون ـ وهي الدّواة ـ، وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضي؛ ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل برٍّ أو فجور، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، ثم وكّل بالكتاب حفظة، ووكّل بخلقه حفظة، فتنسخ حفظة الخلق من الذّكر ما كنتم تعملون في كلّ يوم وليلة، فيجري الخلق على ما وكّل به، مقسوم على من وكّل به، فلا يغادر أحدا منهم، فيجرون على ما في أيديهم ممّا في الكتاب، فلا يغادر منه شيء، قيل: ما كنّا نراه إلا كتب عملنا، قال ألستم بعرب؟ هل تكون نسخة إلا من شيء قد فرغ منه!؟ ثم قرأ هذه الآية: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩][3].

ابن عمر:

روي عن ابن عمر (ت ٧٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، هو قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ إلى آخر الآية [لقمان: ٣٤][4].

٢. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم متى تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله تبارك وتعالى[5].

٣. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: ما من زرع على الأرض، ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا رزق فلان بن فلان، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ

---

(١) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٥١.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٥.

(٤) آدم بن أبي إياس كما في تفسير مجاهد، ص ٣٢٢.

(٥) البخاري ٢/ ٣٣.

إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[(١)].

ابن عمرو:

روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٧٧ هـ) أنّه قال: إنّ تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجنّ ما لو أنّهم ظهروا لكم لم تروا معه نورا، على كل زاوية من زواياه خاتم من خواتيم الله، على كلّ خاتم ملك من الملائكة، يبعث الله إليه في كلّ يوم ملكا من عنده أن احتفظ بما عندك[(٢)].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، يعني: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب متى ينزل بكم[(٣)].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: البر: القفار، والبحر: كل قرية فيها ماء[(٤)].

٢. روي أنّه قال: ما من شجرة على ساق إلا موكل بها ملك، يعلم ما يسقط منها حين يحصيه، ثم يرفع علمه، وهو أعلم منه[(٥)].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ يعني: خزائن الغيب، ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ يعلم متى يأتيكم العذاب[(٦)].

٢. روي أنّه قال: يكتبه الله رطبا، ويكتبه يابسا؛ لتعلم ـ يا ابن آدم ـ أنّ عملك أولى بالإصلاح من

---

(١) الخطيب في تاريخه ٥/ ٢١٣.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٤.

(٣) تفسير الثعلبي ٤/ ١٥٤.

(٤) تفسير الثعلبي ٤/ ١٥٤.

(٥) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٦) ذكره يحيى بن سلام كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ٧٣.

تلك الحبة[1].

عطاء:

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، يعني: ما غاب عنكم من الثواب والعقاب، وما يصير إليه أمري وأمركم[2].

٢. روي أنّه قال: يريد: ما ينبت، وما لا ينبت[3].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، كلّ ذلك في كتاب من عند الله مبين[4].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، يقول: خزائن الغيب[5].

ابن جحادة:

روي عن محمد بن جحادة (ت ١٣١ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، لله تبارك وتعالى شجرة تحت العرش، ليس مخلوق إلا له فيها ورقة، فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[6].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/ ١٥٤.

(٢) تفسير الثعلبي ٤/ ١٥٤.

(٣) تفسير الثعلبي ٤/ ١٥٤.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٥.

(٥) ابن جرير ٩/ ٢٨٢.

(٦) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فقال: الورقة: السقط، والحبة: الولد، وظلمات الأرض: الأرحام، والرطب: ما يحيا من الناس، واليابس: ما يغيض، وكل ذلك في إمام مبين[1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، يعني: وعند الله خزائن العذاب؛ متى ينزله بكم، لا يعلمها أحد إلا هو[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ من شجرة ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ كلها[4].

٤. روي أنّه قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يقول هو بيّن في اللوح المحفوظ[5].

الكاظم:

روي عن الإمام الكاظم (ت ١٨٣ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الورقة: السقط، يسقط من بطن أمه من قبل أن يهل الولد، ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ يعني الولد في بطن أمه إذا هل ويسقط من قبل الولادة ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ يعني المضغة إذا أسكنت في الرحم قبل أن يتم خلقها، قبل أن ينتقل ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾ الولد التام، ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ في إمام مبين[6].

المرتضى:

---

(١) تفسير القمّي ١/ ٢٠٣، والكافي ٨/ ٢٤٨.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٦) تفسير العيّاشي ١/ ٣٦١.

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، الغيب هو: ما استتر واستجن وغبي فلم يعلم، وذلك لا يعلمه إلا الله عز وجل، المطلع على السرائر، العالم بالضمائر، فلا يعلم الغيب من الأشياء إلا هو، ولا يعرف منه إلا ما دل عليه وفتحه، وبينه لعباده وأخبر به، ومفتاح الشيء هو: علمه؛ لأنه لا يوصل إلى ما كان منغلقا عن الخلق إلا بمفتاحه؛ وإنما هذا مثل ضربه الله عز وجل لخلقه، وبينه لعباده بأنهم يعلمون: الأغلاق لا يفتحها إلا المفاتيح، فلما أن كان الغيب منغلقا عن الخلق.

٢. والله سبحانه هو العالم ـ قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾؛ إذ هو العالم بالمحجوبات، المطلع على السرائر المستورات.

٣. ثم قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، يريد عز وجل: أنه العالم به المطلع عليه، فإنما أخبر سبحانه بعلمه، وإحاطته بجميع الأشياء، فقال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ عند سقوطها، ولا تغبى عنه عند انحتاتها، فكذلك الحبة في ظلمات الأرض هو: مطلع على مكانها، عالم بقرارها.

٤. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، والكتاب هو: العلم؛ فسبحان من لا يستتر عنه علم محجوب، ولا يسقط عليه دقيق من الأمور، ولا جليل في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، هذا يحتمل أن يكون صلة قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، وصلة قوله: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ كانوا يطلبون منه ﷺ ويسألونه أشياء من التوسيع في الرزق، وغير ذلك مما كان يعدهم من الكرامة والمنزلة والسعة، وكان يوعدهم بالعذاب ويخوفهم بالهلاك، فيستعجلون ذلك منه ويطلبون منه ما أوعدهم فقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٨٧.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٩٩.

الْغَيْبِ﴾، ليس ذلك عندي، لا يعلم ذلك إلا هو.

٢. ﴿مَفَاتِحُ﴾: من المفتح، ليس من المفتاح؛ لأن المفتاح، يكون جمعه مفاتيح، والمفتح: يقال في النصر والمعونة؛ يقال: فتح الله عليه بلدة كذا، أي: نصره وجعله غالبًا عليهم، ويقال فيما يحدثه ويستفيد منه: فتح فلان على فلان باب كذا، أي: علمه علم ذلك.

٣. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، أي: من عنده يستفاد ذلك ومنه يكون، ومن نصر آخر إنما ينصر به، ومن علم آخر علما إنما يعلمه به، ومن وسع على آخر رزقًا إنما يوسعه بالله، كل هذا يشبه أن يخرج تأويل الآية.

٤. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، هذا يحتمل وجوهًا:

أ. يحتمل أي يعلم ما في البر والبحر من الدواب، وما يسكن فيها من ذي الروح، كثرتها وعددها وصغيرها وكبيرها، لا يخفى عليه شيء

ب. الثاني: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أي: يعلم رزق كل ما في البر والبحر من الدواب ويعلم حاجته، ثم يسوق إلى كل من ذلك رزقه، يذكر هذا ليعلموا أنه لما ضمن للخلق لكل منهم رزقه، يسوق إليه رزقه من غير تكلف ولا طلب؛ كما يسوق أرزاق كل ما في البر والبحر من غير طلب ولا تكلف، لا تضيق قلوبهم لذلك، فما بالكم تضيق قلوبكم على ذلك، وقد ضمن ذلك لكم كما ضمن لأُولَئِكَ!؟

ج. الثالث: يعلم ما في البر والبحر من اختلاط الأقطار بعضها ببعض، ومن دخول بعض في بعض، يخرج هذا على الوعيد: أنه لما كان عالمًا بهذا كله يعلم بأعمالكم ومقاصدكم.

٥. سؤال وإشكال: هذا الذي ذكر كله في الظاهر دعوى، فما الدليل على أنه كذلك؟ والجواب: اتساق التدبير في كل شيء وآثاره فيه يدل على أنه كان بتدبير واحد؛ لأن آثار التدبير في كل شيء واتساقه على سنن واحد ظاهرة بادية، فذلك يدل على ما ذكر.

٦. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الآية:

أ. يحتمل الكتاب ـ هاهنا ـ: التقدير والحكم اختلف فيه؛ قال بعضهم: قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: محفوظ كله عنده؛ يقول الرجل لآخر: عملك كله عندي مكتوب، يريد الحفظ، أي: محفوظ عندي، وذلك جائز في الكلام.

ب. وقيل: الكتاب ـ هاهنا ـ: هو اللوح المحفوظ، أي: كله مبين فيه.

ج. وقال الحسن: إن الله يخرج كتابًا في كل ليلة قدر، ويدفعه إلى الملائكة، وفيه مكتوب كل ما يكون في تلك السنة؛ ليحفظوه على ما يكون، أو كلام نحو هذا.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي وعنده علم الغيب الذي لا يعسر عليه عسير، ولا يحتجب عنه ظاهر ولا مستور، ولا يعزب عنه صغير ولا كبير، لكنه ضرب المثل بالمفاتيح لعلمه، كما ضرب المثل بالكتاب وحفظه، وليس ثَمَّ كتاب مكتوب، وإنما هو مثل مضروب، قال الشاعر: (في كفه من رُقَى الشيطان مفتاح)، أي معه حيل من عزائم الشيطان حتى سهل عنده ما يتعذر على غيره فضرب المثل بالمفتاح.

٢. معنى قوله عز وجل: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي في علم عليم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: خزائن غيب السموات والأرض والأرزاق والأقدار، وهو معنى قول ابن عباس.

ب. الثاني: الوصول إلى العلم بالغيب.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: أن ما في البرّ ما على الأرض، وما في البحر ما على الماء، وهو الظاهر، وبه قال الجمهور.

ب. الثاني: أن البَرّ القفر، والبحر القُرى لوجود الماء فيها، فلذلك سميت بحراً، قاله مجاهد.

٣. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ يعني قبل يبسها وسقوطها، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ يحتمل وجهين:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٩٠.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/ ١٢٢.

أ. أحدهما: ما في بطنها من بذر.

ب. الثاني: ما تخرجه من زرع.

٤. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أن الرطب النبات واليابس الجواهر.

ب. الثاني: أن الرطب الحي، واليابس الميت.

٥. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ معناه الأمور التي بها يستدل على الغائب فتعلم حقيقته، يقال: فتحت على الرجل، أي عرفته أولا، ويستدل به على آخر، وجملة يعرف بها التفصيل، ومنه قولهم أفتح عليَّ أي عرفني، قال الزجاج: معناه وعنده الوصلة إلى علم الغيب وكل ما لا يعلم إذا استعلم، روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت.

٢. معنى الآية أن الله تعالى عالم بكل شيء من مبتدئات الأمور وعواقبها فهو يعجل ما تعجيله أصلح وأصوب، ويؤخر ما تأخيره أصلح وأصوب، وأنه الذي يفتح باب العلم لمن يريد إعلامه شيئاً من ذلك من أنبيائه وعباده، لأنه لا يعلم الغيب سواه، فلا يتهيأ لأحد أن يعلِّم العباد ذلك، ولا أن يفتح لهم باب العلم به إلا الله، وبين أنه يعلم ما في البر والبحر من الحيوان والجماد، وبين أنه ما تسقط من ورقة من شجرة إلا يعلمها ولا حبة في جوف الأرض وفي ظلماتها إلا ويعلمها ولا رطب ولا يابس جميع أصناف الأجسام، لأنها أجمع لا تخلو من إحدى هاتين الصفتين.

٣. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ المعنى أنه يعلمها ساقطة وثابتة كما تقول: ما يجيئك من أحد إلا وأنا أعرفه، معناه إلا وأنا أعرفه في حال مجيئه.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٥٥.

٤. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ خبر على تقدير (من)، ويجوز الرفع فيها على معنى ولا تسقط ورقة ولا حبة، ويجوز أن يرفعه على الابتداء ويقطعه عن الأول ويكون خبره ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

٥. قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: أن يكون معناه في علم الله مبين.

ب. وثانيهما: أن يكون ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أن يكون الله تعالى أثبت ذلك في كتاب قبل أن يخلقه، كما قال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ ويكون الغرض بذلك إعلام الملائكة أنه علام الغيوب ليدل على أنه عالم بالأشياء قبل كونها.

ج. ويجوز أن يكون المراد بذلك أنه كتب جميع ما يكون ثم امتحن الملائكة بكتبه وتعبدهم بإحصائه، كما تعبد سائر خلقه بما يشاء مما فيه صلاحهم.

د. وقال البلخي: ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي هو محفوظ غير منسي ولا مغفول كما يقول القائل لصاحبه: ما تصنعه عندي مسطر مكتوب، وإنما يريد بذلك أنه حافظ له يريد مكافأته عليه، قال الشاعر: إن لسلمى عندنا ديواناً.

هـ. ويجوز أن يكون المراد بذكر الورقة والحبة والرطب واليابس التوكيد في الزجر عن المعاصي والحث على البر والتخويف لخلقه بأنه إذا كانت هذه الأشياء التي لا ثواب فيها ولا عقاب عليها محصاة عنده محفوظة مكتوبة، فأعمالكم التي فيها الثواب والعقاب أولى، وهو قول الحسن.

٦. قال مجاهد: البر القفار والبحار كل قرية فيها ماء، وعن أبي عبد الله: الورقة السقط والحبة الولد، وظلمات الأرض الأرحام والرطب ما يبقى ويحيا واليابس ما يغيض.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٨٧.

أ. المفتاح والمفاتيح والمفاتح: ما يفتح به الباب، والفتح: ضد الإغلاق، وباب فُتُحٌ: مفتوح، والفتح: الحكم، والفتاح: الحاكم، ومنه يقال لله تعالى: الفتاح، ومن عَلَّم غيره شيئًا قيل: فتح عليه، ومن استعمله قيل: استفتحه، وسمي علم الغيب بالمفاتح؛ لأنه وصلة إليه كما أن المفتاح وصلة إلى قضاء الحوائج.

ب. أصل الغيب: ما غاب عنك، وقيل: الغيب ما غاب عن الحواس، وقيل: ما لم يعلم ضرورة ولا استدلالاً، عن القاضي.

ج. الرطوبة واليبوسة عرضان لا يقدر عليهما غير الله تعالى، ثم اختلفوا قيل: الرطوبة مدركة، عن أبي علي، وقيل: لا تدرك، عن أبي هاشم.

د. الظلمة: خلاف النور، وهما جسمان محدثان، خلاف ما يقوله الثنوية.

٢. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: لما ذكر استعجالهم للعذاب بين أن ذلك ليس إليه، وأنه إلى الله تعالى، وأنه أعلم بالظالمين؛ لأنه العالم بالغيب فيفعل ما هو الأصلح، وما توجبه الحكمة من تعجيل العذاب وتأخيره، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: لما ذكر قوله: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ بين أن عنده مفاتح الغيب، وهو الذي يفتح لعباده ما هم فيه مختلفون بنصب الأدلة والبيان، عن الأصم.

ج. وقيل: يتصل بقوله: ﴿أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ لأن عنده مفاتح الغيب، ولا يخفى عليه شيء فيعلم الأسرار.

٣. ﴿وَعِنْدَهُ﴾ أي عند الله ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ فيه قولان:

أ. قيل: خزائن الغيب، عن الحسن والسدي، وهي المقدورات التي يفتح الله بها لعباده ما في الغيب بذكره والبيان عنه، والدلالة عليه، فيفتح لعباده ما شاء من ذلك.

ب. وقيل: عنده ما يفتح للعباد من علم الغيب ما يدلهم أن ما أتى به محمد حق، عن الأصم.

ج. وقيل: أن عنده علوم الغيب، فيفتحه لعباده.

٤. اختلفوا فيها:

أ. فقيل: مفاتح الغيب خمس هي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي

الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ عن ابن عباس وابن عمر، وروي في حديث مرفوع.

ب. وقيل: علم نزول العذاب، عن الضحاك ومقاتل.

ج. وقيل: ما غاب من الثواب والعقاب، عن عطاء.

د. وقيل: علم الآجال والأعمار.

هـ. وقيل: عذاب الساعة عن الحسن.

و. وقيل: هي ما كان لو لم يكن كيف كان يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

ز. وقيل: بيان ما هم فيه مختلفون فيما تمس الحاجة إليه.

ح. وقيل: هو عام في كل شيء غائب موجود أو معدوم.

٥. ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لأن ما يعلمه العباد إما أن يعلم ضرورة أو استدلالاً، والغيب خارج عن الوجهين.

٦. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾:

أ. قيل: البر: القفار، والبحر: كل قرية فيها ماء، عن مجاهد.

ب. وقيل: أراد جميع ما في الأرض؛ لأنه لا يخلو من بر وبحر.

٧. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾:

أ. قيل: يعلم ما سقط من ورق الأشجار وما بقي.

ب. وقيل: يعلم ما يؤكل وما يسقط، عن ابن عباس.

ج. وقيل: يعلمكم انقلبت ظهرًا لبطن عند سقوطها، ولا تنافي بينها، فيحمل على الجميع.

٨. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾:

أ. قيل: حبة في أسفل الأرضين.

ب. وقيل: ما يزرع في الأرض بين أربعة أضداد: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فيعلمها ويحفظها وينبت منها.

ج. وقيل: جميع ما تحته من الحجارة والتراب وغيره عن الأصم.

٩. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾:

أ. قيل: هذا مثل، وأراد أنه عالم بجميع المعلومات.

ب. وقيل: الرطب الماء، واليابس الأرض، عن ابن عباس.

ج. وقيل: ما ينبت وما لا ينبت عن عطاء.

د. وقيل: الرطب لسان المؤمن رطب بذكر الله، واليابس لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله.

هـ. وقيل: الأشجار والنبات رطبها ويابسها.

١٠. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾:

أ. قيل: مكتوب في اللوح، مبين: بيِّن، وإنما أثبت مصلحة للملائكة ليستدلوا على توحيده وعدله، ويعلموا عظم شأنه، عن أبي علي.

ب. وقيل: ليعلم ابن آدم أن علمه أولى بالإحصاء، عن الحسن.

ج. وقيل: ذلك الكتاب مثلٌ، ومعناه معلوم عنده عن الأصم كقولهم: كل ما تقوله عندي مكتوب أي محفوظ.

د. وقيل: هو ما تكتبه الْمَلَائِكَة من الأعمال، عن أبي مسلم.

هـ. وقيل: لنا في تعريف ذلك مصلحة حيث يعلم أنه أثبته لغرض عظيم.

١١. تدل الآية الكريمة على:

أ. اختصاص الله تعالى بعلم الغيب.

ب. أنه يثبت بعضها في اللوح المحفوظ مصلحة للملائكة وغيرهم.

ج. أن علم الغيب يمكن تعريفه غيرَهُ؛ لذلك قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾؛ إذ الغيب لا يصح أن يفتح إلا بالتعريف.

د. أنه تعالى أثبت جميع الأعمال، وفيه تحذير المكلف ليقدم لنفسه ما يسره.

هـ. أنه عالم لذاته؛ لأنه لو كان عالمًا بعلم لوجب أحد ثلاثة أشياء كلها فاسدة: إما أن يكون لهم علوم لا نهاية لها، أو معلوماته متناهية بحسب ما وجد من المعلوم، أو يتعلق علم واحد بمعلومات كثيرة، وكلها باطلة.

١٢. قراءات ووجوه:

أ. قراءة العامة ﴿مَفَاتِحُ﴾ بغير ياء، وعن ابن السَّمَيْقَعِ بالياء (مفاتيح) جمع مفتاح.

ب. القراءة الظاهرة ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ مجرورة نسقًا على قوله: ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾، وعن بعضهم مرفوعه على الاستئناف، و﴿لَا﴾ بمعنى ﴿لَيْسَ﴾

١٣. قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ استثناء فيه معنى الواو، وكذلك كل استثناء بعد استثناء، كقولك: ما جاء زيد إلا عند عمرو إلا في داره، قال الشاعر:

مَا في المدينةِ دار غيرُ واحدةٍ   دار الخليفة إلا دارَ مروان

أي دار الخليفة ودار مروان، وقيل: تقدير الآية: إلا يعلمها وهو في كتاب.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما ذكر سبحانه أنه أعلم بالظالمين، بين عقيبه أنه لا يخفى عليه شيء من الغيب، ويعلم أسرار العالمين فقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ المفاتح: جمع مفتح، فالمفتح بالكسر: المفتاح الذي يفتح به، والمفتح بفتح الميم: الخزانة، وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهو مفتح، قال الفراء في قوله: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ يعني: خزائنه:

أ. معناه وعنده خزائن الغيب الذي فيه علم العذاب المستعجل به، وغير ذلك لا يعلمها أحد إلا هو، أو من أعلمه به، وعلمه إياه.

ب. وقيل: معناه وعنده مقدورات الغيب، يفتح بها على من يشاء من عباده، بإعلامه به، وتعليمه إياه، وتيسيره السبيل إليه، ونصبه الأدلة له، ويغلق عمن يشاء بأن لا ينصب الأدلة له.

ج. وقال الزجاج: يريد عنده الوصلة إلى علم الغيب، وكل ما لا يعلم، إذا استعلم، يقال فيه، أفتح علي.

د. وقال ابن عمر: مفاتح الغيب خمس: ثم قرأ ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٦١.

هـ. وقال ابن عباس: معناه وعنده خزائن الغيب من الأرزاق والأعمار.

و. وتأويل الآية: إن الله تعالى عالم بكل شيء من مبتدءات الأمور وعواقبها، فهو يعجل ما تعجيله أصوب وأصلح، ويؤخر ما تأخيره أصوب وأصلح، وإنه الذي يفتح باب العلم لمن يريد من الأنبياء الأولياء، لأنه لا يعلم الغيب سواه، ولا يقدر أحد أن يفتح باب العلم به للعباد، إلا الله.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من حيوان وغيره، وقال مجاهد: البر: القفار، والبحر: كل قرية فيها ماء، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾:

أ. قال الزجاج: المعنى أنه يعلمها ساقطة وثابتة، وأنت تقول ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه، فليس تأويله إلا وأنا أعرفه في حال مجيئه فقط.

ب. وقيل: يعلم مما سقط من ورق الأشجار، وما بقي، ويعلم كم انقلبت ظهرا لبطن عند سقوطها.

٣. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ معناه وما تسقط من حبة في باطن الأرض إلا يعلمها، وكنى بالظلمة عن باطن الأرض، لأنه لا تدرك، كما لا يدرك ما حصل في الظلمة، وقال ابن عباس: يعني تحت الصخرة في أسفل الأرضين السبع، أو تحت حجر، أو شيء.

٤. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾:

أ. قد جمع الأشياء كلها في قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ لأن الأجسام كلها، لا تخلو من أحد هذين، وهو بمنزلة قولك: ولا مجتمع ولا مفترق، لأن الأجسام لا تخلو من أن تكون مجتمعة، أو متفرقة.

ب. وقيل: يريد ما ينبت وما لا ينبت عن ابن عباس.

ج. وعنه أيضا: إن الرطب: الماء واليابس: البادية.

د. وقيل: الرطب الحي، واليابس: الميت.

هـ. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: (الورقة، السقط، الحبة: الولد، وظلمات الأرض، الأرحام، والرطب ما يحيا، واليابس ما يغيض)

٥. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ معناه: وهو مكتوب في كتاب ﴿مُبِينٌ﴾:

أ. أي قي اللوح المحفوظ، ولم يكتبها في اللوح المحفوظ ليحفظها ويدرسها، فإنه كان عالما بها قبل

أن كتبها:

- ولكن ليعارض الملائكة الحوادث على ممر الأيام با لمكتوب فيه، فيجدونها موافقة للمكتوب فيه، فيزدادون علما ويقينا بصفات الله تعالى.
- وأيضا فإن المكلف إذا علم أن أعماله مكتوبة في اللوح المحفوظ، تطالعها الملائكة، قويت دواعيه إلى الأفعال الحسنة، وترك القبائح.
- وقال الحسن، هذا توكيد في الزجر عن المعاصي، والحث على البر، لأن هذه الأشياء التي لا ثواب فيها، ولا عقاب، إذا كانت محصاة عنده، محفوظة، فالأعمال التي فيها الثواب والعقاب أولى بالحفظ.

ب. وقيل: إن قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: معناه أنه محفوظ غير منسي، ولا مغفول عنه، كما يقول القائل لغيره: ما تصنعه عندي مسطور مكتوب، إنما يريد بذلك أنه حافظ له، يريد مكافأته عليه، وأنشد (إن لسلمى عندنا ديوانا)، عن البلخي.

٦. قال الجرجاني صاحب النظم: تم الكلام عند قوله، ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾، ثم استأنف خبرا آخر بقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني وهو في كتاب مبين أيضا، لأنك لو جعلت قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ متصلا بالكلام الأول، لفسد المعنى.

٧. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾: تقديره: ولا تسقط من حبة ثابتة في ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا يابس.

ب. قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الجار والمجرور في موضع الرفع، لأنه خبر الابتداء تقديره: إلا هو في كتاب مبين، ولا بد من هذا التقدير، لأنه لو لم يكن محمولا على هذا لوجب أن لا يعلمها في كتاب مبين، وهو سبحانه يعلم ذلك في كتاب مبين، والاستثناء منقطع.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ قال ابن جرير: المفاتح: جمع مفتح؛ يقال: مفتح ومفتاح، فمن قال

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٨.

مفتح، جمعه: مفاتح، ومن قال مفتاح، جمعه: مفاتيح.

٢. في ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ سبعة أقوال:

أ. أحدها: أنها خمس لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ، روى البخاريّ في أفراده من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (مفاتح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلّا الله، لا يعلم متى تقوم السّاعة إلّا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلّا الله، ولا يعلم ما في غد إلّا الله، ولا تعلم نفس بأيّ أرض تموت إلّا الله، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلّا الله)، قال ابن مسعود: أوتي نبيّكم علم كلّ شيء إلّا مفاتيح الغيب.

ب. الثاني: أنها خزائن غيب السماوات من الأقدار والأرزاق، قاله ابن عباس.

ج. الثالث: ما غاب عن الخلق من الثواب والعقاب، وما تصير إليه الأمور، قاله عطاء.

د. الرابع: خزائن غيب العذاب، متى ينزل، قاله مقاتل.

هـ. الخامس: الوصلة إلى علم الغيب إذا استعلم، قاله الزّجّاج.

و. السادس: عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال.

ز. السابع: ما لم يكن، هل يكون، أم لا يكون؟ وما يكون كيف يكون، وما لا يكون إن كان، كيف يكون؟ فأمّا البرّ، فهو القفر.

٣. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في البحر قولان:

أ. أحدهما: أنه الماء، قاله الجمهور.

ب. الثاني: أنه القرى، قاله مجاهد.

٤. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال الزجّاج: المعنى: أنه يعلمها ساقطة وثابتة، كما تقول: ما يجيئك أحد إلّا وأنا أعرفه، ليس تأويله: أعرفه في حال مجيئه فقط.

٥. فأما ظلمات الأرض، فالمراد بها بطن الأرض.

٦. في الرّطب واليابس، خمسة أقوال:

أ. أحدها: أنّ الرّطب: الماء، واليابس: البادية.

ب. الثاني: الرّطب، ما ينبت، واليابس: ما لا ينبت.

ج. الثالث: الرّطب: الحيّ، واليابس: الميت.

د. الرابع: الرّطب: لسان المؤمن يذكر الله، واليابس: لسان الكافر لا يتحرّك بذكر الله.

هـ. الخامس: أنهما الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى، فهو يعلمه رطبا، ويعلمه يابسا.

٧. في الكتاب المبين قولان:

أ. أحدهما: أنه اللوح المحفوظ؛ قاله مقاتل.

ب. الثاني: أنه علم الله المتقن؛ ذكره الزّجّاج.

٨. سؤال وإشكال: ما الفائدة في إحصاء هذه الأشياء في كتاب؟ والجواب: عنه ثلاثة أجوبة، ذكرهنّ ابن الأنباريّ:

أ. أحدها: أنه أحصاها في كتاب، لتقف الملائكة على نفاذ علمه.

ب. الثاني: أنه نبّه بذلك عباده على تعظيم الحساب، وأعلمهم أنه لا يفوته ما يصنعون، لأنّ من يثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب، فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع.

ج. الثالث: أنّ المراد بالكتاب: العلم؛ فالمعنى: أنها مثبتة في علمه.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

قال الله تعالى في الآية السابقة ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعني أنه سبحانه هو العالم بكل شيء فهو يعجل ما تعجيله أصلح ويؤخر ما تأخيره أصلح.

١. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ المفاتح جمع مفتح، ومفتح، والمفتح بالكسر المفتاح الذي يفتح به والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهو مفتح، قال الفراء في قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ [القصص: ٧٦] يعني خزائنه فلفظ المفاتح:

أ. يمكن أن يكون المراد منه المفاتيح يتوصل بها إلى ما الخزائن أما على التقدير الأول، فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لان المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال فالعالم بتلك المفاتيح وكيفية استعمالها في فتح تلك الأغلاق والأقفال يمكنه أن يتوصل بتلك

---

(١) التفسير الكبير: ١٣/ ١١.

المفاتيح إلى ما في تلك الخزائن فكذلك هاهنا الحق سبحانه لما كان عالما بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بالعبارة المذكورة وقرئ (مفاتيح)

ب. وأما على التقدير الثاني فالمعنى وعنده خزائن الغيب، فعلى التقدير الأول يكون المراد العلم بالغيب، وعلى التقدير الثاني المراد منه القدرة على كل الممكنات كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

٢. للحكماء في تفسير هذه الآية كلام عجيب مفرع على أصولهم فإنهم قالوا: ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول وأن العلم بالمعلول لا يكون علة للعلم بالعلة، قالوا: وإذا ثبت هذا، فالموجود إما أن يكون واجبا لذاته، وإما أن يكون ممكنا لذاته، والواجب لذاته ليس إلا الله سبحانه وتعالى، وكل ما سواه فهو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بتأثير الواجب لذاته وكل ما سوى الحق سبحانه فهو موجود بإيجاده كائن بتكوينه واقع بإيقاعه، إما بغير واسطة واحدة وإما بوسائط كثيرة على الترتيب النازل من عنده طولا وعرضا، إذا ثبت هذا فإن علمه بذاته يوجب عمله بالأثر الأول الصادر منه، ثم علمه بذلك الأثر الأول يوجب عمله بالأثر الثاني لأن الأثر الأول علة قريبة للأثر الثاني، وقد ذكرنا أن العلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول فبهذا علم الغيب ليس إلا علم الحق بذاته المخصوصة ثم يحصل له من علمه بذاته علمه بالآثار الصادرة عنه على ترتيبها المعتبر، ولما كان علمه بذاته لم يحصل إلا لذاته لا جرم صح أن يقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فهذا هو طريقة هؤلاء الفرقة الذين فسروا هذه الآية بناء على هذه الطريقة.

٣. هاهنا دقيقة أخرى، وهي: أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الإعراض عن قضايا الحس والخيال وألفوا استحضار المعقولات المجردة، ومثل هذا الإنسان يكون كالنادر وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قضية عقلية محضة مجردة فالإنسان الذي يقوى عقله على الإحاطة بمعنى هذه القضية نادر جدا، والقرآن إنما أنزل لينتفع به جميع الخلق، فههنا طريق آخر وهو أن من ذكر القضية العقلية المحضة المجردة، فإذا أراد إيصالها إلى عقل كل أحد ذكر لها مثالا من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوما لكل أحد، والأمر في هذه الآية ورد على هذا

القانون:

أ. لأنه قال أولا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾

ب. ثم أكد هذا المعقول الكلي المجرد بجزئي محسوس فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وذلك لأن أحد أقسام معلومات الله هو جميع دواب البر، والبحر، والحس، والخيال قد وقف على عظمة أحوال البر والبحر، فذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظمة ذلك المعقول.

ج. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فيه دقيقة أخرى وهي: إنه تعالى قدم ذكر البر، لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر، وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات والمعادن، وأما البحر فإحاطة العقل بأحواله أقل إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر وطولها وعرضها أعظم وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب، فإذا استحضر الخيال صورة البحر والبر على هذه الوجوه، ثم عرف أن مجموعها قسم حقير من الأقسام الداخلة تحت قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيصير هذا المثال المحسوس مقويا ومكملا للعظمة الحاصلة تحت قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾

د. ثم إنه تعالى كما كشف عن عظمة قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ بذكر البر والبحر كشف عن عظمة البر والبحر بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وذلك لأن العقل يستحضر جميع ما في وجه الأرض من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، ثم يستحضر كم فيها من النجم والشجر ثم يستحضر أنه لا يتغير حال ورقة إلا والحق سبحانه يعلمها.

هـ. ثم يتجاوز من هذا المثال إلى مثال آخر أشد هيئة منه وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ وذلك لأن الحبة في غاية الصغر وظلمات الأرض موضع يبقى أكبر الأجسام وأعظمها مخفيا فيها فإذا سمع أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة في ظلمات الأرض على اتساعها وعظمتها لا تخرج عن علم الله تعالى ألبتة، صارت هذه الأمثلة منبهة على عظمة عظيمة وجلالة عالية من المعنى المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ بحيث تتحير العقول فيها وتتقاصر الأفكار والألباب عن الوصول إلى مباديها.

و. ثم إنه تعالى لما قوى أمر ذلك المعقول المحض المجرد بذكر هذه الجزئيات المحسوسة فبعد ذكرها

عاد إلى ذكر تلك القضية العقلية المحضة المجردة بعبارة أخرى فقال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهو عين المذكور في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فهذا ما عقلناه في تفسير هذه الآية الشريفة العالية، ومن الله التوفيق.

٤. ذكر المتكلمون أنه تعالى فاعل العالم بجواهره وأعراضه على سبيل الأحكام والإتقان، ومن كان كذلك كان عالما بها فوجب كونه تعالى عالما بها والحكماء قالوا: إنه تعالى مبدأ لجميع الممكنات، والعلم بالمبدأ يوجب العلم بالأثر فوجب كونه تعالى عالما بكلها، وهذا الكلام من أدل الدلائل على كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات الزمانية وذلك لأنه لما ثبت أنه تعالى مبدأ لكل ما سواه وجب كونه مبدأ لهذه الجزئيات بالأثر، فوجب كونه تعالى عالما بهذه التغيرات والزمانيات من حيث إنها متغيرة وزمانية وذلك هو المطلوب.

٥. قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ يدل على كونه تعالى منزها عن الضد والند وتقريره:

أ. أن قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ يفيد الحصر، أي عنده لا عند غيره، ولو حصل موجود آخر واجب الوجود لكان مفاتح الغيب حاصلة أيضا عند ذلك الآخر، وحينئذ يبطل الحصر.

ب. وأيضا فكما أن لفظ الآية يدل على هذا التوحيد، فكذلك البرهان العقلي يساعد عليه، وتقريره: أن المبدأ لحصول العلم بالآثار والنتائج والصنائع هو العلم بالمؤثر والمؤثر الأول في كل الممكنات هو الحق سبحانه، فالمفتح الأول للعلم بجميع المعلومات هو العلم به سبحانه لكن العلم به ليس إلا له لأن ما سواه أثر والعلم بالأثر لا يفيد العلم بالمؤثر، فظهر بهذا البرهان أن مفاتح الغيب ليست إلا عند الحق سبحانه.

٦. قراءات ووجوه: قرئ ولا حبة ولا رطب ولا يابس بالرفع وفيه وجهان:

أ. الأول: أن يكون عطفا على محل من ورقة.

ب. وأن يكون رفعا على الابتداء وخبره ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كقولك: لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار.

٧. في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قولان:

أ. الأول: أن ذلك الكتاب المبين هو علم الله تعالى لا غير، وهذا هو الصواب.

ب. الثاني: قال الزجاج: يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] وفائدة هذا الكتاب أمور:

أ. أحدها: أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات وأنه لا يغيب عنه مما في السموات والأرض شيء فيكون في ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقا له.

ب. ثانيها: يجوز أن يقال إنه تعالى ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيها للمكلفين على أمر الحساب وإعلاما بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى.

ج. ثالثها: أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم، وإلا لزم الجهل، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع أيضا تغييرها وإلا لزم الكذب فتصير كتبة جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجبا تاما وسببا كاملا في أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم كما قال ﷺ: (جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة)

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك، وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)، وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾

٢. ﴿مَفَاتِحُ﴾ جمع مفتح، هذه اللغة الفصيحة، ويقال: مفتاح ويجمع مفاتيح، وهي قراءة ابن

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ١.

السميقع (مفاتيح)، والمفتح عبارة عن كل ما يحل غلقا، محسوسا كان كالقفل على البيت أو معقول كالنظر، وروى ابن ماجه في سننه وأبو حاتم البستي في صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه):

أ. وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان، ولذلك قال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس افتح علي كذا، أي أعطني أو علمني ما أتوصل إليه به، فالله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبه عنها حجبه، ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾، ﴿الْآيَةَ﴾

ب. وقيل: المراد بالمفاتح خزائن الرزق، عن السدي والحسن، مقاتل والضحاك: خزائن الأرض، وهذا مجاز، عبر عنها بما يتوصل إليها به.

ج. وقيل: غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث أي عنده الآجال ووقت انقضائها.

د. وقيل: عواقب الأعمار وخواتم الأعمال، إلى غير هذا من الأقوال.

هـ. والأول المختار.

٣. ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾:

أ. قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا، وكذلك من قال إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته، لأنه ينزل متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة دون النوء، قال الله تعالى: (أصبح من من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب) على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

ب. قال ابن العربي: وكذلك قول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان

في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجبا في الخلقة لم يكفر ولم يفسق، وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة في كفره أيضا، فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن، أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾، وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره، فيشوشون عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين فأدبوا حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به[١].

ج. ومن هذا الباب أيضا ما جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)، والعراف هو الحازر والمنجم الذي يدعي علم الغيب، وهي من العرافة وصاحبها عراف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها، وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وأسباب معتادة في ذلك، وهذا الفن هو العيافة، وكلها ينطلق عليها اسم الكهانة، قاله القاضي عياض.

٤. الكهانة: ادعاء علم الغيب، قال أبو عمر بن عبد البر: من المكاسب المجتمع على تحريمها الربا ومهور البغايا والسحت والرشاء وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وادعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزمر واللعب والباطل كله، قال علماؤنا: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين، والكهان لا سيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال، وكل ذلك من الكبائر، لقول ﷺ: (لم تقبل لصلاة أربعين ليلة)، فكيف بمن اتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم، روى مسلم عن عائشة قالت: سأل رسول الله ﷺ أناس عن الكهان فقال: (إنهم ليسوا بشيء) فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانا بشيء فيكون حقا! فقال رسول الله ﷺ: (تلك الكلمة من الحق

---

(١) هذا رأي منهم لا علاقة له بالدين، ولا بالقرآن الكريم، وقد أنكره كبار العلماء كالغزالي وغيره

يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة)

٥. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر، ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها.

٦. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾:

أ. عن النبي ﷺ قال: (ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان بن فلان) وذلك قوله في محكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

ب. وحكى النقاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها السقط من أولاد بني آدم، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط، والرطب يراد به الحي، واليابس يراد به الميت، قال ابن عطية: وهذا قول جار على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه.

ج. وقيل: المعنى ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ أي من ورقة الشجر ألا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء، ولا حبة ألا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها.

٧. ﴿ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾:

أ. بطونها وهذا أصح، فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية، والله الموفق للهداية.

ب. وقيل: ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ يعني الصخرة التي هي أسفل الأرضين السابعة.

٨. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بالخفض عطفا على اللفظ، وقرأ ابن السميقع والحسن وغيرهما بالرفع فيهما عطفا على موضع ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾، فـ ﴿مِنْ﴾ على هذا للتوكيد.

٩. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾:

أ. أي في اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيان يلحقه تعالى عن ذلك.

ب. وقيل: كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر، أي اعلموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ المفاتح جمع مفتح بالفتح؛ وهو المخزن: أي عنده مخازن الغيب، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة، أو جمع مفتح بكسر الميم، وهو المفتاح، جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن منها على طريق الاستعارة أيضا، ويؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميقع وعنده مفاتيح الغيب فإن المفاتيح جمع مفتاح والمعنى: إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب، أو المفاتح التي يتوصل بها إلى المخازن.

٢. ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ جملة مؤكّدة لمضمون الجملة الأولى، وأنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجا أوّليا.

٣. في هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهّان والمنجّمين والرمليين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلي الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق ﷺ: (من أتى كاهنا أو منجّما فقد كفر بما أنزل على محمد).

٤. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خصّهما بالذّكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله: أي يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علما مفصلا لا يخفى عليه منه شيء أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما.

٥. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي من ورق الشجر وهو تخصيص بعد التعميم: أي يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه، وقيل: المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال والأرزاق، وحكى النقاش عن جعفر بن محمد: أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بني آدم، قال ابن عطية: وهذا قول جار على طريقة الرموز ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤١.

٦. ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ كائنة ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي في الأمكنة المظلمة، وقيل: في بطن الأرض ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بالخفض عطفا على حبة: وهي معطوفة على ورقة، وقرأ ابن السميقع والحسن وغيرهما بالرفع عطفا على موضع من ورقة، وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جميع الموجودات.

٧. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وقيل: هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ جمع مِفتَح ـ بكسر الميم وفتح التاء ـ أو مفتاح بالألف حذفت في الجمع كما في مصابح ومَحَارِب بلا ياء، عكس زيادتها في صياريف جمع صيرف بلا ألف، اسم آلَةِ فتحِ الباب، استعير للأمر الذي يتَوَصَّلُ به المخلوق من الأسباب إلى الغيب الذي يطلبه، أي: إلى مطلوبه الغائب؛ أو ذي الغيب فيحصل له، وتلك الأسباب خلقها الله تعالى ، فيوفِّق إليها المخلوق، وتسمى طرقًا، ولا يقال: يتَوَصَّلُ الله إلى المغيبات المحيط علمه بها إلَّا على معنى أنَّه خالقها، أو على معنى أنَّ عنده أسبابًا لإحضار المغيبات، أو أسبابًا يعلم بها المخلوق ما غاب كالوحي بأنواعه، والإلهام، والرؤيا مِمَّن اعتاد صدقها.

٢. شبَّه الغيب بالخزائن المستوثق منها بالأقفال، ورَمزَ إلى ذلك بذكر آلات الفتح، وإثباتُها تخييلٌ أو استعارة تمثيليَّة، أو جمع مَفتَح ـ بفتح الميم والتاء ـ مصدرًا ميميًّا بدون ألف، وهو قليل، بمعنى أنَّه يفتح الغيب على من يشاء من عباده، أو جمع مَفتَح ـ بفتح الميم والتاء ـ اسم مكان ميميًّا، أي: مواضع الفتح، كما فسَّره ابن عبَّاس بخزائن المطر، والمفتح: المخزن أو الكنز، أي: خزائن الغيب، أضيفت للغيب لغيوبتها، أو يراد بها القدرة الكاملة، وقيل: استعير العلم للمفاتح، والقرينة الإضافة للغيب.

٣. ومن مفاتح الغيب: هذه السورة، نزلت بِمَكَّةَ جملةً معها سبعون ألف ملك، تكاد الأرض ترتجُّ بصوت تسبيحهم وتحميدهم، فقال النبيء ﷺ : (سبحان ربِّي العظيم)، وخرَّ ساجدًا، قال ﷺ : (من قرأ سورة الأنعام صلَّت عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره)، وأمر بكتابتها، قال ابن عبَّاس: إلَّا قوله

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٨٣.

تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآيات الثلاث [٩١ ـ ٩٣]، وإلَّا قوله تعالى: ﴿قُل تَعَالَوَاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾ الآيات الثلاث [١٥١ ـ ١٥٣] ففي المدينة، وقيل: نزلت مَرَّتَيْنِ.

٤. ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ يعلمها نفسها وأوقاتها وحكمتها، قال عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ: (خمس لا يعلمها إلَّا الله تعالى: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلَّا الله تعالى، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلَّا الله، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا، ولا تدري نفس بأيِّ أرض تموت إلَّا الله، ولا يعلم متى الساعة إلَّا الله)، وقيل: ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب، وقيل: الثواب والعقاب، وقيل: انقضاء الآجال والسعادة والشقاوة وخواتم الأعمال، وقيل: الأقدار والأرزاق، وعن ابن عبَّاس: مفاتح الغيب خمس، وتلا: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]

٥. والجملة حال من المستتر في (عِندَ)، وناصبها (عِندَ) لنيابتها عن (اسْتَقَرَّت) المنتقل منه المضمر إلى (عِندَ)، أو ناصبه: اسْتَقَرَّ، أو حال من (مَفَاتِحُ) على قول سيبويه بجواز الحال من المبتدإ، والجملة خبر ثان، أو مستأنفة، وذلك إخبارٌ بتعلُّق علمه وحده بما غاب عن خلقه.

٦. وأخبر بتعلُّق علمه بما يشاهدونه في الجملة بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من الأجسام، وفي (مَفَاتِحِ الْغَيْبِ) أجسامٌ وأعراضُها، البرُّ: الأرض مطلقًا، والبحرُ: الماء المغرِق، البحر المحيط، وسائر البحار المالحة؛ وقيل: البحر: الماء المغرق ولو حُلوًا، وقيل: البرُّ: الصحراءُ، والبحر: خلافه؛ وقيل البرُّ: القفار، والبحر: كلُّ قرية فيها ماء، ولا يتبادر، [قلت] والصحيح ما ذكرتُ أوَّلاً.

٧. وذَكَر خصوص الأعراض والأحوال بقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَّرَقَةٍ اِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، فإنَّ السقوط والرطوبة واليبس وتوفِّيهم بالليل وكسبهم بالنهار مثلاً من الأعراض، وهي أحوال، وخصَّ سقوط الورقة دون سائر الأحوال لمناسبته لأحوال التوفِّي الآتية، ولأنَّ التغيُّر في الورقة أظهر، ولأنَّ العلم بالسقوط ـ والسقوط مِمَّا يغفل عنه ـ يستلزم العلم بما يُعتنى به، أي: وما تتغيَّر ورقة من حال إلى حال إلَّا يعلمها، وجميع الأرض إمَّا أرض خاصَّة أو أرض عليها ماء مُغرق، وفي كليتهما عجائب الصنع تدلُّ على كمال قدرته وسعة علمه مثلاً، أو البرُّ: المفازة التي لا ماء فيها ولا نبات، والبحر: القرى والأمصار، والجمهور على الأوَّل.

٨. وفي علمه بسقوط الورقة ونحوه وبما في البرِّ والبحر المقرونين بـ (ال) الاستغراقيَّة ـ أي: جميع

البرِّ والبحار ـ مبالغةٌ في إحاطة علمه بالجزئيَّات، وتلويحٌ بعلم العرش والكرسيِّ وغير ذلك، والأرضين كُلِّهنَّ، وقد يدخلن في لفظ البرِّ، وبعلم أجزاء الأرضين والبحار، وجملة (يَعْلَمُ) حال من (ورقة) ولو نكرة لتقدُّم النفي واستغراقها بـ (مِنْ) نصًّا.

٩. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الَارْضِ﴾ نَعت (حَبَّةٍ)، وظُلْمَة الأرضِ: داخلها الذي هو خلاف ظاهرها، وقيل: ما تحت الصخرة تحت الأرضين، وقيل: ما هو في ظلمة من ظلمات الأرض مثل داخل البيت الذي لا ضوء فيه، وما تحت حجرٍ أو ساترٍ غيرِه، وحالها ليلاً؛ وقيل: بطن المرأة أو غيرها من الجنين.

١٠. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ في ظلمات الأرض أو مطلقًا، معطوفات على (وَرَقَةٍ)، أي: وما تسقط من حبَّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس.

١١. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يتعلَّق بمحذوفٍ، حالٌ من الثلاثة، كأنَّه قيل: ولا تسقط حبَّة في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلَّا يعلمهنَّ، فإنَّ ما في اللوح المحفوظ المعبَّر عنه بالكتاب المبين معلوم لله جلَّ وعلا، وكذا إن فسَّرنا الكتاب المبين بعلمه تعالى، وذلك أولى من دعوى أنَّ قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ بدلٌ مطابق من قوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ إن فسِّر بالعلم، وبدل اشتمال إن فسِّر باللوح، إذ لا يتصوَّر إبدال الظرف من الجملة الفعليَّة، ولا بدل اشتمال بلا رابط، ويجوز كون (حَبَّةٍ) مبتدأً مجرورًا بـ (مِن) زائدة محذوفة لدلالة ما قبلُ، و(فِي كِتَابٍ) خبرُه، فلا ينسحب عليهنَّ السقوط، وقد ضعَّف بعضٌ انسحابَه عليهنَّ حين أُعرِبن بالعطف على (وَرَقَةٍ)

١٢. والحبَّة: الجزء الدقيق من تراب أو غيره، والحبَّة الثابتة قبل النبت، والرَّطْبُ: ما يُنبِت، والحيُّ، وما فيه بلل، واليابس: ما لا يُنبِت، وَالمَيِّتُ، وما لا بلل فيه، وهما عبارتان عن كلِّ مخلوق من الأجسام، فإنَّ الأجسام كلَّها إمَّا رطبة وإمَّا يابسة، وعن ابن عبَّاس : (الرطب: ما ينبت، واليابس: ما لا ينبت)، وعنه: (الرطب: الماء، واليابس: التراب)، وقيل: الرطب الحيُّ، واليابس الميِّت.

١٣. وكلُّ ما ذكر بعدُ تفصيلٌ لقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، وكيف لا يعلم ذلك وهو خالقه ومريد له؟، ودخل في علمه اختلاف محالِّ الحبَّات المنتقلة بالريح، أو بما شاء الله، وملاصقتها بجوانبها واختلاف التلاصق وألوانها، وكم بقيت مع أخرى من لحظة وأقلَّ.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بيّن تعالى اختصاص المقدورات الغيبية به، من حيث العلم، إثر بيان اختصاص جميعها به تعالى من حيث القدرة؛ بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ جمع (مفتح بكسر الميم، وهو المفتاح) وقرئ مفاتيح الغيب شبه بالأمور الجليلة التي يستوثق منها بالأقفال، وأثبت لها المفاتح تخييلا، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله، وإيذان بأن المراد الاختصاص من حيث العلم، والمعنى: ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدورا لي، حتى ألزمكم بتعجيله، ولا معلوما لديّ لأخبركم بوقت نزوله، بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلما، فينزله حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم والمصالح أفاده أبو السعود.

٢. ثم لما بين تعالى علمه بالمغيبات، تأثّره بالمشاهدات، على اختلاف أنواعها، وتكثر أفرادها بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من الخلق والعجائب، ثم بالغ في إحاطة علمه بالجزئيات الفائتة للحصر بقوله سبحانه ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: مكتوب ومحفوظ في العلم الإلهي.

٣. في (فتح البيان): في هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليّين وغيرهم من مدّعي الكشف والإلهام، ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة، والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق ﷺ: (من أتى كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل محمد)، قال ابن مسعود: أوتي نبيكم كل شيء إلا مفاتيح الغيب، قال ابن عباس: إنها الأقدار والأرزاق، وقال الضحاك: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب، وقال عطاء: هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب، وقيل: هو انقضاء الآجال، وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم، واللفظ أوسع من ذلك، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى، لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يدري أحد متى يجيء المطر)، وما أسلفناه في (الكتاب المبين)

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٨١.

من أنه (اللوح المحفوظ) هو المتبادر من إطلاقه أينما ورد، وقيل: الكتاب المبين علم الله تعالى، والأظهر الأول، قال الزجاج: يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق، كما قال عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، وفائدة هذا الكتاب أمور:

أ. أحدها: أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات، وأنه لا يغيب عنه مما في السموات والأرض شيء فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ، لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم، فيجدونه موافقا له.

ب. ثانيها: يجوز أن يقال: إنه تعالى ذكر ما ذكر، من الورقة والحبة، تنبيها للمكلفين على أمر الحساب، وإعلاما بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف، فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى.

ج. ثالثها: أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم، وإلا لزم الجهل، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام، امتنع أيضا تغييرها، وإلا لزم الكذب، فتصير كتبة جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجبا تامّا، وسببا كاملا في أنه يمتنع تقدم ما تأخر، وتأخر ما تقدم، كما قال ﷺ: جف القلب بما هو كائن إلى يوم القيامة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبين للمشركين أنه على بينة من ربه فيما بلغهم إياه من رسالته، وأن ما يستعجلون به من عذاب الله ونصره عليهم ـ تعجيزا أو تهكما أو عنادا ـ ليس عنده، وإنما هو عند الله الذي قضت سنته أن يكون لكل شيء أجل وموعد لا يتقدم ولا يتأخر عنه، وأنه تعالى هو الذي يقضي الحق ويقصه على رسوله وبيده تنفيذ وعده ووعيده ـ قفى على ذلك ببيان كون مفاتح الغيب عنده، وكون التصرف في الخلق بيده، وكونه هو القاهر فوق عباده لا يشاركه أحد من رسله ولا غيرهم في ذلك حتى

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٨٠

يصح أن يطالبوا به.

٢. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ المفاتح جمع مفتح ـ بفتح الميم ـ وهو المخزن، وبكسرها وهو المفتاح الذي تفتح به الأقفال، وقرئ في الشواذ (مفاتيح الغيب) ويؤيد هذه القراءة حديث ابن عمر الآتي في تفسير الآية، ويجوز استعمال اللفظ في معنييه، أي أن خزائن الغيب ـ وهو ما غاب علمه عن الخلق ـ هي عند الله تعالى وفي تصرفه وحده، وأن المفاتيح ـ أي الوسائل التي يتوصل بها إلى علم الغيب ـ هي عنده أيضا لا يعلمها علما ذاتيا إلا هو، فهو الذي يحيط بها علما وسواه جاهل بذاته لا يمكن أن يحيط علما بها ولا أن يعلم شيئا منها إلا بإعلامه عز وجل، وإذا كان الأمر كذلك فالواجب أن يفوض إليه إنجاز وعده لرسوله بالنصر، ووعيده لأعدائه بالعذاب والقهر، مع القطع بأنه لا يخلف وعده رسله، وإنما يؤخر إنجازه إلى الأجل الذي اقتضته حكمته، وقد تقدم في تفسير هذه السورة بيان حقيقة الغيب واستئثار الله تعالى بعلمه، وما يعلمه بعض خلقه من الحقيقي أو الإضافي منه، وسنزيد ذلك بيانا.

٣. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال الراغب: أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير، وقيل: إن أصله الماء الملح، وأطلق على الأنهار بالتوسع أو التغليب، والبر ما يقابله من الأرض، وهو ما يسميه علماء خرت الأرض باليابسة، وعلمه تعالى بما في البر والبحر من علم الشهادة المقابل لعلم الغيب، على أن أكثر ما في خفايا البر والبحر غائب عن علم أكثر الخلق، وإن كان في نفسه موجودا يمكن أن يعلمه الباحث منهم عنه، وقدم ذكر البر على البحر على طريقة الترقي من الأدنى إلى ما هو أعظم منه، فإن قسم البحر من الأرض أعظم من قسم البر، وخفاياه أكثر وأعظم.

٤. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي وما تسقط ورقة ما من نجم أو شجر ما إلا يعلمها؛ لإحاطة علمه بالجزئيات كلها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي وما تسقط من حبة بفعل فاعل مختار في ظلمات الأرض كالحب الذي يلقيه الزراع في بطون الأرض يسترونه بالتراب فيحتجب عن نور النهار، والذي تذهب به النمل وغيرها من الحشرات في قراها وجحورها، أو بغير فعل فاعل كالذي يسقط من النبات في شقوقها وأخاديدها، وما يسقط من رطب ولا يابس من الثمار ونحوها ـ إلا كائن في كتاب مبين ـ وهو علم الله تعالى الذي يشبه المكتوب في الصحف بثباته وعدم تغيره ـ أو كتابه الذي كتب فيه مقادير الخلق كما ورد في الحديث الصحيح وسيأتي ذكره، وهو بمعنى قوله فيما قبله:

﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ ولذلك قيل: إنه تكرير له بالمعنى، وقيل: بدل كل أو بدل اشتمال منه.

٥. سؤال وإشكال: ما حكمة تخصيص هذه الأشياء بالذكر؟ والجواب: إن المعلوم ـ أو ما يتعلق به العلم إما موجود وإما معدوم، والموجود إما حاضر مشهود، وإما غائب في حكم المفقود، وليس في الوجود شيء غائب عن الله تعالى، فعلمه تعالى بالأشياء إما علم غيب وهو علمه بالمعدوم، وإما علم شهادة وهو علمه بالموجود، وأما أهل العلم من الخلق فمن الموجودات ما هو حاضر مشهود لديهم، ومنها ما هو حاضر غير مشهود؛ لأنه لم يخلق لهم آلة للعلم به كعالم الجن والملائكة مع الإنس، ومنها ما هو غائب عن شهودهم وهم مستعدون لإدراكه لو كان حاضرا، وما هو غائب وهم غير مستعدين لإدراكه لو حضر، فكل ما خلقوا غير مستعدين لإدراكه من موجود ومعدوم فهو غيب حقيقي بالنسبة إليهم، وكل ما خلقوا مستعدين لإدراكه دائما أو في بعض الأحوال فهو ـ إن غاب عنهم ـ غيب إضافي.

٦. وقد بين الله تعالى لنا في هذه الآية أن خزائن عالم الغيب كلها عنده، وعنده مفاتيحها وأسبابها الموصلة إليها، وأن عنده من علم الشهادة ما ليس عند غيره، وذكر على سبيل المثل علمه بكل ما في البر والبحر من ظاهر وخفي، ثم خص بالذكر ثلاثة أشياء مما في البر: إحاطة علمه بكل ورقة تسقط من نبتة، وكل حبة تسقط في ظلمات الأرض، وكل رطب ويابس، فأما الورق الذي يسقط فهو ما كان حبا رطبا من النبات فأشرف على اليبس وفقد الحياة النباتية والتحق بمواد الأرض الميتة، وقد يتغذى به حيوان بعد يبسه أو قبله، أو يتحلل في الأرض بعد سقوطه، ويتغذى به نبات آخر فيدخل في عالم الأحياء بطور آخر، وأما الحب فهو أصل تكوين النبات الحي يسقط في ظلمات الأرض، فمنه ما ينبت ويكون نجما أو شجرا، ومنه ما يتغذى به بعض الأحياء من الحيوان، كالطير والحشرات، فيدخل في بنيتها كما قلنا فيما قبله، وأما ذكر الرطب واليابس فهو تعميم بعد تخصيص في هذا الباب، فهذه الأشياء من عالم الشهادة تدخل في عالم الغيب، ثم تبرز في عالم الشهادة، وعلم الله تعالى محيط بكل شيء منها على كثرتها ودقة بعضها وصغره، وتنقله في أطوار الخلق والتكوين وما يتبعها من الصور والمظاهر، وحسبك هذا الإيماء من حكمة تخصيصها بالذكر.

٧. فهم علماء الكلام والحكماء للآية،[١].. هذا ما أورده الرازي في تفسير الآية، وما نقله عن الحكماء يريد به إثبات علم الغيب لله تعالى على طريقتهم، ولا يقتضي ذلك إقرار تلك الطريقة وما قالوه في المعلوم والعلة.

٨. هذا وإن في تفسير مفاتح الغيب حديثا صحيحا فيه مباحث دقيقة، فقد روى البخاري في تفسير سورة الأنعام عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: (مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾) وهذه الآية خاتمة (سورة لقمان)، وقد روى البخاري في تفسيرها هذا الحديث، عن عبد الله بن عمر مرفوعا بلفظ (مفاتيح الغيب خمس) ثم قرأ ﴿إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ورواه بلفظ (مفاتيح) في كتاب التوحيد أيضا، وبلفظ (مفاتح) في تفسير المائدة والرعد، وبلفظ (مفتاح) في أبواب الاستسقاء، وروى أحمد والبزار، وصححه ابن حبان والحاكم، من حديث بريدة رفعه قال: (خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية.

٩. وذكر العلماء في تفسير الآية والحديث قول عيسى ـ عليه السلام ـ الذي حكاه الله تعالى عنه في سورة آل عمران: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن الذي حكاه الله عنه في سورته: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ وأجابوا عنه بأنه داخل في فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب، فقد قال في سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾، وأدخلوا فيه ما نقل كثيرا عن الأولياء من الكشف المشتمل على مثل هذه الحوادث من كسب الناس والإخبار بما في الأرحام، وبموت بعض الناس قبل وقوعه، ووجهوه بأن الولي لما حصل له هذا الكشف باتباعه للرسول كان الكشف للرسول بالأصالة وله بالتبع، وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزية بقوله:

والكرامات منهم معجزات حازها من نوالك الأولياء

ولكن ظاهر الحصر في الآية ينافي هذا الرأي، والصواب في هذا الباب ما حققناه هنا وفي تفسير

(١) ذكر ما سبق ذكره من تفسير الرازي لها

الآية الخمسين من هذه السورة (الأنعام) فمنه يعلم أن أمثال هذه المكاشفات ليست من علم الغيب الحقيقي الذي استأثر الله به، وأن ما يظهر الله عليه الرسل من الغيب الحقيقي لا يقتضي أن يكون من علمهم الكسبي الذي يصح أن يسند إليهم على سبيل الحقيقة.

١٠. سبب الذكورة والأنوثة في الحمل: مما قد يستشكله في هذا المقام من لم يقف على حقيقة علم الغيب التي حررناها هنا وفي تفسير الآية الخمسين من هذه السورة ـ ما اكتشفه بعض الأطباء من سنة الله تعالى في سبب الذكورة والأنوثة في الحمل[١]

١١. بعد أن كتبت ما تقدم في المسألة وطبع في المنار بقي في نفسي شيء منه، فتفكرت فيه عند النوم فظهر لي أن العلم بسنة الله تعالى في سبب الذكورة والأنوثة لم يترتب عليه علم أحد علما قطعيا بما في رحم امرأة بعينها حتى مع العلم بالشروط التي اشترطوها للعلم بذلك ـ دع العلم بجميع ما في أرحام جميع الإناث من أنواع الحيوان كلها ـ وإنما ترتب عليه الظن الغالب في حال العلم بالشروط، والجهل التام في حال عدم العلم بها، والعلم الصحيح بما في الرحم هو الذي لا يتوقف على صدق الحامل فيما أخبرت من تحديد شهر الولادة ولا على خلو الرحم من بيض تكون على خلاف القاعدة التي ذكروها من كون الأصل فيه أن يكون مرة في كل أربعة أسابيع، فإنهم جزموا بأن هذه القاعدة غير مطردة ـ ولا على تكون البيض في جانبي الرحم في وقت واحد وهو الذي يكون سبب الحمل بالتوأمين المختلفين، فاحتمال وقوع هذه الأحوال في كل حمل وإن كان قليلا ينفي العلم القطعي بما في رحم أي امرأة بعينها، فما القول في العلم بما في الأرحام كلها؟.

١٢. خطر لي هذا المعنى في الفراش، وانتقل ذهني منه إلى قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ فهو وحده الذي يعلم حمل كل أنثى أذكر هو أم أنثى، وما تغيض الأرحام من نقص الحمل أو فساده بعد العلوق، وما تزداد من الحمل كالحمل بالتوأمين أو أكثر، وقد روى الشافعي عن شيخ بمنى أن امرأته ولدت له بطونا في كل منها خمسة أولاد، فأنى يهتدي إلى العلم بمثل هذه النوادر الأطباء؟ وسنزيد

(١) ذكر بعض التفاصيل المرتبطة بهذا، لا علاقة لها بالآية، ولا بالعلم الحديث

هذا البحث إيضاحا في سورة الرعد إذا أطال الله عمرنا ووفقنا لتفسيرها.

١٣. وجه تفسير مفاتح الغيب بهذه الخمس: لم أر لأحد كلاما في وجه تفسير مفاتح الغيب بالخمس المذكورة في آخر سورة لقمان، وكنت قد فكرت في ذلك في أيام طلبي للعلم، فظهر لي أن علم الله تعالى بجميع الموجودات علم شهادة، وعلمه بما لم يوجد علم غيب، وأن ما لم يوجد فخزائنه أو مفاتيح خزائنه التي يستفيد الناس من بيانها هي تلك الخمس، وهي لم تذكر بصيغة الحصر، وقد بينت ذلك في كتابي (الحكمة الشرعية) الذي ألفته في عهد الطلب في سياق البحث في الكشف عن أنواع كرامات الأولياء، وبعد ذكر الآية والحديث في تفسيرها بتلك الخمس[1].

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. بعد أن أمر عز اسمه رسوله ﷺ أن يبين للمشركين أنه على بينة من ربه فيما بلغهم إياه من رسالته، وأن ما يستعجلونه عذاب الله تعجيزا أو تهكما ليس عنده، وإنما هو عند الله، وقد قضت سنته أن يجعل لكل شيء أجلا وموعدا لا يتقدم ولا يتأخر، وأن الله تعالى هو الذي يقضي الحق ويقصه على رسوله ـ ذكر هنا أن مفاتح الغيب عنده وأن التصرف في الخلق بيده، وأنه هو القاهر فوق عباده لا يشاركه أحد من رسله ولا من سواهم في ذلك.

٢. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي إن خزائن الغيب عند الله وهو المتصرف فيها وحده، وكذلك المفاتيح أي الوسائل التي يتوصل بها إلى علم الغيب هي عنده أيضا لا يعلمها علما ذاتيا إلا هو، فهو الذي يحيط بها علما وسواه جاهل بذاته لا يعلم منها شيئا إلا بإعلامه عزّ وعلا، فعلينا أن نفوض إليه إنجازه وعده لرسله بالنصر، ووعيده لأعدائه بالعذاب والقهر، وأن نجزم بأنه لا يخلف وعده رسله وإنما يؤخر تنفيذه إلى الأجل الذي اقتضته حكمته.

٣. وما حكاه الله عن عيسى عليه السلام من قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وما قاله يوسف عليه السلام لصاحبي السجن ﴿لَا يَأْتِيكُمَا﴾ داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب

---

(١) ذكر كلاما طويلا مفصلا في هذا، لا علاقة مباشرة له بالآية الكريمة

(٢) تفسير المراغي ٧/ ١٤٥.

كما قال في سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾، وجاء في معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾

٤. روى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعا: (كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض)، لهذا الحديث والآثار المروية اتفق علماء التفسير بالمأثور على تفسير الكتاب المبين وأم الكتاب والذكر في نحو ما تقدم من الآيات ـ باللوح المحفوظ، وهو شيء أخبر الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته، فعلينا أن نؤمن بأنه شيء موجود وأن الله قد حفظ فيه كتابه، وأما دعوى أنه جرم مخصوص في سماء معينة فمما لم يثبت عن المعصوم ﷺ بالتواتر، فلا ينبغي أن يدخل في باب العقائد لدى المؤمنين.

٥. وروى عن الحسن أن حكمة كتابة الله لمقادير الخلق تنبيه المكلفين إلى عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب، وزاد بعضهم حكمتين أخريين:

أ. اعتبار الملائكة عليهم السلام بموافقة المحدثات للمعلومات الإلهية.

ب. عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب، ويؤيده ما روى البخاري عن أبي هريرة، (جفّ القلم بما أنت لاق)

٦. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي وعنده علم ما لم يغب عنكم، لأن ما فيهما ظاهر للعين يعلمه العباد وعلمه تعالى بما فيهما علم شهادة مقابل لعلم الغيب.

٧. والخلاصة ـ إن عنده علم ما غاب عنكم مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه وعند علم ما يعلمه جميعكم لا يخفى عليه شيء منه، فعنده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة.

٨. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي وما تسقط ورقة من نجم أو شجر في الصحارى والبراري، أو في الأمصار والقرى إلا والله عليم بها.

٩. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي وما تسقط من حبة بفعل الإنسان باختياره كالحب الذي يلقيه الزّراع في بطون الأرض يسترونه بالتراب فيحتجب عن نور النهار، أو تذهب به النمل في قراها وجحورها، أو بغير فعل الإنسان كالذي يسقط من النبات في الشقوق

والأخاديد، وما يسقط من الثمار رطبا ويابسا ـ إلا وهو في كتاب مبين وهو اللوح المحفوظ الذي كتب ذلك فيه وكتب عدده والوقت الذي يوجد فيه والذي يفنى فيه، وجعل الكتاب مبينا لأنه يبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم، هذا هو الذي اختاره الزجاج لقوله في الآية الأخرى، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾، واختار الرازي أن الكتاب المبين علم الله تعالى الذي شبه المكتوب في الصحف بثباته وعدم تغيره.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بمناسبة علم الله سبحانه بالظالمين؛ واستطرادا في بيان حقيقة الألوهية؛ يجلي هذه الحقيقة في مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة.. مجال الغيب المكنون، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء ويرسم صورة فريدة لهذا العلم؛ ويرسل سهاما بعيدة المدى تشير إلى آماده وآفاقه من بعيد: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَويَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾.. إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط؛ الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب..

٢. ولكن أين هذا الذي نقوله نحن ـ بأسلوبنا البشري المعهود ـ من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد، من ذلك التصوير العميق الموحي؟ إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود.. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد، وهو يرتاد ـ أو يحاول أن يرتاد ـ أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل؛ البعيدة الآماد والآفاق والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله؛ لا يعلمها إلا هو.. ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد، وعين

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١١٢.

الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط..

٣. إنها جولة تدير الرؤوس وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول.. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصور آمادها الخيال.. وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات.. ألا إنه الإعجاز!

٤. وننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز، الناطق بمصدر هذا القرآن، ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى: بأن هذا كلام لا يقوله بشر؛ فليس عليه طابع البشر.. إن الفكر البشري ـ حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع: موضوع شمول العلم وإحاطته ـ لا يرتاد هذه الآفاق.. إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود، إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته.. فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر، في كل أنحاء الأرض؟

٥. إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء، لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصي ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض، ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق؛ ويعبر عنه الخالق! وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض؟ إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحب الذي يخبئونه هم في جوف الأرض ويرتقبون إنباته.. فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض؛ فمما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به، ولا أن يلحظوا وجوده، ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل! إنما الحب المخبوء في ظلمات الأرض شان يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق! وما اهتمام الفكر بهذا الإطلاق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم.. فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل، فهذا ليس من المعهود في اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك! إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق! ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة، وكل حبة مخبوءة، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين، وفي سجل محفوظ.. فما شأنهم بهذا، وما فائدته لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك، الذي لا يند عنه شيء في ملكه.. الصغير كالكبير؛ والحقير كالجليل؛

والمخبوء كالظاهر؛ والمجهول كالمعلوم؛ والبعيد كالقريب..

٦. إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع.. مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعا، والحب المخبوء في أطواء الأرض جميعا، والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعا.. إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري؛ وكذلك لا تلحظه العين البشرية؛ ولا تلم به النظرة البشرية.. إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده؛ المشرف على كل شيء المحيط بكل شيء.. الحافظ لكل شيء الذي تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء.. الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب..

٧. والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيدا حدود التصور البشري، وحدود التعبير البشري أيضا، ويعلمون ـ من تجربتهم البشرية ـ أن مثل هذا المشهد، لا يخطر على القلب البشري؛ كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضا.. والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله، ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلا! وهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم تكفي وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم..

٨. كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفني في التعبير ذاته، فنرى آفاقا من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر، على هذا المستوى السامق:

أ. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، آماد وآفاق وأغوار في (المجهول) المطلق، في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل، وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان..

ب. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، آماد وآفاق وأغوار في (المنظور)، على استواء وسعة وشمول.. تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب.

ج. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، حركة الموت والفناء؛ وحركة السقوط والانحدار، من علو إلى سفل، ومن حياة إلى اندثار.

د. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾، حركة البزوغ والنماء، المنبثقة من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق.

هـ. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، التعميم الشامل، الذي يشمل الحياة والموت،

والازدهار والذبول؛ في كل حي على الإطلاق..

٩. فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق؟ ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال؟. من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك كله، في مثل هذا النص القصير.. من؟ إلا الله!

١٠. ثم نقف أمام قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، نقف لنقول كلمة عن (الغيب) و(مفاتحه) واختصاص الله سبحانه (بالعلم) بها.. ذلك أن حقيقة الغيب من (مقومات التصور الإسلامي) الأساسية؛ لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية؛ ومن قواعد (الإيمان) الرئيسية.. وذلك أن كلمات (الغيب) و(الغيبية) تلاك في هذه الأيام كثيرا ـ بعد ظهور المذهب المادي ـ وتوضع في مقابل (العلم) و(العلمية).. والقرآن الكريم يقرر أن هناك (غيبا) لا يعلم (مفاتحه) إلا الله، ويقرر أن ما أوتيه الإنسان من العلم قليل.. وهذا القليل إنما آتاه الله له بقدر ما يعلم هو سبحانه من طاقته ومن حاجته، وأن الناس لا يعلمون ـ فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه ـ إلا ظنا، وأن الظن لا يغني من الحق شيئا.. كما يقرر سبحانه أن الله قد خلق هذا الكون، وجعل له سننا لا تتبدل؛ وأنه علم الإنسان أن يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها؛ ويتعامل معها ـ في حدود طاقته وحاجته ـ وأنه سيكشف له من هذه السنن في الأنفس والآفاق ما يزيده يقينا وتأكدا أن الذي جاءه من عند ربه هو الحق.. دون أن يخل هذا الكشف عن سنن الله التي لا تبديل لها، بحقيقة (الغيب) المجهول للإنسان، والذي سيظل كذلك مجهولا، ولا بحقيقة طلاقة مشيئة الله وحدوث كل شيء بقدر غيبي خاص من الله، ينشئ هذا الحدث ويبرزه للوجود.. في تناسق تام في العقيدة الإسلامية، وفي تصور المسلم الناشئ من حقائق العقيدة.. فهذه الحقائق بجملتها ـ على هذا النحو المتعدد الجوانب المتناسق المتكامل ـ تحتاج منا هنا ـ في الظلال ـ إلى كلمة نحاول بقدر الإمكان أن تكون مجملة، وأ لا تخرج عن حدود المنهج الذي اتبعناه في الظلال أيضا.

١١. إن الله سبحانه يصف المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب؛ فيجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، والإيمان بالله سبحانه هو إيمان بالغيب، فذات الله سبحانه غيب بالقياس إلى البشر؛ فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب، يجدون آثار فعله، ولا

يدركون ذاته، ولا كيفيات أفعاله، والإيمان بالآخرة كذلك، هو إيمان بالغيب، فالساعة بالقياس إلى البشر غيب، وما يكون فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن، تصديقا لخبر الله سبحانه.

١٢. والغيب الذي يتحقق الإيمان بالتصديق به يشمل حقائق أخرى يذكرها القرآن الكريم في وصف واقع المؤمنين وعقيدتهم الشاملة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فنجد في هذا النص أن رسول الله ﷺ والمؤمنين كذلك، كلٌّ آمن بالله ـ وهو غيب ـ وآمن بما أنزل الله على رسوله ـ وما أنزل الله على رسوله فيه جانب من اطلاعه ﷺ على جانب من الغيب بالقدر الذي قدره الله سبحانه كما قال في الآية الأخرى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾،

١٣. وآمن بالملائكة ـ وهي غيب ـ لا يعرف عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله، على قدر طاقتهم وحاجتهم.

١٤. ويبقى من الغيب الذي لذا لا يقوم الإيمان إلا بالتصديق به: قدر الله ـ وهو غيب لا يعلمه الإنسان حتى يقع ـ كما جاء في حديث الإيمان (والقدر خيره وشره).. (أخرجه الشيخان)..

١٥. على أن الغيب في هذا الوجود يحيط بالإنسان من كل جانب.. غيب في الماضي وغيب في الحاضر، وغيب في المستقبل.. غيب في نفسه وفي كيانه، وغيب في الكون كله من حوله.. غيب في نشأة هذا الكون وخط سيره، وغيب في طبيعته وحركته.. غيب في نشأة الحياة وخط سيرها، وغيب في طبيعتها وحركتها.. غيب فيما يجهله الإنسان، وغيب فيما يعرفه كذلك! ويسبح الإنسان في بحر من المجهول.. حتى ليجهل اللحظة ما يجري في كيانه هو ذاته فضلا على ما يجري حوله في كيان الكون كله؛ وفضلا عما يجري بعد اللحظة الحاضرة له وللكون كله من حوله: ولكل ذرة، وكل كهرب من ذرة؛ وكل خلية وكل جزئي من خلية! إنه الغيب.. إنه المجهول.. والعقل البشري ـ تلك الذبالة القريبة المدى ـ إنما يسبح في بحر المجهول.

١٦. فلا يقف إلا على جزر طافية هنا وهنالك يتخذ منها معالم في الخضم، ولولا عون الله له،

وتسخير هذا الكون، وتعليمه هو بعض نواميسه، ما استطاع شيئا.. ولكنه لا يشكر.. ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، بل إنه في هذه الأيام ليتبجح بما كشف الله له من السنن، وبما آتاه من العلم القليل.. يتبجح فيزعم أحيانا أن (الإنسان يقوم وحده)[1] ولم يعد في حاجة إلى إله يعينه! ويتبجح أحيانا فيزعم أن (العلم) يقابل (الغيب) وأن (العلمية) في التفكير والتنظيم تقابل (الغيبية) وأنه لا لقاء بين العلم والغيب؛ كما أنه لا لقاء بين العقلية العلمية والعقلية الغيبية! فلنلق نظرة على وقفة (العلم) أمام (الغيب).. في بحوث وأقوال (العلماء) من بني البشر أنفسهم ـ بعد أن نقف أمام كلمة الفصل التي قالها العليم الخبير عن علم الإنسان القليل ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾، [النجم: ٢٩] وأن الغيب كله لله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، [الأنعام: ٥٩] وأن الذي يعلم الغيب هو الذي يرى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾.. [النجم: ٣٥].. وهي ناطقة بذاتها عن مدلولاتها..

١٧. فلنلق نظرة على وقفة (العلم) أمام (الغيب) في بحوث وأقوال العلماء من بني الإنسان لا لنصدق بها كلمة الفصل من الله سبحانه ـ فحاشا للمؤمن أن يصدق قول الله بقول البشر ـ ولكننا نقف هذه الوقفة لنحاكم الذين يلوكون كلمات العلم والغيب، والعلمية والغيبية، إلى ما يؤمنون هم به من قول البشر! ليعلموا أن عليهم هم أن يحاولوا (الثقافة) و(المعرفة) ليعيشوا في زمانهم؛ ولا يكونوا متخلفين عن عقليته ومقررات تجاربه! وليستيقنوا أن (الغيب) هو الحقيقة (العلمية) الوحيدة المستيقنة من وراء كل التجارب والبحوث والعلم الإنساني ذاته! وأن (العلمية) في ضوء التجارب والنتائج الأخيرة مرادفة تماما (للغيبية).. أما الذي يقابل الغيبية حقا فهو (الجهلية)! الجهلية التي تعيش في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ـ ربما ـ ولكنها لا تعيش في القرن العشرين! عالم معاصر ـ من أمريكا ـ يقول عن (الحقائق) التي يصل إليها (العلم) بجملتها: (إن العلوم حقائق مختبرة؛ ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته، ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ، وهي تبدأ بالاحتمالات، وتنتهي

(١) عنوان كتاب للملحد جوليان هاكسلي

بالاحتمالات كذلك.. وليس باليقين.. ونتائج العلوم بذلك تقريبية، وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات؛ ونتائجها اجتهادية، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف، وليست نهائية، وإننا لنرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول: إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن، ويترك الباب مفتوحا لما قد يستجد من التعديلات)

١٨. وهذه الكلمة تلخص حقيقة جميع النتائج التي وصل إليها العلم، والتي يمكن أن يصل إليها كذلك، فطالما أن (الإنسان) بوسائله المحدودة، بل بوجوده المحدود بالقياس إلى الأزل والأبد هو الذي يحاول الوصول إلى هذه النتائج؛ فإنه من الحتم أن تكون مطبوعة بطابع هذا الإنسان، ولها مثل خصائصه من كونها محدودة المدى؛ وقابلة للخطإ والصواب، والتعديل والتبديل..

١٩. على أن الوسيلة التي يصل بها الإنسان إلى أية نتيجة هي التجربة والقياس، فهو يجرب، ثم يعمم النتيجة التي يصل إليها عن طريق القياس؛ والقياس ـ باعتراف العلم وأهله ـ وسيلة تؤدي إلى نتيجة ظنية؛ ولا يمكن أبدا أن تكون قطعية ولا نهائية، والوسيلة الأخرى ـ وهي التجربة والاستقصاء بمعنى تعميم التجربة على كل ما هو من جنس ما وقعت عليه التجارب في جميع الأزمنة وفي جميع الظروف ـ وسيلة غير مهيأة للإنسان، وهي إحدى الوسائل الموصلة إلى نتائج قطعية، ولا سبيل إلى نتيجة قطعية وحقيقة يقينية إلا عن طريق هدى الله الذي يبينه للناس، ومن ثم يبقى علم الإنسان فيما وراء ما قرره الله له، علما ظنيا لا يصل إلى مرتبة اليقين بحال! على أن (الغيب) ضارب حول الإنسان فيما وراء ما يصل إليه علمه الظني ذاك..

٢٠. هذا الكون من حوله.. إنه ما يزال يضرب في الفروض والنظريات حول مصدره ونشأته وطبيعته وحول حركته، وحول (الزمان) ما هو وحول (المكان) وارتباطه بالزمان وارتباط ما يجري في الكون بالزمان والمكان، والحياة، ومصدرها، ونشأتها، وطبيعتها، وخط سيرها، والمؤثرات فيها، وارتباطها بهذا الوجود (المادي)! إن كان هناك في الكون مادة على الإطلاق ذات طبيعة غير طبيعة (الفكر) وغير طبيعة الطاقة على العموم! (والإنسان) ما هو؟ ما الذي يميزه من المادة؟ وما الذي يميزه عن بقية الأحياء؟ وكيف جاء إلى هذه الأرض وكيف يتصرف؟ وما (العقل) الذي يتميز به ويتصرف؟ وما مصيره بعد الموت والانحلال؟، بل هذا الكيان الإنساني ذاته، ما الذي يجري في داخله من تحليل وتركيب في كل لحظة؟

وكيف يجري؟.. إنها كلها ميادين للغيب، يقف العلم على حافاتها، ولا يكاد يقتحمها، حتى على سبيل الظن والترجيح، وإن هي إلا فروض واحتمالات!

٢١. ولندع ما لا يشغل العلم به نفسه ـ إلا قليلا في هذا القرن ـ من حقيقة الألوهية، وحقيقة العوالم الأخرى من ملائكة وجن وخلق لا يعلمه إلا الله، ومن حقيقة الموت، وحقيقة الآخرة، وحقيقة الحساب والجزاء.. لندع هذا كله لحظة ففي (الغيب) القريب، الكفاية، ومن هذا الغيب يقف العلم وقفة التسليم، الذي لا يخرج عنه إلا من يؤثرون المراء على (العلم) والتبجح على الإخلاص! ونضرب بعض الأمثال..

أ. في قاعدة بناء الكون وسلوكه:

• الذرة ـ فيما يقول العلم الحديث ـ قاعدة بناء الكون، وليست هي أصغر وحدة في بناء هذا العالم، فهي مؤلفة من بروتونات (طاقة كهربية موجبة) والكترونات (طاقة كهربية سالبة) ونيوترونات (طاقة محايدة مكونة من طاقة كهربائية موجبة وطاقة كهربائية سالبة متعادلتين ساكنتين) وحين تحطم الذرة تتحرر الكهارب (الإلكترونات) ولكنها لا تسلك في المعمل سلوكا حتميا موحدا، فهي تسلك مرة كأنها أمواج ضوئية ومرة كأنها قذائف، ولا يمكن تحديد سلوكها المقبل مقدما، وإنما هي تخضع لقانون آخر ـ غير الحتمية ـ هو قانون الاحتمالات، وكذلك تسلك الذرة نفسها، والمجموعة المحدودة من الذرات (في صورة جزئيات) هذا السلوك.

• يقول سير جيمس جينز ـ الإنجليزي ـ الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات: (لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق، أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقا واحدا: وهو الطريق الذي رسم من قبل، لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول، وألا مناص من أن الحالة (ا) تتبعها الحالة (ب) أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن هو: أن الحالة (ا) يحتمل أن تتبعها (ب) أو (ج) أو (د) أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر، نعم إن في استطاعته أن يقول: إن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالا من حدوث الحالة (ج) وإن الحالة (ج) أكثر احتمالا من الحالة (د).. وهكذا، بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات (ب) و(ج) و(د) بعضها بالنسبة إلى بعض، ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين: أي الحالات تتبع الأخرى، لأنه يتحدث دائما عما يحتمل، أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار ـ مهما تكن حقيقة هذه الأقدار!)، فماذا يكون

(الغيب) وماذا يكون قدر الله المغيب عن علم الإنسان، إن لم يكن هو هذا الذي تنتهي إليه تجارب العلم الإنساني، وتقف على عتباته في صلب الكون وذراته؟

• ويضرب مثلا لذلك إشعاع ذرات الراديوم، وتحولها إلى رصاص وهليوم.. وهي خاضعة تماما لقدر مجهول، وغيب مستور، يقف دونه علم الإنسان: (ولنضرب لذلك مثلا ماديا يزيده وضوحا: من المعروف أن ذرات الراديوم وغيره من المواد ذات النشاط الإشعاعي، تتفكك بمجرد مرور الزمن عليها، وتخلف وراءها ذرات من الرصاص والهليوم، ولهذا فإن كتلة من الراديوم ينقص حجمها باستمرار، ويحل مكانها رصاص وهليوم، والقانون العام الذي يتحكم في معدل التناقص غريب غاية الغرابة، ذلك أن كمية من الراديوم تنقص بنفس الطريقة التي ينقص بها عدد من السكان، إذا لم تجد عليهم مواليد، وكانت نسبة تعرض كل منهم للوفاة واحدة بغض النظر عن السن؛ أو أنها تنقص كما ينقص عدد أفراد كتيبة من الجند معرضين لنيران ترسل عليهم اعتباطا، ومن غير أن يكون أحدهم مقصودا لذاته، ومجمل القول إنه ليس لكبر السن أثر ما في ذرة الراديوم الواحدة، فإنها لا تموت لأنها قد استوفت حظها من الحياة، بل لأن المنية قد أصابتها خبط عشواء، (ولنوضح هذه الحقيقة بمثل مادي فنقول: إذا فرض أن بحجرتنا ألفين من ذرات الراديوم، فإن العلم لا يستطيع أن يقول: كم منها يبقى حيا بعد عام، بل كل ما يستطيعه هو أن يذكر فقط الاحتمالات التي ترجح بقاء ٢٠٠٠ أو ١٩٩٩ أو ١٩٩٨، وهكذا، وأكثر الأمور احتمالا في الواقع هو أن يكون العدد ١٩٩٩، أي أن أرجح الاحتمالات هو أن ذرة واحدة لا أكثر من الألفي ذرة، هي التي تتحلل في العام التالي)، (ولسنا ندري بأية طريقة تختار تلك الذرة المعينة من بين هذه الألفي ذرة، وقد نشعر في بادئ الأمر بميل إلى افتراض أن هذه الذرة ستكون هي التي تتعرض للاصطدام أكثر من غيرها، أو التي تقع في أشد الأمكنة حرارة، أو التي يصادفها غير هذا أو ذاك من الأسباب في العام التالي، ولكن هذا كله غير صحيح، لأنه إذا كان في استطاعة الصدمات أو الحرارة أن تفكك ذرة واحدة، فإن في استطاعتها أيضا أن تفكك آل ١٩٩٩ ذرة الباقية، ويكون في استطاعتنا أن نعجل بتفكيك الراديوم بمجرد ضغطه أو تسخينه؛ ولكن كل عالم من علماء الطبيعة يقرر أن ذلك مستحيل؛ بل هو يعتقد على الأرجح أن الموت يصيب في كل عام ذرة واحدة من كل ٢٠٠٠ من ذرات الراديوم، ويضطرها إلى أن تتفكك، وهذه هي نظرية (التفكك التلقائي) التي وضعها (رذرفورد) و(سدي) في عام ١٩٠٣.

• فكيف إذن يكون القدر الغيبي إن لم يكن هو هذا الذي تتشعشع به الذرات على غير اختيار منها ولا من أحد، وعلى غير علم منها ولا من أحد!؟ إن الرجل الذي يقول هذا الكلام، لا يريد أن يثبت به القدر الإلهي المغيب عن الناس، بل إنه ليحاول جاهدا أن يهرب من ضغط النتائج التي ينتهي إليها العلم البشري ذاته، ولكن حقيقة الغيب تفرض نفسها عليه فرضا على النحو الذي نراه!

ب. وكما تفرض حقيقة (الغيب) نفسها على قاعدة بناء الكون وحركته، فهي كذلك تفرض نفسها على قاعدة انبثاق الحياة وحركتها بنفس القوة في النتائج التي ينتهي إليها العلم البشري:

• يقول عالم الأحياء والنبات (رسل تشارلز إرنست) الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا: (لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات؛ فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين، أو من الفيروس، أو من تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات، ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية، وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهذا شأنه وحده! ولكنه إذ يفعل ذلك، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله، الذي خلق الأشياء ودبرها.. إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق، ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيمانا راسخا)

• والذي يهمنا هنا من هذه الشهادة هو أن سر الحياة ونشأتها غيب من غيب الله، كنشأة الكون وحركته؛ وأن ليس لدى البشر عن ذلك إلا الاحتمالات، وصدق الله العظيم: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾

ج. ونخطو خطوة واسعة لنصل إلى الإنسان.. إن الدفقة الواحدة من ماء الرجل تحتوي على نحوستين مليونا من الحيوانات المنوية.. كلها تدخل في سباق لتلحق بالبويضة في رحم المرأة.. ولا يعلم

أحد من الذي يسبق! فهو غيب، أو هو قدر غيبي لا علم للبشر به ـ بما فيهم الرجل والمرأة صاحبا الدور في هذا الأمر! ـ ثم يصل السابق من بين ستين مليونا! ويلتحم مع البويضة ليكوّنا معا خلية واحدة ملقحة هي التي ينتج منها الجنين، ولما كانت كل كروموسومات البويضة مؤنثة، بينما كروموسومات الحيوان المنوي بعضها مذكر وبعضها مؤنث؛ فإن غلبة عدد كروموسومات التذكير أو كروموسومات التأنيث في الحيوان المنوي الذي يلتحم بالبويضة، هو الذي يقرر مصير الجنين ـ ذكرا أو أنثى ـ وهذا خاضع لقدر الله الغيبي لا علم به ولا دخل للبشر ـ بما فيهم أبوا الجنين أنفسهما: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾، ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَفَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾

٢٢. هذا هو (الغيب) الذي يقف أمامه (العلم) البشري؛ ويواجهه في القرن العشرين.. بينما الذين يعيشون على فتات القرون الماضية يزعمون أن (الغيبية) تنافي (العلمية)، وأن المجتمع الذي يريد أن يعيش بعقلية علمية ينبغي له أن يتخلص من العقلية الغيبية! ذلك بينما العلم البشري ذاته.. علم القرن العشرين.. يقول: إن كل ما يصل إليه من النتائج هو (الاحتمالات)! وإن الحقيقة المستيقنة الوحيدة هي أن هنالك (غيبا) لا شك فيه! على أننا قبل أن نغادر هذه الوقفة المجملة أمام حقيقة الغيب، ينبغي أن نقول كلمة عن طبيعة (الغيب) في العقيدة الإسلامية، وفي التصور الإسلامي، وفي العقلية الإسلامية.

٢٣. إن القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تنشئ التصور الإسلامي والعقلية الإسلامية ـ يقرر أن هناك عالما للغيب وعالما للشهادة، فليس كل ما يحيط بالإنسان غيبا، وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولا.. إن هنالك سننا ثابتة لهذا الكون؛ يملك (الإنسان) أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض، وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها..

٢٤. وإلى جانب هذه السنن الثابتة ـ في عمومها ـ مشيئة الله الطليقة؛ لا تقيدها هذه السنن وإن

كانت من عملها، وهناك قدر الله الذي ينفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها، فهي ليست آلية بحتة، فالقدر هو المسيطر على كل حركة فيها؛ وإن جرت وفق السنة التي أودعها الله إياها، وهذا القدر الذي ينفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها (غيب) لا يعلمه أحد علم يقين؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و(الاحتمالات).. وهذا ما يعترف به العلم البشري أيضا..

٢٥. وإن ملايين الملايين من العمليات لتتم في كيان الإنسان في اللحظة الواحدة؛ وكلها (غيب) بالقياس إليه، وهي تجري في كيانه! ومثلها ملايين ملايين العمليات التي تتم في الكون من حوله؛ وهو لا يعلمها! وإن الغيب ليحيط بماضيه وماضي الكون، وحاضره وحاضر الكون، ومستقبله ومستقبل الكون.. وذلك مع وجود السنن الثابتة، التي يعرف بعضها، وينتفع بها انتفاعا علميا منظما في النهوض بعبء الخلافة.

٢٦. وإن (الإنسان) ليجيء إلى هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد قدومه! وإنه ليذهب عن هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد رحيله!.. وكذلك كل شيء حي.. ومهما تعلم ومهما عرف، فإن هذا لن يغير من هذا الواقع شيئا! إن العقلية الإسلامية عقلية (غيبية علمية) لأن (الغيبية) هي (العلمية) بشهادة (العلم) والواقع.. أما التنكر للغيب فهو (الجهلية) التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة! وإن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله؛ وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل، والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض، والتعامل معها على قواعد ثابتة.. فلا يفوت المسلم (العلم) البشري في مجاله، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة؛ وهي أن هنالك غيبا لا يطلع الله عليه أحدا، إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء..

٢٧. والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها (الفرد) فيتجاوز مرتبة (الحيوان) الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة (الإنسان) الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ـ وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود؛ وفي إحساسه بالكون، وما وراء الكون من قدرة وتدبير، كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته؛ ويتلقى

أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه؛ ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود؛ وأن وراء الكون.. ظاهره وخافيه.. حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده.. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها العقول.

٢٨. لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان ـ كجماعة الماديين في كل زمان ـ يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى.. إلى عالم البهيمة، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا (تقدمية)! وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة هي صفة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، والحمد لله على نعمائه؛ والنكسة للمنتكسين والمرتكسين.

٢٩. والذين يتحدثون عن (الغيبية) و(العلمية) يتحدثون كذلك عن (الحتمية التاريخية) كأن كل المستقبل مستيقن! و(العلم) في هذا الزمان يقول: إن هناك (احتمالات) وليست هنالك (حتميات)! ولقد كان ماركس من المتنبئين (بالحتميات)! ولكن أين نبوءات ماركس اليوم؟ لقد تنبأ بحتمية قيام الشيوعية في انجلترا، نتيجة بلوغها قمة الرقي الصناعي ومن ثم قمة الرأسمالية في جانب والفقر العمالي في جانب آخر.. فإذا الشيوعية تقوم في أكثر الشعوب تخلفا صناعيا.. في روسيا والصين وما إليها.. ولا تقوم قط في البلاد الصناعية الراقية! ولقد تنبأ لينين وبعده ستالين بحتمية الحرب بين العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي، وها هو ذا خليفتهما (خروشوف) يحمل راية (التعايش السلمي)! ولا نمضي طويلا مع هذه (الحتميات) التنبئية! فهي لا تستحق جدية المناقشة! إن هنالك حقيقة واحدة مستيقنة هي حقيقة الغيب، وكل ما عداها احتمالات، وإن هنالك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قدره، وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هو، وإن هنالك ـ مع هذا وذلك ـ سننا للكون ثابتة، يملك الإنسان أن يتعرف إليها، ويستعين بها في خلافة الأرض، مع ترك الباب مفتوحا لقدر الله النافذ؛ وغيب الله المجهول.. وهذا قوام الأمر كله.. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بدأت السورة بآيات فيها عرض لجلال الله، وعظمة ملكه، وبسطة سلطانه، وسعة علمه، ثم جاءت بعد ذلك بمواجهة النبي وقومه، وخاصة المشركين منهم، الذين أنفوا أن يستجيبوا للرسول، لأنه بشر مثلهم، وأبوا أن يدخلوا في دين يجعلهم والأرقاء والفقراء على سواء.. ثم تجيء الآيات بعد ذلك، لتعرض جانبا من جلال الله وعظمته، ليكون في ذلك ذكرى لمن غفل عن الله، ونسى ما ذكّر به من قبل.

٢. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الضمير في (وعنده) يعود إلى الله سبحانه وتعالى، حيث جاء لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.. الآية، ومفاتح الغيب: مفاتيحه التي تفتح بها خزائنه المودع فيها الغيب.. والغيب: ما غاب عنا إدراكه بحواسنا أو بعقولنا، والمعنى: أن الغيب المحجب عنا في أطواء الزمان أو المكان، هو مما استأثر الله سبحانه بعلمه وأن ما يضمره هؤلاء الظالمون، من شر، وما يبيتونه من سوء، هو واقع في علم الله، وسيحاسبون على كل صغيرة وكبيرة منه والتعبير عن الغيب بأنه مودع في خزائن، وأن هذه الخزائن لها مفاتيح، وأن هذه المفاتيح لا يعلمها إلا الله ـ في هذا إشارة إلى أن الغيب الذي استأثر الله بعلمه، أبعد من أن ينال، أو أن يطلع عليه أحد، إلا لمن أذن له الرحمن، ممن اصطفاه من خلقه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، وإظهار الرسول على الغيب، هو إعلامه به من قبل الله تعالى، بما يوحى إليه من أنباء الغيب، كما يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]

٣. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هو بيان لبعض علم الله.. وتخصيص البر والبحر، لأنها مما يقعان تحت حواسنا، وقوعا دائما متصلا.. ومع هذا فإنهما مما هو غيب عنا، إذ أن كل ما نعلم من أمرهما هو قليل قليل إلى ما لا نعلم.. ثم إن هذا العلم الذي نعلمه هو جهل بالنسبة لعلم الله، الذي يعلم حقائق الأشياء، وما أودع فيها من أسرار، أما علمنا فهو واقف عند ظواهرها، لا ينفذ إلى الصميم من أعماقها.

٤. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هو

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ٢٠٠.

تفصيل، بعد تفصيل، بعد إجمال.. فقد جاء علم الله عاما شاملا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ ثم جاء مفصلا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ثم فصل هذا المفصل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ إلا يعلمها، وإلا هي ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي أن كل شيء وجد أو سيوجد، هو في علمه منذ الأزل، مسجل في كتاب محفوظ، لا يتغير ولا يتبدل: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ [الأنعام: ٣٤] والكتاب المبين، هو الواضح، المحكم، المتمكن من كل شىء.. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩]

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١ . مفاتح الغيب خزائنه، والمعنى أن الله يعلم الكون وما حدث ويحدث فيه كليا كان أو جزئيا، ماديا كان أو معنويا، ولا يتقيد علمه تعالى بزمان أو مكان أو بحال دون حال، لأن علمه، ذاتي لا كسبي، وليس لذاته زمان ومكان، ولا هي تتغير بتغير الأحداث والأحوال، وفي الحديث: أن مفاتح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

٢ . قال الفيلسوف الملا صدرا: إن جميع الأشياء الكلية والجزئية فائضة عنه، وهو مبدأ لكل موجود عقليا كان أو حسيا، ذهنيا كان أو عينيا، وفيضانها عنه لا ينفك عن انكشافها لديه.

٣ . وقال الحلي المتكلم: كل موجود سوى الله فهو ممكن مستند اليه، فيكون عالما به، سواء أكان جزئيا أم كليا، وسواء أكان موجودا قائما بذاته أم عرضا قائما بغيره، وسواء أكان في الأعيان أم في الأذهان، لأن وجود الصورة في الذهن من الممكنات أيضا، فيستند اليه، وسواء أكانت الصورة الذهنية صورة أمر وجودي، أم عدمي ممكن أم ممتنع، فلا يعزب عن علمه شيء من الممكنات ولا من الممتنعات.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ٢٠٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ١٣٦.

١. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ عطف على جملة: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ على طريقة التخلّص، والمناسبة في هذا التخلّص هي الإخبار بأنّ الله أعلم بحالة الظالمين، فإنّها غائبة عن عيان الناس، فالله أعلم بما يناسب حالهم من تعجيل الوعيد أو تأخيره، وهذا انتقال لبيان اختصاصه تعالى بعلم الغيب وسعة علمه ثم سعة قدرته وأنّ الخلق في قبضة قدرته، وتقديم الظرف لإفادة الاختصاص، أي عنده لا عند غيره، والعندية عندية علم واستئثار وليست عندية مكان.

٢. والمفاتح جمع مفتح ـ بكسر الميم ـ وهو الآلة التي يفتح بها المغلق، وتسمّى المفتاح، وقد قيل: إنّ مفتح أفصح من مفتاح، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]

٣. والغيب ما غاب على علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى علمه، وذلك يشمل الأعيان المغيّبة كالملائكة والجنّ، والأعراض الخفيّة، ومواقيت الأشياء.

٤. و﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ هنا استعارة تخييلية تنبني على مكنية بأن شبّهت الأمور المغيّبة عن الناس بالمتاع النفيس الذي يدّخر بالمخازن والخزائن المستوثق عليها بأقفال بحيث لا يعلم ما فيها إلّا الذي بيده مفاتحها، وأثبتت لها المفاتح على سبيل التخييلية، والقرينة هي إضافة المفاتح إلى الغيب، فقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ بمنزلة أن يقول: عنده علم الغيب الذي لا يعلمه غيره.

٥. ومفاتح الغيب جمع مضاف يعمّ كلّ المغيّبات، لأنّ علمها كلّها خاصّ به تعالى، وأمّا الأمور التي لها أمارات مثل أمارات الأنواء وعلامات الأمراض عند الطبيب فتلك ليست من الغيب بل من أمور الشهادة الغامضة، وغموضها متفاوت والناس في التوصّل إليها متفاوتون ومعرفتهم بها من قبيل الظنّ لا من قبيل اليقين فلا تسمّى علما، وقيل: المفاتح جمع مفتح ـ بفتح الميم ـ وهو البيت أو المخزن الذي من شأنه أن يغلق على ما فيه ثم يفتح عند الحاجة إلى ما فيه، ونقل هذا عن السدّي، فيكون استعارة مصرّحة والمشبّه هو العلم بالغيب شبّه في إحاطته وحجبه المغيّبات ببيت الخزم تشبيه معقول بمحسوس.

٦. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ مبيّنة لمعنى ﴿عِنْدَهُ﴾، فهي بيان للجملة التي قبلها ومفيدة تأكيدا للجملة الأولى أيضا لرفع احتمال أن يكون تقديم الظرف لمجرّد الاهتمام فأعيد ما فيه طريق متعيّن كونه للقصر، وضمير ﴿يَعْلَمُهَا﴾ عائد إلى ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ على حذف مضاف من دلالة الاقتضاء، تقديره: لا

يعلم مكانها إلّا هو، لأنّ العلم لا يتعلّق بذوات المفاتح، وهو ترشيح لاستعارة مفاتح الغيب للعلم بالمغيّبات، ونفي علم غيره لها كناية عن نفي العلم بما تغلق عليه المفاتح من علم المغيّبات.

٧. ومعنى: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي علما مستقلا به، فأمّا ما أطلع عليه بعض أصفيائه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦] فذلك علم يحصل لمن أطلعه بإخبار منه فكان راجعا إلى علمه هو، والعلم معرفة الأشياء بكيفية اليقين.

٨. وجملة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ عطف على جملة ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، أو على جملة ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، لأنّ كلتيهما اشتملت على إثبات علم لله ونفي علم عن غيره، فعطفت عليهما هذه الجملة التي دلّت على إثبات علم لله تعالى، دون نفي علم غيره وذلك علم الأمور الظاهرة التي قد يتوصّل الناس إلى علم بعضها، فعطف هذه الجملة على جملة ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ لإفادة تعميم علمه تعالى بالأشياء الظاهرة المتفاوتة في الظهور بعد إفادة علمه بما لا يظهر للناس، وظهور ما في البرّ للناس على الجملة أقوى من ظهور ما في البحر، وذكر البرّ والبحر لقصد الإحاطة بجميع ما حوته هذه الكرة، لأنّ البرّ هو سطح الأرض الذي يمشي فيه الحيوان غير سابح، والبحر هو الماء الكثير الذي يغمر جزءا من الأرض سواء كان الماء ملحا أم عذبا، والعرب تسمّي النهر بحرا كالفرات ودجلة، والموصول للعموم فيشمل الذوات والمعاني كلّها.

٩. وجملة: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ عطف على جملة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ لقصد زيادة التعميم في الجزئيات الدقيقة، فإحاطة العلم بالخفايا مع كونها من أضعف الجزئيات مؤذن بإحاطة العلم بما هو أعظم أولى به، وهذه من معجزات القرآن فإنّ الله علم ما يعتقده الفلاسفة وعلم أن سيقول بقولهم من لا رسوخ له في الدين من أتباع الإسلام فلم يترك للتأويل في حقيقة علمه مجالا، إذ قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ كما سنبيّن الاختيار في وجه إعرابه، والمراد بالورقة ورقة من الشّجر، وحرف (من) زائد لتأكيد النفي ليفيد العموم نصّا.

١٠. وجملة ﴿يَعْلَمُهَا﴾ في موضع الحال من ﴿وَرَقَةٍ﴾ الواقعة في حيّز النفي المستغنية بالعموم عن الصفة، وذلك لأنّ الاستثناء مفرّغ من أحوال، وهذه الحال حال لازمة بعد النفي حصل بها مع الفعل المنفي الفائدة الاستثناء من عموم الأحوال، أي ما تسقط من ورقة في حالة إلّا حالة يعلمها.

١١. والأظهر في نظم قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ أن يكون ﴿وَرَقَةٍ﴾ في محلّ المبتدأ مجرور بـ ﴿مِنَ﴾ الزّائدة، وجملة ﴿تُسْقِطَ﴾ صفة لـ ﴿وَرَقَةٍ﴾ مقدّمة عليها فتعرب حالا، وجملة ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ خبر مفرّغ له حرف الاستثناء، ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ عطف على المبتدأ بإعادة حرف النفي، و﴿فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ صفة لـ ﴿حَبَّةٍ﴾، أي ولا حبّة من بذور النبت مظروفة في طبقات الأرض إلى أبعد عمق يمكن، فلا يكون ﴿حَبَّةٍ﴾ معمولا لفعل ﴿تُسْقِطَ﴾ لأنّ الحبّة التي تسقط لا تبلغ بسقوطها إلى ظلمات الأرض، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ معطوفان على المبتدأ المجرور بـ ﴿مِنَ﴾، والخبر عن هذه المبتدءات الثلاثة هو قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ لوروده بعد الثلاثة، وذلك ظاهر وقوع الإخبار به عن الثلاثة، وأنّ الخبر الأول راجع إلى قوله: ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾

١٢. والمراد بالكتاب المبين العلم الثابت الذي لا يتغيّر، وما عسى أن يكون عند الله من آثار العلم من كتابة أو غيرها لم يطلعنا على كنهها.

١٣. وقيل: جرّ ﴿حَبَّةٍ﴾ عطف على ﴿وَرَقَةٍ﴾ مع إعادة حرف النفي، و﴿فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ وصف لـ ﴿حَبَّةٍ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بالجرّ عطفا على ﴿حَبَّةٍ﴾ و﴿وَرَقَةٍ﴾، فيقتضي أنّها معمولة لفعل ﴿تُسْقِطَ﴾، أي ما يسقط رطب ولا يابس، ومقيّدة بالحال في وقوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾

١٤. وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ تأكيد لقوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ لأنّ المراد بالكتاب المبين علم الله تعالى سواء كان الكتاب حقيقة أم مجازا عن الضبط وعدم التبديل، وحسّن هذا التأكيد تجديد المعنى لبعد الأول بالمعطوفات وصفاتها، وأعيد بعبارة أخرى تفنّنا.

١٥. وقد تقدّم القول في وجه جمع ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ في هذه السورة [١]، و﴿مُبِينٌ﴾ إمّا من أبان المتعدّي، أي مبين لبعض مخلوقاته ما يريده كالملائكة، أو من أبان القاصر الذي هو بمعنى بان، أي بيّن، أي فصل بها لا احتمال فيه ولا تردّد.

١٦. وقد علم من هاته الآيات عموم علمه تعالى بالكلّيّات والجزئيّات، وهذا متّفق عليه عند أهل الأديان دون تصريح به في الكتب السابقة وما أعلنه إلّا القرآن في نحو قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وفيه إبطال لقول جمهور الفلاسفة أنّ الله يعلم الكلّيّات خاصّة ولا يعلم الجزئيّات، زعما منهم بأنّهم ينزّهون العلم الأعلى عن التجزّي؛ فهم أثبتوا صفة العلم لله تعالى وأنكروا تعلّق علمه بجزئيات

الموجودات، وهذا هو المأثور عنهم عند العلماء، وقد تأوّله عنهم ابن رشد الحفيد ونصير الدين الطوسي، وقال الرازي في (المباحث المشرقية): ولا بدّ من تفصيل مذهب الفلاسفة فإنّ اللائق بأصولهم أن يقال: الأمور أربعة أقسام؛ فإنّها إمّا أن لا تكون متشكّلة ولا متغيّرة، وإمّا أن تكون متشكّلة غير متغيّرة، وإمّا أن تكون متغيّرة غير متشكّلة؛ وإمّا أن تكون متشكّلة ومتغيّرة معا، فأمّا ما لا تكون متشكّلة ولا متغيّرة فإنّه تعالى عالم به سواء كان كليّا أو جزئيا، وكيف يمكن القول بأنّه تعالى لا يعلم الجزئيّات منها مع اتّفاق الأكثر منهم على علمه تعالى بذاته المخصوصة وبالعقول، وأمّا المتشكّلة غير المتغيّرة وهي الأجرام العلوية فهي غير معلومة له تعالى بأشخاصها عندهم، لأنّ إدراك الجسمانيات لا يكون إلّا بآلات جسمانية، وأمّا المتغيّرة غير المتشكّلة فذلك مثل الصور والأعراض الحادثة والنفوس الناطقة، فإنّها غير معلومة له لأنّ تعلّقها يحوج إلى آلة جسمانية بل لأنّها لمّا كانت متغيّرة يلزم من تغيّرها العلم، وأمّا ما يكون متشكّلا ومتغيّرا فهو الأجسام الكائنة الفاسدة ـ يعني التي يعتريها الكون والفساد ـ وهي يمتنع أن تكون مدركة له تعالى للوجهين (أي المذكورين في القسمين الثاني الثالث)

١٧ . وقد عدّ إنكار الفلاسفة أنّ الله يعلم الجزئيّات من أصول ثلاثة لهم خالفت المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وهي: إنكار علم الله بالجزئيّات؛ وإنكار حشر الأجساد، والقول بقدم العالم، ذكر ذلك الغزالي في (تهافت الفلاسفة) فمن يوافقهم في ذلك من المسلمين يعتبر قوله كفرا، لكنّه من قبيل الكفر باللازم فلا يعتبر قائله مرتدّا إلّا بعد أن يوقف على ما يفضي إليه قوله ويأبى أن يرجع عنه فحينئذ يستتاب ثلاثا فإن تاب وإلّا حكم بردّته.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . في الآيات السابقة ذكر الله تعالى آمرا نبيه أن الله على بينة ويقين من أمر ربه، وذكر أن المشركين يستعجلون ما ينذرهم الله تعالى، ويذكر الله تعالى ما نزل بغيرهم، والنبي يترك الأمر لحكم الله يفصل بينه وبينهم، والفصل الحق يقتضى علما واسعا، وتنفيذه يقتضى قهرا غالبا، وسيطرة كاملة، فذكر سبحانه

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٢٢.

اختصاصه بالعلم الكامل، والقدرة القاهرة، والسيطرة الكاملة.

٢. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، المفاتح جمع مفتح، وهو المفتاح فيقال مفتح ومفتاح بمعنى واحد، وقيل من بعض النحويين: إن مفاتح جمع مفتاح، إذ يجوز نحويا حذف الياء، كما يقال في محاريب جمع محراب، محارب بحذف الياء، وهناك قراءة، (وعنده مفاتيح الغيب) والمعنى واحد في القراءتين، وقال بعض المفسرين: إن المراد خزائن الغيب أي الأسرار المكنونة في علم الله تعالى، والأكثرون على المفاتح هي جمع مفتاح، وهو ما يتوصل به إلى ما يكون بداخل الشيء فمعنى قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ لا يتوصل إلى غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول، فإنه يعطيه غيبا بما اختزنه في علمه المكنون إن أراد وبمقدار يقدر حسب المصلحة والحكمة كما أعطى عيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهما.

٣. والغيب ما غيب واستتر، والكلام فيه استعارة تمثيلية تشبه بحال علم الله بالغيب واستتاره عن الناس ـ إلا من أراده ـ بحال من يكون معه مفاتيح خزانة لا يصل إلى ما فيها سواه، وقد تأكد علم الله تعالى بالغيب وحده، وأنه لا يعلم أحد إلا من جانبه، بأمرين:

أ. أولهما: التقديم، فقال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ﴾ بتقديم الظرف للقصر، الأمر.

ب. الثاني: بالقصر الصريح، بنفي العلم عن غيره وإثباته له وحده إذ قال سبحانه: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾

٤. ثم بين دقة علمه بالمغيب وعمومه، فقال تعالت كلماته: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي أنه سبحانه يعلم ما في البر من حيوان يدب، وطائر يطير، وكهرباء، وفضاء، وحرارة ونظم كونية رتبها سبحانه وسخرها لابن الأرض، حتى وصل إلى جوف الفضاء وارتقى إلى الكواكب والنجوم، كما علمهن على ظهر الأرض؛ ولذلك عبر سبحانه وتعالى بالبر، ولم يعبر بالأرض، ليشمل التعبير الأرض، وما فوقها، وما بينها وبين السماء من فروج، ويعلم سبحانه أحياء البر، وكيف يكونون، لأنه خالقهم، وذلك تقدير العزيز العليم، ويعلم ما في البحار من أسماك وجواهر ولآلئ، والجاريات المنشآت في البحر، وفى البحر عالم، ولسير البحار نظم، ولاستعمالها قوانين نظمها بإرادته الحكيمة رب العالمين، وخالق السماء والماء، وكلها مسخر للإنسان، يستعملها في العمارة والبناء، وفى التخريب والفساد، وكل ذلك بتمكين الله تعالى:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك]

٥. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، هذا نوع تفصيل بعد إجمال، وقد اختير ما يكون ظاهره تحت أنظار الناس، وأسراره في علم الله تعالى العليم الخبير اللطيف البصير.

٦. وقد ابتدأ بالأوراق التي تسقط، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ و(من) هنا الدالة على عموم العلم، وعلم الله ليس كعلمنا الظاهر المبنى على البصر، إنما علمه هو العلم بأصل تكوينها، وسير نموها، فهو يعلم الأشجار التي علقت بها كيف غرست، وكيف كونت، وكيف نمت جذورها وتفرعت فروعها وتهدلت أغصانها، وكيف تكونت أوراقها، وأندت بالحياة حتى اخضرت وازدهرت، ثم كيف جفت وسقطت فذلك بعض علم الله تعالى، وهو علم بغيبها، ولا يعلم ذلك العلم سواه؛ لأنه هو الذى برأها، ونماها وربّها، وفى الجملة هو الكامل العلم بالغروس والأشجار.

٧. ثم ذكر من بعد ذلك علمه الكامل بالزروع، فقال: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي يعلم حال الحبة التي تلقى في جوف الأرض، وهو ظلماتها، وعبر عن داخل الأرض بظلمات وهو ظلمة واحدة؛ لأنه ظلمة متكاثفة متكاثرة بسبب جهل الإنسان ما يجرى في باطنها من أسباب لا يدركها الإنسان إلا بعد أن تظهر، فهو لا يعرف كيف ينتفع من الماء، وكيف تمد بالغذاء من أرض صالحة، وسماد مخصب، وكيف تتنوع في نموها، وهي تسير السير الفطري الذى سنه الله سبحانه وتعالى، أي أكد أن الله وحده هو الذى يعرف كيف يتكون من الحبة نبات يستوى على سوقه وكيف يشتد ويغلظ سوقه ليعجب الزراع، فالنص الكريم جمع فيه تكوين الأشجار والغروس، وتكوين الزروع والحب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾

٨. وبعد أن بين سبحانه علمه بإنشاء الغروس والزرع بين سبحانه وتعالى علمه الكامل بثمرات الغروس والنباتات في ضمن علمه الكامل بالرطب واليابس، فقال تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وتفسير العلماء للرطب يتجه إلى اتجاهين:

أ. أولهما: تفسير الرطب واليابس بما يناسب الورق والحبة، وهو ما يكون ثمرا، للأشجار رطبا أو جافا من عموم الثمار كالموز والتفاح، والقصب، وغير ذلك، وفيه توجيه للنعمة التي أنعم الله بها على عباده

فوق إحاطة علمه، وقدرته في التكوين والإبداع.

ب. وبعض المفسرين يرى أن الرطب واليابس في كل الوجود، فهو يعلم اللين والجامد في كل شيء فهو يعلم ما في باطن الأرض من فلزات ومعادن كريمة، ومعادن سائلة، وما يكون في باطن الأرض من أحجار نباتية وغير نباتية وسائلة وجامدة، وإني أرى ذلك الرأي وأختاره ليكون ذلك تقريبا لأكبر قدر من النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده.

٩. ويقول سبحانه مؤكدا تمام العلم الذى لا يغيب عنه شيء ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي أنه ثابت لا تغيير فيه ولا تبديل فهو عالم بكل شيء علما ثابتا كالمكتوب البين المسجل في كتاب واضح، لا يخفى منه خافية، وعلى ذلك فكونه في كتابه مبين موضح، وواضح هو في ذاته كناية عن الثبات والاستقرار لمعنى المعلم المؤكد، وقال بعض المفسرين: إن ذلك الكتاب هو اللوح المحفوظ المشتمل على علم الله تعالى المكنون في الغيب.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ذكروا في وجه اتصال الآية بما قبلها:

أ. أن الآية السابقة لما ختمت بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ زاد الله سبحانه في بيانه فذكر أن خزائن الغيب أو مفاتيح تلك الخزائن عنده سبحانه لا يعلمها إلا هو، ويعلم كل دقيق وجليل، وهذا الوجه لا يتضح به معنى الحصر الذي يدل عليه قوله: ﴿لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾

ب. فالأولى أن يوجه الاتصال بما يشتمل عليه مجموع الآيتين السابقتين أعني قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ حيث يدل المجموع على أن ما كانوا يقترحونه من الآية وما يستتبعه من الحكم الفصل والقضاء بينه وبينهم إنما هو عند الله لا سبيل إليه لغيره فهو العالم بذلك الحاكم به، ولا يغلط في حكمه الفصل وتعذيب الظالمين لأنه أعلم بهم فهو عالم بالغيب لا يشاركه فيه غيره، وعالم بكل ما جل ودق لا يضل ولا ينسى، ثم زاد ذلك بيانا بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ فبين به اختصاصه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٢٥.

تعالى بعلم الغيب وشمول علمه كل شيء، ثم تمم البيان بالآيات الثلاث التي تتلوها، وبذلك تصير الآيات جارية مجرى ما سيقت إليه نظائرها في مثل المورد كقوله تعالى في قصة هود وقومه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اَللهِ وأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]

٢. المفاتح جمع مفتح بفتح الميم وهو الخزينة، وربما احتمل أن يكون جمع مفتح بكسر الميم وهو المفتاح، ويؤيده ما قرئ شاذا: (وعنده مفاتيح الغيب) ومآل المعنيين واحد فإن من عنده مفاتيح الخزائن هو عالم بما فيها قادر على التصرف فيها كيف شاء عادة كمن عنده نفس الخزائن إلا أن سائر كلامه تعالى فيما يشابه هذا المورد يؤيد المعنى الأول فإنه تعالى كرر في كلامه ذكر خزائنه وخزائن رحمته وذلك في سبعة مواضع ولم يذكر لها مفاتيح في شيء من كلامه قال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧] وقال: ﴿لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اَللهِّ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] وقال: ﴿وَللهِّ خَزَائِنُ اَلسَّمَاوَاتِ وَاَلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] وقال: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ [ص: ٩] فالأقرب أن يكون المراد بمفاتح الغيب خزائنه.

٣. وكيف كان فقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ اَلْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ مسوق لبيان انحصار العلم بالغيب فيه تعالى إما لأن خزائن الغيب لا يعلمها إلا الله، وإما لأن مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره تعالى فلا سبيل لغيره إلى تلك الخزائن إذ لا علم له بمفاتيحها التي يتوصل بها إلى فتحها والتصرف فيها:

أ. وصدر الآية وإن أنبأ عن انحصار علم الغيب فيه تعالى لكن ذيلها لا يختص بعلم الغيب بل ينبئ عن شمول علمه تعالى بكل شيء أعم من أن يكون غيبا أو شهادة فإن كل رطب ويابس لا يختص بما يكون غيبا وهو ظاهر فالآية بمجموعها يبين شمول علمه تعالى لكل غيب وشهادة، غير أن صدرها يختص ببيان علمه بالغيوب، وذيلها ينبئ عن علمه بكل شيء أعم من الغيب والشهادة.

ب. ومن جهة أخرى صدر الآية يتعرض للغيوب التي هي واقعة في خزائن الغيب تحت أستار الخفاء وأقفال الإبهام، وقد ذكر الله سبحانه في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ومَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] أن التي في خزائن الغيب عنده من الأشياء أمور لا يحيط بها الحدود المشهودة في الأشياء، ولا يحصرها الأقدار المعهودة، ولا شك أنها إنما صارت غيوبا مخزونة لما فيها من صفة الخروج عن

حكم الحد والقدر فإنا لا نحيط علما إلا بما هو محدود ومقدر، وأما التي في خزائن الغيب من الأشياء فهي قبل النزول في منزل الشهود والهبوط إلى مهبط الحد والقدر، وبالجملة قبل أن يوجد بوجوده المقدر له غير محدودة مقدرة مع كونها ثابتة نوعا من الثبوت عنده تعالى على ما تنطق به الآية.

ج. فالأمور الواقعة في هذا الكون المشهود المسجونة في سجن الزمان هي قبل وقوعها وحدوثها موجودة عند الله ثابتة في خزائنه نوعا من الثبوت مبهما غير مقدر وإن لم نستطع أن نحيط بكيفية ثبوتها فمن الواقع في مفاتح الغيب وخزائنه الأشياء قبل حدوثها واستقرارها في منزلها المقدر لها من منازل الزمان، ولعل هناك أشياء أخر مذخورة مخزونة لا تسانخ ما عندنا من الأمور الزمانية المشهودة المعهودة، ولنسم هذا النوع من الغيب غير الخارج إلى عرصة الشهود بالغيب المطلق.

د. وأما الأشياء بعد تلبسها بلباس التحقق والوجود ونزولها في منزلها بالحد والقدر فالذي في داخل حدودها وأقدارها يرجع بالحقيقة إلى ما في خزائن الغيب ويرجع إلى الغيب المطلق، وأما هي مع ما لها من الحد والقدر فهي التي من شأنها أن يقع عليها شهودنا ويتعلق بها علمنا فعند ما نعلم بها تصير من الشهادة وعندما نجهل بها تصير غيبا، ومن الحري أن نسميها عند ما تصير مجهولة لنا غيبا نسبيا لأن هذا الوصف الذي يطرؤها عندئذ وصف نسبي يختلف بالنسب والإضافات كما أن ما في الدار مثلا من الشهادة بالنسبة إلى من فيها، ومن قبيل الغيب بالنسبة إلى من هو في خارجها، وكذا الأضواء والألوان المحسوسة بحاسة البصر من الشهادة بالنسبة إلى البصر، ومن الغيب بالنسبة إلى حاسة السمع، والمسموعات التي ينالها السمع شهادة بالنسبة إليه وغيب بالنسبة إلى البصر، ومحسوساتهما جميعا من الشهادة بالنسبة إلى الإنسان الذي يملكهما في بدنه ومن الغيب بالنسبة إلى غيره من الأناسي.

هـ. والتي عدها تعالى في الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي اَلْبَرِّ واَلْبَحْرِ ومَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ولاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ اَلْأَرْضِ ولاَ رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ﴾ من هذا الغيب النسبي فإنها جميعا أمور محدودة مقدرة لا تأبى بحسب طبعها أن يتعلق بها علمنا ولا أن يكون مشهودة لنا فهي من الغيب النسبي.

٤. سؤال وإشكال: دلت الآية على أن هذه الأمور في كتاب مبين فما هو الذي منها في كتاب مبين؟ أهو هذه الأشياء من جهة شهادتها وغيبها جميعا أم هي من جهة غيبها فقط؟ وبعبارة أخرى: الكتاب المبين أهو هذا الكون المشتمل على أعيان هذه الأشياء لا يغيب عنه شيء منها وإن غاب بعضها عن بعض أم هو

أمر وراء هذا الكون مكتوبة فيه هذه الأشياء نوعا من الكتابة مخزونة فيه نوعا من الخزن غائبة من شهادة الشهداء من أهل العالم فيكون ما في الكتاب من الغيب المطلق، وبلفظ آخر الأشياء الواقعة في الكون المعدودة بنحو العموم في الآية أهي واقعة بنفسها في الكتاب المبين كما تقع الخطوط بأنفسها في الكتب التي عندنا أم هي واقعة بمعانيها فيه كما تقع المطالب الخارجية بمعانيها بنوع من الوقوع في ما نكتبه من الصحائف والرسائل ثم تطابق الخارج مطابقة العلم العين؟ والجواب:

أ. قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي اَلْأَرْضِ ولاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] يدل على أن نسبة هذا الكتاب إلى الحوادث الخارجية نسبة الكتاب الذي يكتب فيه برنامج العمل إلى العمل الخارجي، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي اَلْأَرْضِ ولاَ فِي اَلسَّمَاءِ ولاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ولاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] وقوله: ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي اَلسَّمَاوَاتِ ولاَ فِي اَلْأَرْضِ ولاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ ولاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣] وقوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ اَلْقُرُونِ اَلْأُولى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي ولاَ يَنْسى﴾ [طه: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات.

ب. فالكتاب المبين أيا ما كان هو شيء غير هذه الخارجيات من الأشياء بنحو من المغايرة، وهو يتقدمها ثم يبقى بعد فنائها وانقضائها كالبرنامجات المكتوبة للأعمال التي تشتمل على مشخصات الأعمال قبل وقوعها ثم تحفظ المشخصات المذكورة بعد الوقوع.

ج. على أن هذه الموجودات والحوادث التي في عالمنا متغيرة متبدلة تحت قوانين الحركة العامة والآيات تدل على عدم جواز التغير والفساد فيما يشتمل عليه هذا الكتاب كقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اَللّٰهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ اَلْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] وقوله: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] وقوله: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤] فالآيات كما ترى تدل على أن هذا الكتاب في عين أنه يشتمل على جميع مشخصات الحوادث وخصوصيات الأشخاص المتغيرة المتبدلة لا يتبدل هو في نفسه ولا يتسرب إليه أي تغير وفساد.

د. ومن هنا يظهر أن هذا الكتاب بوجه غير مفاتح الغيب وخزائن الأشياء التي عند الله سبحانه فإن الله تعالى وصف هذه المفاتح والخزائن بأنها غير مقدرة ولا محدودة، وأن القدر إنما يلحق الأشياء عند نزولها من خزائن الغيب إلى هذا العالم الذي هو مستوى الشهادة، ووصف هذا الكتاب بأنه يشتمل على

دقائق حدود الأشياء وحدود الحوادث، فيكون الكتاب المبين من هذه الجهة غير خزائن الغيب التي عند الله سبحانه، وإنما هو شيء مصنوع لله سبحانه يضبط سائر الأشياء ويحفظها بعد نزولها من الخزائن وقبل بلوغها منزل التحقق وبعد التحقق والانقضاء.

هـ. ويشهد بذلك أن الله سبحانه إنما ذكر هذا الكتاب في كلامه لبيان إحاطة علمه بأعيان الأشياء والحوادث الجارية في العالم سواء كانت غائبة عنا أو مشهودة لنا، وأما الغيب المطلق الذي لا سبيل لغيره تعالى إلى الاطلاع عليه فإنما وصفه بأنه في خزائنه والمفاتح التي عنده لا يعلمها إلا هو بل ربما أشعرت أو دلت بعض الآيات على جواز اطلاع غيره على الكتاب دون الخزائن كقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ اَلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]

و. فما من شيء مما خلقه الله سبحانه إلا وله في خزائن الغيب أصل يستمد منه، وما من شيء مما خلقه الله إلا والكتاب المبين يحصيه قبل وجوده وعنده وبعده غير أن الكتاب أنزل درجة من الخزائن، ومن هنا يتبين للمتدبر الفطن أن الكتاب المبين ـ في عين أنه كتاب محض ـ ليس من قبيل الألواح والأوراق الجسمانية فإن الصحيفة الجسمانية أيا ما فرضت وكيفما قدرت لا تحتمل أن يكتب فيها تاريخ نفسه فيما لا يزال فضلا عن غيره فضلا عن كل شيء في مدى الأبد.

٥. فقد بان بما مر من البحث:

أ. أولا: أن المراد بمفاتح الغيب الخزائن الإلهية التي تشتمل على الأشياء قبل تفريغها في قالب الأقدار، وهي تشتمل على غيب كل شيء على حد ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ومَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

ب. وثانيا: أن المراد بالكتاب المبين أمر نسبته إلى الأشياء جميعا نسبة الكتاب المشتمل على برنامج العمل إلى نفس العمل ففيه نوع تعيين وتقدير للأشياء إلا أنه موجود قبل الأشياء ومعها وبعدها، وهو المشتمل على علمه تعالى بالأشياء علما لا سبيل للضلال والنسيان إليه، ولذلك ربما يحدس أن المراد به مرتبة واقعية الأشياء وتحققها الخارجي الذي لا سبيل للتغير إليه فإن شيئا ما لا يمتنع من عروض التغير عليه إلا بعد الوقوع، وهو الذي يقال: إن الشيء لا يتغير عما وقع عليه، وبالجملة هذا الكتاب يحصي جميع ما وقع في عالم الصنع والإيجاد مما كان وما يكون وما هو كائن من غير أن يشذ عنه شاذ إلا أنه مع ذلك إنما

يشتمل على الأشياء من حيث تقدرها وتحددها، ووراء ذلك ألواح وكتب تقبل التغيير والتبديل، وتحتمل المحو والإثبات كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اَللهُ مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ اَلْكِتَابِ﴾ فإن المحو والإثبات ـ وخاصة إذا قوبلا بأم الكتاب ـ إنما يكونان في الكتاب.

٦. وعند ذلك يتضح اتصال الآية أعني قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ اَلْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ إلى آخر الآية بما قبلها من الآيات فإن محصل الآيتين السابقتين أن الذي تقترحونه علي من الآيات القاضية بيني وبينكم ليس في مقدرتي، ولا الحكم الحق راجع إلي بل هو عند ربي في علمه وقدرته ولو كان ذلك إلي لقضي بيني وبينكم وأخذكم العذاب الذي لا يأخذ إلا الظالمين لأن الله يعلم أنكم أنتم الظالمون وهو العالم الذي لا يجهل شيئا أما أنه لا سبيل إلى الوقوف والتسلط على ما يريده ويقضيه من آية قاضية فلأن مفاتح الغيب عنده لا يعلمها إلا هو، وأما أنه أعلم بالظالمين ولا يخطئهم إلى غيرهم فلأنه يعلم ما في البر والبحر ويعلم كل دقيق وجليل، والكل في كتاب مبين.

٧. فقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ اَلْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ راجع إلى الغيب المطلق الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه، وقوله: ﴿لاَ يَعْلَمُهَا﴾ حال وهو يدل على أن مفاتح الغيب من قبيل العلم غير أن هذا العلم من غير سنخ العلم الذي نتعارفه فإن الذي يتبادر إلى أذهاننا من معنى العلم هو الصورة المأخوذة من الأشياء بعد وجودها وتقدرها بأقدارها ومفاتح الغيب كما تبين علم بالأشياء وهي غير موجودة ولا مقدرة بأقدارها الكونية أي علم غير متناه من غير انفعال من معلوم.

٨. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي اَلْبَرِّ واَلْبَحْرِ﴾ تعميم لعلمه بما يمكن أن يتعلق به علم غيره مما ربما يحضر بعضه عند بعض وربما يغيب بعضه عن بعض، وإنما قدم ما في البر لأنه أعرف عند المخاطبين من الناس.

٩. وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ اختص بالذكر لأنه مما يستصعب الإنسان حصول العلم به لأن الكثرة البالغة التي في أوراق الأشجار تعجز الإنسان أن يميز معها بعضها من بعض فيراقب كلا منها فيما يطرأ عليه من الأحوال، ويتنبه على انتقاصها بالساقط منها إذا سقط.

١٠. وقوله: ﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ اَلْأَرْضِ ولاَ رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ﴾ إلخ، معطوفات على قوله: ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾ على ظاهر السياق، والمراد بظلمات الأرض بطونها المظلمة التي تستقر فيها الحبات فينمو منها ما ينمو ويفسد ما يفسد فالمعنى: ولا تسقط من حبة في بطون الأرض المظلمة ولا يسقط من رطب ولا من

يابس أيا ما كانا إلا يعلمها، وعلى هذا فقوله: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ سد مسده، وتقديره إلا هو واقع مكتوب في كتاب مبين.

١١. وتوصيف الكتاب بالمبين إن كان بمعنى المظهر إنما هو لكونه يظهر لقارئه كل شيء على حقيقة ما هو عليه من غير أن يطرأ عليه إبهام التغير والتبدل وسترة الخفاء في شيء من نعوته، وإن كان المبين بمعنى الظاهر فهو ذلك أيضا لأن الكتاب في الحقيقة هو المكتوب، والمكتوب هو المحكي عنه، وإذا كان ظاهرا لا سترة عليه ولا خفاء فيه فالكتاب كذلك.

١٢. أخرج أحمد والبخاري وحشيش بن أصرم في الاستقامة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله و، لا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله تبارك وتعالى)، لا ينبغي أن تعد الرواية على تقدير صحتها منافية لما تقدم من عموم الآية لأن العدد لا مفهوم له، وما في الرواية من المفاتيح يجمعها العلم بالحوادث قبل حدوثها، وللغيب مصاديق أخر غير الخمس بدلالة من نفس الآية.

١٣. وفيه أخرج الخطيب في تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (ما من زرع على وجه الأرض ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم هذا رزق فلان ابن فلان، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ولاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ اَلْأَرْضِ ولاَ رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾) والرواية على ضعف سندها لا ينطبق مضمونها على الآية ذاك الانطباق.

١٤. وفي تفسير العياشي، عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، قال: (الورقة السقط، والحبة الولد، وظلمات الأرض الأرحام والرطب ما يحيى، واليابس ما يغيض، وكل ذلك في كتاب مبين)، ورواه أيضا الكليني والصدوق عن أبي الربيع عنه، والقمي مرسلا والرواية لا تنطبق على ظاهر الآية، ونظيرتها رواية أخرى رواها العياشي عن الحسين بن سعيد عن أبي الحسن عليه السلام.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. تتحرك آيات الله لتقدم الملامح الحقيقية للصورة المشرقة عن ذاته ـ تعالى ـ حيث يعيش الإنسان الشعور برعاية الله له من خلال الشعور بإحاطة علمه بكل الأشياء دون استثناء حتى الصغير الصغير من الأشياء، والخفيّ الخفيّ من القضايا.. وفي مساحات الزمن كله، في الماضي والحاضر والمستقبل.. فهي في علمه سواء، لأن الموجودات كلها حاضرة لديه من خلال خلقه لها وتدبيره لكل أوضاعها الجزئية والكليّة.

٢. وتبدأ الآية بالحديث عن الغيب، غيب الزمن، وغيب الضمائر، وغيب الأشياء الخفيّة، فهو الذي يملك مفاتحه، ولا يملك غيره من ذلك شيئا، إلا من خلال ما يطلع عباده عليه، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فليس لأحد أن يدّعي علم ذلك لأحد بطريقة ذاتية إلا من خلال وسائله المألوفة وغير المألوفة التي يتيحها له، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من كل الموجودات الحيّة وغير الحيّة، ومن خلال ذلك يدبّر لها حركة وجودها بشكل مباشر وغير مباشر، فهي خاضعة له مستسلمة لإرادته، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ لأنها لا تسقط إلا بإذنه وبإرادته المتحركة في نطاق القوانين الحتمية التي تحكم الكون كله، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ عنده، فيما أحصاه في علمه، وسجّله في اللوح المحفوظ.

٣. تلك هي الصورة التي يعيش الإنسان معها هذا الامتداد الشامل المطلق في علم الله وإحاطته بالمخلوقات، فيحس بالأمن والطمأنينة والثقة بالله الذي يحيط بكل شيء وبذلك يمكن أن يحفظه من كل شيء لأن علم الله ليس علما يكشف الصورة ويوضحها، بل هو العلم الذي يعطي الأشياء صورتها، ويحقق لها وجودها ويرعى لها حركتها، ويهيمن على كل أوضاعها، إنه علم الخالق القادر، وذلك هو ما يضمن إحساس الإنسان بالأمان المطلق معه.

٤. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ إن هذه الآية تصور الله عالم الغيب في كل خزائنه بما تحتويه من أسرار الغيب الإلهي الذي لا يملكه إلا هو، وفي كل مفاتيحه التي تفتح كل المفردات الغيبية على نحو الكناية، لأن من ملك مفتاح الشيء ملك الشيء من خلال قدرته على الدخول إليه والاستفادة مما فيه، فلا علم

---

(١) من وحى القرآن: ٩/ ١٣٩.

للغيب إلا من خلاله، لأنه ـ وحده ـ الذي يملك مفاتحه وخزائنه، فلا يجوز وصف أحد غيره بذلك إلا بما يرزقه الله من بعض مفردات علمه على سبيل التعليم لا على سبيل إعطاء القدرة بحيث يتحول الموضوع إلى طبيعة فيه.

٥. وهو الذي ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من الكائنات الحية والجامدة، والذرات الكبيرة والصغيرة، وقطرات الحياة في أوزانها الخفيفة والثقيلة، والمعادن المتنوعة المتناثرة في السطح وفي أعماق في الأرض والبحار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ فهو الذي أعطى الأغصان أوراقها، وهو الذي وضع القوانين التي تسقطها على الأرض وتذروها في الهواء، وهو الذي يحصي عددها عندما توجد وعند ما تسقط.

٦. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهكذا تتناثر الحبوب الصغيرة في كل المزروعات الممتلئة بالحب ليحيط بها علمه، وهي تخضر في سنابلها، ثم وهي تذوي وتتساقط في حالة يبسها في حالة الحصاد وغيرها، حتى أنه يعلم الحبة التي تحملها النملة إلى حجرها في أعماق الأرض.

٧. وهكذا يتّسع علمه للإنسان بكل خلاياه في نموّها وتجددها، وبكل ما يشتمل عليه الجسم من عوالم وحركات ونظم وسنن وقوانين وأوضاع، وبكل الفكر الإنساني الذي يتحرك به العقل والإحساس والفطرة، وبكل الغرائز الحيوانية التي تحرّك الحيوان ـ إنسانا أو غير إنسان ـ إلى النتائج المنفتحة على شروط وجوده واستمراره.

٨. هو العالم علما حضوريا في تفاصيل كل الأشياء الموجودة في الكون من أصغر ذرة إلى أكبر الأشياء، وفي حركة الرياح بما تحمله من البذور التي توزعها في الأرض هنا وهناك، وتنثرها في أعماق الأرض وسطوحها حتى تكون بمثابة الاحتياطي لكل عشب جديد وورود جديدة وخضرة جديدة.

٩. إنها الآية التي تتحدث عن علم الله بالكليات والجزئيات معا، وعن رقابته من خلال علمه المطلق، على كل شيء في الإنسان في حركته الخفية والمعلنة في السرّ والعلن ليشعر الإنسان بالحاجة إلى الانضباط العملي أمام ربه الذي يعلم كل شيء ويحيط بكل شيء وعن حاجة الإنسان إلى الابتهال إليه في كل حاجاته وفي كل مخاوفه في الليل والنهار والحاضر والمستقبل، لأنه العالم بذلك كله وهو ـ وحده ـ القادر

على أن يحقق له ما يشاء منها وأن يحميه مما يخافه منها، وهكذا تكون للآيات عدة جوانب إيحائية في حركة الإنسان الفكرية والعملية، أما كلمة ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فالظاهر أن المقصود بها التعبير عن علم الله الواسع الذي لا حدَّ له بكل الموجودات، وربما احتمل البعض أن المراد به عالم الخلق وسلسلة العلل والمعلولات التي كتب فيها كل شيء بين الحفظة والموت

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): (قال الحسين بن القاسم عليهما السلام: معناه: وعنده علم الغيب الذي لا يعسر عليه عسير، ولا يعزب عنه صغير ولا كبير، ولكنه ضرب المثل بالمفاتح لعلمه كما ضرب المثل بالكتاب لحفظه، وليس ثَم كتاب وإنما هو مثل مضروب، قال الشاعر: (في كفه من رُقَى الشيطان مفتاح)، أي معه حيَل من عزائم الشيطان حتى يسهل عليه ما يتعذر على غيره فضرب المثل بالمفتاح ـ قال الشرفي ـ ومثل هذا ذكر المرتضى عليه السلام، وقال: مفتاح الشيء فهو علمه؛ لأنه لا يوصل إلى ما كان منغلقاً إلا بمفاتحه، وإنما هذا مثل ضربه الله عزَّ وجل لخلقه وبينه لعباده بأنهم يعلمون بأن الاغلاق لا يفتحها إلا المفاتح، فلما أن كان الغيب منغلقاً عن الخلق والله سبحانه هو العالم، قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ والغيب: هو ما استتر واستجنَّ وغبي فلم يعلم، وذلك لا يعلمه إلاَّ الله عزَّ وجل إلا ما دلَّ عليه وفتحه وبيَّنه لعباده وأخبر به) من (المصابيح) وما ذكره المرتضى عليه السلام هو التحقيق، فليس لأحد قوّة علم الغيب لا استقلالاً ولا بتقوية من الله، ولكن ما أخبر الله به من المغيبات علمه من بلغه الخبر مع حجته كالقيامة وأهوالها، وهذا مخصوص من العموم، ولا دليل على تأويل نفي علم الغيب بنفي الأصالة والإستقلال الذاتي.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هذا تفصيل لبعض ما أجمله تعالى في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ بالنسبة إلى ما يغيب من ذلك عن المخلوق، وهو مع ذلك دليل على إحاطة علمه بالمشاهدات المذكورة، لكن

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٧.

الراجح: أن ذكرها لتحقيق سعة علمه، وأنه لا يغفل عن شيء كما يغفل المخلوق، فقد يغفل عن الورقة تسقط بحضرته والحبة تسقط وتغيب في التراب، أما الله فلا يغفل عن شيء.

٣. ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي تحت ما يحجب النور من أجزاء الأرض، تنبيه على أن الظلمات لا تغيّب عنه شيئاً، وكذلك قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ أي ولا يسقط من رطب ﴿وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي في علمه لا ينساه، كما لو كان في كتاب مبيّن لما كتب، وذلك كله يبيِّن صحة الخبر بالبعث والجزاء للأمم كلها أوّلها وآخرها، كما يبيّن أنه تعالى هو الذي يعلم عبادة من عبده وطاعة من أطاعه، فهو الإله الحق دون شركاء المشركين الذين لا يسمعون، ولو سمعوا ما استجابوا.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. في هذه الآيات يدور الكلام حول علم الله وقدرته وسعة حكمه وأمره، وهي تشرح ما أجملته الآيات السابقة.

٢. تشرع الآية في الكلام على علم الله فتقول: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (مفاتح) جمع (مفتح) (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح، أمّا إذا كانت بفتح الميم فهي بمعنى الخزانة التي تختزن فيها الأشياء، وعلى الأوّل يكون المعنى: إنّ جميع مفاتيح الغيب بيد الله، وعلى الثّاني يكون المعنى: إنّ جميع خزائن الغيب بيد الله، ويحتمل أن يكون المعنيان قد اجتمعا في عبارة واحدة، وكما هو ثابت في علم الأصول، فإن استعمال لفظة واحدة لعدة معان لا مانع منه، وعلى كل حال فهاتان الكلمتان متلازمتان، لأنّه حيثما كانت الخزانة كان المفتاح، وأغلب الظن أنّ (مفاتح) بمعنى (مفاتيح) لا بمعنى (خزائن) لأنّ الهدف هو بيان علم الله، فتكون المفاتيح وسائل لمعرفة مختلف الذخائر وهو أنسب بالآية، وفي موضعين آخرين في القرآن ترد كلمة (مفاتح) بمعنى المفاتيح ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ و﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾

٣. ثمّ لتوكيد ذلك أكثر يقول: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (البرّ) كل مكان واسع فسيح، وتطلق

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٣١٢.

على اليابسة، (والبحر) كذلك تعني المحل الواسع الذي يتجمع فيه الماء، وتطلق على البحار والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحيانا، فالقول بأنّ الله يعلم ما في البر والبحر، كناية عن إحاطته بكل شيء وهذه الإحاطة بها في البرّ والبحر إنّما تمثل في الحقيقة جانبا من علمه الأوسع، فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحية، الكبيرة والصغيرة، في أعماق البحار، وهو عالم بارتعاش أوراق الأشجار في كل غابة وجبل، وهو عالم بمسيرة كل برعمة وتفتح أوراقها، وهو عالم بجريان النسيم في البوادي ومنعطفات الوديان، وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه، وهو عالم بكل الحركات الغامضة في الإلكترونات في قلب الذّرة، وهو عالم بكل الحركات الغامضة في الإلكترونات في قلب الذّرة، وهو عالم بكل الأفكار التي تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا.. نعم أنّه عالم بكل ذلك على حدّ سواء.

٤. لذلك فإنّه يؤكّد ذلك مرّة أخرى فيقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي أنّه يعلم عدد الأوراق ولحظة انفصال كل ورقة عن غصنها وطيرانها في الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلي أمام علم الله.

٥. كذلك لا تختفي حبّة بين طيات التراب إلّا ويعلمها الله ويعلم كل تفاصيلها: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾

٦. التركيز هنا ـ في الحقيقة ـ على نقطتين حساستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقي سلم الكمال في صنع أجهزته وأدواته المدهشة، ترى من ذا الذي يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها في هبوبها على مختلف أصقاع الأرض في الليل والنهار، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها؟ وإلى أين تحملها وتنشرها، أو تدسها في التراب حيث تبقى سنوات مختفية، حتى يتهيأ لها الماء فتنبت وتنمو؟ من ذا الذي يعلم كم من هذه البذور في كل أنحاء الدنيا تحمل عن طريق الإنسان أو الحشرات في كل ساعة من نقطة إلى نقطة أخرى؟ أي دماغ الكتروني هذا الذي يستطيع أن يحصي عدد أوراق الشجر التي تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات في الخريف، وخاصّة بعد مطر شديد أو ريح عاصفة، وتطلع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذ تتكشف لك هذه الحقيقة، وهي أنّ علوما من هذا القبيل لن تكون يوما في متناول يد الإنسان.. إنّ سقوط الورقة ـ في الحقيقة ـ هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة في مكمنها من الأرض هو لحظة بدء حياتها، وما

من أحد غير الله يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة، وحتى أنّ كل خطوة تخطوها البذرة نحو حياتها وانبعاثها وتكاملها خلال اللحظات والساعات، جلية في علم الله.

٧. إنّ لهذا الموضوع أثرا (فلسفيا) وآخر (تربويا):

أ. أمّا أثره الفلسفي، فينفي رأي الذين يحصرون علم الله بالكليات، ويعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئا، وفي الآية هنا تأكيد على أنّ الله يعلم الكليات والجزئيات كلها.

ب. أمّا أثره التربوي فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع لله يقول للإنسان: إنّ جميع أسرار وجودك، وأعمالك، وأقوالك ونياتك، وأفكارك كلّها بيّنة أمام الله، فإذا آمن الإنسان حقّا بهذا، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيبا على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله ونياته!

٨. وفي ختام الآية يقول تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ تبيّن هذه العبارة القصيرة سعة علم الله اللامحدود وإحاطته بكل الكائنات بدون أي استثناء، إذ أن (الرطب) و(اليابس) لا يقصد بهما المعنى اللغوي، بل هما كناية عن الشمول والعمومية، وللمفسّرين آراء متعددة في معنى: (كتاب مبين):

أ. ولكنّ الأقوى أنّه كناية عن علم الله الواسع، أي أن كل الموجودات مسجلة في علم الله اللامحدود.

ب. كما أنّه تفسر بكونه (اللوح المحفوظ) نفسه، إذ لا يستبعد أن يكون اللوح المحفوظ هو صفحة علم الله.

ج. وثمّة احتمال آخر عن معنى (كتاب مبين) وهو أنّه عالم الخلق وسلسلة العلل والمعلولات التي كتب فيها كل شيء جاء.

٩. فيما روي عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ (الورقة) الساقطة بمعنى الجنين الساقط، و(الحبّة) بمعنى الابن، و(ظلمات الأرض) بمعنى رحم الأمّ، و(رطب) ما بقي حيا من النطفة، و(يابس) ما تلاشى من النطفة.. لا شك أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع الجمود على المعاني اللغوية للآية، إذ إنّ معنى (الورقة) و(الحبّة) و(ظلمات الأرض) و(الرّطب) و(اليابس) معروف، ولكنّ أئمّة أهل البيت عليهم السّلام بهذا التّفسير أرادوا أن يوسعوا من آفاق نظرة المسلمين إلى القرآن، وأن لا ينحصروا في إطار الألفاظ، بل يتوسعوا في نظرتهم حين توجد قرائن على هذا التوسع.. الرّواية أعلاه تشير إلى أنّ معنى (الحبّة) لا ينحصر

في بذور النباتات، بل يشمل أيضا بذور النطف الإنسانية.

٣٧. الله والرقابة الدائمة على أعمال الإنسان

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: مع كلّ إنسان ملك، إذا نام يأخذ نفسه، فإن أذن الله في قبض روحه قبضه، وإلا ردّ إليه، فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾، ما كسبتم من الإثم[٢].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، يرجعون إليه بعد الحياة[٣].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، البرّ، والفاجر[٤].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ الآية، أمّا وفاته إياهم بالليل فمنامهم، وأما ﴿مَا

---

(١) ابن مردويه كما في تفسير كثير ٣/ ٢٦٦.
(٢) ابن جرير ٩/ ٢٨٥.
(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٦.
(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٦.

جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ فيقول: ما اكتسبتم بالنهار[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، في النهار[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، وهو الموت[٣].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾، قال يتوفّى الأنفس عند منامها، ما من ليلة إلا والله يقبض الأرواح كلها، فيسأل كلّ نفسٍ عمّا عمل صاحبها من النهار، ثم يدعو ملك الموت فيقول: اقبض هذا، اقبض هذا، وما من يوم إلا وملك الموت ينظر في كتاب حياة الناس، قائل يقول: ثلاثا، وقائل يقول: خمسا[٤].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ هو الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ يعني بذلك: نومهم، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾ قال ما عملتم من الإثم بالنهار[٦].

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، قال في النهار، والبعث: اليقظة[٧].

ابن كثير:

---

(١) تفسير مجاهد، ص ٣٢٣.

(٢) تفسير مجاهد، ص ٣٢٣.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٨٨.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٥.

(٥) تفسير القمّي ١/ ٢٠٣.

(٦) عبد الرزاق ١/ ٢٠٨.

(٧) عبد الرزاق ١/ ٢٠٨.

روي عن عبد الله بن كثير (ت ١٢٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، يبعثكم في المنام[(١)].

٢. روي أنّه قال: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، ليقضي الله إليهم مدّتهم[(٢)].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ معناه كسبتم[(٣)].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾: أمّا ﴿يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ ففي النوم، وأما ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ فيقول: ما اكتسبتم من الإثم[(٤)].

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، في النهار[(٥)].

٣. روي أنّه قال: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، هو أجل الحياة إلى الموت[(٦)].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وعن قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وعن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ والَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وعن قوله عز وجل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وعن قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ وقد يموت في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، فكيف هذا؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعوانا من الملائكة، يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس، يبعثهم في حوائجه، فتتوفاهم

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٨٨.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٨٨.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٤.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٨٥.

(٥) ابن جرير ٩/ ٢٨٧.

(٦) ابن جرير ٩/ ٢٨٨.

الملائكة، ويتوفاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبضه هو، ويتوفاهم الله عز وجل من ملك الموت[1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ يعني: يميتكم بالليل، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ يعني: ما كسبتم من خير أو شرٍّ بالنهار[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، يقول: يبعثكم من منامكم بالنهار[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، يعني: منتهيا إليه[4].

٤. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير أو شر، هذا وعيد[5].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[6]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾:

أ. قال بعض أهل الكلام: إن لكل حاسة من هذه الحواس روحًا تقبض عند النوم، ثم ترد إليها، سوى روح الحياة فإنها لا تقبض؛ لأنه يكون أصم بصيرًا متكلمًا ناطقًا، ويكون أعمى سميعًا، ويكون أخرس سميعًا بصيرًا، فثبت أن لكل حاسة من حواس النفس روحًا على حدة تقبض عند النوم، ثم ترد إليها إذا ذهب النوم، وأما الروح التي بها تحيا النفس: فإنه لا يقبض ذلك منه إلا عند انقضاء أجله وهو الموت.

ب. وقالت الفلاسفة: الحواس هي التي تدرك صور الأشياء بطينتها.

---

(١) تفسير القمّي ١/ ٢٠٣.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٤.

(٦) تأويلات أهل السنة: ٤/ ١٠٦.

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾، فيه دلالة أن ليس ذكر الحكم في حال أو تخصيص الشيء في حال دلالة سقوط ذلك في حال أخرى؛ لأنه قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾، ليس فيه أنه لا يعلم ما جرحنا بالليل، بل يعلم ما يكون منا بالليل والنهار جميعًا، وليس فيه أنه لا يتوفانا بالنهار وألا نجرح بالليل، لكنه ذكر الجرح بالنهار والوفاة بالليل؛ لما أن الغالب أن يكون النوم بالليل والجرح بالنهار؛ فهو كقوله ـ تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، ليس ألا يبصر بالليل، لكن ذكر النهار، لما أن الغالب مما يبصر إنما يكون بالنهار؛ فعلى ذلك الأول.

٣. ثم فيه دلالة أن النائم غير مخاطب في حال نومه؛ حيث ذكر الوعيد فيما يجرحون بالنهار ولم يذكر بالليل.

٤. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾:

أ. قال بعضهم: جرحتم، أي: أثمتم بالنهار.

ب. وقيل: يعلم ما كسبتم بالنهار.

٥. يستدل بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ على الإحياء بعد الموت؛ لأنه يذهب أرواح هذه الحواس ثم يردها إليها من غير أن يبقى لها أثر، فكيف تنكرون البعث بعد الموت وإن لم يبق من أثر الحياة شيء!؟

٦. ثم القول في الجمع بعد التفرق مما الخلق يفعل ذلك ويقدر عليه؛ نحو ما يجمع من التراب المتفرق فيجعله طينًا، ورفع البناء من مكان، ووضعه في مكان آخر، وغير ذلك من جمع بعض إلى بعض، وتركيب بعض على بعض؛ فدل أن الأعجوبة في رد ما ذهب كله حتى لم يبق له أثر، لا في جمع ما تفرق.

٧. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، أي: يوقظكم، ويرد إليكم أرواح الحواس، ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، أي: مسمى العمر إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، خرج هذا على الوعيد لما ذكرنا؛ ليكونوا على حذر.

٨. وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، يعلم كل ما يغيب عن الخلق ولا يخفى عليه شيء لأنه عالم بذاته لا يحجبه شيء ليس كعلم من يعلم بغيره، فيحول بينه وبين العلم بالأشياء الحجب والأستار، فأما الله سبحانه وتعالى

فعالم بذاته لا يعزب عنه شيء ولا يكون له حجاب عن شيء.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أي يقبض أرواحكم بالليل عند المنام، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي ما كسبتم في النهار.

٢. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي ثم يرسلكم في النهار، ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ حتى حين يقضي أجلهم عند المات، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي حافظين لأعمالكم، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي توفته وأخذت روحة ملائكتنا، وهم لا يقصرون ولا يتوانون في ذلك ولا يفترون.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ لأنه يقبض الأرواح فيه عن التصرف كما يقبضها بالموت، شعراً:

إن بني الأدرة ليسوا من أحد ... ولا توفاهم قريش والعدد

أي لا تقبضهم.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾ أي ما كسبتم لأنه مستفاد بعمل الجارحة ومنه جوارح الطير لأنها كواسب بجوارحها وجرح الشهادة وهو الطعن فيها لأنها تكسب الإثم قال الأعشى:

وهو الدافع عن ذي كربة ... أيدي القوم إذا الجاني اجترح

٣. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يعني في النهار باليقظة وتصرف الروح بعد قبضها بالنوم ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ استكمال العمر وانقضاء الأجل بالموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني بالبعث والنشور في القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير وشر.

الماوردي:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٩٠.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٤.

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ يعني به النوم، لأنه يقبض الأرواح فيه عن التصرف، كما يقبضها بالموت، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ بَنِي الأَدْرَدِ لَيْسوا مِن أَحَدْ وَلَا تَوَفَّاهُم قَرَيْشٌ في العَدَدْ

أي لا تقبضهم.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي ما كسبتم لأنه مستفاد بعمل الجارحة، ومنه جوارح الطير لأنها كواسب بجوارحها، وجَرْحُ الشهادة هو الطَّعْن فيها لأنه مكسب الإثم، قاله الأعشى:

وهوَ الدَّافِعُ عن ذي كُرْبَةٍ أَيْدِي القَوْمِ إذا الجَانِي اجْتَرَحْ

٣. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يعني في النهار باليقظة، وتصرف الروح بعد قبضها بالنوم، ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ يعني استكمال العمر وانقضاء الأجل بالموت، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني بالبعث والنشور في القيامة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير وشر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَهُوَ﴾ كناية عن الله تعالى، و﴿الَّذِي﴾ صفة له ﴿يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: قال الجبائي: يقبضكم.

ب. وقال الزجاج: ينيمكم بالليل فيقبضكم الله إليه، كما قال: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

ج. وقال البلخي: واختاره الحسين بن علي المغربي ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بمعنى يحصيكم عند منامكم واستقراركم، قال الشاعر:

إن بني الأدرم ليسوا من أحد ليسوا من قيس وليسوا من أسد

ولا توفاهم قريش في العدد، معناه لا تحصيهم في العدد.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي كسبتم، تقول فلان جارحة أهله أي كاسبهم، ومنه قوله:

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١٢٣.

(٢) تفسير الطوسي: ٤/ ١٥٧.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي من الكواسب التي تكسب على أهلها، وهو قول مجاهد.

٣. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار، فجعل انتباههم من النوم بعثاً ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ ليستوفي الأجل المسمى للحياة إلى حين الموت، ثم ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني يوم القيامة فيحشرهم الله إلى حيث لا يملك فيه الأمر سواه.

٤. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني يخبركم ويعلمكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا فيجازيكم على أعمالكم، وفيها دلالة على خزيهم وحاجتهم، واحتجاج عليهم أنه لا يستحق العبادة سواه إذ هو الفاعل لجميع ما يستحق به العبادة مما عدده والقادر عليه دون من يعبدونه من الأوثان والأصنام.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. التوفي: قَبْض الشيء على التمام، يقال: توفيت الشيء واستوفيته بمعنى، ومنه الوفاء؛ لأنه تمام العقد الذي عقده، يقال: وفي بعهده، وأوفى وهو موف، والوفاة: الموت لأنه قبض على التمام.

ب. الليل والنهار يتعاقبان، فالليل من ابتداء الظلام بغروب الشمس إلى انقطاعة بالفجر، والنهار من حين اتساع الضياء بالفجر إلى سقوط قرص الشمس، وأصل النهر: السعة.

ج. والجرح: الكسب، وهو العمل بالجارحة، والاجتراح: الاكتساب، ومنه: جوارح الطير كواسبها.

د. البعث: الإطلاق في الفعل، ومنه: انبعث الماء إذا حبس ثم جرى، وانبعث الدم من العرق، وبعث الله الرسل، ومنه: البعث من القبور، ومنه: بَعَثْتُ الناقة: أَثَرْتُها.

هـ. القضاء: فصل الأمر على التمام، والمرجع من الرجوع، وهو الانقلاب إلى الحالة الأولى.

٢. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: لما بين في الآية الأولى تمام علمه منبهًا أنه عالم لذاته، لا يحتاج إلى علم ومعلم، وبين في هذه

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٩١.

الآية كمال قدرته، منها: أنه قادر لذاته؛ لأن الإماتة والإحياء لا يقدر عليهما أحد إلا القادر لذاته، فهو كالأجسام والألوان والطعوم والروائح.

ب. وقيل: هو احتجاج على مَنْ تقدم ذكرهم من أنواع الكفار بأنه مستحق للإلهية دون ما يُعْبَدُ سواه، وأنه المدبر لعباده بما لا يقدر عليه سواه، عن الأصم.

ج. وقيل: لما ذكر ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ بَيَّنَ أنه عالم بأفعالهم بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، ونبه على الجزاء والبعث، وكمال قدرته بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾

٣. سؤال وإشكال: كيف ترتبت الآية ونظمها؟ والجواب: هو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار على علم بما تجترحون؟ ليقضى أجل مسمى، فاللام تتصل بقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي يستوفي الآجال على استكمال صالح الأعمال إلا أنه صرف أحسن تصريف، فقَدَّم ما مِنْ أجله بعث بالنهار لأنه أهم، والعناية به أشد، عن علي بن عيسى.

٤. ﴿وَهُوَ﴾ يعني الله تعالى: ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ فيه قولان:

أ. الأول: يقبض أرواحكم عن التصرف عن جماعة من المفسرين: ابن عباس وأبي مسلم وعلي بن عيسى.

ب. وقيل: يقبضكم بالنوم كما يقبضكم بالموت، فشبههم إذا ناموا بالأموات التي لا تعقل، عن الأصم وأبي علي وجماعة، قال الأصم: وقد يقال للنائم: ما هو إلا ميت، وقال أبو علي: ينيمكم فتصيرون في قبضته لا تملكون تصرفًا، فلما منعه بالنوم عن التصرف صار كأنه في قبضته، وحقيقة قبض الروح لا تتأتى في النائم؛ لأنه حي فلا تزايله الروح، ولأن الروح هو النَّفس المتردد الذي يحصل في مخارق الإنسان من إجراء الهواء، وذلك حاصل في النائم، فأما النوم فاختلفوا فيه:

• قيل: إنه معنىً يخلقه الله تعالى فيه عن أبي علي وجماعة، وكذلك الموت قال القاضي: ولا سبيل في العقل إلى إثبات النوم جنسًا من العرض برأسه، وكذلك الموت لجواز أن يكون مات لبطلان حياته ببطلان بنية وتأليف تحتاج إليها الحياة، وكذلك السمع دل على معنى في قوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ الموتَ وَالحياةَ﴾

• فأما أبو هاشم فإنه يقول: النوم ليس بمعنى، وكذلك الموت، وهو سهو في القلب، وزوال العلوم مع فتور الأعضاء، وعلى القولين الصحيح أنه شبه النوم واليقظة بالموت والبعث.

ج. وقيل: إنه مَثَلٌ، والمراد أنه يصرفكم فيها كما يشاء لا يمتنع عليه شيء عن تدبيره وقهره، عن الأصم.

٥. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾:

أ. أي كسبتم من الأعمال على التفصيل، فيجازي به.

ب. وقيل: الجرح الإثم، عن الأصم، وفيه تحذير للعبد من المعصية.

ج. وقيل: فيه إشارة إلى رحمته حيث يعلم مخالفتهم إياه ثم لا يعاجلهم بعقوبة، ولا يمنعهم فضله ورحمته.

٦. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾:

أي يبعثكم من النوم في النهار بأن يوقظكم، عن أبي علي.

وقيل ﴿فِيهِ﴾ في جميع أوقات الحياة.

٧. ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي يفعل ذلك ليستوفي المدة المضروبة المسماة من الحياة، وتبلغ النفس أجلها المسمى، وتستوفي رزقها وأجلها.

٨. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني إذا تمت المدة المضروبة لكل نفس نقله إلى الدار الآخرة، ومعنى ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله أي إلى حكمه وجزائه، وإلى موضع ليس لأحد سواه فيه أَمْرٌ ولا ينفذ لغيره حُكْمٌ، ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ مصيركم.

٩. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾:

أ. قيل: يخبركم بما غفلتم عنه من أعمالكم.

ب. وقيل: يجازيكم.

ج. وقيل: يذكركم أعمالكم لتعلموا أنه لا يظلم أحدًا في عقابه ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بأعمالكم.

١٠. تدل الآية الكريمة على:

أ. البعث؛ لأنه نبه بالنوم واليقظة على البعث؛ لأن كل واحد منهما لا يقدر عليه غيره تعالى، سؤال وإشكال: كم شرطًا يشترط في الشيء حتى تصح عليه الإعادة؟ والجواب: اختلفوا فيه، والصحيح أن يكون من فعل القادر لذاته، وأن يكون مما يبقى، وألا يكون متولدًا عن سبب، هذا هو الصحيح من مذهب

أبي هاشم والقاضي.

ب. أنه يجازيهم بأعمالهم، ولا يظلم أحدًا، خلاف قول الْمُجْبِرَةِ، وأي ظُلْمٍ أعظم من أن يعذب بغير ذنب؟، أو يخلق الكفر فيه ثم يعذبه؟، وفيه تحذير للعبد عن المعصية.

ج. أن الدنيا طريق الآخرة، وأن الأيام والليالي كالمراحل؛ تنبيهًا للمرء على التزود لها، وألا يضيع عمره في الدنيا.

١١. قراءات ووجوه: القراءة الظاهرة ﴿لِيُقْضَى﴾ بضم الياء، وفتح الضاد ﴿أَجَلٍ﴾ بالرفع على ما لم يسم فاعله، وعن أبي رجاء وطلحة بالنون المفتوحة، وكسر الضاد، ﴿أَجَلًا﴾ بالنصب على الإضافة إلى الله تعالى.

١٢. ﴿مَا جَرَحْتُمْ﴾: محله نصب تقديره: يعلم عملكم.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. التوفي: قبض الشيء على التمام، يقال: توفيت الشيء واستوفيته، بمعنى، والجرح: العمل بالجارحة، والاجتراح: الإكتساب.

٢. لما نبه سبحانه بهذه الآية على أنه عالم لذاته من حيث إنه لو كان عالما بعلم لوجب أحد ثلاثة أشياء كلها فاسدة؟ إما أن يكون له علوم غير متناهية وإما أن يكون معلوماته متناهية، أو يتعلق علم واحد بمعلومات غير متناهية، وكلها باطل بالدليل نبه في الآية التي تليها، على أنه قادر لذاته من حيث إنه قادر على الإحياء والإماتة، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾:

أ. أي: يقبض أرواحكم عن التصرف، عن ابن عباس، وغيره، واختاره علي بن عيسى.

ب. وقيل: معناه يقبضكم بالنوم، كما يقبضكم بالموت، فيكون كقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ الآية، عن الزجاج، والجبائي.

٣. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ما كسبتم من الأعمال على التفصيل بالنهار، على كثرته

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٦٣.

وكثرتكم، وفيه إشارة إلى رحمته، حيث يعلم مخالفتهم إياه، ثم لا يعاجلهم بعقوبة، ولا يمنعهم فضله ورحمته.

٤. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: ينبهكم من نومكم في النهار، عن الزجاج. والجبائي، جعل انتباههم من النوم بعثا ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ معناه: لتستوفوا آجالكم.

٥. وترتيب الآية: وهو الذي يتوفاكم بالليل، ثم يبعثكم في النهار، على علم بما تجترحون بالنهار، ليقضى أجل مسمى، فاللام تتصل بقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ إلا أنه قدم ما من أجله بعثنا بالنهار، لأنه أهم والعناية به أشد عن علي بن عيسى.

٦. ومعنى القضاء: فصل الأمر على تمام، ومعنى قضاء الأجل: فصل مدة العمر من غيرها بالموت، وفي هذا حجة على النشأة الثانية، لأن منزلتها بعد الأولى، كمنزلة اليقظة بعد النوم، في أن من قدر على أحدهما فهو قادر عل الآخر.

٧. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يريد: إذا تمت المدة المضروبة لكل نفس، نقله إلى الدار الآخرة، ومعنى ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى حكمه وجزائه، وإلى موضع ليس لأحد سواه فيه أمر، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما غفلتم عنه من أعمالكم.

٨. في هذه الآية دلالة على البعث والإعادة، نبه الله سبحانه على ذلك بالنوم واليقظة، فإن كلا منهما لا يقدر عليه غيره تعالى، فأما ما يصح إعادته من الأشياء، فالصحيح من مذهب أهل العدل فيه، أن يكون الشيء من فعل القديم سبحانه، القادر لذاته، وأن يكون مما يبقى، وأن لا يكون مما يتولد عن سبب.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ يريد به النّوم، لأنه يقبض الأرواح عن التّصرّف، كما يقبض بالموت، وقال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم، وجرحتم: بمعنى كسبتم.

٢. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ أي: يوقظكم فيه، أي: في النهار، ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي: لتبلغوا الأجل

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٩.

المسمّى لانقطاع حياتكم، فدلّ باليقظة بعد النوم على البعث بعد الموت.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. لما بين الله تعالى كمال علمه بالآية السابقة بين كمال قدرته بهذه الآية وهو كونه قادرا على نقل الذوات من الموت إلى الحياة ومن النوم إلى اليقظة واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال وتدبيرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة.

٢. ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ المعنى أنه تعالى ينيمكم فيتوفى أنفسكم التي بها تقدرون على الإدراك والتمييز كما قال جل جلاله ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، فالله جل جلاله يقبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت.

٣. سؤال وإشكال: النائم لا شك أنه حي ومتى كان حيا لم تكن روحه مقبوضة ألبتة، وإذا كان كذلك لم يصح أن يقال إن الله توفاه، والجواب: لا بد هاهنا من تأويل وهو أن حال النوم تغور الأرواح الحساسة من الظاهر في الباطن فصارت الحواس الظاهرة معطلة عن أعمالها، فعند النوم صار ظاهر الجسد معطلا عن بعض الأعمال، وعند الموت صارت جملة البدن معطلة عن كل الأعمال، فحصل بين النوم وبين الموت مشابهة من هذا الاعتبار، فصح إطلاق لفظ الوفاة والموت على النوم من هذا الوجه.

٤. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ يريد ما كسبتم من العمل بالنهار قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ والمراد منها الكواسب من الطير والسباع واحدتها جارحة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي اكتسبوا، وبالجملة فالمراد منه أعمال الجوارح.

٥. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي يرد إليكم أرواحكم في النهار، والبعث هاهنا اليقظة، ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي أعماركم المكتوبة، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ والمعنى يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا آجالكم، ومعنى القضاء فصل الأمر على سبيل التمام، ومعنى قضاء الأجل فصل مدة العمر من

---

(١) التفسير الكبير: ١٣/ ١٣.

غيرها بالموت.

٦. ثم لما ذكر الله تعالى أنه ينيمهم أولا ثم يوقظهم ثانيا كان ذلك جاريا مجرى الأحياء بعد الإماتة، لا جرم استدلّ بذلك على صحة البعث والقيامة، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في ليلكم ونهاركم وفي جميع أحوالكم وأعمالكم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾:

أ. أي ينيمكم فيقبض نفوسكم التي بها تميزون، وليس ذلك موتا حقيقة بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت، والتوفي استيفاء الشيء وتوفي الميت استوفى عدد أيام عمره، والذي ينام كأنه استوفى حركاته في اليقظة، والوفاة الموت، وأوفيتك المال، وتوفيته، واستوفيته إذا أخذته أجمع، وقال الشاعر:

إن بني الأدرد ليسوا من أحد ... ولا توفاهم قريش في العدد

ب. ويقال: إن الروح إذا خرج من البدن في المنام تبقى فيه الحياة، ولهذا تكون فيه الحركة والتنفس، فإذا انقضى عمره خرج روحه وتنقطع حياته، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس.

وقال بعضهم، لا تخرج منه الروح، ولكن يخرج منه الذهن، ويقال: هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى، وهذا أصح الأقاويل.

٢. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾:

أ. أي في النهار، ويعني اليقظة، ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي ليستوفي كل إنسان أجلا ضرب له، وقرأ أبو رجاء وطلحة بن مصرف (ثم يبعثكم فيه ليقضى أجلا مسمى) أي عنده، ﴿جَرَحْتُمْ﴾ كسبتم، وقد تقديم في المائدة، وفي الآية تقديم وتأخير، والتقدير وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه، فقدم الأهم الذي من أجله وقع البعث في النهار.

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٥.

ب. وقال ابن جريج ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في المنام.

٣. معنى الآية: إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شي عددا وعلمه وأثبته، ولكن ليقضي أجلا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم، وقد دل على الحشر والنشر بالبعث، لأن النشأة الثانية: منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أي ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التي بها تميزون وليس ذلك موتا حقيقة، فهو مثل قوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ والتوفي: استيفاء الشيء وتوفيت الشيء واستوفيته: إذا أخذته أجمع، قال الشاعر:

إنّ بني الأدرد ليسوا من أحد ولا توفّاهم قريش في العدد

قيل: الروح إذا خرجت من البدن في المنام بقيت فيه الحياة؛ وقيل: لا تخرج منه الروح بل الذهن فقط، الأولى: أن هذا أمر لا يعرفه إلا الله سبحانه.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي كسبتم بجوارحكم من الخير والشرّ. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار، يعني اليقظة؛ وقيل: يبعثكم من القبور فيه: أي في شأن ذلك الذي قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: هو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه؛ وقيل: ثم يبعثكم فيه، أي في المنام.

٣. ومعنى الآية: إن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم، فإنه عالم بذلك ولكن ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي معين لكلّ فرد من أفراد العباد من حياة ورزق ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي رجوعكم بعد الموت، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

أَطَّفِّيش:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤٢.

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ ينيمكم في الليل، شبَّه الإنامة بالإماتة فاستعار لها ما وضع للإماتة وهو التوفِّي، واشتقَّ منه (يَتَوَفَّى)، والجامع عدم الإحساس، ففي الجسد روح الحياة تخرج بالموت، وروح التمييز تخرج بالنوم، وترى المنامات، أو روح واحدة تتعلَّق بالظاهر والباطن حال اليقظة، وبالباطن حال النوم، إذ هي فيه، أو هي في ظاهر النائم، إذ جسده حيٌّ ولا يميِّز بها باطنه، فـ (يَتَوَفَّاكُمْ): يقطع تعلُّقها بالباطن وتزول عنهما في الموت، وقد قيل: النوم يقطع الحسَّ الظاهر والحسَّ الباطن، وقد لا يقطع الباطن، وخصَّ اللَّيْلَ مع أنَّ النوم في النهار أيضًا لأنَّه في الليل أرسخ وفيه أصل وأكثر.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ ما كسبتموه في النهار، أو كسبكم فيه، وذلك شامل للإثم والخير، ففيه تنبيه وتهديد، ولا سيما أنَّه قيل: إنَّ المراد الإثم، كما هو قول ابن عبَّاس؛ ولذلك على القولين لم يقل: ينيمكم، وقيل: المراد كلُّ شيءٍ من طاعة ومعصية وغيرهما، فيراد أيضًا التنبيه والتهديد، ومنه تسمية اليد مثلا جارحة، والطير والسباع جوارح، لكسبها بيدها، وخصَّ الكسب بالنهار مع أنَّه يقع في الليل لأنَّه في النهار أرسخ وأكثر كما أنَّ النوم في الليل أرسخ، والنهار مخلوق للحركة والليل للسكون.

٣. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ﴾ في النهار بردِّ أرواحكم فيها، والعطف على يتوفَّاكم، ووسَّط ﴿يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ لبيان ما في (يَبْعَثُكُمْ) من عظم الإحسان إليهم بالتنبيه على ما يكسبونه من السَّيِّئات، والبعث ترشيح لملاءمته المشبَّه به وهو الإماتة، فإنَّه في عرف الشرع مختصٌّ بها ولو جاز أن يطلق حقيقة في اللغة على الإيقاظ من النوم وعلى كلِّ إنهاضٍ، وهذا أولى من قول بعضٍ: الإيقاظُ من النوم، قيل: يُسَمَّى بعثًا حقيقة؛ وقيل: مجازًا، وحمل اللفظ على المعنى العرفيِّ كالواجب، وخصَّ البعث بالنهار مع أنَّه يكون ليلاً أيضًا لأنَّ المجعول للنوم الليل، فالبعث بعده، وكانوا لا صلاة فجر عندهم حتَّى أسلموا، وأيضًا من أسلم يصلِّي ركعتين في أوَّل النهار وركعتين في آخره، ثمَّ ينام ليله كلَّه، وأجاز بعضهم عود الهاء لِلَّيلِ، ويضعف ما قيل: إن المراد بالنهارِ النهارُ السابق على الليل المذكور، فلا دلالة فيه على تأخير الإيقاظ عن هذا التوفِّي، والواضح أنَّه النهار بعد هذا الليل فُصِل بجملته ليَتَّصِل قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ بقوله:

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٨٧.

﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ إلى آخره.

٤. فالمراد بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾ بيان مجرَّد الكسب من غير دلالة على الإيقاظ واليقظة، واللام يتعلَّق بـ (يَبْعَثُ)، أي: يبعثكم لتتمَّ أيَّامكم في الحياة الدنيا، وهي الأجل المسمَّى، ويجوز أن يراد بقوله: ﴿يَبْعَثُكُمْ﴾ البعث من القبور، فتعود الهاء إلى (مَا جَرَحْتُمْ) أو إلى جرحكم، أو إلى ذلك وإلى التوفِّي، أي: في شأن ذلك كلِّه فيجازيكم، ولو كان التوفِّي مسندًا إلى الله لأنَّ الإنامة نعمة يجب عليهم شكرها، وأن يتوصَّلوا بأبدانهم إلى عبادة الله تعالى ، وعليه فالأجل المسمَّى مدَّة اللبث في القبور، والمراد: ليقضوا أجلاً مسمًّى، أو ليقضي الله أجلاً مسمًّى، ويدلُّ له قراءة: (لِيَقْضِيَ أَجَلاً مُّسَمًّى) بالبناء للفاعل، ونصب أجل.

٥. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُم﴾ رجوعكم بالحساب أو بالموت، على أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ هو البعث من النوم، أو رجوعكم إلى الموقف على أنَّ قوله: ﴿يَبْعَثُكُمْ﴾ بعثٌ من القبور، والخطاب في ذلك كلِّه للناس، أو الكفرة، واللائق للنائم أن ينام على نِيَّة التقوِّي على إطاعة الله وكسب الطَّاعات، والكافر ينام مهملاً لنفسه، أو ينوي القوَّة على المعصية، ويكسب المعاصي، والتراخي بـ (ثُمَّ) بين النوم واليقظة باعتبار أوَّل النوم، وبين البعث من القبور والرجوع إلى الموقف باعتبار الوصول، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ وهذا كناية عن الجزاء ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة ومعصية.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أي: ينيمكم فيه، استعير (التوفي) من الموت للنوم، لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز، فإن أصله قبض الشيء بتمامه، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي فيه: وتخصيص الليل بالنوم، والنهار بالكسب، جريا على المعتاد، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ أي: يوقظكم، أطلق البعث ترشيحا للتوفي ﴿فِيهِ﴾ أي: في النهار ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي ليتم مقدار حياة كل أحد، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم بالبعث بعد الموت، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: في ليلكم ونهاركم، بالمجازاة عليه، مبالغة في عدله.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٨٤.

٢. ظاهر الخطاب في الآية على العموم:

أ. وخصه في (الكشاف) بالكفرة، ذهابا إلى أن قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يدل على تهديد شديد، لا يليق إلا بالمعاندين الجاحدين، وأن المقصود بيان حالهم المذمومة في الليل، كما أن قوله: ﴿مَا جَرَحْتُمْ﴾ بيان حالهم المذمومة في النهار، وحمل (البعث) لا على الإيقاظ، بل على البعث من القبور، وفي (فيه) بمعنى (من أجله) كقولك: فيم دعوتني؟ فتقول: في أمر كذا، والمعنى: أنكم ملقون كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار، وأنه تعالى مطلع على أعمالكم، يبعثكم من القبور في شأن ما قطعتم به أعماركم، من النوم بالليل، وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى، وجزائهم على أعمالهم، والذي حمله على ذلك، زعمه أن قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ دالّ على حال اليقظة، وكسبهم فيها، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ تقضي تأخير البعث عنها.

ب. قال شراحه: ولا يخفى ما فيه من التكلف، وأنه لا حاجة إليه، لأن قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ إشارة إلى ما كسب في النهار السابق على ذلك الليل، ولا دلالة فيه على الإيقاظ من هذا التوفي، وأن الإيقاظ متأخر عن التوفي، وإن قولنا (يفعل ذلك التوفي لنقضي مدة الحياة المقدرة) كلام منتظم غاية الانتظام.

٣. سؤال وإشكال: فيما وقع من القرآن من ذكر الرجوع إلى الله نحو ﴿ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: كيف ترجع إليه، وهي لم تخرج من يده؟ والجواب: قال الشريف المرتضى في (الدرر والغرر): بأنه في دار التكليف قد يغير البعض، فيضيف بعض أفعاله تعالى إلى غيره، فإذا انكشف الغطاء، انقطعت حبال الآمال عن غيره، فيرجع إليه، أو أن المراد أن الأمور في يده من غير خروج ورجوع حقيقيّ، فـ (رجع) بمعنى (صار)، تقول العرب: رجع عليّ من فلان مكروه، بمعنى صار، ولم يكن سبق، فهو بمعنى المصير إليه، كما تشهد به اللغة، أو أنه في دار الدنيا ما يكون للعباد ظاهرا كالعبد لسيده، فإذا أفضى الأمر إلى الآخرة، زال ذلك، ورجع الأمر كله إلى الله، ظاهرا وباطنا.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ التوفي أخذ الشيء وافيا أي تاما كاملا، ويقابله التوفية وهو إعطاء الشيء تاما كاملا، يقال وفاه حقه فتوفاه منه واستوفاه، ومنه ﴿وَوَجَدَ اللهَّ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ ويقال توفاه واستوفاه بمعنى أحصى عدده، نطقت العرب بالمعنيين، وأطلق التوفي على الموت؛ لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذا تاما حتى لا يبقى لها تصرف في الأبدان، وأطلق على النوم في هذه الآية وفي آية الزمر التي نذكرها قريبا، فقال العلماء: إنه إطلاق مجازي مبني على تشبيه النوم بالموت لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس والتمييز، وإنما جعلوه استعارة عن النوم بناء على جعله حقيقة في الموت، وهو كذلك في العرف العام لا في أصل اللغة؛ يقولون توفي فلان ـ بالبناء للمفعول ـ بمعنى مات، وتوفاه الله بمعنى أماته، وما أعلم أن العرب استعملت التوفي في الموت، وإنما هو استعمال إسلامي مبني على الموت، يحصل بقبض الأنفس التي تحيا بها الناس كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿اللهَّ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فهذه الآية نص في كون التوفي أعم من الموت، وأنه ليس مرادفا له، فقد صرحت بأن الأنفس التي تتوفى في منامها غير ميتة.

٢. فقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ معناه يتوفى أنفسكم في حالة نومكم بالليل، ومثله النوم في النهار، وإنما اقتصر على ذكر الليل؛ لأن الواجب في الفطرة والغالب في العادة أن يكون النوم فيه، فلا يعتد بما يقع منه في النهار، أطلق التوفي في المنام على إزالة الإحساس والمنع من تصرف الأنفس في الأبدان على ما هو المعروف عند العلماء، ولكن بعض فلاسفة الغرب المتأخرين يرى أن للإنسان نفسين، تفارقه إحداهما عند النوم، وتفارقه كلتاهما بالموت، فإذا صح هذا يكون التوفي حقيقة في المنام وفي الموت؛ لأن الأول يحصل بقبض غير تام لأحد النفسين، والثاني بقبض تام لكلتيهما، وهو يوافق ظاهر آية الزمر.

٣. ثم قال عز وجل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ الجرح: يطلق بمعنى العمل والكسب بالجوارح وهي الأعضاء العاملة، وبمعنى التأثير الدامي من السلاح وما في معناه كالبراثن والأظفار والأنياب من

---

(١) تفسير المنار: ٧/٣٩٨

سباع الطير والوحش، قيل: إن هذا الأخير هو الحقيقة والأول مجاز، وإن عوامل الإنسان ما سميت جوارح إلا تشبيها لها بجوارح السباع، وإن هذه ما سميت جوارح إلا لأنها تجرح ما تصيده وما تفترسه، وظاهر عبارة لسان العرب أن الجرح حقيقة في الكسب، وأن جوارح الصيد سميت بذلك لكسبها لنفسها أو لمعلمها الذي يصيد بها، وأن الخيل والأنعام المنتجة تسمى جوارح أيضا؛ لأن نتاجها كسبها، فالجرح كالكسب، يطلق على الخير والشر منه، نقل ذلك اللسان عن الأزهري، وظاهر كلام الزمخشري أنه فعل الشر، وبذلك فسر الآية في الكشاف كما سيأتي، وقد استعمل الاجتراح بمعنى فعل الشر خاصة في قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ـ الآية ـ ولم يذكر الجرح والاجتراح في القرآن إلا في هاتين الآيتين، وقد يكون التخصيص بعمل السيئات لصيغة الافتعال كما ورد كثيرا في الاكتساب كقوله تعالى في آخر سورة البقرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وهو غير مطرد في ذلك، فكل من الكسب والاكتساب يستعمل في الخير والشر، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ يعلم جميع عملكم وكسبكم في وقت اليقظة الذي يكون معظمه في النهار خيرا كان أو شرا، قيل: إن الماضي هنا بمعنى المستقبل، أي: ويعلم ما تجرحونه في النهار الذي يلي الليل، عبر به لتحقق وقوعه، وقيل: بل هو على أصله ويراد به النهار السابق على الليل الذي يتوفاكم فيه، أو المراد يتوفاكم في جنس الليل ويعلم ما جرحتم في جنس النهار.

٤. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: ثم إنه بعد توفيكم بالنوم يثيركم ويرسلكم منه في النهار، فالبعث ـ كما قال الراغب ـ إثارة الشيء وتوجيهه، يقال بعثت البعير أي أثرته من بركه وسيرته، فإطلاق البعث على الإيقاظ من النوم حقيقة لغوية، ومن جعله مجازا نظر إلى العرف الشرعي، سؤال وإشكال: كان الظاهر أن يقال: وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه، فما نكتة هذا التقديم والتأخير في الآية؟ والجواب: الظاهر المتبادر أن تأخير ذكر البعث لأجل أن تتصل به علته المقصودة بالذكر في هذا السياق وهو قوله تعالى: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أن يوقظكم ويرسلكم في أعمالكم لأجل أن يقضى وينفذ الأجل المسمى في علمه تعالى لكل فرد منكم، فإن لأعماركم آجالا مقدرة مكتوبة لا بد من قضائها وإتمامها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم إليه وحده يكون رجوعكم إذا انتهت آجالكم ومتم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إذ يبعثكم من مراقد الموت كما كان يبعثكم من مضاجع النوم؛ لأنه عالم بتلك الأعمال كلها

فيذكركم بها، ويحاسبكم عليها، ويجزيكم بها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وفيه تنبيه على أن القادر على البعث من توفي النوم قادر على البعث من توفي الموت.

٥. وقد خالف الزمخشري الجمهور في تفسير الآية، فجعلها خطابا للكفار خاصة، إذ جعل الجرح خاصا بعمل السوء، وجعل الغرض من ذكر توفيهم في الليل أنهم يكونون منسدحين فيه كالجيف، ومن الجرح بالنهار: عمل الآثام فيه، وجعل البعث على معناه الشرعي، و(في) للتعليل أو الشأن كحديث دخلت امرأة النار في هرة، وقال في بيان هذا: ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ومن أجله، كقولك: فيم دعوتني؟ فأقول: في أمر كذا، وفسر الأجل المسمى بما ضربه الله لبعث الموتى وجزائهم، والمرجع بالرجوع إلى موقف الحساب، وفيه تكلف لا يدفعه إلا نص في نزول الآية في الكفار وحدهم وكون الجرح بمعنى فعل الآثام، وكلاهما لا يثبت.

٦. وفي ذكر الأجل المسمى في الآية والرجوع إلى الله تعالى لأجل الحساب والجزاء تأييد لما تقدم من حكمة تأخير ما كان مشركو مكة يستعجلون به من وعيد الله لهم، ووعيده لرسوله بالنصر عليهم وبيان عذاب الآخرة وراء ما أنذروا من عذاب الدنيا، فمن لم يدركه الأول لموته قبل وقوعه لم يفلت من الآخر.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أي يتوفى أنفسكم حال نومكم بالليل أي يزيل إحساسها ويمنعها من التصرف في الأبدان، واقتصر على الليل وإن كان ذلك يقع في النهار، لأن الغالب أن يكون النوم فيه، وفى معنى الآية قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]

﴿ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ﴾ أي ويعلم جميع عملكم وكسبكم حين اليقظة ويكون معظم ذلك في النهار سواء أكان خيرا أم شرا.

٢. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي ثم إنه بعد توفيكم بالنوم يثيركم ويرسلكم منه في النهار ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٤٧.

مُسَمًّى﴾ أي يوقظكم ويرسلكم لكسب أرزاقكم وأقواتكم، ومناجاة إلهكم وخالقكم، لأجل أن يقضى وينفذ الأجل المسمى الذي في علمه تعالى لكل فرد منكم، فإن لأعماركم آجالا مقدرة مكتوبة لا بد من قضائها وإتمامها.

٣. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم إليه رجوعكم إذا انقضت آجالكم ومتم، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا ويجازيكم بذلك إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والقادر على البعث من توفى النوم قادر على البعث من توفى الموت.

٤. وفى ذكر الأجل المسمى والرجوع إلى الله تعالى لأجل الحساب والجزاء إيماء إلى تأييد ما تقدم من حكمة تأخير ما كان يستعجله مشركو مكة من وعيد الله لهم ووعده لرسله بالنصر عليهم وبيان عذاب الآخرة فوق ما أنذروا به من عذاب الدنيا، فمن لم يدركه العذاب الأول لم يفلت من الثاني.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. من علم الله الشامل بمفاتح الغيب، وبما يجري في جنبات الكون، ينتقل السياق إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل، في ذوات البشر، ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية، بعد العلم المحيط: ﴿وَهُوَالَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾..

٢. بضع كلمات أخرى، كالتي رسمت آفاق الغيب وآماده وأغواره، وأشارت إلى مدى العلم الإلهي وشموله في الآية السابقة.. بضع كلمات أخرى تضم حياة البشرية كلها في قبضة الله سبحانه وفي علمه وقدره وتدبيره.. صحوهم ومنامهم.. موتهم وبعثهم، حشرهم وحسابهم.. ولكن على (طريقة القرآن) المعجزة في الإحياء والتشخيص، وفي لمس المشاعر واستجاشتها، مع كل صورة وكل مشهد وكل حركة يرسمها تعبيره العجيب.

٣. ﴿وَهُوَالَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾.. فهي الوفاة إذن حين يأخذهم النعاس؛ هي الوفاة في صورة

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٢٢.

من صورها بما يعتري الحواس من غفلة، وما يعتري الحس من سهوة، وما يعتري العقل من سكون، وما يعتري الوعي من سبات ـ أي انقطاع ـ وهو السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث؛ وإن عرفوا ظواهره وآثاره؛ وهو (الغيب) في صورة من صوره الكثيرة المحيطة بالإنسان.. وهؤلاء هم البشر مجردين من كل حول وطول ـ حتى من الوعي ـ ها هم أولاء في سبات وانقطاع عن الحياة، ها هم أولاء في قبضة الله ـ كما هم دائما في الحقيقة ـ لا يردهم إلى الصحو والحياة الكاملة إلا إرادة الله.. فما أضعف البشر في قبضة الله!

٤. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾، فما تتحرك جوارحهم لأخذ أو ترك، إلا وعند الله علم بما كسبت من خير أو شر.. وهؤلاء هم البشر مراقبين في الحركات والسكنات؛ لا يند عن علم الله منهم شيء مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار!

٥. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، أي يوقظكم في النهار من سباتكم وانقطاعكم؛ لتتم آجالكم التي قضاها الله.. وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذي قدره الله، لا مهرب لهم منه، ولا منتهى لهم سواه!

٦. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، فهي الأوبة إلى الراعي بعد انقضاء المراح! ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهو عرض السجل الذي وعى ما كان، وهو العدل الدقيق الذي لا يظلم في الجزاء.

٧. وهكذا تشمل الآية الواحدة، ذات الكلمات المعدودة، ذلك الشريط الحافل بالصور والمشاهد، والمقررات والحقائق، والإيحاءات والظلال.. فمن ذا الذي يملك أن يصنع ذلك؟ وكيف تكون الآيات الخوارق، إن لم تكن هي هذه؟ التي يغفل عنها المكذبون، ويطلبون الخوارق المادية وما يتبعها من العذاب الأليم! ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية.. لمسة القوة القاهرة فوق العباد، والرقابة الدائمة التي لا تغفل، والقدر الجاري الذي لا يتقدم ولا يتأخر، والمصير المحتوم الذي لا مفر منه ولا مهرب، والحساب الأخير الذي لا يني ولا يمهل.. وكله من الغيب الذي يلف البشر ويحيط بالناس.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ٢٠٣.

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ إشارة إلى نعمة النوم، واليقظة، وأن النوم أشبه بالموت، حيث تسكن فيه الحواس، وتتعطل ملكات الإنسان.. ونوم الإنسان ويقظته كل يوم، فيه تذكير له بالموت والبعث، إن كان مؤمنا، وتصوير لهما إن كان شاكا، ومظاهرة للحجة عليه، إن كان منكرا كافرا..

٢. في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ إمساك بالإنسان وهو في حال النوم، كميّت بين الأموات، ووضعه أمام ما كسب في حال يقظته، قبل أن يحتويه النوم أو يمسكه الموت.. وتلك عملية يرى فيها الإنسان صورة مصغرة لما يكون عليه حسابه يوم القيامة، وأنه ما هي إلا نومة كهذه النومة، حتى يجد نفسه هو وما عمل، بين يدى الله، للحساب والجزاء، وللجنة أو النار.. وفي هذا ما يحمل الإنسان على أن يتدبر أمره، ويراجع حسابه، ويستعد لليوم العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين..

٣. في التعبير عن أعمال الناس (بالجرح) ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ إشارة إلى الأعمال السيئة، وأنها عدوان على حرمات الله، وجرح لها، حتى لكأنها كائن حيّ يصاب بطعنة رمح، أو ضربة سيف.. وإذ كانت كذلك فإنه لا بد من قصاص، كما يقول سبحانه: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾

٤. سؤال وإشكال: إذا كان علم الله عامّا شاملا لكل ما يعمل الإنسان من خير وشر، فلم اقتصر به هنا على ما اكتسب الإنسان من سيئات، وما اجترح من حرمات؟ والجواب: سلامة الإنسان قائمة على تجنبه المعاثر، ووقوفه على حدود الله.. فإذا كفّ يده عن اجتراح المحارم، فقد فاز ونجا.. ذلك أنه إذا خلّص نفسه من دواعي الإثم والشر، استقامت طريقه على الحق والهدى، وانطلق في حرية إلى حيث أمر الله من خير وإحسان.

٥. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ الضمير المجرور بحرف الجر (في) يعود إلى النهار.. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ والمراد بالنهار ليس نهارا بعينه، وإنما هو مطلق النهار، حيث تكون فيه يقظة الإنسان والكائنات الحية.. وحيث تقع فيه كل أعمال الإنسان من خير أو شر.

٦. ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي أن هذا البعث الذي يكون باليقظة من النوم إنما هو لاستيفاء الأجل الذي قدره الله للإنسان في حياته الدنيا..

٧. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أنه بعد استيفاء الأجل المقدور لكم، يرجعكم الله إليه بالموت، ثم يبعثكم بعد الموت لتروا أعمالكم، وتحاسبوا عليها.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾، الوفاة والموت بمعنى واحد في مفهوم العرف، وهو عدم الحياة، وتستعمل كل من الكلمتين في النوم مجازا، لأن الحواس تتعطل عن أعمالها بسببه، ومنه قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، أي أن الله يقطع صلة الأرواح بالأبدان ظاهرا وواقعا حين الموت، ويمسكها عنده، ويقطع هذه الصلة ظاهرا لا واقعا حين النوم، وعند اليقظة ترجع الصلة كما كانت وتبقى إلى الوقت المضروب للموت الحقيقي.. فالنائم ميت وحي في آن واحد، والمراد بالوفاة في الآية الموت المجازي، قال الإمام علي: (تخرج الروح عند النوم، ويبقى شعاعها في الجسد، وبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح بأسرع من لحظة)

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾، يريد ما كسبت جوارحكم من أعمال ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، ضمير فيه يعود إلى النهار، ومعنى يبعثكم يوقظكم من النوم، وقال المفسرون: إن هذا الكلام دليل على صحة البعث والقيامة، لأن النوم يشبه الموت، واليقظة تشبه الحياة بعده، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر في ليلكم ونهاركم.

٣. والخلاصة أن كل إنسان يموت بانتهاء أجله المكتوب، ثم يبعثه الله بعد الموت، تماما كما يوقظه من النوم، ثم يجزي يوم البعث كل نفس بما كسبت، وهم لا يظلمون.

٤. سؤال وإشكال: لماذا خصت الآية النوم بالليل، والعمل بالنهار، مع أن الإنسان قد ينام نهارا، ويعمل ليلا؟ والجواب: إن الآية وردت مورد الغالب.

ابن عاشور:

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ٢٠٢.

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. عطف جملة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ على جملة ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ انتقالا من بيان سعة علمه إلى بيان عظيم قدرته لأنّ ذلك كلّه من دلائل الإلهية تعليما لأوليائه ونعيا على المشركين أعدائه، وقد جرت عادة القرآن بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس عقب ذكر دلائلها في الآفاق فجمع ذلك هنا على وجه بديع مؤذن بتعليم صفاته في ضمن دليل وحدانيته، وفي هذا تقريب للبعث بعد الموت.

٢. فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ صيغة قصر لتعريف جزأي الجملة، أي هو الذي يتوفّى الأنفس دون الأصنام فإنّها لا تملك موتا ولا حياة.

٣. والخطاب موجه إلى المشركين كما يقتضيه السياق السابق من قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ واللاحق من قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ويقتضيه طريق القصر، ولمّا كان هذا الحال غير خاصّ بالمشركين علم منه أنّ الناس فيه سواء.

٤. والتوفّي حقيقته الإماتة، لأنّه حقيقة في قبض الشيء مستوفى، وإطلاقه على النوم مجاز لشبه النوم بالموت في انقضاء الإدراك والعمل، ألا ترى قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، وقد تقدّم تفصيله عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ في سورة آل عمران.

٥. والمراد بقوله: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ينيمكم بقرينة قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، أي في النهار، فأراد بالوفاة هنا النوم على التشبيه، وفائدته أنّه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة، ولذا استعير البعث للإفاقة من النوم ليتمّ التقريب في قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾

٦. ومعنى ﴿جَرَحْتُمْ﴾ كسبتم، وأصل الجرح تمزيق جلد الحيّ بشيء محدّد مثل السكين والسيف والظفر والناب، وتقدّم في قوله: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ في سورة العقود، وأطلق على كلاب الصيد وبزاته ونحوها اسم الجوارح لأنّها تجرح الصيد ليمسكه الصائد، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ وتقدّم في سورة العقود، كما سمّوها كواسب، كقول لبيد: (غضفا كواسب ما يمنّ طعامها) فصار لفظ

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٤٠.

الجوارح مرادفا للكواسب؛ وشاع ذلك فأطلق على الكسب اسم الجرح، وهو المراد هنا، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]

٧. وجملة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ معترضة لقصد الامتنان بنعمة الإمهال، أي ولولا فضله لما بعثكم في النهار مع علمه بأنّكم تكتسبون في النهار عبادة غيره ويكتسب بعضكم بعض ما نهاهم عنه كالمؤمنين.

٨. ووقع الاقتصار على الإخبار بعلمه تعالى ما يكسب الناس في النهار دون الليل رعيا للغالب، لأنّ النهار هو وقت أكثر العمل والاكتساب، ففي الإخبار أنّه يعلم ما يقع فيه تحذير من اكتساب ما لا يرضى الله باكتسابه بالنسبة للمؤمنين، وتهديد للمشركين.

٩. وجملة: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ معطوفة على ﴿يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ فتكون (ثمّ) للمهلة الحقيقية، وهو الأظهر، ولك أن تجعل (ثم) للترتيب الرتبي فتعطف على جملة ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾؛ أي وهو يعلم ما تكتسبون من المناهي ثم يردّكم ويمهلكم، وهذا بفريق المشركين أنسب.

١٠. و(في) للظرفية، والضمير للنهار، والبعث مستعار للإفاقة من النوم لأنّ البعث شاع في إحياء الميّت وخاصّة في اصطلاح القرآن ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢] وحسّن هذه الاستعارة كونها مبنية على استعارة التوفّي للنوم تقريبا لكيفية البعث التي حارت فيها عقولهم، فكلّ من الاستعارتين مرشّح للأخرى.

١١. واللّام في ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ لام التعليل لأنّ من الحكم والعلل التي جعل الله لها نظام اليقظة والنوم أن يكون ذلك تجزئة لعمر الحي، وهو أجله الذي أجّلت إليه حياته يوم خلقه، كما جاء في الحديث (يؤمر بكتب رزقه وأجله وعمله)، فالأجل معدود بالأيام والليالي، وهي زمان النوم واليقظة، والعلّة التي بمعنى الحكمة لا يلزم اتّحادها فقد يكون لفعل الله حكم عديدة، فلا إشكال في جعل اللّام للتعليل.

١٢. وقضاء الأجل انتهاؤه، ومعنى كونه مسمّى أنّه معيّن محدّد، والمرجع مصدر ميمي، فيجوز أن يكون المراد الرجوع بالموت، لأنّ الأرواح تصير في قبضة الله ويبطل ما كان لها من التصرّف بإرادتها، ويجوز أن يكون المراد بالرجوع الحشر يوم القيامة، وهذا أظهر.

١٣. وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يحاسبكم على أعمالكم بعد الموت، فالمهلة في (ثم) ظاهرة، أو بعد الحشر، فالمهلة لأنّ بين الحشر وبين ابتداء الحساب زمنا، كما ورد في حديث الشفاعة.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى تمام علمه بالأشياء أشار إلى قدرته سبحانه وتعالى، وعلمه بالإنسان، وما يكون منه، فالله يعلم بها يسر، وما يظهر، فهو سبحانه يعلم ما ظهر وما بطن، ويعلم السر وأخفى.

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾، الضمير يعود على الله تعالى ذي الجلال، وهو سبحانه الذى يتوفاكم بالليل، والمراد إنامتكم، ولم يعبر بتسكنوا في الليل وهو يتضمن معنى النوم؛ لأن السياق لبيان قدرة الله تعالى، وسلطانه عليهم، وكونهم في قبضة يده، وأنه يحصى عليهم أعمالهم، فكان التعبير بالوفاة عنه أنسب، والنوم يعتبر من قبيل الوفاة، كما قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر]، فالموت الأكبر هو قضاء النحب، والموت الأصغر هو النوم، ولقد شبه النبي ﷺ عند إنذار عشيرته بأمر ربه: (والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا)

٣. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ الجرح هو إصابة الأعضاء والأجسام بما يدميها، ويطلق على الكسب، والمراد هنا الكسب خبيثا أو طيبا، وسميت سباع البهائم جوارح؛ لأنها تجرح، وتكسب قوتها بجراحتها، وسميت الأعضاء العاملة في جسم الإنسان جوارح؛ لأنها هي التي تكسب، وهي التي تجرح، والمراد ـ والله تعالى أعلم ـ أن الله تعالى يعلم ما جرح الناس بالنهار، فيعلم خفايا نياتهم في أعمالهم، ويعلم ما يكسبون من خير وشر، ويعلم ما يخفون وما يبدون، وفى ذلك إنذار وتبشير فهو إنذار لمن يكتسبون الشر، وتبشير لمن يكسبون الخير، وأحسب أن استعمال ﴿جَرَحْتُمْ﴾ الذوق البياني يجعلها أقرب إلى استعمال

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٢٦.

الشر، ولكن الأولى هو التعميم، والله سبحانه وتعالى أعلم بالمراد.

٤. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ الضمير يعود إلى النهار، ويكون الكلام متصلا بالتوفى بالليل، فالسياق يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم في النهار بعد الليل؛ ولذلك قال الشوكاني في تفسيره: إن الضمير يعود إلى الليل، لابتداء النهار والمؤدى واحد، وإن كان ثمة اختلاف في توجيه السياق والإعراب، وكان التعبير بـ (ثم) لتفاوت ما بين مظهر الليل ومظهر النهار، والتفاوت ما بين أعمال النهار وأعمال الليل.

٥. إن تداول الليل والنهار مستمر، فليل يعقبه نهار، ونهار يعقبه ليل لنهاية واحدة، وهو قضاء أجل مسمّى عند الله تعالى، وإن كان لا يعلمه إلا الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان]

٦. ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، إنه بعد أن يقضى الأجل المسمى، يكون المرجع إلى الله وحده، فلا سلطان لغيره، ولا يرجع إلى أحد سواه، ودل على هذا القصر تقديم الجار والمجرور، فإنه دل على القصر، والتعبير بـ (ثم)؛ لأن هناك تفاوتا زمنيا، بمقتضى الأجل المسمى الذى يطول ويقصر، ولتفاوت ما بين ما يكون في الحياة الدنيا من لهو وعبث وتفاخر، وتقوى أحيانا.

٧. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والتعبير بـ (ثم) أيضا لتفاوت ما بين الحياتين، وليتبين الإخبار بالعمل العظيم، وإخبار الله تعالى بما كانوا يعملون يتضمن أمرين:

أ. أولهما: أن العمل يكون مبينا لهم كأنه حاضر أمامهم يشاهد ويبصر، لا يخفى منه شيء صغيرا أو كبيرا.

ب. وثانيهما: الجزاء عليه وسمى جزاء عمل العامل عملا له؛ لأن الجزاء عادل مساو لاستحقاقه كأنه هو، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ويَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ التوفي أخذ الشيء بتمامه، ويستعمله الله سبحانه في كلامه بمعنى أخذ الروح الحية كما في حال الموت كما في قوله في الآية التالية: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، فقد عد الإنامة توفيا كما عد الإماتة توفيا على حد قوله: ﴿اَللهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا واَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] لاشتراكهما في انقطاع تصرف النفس في البدن كما أن البعث بمعنى الإيقاظ بعد النوم يشارك البعث بمعنى الإحياء بعد الموت في عود النفس إلى تصرفها في البدن بعد الانقطاع، وفي تقييد التوفي بالليل كالبعث بالنهار جري على الغالب من أن الناس ينامون بالليل ويستيقظون بالنهار.

٢. وفي قوله تعالى ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ دلالة على أن الروح تمام حقيقة الإنسان الذي يعبر عنه بـ (أنا) لا كما ربما يتخيل لنا أن الروح أحد جزئي الإنسان لا تمامه أو أنها هيئة أو صفة عارضة له، وأوضح منه دلالة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] فإن استبعاد الكفار مبني على أن حقيقة الإنسان هو البدن الذي يتلاشى ويفسد بانحلال التركيب بالموت فيضل في الأرض، والجواب مبني على كون حقيقته هو الروح (النفس) وإذ كان ملك الموت يتوفاه ويقبضه فلا يفوت منه شيء.

٣. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ الجرح هو الفعل بالجارحة والمراد به الكسب أي يعلم ما كسبتم بالنهار، والأنسب أن يكون الواو حالية والجملة حالا من فاعل يتوفاكم، ويتصل حينئذ قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾، من غير تخلل معنى أجنبي فإن الآيتين في مقام شرح وقوع التدبير الإلهي بالإنسان في حياته الدنيا وعند الموت وبعده حتى يرد إلى ربه، والأصل العمدة من جمل الآيتين المسرودة لبيان هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ويَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار ﴿لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اَللهِ مَوْلاَهُمُ اَلْحَقِّ﴾ فهذا هو الأصل في المقصود، وما وراء ذلك

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٣١

مقصود بالتبع، والمعنى وهو الذي يتوفاكم بالليل والحال أنه يعلم ما كسبتم في النهار، ثم يبعثكم في النهار.

٤. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ سمي الإيقاظ والتنبيه بعثا محاذاة لتسمية الإنامة توفيا وجعل الغرض من البعث قضاء الأجل المسمى وهو الوقت المعلوم عند الله الذي لا يتخطاه حياة الإنسان الدنيوية كما قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]

٥. وإنما جعل قضاء الأجل المسمى غاية لأنه تعالى أسرع الحاسبين، ولولا تحقق قضاء سابق لأخذهم بسيئات أعمالهم ووبال آثامهم، كما قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ولولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] والقضاء السابق هو الذي يشتمل عليه قوله تعالى في قصة هبوط آدم عليه السلام: ﴿وَلَكُمْ فِي اَلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، فالمعنى أن الله يتوفاكم بالليل والحال أنه يعلم ما كسبتم في النهار من السيئات وغيرها لكن لا يمسك أرواحكم ليديم عليها الموت بل يبعثكم في النهار بعد التوفي لتقضى آجالكم المساة ثم إليه مرجعكم بنزول الموت والحشر فينبئكم بما كنتم تعملون.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تتحرك الآية الكريمة لتثير الإحساس بالتدبير اليوميّ الذي يدبّر به حياة الإنسان بين موت تنبض في داخله الحياة، فلا يلغي للإنسان حياته، ولا يحمّله أثقالها المجهدة، فهي حياة يحسّ معها بطعم الموت فيما يحققه من راحة السكون والغيبوبة عن الوعي، وذلك هو ما يمثله النوم الذي يطبق على كيان الإنسان في الليل، وبين بعث تمثله اليقظة من عودة للحياة المتحرّكة التي تضج بالنشاط، وتحفل بالحركة، وتنوء بالجهد، حتّى إذا بدأ نهاره، انطلقت رقابة الله عليه، لتوحي له بأنها تحصي عليه كل أعماله التي يكتسبها ويجترحها في سائر الأمور.

٢. وهكذا تمتد هذه الدورة الزمنية المتأرجحة بين الموت النابض بالحياة، وبين الحياة المنطلقة في خط المسؤوليّة إلى أن ينتهي الأجل المسمّى للإنسان، فيترك هذه الحياة بالموت الكامل الذي يلغي في الجسم

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٤٨.

كل نبضة للحياة، ثم يأتي دور البعث الكبير الذي يعيش فيه اليقظة التي لا تتحرك فيها قضية المسؤولية كعمل، بل تنطلق فيها كنتاج لما أسلف من عمل، فهو الموقف الذي يواجه فيه نتائج المسؤوليّة، لينتهي إلى مصيره الأخير في الجنة، أو في النار.

٣. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ وهو العمر الذي حدّده الله للإنسان في الحياة، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لتواجهوا مصيركم من خلال ذلك.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ويبعثكم لا شركاؤكم فليس لهم فيكم أي تصرف ﴿يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ في منامكم فتصير أنفسكم في قبضته ليس لكم تصرف إلا ما أبقاه لكم حال النوم، وهذا معنى توفيهم قبض أنفسهم كما يتوفى صاحب الدين ماله بقبضة من غريمه، لأن النفس حال النوم صارت في قبضة الله وصاحبها لم يبقَ لَه تصرف فيها كما كان قبل النوم، فأنتم في قبضته.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ﴾ حين يتوفاكم ﴿مَا جَرَحْتُمْ﴾ ما اكتسبتم في النهار من المعاصي أو غيرها فلو شاء بقيت أنفسكم في قبضته ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ في النهار ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ لتستكملوا أجلاً مسمى حتى تنتهي حياتكم ويحين مماتكم كلكم أو بعضكم؛ لأن منكم من يخترم بإذن الله فيقتل قبل ذلك أو يموت، والبعث هنا: إرسال النفس بعد قبضها بحيث تنتبه من نومها ويرجع لها تصرفها الكامل، قال الشرفي في (المصابيح): (قال في (البرهان): قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يعني في النهار باليقظة ويصرف الروح بعد قبضها بالنوم ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ يعني استكمال العمر وانقضاء الأجل بالموت)، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ من هذه الآية، كالضمير في قول الشاعر:

تنفك تسمع ما حيـ ـــتَ بهالكٍ حتى تكونَه
والمرءُ قد يرجو الحيا ةَ مؤمِّلاً والموت دونه

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٥٨.

٣. وقال الشرفي في تفسير (سورة سبأ) من (المصابيح): (ثم قال الله مرة أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [آية:٣٦] أي ويضيق لمن يشاء، وهو يحتمل بسط الرزق وتضييق الرزق على واحد على حسب المصلحة، ويحتمل: أن يراد بمن قدر له الرزق غير من بسط له)، فقد جوّز مثل ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، والراجح عندي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ:٣٩] أي لمن يشاء، ومن أوضح الأمثلة لذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ أي تركتم لينة ـ وبالله التوفيق.

٤. ﴿ثُمَّ﴾ بعد قضاء الأجل المسمى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ﴾ حين ترجعون إليه وتقفون في موقف الحساب ﴿يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فأنتم في قبضته في الدنيا والآخرة فكيف تعرضون عنه وتعبدون غيره وكيف لا تتقونه.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في الآية الكريمة ينتقل الكلام إلى إحاطة علم الله بأعمال الإنسان وهو الهدف الأصلي وإلى بيان قدرة الله القاهرة، لكي يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأنّ الله هو الذي يقبض أرواحكم في الليل، ويعلم ما تعملون في النهار: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾

٢. (توفى) تعني استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، وانقطاع تام في ارتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ وضعف في هذا الارتباط، وعليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت.

٣. ﴿جَرَحْتُمْ﴾ من (جرح) وهي هنا بمعنى الاكتساب، أي أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة الله وعلمه ليلا ونهارا، وانّ الذي يعلم بانفلاق الحبّة ونموها في باطن الأرض، ويعلم بسقوط أوراق الأشجار وموتها في أي مكان وزمان، يعلم بأعمالكم أيضا.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/٣١٦.

٤. ثمّ يقول: إنّ نظام النوم واليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون في الليل ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي ثمّ يوقظكم في النهار.. وتستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.

٥. ويبيّن القرآن النتيجة النهائية لهذا المبحث بالشكل التالي: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٣٨. القهر الإلهي وإرسال الحفظة والموت

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١ ـ ٦٢]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي أنه دخل عثمان بن عفان على عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ)، فقال: كيف تجدك؟ قال: مردود إلى مولاي الحق، فقال: طبت[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، يقول: لا يضيّعون[٢].

النخعي:

روي عن إبراهيم النخعي (ت ٩٦ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، الملائكة تقبض الأنفس، ثم يذهب بها ملك الموت، وفي لفظ: ثم يقبضها منهم ملك الموت بعد[٣].

٢ . روي أنّه قال: هم أعوان ملك الموت[٤].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٨.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٩٣.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٩١.

(٤) عبد الرزاق ٢/ ٢٠٩.

١. روي أنّه قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطّست، يتناول من حيث شاء، وجعلت له أعوان يتوفّون الأنفس، ثم يقبضها منهم[١].

٢. روي أنّه قال: ما من أهل بيت شعر ولا مدر إلا وملك الموت يطيف بهم كلّ يوم مرتين[٢].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يعني الملائكة الذين يحفظونكم ويضبطون أعمالكم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وهم الملائكة ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصرون[٣].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، يقول: حفظة ـ يا ابن آدم ـ يحفظون عليك عملك ورزقك وأجلك، فإذا توفّيت ذلك قبضت إلى ربّك[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، قال إنّ ملك الموت له رسل، فيلي قبضها الرّسل، ثم يدفعونها إلى ملك الموت[٥].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ معناه لا يخلون شيئا[٦].

٢. روي أنّه قال: ﴿رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾ معناه إلى ربّهم[٧].

---

(١) عبد الرزاق ١/ ٢٠٩.

(٢) عبد الرزاق ١/ ٢١٠.

(٣) تفسير القمّي ١/ ٢٠٣.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٨٩.

(٥) عبد الرزاق ١/ ٢٠٩.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٤.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٤.

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، هم المعقّبات من الملائكة، يحفظونه، ويحفظون عمله[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، لا يضيّعون[٢].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه سئل عن ملك الموت: أهو وحده الذي يقبض الأرواح؟ قا:ل هو الذي يلي أمر الأرواح، وله أعوان على ذلك، ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، غير أن ملك الموت هو الرئيس، وكلّ خطوة منه من المشرق إلى المغرب، قيل: أين تكون أرواح المؤمنين؟ قال: عند السّدرة في الجنة[٣].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: إنّ ملك الموت هو الذي يلي ذلك، فيدفعه إن كان مؤمنا إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافرا إلى ملائكة العذاب[٤].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: دخل مروان بن الحكم المدينة فاستلقى على السرير، وثم مولى للحسين عليه السلام فقال: ﴿رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ فقال الحسين عليه السلام لمولاه: ماذا قال هذا حين دخل؟ قال: استلقى على السرير فقرأ: ﴿رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿الْحَاسِبِينَ﴾ فقال الحسين عليه السلام: نعم والله، رددت أنا

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٨٩.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٩٣.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٩٢.

(٤) عبد الرزاق ١/ ٢٠٩.

وأصحابي إلى الجنة، ورد هو وأصحابه إلى النار[١].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ لخلقه ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قد علاهم[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة، يعني: الكرام الكاتبين، يحفظون أعمال بني آدم[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ عند منتهى الأجل ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ يعني: ملك الموت وحده عليه السلام[٤].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، يعني: لا يضيّعون ما أمروا به، يعني: ملك الموت وحده[٥].

٥. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ ثم ردوا من الموت إلى الله في الآخرة، فيها تقديم، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يعني: القضاء، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يقول: هو أسرع حسابا من غيره، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧][٦].

ابن سلّام:

روي عن يحيى بن سلّام (ت ٢٠٠ هـ) أنّه قال: سمعت بعض الكوفيين يقول: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يفرغ الله من القضاء بين الخلق[٧].

الماتريدي:

---

(١) تفسير العيّاشي ١/ ٣٦٢.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٧) تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ٧٤.

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فيه جميع ما يحتاج أهل التوحيد في التوحيد؛ لأنه أخبر أنه قاهر لخلقه وهم مقهورون، ومن البعيد أن يشبه القاهر المقهور بشيء، أو يشبه المقهور القاهر بوجه، أو يكون المقهور شريك القاهر في معنى؛ لأنه لو كان شيء من ذلك لم يكن قاهرا من جميع الوجوه، ولا كان الخلق مقهورًا في الوجوه كلها، فإذا كان الله قاهرًا بذاته الخلق كله كانت آثار قهره فيهم ظاهرة، وأعلام سلطانه فيهم بادية؛ دل على تعاليه عن الأشباه والأضداد، وأنه كما وصف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

٢. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، يكون على وجهين:

أ. أحدهما: وهو القاهر وهو فوق عباده.

ب. الثاني: على التقديم والتأخير؛ وهو فوق عباده القاهر.

٣. يحتمل قوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾: بالنصر لهم والمعونة والدفع عنهم؛ كقوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالنصر والمعونة، والعظمة والرفعة والجلال، ونفاذ السلطان والربوبية.

٤. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، أخبر أنه القاهر فوق عباده، وأنه أرسل عليهم الحفظة؛ ليعلموا أن إرسال الحفظة عليهم لا لحاجة له في ذلك لما أخبر أنه قاهر فوق عباده ولو كان ذلك لحاجة له، لم يكن قاهرًا؛ لأن كل من وقعت له حاجة صار مقهورًا تحت قهر آخر، فالله تعالى يتعالى عن أن تمسه حاجة، أو يصيبه شيء مما يصيب الخلق، بل إنما أرسلهم عليهم لحاجة الخلق:

أ. إما امتحانًا منه للحفظة على محافظة أعمال العباد والكتابة عليهم، من غير أن تقع له في ذلك حاجة، يمتحنهم على ذلك، ولله أن يمتحن عباده بما شاء من أنواع المحن، وإن أكرمهم ووصفهم بالطاعة في الأحوال كلها بقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وغير ذلك من الآيات.

ب. الثاني: يرسلهم عليهم بمحافظة أعمالهم والكتابة عليهم؛ ليكونوا على حذر في ذلك العمل، وذلك في الزجر أبلغ وأكثر؛ لأن من علم أن عليه رقيبًا في عمله وفعله كان أحذر في ذلك العمل، وأنظر فيه، وأحفظ له ممن لم يكن عليه ذلك، وإن كان يعلم كل مسلم أن الله عالم الغيب لا يخفى عليه شيء عالم

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ١٠٦.

بما كان منهم وبما يكون أنه كيف يكون؟ ومتى يكون؟

٥. اختلف في الحفظة هاهنا:

أ. قال بعضهم: هم الذين قال الله أفيهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، يكتبون أعمالهم ويحفظونها عليهم.

ب. وقال آخرون: هم الذين يحفظون أنفاس الخلق، ويعدوز عليهم إلى وقت انقضائها وفنائها، ثم تقبض منه الروح ويموت؛ ألا ترى أنه قال على أثره: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾؛ دل على أن الحفظة ـ هاهنا ـ هم الذين سلطوا على حفظ الأنفاس، والعد عليهم إلى وقت الموت.

٦. ثم في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ دلالة خلق أفعال العباد؛ لأنه ذكر مجيء الموت وتوفي الرسل، وقال: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾، ومجيء الموت هو توفي الرسل وتوفي الرسل هو مجيء الموت، ثم أخبر أنه خلق الموت دل أنه خلق توفيهم، فاحتال بعض المعتزلة في هذا وقال: إن الملك هو الذي ينزع الروح ويجمعه في موضع، ثم إن الله يتلفه ويهلكه، فلئن كان ما قال فإذن لا يموت بتوفي الرسل أبدًا؛ لأنهم إذا نزعوا وجمعوا في موضع تزداد حياة الموضع الذي جمعوا فيه؛ لأنه اجتمع كل روح النفس في ذلك الموضع، فإن لم يكن دل أن ذلك خيال، والوجه فيه ما ذكرنا من الدلالة، وهو ظاهر بحمد الله، يعرفه كل عاقل يتأمل فيه ولم يعاند.

٧. اختلف في قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾:

أ. قال بعضهم: هو ملك الموت وحده، وإن خرج الكلام مخرج العموم بقوله: ﴿رُسُلَنَا﴾، والمراد منه الخصوص؛ ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، أخبر أنه هو الموكل والمسلط على ذلك.

ب. وقال آخرون: يتوفاه أعوان ملك الموت، ثم يقبضه ملك الموت ويتوفاه.

ج. وقال قائلون: يكون معه ملائكة تقبض الأنفس، ويتوفاه ملك الموت.

د. لكن ذكر ذلك لا ندري أن كيف هو؟ ليس بنا إلى معرفة ذلك حاجة، ولكن إلى معرفة ما ذكرنا.

٨. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ وفيه إخبار عن شدة طاعة الملائكة ربهم، وأن الرأفة لا تأخذهم فيما فيه

تأخير أمر الله وتفريطه؛ لأن من دخل على من في النزع، أخذته من الرأفة ما لو ملك حياته لبذل له، فأخبر عز وجل أنهم لا يفرطون فيما أمروا ولا يؤخرونه؛ لتعظيمهم أمر الله وشدة طاعتهم له، وعلى ذلك وصفهم: ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وقال عز وجل: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

٩. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾:

أ. ذكر الرد إلى الله، وأنه مولاهم الحق، وإن كانوا في الأحوال كلها مردودين إلى الله، وكان مولاهم الحق في الدنيا والآخرة، وكذلك قوله: ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا﴾، وكذلك قوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ كان الملك له في الدنيا والآخرة، وكانوا بارزين له جميعًا في الأوقات كلها؛ لما كانوا أصحاب الشكوك، فارتفع ذلك عنهم، وخلص بروزهم وردهم إلى الله خالصًا لا شك فيه؛ وكذلك كان الملك له في الدنيا والآخرة وهي الأيام كلها، لكن نازعه غيره في الملك في الدنيا، ولا أحد ينازعه في ذلك اليوم في الملك، فقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ وعلى ذلك قوله: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، كان مولاهم الحق في الأوقات كلها والأحوال، ولكن عند ذلك يظهر لهم أنه كان مولاهم الحق.

ب. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾، يحتمل: ردوا إلى ما وعدهم وأوعد.

١٠. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾:

أ. يحتمل قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾: في تأخير الموت والحياة، وقبض الأرواح، وتوفي الأنفس.

ب. ويحتمل قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ في التعذيب في النار والثواب والعقاب ليس يدفع ذلك عنهم دافع سواه، ولا ينازعه أحد في الحكم.

١١. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، عن الحسن قال هو سريع العقاب؛ لأنه إنما يحاسب ليعذب كما روي: (من نوقش الحساب عذب) وهو أسرع الحاسبين؛ لأنه لا يحاسب عن حفظ ولا تفكر، ولا يشغله شيء وأما غيره: فإنما يحاسب عن حفظ وتفكر وعن شغل، فهو أسرع الحاسبين؛ إذ لا يشغله شيء.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي أعلا قهراً وأرفع قدراً فلذلك قال فوق عباده، والثاني: الأقدر إذا استحق المبالغة عبر عنه بهذه العبارة فقيل هو فوقه في القدر أي أقدر منه، وفوقه في العلم أي أعلم منه.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يعني الملائكة الموكلة بالنفوس وحفظها من الآفات وعلمها بالأعمال من خير وشر ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني أسباب الموت بانقضاء الأجل ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ يعني بقبض الروح.

٣. سؤال وإشكال: المتولي لقبض الأرواح ملك الموت الذي وكل بكم فكيف توفتهم رسلنا والرسل جمع؟ والجواب: لأن الله أعان ملك الموت بأعوان من عنده يتولون ذلك بأمره فصار التوفي من فعل أعوانه وهو مضاف إليه لمكان أمره كما يضاف إلى الإمام فعل أعوانه من قتل أو جلد إذا كان بأمره ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصرون ولا يؤخرون.

٤. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وفي متولي الرد وجهان:

أ. أحدهما الملائكة الذين توفتهم.

ب. الثانية: أنه الله تعالى، بالبعث والنشور وردهم إلى الله ردهم إلى تدبيره لأن الله تعالى دبرهم عند خلقهم وأنشأهم ثم مكنهم من التصرف فصاروا في تدبير أنفسهم ثم كفهم عند الموت فصاروا في تدبير الله عز وجل كالحالة الأولى: فصاروا في ذلك مردودين إليه.

ج. ويجوز أنهم ردوا إلى الموضع الذي لا يملك الحكم عليهم فيه إلا الله تعالى فجعل الرد إلى ذلك الموضع رداً إليه.

٥. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وقد قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد]، والجواب: المولى في هذا الموضع بمعنى الناصر وذلك صحيح لأن الكافرين لا ناصر لهم، والمولى الأول بمعنى الملك والمدبر.

الماوردي:

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٥.

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه أعلى قهراً، فلذلك قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

ب. الثاني: أن الأقدر إذا استحق صفة المبالغة عبَّر عنه بمثل هذه العبارة، فقيل: هو فوقه في القدرة أي أقدر، وفوقه في العلم أي أعلم.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه جوارحهم التي تشهد عليهم بما كانوا يعملون.

ب. الثاني: الملائكة.

٣. ويحتمل ﴿حَفَظَةً﴾ وجهين:

أ. أحدهما: حفظ النفوس من الآفات.

ب. الثاني: حفظ الأعمال من خير وشر، ليكون العلم بإتيانها أزجر عن الشر، وأبعث على الخير.

٤. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني أسباب الموت، بانقضاء الأجل.

٥. سؤال وإشكال: المتولِّي لقبض الروح مَلَك الموت، وقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] فكيف قال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ والرسل جمع؟ والجواب: لأن الله أعان مَلَك الموت بأعوان من عنده يتولون ذلك بأمره، فصار التوفِّي من فعل أعوانه، وهو مضاف إليه لمكان أمره، كما يضاف إلى السلطان فعل أعوانه من قتل، أو جلد، إذا كان عن أمره.

٦. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: لا يؤخرون.

ب. الثاني: لا يُضَيِّعُونَ، قاله ابن عباس.

٧. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وفي متولِّي لرد قولان:

أ. أحدهما: أنهم الملائكة التي توفتهم.

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١٢٤.

ب. الثاني: أنه الله بالبعث والنشور.

٨. وفي ردهم إلى الله وجهان:

أ. أحدهما: معناه ردهم إلى تدبير الله وحده، لأن الله دبرهم عند خلقهم وإنشائهم، مكّنهم من التصرف فصاروا في تدبير أنفسهم، ثم كَفَّهم عنه بالموت فصاروا في تدبير الله كالحالة الأولى، فصاروا بذلك مردودين إليه.

ب. الثاني: أنهم ردوا إلى الموضع الذي لا يملك الحكم عليهم فيه إلا الله، فجعل الرد إلى ذلك الموضع رداً إليه.

٩. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وقد قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: أنه قال هذا لأنهم دخلوا في جملة غيرهم من المؤمنين المردودين فعمَّهم اللفظ.

ب. الثاني: أن المولى قد يعبر به عن الناصر تارة وعن السيد أخرى، والله لا يكون ناصراً للكافرين، وهو سيد الكافرين والمؤمنين.

١٠. ﴿الْحَقُّ﴾ هنا يحتمل ثلاثة أوجه:

أ. أحدهما: أن الحق هو من أسمائه تعالى.

ب. الثاني: لأنه مستحق الرد عليه.

ج. الثالث: لِحُكْمِهِ فيهم بالرد.

١١. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾:

أ. يعني القضاء بين عباده.

ب. ويحتمل قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وجهاً ثانياً: أن له أن يحكم لنفسه فصار بهذا الحكم مختصاً.

١٢. سؤال وإشكال: فقد جعل لغيره الحكم؟ والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: أن له الحكم في يوم القيامة وحده.

ب. الثاني: أن غيره يحكم بأمره فصار الحكم له.

١٣. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: يعني سرعة الحكم بين العباد لتعجيل الفصل، وعبر عن الحكم بالحساب من تحقيق المستوفِي بهما من قليل وكثير.

ب. الثاني: وهو الظاهر أنه أراد سرعة محاسبة العباد على أعمالهم.

١٤. ويحتمل مراده بسرعة حسابه وجهين:

أ. أحدهما: إظهار قدرته بتعجيل ما يعجز عنه غيره.

ب. الثاني: أنه يبين به تعجيل ما يستحق عليه من ثواب، وتعجيل ما يستحق على غيره من عقاب جمعاً بين إنصافه وانتصافه.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ معناه والله المتقدر المستعلي على عباده الذين هو فوقهم لا على أنه في مكان مرتفع فوقهم وفوق مكانهم، لأن ذلك لا يجوز عليه، لأنه صفة للأجسام، ومثله في اللغة أمر فلان فوق أمر فلان، يراد به أنه أعلى أمراً، وأنفذ قولاً، ومثله قوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ والمراد أنه أقوى وأقدر منهم وانه القاهر لهم.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يعني يرسل عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم ويكتبونها ليعلموا بذلك أن عليهم رقيباً من عند الله ومحصياً عليهم فينزجروا عن المعاصي، وبين أن هؤلاء الحفظة هم شهداء عليكم بهذه الأعمال يوم القيامة.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني وقت الموت ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ يعني قبضت الملائكة روح المتوفى، وهم رسل الله الذين عنا هم الله بهذه الآية، وقال الحسن: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ قال هو ملك الموت وأعوانه وأنهم لا يعلمون آجال العباد حتى يأتيهم علم ذلك من قبل الله بقبض أرواح العباد، وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي تقبضه، والتوفي هو القبض على ما بيناه.

٤. ثم إن هؤلاء الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصرون ـ في قول الزجاج ـ ولا يغفلون، ولا

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٥٩.

يتوانون، وقال الجبائي: لا يأخذون روحه قبل أجله ويبادرون إلى ما أمروا به عن غير تقصير، ولا تفريط، والمعنى في التوفي أن يعلم العباد أنهم يحصون إذا ماتوا فلا يرون أنهم يهملون إذا ماتوا وأن أحداً منهم لا يثبت ذكره ليجزي بعمله.

٥. ثم بين الله تعالى أن هؤلاء الذين تتوفاهم رسلنا يردون بعد الوفاة إلى الله فيردهم إلى الموضع الذي لا يملك الحكم عليهم فيه إلا الله ولا يملك نفعهم ولا ضرهم سواه فجعل ردهم إلى ذلك الموضع رداً إلى الله.

٦. وبين أنه هو﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ لأنه خالقهم ومالكهم، والقاهر عليهم القادر على نفعهم وضرهم، ولا يجوز أن يوصف بهذه الصفة سواه، فلذلك كان مولاهم الحق، وقال البلخي: (الحق) اسم من أسماء الله وهو خفض، لأنه نعت لله، ويجوز الرفع على معنى الله مولاهم الحق، ويجوز أن ينصب على معنى يعني مولاهم، والقراءة بالخفض.

٧. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ معناه ألا يعلمون أو ألا يقرون أن الحكم يوم القيامة هو له وحده؟، ولا يملك الحكم في ذلك اليوم سواه، كما قد يملك الحكم في الدنيا غيره بتمليك الله إياه.

٨. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ روي أنه تعالى يحاسب عباده على مقدار حلب شاة، وذلك يدل على أنه لا يحتاج أن يكلفهم مشقة وآلة على ما يقوله المشبهة، لأنه لو كان كذلك لاحتاج أن يتطاول زمان محاسبته أو أنه يشغله محاسبته عن محاسبة غيره، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قيل له: كيف يحاسب الله الخلق وهم لا يرونه؟ قال كما يرزقهم ولا يرونه.

٩. والمعنى في الآية أنه تعالى أحصى الحاسبين لما أحصى الملائكة وتوفوا من الأنفس لا يخفى عليه من ذلك خافية ولا يحتاج في عده إلى فكر ونظر.

١٠. قراءات ووجوه: كلهم قرأ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ بالتاء إلا حمزة فإنه قرأ (توفاه)، وحجة من قرأ بالتاء قوله: ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ و(جاءتهم رسلهم بالبينات) و﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ وحجة حمزة أنه فعل متقدم مسند إلى مؤنث غير حقيقي، وإنما التأنيث للجمع، فهو مثل قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ وما أشبه ذلك مما يأتيه تأنيث الجمع، قال وليس ذلك خلافاً للمصحف، لأن الألف الممالة تكتب ياء.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. القهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، وهو القادر على كل مستضعف من الأمور، والقاهر والغالب يرجعان إلى معنى قادر.

ب. عباد: جمع، والعبد: هو المذلل بالمِلْكِ مِنْ جنس مَنْ يعقل، يقال: طريق معبد أي مذلل.

ج. الحفظة: جمع حافظ نحو: كافر وكَفَرَة.

د. الرد: قلب الشيء إلى الحال التي كان عليها، ومنه: الرِّدَّةُ، ومنه: التردد في الكلام.

٢. عطف الله تعالى على ما تقدم بيان كمال قدرته، وتدبيره في خلقه، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾:

أ. أي القادر الغالب.

ب. وقيل: المالك العالي عليهم بالسلطان.

ج. وأصله يرجع إلى أنه قادر على تصريفهم كيف شاء؛ لأنه قادر لذاته لا يمتنع عليه شيء.

٣. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يعني فوقهم بالعلو والقدرة والسلطان، ولم يرد فوقهم في المكان؛ لأن المكان لا يجوز عليه تعالى؛ لأنه ليس بجسم ولا جوهر، ولأن الآية تمدح، فليس في كونه فوق الخلق بالمكان تمدح، فهذا كما يقال: فلان فوق كل أحد، ولا يريدون المكان، والمراد القدرة والسلطان، ومعناه في صفته أنه لا يساويه في كونه قادرًا أحد، فلا يمتنع عليه مقدور.

٤. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾:

أ. قيل: ملائكة يكتبون أعمال بني آدم ويحفظونها، وهو تكليف للملائكة؛ لذلك وصفهم بأنهم لا يفرطون، ولطف لنا لكيلا نعصي، وذَكَرَ بالجَمْعِ؛ لأن من يكتب الخير غير من يكتب الشر.

ب. وقيل: ملائكة الليل غير ملائكة النهار، ثم اختلفوا فيما يكتبون، قيل: يكتبون ما له تعلق بالجزاء كالخير والشر.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٩٥.

ج. وقيل: يكتبون الكل ثم يمحو الله ما يشاء ويثبت.

د. وقيل: الحفظة الملائكة التي تحفظ بني آدم، كقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾

٥. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي وقت الموت، وهو الوقت المضروب للأحياء ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي تقبض أرواحهم رسلنا:

أ. قيل: هم الملائكة أعوان ملك الموت عن ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وإبراهيم، ويقبضون بأمره؛ لذلك أضافه إليه في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾

ب. وقيل: قابض الأرواح هم الحفظة.

ج. وقيل: الحفظة غير قابضي الأرواح.

٦. سؤال وإشكال: كيف يعلم ملك الموت وأعوانه وقت موت بني آدم؟ والجواب:

أ. بإعلام الله إياهم.

ب. ثم يجوز أن يعلموا ببيان متقدم.

ج. ويجوز أن يعلموا ببيان مجدد، وروي أنه يدفع إليه نسخة لكل سنة.

د. قال مجاهد: جعلت الْأَرْضُ لملك الموت مثل الطست يتناول من حيث شاء، وما من أهل بيت إلا وملك الموت يطوف بهم كل يوم مرتين.

٧. سؤال وإشكال: كيف يقع التوفي؟ والجواب:

أ. يزيلون الروح عن أماكنها من البدن، فلا يعيش معها.

ب. ويجوز أن ينتقض كثير من الأبنية الباطنة، ثم يخلق الله تعالى الموت كمن يخرجه الواحد منا ثم يخلق الله تعالى الموت.

ج. ومن يقول: الموت ليس بمعنى يقول: إنها بطلان ما تحتاج الحياة إليه.

د. وقد قال بعضهم: إنهم يسألون الله تعالى فيقع التوفي، فيضاف ذلك إليهم مجازًا، وليس بصحيح، والوجه ما ذكرناه أولاً.

٨. سؤال وإشكال: فما فائدة هذه الواسطة؟ والجواب: مصلحة لهم لأنه صار من تكليفهم، ولطفًا

لنا.

٩. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾:

أ. قيل: لا يقصرون.

ب. وقيل: لا يُضيِّعون، عن ابن عباس والسدي.

١٠. ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ أي رجعوا إليه:

أ. قيل: ردتهم الملائكة الَّذِينَ توفتهم.

ب. وقيل: ردهم الله بالبعث يوم الحشر.

١١. واختلفوا في المردود في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾:

أ. قيل: الملائكة يعني كما يموت بنو آدم تموت الملائكة.

ب. وقيل: هم العباد أي لا يرجعون إلى الدنيا كما يرجعون عند النوم، كما تقدم ﴿إِلَى اللهِ﴾ أي حكمه وتدبيره فيهم بحيث لا حكم لأحد، وذلك أنه تعالى ابتدأ بتدبير الخلق والإنشاء وحده، ثم مكنهم من بعض تدابيرهم، ثم ردوا يوم القيامة إلى تدبيره وحده.

ج. وقيل: ردوا إلى الموضع الذي لا يحكم، ولا يملك الحكم سواه، فجعل الرد إلى ذلك الموضع ردًّا إليه، عن أبي علي.

١٢. ﴿مَوْلَاهُمُ﴾:

أ. قيل: مالكهم وإلههم، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم.

ب. وقيل: إنما قال ههنا ﴿مَوْلَاهُمُ﴾؛ لأنهم دخلوا في جملة غيرهم مِمَّنْ يُرَدُّ.

١٣. ﴿الْحَقُّ﴾:

أ. قيل: دائم لا يجوز عليه البطلان.

ب. وقيل: معناه ذو الحق أي أفعاله وأقواله حق.

١٤. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾:

أ. قيل: يوم القيامة فإنه لا حكم هناك لغيره عن أبي علي.

ب. وقيل: له الحكم، فإما أن [يحكم هو أو] يَحْكُم غيره بأمره.

١٥. ﴿وَهُوَ﴾ يعني الله تعالى: ﴿أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾:

أ. قيل: يضطر الجميع إلى معرفة جزائه، فحساب واحد حساب للجميع.

ب. وقيل: يخلق مع كل واحد كلامًا يحاسبه، فلا يشغله حساب أحد عن حساب غيره؛ لأنه لا يتكلم بلسان ولهوات؛ حتى يشغله كلام واحد عن كلام آخر.

ج. وقيل: ليس المراد بالحساب الإحصاء، أي بسرعة يحصي جميع ذلك، وهو يرجع إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، عن الأصم.

د. وقيل: يحاسب جميع خلقه يوم القيامة بقدر حلب شاة، عن أبي علي.

١٦. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه تعالى وَكَّلَ جماعة تقبض أرواح بني آدم فلذلك قال: ﴿رُسُلَنَا﴾، وقد بَيَّنَّا أنهم أعوان ملك الموت يقبضون الأرواح بأمره، فالجميع يضاف إليه، فلا تناقض بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾

ب. أن الملائكة يقبضون الأرواح فقط؛ لأن الموت عرض يضاد الحياة لا يقدر عليه غير الله، والروح هو النَّفَسُ الذي في مخارق الإنسان، فينتزعها الملك بآلة يعطيها الله تعالى إياه.

ج. أنهم مأمورون، ومُعَرَّفُون وقت الموت.

د. أن علينا حَفَظَةً تحفظ أعمال بني آدم، سؤال وإشكال: فهل تلحقهم مشقة؟ والجواب: نعم، ولذلك صار من تكليفهم، ولأنهم مع جلالة حالهم وعظمتهم إذا شاهدوا سوء أفعال الفساق يشق عليهم، وكَتْبُهُ ذلك تكليف لهم ولطْفٌ لنا.

هـ. المعاد والبعث، وأنه يحاسب خلقه، فتدل على أن أفعالهم ليست بخلق الله تعالى حتى يصح الحساب.

و. أنه لا يتكلم باللسان واللهوات؛ ليصح أن يحاسب الجميع في وقت واحد، عن أبي علي.

١٧. قراءات ووجوه:

أ. قرأ حمزة: (توفاه رسلنا) بالإمالة لتقديم الفعل، ولأن الجمع قد يُذَكَّرُ، وقرأ الباقون ﴿تَوَفَّتْهُ﴾

بالتاء على تأنيث الجمع.

ب. القراءة الظاهرة ﴿يُفَرِّطُونَ﴾ بالتشديد بمعنى لا يقصرون، وعن بعضهم ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بفتح الياء وضم الراء وسكون الفاء من فرط يَفْرُط إذا قصر، وقرأ عبيد بن عمير بضم الياء وكسر الراء بالتخفيف بمعنى لا يجاوزون الحد، فالتفريط: التقصير، والإفراط: مجاوزة الحد؛ قال الشاعر:

لا خَيْرَ في الإفراطِ والتَّفْرِيطِ فَكِلاَهُمَا عِنْدي مِنَ التَّخْلِيطِ

ج. القراءة الظاهرة ﴿الْحَقُّ﴾ بالجر نعتًا لاسم الله تعالى، وعن الحسن بالنصب أي قولاً حقًّا.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. زاد سبحانه في بيان كمال قدرته فقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ معناه: والله المقتدر المستعلي على عباده، الذي هو فوقهم، لا بمعنى أنه في مكان مرتفع فوقهم، وفوق مكانهم، لأن ذلك من صفة الأجسام، والله تعالى منزه عن ذلك، ومثله في اللغة أمر فلان فوق أمر فلان، أي هو أعلى أمرا، وأنفذ حكما، ومثله قوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: فالمراد به أنه أقوى وأقدر منهم، وأنه القاهر لهم، ويقال: هو فوقه في العلم أي: أعلم منه، وفوقه في الجود أي أجود، فعبر عن تلك الزيادة بهذه العبارة للبيان عنها.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ عطف على صلة الألف واللام في ﴿الْقَاهِرُ﴾ وتقديره: وهو الذي يقهر عباده، ويرسل عليكم حفظة أي: ملائكة يحفظون أعمالكم، يحصونها عليكم، ويكتبونها، وفي هذا لطف للعباد لينزجروا عن المعاصي إذا علموا أن عليهم حفظة من عند الله، يشهدون بها عليهم يوم القيامة.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ﴾ أي: تقبض روحه، ﴿رُسُلُنَا﴾:

أ. يعني: أعوان ملك الموت، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، قالوا، وإنما يقبضون الأرواح بأمره، ولذلك أضاف التوفي إليه في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾

ب. وقال الزجاج يريد بالرسل: هؤلاء الحفظة، فيكون المعنى: يرسلهم للحفظ في الحياة، والتوفية عند مجئ الممات، وحتى هذه هي التي تقع بعدها الجملة.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٦٤.

٤. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾:

أ. أي: لا يضيعون، عن ابن عباس، والسدي.

ب. وقيل: لا يغفلون، ولا يتوانون، عن الزجاج، وقال: معنى التفريط تقدمة العجز، فالمعنى أنهم لا يعجزون.

٥. ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين تتوفاهم رسله، يرجعون إليه فقال: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾ أي: إلى الموضع الذي لا يملك الحكم فيه إلا هو.

٦. ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ قد مر معناه عند قوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ والحق: اسم من أسماء الله تعالى، واختلف في معناه:

أ. فقيل: المعنى أن أمره كله حق لا يشوبه باطل، وجد لا يجاوره هزل، فيكون مصدرا وصف به نحو قولهم: رجل عدل، وفي قول زهير:

متى يشتجر قوم يقل سرواتهم ... هم بيننا فهم رضا وهم عدل

ب. وقيل: إن الحق بمعنى المحق، كما قيل: غياث بمعنى مغيث.

ج. وقيل: إن معناه الثابت الباقي الذي لا فناء له.

د. وقيل: معناه ذو الحق يريد أن أفعاله وأقواله حق.

٧. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي القضاء فيهم يوم القيامة، لا يملك الحكم في ذلك اليوم سواه، كما قد يملك الحكم في الدنيا غيره بتمليكه إياه.

٨. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أي: إذا حاسب فحسابه سريع، وقد مضى معناه في سورة البقرة عند قوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، وروى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه سئل كيف يحاسب الله الخلق ولا يرونه؟ قال: (كما يرزقهم ولا يرونه)، وروى أنه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة.

٩. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يدل على أنه لا يشغله محاسبة أحد عن محاسبة غيره، ويدل على أنه سبحانه يتكلم بلا لسان ولهوات، ليصح أن يحاسب الجميع في وقت واحد.

١٠. قراءات ووجوه:

أ. قرأ حمزة وحده: (توفاه) والباقون: بالتاء.. حجة من قرأ بالتاء قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾،

و﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾، وحجة حمزة أنه فعل متقدم مسند إلى مؤنث غير حقيقي، وإنما التأنيث للجمع، فهو مثل ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾، إن كانت الكتابة في المصحف با لياء، فليس ذلك بخلاف، لأن الألف الممالة قد كتبت بياء.

ب. وقرأ الأعرج ﴿يُفَرِّطُونَ﴾ في الشواذ.. قراءة الأعرج، من أفرط في الأمر إذا زاد فيه، وقراءه العامة من (فرط) في الأمر إذا قصر فيه، فهو بمعنى: لا يقتصرون فيما يؤمرون به من توفي من تحضره منيته، وذاك بمعنى، لا يزيدون على ذلك، ولا يتوفون إلا من أمروا بتوفيه، ونظيره قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الحفظة: الملائكة، واحدهم: حافظ، والجمع: حفظة، مثل كاتب وكتبة، وفاعل وفعلة، وفيما يحفظونه قولان:

أ. أحدهما: أعمال بني آدم؛ قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أعمالهم وأجسادهم، قاله السّدّيّ.

٢. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقرأ حمزة: (توفّاه رسلنا) وحجّته أنه فعل مسند إلى مؤنث غير حقيقي، وإنما التأنيث للجمع، فهو مثل: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾

٣. في المراد بالرّسل ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنهم أعوان ملك الموت، قاله ابن عباس، وقال النخعيّ: أعوانه يتوفّون النّفوس، وهو يأخذها منهم.

ب. الثاني: أنّ المراد بالرّسل: ملك الموت وحده، قاله مقاتل.

ج. الثالث: أنهم الحفظة، قاله الزّجّاج.

٤. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ قال ابن عباس: لا يضيّعون.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٣٩.

٥. سؤال وإشكال: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾؟ والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: أنه يجوز أن يريد بالرّسل ملك كالموت وحده، وقد يقع الجمع على الواحد.

ب. الثاني: أنّ أعوان ملك الموت يفعلون بأمره، فأضيف الكلّ إلى فعله، وقيل: توفّي أعوان ملك الموت بالنّزع، وتوفّي ملك الموت بأن يأمر الأرواح فتجيب، ويدعوها فتخرج، وتوفّي الله تعالى بأن يخلق الموت في الميّت.

٦. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾ يعني العباد، وفي متولّي الرّدّ قولان:

أ. أحدهما: أنهم الملائكة، ردّتهم بالموت إلى الله تعالى.

ب. الثاني: أنه الله عزّ وجلّ، ردّهم بالبعث في الآخرة.

٧. في معنى ردّهم إلى الله تعالى، قولان:

أ. أحدهما: أنهم ردّوا إلى المكان الذي لا يملك الحكم فيه إلّا الله وحده.

ب. الثاني: أنهم ردّوا إلى تدبيره وحده؛ لأنه لما أنشأهم كان منفردا بتدبيرهم، فلما مكّنهم من التّصرّف صاروا في تدبير أنفسهم، ثمّ كفّهم عنه بالموت فصاروا مردودين إلى تدبيره.

٨. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يعني القضاء، وبيان سرعة الحساب، في سورة البقرة.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا نوع آخر من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته، وتقريره أنا بينا فيما سبق أنه لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية الفوقية بالمكان والجهة بل يجب أن يكون المراد منها الفوقية بالقهر والقدرة، كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان بمعنى أنه أعلى وأنفذ ومنه قوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ومما يؤكد أن المراد ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ مشعر بأن هذا القهر إنما حصل بسبب هذه الفوقية، والفوقية المفيدة لصفة القهر هي الفوقية بالقدرة لا الفوقية بالجهة، إذ

(١) التفسير الكبير: ١٣/ ١٤.

المعلوم أن المرتفع في المكان قد يكون مقهورا، وتقرير هذا القهر من وجوه:

أ. الأول: إنه قهار للعدم بالتكوين والإيجاد.

ب. الثاني: أنه قهار للوجود بالإفناء والإفساد فإنه تعالى هو الذي ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة ومن الوجود إلى العدم أخرى، فلا وجود إلا بإيجاده ولا عدم إلا بإعدامه في الممكنات.

ج. الثالث: أنه قهار لكل ضد بضده فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور، والنهار بالليل والليل بالنهار، وتمام تقريره في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، إذا عرفت منهج الكلام، فاعلم أنه بحر لا ساحل له لأن كل مخلوق فله ضد، فالفوق ضده التحت، والماضي ضده المستقبل، والنور ضده الظلمة، والحياة ضدها الموت، والقدرة ضدها العجز، وتأمل في سائل الأحوال والصفات لتعرف أن حصول التضاد بينها يقضي عليها بالمقهورية والعجز والنقصان، وحصول هذه الصفات في الممكنات يدل على أن لها مدبرا قادرا قاهرا منزها عن الضد والند، مقدسا عن الشبيه والشكل، كما قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾

د. الرابع: أن هذا البدن مؤلف من الطبائع الأربع، وهي متنافرة متباغضة متباعدة بالطبع والخاصة فاجتماعها لا بد وأن يكون بقسر قاسر وأخطأ من قال إن ذلك القاسر هو النفس الإنسانية، وهو الذي ذكره ابن سينا في الإشارات لأن تعلق النفس بالبدن إنما يكون بعد حصول المزاج واعتدال الأمشاج، والقاهر لهذه الطبائع على الاجتماع سابق على هذا الاجتماع، والسابق على حصول الاجتماع مغاير للمتأخر عن حصول الاجتماع، فثبت أن القاهر لهذه الطبائع على الاجتماع ليس إلا الله تعالى، كما قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾

هـ. وأيضا فالجسد كثيف سفلي ظلماني فاسد عفن، والروح لطيف علوي نوراني مشرق باق طاهر نظيف، فبينهما أشد المنافرة والمباعدة، ثم إنه سبحانه جمع بينهما على سبيل القهر والقدرة، وجعل كل واحد منهما مستكملا بصاحبه منتفعا بالآخر، فالروح تصون البدن عن العفونة والفساد والتفرق، والبدن يصير آلة للروح في تحصيل السعادات الأبدية، والمعارف الإلهية، فهذا الاجتماع وهذا الانتفاع ليس إلا بقهر الله تعالى لهذه الطبائع، كما قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾

و. وأيضا فعند دخول الروح في الجسد أعطى الروح قدرة على فعل الضدين، ومكنة من الطرفين

إلا أنه يمتنع رجحان الفعل على الترك تارة والترك على الفعل أخرى إلا عند حصول الداعية الجازمة الخالية عن المعارض، فلما لم تحصل تلك الداعية امتنع الفعل والترك فكان إقدام الفاعل على الفعل تارة وعلى الترك أخرى بسبب حصول تلك الداعية في قلبه من الله يجري مجرى القهر فكان قاهرا لعباده من هذه الجهة.

ز. وإذا تأملت هذه الأبواب علمت أن الممكنات والمبدعات والعلويات والسفليات والذوات والصفات كلها مقهورة تحت قهر الله مسخرة تحت تسخير الله تعالى، كما قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ المراد أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم وهؤلاء الحفظة هم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] واتفقوا على أن المقصود من حضور هؤلاء الحفظة ضبط الأعمال، ثم اختلفوا:

أ. فمنهم من يقول: إنهم يكتبون الطاعات والمعاصي والمباحات بأسرها بدليل قوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]

ب. وعن ابن عباس أن مع كل إنسان ملكين: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على اليمين، وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار انتظره لعله يتوب منها، فإن لم يتب كتب عليه.

ج. والقول الأول: أقوى لأن قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يفيد حفظة الكل من غير تخصيص.

٣. ظاهر هذه الآيات يدل على أن اطلاع هؤلاء الحفظة على الأقوال والأفعال، أما على صفات القلوب وهي العلم والجهل فليس في هذه الآيات ما يدل على اطلاعهم عليها، أما في الأقوال، فلقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وأما في الأعمال فلقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] فأما الإيمان والكفر والإخلاص والإشراك فلم يدل الدليل على اطلاع الملائكة عليها.

٤. ذكر أهل الشريعة في فائدة جعل الملائكة موكلين على بني آدم وجوها:

أ. الأول: أن المكلف إذا علم أن الملائكة موكلون به يحصون عليه أعماله ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة كان ذلك أزجر له عن القبائح.

ب. الثاني: يحتمل في الكتابة أن يكون الفائدة فيها أن توزن تلك الصحائف يوم القيامة لأن وزن الأعمال غير ممكن، أما وزن الصحائف فممكن.

ج. الثالث: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، ويجب علينا الإيمان بكل ما ورد به الشرع سواء عقلنا الوجه فيه أو لم نعقل.

٥. اختلفت أقوال أهل الحكمة في في فائدة جعل الملائكة موكلين على بني آدم وجوها:

أ. الأول: قال المتأخرون منهم: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ومن جملة ذلك القهر أنه خلط الطبائع المتضادة ومزج بين العناصر المتنافرة، فلما حصل بينها امتزاج استعد ذلك الممتزج بسبب ذلك الامتزاج لقبول النفس المدبرة والقوى الحسية والحركية والنطقية فقالوا المراد من قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ تلك النفوس والقوى، فإنها هي التي تحفظ تلك الطبائع المقهورة على امتزاجاتها.

ب. الثاني: وهو قول بعض القدماء أن هذه النفوس البشرية والأرواح الإنسانية مختلفة بجواهرها متباينة، بماهياتها، فبعضها خيرة وبعضها شريرة وكذا القول في الذكاء والبلادة والحرية والنذالة والشرف والدناءة وغيرها من الصفات ولكل طائفة من هذه الأرواح السفلية روح سماوي هو لها كالأب الشفيق والسيد الرحيم يعينها على مهماتها في يقظاتها ومناماتها تارة على سبيل الرؤيا، وأخرى على سبيل الإلهامات فالأرواح الشريرة لها مبادئ من عالم الأفلاك، وكذا الأرواح الخيرة وتلك المبادئ تسمى في مصطلحهم بالطباع التام يعني تلك الأرواح الفلكية في تلك الطبائع والأخلاق تامة كاملة، وهذه الأرواح السفلية المتولدة منها أضعف منها لأن المعلول في كل باب أضعف من علته ولأصحاب الطلسمات والعزائم الروحانية في هذا الباب كلام كثير.

ج. الثالث: النفس المتعلقة بهذا الجسد، لا شك في أن النفوس المفارقة عن الأجساد لما كانت مساوية لهذه في الطبيعة والماهية فتلك النفوس المفارقة تميل إلى هذه النفس بسبب ما بينهما من المشاكلة والموافقة وهي أيضا تتعلق بوجه ما بهذا البدن وتصير معاونة لهذه النفس على مقتضيات طبيعتها فثبت

بهذه الوجوه الثلاثة أن الذي جاءت الشريعة الحقة به ليس للفلاسفة أن يمتنعوا عنها لأن كلهم قد أقروا بما يقرب منه وإذا كان الأمر كذلك كان إصرار الجهال منهم على التكذيب باطلا والله أعلم.

٦. سؤال وإشكال: ألا يتناقض قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ مع قوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] فهذان النصان يدلان على أن توفي الأرواح ليس إلا من الله تعالى، ثم قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وهذا يقتضي أن الوفاة لا تحصل إلا من ملك الموت، فهذه النصوص كالمتناقضة؟ والجواب: أن التوفي في الحقيقة يحصل بقدرة الله تعالى، وهو في عالم الظاهر مفوض إلى ملك الموت، وهو الرئيس المطلق في هذا الباب، وله أعوان وخدم وأنصار، فحسنت إضافة التوفي إلى هذه الثلاثة بحسب الاعتبارات الثلاثة.

٧. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾:

أ. من الناس من قال هؤلاء الرسل الذين بهم تحصل الوفاة، وهم أعيان أولئك الحفظة فهم في مدة الحياة يحفظونهم من أمر الله، وعند مجيء الموت يتوفونهم.

ب. والأكثرون أن الذين يتولون الحفظ غير الذين يتولون أمر الوفاة.

ج. لا دلالة في لفظ الآية تدل على الفرق، إلا أن الذي مال إليه الأكثرون هو القول الثاني، وأيضا فقد ثبت بالمقاييس العقلية أن الملائكة الذين هم معادن الرحمة والخير والراحة مغايرون للذين هم أصول الحزن والغم فطائفة من الملائكة هم المسمون بالروحانيين لإفادتهم الروح والراحة والريحان، وبعضهم يسمون بالكروبيين لكونهم مبادئ الكرب والغم والأحزان.

٨. الظاهر من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ أنه ملك واحد هو رئيس الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، والمراد بالحفظة المذكورين في هذه الآية: أتباعه، وأشياعه، عن مجاهد: جعل الأرض مثل الطست لملك الموت يتناول من يتناوله، وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين، وجاء في الأخبار من صفات ملك الموت ومن كيفية موته عند فناء الدنيا وانقضائها أحوال عجيبة.

٩. قراءات ووجوه: قرأ حمزة: توفاه بالألف ممالة والباقون بالتاء، فالأول لتقديم الفعل، ولأن الجمع قد يذكر، والثاني على تأنيث الجمع.

١٠. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصرون فيما أمرهم الله تعالى به، وهذا يدل على أن الملائكة

الموكلين بقبض الأرواح لا يقصرون فيما أمروا به، وقوله في صفة ملائكة النار: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَّ مَا أَمَرَهُمْ﴾ يدل على أن ملائكة العذاب لا يقصرون في تلك التكاليف، وكل من أثبت عصمة الملائكة في هذه الأحوال أثبت عصمتهم على الإطلاق، فدلت هذه الآية على ثبوت عصمة الملائكة على الإطلاق.

١١. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهَّ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾:

أ. قيل: المردودون هم الملائكة يعني كما يموت بنو آدم يموت أيضا أولئك الملائكة.

ب. وقيل: بل المردودون البشر، يعني أنهم بعد موتهم يردون إلى الله.

١٢. هذه الآية من أدل الدلائل على أن الإنسان ليس عبارة عن مجرد هذه البنية، لأن صريح هذه الآية يدل على حصول الموت للعبد، ويدل على أنه بعد الموت يرد إلى الله، والميت مع كونه ميتا لا يمكن أن يرد إلى الله لأن ذلك الرد ليس بالمكان والجهة، لكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة، بل يجب أن يكون ذلك الرد مفسرا بكونه منقادا لحكم الله مطيعا لقضاء الله، وما لم يكن حيا لم يصح هذا المعنى فيه، فثبت أنه حصل هاهنا موت وحياة أما الموت، فنصيب البدن: فبقي أن تكون الحياة نصيبا للنفس والروح ولما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾ وثبت أن المرد وهو النفس والروح، ثبت أن الإنسان ليس إلا النفس والروح، وهو المطلوب.

١٣. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾ مشعر بكون الروح موجودة قبل البدن، لأن الرد من هذا العالم إلى حضرة الجلال: إنما يكون لو أنها كانت موجودة قبل التعلق بالبدن، ونظيره قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤] ونقل عن النبي ﷺ أنه قال: (خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام)، وحجة الفلاسفة على إثبات أن النفوس البشرية غير موجودة قبل وجود البدن حجة ضعيفة بينا ضعفها في (الكتب العقلية)

١٤. كلمة (إلى) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهَّ﴾ تفيد انتهاء الغاية فقوله ﴿إِلَى اللهَّ﴾ يشعر بإثبات المكان والجهة لله تعالى وذلك باطل فوجب حمله على أنهم ردوا إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه.

١٥. سمى الله تعالى نفسه في هذه الآية باسمين:

أ. أحدهما: المولى:

• وقد عرفت أن لفظ المولى، ولفظ الولي مشتقان من الولي: أي القرب، وهو سبحانه القريب البعيد

الظاهر الباطن لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]

• وأيضا المعتق يسمى بالمولى، وذلك كالمشعر بأنه أعتقهم من العذاب، وهو المراد من قوله: (سبقت رحمتي غضبي)

• وأيضا أضاف نفسه إلى العبد فقال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وما أضافهم إلى نفسه وذلك نهاية الرحمة،

• وأيضا قال ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، والمعنى أنهم كانوا في الدنيا تحت تصرفات الموالي الباطلة وهي النفس والشهوة والغضب كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فلما مات الإنسان تخلص من تصرفات الموالي الباطلة، وانتقل إلى تصرفات المولى الحق.

ب. الثاني الحق: واختلفوا هل هو من أسماء الله تعالى:

• فقيل: الحق مصدر، وهو نقيض الباطل، وأسماء المصادر لا تجري على الفاعلين إلا مجازا كقولنا فلان عدل ورجاء وغياث وكرم وفضل.

• ويمكن أن يقال: الحق هو الموجود وأحق الأشياء بالموجودية هو الله سبحانه لكونه واجبا لذاته، فكان أحق الأشياء بكونه حقا هو هو.

١٦. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ معناه أنه لا حكم إلا لله، ويتأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وذلك يوجب أنه لا حكم لأحد على شيء إلا الله، وذلك يوجب أن الخير والشر كله بحكم الله وقضائه، فلولا أن الله حكم للسعيد بالسعادة والشقي بالشقاوة، وإلا لما حصل ذلك، وهذه الآية تدل على أن الطاعة لا توجب الثواب والمعصية لا توجب العقاب، إذ لو ثبت ذلك لثبت للمطيع على الله حكم، وهو أخذ الثواب، وذلك ينافي ما دلت الآية الكريمة عليه أنه لا حكم إلا لله.

١٧. احتج المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ بهذه الآية على حدوث كلام الله تعالى، قال: لو كان كلامه قديما لوجب أن يكون متكلما بالمحاسبة، الآن: وقبل خلقه، وذلك محال لأن المحاسبة تقتضي حكاية عمل تقدم وأصحابنا عارضوه بالعلم، فإنه تعالى كان قبل الخلق عالما بأنه سيوجد، وبعد وجوده صار عالما بأنه قبل ذلك وجد، فلم يلزم منه تغير العلم، فلم لا يجوز مثله في الكلام.

١٨. اختلفوا في كيفية هذا الحساب:

أ. فمنهم من قال إنه تعالى يحاسب الخلق بنفسه دفعة واحدة، لا يشغله كلام عن كلام.

ب. ومنهم من قال بل يأمر الملائكة حتى أن كل واحد من الملائكة يحاسب واحدا من العباد، لأنه تعالى لو حاسب الكفار بنفسه لتكلم معهم، وذلك باطل لقوله تعالى في صفة الكفار، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ [آل عمران: ٧٧

١٩. للحكماء كلام في تفسير هذا الحساب، وهو أنه إنما يتخلص بتقديم مقدمتين:

أ. الأولى: أن كثرة الأفعال وتكررها توجب حدوث الملكات الراسخة القوية الثابتة والاستقراء التام يكشف عن صحة ما ذكرناه، ألا ترى أن كل من كانت مواظبته على عمل من الأعمال أكثر كان رسوخ الملكة التامة على ذلك العمل منه فيه أقوى.

ب. الثانية: إنه لما كان تكرر العمل يوجب حصول الملكة الراسخة، وجب أن يكون لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الملكة، بل كان يجب أن يكون لكل جزء من أجزاء العمل الواحد أثر بوجه ما في حصول تلك الملكة، والعقلاء ضربوا لهذا الباب أمثلة:

• الأول: أنا لو فرضنا سفينة عظيمة بحيث لو ألقي فيها مائة ألف من فإنها تغوص في الماء بقدر شبر واحد، فلو لم يلق فيها إلا حبة واحدة من الحنطة، فهذا القدر من إلقاء الجسم الثقيل في تلك السفينة يوجب غوصها في الماء بمقدار قليل، وإن قلت وبلغت في القلة إلى حيث لا يدركها الحس ولا يضبطها الخيال.

• الثاني: أنه ثبت عند الحكماء أن البسائط أشكالها الطبيعية كرات فسطح الماء يجب أن يكون كرة والقسي المشابهة من الدوائر المحيطة بالمركز الواحد متفاوتة، فإن تحدب القوس الحاصل من الدائرة العظمى يكون أقل من تحدب القوس المشابهة للأولى من الدائرة الصغرى وإذا كان الأمر كذلك فالكوز إذا ملئ من الماء، ووضع تحت الجبل كانت حدبة سطح ذلك الماء أعظم من حدبته عندما يوضع الكوز فوق الجبل، ومتى كانت الحدبة أعظم وأكثر كان احتمال الماء بالكوز أكثر، فهذا يوجب أن احتمال الكوز للماء حال كونه تحت الجبل أكثر من احتماله للماء حال كونه فوق الجبل، إلا أن هذا القدر من التفاوت بحيث لا يفي بإدراكه الحس والخيال لكونه في غاية القلة.

• الثالث: إن الإنسانين اللذين يقف أحدهما بالقرب من الآخر، فإن رجليهما يكونان أقرب إلى

مركز العالم من رأسيهما، لأن الأجرام الثقيلة تنزل من فضاء المحيط إلى ضيق المركز، إلا أن ذلك القدر من التفاوت لا يفي بإدراكه الحس والخيال.

• فإذا عرفت هذه الأمثلة: وعرفت أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات فنقول: لا فعل من أفعال الخير والشر بقليل ولا كثير إلا ويفيد حصول أثر في النفس، إما في السعادة، وإما في الشقاوة، وعند هذا ينكشف بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ولما ثبت أن الأفعال توجب حصول الملكات والأفعال الصادرة من اليد، فهي المؤثرة في حصول الملكة المخصوصة، وكذلك الأفعال الصادرة من الرجل، فلا جرم تكون الأيدي والأرجل شاهدة يوم القيامة على الإنسان، بمعنى أن تلك الآثار النفسانية، إنما حصلت في جواهر النفوس بواسطة هذه الأفعال الصادرة عن هذه الجوارح، فكان صدور تلك الأفعال من تلك الجارحة المخصوصة جاريا مجرى الشهادة لحصول تلك الآثار المخصوصة في جوهر النفس، وأما الحساب: فالمقصود منه معرفة ما بقي من الدخل والخرج، ولما بينا أن لكل ذرة من أعمال الخير والشر أثرا في حصول هيئة من هذه الهيئات في جوهر النفس، إما من الهيئات الزاكية الطاهرة أو من الهيئات المذمومة الخسيسة، ولا شك أن تلك الأعمال كانت مختلفة، فلا جرم كان بعضها يتعارض بالبعض، وبعد حصول تلك المعارضات بقي في النفس قدر مخصوص من الخلق الحميد، وقدر آخر من الخلق الذميم، فإذا مات الجسد ظهر مقدار ذلك الخلق الحميد، ومقدار ذلك الخلق الذميم، وذلك الظهور إنما يحصل في الآن الذي لا ينقسم، وهو الآن الذي فيه ينقطع تعلق النفس من البدن، فعبر عن هذه الحالة بسرعة الحساب، فهذه أقوال ذكرت في تطبيق الحكمة النبوية على الحكمة الفلسفية، والله العالم بحقائق الأمور.

٢٠. قراءات ووجوه: قرئ الحق بالنصب على المدح كقولك الحمد لله الحق.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يعني فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة على ما تقدم بيانه

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٦.

أول السورة.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي من الملائكة، والإرسال حقيقته إطلاق الشيء بما حمل من الرسالة، فإرسال الملائكة بما حملوا من الحفظ الذي أمروا به، كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أي ملائكة تحفظ أعمال العباد وتحفظهم من الآفات، والحفظة جمع حافظ، مثل الكتبة والكاتب، ويقال: إنهما ملكان بالليل وملكان بالنهار، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر، وإذا مشى الإنسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، لقوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ويقال: لكل إنسان خمسة من الملائكة: اثنان بالليل، واثنان بالنهار، والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارا، وقال عمر بن الخطاب:

ومن الناس من يعيش شقيا   جاهل القلب غافل اليقظه

فإذا كان ذا وفاء ورأي   حذر الموت واتقى الحفظه

إنما الناس راحل ومقيم   فالذي بان للمقيم عظه

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يريد أسبابه، كما تقدم في (البقرة)

٤. قراءات ووجوه: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ على تأنيث الجماعة، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ و﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾، وقرأ حمزة (توفاه رسلنا) على تذكير الجمع، وقرأ الأعمش (تتوفاه رسلنا) بزيادة تاء والتذكير.

٥. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ المراد أعوان ملك الموت، قاله ابن عباس وغيره:

أ. ويروى أنهم يسلون الروح من الجسد حتى إذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت.

ب. وقال الكلبي: يقبض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا أو إلى ملائكة العذاب إن كان كافرا، ويقال: معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب، فإذا قبض نفسا مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء، إذا قبض نفسا كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها، ثم يصعدون بها إلى السماء ثم ترد إلى سجين، وروح المؤمن إلى عليين، والتوفي تارة يضاف إلى ملك الموت، كما قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ وتارة إلى الملائكة لأنهم يتولون ذلك، كما في هذه الآية وغيرها، وتارة إلى الله وهو المتوفي على الحقيقة، كما

قال: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما أمر به.

٦. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يضيعون ولا يقصرون، أي يطيعون أمر الله، وأصله من التقدم، كما تقدم، فمعنى فرط قدم العجز، وقال أبو عبيدة: لا يتوانون، وقرأ عبيد بن عمير ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتخفيف، أي لا يجاوزون الحد فيما أمروا به الإكرام والإهانة.

٧. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ﴾ أي ردهم الله بالبعث للحساب، ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي خالقهم ورازقهم وباعثهم ومالكهم، ﴿الْحَقُّ﴾ بالخفض قراءة الجمهور، على النعت والصفة لاسم الله تعالى، وقرأ الحسن ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب على إضمار أعني، أو على المصدر، أي حقا.

٨. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي اعلموا وقولوا: له الحكم وحده يو القيامة، أي القضاء والفصل، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أي لا يحتاج إلى فكرة وروية ولا عقد يد، وقد تقدم.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ المراد: فوقية القدرة والرتبة، كما يقال: السلطان فوق الرعية، وقد تقدّم بيانه في أوّل السورة.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي ملائكة جعلهم الله حافظين لكم، ومنه قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ والمعنى: أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الآفات ويحفظ أعمالكم، والحفظة: جمع حافظ، مثل: كتبة: جمع كاتب ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء، وتقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه وأنه أمر حقيق بذلك؛ وقيل: هو متعلق بحفظة.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ حتى: يحتمل أن تكون هي الغائية، أي ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ ويحتمل أن تكون الابتدائية، والمراد بمجيء الموت مجيء علاماته.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤٤.

٤. قرأ حمزة توفاه رسلنا وقرأ الأعمش تتوفّاه والرسل: هم أعوان ملك الموت، ومعنى توفته: استوفت روحه ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصرون ويضيعون، وأصله من التقدّم، وقال أبو عبيدة: لا يتوانون، وقرأ عبيد بن عمير لا يفرطون بالتخفيف: أي لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام والإهانة.

٥. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ معطوف على توفته، والضمير راجع إلى أحد لأنه في معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، أي ردّوا بعد الحشر إلى الله: أي إلى حكمه وجزائه، ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ مالكهم الذي يلي أمورهم، ﴿الْحَقُّ﴾ قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم الله، وقرأ الحسن الحق بالنصب على إضمار فعل، أي: أعني أو أمدح، أو على المصدر ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر والروية والتدبر.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ الفاعل ما يشاء، ولو كرهَ الفعلَ كارهٌ، ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ حال من المستتِر في (قاهر)، فوقيَّةَ علوِّ شأنٍ وتَنَزُّهٍ عن النقائص، ومنها أن يردَّ عليه فعلٌ أو قولٌ حاشاه، يفعل ما يشاء من تصحيح وإعلال، وإغناء وإفقار، وإعزاز وإذلال، وإيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة، وإثابة وتعذيب، فهو غالب لا يُغلب.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة يحفظون أعمالكم من خير وشرٍّ؛ وقيل: ومباح وما لا ثواب فيه ولا عقاب، لِكُلِّ أحد ملكان: ملك عن اليمن إذا عمل حسنة كتبها عشرة أو أكثر، وملَك عن شماله إذا عمل سيِّئة زجره ملَك اليمين عن أن يكتبها لعلَّه يثوب حتَّى تمضي خمس ساعات أو سبع، وإذا مشى فأحدُهُما أمامه وهو ملَك الحسنات والآخر خلفه، وإذا نام فصاحب الحسنات عند رأسه وصاحب السيِّئات عند رجليه، وعن ابن عباس مع كلِّ مؤمن خمسة: واحد عن يمينه يكتب حسناته والآخر عن شماله يكتب سَيِّئَاته، وواحد أمامه يلقِّنه الخير، وواحد خلفه يدفع عنه الآفات، وواحد على ناصيته يكتب صلاته على النبيء ﷺ، ويقال: مع كلِّ مؤمن ستُّون ملكًا، وفيه مائة وسِتُّونَ يذبُّون عنه الشياطين، وذكر

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٨٩.

بعضٌ أن أحد الملَكين على كتف والآخر على كتف، وهو المشهور، وقيل: هما على الذقن، قيل: في الفم يمينه ويساره.

٣. ولا معرفة لهم على ما في القلب، كما جاء في الحديث أنَّهم يزكُّون عمل العبد فيقول الله تعالى لهم: أنا الرقيب على ما في قلبه لم يُرِدْني به، فقوله ﷺ: (إذا همَّ العبد بحسنة فلم يعملها كُتبت له)، بمعنى أنَّ الله سبحانه يحفظها له ويثيبه عليها ولا يكتبها الملَك؛ وقيل: يطَّلعون على ما في القلب بإذن الله تعالى إلَّا الرياء، كما روي أنَّ المرائين يقربون من الجنَّة حتَّى إذا رأوها واستنشقوا ريحها ردُّوا فيقولون: لو لم نرها ولم نستنشق ريحها كان خيرًا لنا، فيجيبهم بأنَّ ذلك لعظم مبارزتي بالمعاصي، وإظهار الطَّاعة لغيري، ولعلَّ الحديث لم يصحَّ لأنَّ الشقيَّ لا يريح ريح الجنَّة.

٤. وتتجدَّد ملائكة الليل وملائكة النهار، وقيل: لا، بل تطلع ملائكة الليل وترجع في الليل الآخر، وتطلع ملائكة النهار فترجع للنهار الآخر، وقيل: يَتَجَدَّدُ ملائكة الحسنات، وقيل: لا يحصر عدد ملائكة الحسنات لقوله ﷺ: (يبتدرون أيُّهم يكتبها أوَّلاً)

٥. ولا دَلِيل فيه أنَّ هؤلاء المبتدرين ليسوا ملائكة حسنات العبد، بل ملائكة يرغبون في الخير كطالب العلم، ألا ترى أنَّهم كلَّهم يكتبونها لا واحدٌ فقط، ألا ترى إلى قوله: (أوَّلاً)؟، وحكمة إرسال الملائكة والإخبار بهم أن يعلم الإنسان أنَّ الملائكة تكتب قبائحه وتُقرَأُ عليه بحضرة الخلائق ومسمعهم فينزجر عنها ويستحي منهم، أو المراد: ملائكة يحفظون ابن آدم ورزقه وأجله وعمله، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١]، أو المعقِّبات كما قال الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنم بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ اَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقيل: المراد هؤلاء كلُّهم وغيرهم، والعطف على قاهر كقوله تعالى: ﴿صَاَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]، أو على (هُوَ الْقَاهِرُ)، أو على (يَتَوَفَّاكُمْ)، أو على (يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ)

٦. ﴿حَتَّى إِذَا جَآءَ اَحَدَكُمُ الْمُوْتُ﴾ (حتَّى) تفريعيَّة، وهي حرف ابتداء، وليس كالغاية لقوله: ﴿الْقَاهِرُ﴾، أو لقوله: ﴿فَوْقَ﴾ إلَّا بتكلُّف لظهورهما بدون التوفِّي، مع أنَّ التوفِّي ممَّا هو عظيم جِدًّا استُشعِر في القهر والفوقيَّة، بل هو كالغاية لقوله: ﴿يُرْسِلُ﴾، لكن باعتبار تعلُّقه بالحفظة وإلَّا فلا، أو لقوله: ﴿حَفَظَةً﴾، أي: يرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم إلى أن يجيئكم الموت فيميتكم.

٧. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ ملَك الموت وأعوانه، وهنا كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وذلك عصر الأرواح من الأجساد، فإذا بلغت الحلقوم قبضها الله؛ فهذا كقوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الَانفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وهذا مذهبنا، وزعم بعض الصوفيَّة أنَّ القابض الله أو ملَك الموت أو أعوانه بحسب مقام العبد، وقال بعض قومنا: تعصرها الملائكة ويقبضها ملك الموت من الحلقوم إذا وصلته، أو (رُسُلُنَا): ملَك الموت، عُظِّم بلفظ الجمع لقوَّة عمله، ويقال: إذا كثرت عليه الأرواح دعاها فتجيئه، وله أعوان تقبضها وتجيئه بها، والأحياء كلُّها في البرِّ والبحر كشيءٍ في طست، ويقال: كلُّ من جاء أجله سقطت إليه ورقته، ويقال: صحيفة فيها موته من تحت العرش، ويأمر أعوانه بالتَّصَرُّف، ويطوف كلَّ يوم بِكُلِّ مسكن مَرَّتَيْنِ؛ وقيل: خمسًا، ويقال: يقبض روح المؤمن ويسلِّمها لملائكة الرحمة ويبشِّرونها بالثواب، ويصعدون بها، وهم سبعة؛ وروحَ الكافر ويسلِّمها لملائكة العذاب وهم سبعة ويبشِّرونها بالعذاب، وتردُّ من السماء إلى سِجِّين، ورأى رسول الله ﷺ ملَك الموت عند رجل من الأنصار، فقال: (أرفق بصاحبي فإنَّه مؤمن، فقال: إنِّي بِكُلِّ مؤمن رفيق، وإنِّي لأقبض روح ابن آدم فإذا صرخ صارخٌ من أهله قلت: ما هذا الصراخ؟ فوالله ما ظلمناه، ولا استبقينا من أجله، فما لنا في قبضه من ذنب، فإن ترضوا بما صنع الله تؤجروا، وإن تسخَطوا تأثموا، وإنَّ لنا لعودة وبغتة، فالحذَرَ الحذَرَ، وإنِّي لأَعرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم، فإنِّي أتصفَّح وجوههم كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مَرَّات، والله يا مُحَمَّد لو أردتُ قبض بعوضةٍ ما قدرتُ حتَّى يكون الله هو الآمرُ بقبضِها)، وإذا مات العبد رجعوا إلى معابدهم، وقيل: يقومون على قبره يترحَّمون عليه أو يلعنونه.

٨. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ لا يتعدَّون كما حدَّ لهم من وقت القبض وتشديده وتسهيله ومكانه، وكيفيَّته، ومقابلة المحتضر بوجه طَلَقٍ أو عبوس ونحو ذلك.

٩. ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ للجزاء ﴿إِلَى اللهِ﴾ مقتضى الظاهر: (ثمَّ رُدِدْتُم إلى الله) بالخطاب الذي في قوله: ﴿أَحَدَكُم﴾، لكن ذُكروا بالغيبة تلويحًا باستحقاقهم الهجر؛ وكان بالجمع لأنَّ الردَّ إلى الله بالجملة ومجيء الموت والتوفِّي على الانفراد، والردُّ إلى الله: ردُّهم إلى حُكمه منقادين؛ أو ردُّهم إلى موضع لا حاكم فيه سواه تعالى عنه وسائرِ المواضع.

١٠. ﴿مَوْلَاهُم﴾ الذي يتولَّى أمرهم بالعقاب، وأمَّا قوله تعالى : ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُم﴾ [محمَّد: ١١]

فمعناه: لا ناصر لهم، وقيل: الضمير في (رُدُّوا) و(مَوْلَاهُم) للناس كُلِّهم، وهو مالكهم وخالقهم، يتولَّاهم بالثواب والعقاب، أو خالقهم، أو مالكهم، وزعم بعض أنَّ الضمير للرسل ملائكة الموت يموتون كما مات بنو آدم، وهو خلاف الظاهر، والموت لَا بُدَّ لهم منه بيد ملَك الموت، أو مع أعوانه، ويأمر الله تعالى ملك الموت بعد موت ذوات الأرواح بالكون بين الجنَّة والنار، فيكون بينهما فيميته الله تعالى ، ويقبض الله أرواح الحور والولدان بدون ملَك الموت، أو بتوسُّط ملَك الموت.

١١. ﴿الْحَقِّ﴾ الثابت، أو الذي لا يتَّصف بالباطل ﴿أَلَا لَهُ﴾ لا لغيره ﴿الْحُكْمُ﴾ يومئذٍ ظاهرًا وحقيقة، بخلاف الدُّنيا فقد يكون الحكم الظاهر فيها لغيره ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب الخلق في أقلّ من لحظة، لأنَّه ليس يحاسبهم بفكر أو عدٍّ أو عقد الأصابع، تعالى عن ذلك؛ وما جاء من أنَّه يحاسب الخلق في مقدار حلب شاة تمثيل للقلَّة، أو شاء ذلك وهو قادر على أقلّ، كما خلق السماوات والأرض في ستَّة أيَّام وهو قادر على أقلّ منها، ويدلُّ للتمثيل ما جاء من أنَّه يحاسبهم في مقدار نصف نهار من أيَّام الدُّنيا، وقيل: لِكُلٍّ أحد ملَك يحاسبه، وقيل: المؤمنون يحاسبهم الله، وَالكُفَّار يحاسبهم الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ١٧٤، آل عمران: ٧٧]، ويردُّه أنَّ المعنى: لا يكلِّمهم بما ينفعهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ٢٢]، وقوله: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ إلخ [الأنعام: ٣٠]

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قد مرّ تفسيره، وأنه المتصرف في أمورهم لا غيره، يفعل بهم ما يشاء، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها، وهم الكرام الكاتبون، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١]، وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧]، الآية.

٢. الحكمة في ذلك أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه، وتعرض على رؤوس الأشهاد، كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده، واعتمد على عفوه وستره، لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه ـ أفاده القاضي ـ.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٨٥.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه ومباديه ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكة موكلون بذلك، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: بالتواني والتأخير، وقال ابن كثير: أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها ويتركونها حيث شاء الله عز وجل، إن كان من الأبرار ففي علّيين، وإن كان من الفجار في سجّين.

٤. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: الذي يتولى أمورهم، و(الحقّ): العدل الذي لا يحكم إلا بالحق، قال ابن كثير: الضمير للملائكة، أو للخلائق المدلول عليهم بـ (أحد)، والإفراد أولا، والجمع آخرا لوقوع التوفي على الانفراد، والرد على الاجتماع، أي: ردوا بعد البعث، فيحكم فيهم بعدله، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠]، وقال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧ ـ ٤٩]، إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ولهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾

٥. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في أسرع زمان.

٦. قال بعض أهل الكلام: إن لكل حاسة من هذه الحواس روحا تقيض عند النوم، ثم ترد إليها إذا ذهب النوم، فأما الروح التي تحيا بها النفس، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل، والمراد بالأرواح، المعاني والقوى التي تقوم بالحواس، ويكون بها السمع والبصر، والأخذ والمشيء والشم، ومعني (ثم يعثكم فيه) أي: يوقظكم، ويرد إليكم أرواح الحواس، فيستدل به على منكري البعث، لأنه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس، ثم يردها إليها، فكذا يحيى الأنفس بعد موتها ـ نقله النسفيّ ـ.

٧. سؤال وإشكال: قال الله تعالى في آية: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال هنا: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، فكيف الجمع بين هذه الآيات؟ والجواب: قال الخازن: وجه الجمع أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى، فإذا حضر أجل العبد، أمر الله ملك الموت بقبض روحه، ولملك الموت أعوان من الملائكة، يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده، فإذا وصلت إلى الحلقوم، تولى قبضها ملك الموت نفسه، فحصل الجمع، قال مجاهد: جعلت الأرض لملك الموت، مثل الطشت، يتناول من حيث شاء، وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم)

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بين الله تعالى ما في هذه الآية من الإجمال في الموت، والرجوع إلى الله للحساب والجزاء مبتدئا ذلك بذكر قهره لعباده، واستعلائه عليهم، وإرساله الحفظة لإحصاء أعمالهم وكتابتها عليهم فقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ بينا معنى الجملة الأولى بنصها في تفسير الآية الثامنة عشرة من هذه السورة، وكلمة (فوق) تستعمل ـ كما قال الراغب ـ في المكان والزمان والجسم والعدد والمنزلة، وذلك أضرب ضرب لها الراغب الأمثلة، ف (فوق) العلوية يقابله (تحت)، و(فوق) الصعود يقابله في الحدود الأسفل، و(فوق) العدد يقابله القليل أو الأقل منه، و(فوق) الحجم يقابله الصغير أو الأصغر منه، و(فوق) المنزلة يكون بمعنى الفضيلة كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وبمعنى القهر والغلبة كقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ وبه فسروا هذه الآية وما قبلها.

٢. وأما إرسال الحفظة على الناس فمعناه إرسالهم مراقبين عليهم من حيث لا يشعرون ـ كمراقبة رجال البوليس السري في حكومات عصرنا ـ محصين لأعمالهم بكتابتها وحفظها في الصحف التي تنشر يوم الحساب، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ وهؤلاء الحفظة هم الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ولم يرد في كلام الله ولا كلام رسوله ﷺ بيان تفصيلي لصفة هذه الكتابة، فنؤمن بها كما نؤمن بكتابة الله تعالى لمقادير السماوات والأرض، ولا نتحكم فيها بآرائنا، وأمثل ما أولت به أنها عبارة عن تأثير الأعمال في النفس، وأنه يكون بفعل الملائكة، وقيل: إن الحفظة من الملائكة غير الكاتبين للأعمال، وهم المعقبات في قوله تعالى من سورة الرعد: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قيل: إنهم ملائكة يحفظونه من الجن والشياطين، وقيل: من كل ضرر يكون عرضة له لم يكن مقدرا أن يصيبه، فإذا جاء القدر تخلوا عنه، ولكن لم يصح في ذلك شيء يعتد به.

٣. وفي هذه الآية أقوال أخرى لأهل التفسير المأثور؛ منها أنها خاصة بالنبي ﷺ وأنها نزلت حين

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٤٠١

أراد أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قتله، على أن يلهيه الثاني بالحديث فيقتله الأول، فلما وضع يده على السيف يبست على قائمته فلم يستطع سله، ومنها أنها في الكرام الكاتبين، ومنها أنها في الأمراء والملوك الذين يتخذون الحرس الجلاوزة يحفظونهم ممن يريد قتلهم، وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن ابن عباس أنه قال في الآية: الملوك يتخذون الحرس يحفظونه من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وشماله يحفظونه من القتل، ألم تسمع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ لم يغن الحرس عنه شيئا، وهذا المعنى هو الذي يناسب قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾، الآية، وسيأتي تفصيل ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

٤. ليس عندنا من الأحاديث الصحاح في هذه المسألة إلا حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما مرفوعا (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون) وروي بلفظ (والملائكة يتعاقبون فيكم) بواو وبغير واو، لكن لم يرد ذلك في تفسير آية الرعد، فإذا كان هؤلاء الملائكة هم الحفظة الكاتبين فلا محل لاختلاف العلماء في تجددهم وتعاقبهم.

٥. وذكروا من الحكمة في كتابة الأعمال وحفظها على العاملين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد، كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات، وأبعث له على التزام الأعمال الصالحة، فإن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذي يثمر الخشية لله عز وجل، والمعرفة الكاملة التي تثمر الحياء منه سبحانه والمراقبة له، يغلب عليها الغرور بالكرم الإلهي والرجاء في مغفرته ورحمته تعالى، فلا يكون لديهم من خشيته والحياء منه ما يزجرهم عن معصيته كما يزجرهم توقع الفضيحة في موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم، وزاد الرازي احتمال أن تكون فائدتها أن توزن تلك الصحف؛ لأن وزنها ممكن ووزن الأعمال غير ممكن. ـ كذا قال، وهو احتمال ضعيف، بل لا قيمة له؛ لأنه مبني على تشبيه وزن الله للأمور المعنوية بوزن البشر للأثقال الجسمية.

٦. وأما بيان هذه الحكمة على الطريقة التي جرينا عليها في بيان حكمة مقادير الخلق فتعلم مما مر هنالك، وأما على طريقة من يقولون إن المراد بكتابة الأعمال حفظ صورها وآثارها في النفس، فهي أنها

تكون المظهر الأتم الأجلى لحجة الله البالغة، فإذا وضع كتاب كل أحد يوم الحساب ونشرت صحفه المطوية في سريرة نفسه تعرض عليه أعماله فيها بصورها ومعانيها فتتمثل لذاكرته ولحسه الظاهر والباطن كما عملها في الدنيا لا يفوته شيء من صفاتها الحسية ولا المعنوية ـ كاللذة والألم ـ فيكون حسيبا على نفسه، وعلى عين اليقين من عدل الله وفضله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤]، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]

٧. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ قرأ حمزة (توفاه) بألف ممالة بعد الفاء، والباقون ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ بالتاء بعد الفاء، ورسمها في مصحف الإمام واحد هكذا ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ لأن الألف رسمت ياء كأصلها، والمعنى أنه تعالى يرسل عليكم حفظة من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم، حتى إذا جاء أحدكم الموت وانتهى عمله توفته أي قبضت روحه رسلنا الموكلون بذلك من الملائكة، وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فالأرواح أصناف كثيرة، لكل منها مستقر في البرزخ يليق به، وللموت أصناف كثيرة، لكل منها سنن ونظام في الحياة خاص به فقبض الألوف من الأرواح في كل لحظة، ووضعها في المواضع اللائقة بها عمل عظيم واسع النطاق، يقوم بإدارته ونظامه رسل كثيرون وكل عمل منظم لا بد أن تكون له جهة واحدة هي مكان الرياسة والنظام منه، وروى ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس أنه سئل عن ملك الموت، أهو وحده الذي يقبض الأرواح؟ قال: هو الذي يلي أمر الأرواح، وله أعوان على ذلك، وقرأ الآية ثم قال: غير أن ملك الموت هو الرئيس إلخ، وروي عن إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة: أن الأعوان يقبضون الأرواح من الأبدان ثم يدفعونها إلى ملك الموت، فكل منهما متوف، وعن الكلبي أن ملك الموت هو الذي يتولى القبض بنفسه ويدفعها إلى الأعوان، فإن كان الميت مؤمنا دفعها إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافرا دفعها إلى ملائكة العذاب، أي وهم يذهبون بالأرواح إلى حيث يوجههم بأمر الله تعالى.

٨. وقد أسند التوفي إلى الله تعالى في آية الزمر التي ذكرناها في أول تفسير الآية التي قبل هذه إما

على أنه هو الآمر لملك الموت ولأعوانه جميعا بذلك ـ وهو ما صرحوا به ـ وإما على أنه هو الفاعل الحقيقي والمسخر لملك الموت وأعوانه، فهم بأمره يعملون، وبتسخيره يتصرفون، لا يعتدون في تنفيذ إرادته ولا يفرطون، والتفريط التقصير بنحو التواني والتأخير، وتقدم معناه في تفسير ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقرأ الأعرج ﴿يُفَرِّطُونَ﴾ من الإفراط المقابل للتفريط، أي لا يتجاوزون ولا يعتدون فيه، ومعناه صحيح، ولكن الحاجة إلى نفي الإفراط غير قوية، والآية تدل على عصمة الملائكة كما قال المفسرون.

٩. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الظاهر المتبادر أن المعنى: ثم يرد أولئك الذين تتوفاهم الرسل إلى الله الذي هو مولاهم الحق ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، فيكون بمعنى آية (الم السجدة) التي تقدمت آنفا، وقيل: إن المعنى: ثم يرد أولئك الرسل إلى ربهم بعد إتمام ما وكل إليهم بموت جميع الناس، فيموتون هم أيضا، ذكره الرازي، وهو ضعيف من وجوه منها مخالفته لآية السجدة، ومنها أن الكلام في البشر وبيان الدين لهم وإقامة حججه عليهم، ومنها أن الحساب الذي ختمت بذكره الآية حساب البشر لا حساب ملك الموت وأعوانه، وفي الجملة مباحث لفظية ومعنوية يتضح بها ما فيها من البلاغة:

أ. الأول: أن في الكلام التفاتا من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن ما قبله خطاب منه سبحانه للمكلفين، والتفاتا آخر من التكلم إلى الغيبة، وإلا لقال: ثم رددناكم أو: رددناهم ـ على الالتفات ـ إلخ، ونكتة الالتفات تفهم من المباحث الأخرى.

ب. الثاني: أنه جعل فعل الرد مبنيا للمفعول؛ للدلالة على أن له تعالى رسلا أخرى ـ والظاهر أنهم غير رسل الموت ورسل الحفظ ـ يردون العباد إليه بعد البعث عندما يحشرونهم بأمره للحساب والجزاء، وهذه أظهر نكت الالتفات.

ج. الثالث: ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في قوله: ﴿رُدُّوا﴾ للكل المدلول عليه بأحد من قوله: ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وأن هذا هو السر في مجيئه بطريق الالتفات والإفراد أولا والجمع آخرا، لوقوع التوفي على الإفراد والرد على الجملة والمجموع، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى تكلف القول برجوعه إلى الكل المدلول عليه بأحد، والالتفات عبارة عن جعل ضمير الخطاب الذي للجماعة ضمير غيبة لهم.

د. الرابع: أن هذا الرد يكون بعد البعث، فكان الأصل أن يعبر عنه بفعل الاستقبال كما في آية السجدة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ وعبر هنا بالماضي لإفادة تحقيق الوقوع حتى كأنه وقع وانقضى.

هـ. الخامس: من فوائد الالتفات من التكلم إلى الغيبة ذكر اسم الجلالة ووصفه بما وصف به، ولا يخفى أن تأثيره في النفس هنا أعظم من تأثير ضمير المتكلم.

و. السادس: قالوا: إن الرد إلى الله هو الرد إلى حكمه وقضائه وحسابه وجزائه، أو إلى موقف الحساب، ومكان العرض والسؤال؛ لأن الرد إلى ذاته غير معقول وغير ممكن، وهذا التعليل لا يحتاج إليه العربي القح لفهم ما ذكر من الآية، ولا الدخيل في العربية إلا من كان مطلعا على مذهب غلاة أهل الوحدة، ولو صح مذهبهم لكان سياق الكلام مانعا أن يكون مرادا من العبارة كما يمنعه من أسلوبه وصف اسم الذات بما وصف به، وما ختمت به الآية وهاك بيانه:

ز. السابع: أن وصف الاسم الكريم بمولاهم الحق يدل على أن ردهم إليه حتم؛ لأنه هو سيدهم الحق الذي يتولى أمورهم ويحكم بينهم بالحق، والحق في اللغة هو الثبات المتحقق، وهذا الوصف لا يتحلى به أحد من الخلق إلا على سبيل العارية المؤقتة، فما كان من تولي بعض العباد أمور بعض بملك الرقبة، أو ملك التصرف والسياسة ـ فمنه ما هو باطل من كل وجه، ومنه ما هو باطل من حيث إنه موقوت لا ثبات ولا بقاء له، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره في سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا، فثبت بذلك أن الله عز وجل هو مولاهم الحق وحده، وما كان من ولاية غيره الباطلة من كل وجه أو الباطلة في ذاتها دون صورتها المؤقتة فقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا وبقي المولى الحق وحده، كما زال كل ملك وملك صوريين كانا للخلق في هذا العالم، وصاروا إلى يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئا، وظهر يومئذ أن الملك الصوري والحقيقي لله الواحد القهار.

١٠. وكل هذا مبطل لخيال وحدة الوجود، وكذا ما بعده وهو ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (ألا) حرف استفتاح يذكر في أول الكلام لتنبيه المخاطب لما بعده إذا كان مهما؛ لئلا يفوته منه شيء، وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ يفيد الحصر، أي له الحكم وحده ليس لغيره منه شيء في ذلك اليوم، لا على سبيل الصورة والإضافة المؤقتة ولا على سبيل الحقيقة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

١١. وفسر كونه تعالى أسرع الحاسبين بأنه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره لا يشغله

حساب أحد عن حساب غيره؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن، فاسم التفضيل فيه على غير بابه؛ إذ لا محاسب هنالك غيره، أو هو بالنسبة إلى المحاسبين أو الحاسبين في غير الآخرة، ولفظ الحاسبين اسم الفاعل من حسب الثلاثي لا من حاسب، والحساب مصدر لكل منهما، يقال: حسبه حسبا وحسابا وحاسبه محاسبة وحسابا، والمحاسبة أو الحساب في المعاملة مبني على الحسب والحساب الذي هو العد والإحصاء، لأن المحاسب يحصي على من يحاسبه العدد في المال، أو ما نيط به من الأعمال، والمراد هنا أنه أسرع الحاسبين إحصاء للأعمال ومحاسبة عليها، وقد تقدم تفسير ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بعد أن أبان سبحانه أمر الموت والرجوع إلى الله للحساب والجزاء، ذكر قهره لعباده وإرسال الحفظة لإحصاء أعمالهم وكتابتها عليهم فقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي إنه تعالى هو الغالب خلقه العالي عليهم بقدرته وسلطانه، لا المقهورون من الأوثان والأصنام، المغلوبون على أمرهم، ويرسل عليكم حفظة من الملائكة يتعاقبونكم ليلا ونهارا يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرّطون في حفظها وإحصائها، ولا يضيعون شيئا منها.

٢. وإرسال الحفظة عليهم مراقبهم لهم وإحصاء أعمالهم وكتابتها وحفظها في الصحف التي تنشر يوم الحساب، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، وهؤلاء الحفظة الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ونحن نؤمن بهذه الكتابة ولا نعرف صفتها ولا نتحكم فيها بآرائنا، وما مثل مراقبة أولئك الحفظة إلا مثل: (مراقبة رجال البوليس السرى في حكومات العصر الحديث)، روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم، يحفظونهم من القتل، ألم تسمع أن الله تعالى يقول ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ لم يغن الحرس عنهم شيئا.

٣. وفى معنى الآية قوله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ

(١) تفسير المراغي ٧/١٤٨.

وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعا (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)

٤. والحكمة في كتابة الأعمال وحفظها على العالمين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات وأبعث له على عمل الصالحات، فإن المرء إن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذي يثمر الخشية لله والمعرفة الكاملة التي تثمر الحياء، ربما غلب عليه الغرور بالكرم الإلهي والرجاء في المغفرة والرحمة فلا يكون لديه من الخشية والحياء، ما يزجره عن المعصية، كما يزجره توقع الفضيحة في موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

٥. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي يرسل عليكم حفظة من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم، حتى إذا جاء أحدكم الموت وانتهى عمله، توفته وقبضت روحه رسلنا الموكلون بذلك من الملائكة، وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولّون ذلك بأمره كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وجاء إسناد التوفي إلى الله في قوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ إما لأنه هو الآمر لملك الموت ولأعوانه جميعا بذلك - وإما لأنه هو الفاعل الحقيقي والمسخّر لملك الموت وأعوانه، فهم لا يعملون إلا بأمره ولا يتصرفون إلا بتسخيره.

٦. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي ثم يردّ أولئك الذين تتوفاهم الرسل إلى الله الذي هو مولاهم ومالك أمورهم، وهو الحق الذي لا يقضى إلا بالعدل، ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، وفى الآية إيماء إلى أن ردهم إليه حتم، لأنه سيدهم الذي يتولى أمورهم ويحكم بينهم بالحق، وأما تولى بعض العباد أمور بعض بملك الرقبة أو ملك التصرف والسياسة، فمنه ما هو باطل من كل وجه، ومنه ما هو باطل من حيث إنه موقوت لا ثبات له ولا بقاء، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره في سننه الاجتماعية أو شرائعه

المنزلة لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا، وقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا وبقي المولى الحق وحده.

٧. ثم بين أن ردهم إليه ليحكم بينهم بقضائه العدل فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أي له الحكم وحده ليس لغيره منه شيء في ذلك اليوم كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ وقال: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وسرعة حسابه ـ أنه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره، ولا يشغله شأن عن شأن، والخلاصة ـ إنه تعالى أسرع الحاسبين إحصاء للأعمال ومحاسبة عليها.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَهُوَالْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾.. فهو صاحب السلطان القاهر؛ وهم تحت سيطرته وقهره، هم ضعاف في قبضة هذا السلطان؛ لا قوة لهم ولا ناصر، هم عباد، والقهر فوقهم، وهم خاضعون له مقهورون.. وهذه هي العبودية المطلقة للألوهية القاهرة.. وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس ـ مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا، ومن العلم ليعرفوا، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة ـ إن كل نفس من أنفاسهم بقدر؛ وكل حركة في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه، وإن كان هذا الناموس يجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة!

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، لا يذكر النص هنا ما نوعهم.. وفي مواضع أخرى أنهم ملائكة يحصون على كل إنسان كل ما يصدر عنه.. أما هنا فالمقصود الظاهر هو إلقاء ظل الرقابة المباشرة على كل نفس، ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة، فهناك حفيظ عليها رقيب يحصي كل حركة وكل نأمة؛ ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء.. وهذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشري؛ وتستيقظ فيه كل خالجة وكل جارحة..

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٢٣.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، الظل نفسه، في صورة أخرى.. فكل نفس معدودة الأنفاس، متروكة لأجل لا تعلمه ـ فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه ـ بينما هو مرسوم محدد في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر، وكل نفس موكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر، ولا يغفو ولا يغفل ولا يهمل ـ فهو حفيظ من الحفظة ـ وهو رسول من الملائكة ـ فإذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة ـ والنفس غافلة مشغولة ـ أدى الحفيظ مهمته، وقام الرسول برسالته.. وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري؛ وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به؛ ويعرف أنه في كل لحظة قد يقبض، وفي كل نفس قد يحين الأجل المحتوم.

٤. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، مولاهم الحق من دون الآلهة المدعاة.. مولاهم الذي أنشأهم، والذي أطلقهم للحياة ما شاء.. في رقابته التي لا تغفل ولا تفرط.. ثم ردهم إليه عندما شاء؛ ليقضي فيهم بحكمه بلا معقب: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وهُوَأَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.. فهو وحده يحكم، وهو وحده يحاسب، وهو لا يبطئ في الحكم، ولا يمهل في الجزاء.. ولذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري، فهو ليس متروكا ولو إلى مهلة في الحساب! وتصور المسلم للأمر على هذا النحو الذي توحي به أصول عقيدته في الحياة والموت والبعث والحساب، كفيل بأن ينزع كل تردد في إفراد الله سبحانه بالحكم ـ في هذه الأرض ـ في أمر العباد..

٥. إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا؛ ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم، مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه؛ وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس.. فأما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله؛ فعلام يحاسبون في الآخرة؟ أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي كانوا يحكمون بها؛ ويتحاكمون إليها؟ أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التي لم يكونوا يحكمون بها؛ ولا يتحاكمون إليها؟

٦. إنه لا بد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة العباد، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم، ويقيموا معاملاتهم ـ كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم ـ وفق شريعة الله في الدنيا، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله، وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله سبحانه إلها في

الأرض؛ ولكنهم اتخذوا من دونه أربابا متفرقة، وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله ـ أو الشرك به باتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر، واتباعهم شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وفي المعاملات والارتباطات ـ والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.. ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التي تعرف حقيقة الألوهية؛ وتلتجئ إلى إلهها الحق في ساعة الشدة؛ ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب؛ وكيف يخالفون عنها في اليسر والرخاء.. في مشهد قصير سريع، ولكنه واضح حاسم، وموح مؤثر.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ بيان لقدرة، وهو أنه سبحانه بهذه القدرة، قائم على عباده، آخذ بنواصيهم، لا يملكون شيئا معه من أنفسهم، وأن عليهم حفظة من عنده، يكتبون ما يفعلون، ويحصون عليهم ما يعملون.. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢]

٢. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ مجيء الموت: هو حلول وقته، بانتهاء عمر الإنسان.. فإذا انتهى أجل الإنسان، أدّى رسل الله مهمتهم معه، بانتزاع روحه، دون إمهال أو تفريط..

٣. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ إمارة إلى أن الموت ليس هو نهاية الإنسان، وإنما هو بداية مرحلة جديدة، ونقلة إلى عالم آخر، حيث يبعث الناس، ويردون إلى الله مولاهم الحق، كما هو حق سبحانه في ذاته، وكما يراه المؤمنون والكافرون يومئذ.. حيث ينادى منادى الحق: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيكون جواب المخلوقات جميعها بصوت واحد: ﴿للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ٢٠٤.

(٢) التفسير الكاشف: ٣/ ٢٠٢.

١ . ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، وكفاهم قهرا أن يأتوا إلى هذه الحياة مسيرين ويتركوها مكرهين.. قال الإمام علي عليه السلام: لا شيء إلا الواحد القهار الذي اليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها.

٢ . ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، وهؤلاء الحفظة من الملائكة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، ونحن نؤمن بذلك، لأن الوحي أخبر عنه، والعقل لا يأباه، ولم يرد في كلام الله، ولا في كلام الرسول بيان لصفة الكاتب والكتابة، والعقل لا يلزم بالبحث والسؤال عنهما، فندعهما لعلم الله تعالى، أما من شبّه الملائكة الكاتبين برجال البوليس السري، كما في تفسير المنار والمراغي، أما هذا التشبيه فهو من قياس الغيب على الشهادة، والسماء على الأرض، مع وجود الفارق البعيد.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، وتجد تفسيره في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ـ ١١ السجدة، وهذا أيضا من الغيب الجائز عقلا، الثابت وحيا، تماما كالحفظة الكاتبين.

٤ . ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ ليقضي فيهم بحكمه ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب ويحكم وينفذ في أقصر أمد، لأن الحق جلي، والحكم مبرم، والجزاء معد، وكل شيء يتم بمجرد الارادة.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١ . ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، عطف على جملة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾، وتقدّم تفسير نظيره آنفا، والمناسبة هنا أنّ النوم والموت خلقهما الله فغلبا شدّة الإنسان كيفما بلغت فبيّن عقب ذكرهما أنّ الله هو القادر الغالب دون الأصنام، فالنوم قهر، لأنّ الإنسان قد يريد أن لا ينام فيغلبه النوم، والموت قهر وهو أظهر، ومن الكلم الحق: سبحان من قهر العباد بالموت.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ﴾ عطف على ﴿الْقَاهِرُ﴾، فيعتبر المسند إليه مقدّما على الخبر الفعلي، فيدلّ على

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٤٢.

التخصيص أيضا بقرينة المقام، أي هو الذي يرسل عليكم حفظة دون غيره، والقصر هنا حقيقي، فلا يستدعي ردّ اعتقاد مخالف، والمقصود الإعلام بهذا الخبر الحقّ ليحذر السامعون من ارتكاب المعاصي.

٣. ومعنى (على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الاستعلاء المجازي، أي إرسال قهر وإلزام، كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ [الإسراء: ٥]، لأنّ سياق الكلام خطاب للمشركين كما علمت، ومثله قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ٩، ١٠]

٤. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلّق بـ ﴿يُرْسِلِ﴾ فعلم، أنّ المراد بحفظ الحفظة الإحصاء والضبط من قولهم: حفظت عليه فعله كذا، وهو ضدّ نسي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤]، وليس هو من حفظ الرعاية والتعهّد مثل قوله تعالى: ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾ [النساء: ٣٤]، فالحفظة ملائكة وظيفتهم إحصاء أعمال العباد من خير وشرّ، وورد في الحديث الصحيح: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) الحديث.

٥. وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ غاية لما دلّ عليه اسم الحفظة من معنى الإحصاء، أي فينتهي الإحصاء بالموت، فإذا جاء الوقت الذي ينتهي إليه أجل الحياة توفّاه الملائكة المرسلون لقبض الأرواح.

٦. فقوله: ﴿رُسُلَنَا﴾ في قوّة النكرة لأنّ المضاف مشتقّ فهو بمعنى اسم المفعول فلا تفيده الإضافة تعريفا، ولذلك فالمراد من الرسل التي تتوفّى رسل غير الحفظة المرسلين على العباد، بناء على الغالب في مجيء نكرة عقب نكرة أنّ الثانية: غير الأولى.

٧. وظاهر قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أنّ عددا من الملائكة يتولّى توفّي الواحد من الناس، وفي الآية الأخرى ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وسمّي في الآثار عزرائيل، ونقل عن ابن عباس: أنّ لملك الموت أعوانا، فالجمع بين الآيتين ظاهر.

٨. وعلّق فعل التوفّي بضمير ﴿أَحَدَكُمُ﴾ الذي هو في معنى الذات، والمقصود تعليق الفعل بحال من أحوال أحدكم المناسب للتّوفي، وهو الحياة، أي توفّت حياته وختمتها، وذلك بقبض روحه.

٩. وجملة: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ حال، والتفريط: التقصير في العمل والإضاعة في الذوات، والمعنى أنّهم لا يتركون أحدا قد تمّ أجله ولا يؤخّرون توفّيه.

١٠. والضمير في قوله: ﴿رُدُّوا﴾ عائد إلى أحد باعتبار تنكيره الصادق بكلّ أحد، أي ثمّ يردّ

المتوفّون إلى الله، والمراد رجوع الناس إلى أمر الله يوم القيامة، أي ردّوا إلى حكمه من نعيم وعذاب، فليس في الضمير التفات.

١١ . والمولى هنا بمعنى السيد، وهو اسم مشترك يطلق على السيد وعلى العبد.

١٢ . و﴿الْحَقُّ﴾ ـ بالجرّ ـ صفة لـ ﴿مَوْلَاهُمُ﴾، لما في ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ من معنى مالكهم، أي مالكهم الحقّ الذي لا يشوب ملكه باطل يوهن ملكه، وأصل الحقّ أنّه الأمر الثابت فإن كلّ ملك غير ملك الخالقية فهو مشوب باستقلال مملوكه عند استقلالا تفاوتا، وذلك يوهن الملك ويضعف حقّيّته.

١٣ . وجملة: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ تذييل ولذلك ابتدئ بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر، والعرب يجعلون التذييلات مشتملة على اهتمام أو عموم أو كلام جامع.

١٤ . وقدّم المجرور في قوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ للاختصاص، أي له لا لغيره، فإن كان المراد من الحكم جنس الحكم فقصره على الله إمّا حقيقي للمبالغة لعدم الاعتداد بحكم غيره، وإمّا إضافي للردّ على المشركين، أي ليس لأصنامكم حكم معه، وإن كان المراد من الحكم الحساب، أي الحكم المعهود يوم القيامة، فالقصر حقيقي، وربّما ترجّح هذا الاحتمال بقوله عقبه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

١٥ . ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أي ألا له الحساب، وهو أسرع من يحاسب فلا يتأخّر جزاؤه، وهذا يتضمّن وعدا ووعيدا لأنّه لمّا أتي بحرف المهلة في الجمل المتقدّمة وكان المخاطبون فريقين: فريق صالح وفريق كافر، وذكر أنّهم إليه يرجعون كان المقام مقام طماعية ومخالفة؛ فالصالحون لا يحبّون المهلة والكافرون بعكس حالهم، فعجّلت المسرّة للصالحين والمساءة للمشركين بقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . بعد أن بين سبحانه بكل شيء وبكل إنسان، وأن لكل جزاءه على قدر عمله، بين قدرته القاهرة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، هذه تبين قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه على كل شيء فهو سبحانه وتعالى قد قهر له كل شيء

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٢٨.

وذل، ولا يخرج عن سلطانه أحد؛ وكل شيء في سلطانه وفى إرادته لا يقع شيء في الكون، ولا يخرج دون أمره.

٢. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ كناية عن علو إرادته ولا إرادة لمخلوق فوق إرادته، أو يقال إنها استعارة تمثيلية فيها تصوير علو الله تعالى على كل شيء في الوجود سلطانا وتذليلا بمن يكون فوق كل شيء حسا، وفى الحقيقة ذلك مجاز مشهور لا يحتاج إلى تقدير تشبيه أو نحوه، كقولنا: الأمير فوق رؤسائه، أو فوق رعيته، وقد انحرف انحرافا كبيرا الذين قالوا: إن ثمة فوقية حسية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

٣. وإنه من قهره وسلطانه، وكونه فوق الكل أرسل على الناس حفظة، والتعبير بـ (أرسل) لتناسق الكلام إذ إن الذى يسيطر على كل شيء وفوق كل شيء يناسبه فيمن يسخره من خلقه على خلقه أن يكون بـ (أرسل)

٤. ﴿حَفَظَةً﴾ جمع حافظ، مثل كتبة جمع كاتب، وسفرة جمع سافر، وهؤلاء الحفظة يحفظون العباد، ويحوطونهم، ويكتبون ما يكون منهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ولقد ذكر سبحانه هذا المعنى في عدة آيات: من كتابه، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار]، وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق]

٥. وإن هذه الرقابة والمحافظة لأولئك تستمر، حتى الوفاة؛ ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ (حتى) هنا للغاية، والمعنى تستمر هذه الحال حتى يجيء أحدهم الموت، وعبر بالماضي لتحقق المجيء مثل قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل] أو تكون حتى تفريعية أي إن تلك الرقابة لأجل الحساب كما يدل الكلام.

٦. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي ملك الموت ومن معه، وهنا يلاحظ أن ذكر مجيء الموت قدم على ذكر الوفاة، والمراد من مجيء الموت تقدير نهاية الأجل؛ ولذلك عبر بـ ﴿أَحَدَكُمُ﴾ ولم يقل، حتى إذا ماتوا؛ والوفاة قد جاءت بعد الإحصاء الدقيق من الحفظة؛ ولذلك قال من بعد ذلك: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يهملون، ولا يتركون شيئا مما فعل، بل كل ما عمل مهيأ له يجده حاضرا بعد وفاته.

٧. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، وإنه بعد أن يموتوا يردون

إلى الله تعالى معروضة أعمالهم محصاة إحصاء دقيقا يردون إلى الله تعالى مولاهم الحق، وفي هذا النص بضعة مباحث نشير إليها ففيها تقريب لمعنى النص الكريم:

أ. أولها: التعبير بـ (ثم)، والتراخي هنا لبيان مكانة الحساب والرد على الله تعالى؛ لأن الالتقاء بحساب الله أمر ذو خطر عظيم لما كانوا يفعلون غير متوقعين بعد ذلك من وقائع تزلزل قلوب الفاسقين، وتطمئن لها قلوب المؤمنين.

ب. ثانيها: أنه عبر عن الرد للحساب بالرد لله تعالى ذي الجلال، وذلك يشير إلى خطورة الأمر، ودقة الموقف، وجلال الحساب.

ج. ثالثها: أن الله تعالى عبّر عن ذاته الكريمة؛ أنه مولاهم الحق، أي ذو الولاية الحق، فلا ولاية لمن اتخذوهم أولياء، بل إنهم ينسونهم، وينكرونهم، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لله الْحَقِّ﴾ [الكهف] و(الحق) يصح أن نقول إنها وصف لمولاهم، أي هو الولي الحق الذى لا يصدق على غيره أنه ولى قط، أو نقول إنها بالحق الثابت وبالعدل الذى لا يظلم ربك فيه أحدا.

٨. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾، (ألا) فيه للتنبيه وتقديمه له على الحكم للإشارة إلى أنه وجد له الحكم، ولا حكم لأحد سواه فليترقبوا جزاء ما عملوا، والحساب قائم ومؤكد؛ ولذا قال من بعد: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أي أنه لا يوجد حاسب في سرعة حسابه وهذا يؤكد الحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا، ويثبت أن حساب الله سريع؛ لأن الله يعلم كل شيء قبل أن يقدموا عليه إن الله بكل شيء عليم.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قد تقدم الكلام فيه في تفسير الآية ١٧ من السورة.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، إطلاق إرسال الحفظة من غير تقييد لا في الإرسال ولا في الحفظة ثم جعله مغيا بمجيء الموت لا يخلو عن دلالة على أن هؤلاء الحفظة المرسلين شأنهم حفظ الإنسان من كل

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٣٢

بلية تتوجه إليه ومصيبة تتوخاه، وآفة تقصده فإن النشأة التي نحن فيها نشأة التفاعل والتزاحم، ما فيه من شيء إلا وهو مبتلى بمزاحمة غيره من شيء من جميع الجهات لأن كلا من أجزاء هذا العالم الطبيعي بصدد الاستكمال واستزادة سهمه من الوجود، ولا يزيد في شيء إلا وينقص بنسبته من غيره فالأشياء دائما في حال التنازع والتغلب، ومن أجزائه الإنسان الذي تركيب وجوده ألطف التراكيب الموجودة فيه وأدقها فيما نعلم فرقباؤه في الوجود أكثر وأعداؤه في الحياة أخطر فأرسل الله إليه من الملائكة حفظة تحفظه من طوارق الحدثان وعوادي البلايا والمصائب ولا يزالون يحفظونه من الهلاك حتى إذا جاء أجله خلوا بينه وبين البلية فأهلكته على ما في الروايات.

٣. أما ما ذكره في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢] فإنما يريد به الحفظة على الأعمال غير أن بعضهم أخذ الآيات مفسرة لهذه الآية، والآية وإن لم تأب هذا المعنى كل الإباء لكن قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ اَلْمَوْتُ﴾ إلى آخر الآية، كما تقدم يؤيد المعنى الأول.

٤. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ الظاهر أن المراد من التفريط هو التساهل والتسامح في إنفاذ الأمر الإلهي بالتوفي فإن الله سبحانه وصف ملائكته بأنهم يفعلون ما يؤمرون، وذكر أن كل أمة رهن أجلهم فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فالملائكة المتصدون لأمر التوفي لا يقصرون عن الحد الواجب المحدود المكشوف لهم من موت فلان في الساعة الفلانية على الشرائط الكذائية فهم لا يسامحون في توفي من أمروا بتوفيه ولا مقدار ذرة فهم لا يفرطون.

٥. سؤال وإشكال: هل هذه الرسل هم الرسل المذكورون أولا حتى تكون الحفظة هم الموكلين على التوفي؟ والجواب: الآية ساكتة عن ذلك إلا ما فيها من إشعار ضعيف بالوحدة غير أن هؤلاء الرسل المأمورين بالتوفي كائنين من كانوا هم من أعوان ملك الموت لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ اَلْمَوْتِ اَلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]

٦. ونسبة التوفي إلى هؤلاء الرسل ثم إلى ملك الموت في الآية المحكية آنفا ثم إلى الله سبحانه في قوله: ﴿اَللَّهُ يَتَوَفَّى اَلْأَنْفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] من قبيل التفنن في مراتب النسب فالله سبحانه ينتهي إليه كل أمر وهو المالك المتصرف على الإطلاق، ولملك الموت التوسل إلى ما يفعله من قبض الأرواح بأعوانه الذين هم أسباب الفعل ووسائله وأدواته كالخط الذي يخط القلم وورائه اليد ووراءهما الإنسان الكاتب.

٧. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اَللَّهِ مَوْلاَهُمُ اَلْحَقِّ﴾ إشارة إلى رجوعهم إلى الله سبحانه بالبعث بعد الموت، وتوصيفه تعالى بأنه مولاهم الحق للدلالة على علة جميع ما تقدم من تصرفاته تعالى بالإنامة والإيقاظ والتدبير والإماتة والبعث، وفيه تحليل لمعنى المولى ثم إثبات حق المولوية له تعالى، فالمولى هو الذي يملك الرقبة فيكون من حقه جواز التصرف فيها كيفما شاء، وإذ كان له تعالى حقيقة الملك، وكان هو المتصرف بالإيجاد والتدبير والإرجاع فهو المولى الحق الذي يثبت له معنى المولوية ثبوتا لا زوال له بوجه البتة.

٨. ﴿اَلْحَقِّ﴾ من أسماء الله الحسنى لثبوته تعالى بذاته وصفاته ثبوتا لا يقبل الزوال ويمتنع عن التغير والانتقال.

٩. والضمير في ﴿رُدُّوا﴾ راجع إلى الآحاد الذي يومئ إليه سابق الكلام من قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ اَلْمَوْتُ﴾ فإن حكم الموت يعم كل واحد ويجتمع به آحادهم نفس الجماعة، ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ ليس من قبيل الالتفات من الخطاب السابق إلى الغيبة.

١٠. ﴿أَلاَ لَهُ اَلْحُكْمُ﴾، لما بين تعالى اختصاصه بمفاتح الغيب وعلمه بالكتاب المبين الذي فيه كل شيء، وتدبيره لأمر خلقه من لدن وجدوا إلى أن يرجعوا إليه تبين أن الحكم إليه لا إلى غيره، وهو الذي ذكره فيما مر من قوله: ﴿إِنِ اَلْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أعلن نتيجة بيانه فقال ﴿أَلاَ لَهُ اَلْحُكْمُ﴾ ليكون منبها لهم مما غفلوا عنه.

١١. وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ اَلْحَاسِبِينَ﴾ نتيجة أخرى لسابق البيان فإنه تبين به أنه تعالى لا يؤخر حساب أعمال الناس عن الوقت الصالح له، وإنما يتأخر ما يتأخر ليدرك الأجل الذي أجل له.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لما تحمله السيطرة المطلقة والقدرة الشاملة من هيمنة قويّة لا يملك الناس معها أيّة إرادة أمام إرادته، فهم مقهورون بفعل امتداد وجودهم منه وحاجتهم إليه، فمنه يستمدّون القوّة، لأنهم ـ منه ـ يستمدون حركة الحياة، وبهذا تفرض الفوقية معناها الضاغط المسيطر، فيما يعطيه القهر

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٤٠.

من معنى انسحاق المقهور أمام إرادة القاهر.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يحفظونكم من كل أسباب الموت، أو يحفظون أعمالكم في الكتاب الذي يقدمونه غدا بين يدي الله.. وتستمر عمليّة الحفظ ما استمرت الحياة بالناس.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وانتهى أجله المحدّد له ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ الذين أوكل الله إليهم القيام بهذا الدور، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في مسئوليتهم وفي دورهم الذي أراده الله لهم في أمور الموت والحياة، ولا يملك الإنسان شيئا أمام ذلك، فهو مسيّر في أصل وجوده فلا اختيار له في عمليّة الخلق، وهو مسيّر في انتهاء وجوده، فلا اختيار له في عمليّة الموت، وهو محكوم بعمله فلا بد له من أن يقدّم العمل الذي يرضي الله في الدنيا والآخرة.

٤. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ فهناك يرجع الناس إلى ربهم ليعودوا إليه كما بدأهم أوّل مرّة، ليواجهوا حكمه المبرم، فهو الحاكم في يوم القيامة، ولا حاكم غيره، لأنه هو المالك ليوم الدين وللناس أجمعين، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وهو أسرع الحسبين فلا يحتاج إلى وقت للحساب، لأن الأرقام كلّها حاضرة عنده، مجموعة لديه.

٥. ولا بد للإنسان من أن يتوقف عند كلمة ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ ليختزن في وعيه دائما معنى حاكمية الله في الوجود، فيستوعب الفكرة كقاعدة للتصور الإسلامي في الانطلاق من أمر الله ونهيه في شرعية الأفعال والكلمات والمواقف والانتماءات، لأنّ الحكم حكمه، والشرعيّة شرعيته، وفي التوجّه إليه في حكاية الثواب والعقاب، لأن المصير إليه والأمر بيده، فلا حاكم سواه في يوم الجزاء.

٦. سؤال وإشكال: في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ما المراد من الحفظة؟ هل هم الحفظة على الأعمال الذين أشار الله إليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، أو هم الحفظة الذين أوكل إليهم أمر حماية الإنسان من الأخطار والآفات والمصائب التي تهدد حياته أو تسبب له الأمراض والبلايا، فهؤلاء هم الذين يحفظونه من ذلك كله بأمر الله، بطريقة خفيّة أو بوسائل غيبية؟
والجواب: ربما كان الوجه الثاني أقرب إلى السياق من خلال قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ فإن الظاهر أن الحفظ يستمر من قبل هؤلاء إلى المدى الذي يبلغ فيه الإنسان أجله، فإذا جاء

أجله كانت مهمة رسل الموت أن تتوفّاه وتقبض روحه، والله العالم.

٧. أمَّا نسبة الوفاة إلى الرسل فهي كنسبتها إلى ملك الموت كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] وذلك من حيث الجانب الآلي للوفاة، لأنهم هم الذين يتولون التنفيذ العملي للمهمة بوسائلهم الخاصة التي أعطاهم الله إياها، ولكن العمق في مسألة الوفاة يتصل بالله سبحانه، فهو ـ وحده ـ القادر على ذلك والمقدّر له كما جاء في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]

٨. أما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فالمقصود أنهم لا يتساهلون في تنفيذ المهمة الموكلة إليهم لأنهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ومن الممكن أن يكون هؤلاء أعوان ملك الموت الذي وكل بقبض الأرواح مما تلتقي النسبة إليه بالنسبة إليهم.

٩. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ إن التعبير بالحق كصفة من صفات الله كان من جهة أن الكلمة تمثل الثبوت، والله ـ وحده ـ هو الذي يملك ـ في ذاته وصفاته ـ الثبوت كله، فلا مجال لعروض الزوال عليه في ذلك كله، ولا لطروء التغير والانتقال في وجوده، بينما لا يملك أي مخلوق هذه الخصوصية.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الغالب المذل لهم بالموت وغيره من البلاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ليحفظوكم حتى يأذن الله بهلاك أحدهم، فإذا جاءه الموت أخذته رسلنا الذين أرسلناهم لتَوَفِّيه ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في شيء مما أمروا به بل يفعلون ما أمروا بلا تقصير، فلا تأخير لنفس عن أجلها فله الملك دون شركاء المشركين، فلا يملكون موتاً ولا حياة.

٢. ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ بعد الموت ﴿إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ مالكهم الذي له ولاية التصرف فيهم، كما قال النابغة:

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ... ولا سبيل إلى عقل ولا قود

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٦٠.

قالت لَه النفس إني لا أرى فرجاً وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

واشق: اسم كلب، يعني: أنه أيس من نجاة صاحبه ومن أن يصيد بكلبه، أو أراد متولي أمرك، والحاصل أن الولاية هنا ولاية المِلك، وردهم إما ردّ النفس إليه يمسكها كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ [الزمر:٤٢] فيؤخذ منه أن الإنسان هو النفس، وأن الجسد لها آلة ووعاء؛ لأنه تعالى نسب التوفي إليها في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] فالموت أخذها من الجسد وأسند التوفي إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١] وإما ردهم إلى الله يوم القيامة، وهذا أرجح لاستعمال الجمع في ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ بعد الإفراد، ولقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

٣. فظهر: أن المراد رد العباد ليوم الحساب وهو من مصاديق قهره فوق عباده، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور وليس لشركاء المشركين شيء من التصرف في العباد ولغفلتهم جاء التنبيه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا﴾ ليعلموا بطلان الشرك؛ لأنه خلاف حكمه تعالى، وليعلموا أنه يحاسبهم ويجزيهم؛ لأن ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لأنه يعلم تفصيل الحساب وأفراد المحسوب وجملته من غير تفكير.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في الآية الكريمة توضيح أكثر لإحاطة علم الله بأعمال عباده وحفظها بكل دقة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾

٢. سبق أن قلنا إنّ (القاهر) هو المتسلط الغالب المهيمن الذي لا تقف أمامه أية قوّة، ويرى بعضهم هذه الكلمة تستعمل حيث يكون المقهور عاقلا، أمّا كلمة (الغالب) فليست فيها هذه الخصوصية، فهي عامّة واسعة المعنى.

٣. (حفظة) جمع (حافظ) وهم هنا الملائكة الموكّلون بحفظ أعمال الناس، كما جاء في سورة الانفطار: ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾، ويرى بعض المفسّرين أنّهم لا يحفظون

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٣١٧.

أعمال الإنسان، بل هم مأمورون بحفظ الإنسان نفسه من الحوادث والبلايا حتى يحين أجله المعين، ويعتبرون ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ بعد (حفظة) قرينة تدل على ذلك، كما يمكن اعتبار الآية من سورة الرعد دليلا عليه كذلك، ولكنّ بالتدقيق في مجموع الآية التي نحن بصددها نتبيّن أنّ القصد من الحفظ هنا هو حفظ الأعمال، أمّا بشأن الملائكة الموكّلين بحفظ الناس فسوف نشرحه بإذن الله عند تفسير سورة الرعد.

٤. ثمّ يبيّن القرآن الكريم أن حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار وحلول الموت: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وتبيّن الآية في النهاية أنّ هؤلاء الملائكة لا يقصرون ولا يفرطون في مهمتهم، فلا يتقدمون لحظة ولا يتأخرون في موعد قبض الروح، ويحتمل أيضا أنّ هذه الصفة ترتبط بالملائكة الذين يحفظون حساب أعمال البشر، فهم في حفظهم للحساب لا يصدر منهم أدنى تقصير أو قصور، والآية تركز على هذا القسم بالذات.

٥. في الآية الاخيرة يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي عادوا إلى الله بعد أنّ طووا مرحلة حياتهم، واختتم ملفهم الحاوي على كل شيء وفي تلك المحكمة يكون النظر في القضايا وإصدار الأحكام بيد الله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾

٦. وعلى الرغم من كل تلك الأعمال والملفّات المتراكمة عن أفراد البشر طوال تاريخهم الصاحب فإن الله سريع في النظر فيها: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لقد جاء في بعض الرّوايات: (إنّه سبحانه يحاسب جميع عباده في مقدار حلب شاة) أي أنّ ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة، وكما قلنا في تفسير الآية من سورة البقرة، إنّ إجراء الحساب من السرعة بحيث إنّه يمكن أن يتمّ في لحظة واحدة بالنسبة للجميع، بل إن ذكر فترة حلب شاة في الرواية المذكورة يقصد منه بيان قصر الزمن اللازم لذلك، وعلى هذا نقرأ في رواية أخرى: (إن الله تعالى يحاسب الخلائق كلّهم في مقدار لمح البصر)

٧. والدليل على ذلك هو ما ذكرناه في تفسير هذه الآية، وهو أنّ أعمال الإنسان تؤثر في وجوده وفي وجود الكائنات المحيطة به، تماما مثل الماكنة التي تسجل مقدار حركتها في عداد متصل بها، وبتعبير أوضح، لو كانت هناك أجهزة دقيقة جدا لاستطاعت أن تسجّل في عين الإنسان عدد النظرات الآثمة، وعلى الألسنة عدد الأكاذيب والافتراءات والتهم والطعون التي اقترفتها، أي أن كل عضو من أعضاء الجسم

فيه ـ بالإضافة إلى روحه ـ جهاز حاسب يكشف الحساب في لحظة واحدة، وإذا جاء في بعض الرّوايات أنّ محاسبة المسؤولين والأغنياء تطول يوم القيامة فإن هذا لا يعني في الواقع طول زمن الحساب، بل هو طول زمن المحاسبة عليهم، إذ لا بدّ لهم من الإجابة على الأسئلة الكثيرة التي تلقى عليهم بشأن الأعمال التي ارتكبوها، أي أن ثقل مسئولياتهم ولزوم إجابتهم على الأسئلة لإتمام الحجّة عليهم هي التي تطيل زمن محاكمتهم.

٨. يؤلف مجموع هذه الآيات درسا تربويا كاملا لعباد الله في إحاطة علمه تعالى بأصغر ذرات هذا العالم وبأكبرها وقدرته وقهره لعباده ومعرفته بجميع أعمال البشر، وقيام كتبة أمناء بحفظ أعمال الناس وقبض أرواحهم في لحظات معينة بالنسبة لكل منهم، وبعثهم يوم القيامة، ومن ثمّ محاسبتهم محاسبة دقيقة وسريعة، كيف يمكن أن يؤمن الشخص بمجموع هذه المسائل ثمّ لا يراقب أعماله، يظلم دون وازع، ويكذب ويفتري ويعتدي على الآخرين؟ هل يجتمع كل هذا مع الإيمان والاعتقاد على صعيد واحد؟

٣٩. الله وكشف كرب عباده وتضرعهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣ ـ ٦٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، يقول: إذا أضلّ الرجل الطريق دعا الله: لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين(١).

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿تَضَرُّعًا﴾ يعني: مستكينا، ﴿وَخُفْيَةً﴾ يعني: في خفض وسكون في حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة(٢).

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، يقول: من كرب البرّ والبحر(٣).

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قل يا محمد لكفار مكة: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، يعني: الظلل،

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٩٥.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٨.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٩٥.

والظلمة، والموج[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ يعني: مستكينين، ﴿وَخُفْيَةً﴾ يعني: في خفض وسكون، ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ من هذه الأهوال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله في هذه النعم، فيوحّدوه[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ يعني: من أهوال كل كرب، يعني: من كل شدة، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ في الرخاء[3].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾:

أ. ليس هذا على الأمر له، ولكن على المحاجة؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، ليس على الأمر بالسير في الأرض، ولكن على الاعتبار بأُولَئِكَ الذين كانوا من قبل، والنظر في آثارهم وأعلامهم أن كيف صاروا بتكذيبهم الرسل، وماذا أصابهم بذلك؛ فعلى ذلك هذا، فيه الأمر بالمحاجة معهم في آلهتهم: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ آلهتكم التي تعبدون من دون الله، وتشركونها في ألوهيته وربوبيته، أو الله الذي خلقكم؟ فسخرهم حتى قالوا: الله هو الذي ينجينا من ذلك، فقال: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾، فإذا كان هو الذي ينجيكم من هذا لا آلهتكم التي تعبدونها؛ فكذلك هو الذي ينجيكم من كل كرب ومن كل شدة.

ب. ويحتمل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أي: لا أحد ينجيكم من ظلمات البر والبحر؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي: لا أحد أظلم من تخافون على آلهتكم الهلاك كما تخافون على أنفسكم؛ فلا أحد سواه ينجيكم من ذلك ومن كل كرب، قال أبو بكر الكيساني: هم عرفوا في الدنيا أنه هو الذي ينجيهم من ذلك كله، وهو الذي يعطي لهم ما أعطوا بها قامت عليهم الحجج، ولم يعرفوا أنه

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٤) تأويلات أهل السنة: ٤/ ١١٠.

هو الذي ينجيهم في الآخرة ويهلكهم، وهو هكذا: عرفوا الله في الدنيا، ولم يعرفوه في الآخرة.

٢. اختلف في ظلمات البر والبحر:

أ. قال بعضهم: الظلمات: هي الشدائد والكروب التي تصيبهم بالسلوك في البر والبحر.

ب. وقال آخرون: الظلمات هي الظلمات لأن أسفار البحار والمفاوز إنما تقطع بأعلام السماء، فإذا أظلمت السماء بقوا متحيرين لا يعرفون إلى أي ناحية يسلكون، ومن أي طريق يأخذون، فعند ذلك يدعون الله تضرعًا وخفية.

٣. ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

أ. قال الحسن: التضرع: هو ما يرفع به الصوت، والخفية: هي ما يدعي سرًّا وهو من الإخفاء.

ب. وفي حرف ابن مسعود: ﴿تدعونه تضرعًا وخيفة﴾ وهي من الخوف.

ج. قال الكلبي: في خفض وسكون، وتضرع إلى الله.

٤. ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، قال أبو بكر ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: لا نوجه الشكر إلى غيرك، والشكر ـ هاهنا ـ: هو التوحيد، أي: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الموحدين لك من بعد؛ لأنهم كانوا يوحدون الله في ذلك الوقت، لكنهم إذا نجوا من ذلك أشركوا غيره في ألوهيته، ألا ترى أنه قال: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

٥. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بعد علمكم أن الأصنام التي تعبدونها لم تملك الشفاعة لكم، ولا الزلفى إلى الله؛ يذكر سفههم في عبادتهم الأوثان على علم منهم أنها لا تشفع لهم، ولا تملك دفع شيء عنهم.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. معنى قوله: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي تذللاً جهاراً وخفى.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٩٠.

(٢) تفسير الطوسي: ٤/ ١٦١.

١. أمر الله تعالى نبيه أن يخاطب الخلق ويقول لهم على وجه التقريع لمن يعبد الأصنام منهم ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ومعناه شدائد البر والبحر، تقول العرب لليوم الذي يلقى فيه الشدة: يوم مظلم حتى أنهم يقولون: يوم ذو كواكب أي قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل، قال الشاعر:

ابني أسد هل تعلمون بلاءنا ... إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

وقال آخر:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

فمعنا ظلمات البر والبحر شدائدهما.

٢. ﴿تَدْعُونَهُ﴾.. ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي مظهرين الضراعة، وهي شدة الفقر إلى الشيء والحاجة و﴿تَدْعُونَهُ﴾.. ﴿خُفْيَةً﴾ أي تدعونه في أنفسكم بما تضمرون من حاجاتكم إليه كما تظهرون.

٣. ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾ أي في شدة وقعوا فيها، يقولون (لئن أنجيتنا من هذه) لنشكرنك.

٤. فأمر الله أن يسألهم على وجه التوبيخ لهم والتقرير بأنه ينجيهم وأنه القادر على نفعهم وضرهم، ثم أعلمهم أن الله الذي أقروا بأنه ينجيهم هو ينجيهم ثم هم يشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها من صنعهم وأنها لا تضر ولا تنفع وأنه تعالى على تعذيبهم قادر.

٥. قراءات ووجوه:

أ. قرأ يعقوب (قل من ينجيكم) مخففاً، الباقون بالتشديد، وقرأ أبو بكر (وخفية) بكسر الخاء ـ ها هنا ـ وفي الأعراف، وقرأ أهل الكوفة إلا ابن شاهي (أنجانا) على لفظ الإخبار عن الواحد الغائب، وأماله حمزة والكسائي وخلف، الباقون (أنجيتنا) على وجه الخطاب.

ب. وقرأ أهل الكوفة إلا العبسي وهشام وأبو جعفر ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ بالتشديد، الباقون بالتخفيف، يقال: نجا زيد ينجو، قال الشاعر: (نجا سالم والنفس منه لشدقه)، فإذا نقلت الفعل حسن أن تنقله بالهمزة فتقول أنجيته، ويجوز أن ننقله بتضعيف العين، فتقول نجيته، ومثله فرحته وأفرحته وعرضّته وأعرضته، قال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وقال: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ﴾ فلما استوت اللغتان وجاء التنزيل بهما تساوت القراءتان.

ج. ووجه قراءة من قرأ (لئن أنجانا) أنه حمله على الغيبة كقوله: ﴿تَدْعُونَهُ﴾.. ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾،

وكذلك ما بعده ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾، فهذا كله أسماء غيبة فـ (أنجانا) أولى من (أنجيتنا) لكونه على ما قبله، وما

نجا عامر والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزراً

بعده من لفظ الغيبة، وموضع (يدعونه) نصب على الحال، وتقديره قل من ينجيكم داعين وقائلين (لئن أنجيتنا)، ومن قرأ من الكوفيين (لئن أنجانا) طلب المشاكلة، ومن قرأ بالتاء واجه بالخطاب ولم يراع المشاكلة، ويقوي ذلك قوله في أخرى (لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجيكم) فجاء أنجيتنا على الخطاب وبعده اسم غيبة.

د. وأما إمالة حمزة والكسائي فحسنة، لأن هذا النحو من الفعل إذا كان على أربعة أحرف استمرت فيه الإمالة، لانقلاب الألف ياء في المضارع.

هـ. ومن قرأ (خفية) بكسر الخاء، فلأن أبا عبيدة قال: (خفية) تخفون في أنفسكم وخفي غيره خفية، وخفية لغتان، وحكي خفوة وخفوة بالواو، كما قالوا حل حبوته وحبيته، ولا يقرأ بذلك، فأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ ففعلة من الخوف، وانقلبت الواو، للكسرة، والمعنى أدعو خائفين خافيين، قال الشاعر:

فلا تقعدن على زخة وتضمر في القلب وجداً وخيفاً

يريد جمع خيفة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. النجاة: السلامة من الهلكة، وأصله: الارتفاع من الأرض، ومنه: النجوة، ومنه ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، والنجا: السرعة في السير؛ لأنه الارتفاع فيه، ونَجَّيْتُهُ وأنجيته لغتان بمعنى، وقيل: بالتشديد للتكثير كقوله: فتَّحت وفتَحت.

ب. الخفية من الإخفاء، وفيه أربع لغات: خفية بضم الخاء وكسرها، وخفوة بالواو وضم الخاء

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٩٩.

وكسرها، عن الفراء.

ج. الإشراك: ضد الإخلاص، والشرك: جعل المعنى لاثنين فصاعدًا.

د. الكَرْب: الضيق، وأكثر ما يستعمل في ضيق النفس والغم، عن أبي مسلم.

٢. عاد الكلام إلى حجاج الكفار بما لا يمكنهم دفعه فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهَؤُلَاءِ الكفار ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ يخلصكم ويسلمكم ﴿مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾:

أ. قيل: من غرق البحر، وضلال طرق البر، وإنما جمع الظلمات لأنه أراد ظلمة الليل، وظلمة الغيم، وظلمة التيه والحيرة في البر والبحر، فجمع لفظه ليدل على معنى الجميع.

ب. وقيل: المراد بالظلمات الشدائد والأهوال عن الأصم.

٣. ﴿تَدْعُونَهُ﴾ أي تدعون الله عند معاينة الأهوال ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي متضرعين في خفية من البشر، وتعاهدونه بأنه إن خلصكم ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ أي من الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنعمه العابدين له.

٤. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿اللهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ أي ينعم عليكم بالنجاة والفرج، ويخلصكم من تلك الظلمات ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي من كل غم غير ذلك ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، وإنما قال ذلك ـ وإن كان شركهم قبل النجاة وبعدها ـ لأنه عند قيام الحجة يجب الإخلاص، فهم ـ بَدَلَ ذلك ـ يشركون.

٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن المالك للنفع والضر هو الله تعالى دون ما يعبدون من الأوثان؛ لأنهم عند التحقيق يلوذون به ويلجؤون إليه.

ب. أنه تعالى ينعم على الكافر بنعيم الدنيا؛ لتكون حجته أوكد.

ج. وجوب الانقطاع إليه والإخلاص له.

د. سوء خُلُق أولئك حتى تضرعوا في البلاء، وأعرضوا في الرخاء.

هـ. أن الشرك والإعراض فِعْلُهم ليس بخلق لله تعالى؛ لذلك يصح ذمهم.

٦. قراءات ووجوه:

أ. قرأ حمزة وعاصم والكسائي وخلف ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ على المعاينة، ثم اختلفوا فقرأ عاصم

بالتفخيم والباقون بالإمالة، وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ على الخطاب، تقديره: يقولون: يا ربنا لئن أنجيتنا.

ب. قرأ يعقوب الحضرمي ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ خفيفة من أنجاه يُنْجِيه، والباقون مشددة من نَجَّاهُ، وهما لغتان نجاه وأنجاه، وقرأ عاصم وأبو جعفر وحمزة والكسائي ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ مشددة، وقرأ الباقون خفيفة.

ج. قرأ عاصم في رواية أبي بكر: (خِفْية) بكسر الخاء، والباقون بالضم، وهما لغتان، وقرأ الأعمش ﴿خِيفَةً﴾ من الخوف، وعلى هذا الخلاف في سورة الأعراف.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. عاد سبحانه إلى حجاج الكفار، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ أي: يخلصكم، ويسلمكم ﴿مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾:

أ. أي: من شدائدهما وأهوالها عن ابن عباس، قال الزجاج: العرب تقول لليوم الذي فيه شدة: يوم مظلم، حتى إنهم يقولون: يوم ذو كواكب أي: قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل، وأنشد:

بني أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

وقال آخر:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي إذا كان يوما ذا كواكب أشنعا

ب. وقال غيره: أراد ظلمة الليل، وظلمة الغيم، وظلمة التيه، والحيرة، في البر والبحر، فجمع لفظه، ليدل على معنى الجمع.

٢. ﴿تَدْعُونَهُ﴾ أي: تدعون الله عند معاينة هذه الأهوال ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

أ. أي: علانية وسرا، عن ابن عباس، والحسن.

ب. وقيل: معناه تدعونه مخلصين متضرعين تضرعا بألسنتكم، وخفية في أنفسكم، وهذا أظهر.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٦٦.

٣. ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ أي، في أي شدة وقعتم، قلتم لئن أنجيتنا ﴿مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لإنعامك علينا، وهذا يدل على أن السنة في الدعاء التضرع والإخفاء، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (خير الدعاء الخفي، وخير الرزق ما يكفي)، ومر بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء، فقال: (إنكم لا تدعون أصم، ولا غائبا، وإنما تدعون سميعا قريبا!!)

٤. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿اللهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ أي: ينعم عليكم بالنجاة، والفرج، ويخلصكم ﴿مِنْهَا﴾ أي: من هذه الظلمات ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي: ويخلصكم الله من كل غم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بالله تعالى بعد قيام الحجة عليكم، ما لا يقدر على الإنجاء من كل كرب، وإن خف.

٥. قراءات ووجوه:

أ. قرأ أبو بكر، عن عاصم (خفية) بكسر الخاء، هنا وفي الأعراف، والباقون (خفية) بالضم.. أما (خفية): فإن أبا عبيدة قال: (خفية) أي: تخفون في أنفسكم، وحكى غيره خفية وخفية لغتان، وأما خيفة: ففعلة من الخوف، انقلبت الياء عن الواو للكسرة قال:

فلا تقعدن على زخه وتضمر في القلب وجدا وخيفا

وهو جمع خيفة.

ب. قرأ ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِيكُمْ﴾ خفيفة يعقوب، وسهل، وقرأ الباقون ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾، وقرأ أهل الكوفة ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾ بالألف، إلا أن عاصما قرأ بالتفخيم، والباقون بالإمالة، وقرأ غيرهم من القراء ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾، وقرأ أهل الكوفة، وأبو جعفر، وهشام، عن ابن عامر ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ با لتشديد، والباقون ﴿يُنَجِيكُمْ﴾ بالتخفيف.... أما قوله: ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ فإنهم قالوا: نجا زيد، فإذا نقل الفعل حسن نقلة بالهمزة، كما حسن نقله بالتضعيف، وفي التنزيل ﴿فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾، وفيه ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاستوى القراءتان في الحسن، فأما من قرأ ﴿أَنْجَانَا﴾: فإنه حمله على الغيبة، لأن ما قبله ﴿تَدْعُونَهُ﴾ وما بعده ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ﴾، وكلاهما للغيبة، ومن قرأ ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾، فإنه واجه بالخطاب، ولم يراع من المشاكلة ما راعاه الكوفيون.

٦. ﴿تَدْعُونَهُ﴾: في موضع نصب على الحال، تقديره: قل من ينجيكم داعين وقائلين لئن أنجيتنا، ﴿تَضَرُّعًا﴾: نصب بأنه حال أيضا من ﴿تَدْعُونَهُ﴾، وكذلك (خفية)، والمعنى تدعونه مظهرين الضراعة،

ومضمرين الحاجة إليه، أو معلنين ومسرين.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائيّ، وأبو جعفر: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ﴾، مشدّدين، وقرأ يعقوب، والقزّاز عن عبد الوارث: بسكون النون وتخفيف الجيم، قال الزّجّاج: والمشدّدة أجود للكثرة.

٢. ظلمات البرّ والبحر: شدائدها؛ والعرب تقول لليوم الذي تلقى فيه شدّة: يوم مظلم، حتى إنهم يقولون: يوم ذو كواكب، أي: قد اشتدّت ظلمته حتى صار كالليل، قال الشاعر:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي إذا كان يوما ذا كواكب أشنعا

٣. ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ أي: مظهرين الضّراعة، وهي شدّة الفقر إلى الشّيء والحاجة، قوله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ قرأ عاصم إلّا حفصا: (وخفية) بكسر الخاء؛ وكذلك في سورة الأعراف، وقرأ الباقون بضمّ الخاء، وهما لغتان، قال الفرّاء: وفيها لغة أخرى بالواو، ولا تصلح في القراءة: خفوة، وخفوة، ومعنى الكلام، أنكم تدعونه في أنفسكم، كما تدعونه ظاهرا.

٤. (لئن أنجيتنا)، كذلك قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو: (لئن أنجيتنا)، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائيّ: (لئن أنجانا) بألف، لمكان الغيبة في قوله: (تدعونه)، وكان حمزة، والكسائيّ، وخلف، يميلون الجيم، قوله تعالى: ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ يعني: في أيّ شدة وقعتم، قلتم: (لئن أنجيتنا من هذه)، قال ابن عباس: و(الشّاكرون) ها هنا: المؤمنون، وكانت قريش تسافر في البرّ والبحر، فإذا ضلّوا الطريق وخافوا الهلاك، دعوا الله مخلصين، فأنجاهم، فأما (الكرب) فهو الغمّ الذي يأخذ بالنّفس، ومنه اشتقّت الكربة.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٤٠.

(٢) التفسير الكبير: ١٣، ص: ٢٠.

١. هذا نوع آخر من الدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية، وكمال الرحمة والفضل والإحسان.

٢. ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾:

أ. مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما، يقال: لليوم الشديد يوم مظلم، و(يوم ذو كواكب) أي اشتدت ظلمته حتى عادت كالليل، وحقيقة الكلام فيه أنه يشتد الأمر عليه، ويشتبه عليه كيفية الخروج، ويظلم عليه طريق الخلاص.

ب. ومنهم من حمله على حقيقته فقال: أما ظلمات البحر فهي أن تجتمع ظلمة الليل، وظلمة البحر وظلمة السحاب، ويضاف الرياح الصعبة والأمواج الهائلة إليها، فلم يعرفوا كيفية الخلاص وعظم الخوف، وأما ظلمات البر فهي ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من هجوم الأعداء، والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب.

٣. المقصود من الآية الكريمة:

أ. أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله تعالى، وهذا الرجوع يحصل ظاهرا وباطنا، لأن الإنسان في هذه الحالة يعظم إخلاصه في حضرة الله تعالى، وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى، وهو المراد من قوله: ﴿تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضل الله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات، لكنه ليس كذلك، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية، ويقدم على الشرك.

ب. ومن المفسرين من يقول: المقصود من هذه الآية الطعن في إلهية الأصنام والأوثان.

٤. التعلق بشيء مما سوى الله في طريق العبودية يقرب من أن يكون تعلقا بالوثن، فإن أهل التحقيق يسمونه بالشرك الخفي، ولفظ الآية يدل على أن عند حصول هذه الشدائد يأتي الإنسان بأمور:

أ. أحدها: الدعاء.

ب. ثانيها: التضرع.

ج. ثالثها: الإخلاص بالقلب، وهو المراد من قوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾

د. رابعها: التزام الاشتغال بالشكر، وهو المراد من قوله: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ

الشَّاكِرِينَ﴾ ثم بين تعالى أنه ينجيهم من تلك المخاوف، ومن سائر موجبات الخوف والكرب، ثم إن ذلك الإنسان يقدم على الشرك، ونظير هذه الآية قوله: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وقوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ﴾ وبالجملة فعادة أكثر الخلق ذلك، إذا شاهدوا الأمر الهائل أخصلوا، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به.

٥. قراءات ووجوه:

أ. قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ بالتشديد في الكلمتين، والباقون بالتخفيف، قال الواحدي: والتشديد والتخفيف لغتان منقولتان من نجا، فإن شئت نقلت بالهمزة، وإن شئت نقلت بتضعيف العين: مثل: أفرحته وفرحته، وأغرمته وغرمته، وفي القرآن ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ٧٢] وفي آية أخرى ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [فصلت: ١٨] ولما جاء التنزيل باللغتين معا ظهر استواء القراءتين في الحسن، غير أن الاختيار التشديد، لأن ذلك من الله كان غير مرة.

ب. وأيضا قرأ عاصم في رواية أبي بكر خفية بكسر الخاء والباقون بالضم، وهما لغتان، وعلى هذا الاختلاف في سورة الأعراف، وعن الأخفش في خفية وخفية أنهما لغتان، وأيضا الخفية من الإخفاء، والخفية من الرهب.

ج. وأيضا (﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ من هذه، قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ على المغايبة، والباقون ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ على الخطاب، فأما الأولون: وهم الذين قرؤوا على المغايبة، فقد اختلفوا، قرأ عاصم بالتفخيم، والباقون بالإمالة، وحجة من قرأ على المغايبة أن ما قبل هذا اللفظ، وما بعده مذكور بلفظ المغايبة، فأما ما قبله فقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُ﴾ وأما ما بعده فقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ وأيضا فالقراءة بلفظ الخطاب توجب الإضمار، والتقدير: يقولون لئن أنجيتنا، والإضمار خلاف الأصل، وحجة من قرأ على المخاطبة قوله تعالى في آية أخرى: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٨.

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي شدائدهما، يقال: يوم مظلم أي شديد، قال النحاس: والعرب تقول: يوم مظلم إذا كان شديدا، فإن عظمت ذلك قالت: يوم ذو كواكب، وأنشد سيبويه:

بني أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوم ذو كواكب أشنعا

٢. وجمع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ على أنه يعني ظلمة البر وظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الغيم، أي إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك دعوتموه.

٣. ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أي من هذه الشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي من الطائعين، فوبخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد، وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

٤. قراءات ووجوه: قرأ الأعمش ﴿وَخِيفَةً﴾ من الخوف، وقرأ أبو بكر عن عاصم (خفية) بكسر الخاء، والباقون بضمها، لغتان، وزاد الفراء خفوة وخفوة، قال ونظيره حبية وحبية وحبوة وحبوة، وقراءة الأعمش بعيدة، لأن معنى ﴿تَضَرُّعًا﴾ أن تظهروا التذلل و(خفية) أن تبطنوا مثل ذلك، وقرأ الكوفيون ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ واتساق المعنى بالتاء، كما قرأ أهل المدينة وأهل الشام، قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ وقرأ الكوفيون ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ بالتشديد، الباقون بالتخفيف، قيل: معناهما واحد مثل نجا وأنجيته ونجيته، وقيل: التشديد للتكثير.

٥. ٦. ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ الكرب: الغم يأخذ بالنفس، يقال منه: رجل مكروب، قال عنترة:

ومكروب كشفت الكرب عنه بطعنة فيصل لما دعاني

والكربة مشتقة من ذلك.

٧. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تقريع وتوبيخ، مثل قوله في أول السورة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص، وهم قد جعلوا بدلا منه وهو الإشراك، فحسن أن يقرعوا ويوبخوا على هذه الجهة وإن كانوا مشركين قبل النجاة.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قيل: المراد بظلمات البرّ والبحر: شدائدهما، قال النحاس: والعرب تقول: يوم مظلم: إذا كان شديدا، فإذا عظّمت ذلك قالت: يوم ذو كوكب، أي يحتاجون فيه لشدّة ظلمته إلى كوكب، وأنشد سيبويه:

بني أسد هل تعلمون بلاءنا   إذا كان يوم ذو كواكب اشنعا

والاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي من ينجيكم من شدائدهما العظيمة؟

٢. قرأ أبو بكر عن عاصم خفية بكسر الخاء، وقرأ الباقون بضمها، وهما لغتان، وقرأ الأعمش (وخيفة) من الخوف، وجملة ﴿تَدْعُونَهُ﴾ في محل نصب على الحال: أي من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرّع وخفية أو متضرّعين ومخفين، والمراد بالتضرع هنا: دعاء الجهر.

٣. ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ كذا قرأ أهل المدينة وأهل الشام، وقرأ الكوفيون ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ والجملة في محل نصب على تقدير القول: أي قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدّة التي نزلت بنا وهي الظلمات المذكورة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد.

٤. ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ قرأ الكوفيون وهشام ينجيكم بالتّشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، وقراءة التشديد تفيد التكثير؛ وقيل: معناهما واحد، والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ راجع إلى الظلمات، والكرب: الغم يأخذ بالنفس، ومنه: رجل مكروب، قال عنترة:

ومكروب كشفت الكرب عنه   بطعنة فيصل لمّا دعاني

٥. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بالله سبحانه بعد أن أحسن إليكم بالخلوص من الشدائد وذهاب الكروب شركاء لا ينفعونكم، ولا يضرّونكم، ولا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤٤.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٩٤.

١. ﴿قُلْ﴾ لأهل مكَّة توبيخًا على عبادة ما لا يدفع ضرًّا ولا يجلب نفعًا ﴿مَنْ يُّنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في أسفاركم وأحضاركم من شدائدهما، كالخسف في البرِّ واللدغ وأكل السباع، والضلال عن الطريق، وكالغرق في البحر والضلال فيه، والأمواج والرياح العاصفة، وبلع الحوت الكبير، وتعرُّضه للسفينة، أو ذلك والظلمة الحقيقة الحاصلة بالليل والسحاب على عموم المجاز، أو الجمع بينه وبين الحقيقة، وهو مطلق الهول الشديد الشبيه بالظلمة بجامع الذَّهل، فإنَّ الشدَّة تذهل العقل حتَّى يَمُرَّ بك شيء فلا تراه، يقال: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب، وهول الظلمة شبيه بالظلمة نفسها فليس في ذلك تشبيه الشيء بنفسه.

٢. ﴿تَدْعُونَهُ﴾ حال من الكاف، أي: داعين، أو من ضمير (يُنَجِّي)، أو مدعوًّا، أو مستأنف، ﴿تَضَرُّعًا﴾ ذوي تضرُّع برفع صوت، أو متضرِّعين ﴿وَخُفْيَةً﴾ وذوي خفاء دعاء، أو (خُفْيَةً) اسم مصدر، أي: وذوي إخفاء، أو مخفين، أو تدعونه دعاء تضرُّعٍ ودعاء خفيةٍ، أو ضُمِّن (تَدْعُونَ) معنى: تعلنون وتخفون، كقعدتُ جلوسًا.

٣. ﴿لَّئِنَ اَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أي: من هذه الظلمات، وجملة القسم وجوابه محكيٌّ بـ (تَدْعُونَهُ) تعدَّى لواحد بنفسه، والآخر بتضمُّنه معنى: تقولون، أو يُقَدَّرُ له قول هو حال، أي: قائلين: والله إن أنجيتنا من هذه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المؤمنين الشاكرين لنعمك بالتوحيد والعبادات، والمشركون لا يخافون وقوع الخسف، فلا يدخل في قولهم: (لَئِن أنجيتنا من هذه)؛ لأنَّهم لا يرون أثره كما يرون موج البحر ورياح البحر، ولا يكفي جوابًا اعتباره في ظلمات البرِّ باعتبار مشارفته لا وقوعه، لأنَّهم أيضًا لا يعترفون بمشارفته، اللهمَّ إلَّا أن يتخيَّلوه حين ظلمة الليل في البرِّ مع الريح.

٤. ﴿قُلِ اللهُ يُنجِيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ لا محيد لهم عن أن يقولوه، فقله أنت ولا تنتظرهم، ولا سيما أنَّهم يبطئون عن قوله أو يجحدون، وقد اعتقدوا صحَّته، فقد تحملهم بقَوْلِكَه على الإقرار به، والكربُ: غمُّ النفس، أي: ومن كلِّ غمٍ، أو من كلِّ ما يغمُّ سواها، فذلك إنجاء من شدائد البدن وشدائد القلب.

٥. ﴿ثُمَّ أَنتُم تُشْرِكُونَ﴾ به الأصنام، (ثُمَّ) لاستبعاد الإشراك ولياقته مع اعترافهم بأنَّ الله هو المنجي من ظلمات البرِّ والبحر ومن كلِّ غمٍّ، ومقتضى قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أن يقال: ثمَّ أنتم لا

تشكرون، إلَّا أنَّه بالغ بذكر الشرك الذي هو قطع للشكر رأسًا، وذلك ذمٌّ زائد استحقُّوه، إذ لم يقتصروا مع اعترافهم بذلك على ترك الشكر بسائر ما يكون تركًا له من المعاصي، بل قطعوه قطعًا كُلِّيًّا بالإشراك.

٦. ولا يجوز ما اعتاده بعض الناس من الوقف على ﴿كَرْبٍ﴾ ويكرِّره مع قوله: ﴿قُلِ اللهُ يُنجِيكُم مِّنْهَا﴾ على الدعاء، لأنَّه إفساد لسَوْق الكلام الذي هو أنَّه: ينجيكم من ذلك ولا تكفُّون عن الإشراك شكرًا، ففي ذلك الوقفِ صرفُ ما هو تهديدٌ إلى امتنانٍ، وذلك تبديل لكلام الله تعالى تعالى.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أمر تعالى أن يبكّت المشركون بانحطاط شركائهم عما زعموا لها، بأنهم يخصون الحق تعالى بالالتجاء إليه عند الشدائد بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ أي: شدائده، كخوف العدوّ، وضلال الطريق، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ كخوف الغرق، والضلال، وسكون الريح، استعيرت الظلمة للشدة، لمشاركتهما في الهول، وإبطال الأبصار، ودهش العقول، يقال لليوم الشديد: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب، أي: اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل، وظهرت الكواكب فيه.

٢. ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ أي: تذللا إليه، تحقيقا للعبودية، ﴿وَخُفْيَةً﴾ بضم الخاء، وقرئ بكسرها، أي: سرّا، تحقيقا للإخلاص، ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ حال من الفاعل بتقدير القول، أي: قائلين، وعدا بالشكر، لئن أنجيتنا ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ أي: الشدة المعبر عنها بالظلمات، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: لك، باعتقاد أنك المخصوص بالثناء الجميل.

٣. ثم أمره تعالى بالجواب تنبيها على ظهوره وتعينه عندهم، أو إهانة لهم إذ لا يلتفتون لخطابه بقوله: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي: من غير شفاعة أحد ولا عون، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي: ثم أنتم بعد ما تشاهدون من النجاة عنها، الموعود فيها بالشكر وعدا وثيقا بالقسم، تشركون، بعبادته والثناء عليه، غيره، وتنسبون النجاة الحاصلة بعد تخصيصه بالدعوة، إلى شفاعة الشريك، فقد جعلتم الشرك مكان الشكر.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٨٨.

٤. ما قدمناه من أن ظلمات ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مجاز عن مخاوفها وأهوالها، هو ما قاله المحققون، قال الرازي ومنهم من حمله على حقيقته[١].

٥. قال بعض المفسرين: (دل قوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ على أن دعاء السرّ أفضل، قيل: وكان جهر النبيّ ﷺ بالدعاء ليعلّم غيره)، وهذا بناء على أن قوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذللا، لا جهرا، وكثير من المفسرين ذهب إلى أن المعنى جهرا وسرا، ولعله الصواب، فإن العيان يؤيده، إذ لا يتمالك من اشتد عليه الأمر، وأظلم عليه طريق الخلاص، على الاقتصار على دعاء السر وحده ـ والله أعلم ـ.

٦. وفي القاموس وشرحه: (تضرع إلى الله تعالى، أي: ابتهل وتذلل، وقيل: أظهر الضراعة، وهي شدة الفقر والحاجة إلى الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: مظهرين الضراعة، وحقيقة الخشوع)

٧. المراد بالكرب ما يعم ما تقدم، ولا محذور في التعميم بعد التخصيص، لكثرة وروده، أو ما يعتري المرء من العوارض النفسية التي لا تتناهى، كالأمراض والأسقام، وما قيل: إن المراد بالأول كرب مخصوص، أو الأولى: نعمة رفع، وهذه نعمة دفع، وأنه من قبيل (متقلدا سيفا ورمحا) ـ تكلف لا داعي له ـ قاله الخفاجي في (العناية)

٨. وضع (تشركون)، موضع (لا تشركون) الذي هو مقتضى الظاهر المناسب لقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لأن إشراكهم تضمن عدم صحة عبادتهم، وشكرهم لأنه عبادة، بل نفيها لعدم الاعتداد بها معه، إذ التوحيد ملاك الأمر، وأساس العبادة، فوضعه موضعه توبيخا لهم، لعدم الوفاء بالعهد، ولم يذكر متعلقه لتنزيله منزلة اللازم، تنبيها على استبعاد الشرك في نفسه ـ قاله الخفاجي في (العناية)

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. أمر الله تعالى رسوله في الآيات السابقة أن يبين لعباده إحاطة علمه وشمول قدرته، واستعلاءه عليهم بالقهر، وحفظه أعمالهم عليهم، وكونه هو مولاهم الحق الذي يحاسبهم ويجازيهم عليها بعد أن

(١) ذكر هنا قول الرازي الذي سبق ذكره

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٤٠٦

يميتهم ثم يبعثهم، ثم أمره بهذا القول أن يذكرهم بشيء يجدونه في أنفسهم ويقولونه بأفواههم، ويغفلون عما يستلزمه من كون الله تعالى هو مولاهم الحق الذي يجب توحيده وإفراده بالعبادة، ولا سيما مظهرها الأعلى وهو الدعاء في الرخاء كالدعاء في الشدة.

٢. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

أ. ظلمات البر والبحر قسمان: ظلمات حسية كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، وظلمات معنوية كظلمة الجهل بالطرق والمسالك، وظلمة فقد الصوى والمنار، أو اشتباه الأعلام والآثار، وظلمة الشدائد والأخطار، كالعواطف والأعاصير وهياج البحار، أو مساورة الأفاعي والسباع، أو مكافحة العدد الكثير من الأعداء، وتسمية هذه الأمور المعنوية ظلمات من المجاز كتسمية الجهل والكفر والضلال بذلك ـ وهو كثير في التنزيل ـ ونقلوا أنه قيل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، وأقول: لا يصح إطلاق الظلمة على كل شدة، بل على الشدة التي لها عاقبة سيئة مجهولة تخشى ولا تعلم، فهو يرجع إلى معنى الجهل.

ب. والتضرع: المبالغة في الضراعة وهي الذل والخضوع، وقال الراغب: هو إظهار الضراعة بعد أن فسرها بالضعف والذل، والإظهار قد يكون إظهار ما هو واقع وقد يكون إظهار ما هو غير واقع على سبيل الرياء، والمراد بالتضرع هنا ما هو صادر عن الإخلاص الذي يثيره الإيمان الفطري المطوي في أنفس البشر.

ج. والخفية ـ بالضم والكسر ـ الخفاء والاستتار، فإذا كان التضرع إظهار الحاجة إلى الله تعالى، والتذلل له بالجهر والدعاء، ورفع الصوت به مع البكاء ـ فالخفية في الدعاء عبارة عن إسراره هربا من الرياء.

د. وهاتان حالتان تعرضان للإنسان عند شعوره بالحاجة إلى الله تعالى ويأسه من الأسباب؛ تارة يجأر بالدعاء رافعا صوته متضرعا مبتهلا، وتارة يسر الدعاء ويخفيه مخلصا محتسبا، ويتحرى ألا تسمعه أذن، ولا يعلم به أحد، ويرى أنه يكون بذلك أجدر بالقبول، وأرجى لنيل السؤل.

هـ. والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم وما أودع من آيات التوحيد في أعمال فطرتهم: من ينجيكم من ظلمات البر والبحر الحسية والمعنوية عندما تغشاكم في أسفاركم حال

كونكم تدعونه عند وقوعكم في كل ظلمة منها دعاء تضرع ودعاء خفية قائلين: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي مقسمين هذا القسم في دعائكم: لئن أنجانا الله من هذه الظلمة أو الداهية المظلمة لنكونن من المتصفين بالشكر الدائم له، المنتظمين في سلك أهله، وفي قراءة ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ بالخطاب وسيأتي.

٣. ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ الكرب: الغم الشديد، مأخوذ من كرب الأرض، وهو إثارتها وقلبها بالحفر، إذ الغم يثير النفس كذلك، أو من الكرب (بالتحريك) وهو العقد الغليظ في رشاء الدلو (حبله) وقد يوصف الغم بأنه عقدة على القلب، أي لما يشعر به المغموم من الضغط على قلبه والضيق في صدره، أو من أكربت الدلو إذا ملأته ـ أفاده الراغب، والمعنى أن الله ينجيكم المرة بعد المرة من تلك الظلمات ومن كل كرب يعرض لكم، ثم أنتم تشركون به غيره بعد النجاة أقبح الشرك مخلفي وعدكم له بالشكر، حانثين بما وكدتموه به من اليمين، مواظبين على هذا الشرك مستمرين، لا تكادون تنسونه إلا عند ظلمة الخطب، وشدة الكرب، وأجلى شرككم أنكم تدعون أولياء من دون الله وتسندون إليهم الأعمال إن لم يكن بالاستقلال فبالشفاعة عند الله، حتى إنكم لا تستثنون منها تلك النجاة، وهذه الحجة من أبلغ الحجج لمن تأملها، ولذلك تكرر في التنزيل ذكرها، وطالما ذكرناها في آيات التوحيد ودلائله، وأقرب بسط لها ما أوردناه في تفسير الآيتين، ومن هذه السورة، وفيه شواهد بمعنى هاتين الآيتين.

٤. قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ بالتشديد في الموضعين؛ من التنجية، والباقون بالتخفيف فيهما؛ من الإنجاء وهما لغتان في تعدية نجا ينجو، يقال: نجاه وأنجاه، ونطق بهما القرآن في غير هاتين الآيتين أيضا، ولكن في التشديد من المبالغة والدلالة على التكرار ما ليس في التخفيف، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (خفية) بكسر الخاء والباقون بضمها وهما لغتان كما تقدم، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿أَنْجَانَا﴾ على الغيبة، فعاصم فخمها والآخرون قرءوها بالإمالة، وقرأ الباقون ﴿أَنْجَيْتَنَا﴾ على الخطاب، وهي مرسومة في المصحف الإمام هكذا ﴿أَنْجَيْنَا﴾ وقراءة الغيبة أقوى مناسبة للفظ، والخطاب أشد تأثيرا في النفس.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . بعد أن أبان سبحانه لعباده إحاطة علمه، وشمول قدرته، واستعلاءه عليهم بالقهر، وحفظه أعمالهم عليهم ـ ذكّرهم هنا بالدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية ونهاية الرحمة والفضل والإحسان.

٢ . ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم وعما أودع في الآفاق من آيات التوحيد من ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه فتحيرتم وأظلمت عليكم المحجة، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه فأظلم عليكم فيه السبيل فلم تهتدوا ـ غير الله الذي إليه مفزعكم بالدعاء تضرعا منكم إليه، معلنين الدعاء تارة ومخفين له أخرى.

٣ . ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي مقسمين: لئن أنجيتنا من هذه الظلمات التي نحن فيها لنكونن من المتصفين بالشكر، المخلصين لك بالعبادة دون من نشركه معك في عبادتك، وفى معنى الآية قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

٤ . ثم بين أنهم يحنثون في أيمانهم بعد النجاة، ويشركون بربهم سواه، فقال: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي إن الله هو الذي ينجيكم المرة بعد المرة من تلك الظلمات ومن كل كرب يعرض لكم، ثم أنتم تشركون به غيره بعد النجاة أقبح الشرك، حال كونكم مخلفى وعدكم له بالشكر حانثين بها وكدتموه من الأيمان، وأظهر أنواع الشرك أنكم تدعون أولياء من دون الله وتنسبون إليهم الشفاعة عنده، حتى هذه النجاة التي نجّاكموها.

٥ . والخلاصة ـ إنه إذا شهدت الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ في هذه الحالة إلا إلى الله ولا تعويل إلا على فضله، فالواجب أن يبقى هذا الإخلاص في جميع الأحوال والأوقات، لكن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل ذلك إلى الأعمال الجسمانية أو إلى نحو ذلك من الأسباب ويعود إلى الشرك في العبادة ولا يوفّى بالعهد، وفى الآية تنبيه إلى أن من أشرك في عبادته تعالى غيره فكأنه لم يعبده رأسا، فالتوحيد ملاك

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٥٢.

الأمر وأساس العبادة.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. إن الهول والكرب الذي ترتعد له الفرائص ليس مؤجلا دائما إلى يوم الحشر والحساب، فهم يصادفون الهول في ظلمات البر والبحر، فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله؛ ولا ينجيهم من الكرب إلا الله.. ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

٢. إن تصور الخطر، وتذكر الهول، قد يردان النفوس الجامحة، ويرققان القلوب الغليظة، ويذكران النفس لحظات الضعف والإنابة؛ كما يذكرانها رحمة الفرج ونعمة النجاة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق.. وظلمات البر والبحر كثيرة.

٣. وليس من الضروري أن يكون الليل لتتحقق الظلمات، فالمتاهة ظلام، والخطر ظلام، والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب.. وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين.. إن الفطرة تتعرى حينئذ من الركام؛ فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها.. حقيقة الألوهية الواحدة.. وتتجه إلى الله الحق بلا شريك؛ لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك، وتدرك انعدام الشريك! ويبذل المكروبون الوعود: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

٤. والله سبحانه يقول لرسوله ﷺ ليذكرهم بحقيقة الأمر: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾، فليس هنالك غيره يستجيب، ويقدر على دفع الكروب.. ثم ليذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٢٥.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا مظهر آخر من مظاهر جلال الله وقدرته، وبسطة سلطانه، وسعة علمه.. فهو سبحانه، هو الذي يرجى لكشف الملمّات، ويدعى عند الشدائد، حيث تضل عن العقول كل تلك الخرافات التي يعبدها الضالون، ويتعامل معها المشركون..

٢. ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؟ استفهام تقريري مطلوب الجواب عليه، ممن يدخلون في مثل هذه التجربة القاسية، التي لا يسلم منها إنسان، في جميع أحواله وظروفه..

٣. في قوله تعالى: ﴿مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إشارة إلى أن الشدائد التي تصيب الإنسان في البر والبحر، هي ظلمات تحجب عنه الرؤية، وتعمّى عليه طريق النجاة، فلا يجد إلا الاستسلام، واللّجأ إلى الله، والتضرع: التذلل والمسكنة.. والخفية: التخافت، والهمس.. وهذا ما يفعله الكافرون والمشركون، خوفا من أن يفتضح حالهم، وذلك حين تكون الشدة الممسكة بهم غير قاهرة، فإذا كانت الشدة مطبقة ضاغطة، كان منهم الضّراعة والتذلل.. علانية وصراخا..

٤. في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾ ما يكشف عن تلك الطبائع المنكرة، وهذه القلوب القاسية، التي تأبى أن تخلص الإيمان حتى وهي في مواجهة الموت، فلا يدعون الله دعاء من هو حاضر في نفوسهم، مستول على كيانهم، بل يدعونه دعاء الغائب، البعيد عنهم.. ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ ولم يقولوا لئن أنجيتنا.. لأنهم لا يعرفونه، ولا يعلمون أنه قريب منهم، يسمع سرّهم ونجواهم، ومع هذا، فقد أوسع الله لهم في باب رحمته، فكشف عنهم الضرّ، ودفع عنهم البلاء.. فلما اطمأنوا، عادوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكفر.. ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، ظلمات البر والبحر كناية

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ٢٠٦.

(٢) التفسير الكاشف: ٣/ ٢٠٤.

عما يلاقيه الإنسان من الشدائد والآلام في حله وترحاله برا وبحرا، ونعطف عليهما جوا بعد أن صرنا في عصر الفضاء، وهو أكثر خطرا من البر والبحر، والمعنى: سل أيها الرسول المشركين والجاحدين، سلهم: لمن يلجئون في ساعة العسرة، ويتضرعون في سرهم وعلانيتهم، هل يلجئون إلى الله، أو إلى من يعبدون من دونه؟

قلنا عند تفسير الآية ٤١ من هذه السورة: أن الفطرة تدرك خالقها تلقائيا، ولكن حجاب التقليد والأهواء يمنع شعاعها عن العيان، وعند الشدائد يتقشع هذا الحجاب، وينطق الإنسان بفطرته النقية الصافية، ولا أحد ينجو من هذه الشدائد كائنا من كان، حتى المعافى يخشى الغوائل، ويخاف من سوء العاقبة إذا كان عاقلا، قال الإمام علي (ما المبتلى الذي اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء)

٢. ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أي أنهم يخلصون لله وحده عند الشدة والخوف، ويقطعون العهود على أنفسهم أن يوحدوا الله ويشكروه إذا أنجاهم من ظلمات البر والبحر، فإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا وبغوا، وقد أثبت العلم أن ضعف الشخصية والارادة يتكيف مع الظروف، تماما كالماء يتلون بلون الإناء.

٣. ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ فكان عليكم أن تعظموا نعمة الله وتشكروها ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ولكنكم بعد أن أنعم عليكم بالنجاة بدلتم نعمة الله كفرا وشركا.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ استئناف ابتدائي، ولمّا كان هذا الكلام تهديدا وافتتح بالاستفهام التقريري تعيّن أنّ المقصود بضمائر الخطاب المشركون دون المسلمين، وأصرح من ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

٢. وإعادة الأمر بالقول للاهتمام، كما تقدّم بيانه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٤٥.

﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ الآية، والاستفهام مستعمل في التقرير والإلجاء، لكون ذلك لا ينازعون فيه بحسب عقائد الشرك.

٣. والظلمات قيل على حقيقتها، فيتعيّن تقدير مضاف، أي من إضرار ظلمات البرّ والبحر، فظلمات البرّ ظلمة الليل التي يلتبس فيها الطريق للسائر والتي يخشى فيها العدوّ للسائر وللقاطن، أي ما يحصل في ظلمات البرّ من الآفات، وظلمات البحر يخشى فيها الغرق والضلال والعدوّ، وقيل: أطلقت الظلمات مجازا على المخاوف الحاصلة في البرّ والبحر، كما يقال: يوم مظلم إذا حصلت فيه شدائد، ومن أمثال العرب (رأى الكواكب مظهرا)، أي أظلم عليه يومه إظلاما في عينيه لما لاقاه من الشدائد حتّى صار كأنّه ليل يرى فيه الكواكب، والجمع على الوجهين روعي فيه تعدّد أنواع ما يعرض من الظلمات، على أنّنا قدّمنا في أوّل السورة أنّ الجمع في لفظ الظلمات جرى على قانون الفصاحة.

٤. وجملة: ﴿تَدْعُونَهُ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾، والتضرّع: التذلّل، كما تقدّم في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ في هذه السورة [٤٢]، وهو منصوب على الحال مؤوّلا باسم الفاعل، والخفية ـ بضم الخاء وكسرها ـ ضد الجهر، وقرأه الجمهور بضم ـ الخاء ـ، وقرأه أبو بكر عن عاصم ـ بكسر الخاء ـ وهو لغة مثل أسوة وإسوة.

٥. وعطف ﴿خُفْيَةً﴾ على ﴿تَضَرُّعًا﴾ إمّا عطف الحال على الحال كما تعطف الأوصاف فيكون مصدرا مؤوّلا باسم الفاعل، وإما أن يكون عطف المفعول المطلق على الحال على أنّه مبيّن لنوع الدعاء، أي تدعونه في الظلمات مخفين أصواتكم خشية انتباه العدوّ من النّاس أو الوحوش.

٦. وجملة ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ في محلّ نصب بقول محذوف، أي قائلين، وحذف القول كثير في القرآن إذا دلّت عليه قرينة الكلام.

٧. واللام في ﴿لَئِنْ﴾ الموطّئة للقسم، واللام في ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لام جواب القسم، وجيء بضمير الجمع إمّا لأنّ المقصود حكاية اجتماعهم على الدعاء بحيث يدعو كلّ واحد عن نفسه وعن رفاقه، وإمّا أريد التعبير عن الجمع باعتبار التوزيع مثل: ركب القوم خيلهم، وإنّما ركب كلّ واحد فرسا.

٨. والضمير عائد إلى ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾، والإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى الظلمة المشاهدة للمتكلّم باعتبار ما ينشأ عنها، أو باعتبار المعنى المجازي وهو الشدّة، أو إلى حالة يعبّر عنها بلفظ

مؤنّث مثل الشدّة أو الورطة أو الربقة.

٩. والشاكر هو الذي يراعي نعمة المنعم فيحسن معاملته كلّما وجد لذلك سبيلا، وقد كان العرب يرون الشكر حقّا عظيما ويعيّرون من يكفر النعمة، وقولهم: ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أبلغ من أن يقال: لنكوننّ شاكرين، كما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]

١٠. وجملة: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ تلقين لجواب الاستفهام من قوله: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ أن يجيب عن المسئولين، ولذلك فصلت جملة ﴿قُلْ﴾ لأنّها جارية مجرى القول في المحاورة، كما تقدّم في هذه السورة، وتولّي الجواب عنهم لأنّ هذا الجواب لا يسعهم إلّا الاعتراف به.

١١. وقدّم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص، أي الله ينجيكم لا غيره، ولأجل ذلك صرّح بالفعل المستفهم عنه، ولولا هذا لاقتصر على ﴿قُلِ اللهُ﴾، والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ للظلمات أو للحادثة، وزاد ﴿مِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ لإفادة التعميم، وأنّ الاقتصار على ظلمات البرّ والبحر بالمعنيين لمجرّد المثال.

١٢. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وهشام عن ابن عامر، ويعقوب ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ ـ بسكون النون وتخفيف الجيم ـ على أنّه من أنجاه، فتكون الآية جمعت بين الاستعمالين، وهذا من التفنّن لتجنّب الإعادة، ونظيره ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ﴾ [الطارق: ١٧]، وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر، وأبو جعفر، وخلف، وعاصم، وحمزة، والكسائي ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ ـ بالتشديد ـ مثل الأولى.

١٣. و﴿ثُمَّ﴾ من قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ للترتيب الرتبي لأنّ المقصود أنّ إشراكهم مع اعترافهم بأنّهم لا يلجئون إلّا إلى الله في الشدائد أمر عجيب، فليس المقصود المهلة.

١٤. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لمجرّد الاهتمام بخبر إسناد الشرك إليهم، أي أنتم الذين تتضرّعون إلى الله باعترافكم تشركون به من قبل ومن بعد، من باب ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥]، ومن باب: لو غيرك قالها، ولو ذات سوار لطمتني.

١٥. وجيء بالمسند فعلا مضارعا لإفادة تجدّد شركهم وأنّ ذلك التجدّد والدوام عليه أعجب، والمعنى أنّ الله أنجاكم فوعدتم أن تكونوا من الشاكرين فإذا أنتم تشركون، وبين ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ و﴿تُشْرِكُونَ﴾ الجناس المحرّف.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى عموم علمه، ما خفى منه وما ظهر، وما جدّ وما يجد، حتى إن الورقة تسقط يعلمها، والحبة تنبت فتكون في علمه بكونها وحالها، يعلم الرطب واليابس من الثمرات، وهو الذى نظم الوجود بمقتضى هذا العلم المحيط، هو الذى يعلم الوفاة بالليل، والصحو بعد، وما يكسب بالنهار من خير نافع، وشر ضار، وأنه المسيطر على كل شيء وأن المرجع والمآب إليه، وعنده الحساب السريع، والحكم العادل، وفى هذه الآيات، يبين نعم الله تعالى عليهم، إن ادلهمت بهم كارثة يضرعون إليه، وبين أنه إذ كان هو وحده الملجأ عند الكارثة تكرثهم فهو القادر على أن ينزل بهم البأساء والضراء، ومع هذه النعم السالفة، ومظاهر القدرة الباهرة يكذبون بالحق إذ جاءهم، وأنباء الرسالة ثابتة مستقرة لا تتخلف، وأنه إذا كان الناس فيهم أطهار وأشرار، فعلى الأطهار ألا يخوضوا في فتن الأشرار.

٢. وقد ابتدأ سبحانه بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، كان المشركون يعرفون الله سبحانه وتعالى، ولكن لا يؤمنون به، ولا يخصونه بالعبادة بل يشركون معه الأوثان، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وكذلك أكثر الوثنيين، يعرفون أن قوة خفية تسير الوجود، ولكنهم يعبدون أشياء حسية يحسبون أن روح الألوهية تحل فيها، وهم في غيهم يعمهون، فلا عجب، إذا كان المشركون عندما تشتد بهم الشديدة لا يتجهون إلا إلى خالق الكون ومنشئه ومسيره والقيوم عليه سبحانه وتعالى، ولقد أمر الله تعالى الرسول الكريم أن يوجه أنظارهم إلى أنه لا يذكر في الشديدة إلا الله سبحانه وتعالى، وأنهم يذكرونه حيث تكون الكريهة، وحيث يكون الخطر، فأمره بأن يوجه إليهم الاستفهام ليقروا بهذه الحقيقة.

٣. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الاستفهام إنكاري تقريري بمعنى لا أحد ينجيكم من ظلمات البر والبحر، وأنتم تقرون بذلك إذ تدعونه تضرعا وخفية، فلا تلجئون لغيره ولا تجدون منجاة إلا من عنده، والظلمة هنا الشدة، فهي مجاز، شبهت فيه الشدة والكرب بالظلمة؛ لأن النفس فيها تتحير،

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٣٠.

وتشده فتبلس، فتكون كأنها لا ترى ولا تعرف وجه الخروج؛ ولذلك يقال لليوم الشديد الذى يملؤه الكرب: يوم مظلم، ويقولون: نهار ذو كواكب، أي أنه لشدته يكون كأنه ليل ترى فيه الكواكب، وفى شدائد البر والبحر تكون غمة حقيقية، فقد يكون غيم شديد، لا رؤية فيه، أو ريح عاصف وإعصار، وقد يكون الخسف الذى يلقى في ظلمات الأرض، وقد يكون اصطخاب الأمواج بالأذى، وهكذا فتجتمع ظلمة الشدة، والظلمة الحقيقية وقد تكون الشدة حيرة، يضلون فيها الطريق فتبتلعهم الصحراء، أو تكون إذا ركبوا البحر، فضلت فيه المحجة، أو ألقتهم الريح لا يهتدون ولا يجدون المنجاة، فكل هذه ظلمات متكاثفة.

٤. وإن حالهم أنهم لا يلجئون إلا إليه ولذا قال سبحانه عنهم: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي أنكم في حال الشدة، تتجهون إليه سبحانه وتعالى بقلوبكم ونفوسكم، ولا تجدون ملجأ منه إلا إليه، ويظهر ذلك الالتجاء القلبي ضراعة وتذللا يجرى على ألسنتكم ولا تجدون سبيلا للامتناع عن الجهر بالضراعة والتذلل لله تعالى، وتسليم الوجه له، فالتضرع دعاء الله تعالى مستسلمين له جهرا، والخفية خنوع النفس، واتجاهها قلبيا إليه سبحانه.

٥. وقد صور الله تعالى ضراعتهم، بقوله: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، هذا قسم يقسمونه، ويؤكدون به ما هم عليه من الالتجاء إلى الله؛ ولذلك كان التوكيد بالنون الثقيلة وباللام، وموقع هذه الجملة مما قبلها أنها تفسير للضراعة التي جهروا بها أو هي تفسير بمعنى (تدعون) فهم يدعون الله تعالى، بمعنى أنهم في سريرة أنفسهم وضراعة قولهم، يقسمون بأن الله تعالى إن أنجاهم من هذه الكروب الكاربة، والشدائد الشديدة، ليشكرونه حق شكره، وشكر الله تعالى بالعبادة، وتخصيصه بها؛ لأنهم إن أشركوا معه غيره في العبادة لا يعدون عابدين؛ إذ إنه حيث أفرد بالالتجاء، لا يتصور إلا أن يفرد سبحانه وتعالى بالعبادة.

٦. ويصح أن يكون قوله تعالى عنهم: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ مقولا لقول محذوف تقديره قائلين لئن أنجيتنا من هذه.

٧. ومع أنهم وعدوا بالشكر أي إخلاص العبادة لله تعالى، فهل وفوا بذلك؟ إنهم لم يفوا؛ إذ إنها حال إذعان في الشدة، فإذا نجوا عاد إليهم جحودهم، وغرتهم أنفسهم وأمانيهم، ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا

وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يبين لهم أن الله تعالى مستجيب لضراعتهم عند تضرعهم، والتجائهم إليه خفية، ووعدهم بأن يخلصوا عبادتهم لله ويشكروه على نعمائه المتضافرة المتكاثرة التي نعيش في ظلها دائما، وإن كان تعالت حكمته يعلم أنهم غير موفين لعهدهم وأنهم ناكثون في أيمانهم، كما حكى سبحانه وتعالى عن طبيعة الإنسانية المنحرفة، إذ قال تعالت كلماته: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس]

٨. وإن الله تعالى بين أنه لا ينجيهم مما يعرض لهم من شدائد من خارجهم، وما لا قبل لهم به وحسب، بل ينجيهم من ذلك، وينجيهم من الكروب التي تعترى نفوسهم من ضراء تنزل بهم، أو مرض يحل بأجسامهم، ومن كل شيء يكربهم ويلقى غمة النفس عليهم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾، ولقد فسر الأصفهاني في مفرداته الكرب فقال: الكرب الغم الشديد ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء] والكربة كالغمة، وأصل ذلك من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر، فالغم يثير النفس إثارة، ويصح أن يكون ذلك من كربت الشمس، أي دنت للمغيب، ويستفاد من هذا أن الكرب غمة شديدة تصيب الإنسان من أمر نفسى يثير النفس، ويجعلها في قلق وحيرة واضطراب نفسى، ويقيم عليها، كمرض عزيز أو موته، أو ضرر أو فقد مال أو خسارة في تجارة، فالله تعالى هو المنجى منه.

٩. وبهذا تبين أن الله تعالى هو الذى ينجى خلقه من كل شيء فهو القائم على كل شيء ومع هذا الخير العميم، ومع استجابة الله تعالى لضراعتهم، والتجائهم إليه، وإنجائه لهم بالفعل بعد أقسموا إن نجاهم يشكرونه أي يعبدونه وحده؛ لأنه الذى أنجاهم، وخلصهم مما هم فيه، مع هذا بمجرد أن يعودوا إلى الاطمئنان والاستقرار يشركون، ويحنثون في أيمانهم، ويعودون إلى ما كانوا عليه، بل إنهم يستمرون في غيهم يعمهون، وإنه كما قال بعض المفسرين: الأصل في السياق أن تكون حالهم حال من لا يشرك، فكان مقتضى الضراعة أن ينفى الله شركهم بعد قسمهم على الشكر والعبادة، ولكن عاد إليهم جحودهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي أن إذعانهم العارض لم يكن ساكنا في نفوسهم، بل هو أمر عارض، بسبب يزول بزواله، ولم يكن إذعان الذين خلصوا بنفوسهم.

١٠. ويلاحظ بعد إشارات بيانية:

أ. أولها: التعبير بـ (ثم) ففيه إشارة إلى التفاوت الكبير بين حال ضراعتهم، وحال كفرهم، أو بعبارة

أدق استمرار حالهم.

ب. الثانية: أنه سبحانه عبر بالجملة الاسمية، وذلك تأكيد لشركهم الذى كان نقيض شكرهم الذى وعدوا به ونكثوا في وعدهم.

ج. الثالثة: أنه عبر بالفعل المضارع الذى يصور حالهم ويدل على استمرارهم.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ﴾ كأن المراد بالتنجية من ظلمات البر والبحر هو التخليص من الشدائد التي يبتلى بها الإنسان في خلال الأسفار إذا ضرب في الأرض أو ركب البحر كالبرد الشديد والأمطار والثلوج وقطاع الطريق والطوفان ونحو ذلك، وأشق ما يكون ذلك على الإنسان في الظلمات من ليل أو سحاب أو ريح تثير عجاج الأرض فيزيد في اضطراب الإنسان وحيرته وضلاله طريق الاحتيال لدفعه، ولذلك علقت التنجية على الظلمات، وكان أصل المعنى الاستفهام عمن ينجي الإنسان من الشدائد التي يبتلى بها في أسفاره في البر والبحر فأضيفت الشدائد إلى البر والبحر بعناية الظرفية ثم أضيفت إلى ظلمات البر والبحر لأن للظلمات تأثيرا تاما في تشديد هذه المكاره، ثم حذفت الشدائد وأقيمت الظلمات مقامها فعلقت التنجية عليها فقيل: ينجيكم من ظلمات البر والبحر.

٢. وإنما خصت الظلمات بالذكر وإن كان المنجي من كل مكروه وغم هو الله سبحانه كما يذكره في الآية التالية لأن أسفار البر والبحر معروف عند الإنسان بالعناء والوعثاء والكريهة.

٣. والتضرع إظهار الضراعة وهو الذل والخضوع على ما ذكره الراغب، ولذلك قوبل بالخفية وهو الخفاء والاستتار فالتضرع والخفية في الدعاء هما الإعلان والإسرار فيه، والإنسان إذا نزلت به المصيبة يبتدئ فيدعو للنجاة بالإسرار والمناجاة ثم إذا اشتدت به ولاح بعض آثار اليأس والانقطاع من الأسباب لا يبالي بمن حوله ممن يطلع على ذلته واستكانته فيدعو بالتضرع والمناداة ففي ذكر التضرع والخفية إشارة إلى أنه تعالى هو المنجي من مصائب البر والبحر شديدتها ويسيرتها.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٣٤

٤. في قوله: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلشَّاكِرِينَ﴾ إشارة إلى أن الإنسان يضيف في هذه الحالة التي يدعو لكشفها إلى دعائه عهدا يقدمه إلى ربه ووعدا يعده به أن لو كشف الله عنه ليكونن من الشاكرين ويرجع عن سابق كفره، وأصل هذه العدة مأخوذ من العادة الجارية بين أفراد الإنسان بعضهم مع بعض فإن الواحد منا إذا أعيته المذاهب وأحاطت به البلية من مصيبة قاصمة أو فقر أو عدو واستغاث لكشف ما به من كرب إلى أحد الأقوياء القادرين على كشفه بزعمه وعده بما يطيب به نفسه ويقوي باعث عزيمته وفتوته، وذلك بثناء جميل أو مال أو طاعة أو وفاء كل ذلك لما أن الأعمال الاجتماعية التي تدور بيننا كلها معاملات قائمة بطرفين يعطي فيها الإنسان شيئا ويأخذ شيئا لأن الحاجة محيطة بالإنسان ليس له أن يعمل عملا أو يؤثر أثرا إلا لنفع عائد إلى نفسه، ومثله سائر أجزاء الكون.

٥. لكن الله سبحانه أكرم ساحة أن تمسه حاجة أو يطرأ عليه منقصة لا يفعل فعلا إلا ليعود نفعه إلى غيره من خليقته فوجه التوحيد في مقابلة الإنسان له بوعد الشكر والطاعة في دعائه الفطري هو أن الإنسان إذا نزلت به النازلة، وانقطعت عنه الأسباب وغابت عن مسرح نظره وسائل الخلاص وجد أن الله سبحانه هو السبب الوحيد الذي يقدر على كشف ما به من غم، وأنه الذي يدبر أمره منذ خلقه ويدبر أمر كل سبب فوجد نفسه ظالما مفرطا في جنب الله سبحانه لا يستحق كشف الغم ورفع الحاجة من قبله تعالى لما كسبت يداه من السيئات، وحملت نفسه من وبال الخطيئة فعندئذ يعد ربه الشكر والطاعة ليصحح ذلك استحقاقه لاستجابة دعائه وكشف ضره، ولذلك نجده أنه إذا نجي مما نزل به النائبة ذهب لوجهه ناسيا لما عهد به ربه ووعده من الشكر كما قال تعالى في ذيل الآية التالية: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

٦. ﴿قُلِ اَللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا ومِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ قال الراغب في مفرداته: (الكرب الغم الشديد، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ مِنَ اَلْكَرْبِ اَلْعَظِيمِ﴾ والكربة كالغمة، وأصل ذلك من كرب الأرض بسكون الراء وهو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس إثارة ذلك وقيل في مثل: الكراب على البقر وليس ذلك من قولهم: الكلاب على البقر، في شيء، ويجوز أن يكون الكرب من كربت الشمس إذا دنت للمغيب، وقولهم: إناء كربان أي قريب نحو قربان أي قريب من الملء، أو من الكرب (بفتحتين) وهو عقد غليظ في رشا الدلو، وقد يوصف الغم بأنه عقد على القلب يقال: أكربت الدلو)

٧. وقد أضيف في هذه الآية كل كرب إلى ظلمات البر والبحر ليعم الجميع فإن إنسانا ما لا يخلو في

مدى حياته من شيء من الكروب والغموم فالمسألة والدعاء عام فيهم سواء أعلنوا به أو أسروا.

٨. فملخص المراد بالآية أنكم في الشدائد النازلة بكم في ظلمات البر والبحر وغيرها إذا انقطعتم عن الأسباب الظاهرة وأعيت بكم الحيل تشاهدون بالرجوع إلى فطرتكم الإنسانية أن الله سبحانه هو ربكم لا رب سواه وتجزمون أن عبادتكم لغيره ظلم وإثم والشاهد على ذلك أنكم تدعونه حينئذ تضرعا وخفية، وتعدونه أن تشكروه بعد ذلك ولا تكفروا به إن أنجاكم لكنكم بعد الإنجاء تنقضون ميثاقكم الذي واثقتموه به وتستمرون على سابق كفركم، ففي الآيتين احتجاج على المشركين وتوبيخ لهم على حنث اليمين وخلف الوعد.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ تطرح هذه الفقرة علامة استفهام حول حقيقة بديهية على قلب الإنسان وعقله، ليستوعبها ويعيها ويحرّكها في وعيه لئلا تغيب عنه لحظة واحدة، في ضباب الغفلة، وجلبة الشهوات والمطامع، ليعيش ـ دائما ـ مع الله كملجأ وحيد، عندما تدهم الإنسان ظلمات البرّ، فتسيطر على مشاعره فترتجف نفسه، وتهتز، وتتساقط تحت تأثير أشباح الظلام التي تتراكض في وعيه، فتوحي إليه، بكل ألوان الخوف والفزع والحيرة من خيالات الجنّ والشياطين والحيوانات المفترسة والناس القتلة، وغير ذلك مما يجعل الإنسان يفقد توازنه في التعامل مع الأشياء من حوله، وربما يفقد عقله معه.. وهكذا عندما يعيش ظلمات البحر، في نطاق ظلمة الليل، وظلمة الأمواج، وظلمة الخيالات السوداء والأشباح المخيفة التي تتراكض في إحساسه ووعيه، فتفقده الأمن والطمأنينة، وتقوده إلى الحيرة والاهتزاز، فإنه لا يجد ـ في ذلك كله ـ إلا الله الواحد، ملجأ الخائفين وعصمة المعتصمين، وغياث المستغيثين، يتعلق به قلبه، في إشراقة فطرية هادئة توحي له بالثقة وتبعث في داخله الشعور بالحياة الممتدّة الواسعة، في خطوات الحقيقة العميقة التي تفرض نفسها على الموقف، فتطرد أمامها كل الخيالات والأشباح.

---

(١) من وحى القرآن: ٩/ ١٤٢.

٢. وتبدأ الابتهالات والتطلعات في خشوع الخوف، وخضوع العبادة ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهكذا ينطلق الإنسان في ابتهالاته ليعطي الله عهدا على نفسه بالالتزام بخطّ الشكر الذي يعني خط الطاعة المطلقة في كل أوامره ونواهيه، وذلك في إحساس خفيٍّ بأن الله يحقق للشاكرين رغباتهم وأحلامهم كجزاء على شكرهم.

٣. ويأتي الجواب الإلهي تجسيدا للحقيقة في أسلوب إيحائيّ يؤكد للإنسان معناها وجها لوجه ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ فاستعرضوا تاريخكم فيما مضى من عمركم، وفي ما عاشه الآخرون من رفاقكم، في غمار تلك الظلمات.. ولن يقتصر الأمر عليها، فهناك أكثر من مشكلة تمر بكم، وأكثر من مصيبة تحلُّ بكم، فينجيكم منها، ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ مما يغمّ القلب، ويكرب النفس، فيفرج عنكم الغمّ ويكشف الكرب، ولكنكم لا تلتزمون بعهدكم أمامه، فسرعان ما تعاودون الكرة فتشركون به غيره في العقيدة تارة، وفي العبادة أخرى ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، ولكن هل فكرتم جيّدا في موقع الله في حياتكم؟ فإنَّ القادر على أن ينجيكم من ظلمات البر والبحر ومن كل كرب، قادر على أن يقلب حياتكم رأسا على عقب، ويدمّر كل وجودكم، فكيف تأمنون مكر الله وعذابه، فيما تستمرون به من شرك وعصيان.

٤. إن قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يشير إلى الحالات الصعبة أو شبه اليائسة التي يعيش الإنسان فيها الإحساس بالخطر الداهم أو المحقق عندما يواجه الشدائد والأهوال في حياته في البرّ والبحر، فلا يجد أمامه أحدا من الناس الذين اعتاد الاستعانة بهم، ولا يملك وسيلة معينة يعتمد عليها، فيلجأ إلى الله بفطرته النقية الصافية التي تفرض نفسها عليه بشكل عفوي بكل آماله وتمنياته وثقته، ويطلب إليه أن ينجيه من هذه المشكلة أو البلية في وعد أكيد أنه سينتقل من حالة الكفر العملي بالنعمة، إلى الشكر له فيها، المتمثل بالعودة إلى خط الإيمان والعمل الصالح في حالة من التضرع الذي يوحي بالتعبير عن الحاجة والمسكنة النفسية في أسلوب علنيّ يرتفع بالشكوى والصراخ، أو في أسلوب خفيّ يهمس به القلب واللسان.. وينجيه الله من ذلك كله، فيخرج من البلاء معافى ومن الخطر سالما، ويبتعد عن كل الهمّ والغمّ والحزن الذي كان يعيشه في حياته، فينقلب من مشكلته مسرورا، وينسى مشكلته في غمار هذه النتائج الإيجابية الطيبة، وينسى ربه، ويستغرق من جديد في الناس الذين اتخذهم شركاء من دون الله، ويعود إلى الكفر بنعمة الله، ويخرج من

تلك الصحوة الإيمانية التي انفتح فيها على الله وآمن فيها بوجوده وتوحيده من خلال هذه الهزّة العنيفة لحياته، ليعود إلى الغفلة المطبقة والنوم العميق.

٥. ولعلّ هذا الحديث عن إجابة الله للدعاء في إنجائهم من البلاء الذي حلّ بهم، يوحي للإنسان بالإجابة الإلهية الحاسمة لكل من دعاه إذا أخلص في دعائه وإن ابتعد بعد ذلك عن أجواء الدعاء.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ من المخاوف التي تعرض لكم في ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كأن الظلمات جاءت بها؛ لأنها مشتملة عليها، ولأنها زيادة في هول المصائب، انظر قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ الآية [البقرة:١٩] كالمصائب النازلة في الليل الغالبة التي لا تستطيعون دفعها، ولذلك تدعون الله ينجيكم منها؛ لأنكم بفطرتكم تعلمون أنه القادر على أن ينجيكم، وأنه الذي يسمع دعاءكم وتعِدون عند ذلك وعداً مؤكداً، بل تعاهدون عهداً.

٢. ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ الله أو﴿أَنْجَيْتَنَا﴾ [يونس:٢٢] يا الله ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ النازلة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك معدودين من الشاكرين وفي جملتهم، وهذا تأكيد للشكر الذي عاهدوا عليه.

٣. ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ يعرض لكم فينفرج أي ﴿اللهُ﴾ هو الذي ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ مما نجوتم منه من هذه المصائب والكرب لا شركاؤكم ولذلك تلجأون إليه وحده إذا اشتد الأمر ولم تجدوا ملجأ ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ مع علمكم بذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ ما لا ينفعكم ولا يضركم، والكرب الغم الشديد والإنجاء منه يكون بإزالة سببه.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. مرّة أخرى يأخذ القرآن بيد المشركين ويتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، وهناك في تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد وعبادة الواحد الأحد، فيقول للنبي ﷺ قل لهم: ﴿قُلْ مَنْ

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٦١.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/ ٣١٩.

﴿يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾:

أ. إنّ الظلام يكون حسيا أحيانا ومعنويا أحيانا أخرى، الظلام الحسي هو الذي يكون عند انقطاع النّور انقطاعا تاما، أو يضعف بحيث لا يرى شيء أو يرى بالجهد الجهيد، والظلام المعنوي هو المشاكل والصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة، الجهل.. الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، والانحرافات والفساد الأخلاقي التي لا يمكن التكهن بعواقبها السيئة، أو التي تجر إلى التعاسة والشقاء.. كلّها ظلام.

ب. إنّ الظلام بذاته مخيف مثير للأوهام والتخيلات، فهجوم الكثير من الحيوانات الخطرة وسطوة اللصوص والمجرمين يقع تحت جنح الظلام، أنّ لكل امرئ ذكرياته عن هذه الحالات، فعند هبوط الظلام تنشط الأوهام وتخرج منها الأشباح المرعبة، فيستولي الخوف والهلع على العامّة من الناس.

ج. الظلام من العدم، والإنسان يهرب بطبيعته من العدم ويخافه، ولهذا نراه يخاف الظلام.

د. وإذا حدثت في هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافرا في البحر، وتحاصره في ليلة ظلماء الأمواج الهائلة والدوامات المائية، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، لأنّ الإنسان في مثل هذه الظروف يجد أبواب النجاة مسدودة في وجهه، وهكذا لو كان في ليلة حالكة الظلام يسير في الصحراء فيضل الطريق ويسمع زمجرة الوحوش المفترسة من هنا وهناك وهي تبحث عن فريسة، في مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شيء ولا يعود يتذكر شيئا سوى نفسه، والنّور الذي يسطع في أعماقه ويجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما يعتوره من بلاء وضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد ومعرفة الله، لذلك يقول في أمثال هذه الحالات: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وتعقدون ـ وأنتم في تلك الحالة ـ عهدا وميثاقا على أنفسكم، وتقولون: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

٢. ثمّ تأمر الآية النّبي ﷺ أن يخبرهم أنّ الله سوف ينجيهم من هذه ومن غيرها من الأخطار، وقد فعل ذلك من قبل مرارا، ولكنّهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك والكفر: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

٣. لعل ذكر (التضرع) وهو الدعاء علانية، و(الخفية) هي الدّعاء في السرّ، إشارة إلى أنّ المصائب تختلف، فالتي لم تصل مرحلة شديدة قد تستدعي الدعاء خفية، وعند ما تكون شديدة تحمل المرء على أن

يرفع يديه بالدعاء جهرا، وقد يصاحب ذلك البكاء والصراخ، أي أنّ الله يحل مشاكلكم خفيفها وشديدها.

٤. يرى بعضهم أنّ الآية تشير إلى أربع حالات نفسية في الإنسان، كل واحدة منها ردة فعل معينة لظهور المشاكل: حالة (الدعاء) وحالة (التضرع) وحالة (الإخلاص) وحالة (تقديم الشكر عند النجاة من الأخطار) ولكنّ الذي يؤسف له أن هذه الحالات تمر ببعض الناس مرورا خاطفا وكأنّه حالات اضطرارية في مواجهة الأخطار والمشاكل، وبما أنّها ليست مصحوبة بالوعي والإدراك، فإنّها تخفت وتنطفئ بمجرّد انتهاء الأزمة، وبناء على ذلك، فإن هذه الحالات، وان تكن خاطفة، تستطيع أن تكون دليلا على معرفة الله لمن عسر عليه ادراك الدلائل الأخرى.

٥. (الكرب) في الأصل بمعنى حفر الأرض وقلبها، وكذلك تعني العقدة المحكمة الشد في حبل الدلو، ثمّ أطلقت بعد ذلك على الغم والهم والحزن التي تقلب قلب الإنسان وتثقل عليه كالعقدة، لذلك فإنّ ذكر (الكرب) بما له من المعنى الواسع الذي يشمل أنواع المشاكل والأزمات بعد ذكر (ظلمات البرّ والبحر) والتي تشمل جانبا من المشاكل فقط، يعتبر من قبيل ذكر مفهوم عام بعد بيان مفهوم خاص.

٦. هذا يجدر بنا أنّ نذكر حديثا تورده بعض التفاسير في هذه الآية: روي عن رسول الله ﷺ قال: (خير الدعاء الخفي وخير الرزق ما يكفي) لا الثروات الضخمة التي هي حصيلة حرمان الآخرين، وتكون عبئا على كاهل الإنسان)، وروي أيضا أنّه ﷺ مرّ بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء فقال: (إنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، وإنّما تدعون سميعا قريبا)، يستفاد من هذا الحديث أنّ خير الدعاء ما كان خفيا مقترنا بتوجه وإخلاص.

٤٠ . الله والقدرة على أصناف العذاب

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

معاذ:

روي عن معاذ بن جبل (ت ١٨ هـ) أنّه قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة، فأطال قيامها وركوعها وسجودها، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، لقد أطلت اليوم الصلاة! فقال: إنّها صلاة رغبة ورهبة، إنّي سألت ربي ثلاثا، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة؛ سألت ربي ألّا يسلّط على أمتي عدوّا من سواهم فيهلكهم عامّة، فأعطانيها، وسألته ألا يسلّط عليهم سنة فتهلكهم عامّة، فأعطانيها ـ ولفظ أحمد، وابن ماجه: وسألته ألّا يهلكهم غرقا، فأعطانيها ـ، وسألته ألّا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها[1].

حذيفة:

روي عن حذيفة بن اليمان (ت ٣٦ هـ) أنّه قال: خرج النبي ﷺ إلى حرّة بني معاوية، واتّبعت أثره، حتى ظهر عليها، فصلّى الضحى ثمان ركعات، فأطال فيهنّ، ثم التفت إليّ، فقال: إنّي سألت الله ثلاثا، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة؛ سألته ألّا يسلّط على أمتي عدوّا من غيرهم، فأعطاني، وسألته ألّا يهلكهم بغرق، فأعطاني، وسألته ألّا يجعل بأسهم بينهم، فمنعني[2].

أبيّ:

روي عن أبيّ بن كعب (ت ٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) أحمد ٣٦/ ٤٠٠.

(٢) ابن أبي شيبة ٦/ ٦٤.

١. روي أنّه قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الرجم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ الآية، هنّ أربع، وكلّهن عذاب، وكلّهن واقع لا محالة، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمسٍ وعشرين سنة: فألبسوا شيعا، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة: الخسف، والرجم[٢].

ثوبان:

روي عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ (ت ٥٤ هـ)، أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إنّ ربي زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وأعطاني الكنزين الأحمر والأبيض، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وإنّي سألت ربي لأمتي ألّا يهلكها بسنةٍ عامّة، فأعطانيها، وسألته ألّا يسلّط عليها عدوّا من غيرهم، فأعطانيها، وسألته ألّا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها، وقال: يا محمد، إنّي إذا قضيت قضاء لم يردّ، إني أعطيتك لأمّتك ألّا أهلكها بسنة عامة، ولا أظهر عليهم عدوّا من غيرهم فيستبيحهم بعامّة، ولو اجتمع من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم هو يهلك بعضا، وبعضهم هو يسبي بعضا، وإنّي لا أخاف على أمتي إلّا الأئمة المضلّين، ولن تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة)، وإنه قال كلّ ما يوجد في مائة سنة، (وسيخرج في أمتي كذّابون ثلاثون، كلهم يزعم أنّه نبي، وأنا خاتم الأنبياء، لا نبي بعدي، ولن تزال في أمتي طائفة يقاتلون على الحق ظاهرين، لا يضرّهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله)، قال وزعم أنّه لا ينزع رجل من أهل الجنة شيئا من ثمرها إلا أخلف الله مكانها مثلها، وإنّه قال: (ليس دينار ينفقه رجل بأعظم أجرا من دينار ينفقه على عياله، ثم دينار ينفقه على فرسه في سبيل الله، ثم دينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله)، قال وزعم أنّ نبي الله ﷺ عظّم شأن المسألة، وأنّه إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم، فيسألهم ربّهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: ربنا، لم ترسل إلينا رسولا، ولم يأتنا أمر، فيقول: أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون: نعم، فيأخذ مواثيقهم على ذلك، فيأمرهم أن يعمدوا لجهنم فيدخلونها، فينطلقون، حتى إذا جاءوها رأوا لها تغيّظا وزفيرا، فهابوا، فرجعوا إلى ربهم، فقالوا:

---

(١) ابن حجر في الفتح ٨/ ٢٩٢.

(٢) سفيان الثوري كما في تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٥، ابن جرير ٩/ ٣٠١.

ربنا، فرقنا منها، فيقول: ألم تعطوني مواثيقكم لتطيعنّ؟ اعمدوا إليها فادخلوا، فينطلقون، حتى إذا رأوها فرقوا، فرجعوا، فيقول: ادخلوها داخرين، قال نبي الله ﷺ: (لو دخلوها أوّل مرّةٍ كانت عليهم بردا وسلاما)[1].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ)

١. روي أنّه قال:لّما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ قام النبي ﷺ فتوضّأ، ثم قال: اللهمّ، لا ترسل على أمتي عذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم، ولا تلبسهم شيعا، ولا تذق بعضهم بأس بعض، فأتاه جبريل، فقال: إنّ الله قد أجار أمّتك أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم، أو من تحت أرجلهم[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني: من أمرائكم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: سفلتكم[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أئمة السّوء، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ خدم السوء[4].

٤. روي أنّه قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من قبل أمرائكم وأشرافكم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ من قبل سفلتكم وعبيدكم[5].

٥. روي أنّه قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، يعني بالشيع: الأهواء المختلفة[6].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، يسلّط بعضكم على بعضٍ بالقتل، والعذاب[7].

جابر:

---

(١) الحاكم ٤/ ٤٩٦، قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين)، وبعض ألفاظه في الصحيحين.

(٢) ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٤.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٩٨.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٩٨.

(٥) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٦) ابن جرير ٩/ ٣٠٠.

(٧) ابن جرير ٩/ ٣٠١.

روي عن جابر بن عبد الله (ت ٧٨ هـ) أنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: (أعوذ بوجهك)، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: (أعوذ بوجهك)، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: (هذا أهون) أو أيسر[1].

١. روي أنّه قال: لمّا نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: (أعوذ بالله من ذلك)، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال: (هذا أيسر)، ولو استعاذه لأعاذه[2].

نوف:

روي عن نوف البكاليّ (ت ٩٠ هـ) أنّه قال في قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾: هي ـ والله ـ الرجال في أيديهم الحراب، يطعنون في خواصركم[3].

أبو مالك:

روي عن أبي مالك غزوان الغفاري (ت ١٠٠ هـ) أنّه قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ القذف، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف[4].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من قبل كباركم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ من أسفل منكم[5].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لأمة محمد ﷺ، وأعفاكم منه، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ

---

(١) البخاري ٦/ ٥٦.

(٢) الطبراني في الأوسط ٩/ ٣٦.

(٣) ابن جرير ٩/ ٣٠٠.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٩٦.

(٥) تفسير الثعلبي ٤/ ١٥٦.

﴿شِيَعًا﴾ ما كان فيكم من الفتن والاختلاف[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الصيحة، والحجارة، والريح، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الرّجفة والخسف، وهما عذاب أهل التكذيب[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الحجارة، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ السلاطين الظلمة، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ العبيد السوء[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، الاختلاف، والأهواء المفترقة[5].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، عذاب أهل الإقرار[6].

٧. روي أنّه قال: عذاب هذه الأمة أهل الإقرار بالسيف، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، وعذاب أهل التكذيب الصيحة والزلزلة[7].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ هذا للمشركين، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هذا للمسلمين[8].

٢. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ نزلت الآية في أهل

---

(١) تفسير مجاهد، ص ٣٢٣.

(٢) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٩٧.

(٤) تفسير الثعلبي ٤/ ١٥٦.

(٥) ابن جرير ٩/ ٢٩٩.

(٦) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٧) ابن جرير ٩/ ٣٠١.

(٨) ابن جرير ٩/ ٣٠٨.

الإيمان(١).

٣. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلمّا عمل ذنبها أرسلت عقوبتها(٢).

٤. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، من السماء(٣).

٥. روي أنّه قال: لّما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ قام رسول الله ﷺ، فتوضّأ، فسأل ربّه ألّا يرسل عليهم عذابا من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، ولا يلبس أمته شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بني إسرائيل، فهبط إليه جبريل، فقال: يا محمد، إنّك سألت ربّك أربعا، فأعطاك اثنتين، ومنعك اثنتين؛ لن يأتيهم عذاب من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم، فإنّهما عذابان لكل أمة استجمعت على تكذيب نبيها وردّ كتاب ربّها، ولكنهم يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض، وهذان عذابان لأهل الإقرار بالكتب والتصديق بالأنبياء، ولكن يعذّبون بذنوبهم، وأوحى إليه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ يقول: من أمتك، ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ من العذاب وأنت حيّ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١ ـ ٤٢]، فقام نبي الله ﷺ، فراجع ربّه، فقال: (أيّ مصيبة أشدّ من أن أرى أمّتي يعذّب بعضها بعضا!؟)، وأوحى إليه: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ الآيتين [العنكبوت: ١ ـ ٢]، فأعلمه أنّ أمّته لم تخصّ دون الأمم بالفتن، وأنها ستبتلى كما ابتليت الأمم، ثم أنزل عليه: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٣ ـ ٩٤]، فتعوّذ نبي الله، فأعاذه الله، لم ير من أمته إلا الجماعة والألفة والطاعة، ثم أنزل عليه آية حذّر فيها أصحابه الفتنة، فأخبره أنه إنما يخصّ بها ناس منهم دون ناس، فقال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فخصّ بها أقواما من أصحاب محمد ﷺ بعده، وعصم بها أقواما(٤).

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٥٣.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٠٩.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٣١٠.

(٤) ابن جرير ٩/ ٣٠٥.

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ هو الدخان والصيحة ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ وهو الخسف ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ وهو اختلاف في الدين، وطعن بعضكم على بعض ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وهو أن يقتل بعضكم بعضا، فكل هذا في أهل القبلة، يقول الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعني القرآن، كذبت به قريش، ثم قال وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ يقول: لكل نبأ حقيقة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يعني كي يفقهوا[1].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ الآية، ذكر لنا: أنّ رسول الله ﷺ صلّى ذات يوم الصبح، فأطالها، فقال له بعض أهله: يا نبي الله، لقد صليت صلاة ما كنت تصليها، قال: (إنها صلاة رغبة ورهبة، وإني سألت ربي فيها ثلاثا: سألته أن لا يسلّط على أمتي عدوّا من غيرهم فيهلكهم، فأعطانيها، وسألته أن لا يسلّط على أمتي السّنة، فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسهم شيعا ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها)، ذكر لنا: أنّ نبي الله ﷺ كان يقول: لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله[2].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ معناه أو يخلطكم شيعا أي فرقا واحدها شيعة[3].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ فعذاب السماء، ﴿أَوْ

---

(١) تفسير القمي ١/ ٢٠٤.

(٢) ابن جرير ٩/ ٣٠٢.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٤.

مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فيخسف بكم الأرض[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، يفرّق بينكم[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالسيوف[4].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الحصب بالحجارة، كما فعل بقوم لوط، فلا يبقى منكم أحد، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الخسف، كما فعل بقارون ومن معه[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، يعني: فرقا، أحزابا، أهواء مختلفة، كفعله بالأمم الخالية[6].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، يقول: يقتل بعضكم بعضا، فلا يبقى منكم أحد إلا قليل[7].

٤. روي أنّه قال: انظر يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ يعني: العلامات في أمور شتّى من ألوان العذاب، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يقول: لكي ﴿يَفْقَهُونَ﴾ عن الله، فيخافوه، ويوحّدوه[8].

٥. روي أنّه قال: قام النبي ﷺ وهو يجرّ رداءه، وذلك بالليل، وهو يقول: (لئن أرسل الله على أمّتي

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٩٧.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٩٩.

(٣) عزاه ابن حجر في الفتح ٨/ ٢٩١.

(٤) ابن جرير ٩/ ٣٠٠.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٨) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

عذابا من فوقهم ليهلكنّهم، أو من تحت أرجلهم فلا يبقى منهم أحد)، فقام ﷺ، فصلّى، ودعا ربه أن يكشف ذلك عنهم، فأعطاه الله اثنتين؛ الحصب، والخسف، كشفهما عن أمته، ومنعه اثنتين؛ الفرقة، والقتل، فقال: (أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ بمعافاتك من غضبك، وأعوذ بك منك، جلّ وجهك، لا أبلغ مدحتك والثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال: إنّ الله قد استجاب لك، وكشف عن أمتك اثنتين، ومنعوا اثنتين[١].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، كان ابن مسعود يصيح وهو في المجلس أو على المنبر: ألا أيّها الناس، إنّه نزل بكم، إنّ الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحدا، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم ولم يبق منكم أحدا، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف، والأهواء، وسفك دماء بعضهم بعضا[٣].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٤]:

١. معنى ﴿هُوَ الْقَادِرُ﴾ هو: الله سبحانه القادر على خلقه، الذي لا يعجزه ما طلب، ولا ينجوا منه من هرب، ثم قال سبحانه: ﴿عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فأخبرهم سبحانه: أنه إن شاء أنزل عليهم عذابا من فوقهم، وهو مثل ما يكون من القذف بالحجارة والصواعق،

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٥.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٩٧.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٩٩.

(٤) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٨٨.

وما نزل الله عز وجل من النقم بأعدائه، المعرضين عن طاعته، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، فهو مثل الخسف، وما ينزل من متالف الأرض بهم، وذهاب معايشهم، ونقص ثمارهم، وهو سبحانه قادر على ذلك إذا أراد كونه، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره.

٢. ومعنى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ فهو: يذلهم ويخرجهم، ويفرقهم حتى يصبحوا بعد العز أذلة، وبعد الجماعة شيعا يتفرقون في الأرض؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام:١٥٩]، يقول: من بعد الاجتماع على الدين تفرقوا عن ذلك، ومضوا في سبيل غيره، فمال كل قوم في هوى، والتفرقة لهم والتبديد شيعا، فهو من أشد الذل والهوان، والقلة والصغار.

٣. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، فهو: بالخذلان لهم والترك من التوفيق، حتى تقع بينهم الشحناء والبأس والبلاء، فيقتل بعضهم بعضا، ويقع عند ذلك العداوة والبغضاء، فيكون اجتماعهم على الباطل سببا لإهلاكهم، وطريقا إلى تبديدهم، ونكاية من الله عز وجل لهم، وإزالة لنعمهم، وإذهابا لعزهم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. اختلف في نزول الآية فيمن نزلت:

أ. قال بعضهم: نزلت في مشركي العرب ـ وهو قول أبي بكر الأصم ـ لأنها نزلت على أثر آيات نزلت في أهل الشرك، من ذلك قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾: هذه الآيات كلها نزلت في أهل الشرك، فهذه كذلك نزلت فيهم؛ لأنها ذكرت على أثرها؛ ولأن سورة الأنعام نزل أكثرها في محاجة أهل الشرك، إلا آيات منها نزلت في أهل الكتاب، وسورة المائدة نزل أكثرها في محاجة أهل الكتاب؛ لأنه يذكر فيها: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾.

ب. ومنهم من يقول: نزلت في أهل الإسلام، وهو قول أبي بن كعب، وقال: هن أربع، فجاء منهن

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ١١٢.

ثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ: ألبسهم شيعًا، وأذاق بعضهم بأس بعض، أما لبس الشيع: هي الأهواء المختلفة، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هو السيف والقتل، هذان قد كانا في المسلمين، وبقي ثنتان لابد واقعتان.

ج. ومنهم من يقول: كان ثنتان في المشركين من أهل الكتاب، وثنتان في أهل الإسلام، وهو قول الحسن قال قد ظهر في أهل الإسلام الأهواء المختلفة والقتل والفتن، وأما اللذان في أهل الشرك من أهل الكتاب: فهما الخسف في الأرض، والحجارة من السماء.

٢. اختلف في قوله: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾:

أ. عن ابن عباسٍ قال: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، أي: من أمرائكم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، أي: من سفلتكم؛ لأن الفتن ونحوها إنما تهيج من الأمراء الجائرين ومن أتباعهم، وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، قال الأهواء المختلفة، وقوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي: يسلط بعضهم على بعض بالقتل والعذاب.

ب. ومن قال بأن الآية نزلت في أهل الشرك يقول: كان في أشياعهم ذلك كله، أما العذاب من الفوق فهو الحصب بالحجارة؛ كما فعل بقوم لوط، ومن تحت أرجلهم وهو الخسف، كما فعل بقارون ومن معه، وقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، يقول: فرقا وأحزابًا، وكانت اليهود والنصارى فرقًا مختلفة، اليهود فرقًا والنصارى كذلك؛ كقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، هو الحرب والقتال، وقول الحسن ما ذكرنا أنه ظهر في أهل الإسلام الأهواء المختلفة وظهر الحرب والقتل، وأما الخسف والحصب: فلم يظهرا؛ فهما في أهل الشرك، ويحتمل قوله: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أرسلها عليهم؛ لأنهم قد أقروا أنه هو رفع السماء، فمن قدر على رفع شيء يقدر على إرساله، وقوله: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، لأنهم عرفوا أنه بسط الأرض، ومن ملك بسط شيء يملك طيه ويخسف بهم.

٣. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾:

أ. قيل: أي: نردد الآيات ليعلم كل مزدجره.

ب. أو يقول: كيف نصرف الآيات ليعلم كل صدقها وحقيقتها أنها من الله جاءت.

٤. ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يحتمل وجوهًا:

أ. صرفها ليفقهوا، وذلك يرجع إلى المؤمنين خاصة.

ب. الثاني: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، أي: ليلزمهم أن يفقهوا، وقد ألزم الكل أن يفقهوا، لكن من لم يفقه إنما لم يفقه؛ لأنه نظر إليه بعين الاستخفاف.

ج. الثالث: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: نصرف الرسل ونبلغها إليهم على رجاء أن يفقهوا، لكي يفقهوا؛ إن نظروا فيها وتأملوها، وذكر ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ لأن منهم من فقه، ومنهم من لم يفقه.

٥. في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ دلالة نقض قول المعتزلة؛ لأنا نعلم أن للخلق حقيقة الفعل في القتل والحرب والأهواء المختلفة، ثم أضاف ذلك إلى نفسه؛ دل أن له صنعًا في أفعالهم، وليس كما تقول المعتزلة: إنه لا يملك ذلك، وكذلك ما ذكر من إضافة تلبيس الشيع إليه رد لقولهم؛ لأنهم يقولون: هم يختلفون، وقد أخبر أنه هو يجعلهم شيعًا، وذلك ظاهر النقض عليهم؛ لأنه أخبر أنه يذيق بعضهم بأس بعض، وهم يقولون: هو لا يذيق ولكن ذلك القاتل أو الضارب أو المعذب هو يذيقهم دون رب العالمين؛ وكذلك قوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وهم يقولون: هو لا يعذبهم ولكن الخلق يعذبونهم؛ وكذلك قوله: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، وهم يقولون: هو لا يملك تعذيبهم بأيديهم، وذلك رد لظاهر الآية وتركها جانبًا.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الآية، وصدق الله عز وجل إنه القادر على عذابهم، وعلى التخلية بينهم، حتى يلتبس بالتخلية والترك وبين شيعهم، والشيع هي الجمايع والفرق.

٢. معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ فيحتمل أن يذيق الفاسقين بأس المؤمنين، ويأمر

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٩٠.

أولياءه بقتل الظلمة المجرمين.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الذي من فوقهم الرجم والذي من تحت أرجلهم الخسف، ويحتمل أن يكون العذاب الذي من فوقهم هو الطوفان والذي من تحت أرجلهم الريح.

٢. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعني بالحروب والقتل، وروينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية شق على رسول الله ﷺ فصلى صلاة وأطال فيها فقيل له ما أطلت صلاة كاليوم؛ فقال: (إنها صلاة رغبة ورهبة إني سألت ربي أن يجيرني من أربع خصال فأجارني من خصلتين ولم يجرني من خصلتين سألته أن لا يهلك أمتي بعذاب من فوقهم كما فعل بقوم نوح وبقوم لوط فأجارني، وسألته أن لا يهلك أمتي من تحت أرجلهم كما فعل بقارون فأجارني لكون الحجج الذين من ولدي فيهم، وسألته أن لا يفرقهم شيعاً فلم يجرني، ونزل قوله: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت]

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: أن العذاب الذي من فوقهم الرجم، والذي من تحت أرجلهم الخسف، قاله ابن جبير، ومجاهد، وأبو مالك.

ب. الثاني: أن العذاب الذي من فوقهم أئمة السوء، والعذاب الذي من تحت أرجلهم عبيد السوء، قاله ابن عباس.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤٦.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/ ١٢٦.

ج. الثالث: أن الذي من فوقهم الطوفان، والذي من تحت أرجلهم الريح، حكاه علي بن عيسى، ويحتمل أن العذاب الذي من فوقهم طوارق السماء التي ليست من أفعال العباد لأنها فوقهم، والتي من تحت أرجلهم ما كان من أفعال العباد لأن الأرض تحت أرجل جميعهم.

٢. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: أنها الأهواء المُخْتَلَفَة، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنها الفتن والاختلاف، قاله مجاهد.

ج. ويحتمل ثالثاً: أي يسلط عليكم أتباعكم الذين كانوا أشياعكم، فيصيروا لكم أعداء بعدما كانوا أولياء، وهذا من أشد الانتقام أن يستعلي الأصاغر على الأكابر، روي أن موسى بن عمران عليه السلام دعا ربه على قوم فأوحى الله إليه: أو ليس هذا هو العذاب العاجل الأليم.

د. هذا قول المفسرين من أهل الظاهر، وَتَأَوَّلَ بعض المتعمقين في غوامض المعاني.

٣. ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ معاصي السمع والبصر واللسان ﴿أَوْمِن تَحْتِ أَرْجلِكُمْ﴾ المشي إلى المعاصي حتى يواقعوها، وما بينهما يأخذ بالأقرب منهما ﴿أَوَيَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ يرفع من بينكم الأُلفة.

٤. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾:

أ. تكفير أهل الأهوال بعضهم بعضاً.

ب. وقول الجمهور: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعني بالحروب والقتل حتى يفني بعضهم بعضاً، لأنه لم يجعل الظفر لبعضهم فيبقى.

٥. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: نفصل آيات العذاب وأنواع الانتقام.

ب. الثاني: نصرف كل نوع من الآيات إلى قوم ولا يعجزنا أن نجمعها على قوم.

٦. ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي يتعظون فينزجرون.

٧. واختلف أهل التأويل في نزول هذه الآية على قولين:

أ. أحدهما: أنها في أهل الصلاة، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأن نزولها شق على النبي ﷺ، فقام فصلى صلاة الضحى وأطالها فقيل له: ما أطلت صلاة كاليوم، فقال: (إنها صلاة رغبة ورهبة، إني

سألت ربي أن يجيرني من أربع فأجارني من خصلتين ولم يجرني من خصلتين: سألته ألا يهلك أمتي بعذاب من فوقهم كما فعل بقوم نوح، وبقوم لوط فأجارني، وسألته ألا يهلك أمتي بعذاب من تحت أرجلهم كما فعل بقارون فأجارني، وسألته ألا يفرقهم شيعا فلم يجرني، وسألته ألا يذيق بعضهم بأس بعض فلم يجرني) ونزل عليه قوله تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]

ب. الثاني: أنها نزلت في المشركين، قاله بعض المتأخرين.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: إن الله قادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم نحو الحجارة التي أمطرها على قوم لوط، والطوفان الذي غرق به قوم نوح ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ نحو الخسف الذي نال قارون ومن خسف به.

٢. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ معنى يلبسكم يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق يقال: لبست عليه الأمر ألبسه إذا لم تبينه، وخلطت بعضه ببعض، ومنه قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ويقال لبست الثوب ألبسه، ومعنى (شيعاً) أي يجعلكم فرقاً لا تكونون شيعة واحدة فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وإنما يلبسهم الله شيعاً بأن يكلهم إلى أنفسهم ولا يلطف لهم اللطف الذي يؤمنون عنده ويخليهم من ألطافه بذنوبهم السالفة، فيلبس عند ذلك عليهم أمرهم، فيختلفوا حتى يذوق بعضهم بأس بعض.

٣. ثم أكد الاحتجاج عليهم، فقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ لتفقهوا.

٤. وقال الحسن: الآية متناولة، لأهل الكتابين في التهديد بالخسف، وإنزال العذاب ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يتناول أهل الصلاة، وقال: قال رسول الله ﷺ: (سألت ربي أن لا يظهر على أمتي أهل دين غيرهم فأعطاني، وسألته ألا يهلكهم جوعاً فأعطاني، وسألته أن لا يجمعهم على ضلالة، فأعطاني، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً، فمنعني ذلك).

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٦٣.

٥. وفي الآية دلالة على أنه تعالى أراد من الكفار الإيمان، لأنه قال فعلت هذا بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ومعناه لكي يفقهوا، لأن معنى الشك لا يجوز عليه تعالى، وإذا ثبت أنها دخلت للغرض ثبت أنه أراد أن يؤمنوا به ويوحدوه، ويفقهوا أدلته ويعرفوها.

٦. روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال معنى ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ السلطان الجائر ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ السفلة، ومن لا خير فيه ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال: العصبية ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: سوء الجوار، ويكون معنى البعث على هذا الوجه التمكين ورفع الحيلولة دون أن يفعل ذلك أو يأمر به، يتعالى الله عن ذلك.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. القادر: مَنْ يصح منه الفعل، والقدرة عَرَضٌ يصير القادر بها قادرًا، وتتعلق بالضدين المختلفين والمثلين، ثم يختار القادر الفعل، وإنما يحتاج إلى القدرة؛ لأنه إذا جاز أن يقدر وألَّا يقدر، فلا بد من معنى على ما نقوله في إثبات الأعراض، ولما كان القديم سبحانه قادرًا لذاته، وكانت تلك الحالة واجبة له، استغنى عن العلة لكونه موجودًا لما وجب استغنى عن المؤثر من علة وفاعل، والقدرة قبل الفعل غير موجبة للفعل، والقادر هو الحي دون محل القدرة؛ لأن القدرة تحل جزءًا واحدًا ومن يصح منه الفعل هو الجملة.

ب. اللبس: اختلاط الأمر، لَبَسْتُ عليه الأمر أُلْبِسُه، وفي الأمر لُبْسَة: ليس بواضح، واللَّبْس: اختلاط الكلام، ولابست الأمر خالطته، واللبوس: كل ما يلبس من ثياب ودرع، ولباس الرجل: امرأته، وزوجها لباسها، ولِبْسُ الكعبة بكسر اللام ما عليه من اللباس.

ج. الشيع: الفِرَقُ، وكل فرقة شيعة على حدة، ومنه ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ يقال: شيعت فلانًا أي اتبعته، وتقول العرب: شاعكم السلام أي تبعكم، وأشاعكم الله السلام أي أتبعكم، والشيعة: الأحزاب، وأصله

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٦٠٠.

الأتباع، فسموا شيعة لأنهم يتبعون طريقة واحدة، وقد صار في الاسم لمتبعي علي بن أبي طالب، وليس كل من يدعي أنه من شيعته يُعَدُّ مِنْ شيعته، ولكن من يتبع طريقته في قوله وفعله، ثم هم على فرقتين فمن أبى إمامة زيد بن علي يسمى رافضة، ومن يقول بإمامته ـ وهم الزيدية ـ فهم شيعة عليٍّ وأهل بيته.

د. البأس: الشدة في الحرب، ورجل ذو بأس، وهو بائس، وقد بأس بأسًا.

هـ. التصريف: تقليب الشيء من حال إلى حال، وأصل الصرف: الذهاب في جهة من الجهات، ومنه صَرْفُ الدينار والدرهم؛ لذهاب كل واحد بدلاً من صاحبه، والصريف: اللبن يحلب لانصراف من الضرع، والنبأ: الخبر، وجمعه أنباء.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزل في أهل الصلاة، عن الحسن وجماعة.

ب. وقيل: في المشركين، عن أبي علي وغيره.

ج. وقيل: هو العموم وهو الصحيح؛ لأن الخطاب عام.

٣. عطف الله تعالى على ما تقدم الحجج التي أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحاج بها الكافرين، ونبه على الإنذار والإعذار، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿هُوَ﴾ يعني الله تعالى: ﴿الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ﴾ يرسل ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾:

أ. قيل: الذي مِنْ فوقهم الرجم، والذي من تحت أرجلهم الخسف، عن سعيد بن جبير ومجاهد وأبي مالك.

ب. وقيل: الصاعقة من فوقهم والخسف من تحت أرجلهم، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: الطوفَان من فوقهم والريح من تحت أرجلهم.

د. وقيل: من فوقكم السلاطين والظَّلَمة، ومن تحت أرجلكم عبيد السوء، عن مجاهد.

هـ. وقيل: من فوقكم الصيحة والحجارة والريح والطوفَان، ومن تحت أرجلكم المسخ والخسف والزلزلة، حكاه الشيخ أبو حامد.

و. وقيل: من فوقكم أي من قِبَلِ كِبارِكم، ومن تحت أرجلكم مِنْ قِبَلِ من هو أسفل منكم، عن الضحاك.

٤. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي يخلطكم فرقًا:

أ. قيل: يضرب بعضهم ببعض بما يلقيه بينهم من العداوة، فيختلفون بالسيف والقتل، كما بين اليهود والنصارى.

ب. وقيل: يقوي فريقًا من الناس، فيدخل عليكم دياركم فيقتلوكم، والخطاب للكفار، عن أبي علي، وهو الصحيح؛ لأنه جمع بين العذاب المنزل والقتل بالسيف، وتمد حب القدرة عليه.

ج. وقيل: يلبسكم شيعًا يعني بالتكليف، فأمرهم بالنظر في الأدلة واتباع الحق، فبعضهم تبعها، وبعضهم يميل إلى الأهواء والتقليد، فعند ذلك يختلفون ويعادي بعضهم بعضًا.

٥. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾:

أ. قيل: يخذلكم حتى يقتل بعضكم بعضًا، عن مجاهد: عذاب هذه الأمة السيف والفتن، وعذاب التكذيب الصيحة والزلزلة.

ب. وقيل: فيمن يستحق العقاب فيأمر بإذاقة البأس من يستحقه، كما أمر بالجهاد مع الكفار.

ج. وقيل: هو على العموم.

د. وقيل: هو الأهواء المختلفة والفتن وسفك الدماء.

٦. سؤال وإشكال: فأي شيء يضاف إلى الله تعالى من ذلك؟ والجواب: ثلاثة أشياء:

أ. الأول: تسليط المحق على المبطل بالنصرة والتأييد.

ب. الثاني: أمر المؤمنين بقتال الكفار ومعاداتهم.

ج. الثالث: التخلية بينهم، فيقع القتال لضرب من المصلحة، فأما نصرة الكفار وتسليطهم ومعاداة المؤمنين وأذاهم وقتلهم والكفر والضلال والأهواء الباطلة، فلا يجوز إضافة شيء منه إلى الله تعالى؛ لأنه يقبح، ولأنه نهى عنه، وأوعد عليه.

٧. ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نردد ونظهر مرة بعد أخرى ﴿الْآيَاتِ﴾ الحجج، وتصريفها إظهارها بوجوه أدلتها حتى تزول الشبه ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي لكي يعلموا الحق فيتبعوه، والباطل فيجتنبوه.

٨. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه تعالى قادر على ما المعلوم أنه لا يفعله، بخلاف قول كثير من الْمُجْبِرَة وغيرهم.

ب. أن القدرة على خلاف المعلوم ليس بنقص ولا بجهل.

ج. أنه لا يعجل بالعقوبة بل يؤخرها تأكيدا للحجة.

د. قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يدل على أنه أراد من الجميع أن يفقهوا خلافًا للمجبرة.

٩. قراءات ووجوه: القراءة الظاهرة ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ بفتح الياء من لَبَسَ، وعن بعضهم ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ بضم الياء من ألبس يلبس.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. لبست عليهم الأمر ألبسه، إذا لم أبينه، وخلطت بعضه ببعض، ولبست الثوب، ألبسه، واللبس: اختلاط الأمر، واختلاط الكلام، ولابست الأمر: خالطته.

ب. الشيع: الفرق وكل فرقة شيعة على حدة، وشيعت فلانا: اتبعته، والتشيع هو الاتباع على وجه التدين والولاء للمتبوع، والشيعة صارت في العرف اسما لمتبعي أمير المؤمنين علي عليه السلام على سبيل الاعتقاد لإمامته بعد النبي ﷺ بلا فصل من الامامية، والزيدية، وغيرهم، ولا يقع إطلاق هذه اللفظة على غيرهم من المتبعين سواء كان متبوعهم محقا أو مبطلا إلا أن يسقط عنه لام التعريف، ويضاف بلفظ من للتبعيض، فيقال هؤلاء شيعة بني العباس، أو شيعة بني فلان.

٢. عطف سبحانه على ما تقدم من الحجج التي حاج بها الكافرين، ونبه على الإعذار والإنذار، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ﴾ أي: يرسل ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قيل فيه وجوه:

أ. أحدها: إن ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾: عنى به الصيحة، والحجارة، والطوفان والريح، كما فعل بعاد، وثمود، وقوم شعيب، وقوم لوط، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ عنى به الخسف، كما فعل بقارون، عن سعيد

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٦٧.

بن جبير، ومجاهد.

ب. ثانيها: أن المراد بقوله: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي! من قبل كباركم، أو ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، من سفلتكم، عن الضحاك.

ج. ثالثها: إن ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ السلاطين الظلمة، و﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾؟ العبيد السوء، ومن لا خير فيه، عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

٣. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾:

أ. أي: يخلطكم فرقا مختلفي الأهواء، لا تكونوا شيعة واحدة.

ب. وقيل: هو أن يكلهم إلى أنفسهم، فلا يلطف لهم اللطف الذي يؤمنون عنده، ويخليهم من ألطافه بذنوبهم السالفة.

ج. وقيل: عنى به يضرب بعضكم ببعض، بما يلقيه بينكم من العداوة والعصبية، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

٤. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾:

أ. أي: قتال بعضي، وحرب بعض، ومعناه يقتل بعضكم بعضا، حتى يفني بعضكم بعضا، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]

ب. وقيل: هو سوء الجوار، عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. قال الحسن: التهديد بإنزال العذاب، والخسف، يتناول الكفار، وقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يتناول أهل الصلاة، وقال: قال رسول الله ﷺ: (سألت ربي أ ن لا يظهر على أمتي أهل دين غيرهم فأعطاني، وسألته أن لا يهلكهم جوعا فأعطاني، وسألته أن لا يجمعهم على ضلالة فأعطاني، وسألته أن لا يلبسهم شيعا فمنعني.

د. وفي تفسير الكلبي: إنه لما نزلت هذه الآية قام النبي ﷺ فتوضأ، وأسبغ وضوءه، ثم قام وصلى، فأحسن صلاته، ثم سأل الله سبحانه أن لا يبعث على أمته عذابا من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم، ولا يلبسهم شيعا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد! إن الله تعالى سمع مقالتك، إنه قد أجارهم من خصلتين، ولم يجرهم من خصلتين: أجارهم من أن يبعث عليهم عذابا من

فوقهم، أو من تحت أرجلهم، ولم يجرهم من الخصلتين الأخريين، فقال ﷺ: يا جبرائيل ما بقاء أمتي مع قتل بعضهم بعضا؟ فقام، وعاد إلى الدعاء، فنزل ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الآيتين، فقال: لا بد من فتنة تبتلى بها الأمة بعد نبيها، ليتبين الصادق من الكاذب. لأن الوحي انقطع وبقي السيف، وافتراق الكلمة إلى يوم القيامة.

هـ. وفي الخبر أنة ﷺ قال: (إذا وضع السيف في أمتي، لم يرفع عنها إلى يوم القيام)

و. وقال أبي بن كعب: سيكون في هذه الأمة بين يدي الساعة خسف، وقذف، ومسخ.

٥. ثم أكد سبحانه الاحتجاج عليهم بقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: أنظر يا محمد، كيف نردد الآيات، ونظهرها مرة بعد أخرى، بوجوه أدلتها، حتى تزول الشبه ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لكي يعلموا الحق فيتبعوه، والباطل فيجتنبوه.

٦. إذا كان البعث في الآية محمولا على التسليط، فالمراد به التمكين، ورفع الحيلولة دون أن يفعل سبحانه ذلك، أو يأمر به، تعالى الله عن ذلك.

٧. وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه قادر على ما المعلوم أنه لا يفعله.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنّ الذي فوقهم: العذاب النّازل من السماء، كما حصب قوم لوط، وأصحاب الفيل، والذي من تحت أرجلهم: كما خسف بقارون، قاله ابن عباس، والسّدّيّ، ومقاتل، وقال غيرهم: ومنه الطّوفان، والرّيح، والصّيحة، والرّجفة.

ب. الثاني: أنّ الذي من فوقهم: من قبل أمرائهم، والذي من تحتهم من سفلتهم، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال في رواية أخرى: الذي من فوقهم: أئمة السّوء؛ والذي من تحت أرجلهم: عبيد السّوء.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٤١.

٢. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال ابن عباس: يبثّ فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فرقا، قال ابن قتيبة: يلبسكم: من الالتباس عليهم، والمعنى: حتى تكونوا شيعا، أي: فرقا مختلفين، ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحرب، وقال الزّجّاج: يلبسكم، أي: يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق، يقال: لبست عليهم الأمر، ألبسه: إذا لم أبيّنه، ومعنى شيعا: أي يجعلكم فرقا، فإذا كنتم مختلفين، قاتل بعضكم بعضا.

٣. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: يقتل بعضكم بيد بعض.

٤. فيمن عني بهذه الآية، ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنها في المسلمين أهل الصّلاة، هذا مذهب ابن عباس، وأبي العالية، وقتادة، وقال أبيّ بن كعب في هذه الآية: هن أربع خلال، وكلّهنّ عذاب، وكلّهن واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، ألبسوا شيعا، وأذيق بعضهم بأس بعض، وثنتان واقعتان لا محالة: الخسف، والرّجم.

ب. الثاني: أنّ العذاب للمشركين، وباقي الآية للمسلمين، قاله الحسن، وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: (سألت ربّي ثلاثا، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته أن لا يصيبكم بعذاب أصابه من كان قبلكم، فأعطانيها، وسألته أن لا يسلّط عليكم عدوّا يستبيح بيضتكم، فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض، فمنعنيها)

ج. الثالث: أنها تهدّد للمشركين، قاله ابن جرير الطّبريّ، وأبو سليمان الدّمشقي.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا نوع آخر من دلائل التوحيد وهو ممزوج بنوع من التخويف فبين كونه تعالى قادرا على إيصال العذاب إليهم من هذه الطرق المختلفة.

٢. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ إرسال العذاب

(١) التفسير الكبير: ١٣، ص: ٢١.

عليهم تارة من فوقهم، وتارة من تحت أرجلهم ففيه قولان:

أ. الأول: حمل اللفظ على حقيقته، فالعذاب النازل عليهم من فوق مثل المطر النازل عليهم من فوق، كما في قصة نوح والصاعقة النازلة عليهم من فوق، وكذا الصيحة النازلة عليهم من فوق، كما حصب قوم لوط، وكما رمى أصحاب الفيل، وأما العذاب الذي ظهر من تحت أرجلهم، فمثل الرجفة، ومثل خسف قارون، وقيل: هو حبس المطر والنبات وبالجملة فهذه الآية تتناول جميع أنواع العذاب التي يمكن نزولها من فوق، وظهورها من أسفل.

ب. الثاني: أن يحمل هذا اللفظ على مجازه، قال ابن عباس: في رواية عن عكرمة عذابا من فوقكم أي من الأمراء، ومن تحت أرجلكم من العبيد والسفلة.

٣. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ الشيع جمع الشيعة، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة والجمع شيع وأشياع، قال تعالى: ﴿كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤] وأصله من الشيع وهو اتبع، ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضا، قال الزجاج: قوله: ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق، فيجعلكم فرقا ولا تكونون فرقة واحدة، فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾:

أ. عن ابن عباس: لما نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية شق ذلك على الرسول ﷺ وقال: (ما بقاء أمتي إن عوملوا بذلك) فقال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك فادع ربك لأمتك، فسأل ربه أن لا يفعل بهم ذلك، فقال جبريل: إن الله قد أمنهم من خصلتين أن لا يبعث عليهم عذابا من فوقهم كما بعثه على قوم نوح ولوط، ولا من تحت أرجلهم كما خسف بقارون ولم يجرهم من أن يلبسهم شيعا بالأهواء المختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض بالسيف.

ب. عن النبي ﷺ: (إن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة الناجية فرقة) وفي رواية أخرى كلهم في الجنة إلا الزنادقة.

٤. سؤال وإشكال: ظاهر قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ هو أنه تعالى يحملهم على الأهواء المختلفة والمذاهب المتنافية، وظاهر أن الحق منها ليس إلا الواحد، وما سواه فهو باطل فهذا يقتضي أنه تعالى قد يحمل المكلف على الاعتقاد الباطل وقوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ لا شك أن أكثرها ظلم

ومعصية، فهذا يدل على كونه تعالى خالقا للخير والشر، أجاب الخصم عنه بأن الآية تدل على أن الله تعالى قادر عليه وعندنا الله قادر على القبيح، إنما النزاع في أنه تعالى هل يفعل ذلك أم لا؟ والجواب: أن وجه التمسك بالآية شيء آخر فإنه قال: ﴿هُوَ الْقَادِرُ﴾ على ذلك وهذا يفيد الحصر فوجب أن يكون غير الله غير قادر على ذلك وهذا الاختلاف بين الناس حاصل وثبت بمقتضى الحصر المذكور أن لا يكون ذلك صادرا عن غير الله فوجب أن يكون صادرا عن الله وذلك يفيد المطلوب.

٥. سؤال وإشكال: قالت المقلدة والحشوية[١]: هذه الآية من أدل الدلائل على المنع من النظر والاستدلال، وذلك لأن فتح تلك الأبواب يفيد وقوع الاختلاف والمنازعة في الأديان وتفرق الخلق إلى المذاهب والأديان وذلك مذموم بحكم هذه الآية، والمفضي إلى المذموم مذموم، فوجب أن يكون فتح باب النظر والاستدلال في الدين مذموما وجوابه سهل.

٦. ثم قال تعالى في آخر الآية: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾:

أ. قال القاضي: هذا يدل على أنه تعالى أراد بتصريف هذه الآيات وتقرير هذه البينات، أن يفهم الكل تلك الدلائل ويفقه الكل تلك البينات.

ب. وجوابنا: بل ظاهر الآية يدل على أنه تعالى ما صرف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم، فأما من أعرض وتمرد فهو تعالى ما صرف هذه الآيات لهم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أي القادر على إنجائكم من الكرب، قادر على تعذيبكم.

٢. ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾:

أ. معنى ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الرجم والحجارة والطوفان والصيحة والريح، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح، عن مجاهد وابن جبير وغيرهما، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف والرجفة،

---

(١) ذكر قولهم، ولم يذكر الرد عليه

(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٩.

كما فعل بقارون وأصحاب مدين.

ب. وقيل: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني الأمراء الظلمة، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني السفلة وعبيد السوء، عن ابن عباس ومجاهد أيضا.

٣. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ وروي عن أبي عبد الله المدني ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ بضم الياء، أي يجللكم العذاب ويعمكم به، وهذا من اللبس بضم الأول، وقراءة الفتح من اللبس، وهو موضع مشكل والإعراب يبينه، أي يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر، كما قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾:

أ. وهذا اللبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلفي الأهواء، عن ابن عباس.

ب. وقيل: معنى ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يقوي عدوكم حتى يخالطكم وإذا خالطكم فقد لبسكم، ﴿شِيَعًا﴾ معناه فرقا.

ج. وقيل يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا، وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا، وهو معنى ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي بالحرب والقتل في الفتنة، عن مجاهد.

٤. الآية عامة في المسلمين والكفار، وقيل هي في الكفار خاصة، وقال الحسن: هي في أهل الصلاة، وهو الصحيح، فإنه المشاهد في الوجود، فقد لبسنا العدو في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا أموال بعض، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وعن الحسن أيضا أنه تأول ذلك فيما جرى بين الصحابة:

أ. روى مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا)

ب. وروى النسائي عن خباب بن الأرت، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله ﷺ، أنه راقب رسول

الله ﷺ الليلة كلها حتى كان مع الفجر، فلما سلم رسول الله من صلاته جاءه خباب فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها؟ قال رسول الله ﷺ: أجل إنها صلاة رغب ورهب سألت الله تعالى فيها ثلاث خصال فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي تعالى ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها وسألت ربي تعالى ألا يظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانيها وسألت ربي تعالى ألا يلبسنا شيعا فمنعنيها.

ج. وروي أنه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ لجبريل: (يا جبريل ما بقاء أمتي على ذلك)؟ فقال له جبريل: (إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسله لأمتك) فقام رسول الله ﷺ فتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى وأحسن الصلاة، ثم دعا فنزل جبريل وقال: (يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فقال: (يا جبريل ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض)؟ فنزل جبريل بهذه الآية: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ الآية.

د. وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: (أعوذ بوجه الله) فلما نزلت ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: (هاتان أهون)

هـ. وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يصبح: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي، قال وكيع: (يعني الخسف)

٥. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي نبين لهم الحجج والدلالات، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يريد بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٤٤.

١. ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم: ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أي الذي قدر على إنجائكم من تلك الشدائد ودفع عنكم تلك الكروب قادر على أن يعيدكم في شدّة ومحنة وكرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب، فالعذاب المبعوث من جهة الفوق: ما ينزل من السماء من المطر والصواعق، والمبعوث من تحت الأرجل: الخسف والزلازل والغرق، وقيل: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني الأمراء الظلمة و﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني السفلة وعبيد السوء.

٢. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قرأ الجمهور بفتح التحتية، من لبس الأمر: إذا خلطه، وقرأ أبو عبد الله المديني بضمها: أي يجعل ذلك لباسا لكم؛ قيل والأصل: أو يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجرّ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ والمعنى: يجعلكم مختلطي الأهواء مختلفي النحل متفرقي الآراء؛ وقيل: يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا، والشيع: الفرق، أي يخلطكم فرقا.

٣. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يصيب بعضكم بشدّة بعض من قتل وأسر ونهب ﴿وَيُذِيقَ﴾ معطوف على ﴿يَبْعَثَ﴾، وقرئ: (نذيق) بالنون، ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ الحقيقة فيعودون إلى الحق الذي بيناه لهم بيانات متنوّعة.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَّبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمُ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمُ أَوْ يَلْبِسَكُم شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ حصرٌ للقدرة على أنواع الهلاك في الله بعد حصرها على الإنجاء من المهالك فيه، والعذاب من فوقٍ كالحجارة التي نزلت على أصحاب الفيل، والحجارة التي نزلت على قوم لوط، وكالطوفان على قوم نوح النازل من السماء، والصاعقة والريح، وكالريح النازلة على قوم هود، والصَّيحة النازلة على قوم صالحٍ وعلى قوم شعيب، ونمرود وقومه، والظُّلَّة عليهم، والعذاب من تحت الأرجل كالطوفان الخارج من الأرض لقوم نوح، وكالخسف لقارون، وكإغراق فرعون وقومه ببحر القلزم وهو في الأرض، ولا يضرُّ كونَ ذلك من تحتهم علوُّ الماء عليهم وعلوُّ الأرض على قارون لأنَّ البدء من أسفل،

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٩٦.

أو يعدُّ العلوُّ من فوقهم والبدء من تحت الأرجل، قيل: كما روي عن ابن عبَّاس .

٢. ويجوز أن يكون الفوقيَّة والتحتيَّة معقولتين غير محسوستين، مجازًا، بأن يكون الفوقيَّة استعلاء أكابرهم عليهم فيضرُّونهم، والتحتيَّة تسفُّل شأن عبيدهم وأراذلهم وعامَّتهم فيضرُّونهم، وتضرُّ العامَّة أيضًا بعضهم بعضًا.

٣. واللَّبس: الخلط، و(شِيَعًا) حال، أو ضمِّن معنى التصيير، فـ (شِيَعًا) مفعول ثان، بمعنى: فرق مختلفة بالأهواء، كلُّ واحدة تتَّبع إمامها، أو اللبس: الخلط بانتشاب القتال بينهم، والمفرد شيعة، كسِدْرة وسدر، وهو من يتقوَّى به الإنسان، وأتباعُه وأنصاره وقد اجتمعوا على أمر، ويطلق الشيعة على المفرد والاثنين والجماعة والمذكَّر والمؤنَّث.

٤. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتال، والبأس: الألَمُ، أو يذيق بعضَكم قتالَ بعضٍ، وسبب ذلك تفرُّق الأهواء عن الحكم الشرعيِّ فتخطئ الشِّيَع، وقد يكون بعضٌ على الهدى وعدوُّه على الضلال، وروي أنَّه ﷺ قال عند قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾: (أعوذ بوجهك)، وعند قوله: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: (أعوذ بوجهك)، وعند قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: (هذا أهون وهذا أيسر)، وفي مسلم: (سألت ربِّي ألَّا يجعل بأس أمَّتي بينهم فَمَنَعَنِيها)، أي: لم يجب دعوتي، وبدؤه من خلافة عثمان بعد مضيِّ ستِّ سنين منها، وقال الترمذيُّ: وعن خباب بن الأرتِّ: أطال ﷺ صلاة فقيل له: صلَّيت صلاة لم تكن تصلِّيها! فقال: (أجل إنَّها صلاة رغبة ورهبة، إنِّي سألت ربِّي فيها ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمَّتي بالجدب فأَعطَانيها، وسألته أن لا يسلِّط عليهم عدوًّا من غيرها فأعطانيها، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض كما فعل ببني إسرائيل فَمَنَعنِيها)، ويروى: زوِّيَت لي الأرض فقيل لي عن الله: (ستملك ما رأيت، وسألت ربِّي أن لا يستأصل أمَّتي بقحط، وأن لا يستأصلهم عدوٌّ فأعطانيهما، وأن لا يلبسهم شيعًا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض)، فالاثنتان الممنوعتان في رواية: (سألت ربِّي أربعًا فأعطاني اثنتين ومنعني اثنتين): اللبسُ شيعًا، وإذاقة بعض بأس بعض، والثالثة: هي كلتاهما في رواية: (سألته ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني الثالثة)، ووجهه أنَّ الإذاقة من توابع اللبس شيعًا، وكذا فيما يروى: (سألت ربِّي أربعًا فأعطاني ثلاثًا، أن لا تجتمع أمَّتي على ضلالة، وأن لا يظهر عليهم عدوٌّ من سواهم)، أي: فيستأصلهم، (وأن لا يهلكهم بالقحط، فأعطانيهنَّ، وسألته ألَّا يلبسهم شيعًا، ولا يذيق

بعضًا بأس بعض فمنعنيها)، ويروى أنَّه قال لَمَّا نزلت الآية: (أمَا إنَّها الأربعة كائنة)، أي: بدون استئصال، وأحاديث عدم الكون ـ بمعنى أنَّها لا تكون باستئصال ـ فلا منافاة، ولم يأت تأويلها بعد، وعن أبي العالية: وقعت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، أُلبسوا شيعًا وأذيق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان الخسف والمسخ، والتأويل: المأصدق الذي ترجع إليه وتفسَّر به: تفضَّل الله تعالى بتأخير المسخ والخسف إلى قرب الساعة جِدًّا، وعنه ﷺ : (سألت الله أن لا يبعث على أمَّتي عذابًا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)

٥. ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نكرِّر مع بيان ﴿الَايَاتِ﴾ التي تتلى، أو الدلالات بها، وذلك في التوحيد والشرك والوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ﴾ يعلمون أنَّك على الحقِّ وأنَّهم على الباطل.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال المهايمي: أي: قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر: إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد، لكن لا وجه للأمان منها، لاستمرار منشأ الخوف، وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها، إذ هو القادر على إرسال عذاب أعظم من تلك الشدة من فوقكم، كإمطار النار أو الحجارة، أو إسقاط السماء.

٢. ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالخسف والطوفان، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يخلطكم فرقا خلط اضطراب، فيجعلكم متحزبين مختلفين في القتال، بأن يقوّي أعداءكم ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ﴾ أي: شدة ﴿بَعْضَ﴾ يعني: يسلط بعضكم على بعض بالقتل والتعذيب، ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: نحوّلها من نوع إلى آخر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ويعتبرون، فيكفوا عن كفرهم وعنادهم.

٣. روي عن ابن عباس من أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني أئمة السوء و﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: خدم السوء، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، فإن صح عنه، فمراده أن لفظ الآية مما يصدق على ذلك، لأن العذاب كل ما مرّ (من المرارة) على النفس، وشق عليها، لا أن ذلك هو

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٩٠.

المراد من الآية، لنبوّه عن مقام التهويل، في شديد الوعيد، ولخفاء الكناية عن ذلك من جوهر اللفظ، ولعدم موافقته لنظائر الآية في هذا الباب ـ كما لا يخفى، والظاهر أن السلف كانوا يتلون بعض الآيات في بعض المقامات، إشعار بأن معناها يحاكي تلك الواقعات، لا أنها نزلت في تلك القضيات، ومن ذلك قول أبيّ بن كعب، قال في هذه الآية: هن أربع خلال، كلهن واقع، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين (ألبسوا شيعا) و(ذاق بعضهم بأس بعض)، وبقيت اثنتان لا بد منهما الرجم والخسف ـ رواه أحمد وغيره ـ وقد أعلّ هذا الأثر بأن أبيّا لم يدرك خمس وعشرين من الوفاة النبوية، وكأن التقييد بذلك من كلام أبي العالية، رواية عنه، وبالجملة، فاستشهاد السلف بالآيات في بعض الشؤون، للإشعار المذكور ـ مما لا ينكر، فافهم ذلك، فإنه ينفعك في مواطن كثيرة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ذكر الله تعالى هؤلاء الناس في الآيتين السابقتين ببعض آياته في أنفسهم، ومنته عليهم في وقائع أحوالهم التي يشعر بها كل من وقعت له منهم، وكونه هو الذي ينجيهم من الظلمات والكروب والأهوال والخطوب، إما بتسخير الأسباب، وإما بدقائق اللطف والإلهام، ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ فهذا تذكير بقدرته على تعذيبهم إثر التذكير بقدرته على تنجيتهم، لا فرق فيهما بين أفرادهم وبين مجموعهم وجملتهم، وإنذار بأن عاقبة كفر النعم أن تزول وتحل محلها النقم.

٢. والمعنى: قل أيها الرسول لقومك ومن وراءهم من الكافرين بنعم الله، الذين يشركون به سواه، ولا يشكرون له ما من به من النعم وأسداه، ومن الذين يتنكبون سنن الله، ويختلفون في الكتاب بعد أن هداهم به الله: هو الله القادر على أن يثير ويرسل عليكم عذابا تجهلون كنهه فيصبه عليكم من فوقكم، أو يثيره من تحت أرجلكم، أو يلبسكم ويخلطكم فرقا وشيعا، مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم تشايع إماما في الدين، أو تتعصب لملك أو رئيس، ويذيق بعضكم بأس بعض وهو ما عنده من الشدة والمكروه

---

(١) تفسير المنار: ٧/٤٠٨

في السلم والحرب.

٣. قال صاحب الكشاف بعد تفسير اللبس بالخلط: ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال من قوله:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي

وأصل معنى اللبس التغطية، كاللباس، وهذا التفريق والاختلاف بين الشيع كالغطاء، يستر عن كل شيعة ما عليه الأخرى من الحق، وما في الاتفاق معها من المصلحة والخير.

٤. لمادة (ش ي ع) ثلاثة معان أصلية في اللغة (أحدها) الانتشار والتفرق، ومنه شاع وأشاع الأخبار، وطارت نفسه شعاعا، (ثانيها) الاتباع والدعوة إليه، ومن الأول تشييع المسافر وتشييع الجنازة، ومن الثاني قولهم: أشاع بالإبل، أي دعاها إذا استأخر بعضها ليتبع بعضها بعضا، (ثالثها) التقوية والتهييج، ومنه قولهم شيع النار إذا ألقى عليها حطبا يذكيها به، والشياع ـ بالفتح والكسر ـ ما تضرم به النار، وكل هذه المعاني ظاهرة في الشيع، والأحزاب المتفرقة بالخلاف في الدين أو السياسة، وفسر ابن عباس الشيع بالأهواء المختلفة أي أصحابها.

٥. وقد ورد في المأثور تفسير العذاب من فوق بالرجم من السماء، أي: من جهة العلو ـ وكذا الطوفان ـ كما وقع لبعض الأمم القديمة، والعذاب من تحت الأرجل بالخسف والزلازل المعهودة في القديم والحديث، وروي عن ابن عباس أن المراد بالفوق أئمة السوء ـ أي الحكام والرؤساء ـ وبالتحت خدم السوء، وفي رواية ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني أمراءكم ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني عبيدكم وسفلتكم، وهذا معنى صحيح في نفسه، ولعل مراد الخبر منه أنه يدخل في عموم ما ترشد إليه الآية، وقيل: المراد بالفوق حبس المطر، وبالتحت منع الثمرات، وهذا تفسير سلبي، والتعبير عنه بالإرسال تعبير عن الشيء بضده، فإن الإرسال ضد المنع والإمساك والحبس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ولما كان لفظ العذاب في الآية نكرة جاز حمله على كل عذاب يأتي من فوق الرءوس ومن تحت الأرجل، أو من رؤساء الناس أو من تحوتهم، ولولا أن هذا الإبهام مراد لأجل هذا الشمول لصرح بالمراد كما صرح به في مثل قوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ وحكمة مثل هذا الإبهام في القرآن أن ينطبق معنى اللفظ على ما

يدل عليه مما يحدث في المستقبل أو نكشف للناس فيه ما كان خفيا عنهم، إذ ورد في وصف القرآن أنه لا تنتهي عجائبه، وأن فيه نبأ من قبل الذين نزل في زمانهم، ومن كان معهم، ومن يجيء بعدهم.

٦. مثال ما عبر القرآن عنه ولم ينكشف لجمهور الناس انكشافا تاما إلا بعد نزوله بقرون ـ كون الثمار وغيرها أزواجا؛ منها الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ وكانوا يحملون الآيات في ذلك على المجاز ـ وكون الرياح تلقح النبات كما هو صريح قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ وقد جعله بعض مفسري السلف تلقيحا مجازيا كقول ابن مسعود: إنها تلقح السحاب فيدر كما تدر اللقحة، نعم قال ابن عباس وكذا الحسن: تلقح الشجر وتمري السحاب، ولكن هذا القول المقتبس من التنزيل بنور الفهم الصحيح لم يزل خفيا في تفصيله حتى عن العرب الذين كانوا يلقحون النخيل ـ إلى أن اكتشف الناس أعضاء الذكورة والأنوثة في النبات وكونها تثمر بالتلقيح، وكون الرياح تنقل مادة الذكورة من ذكرها إلى أنثاها فتلقحها به، ولما علم الإفرنج بهذا قال بعض المطلعين على القرآن المجيد من المستشرقين منهم: إن أصحاب الإبل ـ يعني العرب ـ قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعرفها أهل أوربة بثلاثة عشر قرنا.

٧. ومثال ما عبر القرآن عنه مما شمل ما لم يكن في زمن تنزيله ولا فيما قبله بحسب ما يعلم البشر ـ هذه الآية التي ظهر تفسيرها في هذا الزمان بهذه الحرب الأوربية التي لم يسبق لها نظير؛ فقد أرسل الله على الأمم عذابا من فوقها بما تقذفه الطيارات والمناطيد من المقذوفات النارية والسموم البخارية والغازية التي لم تعرف قبل هذه الحرب فوق مقذوفات المدافع وغيرها مما كان معروفا قبلها، ولكن بعد تنزيل الآية ـ وعذابا من تحتها بما يتفجر من الألغام النارية، وبما ترسله المراكب الغواصة في البحر التي اخترعت في هذا العصر، ولبسها شيعا متعادية، وأذاق بعضها بأس بعض، فحل بها من التقتيل والتخريب ما لم يعهد له نظير في الأرض، وقد شرحنا هذا في مقالة نشرناها في المنار، ولا شك في أن دلالة الآية على هذه المخترعات مراد؛ لأن الله تعالى منزل القرآن هو علام الغيوب، وفي الحديث المرفوع ما يشير إلى ذلك؛ فقد روى أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ إلى آخرها، فقال: (أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد) ويقويه ما ورد في تطبيقها على أمتنا؛ لأنه سنة الله في أهل الكتاب قبلنا كما يأتي قريبا.

٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي انظر بعين عقلك أيها الرسول ـ ومثله في هذا كل مخاطب بالقرآن ـ كيف نصرف الآيات والدلائل فنجعلها على أنحاء شتى، منها ما طريقه الحس، ومنها ما طريقه العقل، ومنها ما طريقه علم الغيب ـ لعلهم يفقهون الحق، ويدركون كنه الأمر، فإن الفقه هو فهم الشيء بدليله وعلته، المفضي إلى الاعتبار والعمل به، وإنما يرجى تحصيله بتصرف الآيات وتنويع البينات، فعلم مما تقدم أن هذه الآية عامة وإن نزلت في سياق إنذار مشركي مكة وإقامة الحجة عليهم، فالعبرة فيها كغيرها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أو مقتضى السياق، كما تقرر في الأصول.

٩. وقد جهل هذا بعض المعممين فأنكروا علينا منذ أول العهد بإنشاء (المنار) ما كنا نورده في سياق تذكير المسلمين من الآيات التي نزلت في المشركين والمنافقين، ومما يؤيد مسلكنا هذا:

أ. ما رواه البخاري والنسائي في تفسير هذه الآية من حديث جابر قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: (أعوذ بوجهك) قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: (أعوذ بوجهك) ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: (هذا أهون أو هذا أيسر) هذا لفظ البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، ووقع في كتاب الاعتصام منه (هاتان أهون أو أيسر) ـ والشك من الراوي ـ وإنما كانت خصلتا اللبس وإذاقة البأس أهون أو أيسر؛ لأن المستعاذ منه قبلها هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأولين بألا يبقى من الأمة أحد.

ب. ويدل على ذلك أحاديث متعددة؛ منها حديث ابن عباس عند أبي بكر بن مردويه عن النبي ﷺ قال: (دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعا، فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين: دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض، وألا يلبسهم شيعا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع عنهم الخسف والرجم، وأبى أن يرفع الأخريين)

ج. وفي رواية أخرى عنده عنه ـ أي ابن عباس ـ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ قام النبي ﷺ فتوضأ ثم قال: (اللهم لا ترسل على أمتي عذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعا ولا تذق بعضهم بأس بعض) قال: فأتاه جبريل فقال: يا محمد قد أجار الله أمتك أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم، أي: ولم يجرهم من العذابين الآخرين؛ لأنه لا بد أن يتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب، ويحل ما حل بهم من عذاب التفرق والخلاف، وذلك مقتضى سنته تعالى في عقاب

أتباع الرسل، يختلفون في الدين الجامع لكلمتهم فيكونون مذاهب وشيعا، ويتبع ذلك اختلافهم في السلطة والسياسة أو يتقدمه، ويترتب عليه التخاصم والاقتتال الذي نعهده، وهذا معنى قضاء الله في حديث ثوبان الذي يأتي قريبا.

د. وروى أبو الشيخ عن مجاهد في تفسير الآية أن هذا العذاب عذاب أهل الإقرار، وأن العذاب الأول عذاب أهل التكذيب، وأوضح منه ما رواه ابن جرير، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ قام رسول الله ﷺ فتوضأ، فسأل ربه ألا يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم، ولا يلبس أمته شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بني إسرائيل، فهبط إليه جبريل فقال: يا محمد، إنك سألت ربك أربعا، فأعطاك اثنتين، ومنعك اثنتين: لن يأتيهم عذاب من فوقهم ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم، فإنهما عذابان لكل أمة اجتمعت على تكذيب نبيها ورد كتاب ربها، ولكنه يلبسهم شيعا، ويذيق بعضهم بأس بعض، وهذان عذابان لأهل الإقرار بالكتب والتصديق بالأنبياء، ولكن يعذبون بذنوبهم، وأوحى الله إليه ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ يقول من أمتك ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ من العذاب وأنت حي ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ فقام نبي الله ﷺ فراجع ربه، فقال: (أي مصيبة أشد من أن أرى أمتي يعذب بعضها بعضا؟) وأوحي إليه ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾، الآيتين فأعلمه أن أمته لم تخص دون الأمم بالفتن، وأنها ستبتلى كما ابتليت الأمم، ثم أنزل عليه ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فتعوذ نبي الله فأعاذه الله، لم ير من أمته إلا الجماعة والألفة والطاعة، ثم أنزل عليه آية حذر فيها أصحاب الفتنة، فأخبره أنه إنما يخص بها ناسا منهم دون ناس، فقال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فخص بها أقواما من أصحاب محمد ﷺ بعده وعصم بها أقواما.

هـ. وقد وفى الحسن المسألة حقها من البيان بذكر ما يتعلق بها، وإن نزل بعدها بسنين كآية الأنفال الأخيرة، ولكنه لم يبين معنى هذه، وهو بيان سنته تعالى في الفتن، تصاب بها الأمم لا تصيب الذين ظلموا منهم، وكانوا سبب العذاب المترتب عليها خاصة، بل تحل بهم وبمن لم يمنعهم عن الظلم ولو عجزا، بل ظاهر الرواية مخالف لظاهر الآية في هذا، ولعله محرف.

و. ورد في هذا المعنى أحاديث أخرى؛ منها أنه ﷺ دعا ربه ألا يهلك أمته بتسليط عدو عليهم من

غير أنفسهم، ولا بالسنة العامة ـ أي المجاعة والقحط ـ ولا بالغرق، ولا بما عذب به الأمم قبلهم كالريح والصيحة والرجفة، وقد أورد هذه الأحاديث الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور.

١٠. سؤال وإشكال: استشكل هذه الأحاديث العلماء بما ورد من الأحاديث المتعددة من الطرق المختلفة في إثبات وقوع الخسف والمسخ والقذف في هذه الأمة، والجواب: أمثل ما أجابوا به عنها هو أن ما دعا به النبي ﷺ إنما هو عدم هلاك أمته كلها بما ذكر كما هلكت عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، ووقوع شيء من ذلك في بعض الأمة لا ينافي استجابة الدعاء، فإن منه الموت غرقا أو جوعا، وقد وقع لكثير من الأمة حتما.

١١. سؤال وإشكال: ثم حدث لهذه الأمة في الأجيال الأخيرة ما هو أولى بالإشكال، وأحوج إلى مثل هذا الجواب، وهو تسليط الأعداء عليها المعارض لما ورد في هذا الباب وأصحه ما رواه مسلم، من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال: من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا) ورواه أحمد وأصحاب السنن ـ إلا النسائي ـ وغيرهم بزيادة عما هنا، وقد ظهر صدق الرسول ﷺ في بلوغ ملك أمته مشارق الأرض ومغاربها، وفي وقوع بأسهم بينهم، وما زال ملكهم عن أكثر تلك الممالك إلا بتفرقهم، ثم بمساعدتهم للأجانب على أنفسهم، وكم تألبت عليهم الأمم، فلم ينالوا منهم بدون ذلك منالا، وما بقي لهم الآن قليل ضعيف، يتوقع الطامعون الاستيلاء عليه قريبا، ونحن نرجو خذلان الطامعين، وإقامة قواعد استقلالنا على أساس متين، يضمنه تكافل الأمم وحفظها للسلم ولو عشرات من السنين، لعلنا نصير في فرصتها من العالمين العاملين، الذين يحفظون حقيقتهم بأنفسهم، ولا يتكلون على تنازع الطامعين فيهم، فإن هذا اتكال على أمر سلبي لا يدوم لنا، وإن كان هو الذي أبقى لنا هذا القليل الذي ذكرنا، وبقاؤه هو مصداق الحديث على الطريقة المعتمدة في الجواب عن الدعاء برفع

الخسف والقحط والغرق وغيرها في الأحاديث الأخرى، والجواب: يمكن أن يجاب عن حديث ثوبان هذا بجواب آخر غير الذي يؤخذ من جوابهم عن غيره وغير ما أشرنا إليه آنفا في بيان صدقه، وهو أن الله تعالى لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ما داموا مستمسكين بعروة الإيمان الوثقى، وقائمين بحقوقه ومنها الأسباب التي وعدهم الله تعالى النصر ما داموا مستمسكين بها، وقد بينها لهم في كتابه، وتقدم كثير منها فيما مر من التفسير، ويؤيد ذلك حديث آخر عن ثوبان نفسه، قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت) رواه أبو داود في سننه، والبيهقي في دلائل النبوة.

١٢. يسيء كثير من المسلمين تأويل حديثي ثوبان وغيرهما من أحاديث الفتن، ويحملونها على ما يضرهم، وهو ما لم يرده الرسول ﷺ ولا يرضاه لهم، فوجب أن نبين الحق في ذلك؛ فنقول[1]:

أ. إن لأحوال الأمم العامة تأثيرا عظيما في فهم أفرادها لنصوص الدين وغيرها من أقوال الحكماء والشعراء، فهي في حال ارتقائها بالعلم والحكمة وما يثمران من العزة والقوة تكون أصح أفهاما، وأصوب أحكاما، وأكثر اعتبارا وادكارا، وأحسن استفادة واستبصارا، وفي حال فشو الغباوة والجهل، وما ينتجان من الضعف والذل، تكون بالضد من ذلك، وأضرب مثلا لذلك: النصوص والحكم المنظومة والمنثورة في ذم الطمع والحرص على المال وزينة الدنيا، وما يقابلها من تعظيم أمر الآخرة والترغيب في معالي الأمور وبذل المال في سبيل الحق، لم تكن تلك النصوص والحكم والأشعار والأمثال بصادة للأمة في طور حياتها وارتقائها عن الفتح والكسب، وإحراز قصب السبق في جميع ميادين التنازع على السيادة وموارد الرزق، بل كانت هي الحافزة لها إلى ذلك بقصد إعزاز الملة، ورفع شأن الأمة، لذلك كانوا يبذلون تلك الأموال بمنتهى السخاء في سبيل البر وأعمال الخير، ولو حفظ المتأخرون منا ما حبسه من قبلهم من الأوقاف على جميع المصالح العامة وأنواع البر لوجدوا أن جميع ما ملكوه من الأرض كان وقفا بل وقف مرارا؛ لأن

---

(١) تقسيم الفروع هنا ليس منهجيا، وإنما من باب التبسيط فقط

الخلف الصالح صار يحول أوقاف السلف الصالح إلى ملك، حتى كان عم والدي الشيخ النقاد الخبير السيد أحمد أبو الكمال يقول على سبيل المبالغة في هذا المعنى: في كل مائة سنة يتحول كل وقف في طرابلس الشام ملكا، وكل ملك وقفا، كانت تلك النصوص والحكم للأمة في تلك الحياة كالغذاء الصالح للجسم السليم، يزيده قوة، ويحفظ له حياته ويعوضه عن كل ما ينحل منه من الدقائق الميتة مادة حية خيرا منها، ثم صارت في طور الضعف كالغذاء الجيد في الجسم العليل، لا يزيده إلا ضعفا وانحلالا؛ إذ صاروا يفهمون منها أن الكسل والخمول والتواكل والفقر والذل من مقاصد الدين، فصاروا لا يستفيدون منها إلا ضعفا وعجزا، ولا يزدادون مع ذلك إلا حرصا ودناءة وبخلا.

ب. إذا تدبرت هذا المثال فاجعله مرآة لما ورد في الأحاديث النبوية من أنباء مستقبل الأمة الإسلامية، كسعة ملكها في مشارق الأرض ومغاربها ـ أي بالنسبة إلى الحجاز ـ ثم تداعي الأمم عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، ومن تفرقها شيعا ووقوع بأسها بينها، وغير ذلك من أنباء الفتن، وما يكون قبل قيام الساعة من الإحداث والبدع.

ج. ما أصاب الأمة الإسلامية بسوء فهمها لهذه الأحاديث ـ بعد فشو الجهل فيها ـ هو نحو مما أصابها بسوء فهمها لتلك النصوص والحكم التي أشرنا إليها في المثال، وطن جماهير المسلمين أنفسهم منذ قرون على الرضا بجميع الفتن والشرور التي أنبأت الأحاديث بوقوعها في المستقبل، فقعدت هممهم عن القيام بما أمر الله تعالى به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودفع المكروه، والدفاع عن الحق بقدر الاستطاعة، معتذرين لأنفسهم بأن ذلك قدر قد ورد بوقوعه الخبر، فلا مهرب منه ولا مفر، كما يعتذرون لأنفسهم عن ترك مجاراة الأمم العزيزة في أسباب العزة وطرق الثروة بالنصوص والحكم التي وردت في التنفير عن الطمع والجشع وتهوين أمر شهوات الدنيا، والترغيب في معالي الأمر وإيثار الحياة الباقية، ولا حجة لهم في شيء من ذلك، بل لله الحجة البالغة عليهم، وقد بسطنا ذلك مرارا في التفسير وفي غير التفسير.

د. وتراهم مع هذا قد تركوا السعي والعمل لما وعدوا به في الآيات والأحاديث من الخير والسيادة كما كان يسعى ويعمل له سلفهم، ومن تلك الوعود ما لم يأت تأويله ولا بد من إتيانه؛ لأن وعد الله مفعول لا بد منه، كما تركوا العمل بالنصوص الآمرة بالبذل في سبيل الله، مع ادعائهم الأخذ بما ورد في إيثار الآخرة على الدنيا أو احتجاجهم به، وحقيقة الأمر أنهم رزئوا بالجهل والكسل وسقوط الهمة، فهم

بجهلهم يتعبون ويشقون في اتباع أهوائهم والسعي لحظوظهم الشخصية الدنيئة، ولا يفكرون في المصالح العامة، ولا يعقلون وجه ارتباط المنافع الخاصة بها، بل يتركونها زاعمين أنهم قد وكلوا أمرها إلى الله وعملوا بهدي دينه فيها، بل لا يخطر في بال أحد منهم هذا الزعم إلا إذا عذله عاذل أو وبخه موبخ على تفريطه في حقوق أمته وما يجب عليه لملته، فحينئذ يعتذرون بالأقدار، أو بأن الآخرة لهم والدنيا للكفار، وقد ذكرناهم بفساد شبهتهم هذه مرارا ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾

هـ. إن النبي ﷺ لم يخبر أمته بما سيقع فيها من التفرق والشيع، وركوب سنن أهل الكتاب في الإحداث والبدع، وبغير ذلك من أخبار الفتن الخاصة بهم والمشتركة بينهم وبين الأمم - إلا لأجل أن يكونوا على بصيرة في مقاومة ضرها واتقاء تفاقم شرها.. لا لأجل أن يتعمدوا إثارة تلك الفتن والاصطلاء بنارها، والاقتراف لأوزارها، فمثله ﷺ في ذلك كمثل الطبيب الذي يخبر المسافرين إلى أرض مجهولة لهم بما فيها من الأمراض؛ لأجل أن يبذلوا جهدهم في اتقاء وقوعها بهم، ثم في مداواة من يصاب بها منهم، لا لأجل أن يجعلوا أنفسهم عرضة لها بإتيان أسبابها، وتوطين النفس على الهلاك بترك التداوي منها، وقد كان أهل الصدر الأول يفهمون ذلك من النصوص، كما صرحت به عائشة في حديث لعن أهل الكتاب لاتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، فإنها عللته بقولها: يحذر ما صنعوا، وقد صرحت النصوص بالنهي عن التفرق والاختلاف الذي تدهور في تيهوره أهل الكتاب حتى لا نقع فيه على غرارة وجهالة فيكون شره مستطيرا، ولا نهتدي إلى تخفيفه سبيلا (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) ولو أن علماء الصحابة أو التابعين كتبوا في التفسير وشرح الحديث لبينوا لنا ذلك.

و. ولم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما يحفظ به دينها ودنياها، وهو ما لا يغني عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة، والسلم والإجارة، فإن العلم بسنن الله تعالى في عباده، لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، بل هو منه أو من طرقه ووسائله، وقد فطن لهذا بعض حكماء العلماء، فقال أبو حامد الغزالي في بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة من كتاب العلم في الإحياء: (وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته

وأفعاله، وسننه في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته)، ثم فضل أهل هذا العلم على جميع العلماء كالمتكلمين والفقهاء، وأيده في ذلك العز بن عبد السلام إذ استفتي فيه فأفتى بصحته، وبين الغزالي في غير هذا الفصل من فصول الباب الثاني من أبواب العلم أن هذا العلم هو الذي امتاز به عظماء الصحابة.

ز. أما العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله فهو معراج الكمال الإنساني، وأما العلم بسنته تعالى في خلقه فهو وسيلة ومقصد، أعني أنه أعظم الوسائل لكمال العلم الذي قبله، ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء، وإنما يرجى بلوغ كمال الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعا، وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور الله في فطرته وهداية كتابه، وأما أبو حامد فقد لاحظ الوجه الرباني فقط، وإن في سياسة عمر وفي كلامه لدلائل كثيرة على ما ذكرنا من بصيرته في هذا العلم، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهله، وأن يجعله وسيلة لنا لتكميل أنفسنا، وإصلاح ما فسد من أمر أمتنا، آمين.

١٣. إذا تدبرت هذا أيها القارئ، فاعلم أن الاستدلال بما ورد من الأخبار والآثار في تفسير هذه الآية لا يدل هو ولا غيره من أحاديث الفتن والساعة على أن الأمة الإسلامية قد قضي عليها بدوام ما هي عليه الآن من الضعف والجهل ولوازمها كما يزعم الجاهلون بسنن الله، اليائسون من روح الله، بل توجد نصوص أخرى تدل على أن لجوادها نهضة من هذه الكبوة، وأن لسهمها قرطسة بعد هذه النبوة كالآية الناطقة باستخلافهم في الأرض، فإن عمومها لم يتم بعد، وكخبر (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق) رواه أحمد، والشطر الأول منه لم يتحقق بعد، ويؤيده ويوضح معناه ما صح عند مسلم من أن مساحة المدينة سوف تبلغ الموضع الذي يقال له: إهاب، أي أن مساحتها ستكون عدة أميال، فكونوا يا قوم من المبشرين لا من المنفرين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن ذكّر سبحانه المشركين ببعض آياته في أنفسهم وبمننه عليهم، بإنجائهم من الأهوال والكروب التي يشعر بها كل من وقعت له منهم إما بتسخير الأسباب، وإما بدقائق اللطف والإلهام، ذكر هنا قدرته على تعذيبهم، وأبان أن عاقبة كفران النعم، أن تزول وتحل محلها النقم، وأنه يمهل ولا يهمل، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

٢. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك الذين يشركون مع الله سواه، ولا يشكرون نعمه التي أسداها إليهم: إن الله هو القادر على أن يرسل عليكم عذابا تجهلون حقيقته، فيصبّ عليكم من فوقكم، أو يثيره من تحت أرجلكم، أو يلبسكم ويخلطكم فرقا وشيعا على أهواء شتى، كل فرقة تشايع إماما في الدين أو تتعصب لملك أو رئيس، أو يذيق بعضكم بأس بعض فيقتل بعضكم بيد بعض.

٣. وقد ورد في التفسير بالمأثور، أن المراد بالعذاب من فوق الرجم من السماء والطوفان كما وقع لبعض الأمم القديمة، وبالعذاب من تحت: الخسف والزلازل المعهودة قديما وحديثا، وروى عن ابن عباس أن المراد بمن فوقكم أي من أمرائكم، ومن تحت أرجلكم أي عبيدكم وسفلتكم، ولا شك أن لفظ العذاب مبهم قصد به هذا الإبهام لأجل الشمول، فيطلق على ما يدل عليه اللفظ مما يحدث في المستقبل أو ينكشف للناس فيه ما كان خفيا عنهم، فالقرآن لا تفنى عجائبه، وفيه نبأ من قبل ونبأ من كان في زمن التنزيل ونبأ من سيجيء بعدهم.

٤. فهذه الآية ظهر تفسيرها بأجلى برهان في هذه الحروب في العصر الحديث مما لم يسبق له نظير ولم يكن البشر على علم منه، فقد أرسل الله فيها على الأمم المحاربة عذابا من فوقها بما تقذفه الطائرات والمطاود وقاذفات القنابل التي تحمل كل منها الآلاف المؤلفة من المواد المتفجرة من الحديد والمعادن الأخرى المهلكة، ومن المواد المحرقة، وصارت تمشى آلاف الأميال لتصل إلى أهدافها المقصودة فتخرب المدن والقرى، وتجعل عاليها سافلها، بما تصب فيها من عل، من الحمم المتّقدة والنيران المشتعلة، حتى

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٥٣.

ليراها الرائي كأنها بركان ثائر يريد أن يبتلع من حوله ويلتهم جميع ما فوق سطح الأرض، وكذلك مقذوفات المدافع البعيدة المدى التي تطلق قناطير من أفواهها وترسله من فوق من مواد قاتلة مما لم يعرف الناس له نظيرا من قبل، وكذلك يأتيها العذاب من تحتها بما تحدث السفن الغواصة في البحار بما ترسله من (الطور بيد) الحامل للقناطير المقنطرة من مختلف المعادن وتتحين به الفرص لمقابلة سفن العدو فتصبه عليها صبا، وتهلك به مختلف السفن ولا تقوى على النجاة منها مهما عظم حجمها ودقّ صنعها بل لا بد أن تهوى في قاع البحار إذا قدر لها أن تصاب به، فكم من سفينة غرقت، وكم من روح زهق به وأصبح طعاما للسمك وحيوان البحر.

٥. وكذلك جعل أمم أوربا شيعا متعادية، وأذاق بعضها بأس بعض فحلّ بها من التقتيل والتخريب ما لو لم نره بأعيننا ونسمع عنه الأحاديث المستفيضة التي لا تقبل شكا ولا ريبا ـ لكنا في موضع الشك فيه، لغرابته وشدة هوله وذهول الناس حين رؤيته، فترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنهم من الذعر وشدة الخطب حيارى، لا يدرون ماذا هم فاعلون، ولا أيّ مكان يسلكون؛ ليتقوا ذلك الهلاك المحقق، والعذاب الذي لا بد واقع بهم إلا من رحم الله، روى أحمد والترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: (سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ـ قل هو القادر إلخ ـ فقال: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد)

٦. روى البخاري والنسائي من حديث جابر قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: (أعوذ بوجهك) قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: (أعوذ بوجهك) ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: (هاتان أهون أو أيسر))، وإنما كانت هاتان أهون أو أيسر لأن المستعاذ منه قبلهما هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين حتى لا يبقى من الأمة أحد، وروى مسلم من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله زوى (جمع) لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربى لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، (كالمجاعة والقحط والغرق والصيحة والرجفة والريح الصرصر) وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، (عزتهم ومستقر ملكهم) وإن ربى قال يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلّط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون

بعضهم يهلك بعضا ويسبى بعضهم بعضا)، وقد ظهر صدق الرسول ﷺ في بلوغ ملك أمته مشارق الأرض ومغاربها وفى وقوع بأسهم بينهم، وما زال ملكهم عن أكثر تلك الممالك إلا بتفرقهم ثم بمساعدتهم للأجانب على أنفسهم، وكم تألبت عليهم الأمم فلم ينالوا منهم بدون ذلك منالا، وما بقي لهم الآن إلا القليل الذي يطمع فيه الطامعون.

٧. ومن هذا نعلم أن الله لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ما داموا مستمسكين بها، يرشد إلى ذلك أن رسول الله ﷺ قال: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: من قلة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفنّ في قلوبكم الوهن، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت) رواه أبو داوود والبيهقي.

٨. ثم طلب منه النظر فيما لديه من الحجج والبينات فقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي تأمل بعين بصيرتك أيها الرسول كيف نصرف الآيات والدلائل ونتابعها على أنحاء شتى: منها ما طريقه الحس، ومنها ما طريقه العقل، ومنها ما سبيله علم الغيب، لعلهم يفقهون الحق ويدركون الحقائق بأسبابها وعللها التي تفضى إلى الاعتبار والعمل بها، وأقرب الوسائل إلى تحصيل ذلك تصريف الآيات واختلاف الحجج والبينات، وبذا يتذكرون ويزدجرون عما هم عليه مقيمون من التكذيب بكتابنا ورسولنا، وانكبابهم على عبادة الأوثان والأصنام.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. هنا يواجههم ببأس الله الذي قد يأخذهم بعد النجاة! فما هي مرة وتنتهي، ثم يفلتون من القبضة كما يتصورون: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.. وتصور العذاب الغامر من فوق، أو النابع من تحت، أشد وقعا في النفس من تصوره آتيا عن يمين أو شمال، فالوهم قد يخيل للإنسان

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١١٢٥.

أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال! أما العذاب الذي يصب عليه من فوق، أو يأخذه من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات معه! والتعبير الموحي يتضمن هذا المؤثر القوي في حس الإنسان ووهمه، وهو يقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء.

٢. ويضيف إلى ألوان العذاب الداخلة في قدرة الله؛ والتي قد يأخذ العباد بها متى شاء؛ لونا آخر بطيئا طويلا؛ لا ينهي أمرهم كله في لحظة؛ ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، وهي صورة من العذاب المقيم الطويل المديد؛ الذي يذوقونه بأيديهم، ويجرعونه لأنفسهم؛ إذ يجعلهم شيعا وأحزابا، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض، ولا يفاصل بعضها بعضا، فهي أبدا في جدال وصراع، وفي خصومة ونزاع، وفي بلاء يصبه هذا الفريق، على ذاك..

٣. ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب، كلما انحرفت عن منهج الله؛ وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم.. تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور، وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعا وشرائع وقوانين وقيما وموازين من عند أنفسهم؛ يتعبد بها الناس بعضهم بعضا؛ ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر، والبعض الآخر يأبى ويعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض، وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم، فيذوق بعضهم بأس بعض، ويحقد بعضهم على بعض، وينكر بعضهم بعضا، لأنهم لا يفيئون جميعا إلى ميزان واحد؛ يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكبارا عن الخضوع له، ولا يحس في نفسه صغارا حين يخضع له.

٤. إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم، ثم يزاول هذا الحق فعلا! إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعا ملتبسة؛ لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعا واحدا، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيدا لبعض؛ ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها ـ لأنها غير مقيدة بشريعة من الله ـ ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص.. ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض! وهم شيع؛ ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة! والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد! وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة

في الأرض، وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها ـ والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية ـ وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها؛ باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهلية، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

٥. إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديا وشعوريا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها ـ حتى يأذن الله لها بقيام (دار إسلام) تعتصم بها ـ وإلا أن تشعر شعورا كاملا بأنها هي (الأمة المسلمة) وأن ما حولها ومن حولها، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه، جاهلية وأهل جاهلية، وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج؛ وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين.

٦. فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة، ولم تتميز هذا التميز، حق عليها وعيد الله هذا، وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع، ولا تتبين نفسها، ولا يتبينها الناس مما حولها، وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد؛ دون أن يدركها فتح الله الموعود! إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات.. غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها..

٧. ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره، وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم.. لم يقع في مرة واحدة، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة ـ أي الدين ـ وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها ـ أي نظام حياتها ـ وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعا.

٨. وطريق هذه الدعوة واحد، ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهود رسل الله جميعا، صلوات الله عليهم وسلامه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.. والله نسأل أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، فالله الرحمن الرحيم، هو منتقم شديد العقاب.. قادر على أن يبعث على هؤلاء المشركين المحادّين لله ورسوله، صواعق مهلكة من السماء، أو بحارا مغرقة من الأرض، أو أن يلبسهم شيعا، أي يجعلهم أهواء متفرقة، ومذاهب متقاتلة، يضرب بعضهم بعضا، ويذيق بعضهم بأس بعض.

٢. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي يخلطكم شيعا وفرقا، حتى ليكاد يلبس بعضكم بعضا، كما يلبس الجسد الثوب، مع تفرقكم مشاعر وعواطف ونزعات.. وهذا هو البلاء، أعظم البلاء، يصاب به مجتمع، يحويه مكان واحد، وحياة واحدة.. وإنه لا نعمة أعظم من نعمة الألفة بين قلوب الجماعة، تلك الألفة التي تجمعها على الحب والمودة والرحمة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

٣. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، إلفات لكل ذي عقل أن ينظر إلى هذه الآيات التي تكشف عن جلال الله، وقدرته، وعلمه وحكمته، والتي يجلّيها في معارض شتّى، بحيث يرى منها كل ذي نظر، وجه الحق، ويتعرف طريقه إلى الله.. وما ذلك إلا ليتنبه هؤلاء الغافلون، ويفقه أولئك الجاهلون.. لعلّ لمعة من لمعات الهدى والإيمان، تضيء ظلام عقولهم، وتكشف ضلال قلوبهم.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ كالصواعق والطوفان ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالخسوف والزلازل ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي يخلطكم أو يجعلكم أحزابا متطاحنة لا تقوم لكم معها قائمة، أو يجعل الواحد منكم في حرب وخصام مع نفسه يرضى مساء عما غضب عليه صباحا، وبالعكس، فتضطرب حاله، ولا يستقيم له أمر.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ٢٠٧.

(٢) التفسير الكاشف: ٣/ ٢٠٥.

٢. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي يقتل بعضكم بعضا ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، أن الله سبحانه يقيم للناس الحجج والدلائل الواضحة على الحق من الحس والعقل والوجدان، ويضرب الأمثال من هذه بشتى الأساليب، ليعرفوا الحق فيتبعوه، والباطل فيجتنبوه، ومن خالف قامت عليه الحجة، واستحق العذاب.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، استئناف ابتدائي عقّب به ذكر النعمة التي في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ بذكر القدرة على الانتقام، تخويفا للمشركين، وإعادة فعل الأمر بالقول مثل إعادته في نظائره للاهتمام المبيّن عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]، والمعنى قل للمشركين، فالمخاطب بضمائر الخطاب هم المشركون، والمقصود من الكلام ليس الإعلام بقدرة الله تعالى فإنّها معلومة، ولكن المقصود التهديد بتذكيرهم بأنّ القادر من شأنه أن يخاف بأسه فالخبر مستعمل في التعريض مجازا مرسلا مركّبا، أو كناية تركيبية، وهذا تهديد لهم، لقولهم ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

١. وتعريف المسند والمسند إليه أفاد القصر، فأفاد اختصاصه تعالى بالقدرة على بعث العذاب عليهم وأنّ غيره لا يقدر على ذلك فلا ينبغي لهم أن يخشوا الأصنام، ولو أرادوا الخير لأنفسهم لخافوا الله تعالى وأفردوه بالعبادة لمرضاته، فالقصر المستفاد إضافي، والتعريف في ﴿الْقَادِرُ﴾ تعريف الجنس، إذ لا يقدر غيره تعالى على مثل هذا العذاب.

٢. والعذاب الذي من فوق مثل الصواعق والريح، والذي من تحت الأرجل مثل الزلازل والخسف والطوفان.

٣. و﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ مضارع لبسه ـ بالتحريك ـ أي خلطه، وتعدية فعل ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ إلى ضمير الأشخاص بتقدير اختلاط أمرهم واضطرابه ومرجه، أي اضطراب شئونهم، فإنّ استقامة الأمور تشبه

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٤٧.

انتظام السلك ولذلك سمّيت استقامة أمور الناس نظاما، وبعكس ذلك اختلال الأمور والفوضى تشبه اختلاط الأشياء، ولذلك سمّي مرجا ولبسا، وذلك بزوال الأمن ودخول الفساد في أمور الأمّة، ولذلك يقرن الهرج وهو القتل بالمرج، وهو الخلط فيقال: هم في هرج ومرج، فسكون الراء في الثاني للمزاوجة.

٤. وانتصب ﴿شِيَعًا﴾ على الحال من الضمير المنصوب في ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾، والشيع جمع شيعة ـ بكسر الشين ـ وهي الجماعة المتّحدة في غرض أو عقيدة أو هوى فهم متّفقون عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، وشيعة الرجل أتباعه والمقتدون به قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣] أي من شيعة نوح، وتشتّت الشيع وتعدّد الآراء أشدّ في اللبس والخلط، لأنّ اللبس الواقع كذلك لبس لا يرجى بعده انتظام.

٥. وعطف عليه ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ لأنّ من عواقب ذلك اللبس التقاتل، فالبأس هو القتل والشرّ، قال تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، والإذاقة استعارة للألم، وهذا تهديد للمشركين كما قلنا بطريق المجاز أو الكناية، وقد وقع منه الأخير فإنّ المشركين ذاقوا بأس المسلمين يوم بدر وفي غزوات كثيرة.

٦. في (صحيح البخاري) عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول ﷺ: أعوذ بوجهك، قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال أعوذ بوجهك قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله: هذا أهون، أو هذا أيسر.. واستعاذة النبي ﷺ من ذلك خشية أن يعمّ العذاب إذا نزل على الكافرين من هو بجوارهم من المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وفي الحديث قالوا: (يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث) في الحديث الآخر (ثم يحشرون على نيّاتهم)، ومعنى قوله: هذه أهون، أنّ القتل إذا حلّ بالمشركين فهو بيد المسلمين فيلحق المسلمين منه أذى عظيم لكنّه أهون لأنّه ليس فيه استئصال وانقطاع كلمة الدين، فهو عذاب للمشركين وشهادة وتأييد للمسلمين، وفي الحديث: (لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية)، وبعض العلماء فسّر الحديث بأنّه استعاذ أن يقع مثل ذلك بين المسلمين، ويتّجه عليه أن يقال: لماذا لم يستعذ الرسول ﷺ من وقوع ذلك بين المسلمين، فلعلّه لأنه أوحي إليه أنّ ذلك يقع في المسلمين، ولكن الله وعده أن لا يسلّط عليهم عدوّا من غير أنفسهم.

٧. وليست استعاذته بدالة على أنّ الآية مراد بها خطاب المسلمين كما ذهب إليه بعض المفسّرين، ولا أنّها تهديد للمشركين والمؤمنين، كما ذهب إليه بعض السلف؛ إلّا على معنى أنّ مفادها غير الصريح صالح للفريقين لأنّ قدرة الله على ذلك صالحة للفريقين، ولكن المعنى التهديدي غير مناسب للمسلمين هنا، وهذا الوجه يناسب أن يكون الخبر مستعملا في أصل الإخبار وفي لازمه فيكون صريحا وكناية ولا يناسب المجاز المركّب المتقدّم بيانه.

٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، استئناف ورد بعد الاستفهامين السابقين، وفي الأمر بالنظر تنزيل للمعقول منزلة المحسوس لقصد التعجيب منه، وقد مضى في تفسير قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ في سورة النساء، وتصريف الآيات تنويعها بالترغيب تارة والترهيب أخرى، فالمراد بالآيات آيات القرآن، وتقدّم معنى التصريف عند قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ في هذه السورة.

٩. و﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ استئناف بياني جواب لسؤال سائل عن فائدة تصريف الآيات، وذلك رجاء حصول فهمهم لأنّهم لعنادهم كانوا في حاجة إلى إحاطة البيان بأفهامهم لعلّها تتذكّر وترعوي، وتقدّم القول في معنى (لعلّ) عند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في سورة البقرة، وتقدّم معنى الفقه عند قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ في سورة النساء.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بعد أن بين سبحانه وتعالى كمال سلطانه في النعم يمنحها ليرغبوا في الإيمان والإذعان، ذكر سبحانه قوته في القهر والعذاب.

٢. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، بعد بيان قدرته على كشف الكروب بين سبحانه وتعالى قدرته على إنزال الشدائد؛ جزاء لهم بما كسبت أيديهم، فهو كاشف الضر، وهو منزل العذاب، كل يسير على مقتضى حكمته، وعلى ما يصلح به الإنسان، ويستقيم عليه أمر العالم كما قدر رب

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٥٣٤.

العالمين: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد]

٣. سؤال وإشكال: لماذا أمر الله تعالى نبيه في التنبيه إلى ضعفهم، وقدرته سبحانه وتعالى، وصدر الكلام بكلمة ﴿قُلْ﴾ في بيان ضعفهم، واستجابته لضراعتهم، واستعلائه بقدرته عليهم؟ والجواب: فيما يبدو: إن تصدير الكلام بـ (قل) فيه تنبيه؛ فضل تنبيه، وفيه بيان مقام النبي ﷺ أنه هو الصلة بينهم وبين ربهم، وأنه المبعوث إليهم من قبله، وأنه هو الذى يخاطبهم عنه سبحانه في كشف الضر عنهم، ورفع الغمة إن نزلت بهم، وهو منذرهم بالعذاب الشديد.

٤. سؤال وإشكال: الخطاب هنا لمن؟ أهو للمشركين فقط الذين وعدوا بالشكر ثم أشركوا؟ أم هو خطاب للناس أجمعين؟ والجواب: ظاهر السياق هو الأول لأنه الخطاب، ولكن موضوع الخطاب يعم، ولا يخص المشركين، ولأن مفسري السلف والآثار الواردة عن الرسول ﷺ تومئ إلى أن المؤمنين يدخلون في عموم الخطاب، وإنا نميل إلى هذا العموم.

٥. والنص الكريم يفيد عموم العقاب؛ لأن العذاب الذى ينزل من فوق يعم الجميع، كذلك العذاب الذى يجيء من تحت الأرجل يجيء عاما لا خاصا، فإذا كانت صواعق، أو إعصار شديد وصواعق، أو سيل عارم كل هذا يعم ولا يخص، وكذلك الخسف الذى تمور به الأرض مورا، والزلازل المدمرة، والبراكين الحارقة كل هذا يعم ولا يخص ينزل بالمؤمنين مع الكافرين، وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الأمور بعبارتين جديرتين بالنظر فيهما:

أ. أولاهما: التعبير بـ ﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾، فإن البعث معناه الإثارة، وعبر بيبعث للإشارة إلى أن الله تعالى هو الذى يثير عليهم ذلك العذاب وعبر بـ (يبعث) بدل ينزل عليهم، لأن البعث والإثارة تعنى أن النزول يكون من عل، ولأن البعث والإثارة فيهما معنى الإيجاد لما ليس بموجود.

ب. ثانيتهما: التعبير عن ذلك بكلمة ﴿عَذَابًا﴾ ففيها الإشارة إلى أنه في معنى الجزاء على بنيان واقع، أو أن الذين نزل بهم أكثرهم يستحقون، وهو على أية حال أمر مقصود.

٦. وقد أشار الله تعالى في آيات أخرى إلى أن الكوارث قد تكون عقابا على ذنوب سلفت، أو طغيان استحكم كقوله تعالى فيمن ينفقون من غير إيمان: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل

عمران]، ومثل قوله فيما نزل بقارون وداره في حال طغيانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص]، إلى أن قال سبحانه عنه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُوحَظٍّ عَظِيمٍ وقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ولا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنا بِهِ وبِدارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص]، فدلت هذه النصوص على أن الله تعالى ينزل عذابا كونيا، لغرور أو طغيان أو فسق عن أمر ربهم.

٧. وقد ذكر سبحانه وتعالى أنواعا ثلاثة من العذاب الذى يبعثه:

أ. الأول والثاني أن يبعث عذابا من فوق أو من تحت، ﴿أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾:

• ومعنى العذاب الذى ينزل من فوق، أطلقه الكثيرون من العلماء على ما ينزل من السماء؛ ببعث وإثارة من الله من صواعق وإعصار وريح فيها صرّ، وحاصب من السماء، وحجارة من سجّيل تجعلهم كعصف مأكول، وغير ذلك مما ينزل الله من عل، والعذاب الذى يكون من تحت الأرجل مما يكون من الأرض التي يفترشونها من خسف في الأرض وميد فيها، وبراكين وزلازل، وغير ذلك من آفات الأرض التي تقرض الزرع.

• وعبر عما يجيء من الأرض بقوله تعالى: ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ وذلك للإشارة إلى قربه الشديد منهم، وإلى أنه يكون في مقام استقرارهم، فيكون ميد الأرض من تحت أقدامهم حيث هم مستقرون فيها، وللإشارة إلى أنهم أول من يصابون بهذا العذاب، ولا منجاة منه، إلا أن يكون لله تعالى في منجاتهم إرادة.

• وروى عن ابن عباس أنه فسر العذاب من فوقهم بفوقية معنوية، وهم الأئمة المفسدون، والحاكمون العابثون، ومن هم تحت أرجلهم بالرعاع الأقربين يهرفون بما لا يعرفون ويتبعون كل ناعق يدعو إلى هواه ويقفون على ما يريد، فعلى هذا النظر تكون الفوقية والتحتية ليست حسية، وإن لذلك الكلام وجها من الحقيقة، فإن أشد ما تصاب به الأمم أن تتحكم فيهم أئمة الفساد، وأن يجدوا تابعا من الذين لا يعرفون كيف يرادون، أعلى الخير أم على الشر، وعلى ورد الماء العذب الذى يسقى النفوس، أم على مناقع

الأوباء الخلقية والاجتماعية، فإن ذلك يفنى الأمم في وحدتها واجتماعها، وإن تخريب السماء وتخريب الأرض يسرع تعويضه، وإقامة بديل له، أما تخريب النفوس وإشاعة الرذيلة فلكى تخرج الأمة منه لا بد من تبديل الأقوام وتغيير واستبدال نفوس بنفوس، وذلك يحتاج إلى زمن طويل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد]

• وإني أرى أن العذاب الذى ينزل من فوق، والذى يجيء من تحت الأرجل، كلا الأمرين يشمل الحسى، ويشمل المعنوي بولاة السوء، وتحكم السفلة ومن لا يفقهون، ويتبعون كل ناعق، ولا يميزون بين الخبيث وغيره، لا على أن ذلك من الجمع بين الحقيقة والمجاز، بل على أن ذلك تفسير لكلمة العذاب، بما يعم ولا يخص حسيا أو معنويا.

ب. النوع الثالث من العذاب الذى تصاب به الأمم، وهو الداء العضال الذى أصاب أهل الإسلام، هو التفرق والتباين ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، هذا عذاب للأمم، يحل وحدتها، وينثر جمعها، وهو أشد أنواع العذاب، عندما يتفاقم، ويكون الهوى المتبع، والشح المطاع وإعجاب كل امرئ وكل جماعة بنفسها وطريقتها ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون] فعندئذ تنفك العرا، وتنحل الأواصر، ويقوم المنكر، ويذهب المعروف، ولا سماع لصوت الحق.

٨. و﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ المذكورة في الآية من لبس بفتح الباء يلبس، وهي تتضمن معانى ثلاثة:

أ. أولها: الستر، فالحقائق تستر عمن يلبّس عليه، فلا يراها.

ب. ثانيها: الخلط، فيختلط الحق بالباطل، والذين يقعون في هذا اللبس (يلبسون الحق بالباطل) فلا يكون وضوح يفرق بين الحق والباطل.

ج. ثالثها: وجود غشاوة على القلوب تحجب عنها بسبب التعصب لما يعتقده، فيزين له سوء عمله، فيراه حسنا، ويرين على قلبه فلا يدرك.

٩. ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ شيع هنا حال، أي يخلطكم حال تشيع جماعتكم، فتكون كل جماعة شيعة قائمة بذاتها منفصلة عن سواها ـ وأصل كلمة شيعة من شيعت النار بالحطب: قويتها، فالشيعة من يتقوى بها في حدة وحرارة، وينتشرون عنها منادين بها، وقد تستعمل في معنى التجمع للخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص] ولكن

كثيرا ما تكون في التشيع لغير الحق، وما يكون فيه تعصب شديد فتكون كأنها وقود يقوى النيران؛ نيران الحقد والحسد والبغضاء.

١٠. ومعنى الجملة السامية ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أنه سبحانه يخلطكم، وتلتبس الأمور، ولا تميزون بين الخبيث والطيب، وتكونون قوما بورا، وذلك الضلال يصحبه انقسامكم شيعا متفرقين توقد بينكم نيران البغضاء والعداوة، وتفترقون فيما بينكم، فلا تكونون أمة واحدة تجمعها وحدة جامعة، ولكن تكون طرائق متفرقة، وأخلاطا غير متجانسة ولا متمازجة، ولا تكون العلاقة فيها مودة واصلة ورحمة عاطفة، بل تكون العداوة المستحكمة، كل شيعة تتربص بالأخرى الدوائر في غير هوادة، ولا نفوس قارة، بل في نفوس فاترة.

١١. وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي تكون العلاقة أن يذوق كل جماعة شدة الجماعة الأخرى، أي يكون بأسهم بينهم شديدا، فقوتهم تكون على أنفسهم، ولا تكون على غيرهم، وعبر سبحانه عن البغضاء والعداوة بأن يذيق بعضهم بأس بعض، وذلك تصوير بياني يشبه الإصابة بالبأس بذوقه واستطعامه للإشارة إلى أنهم يستطعمون العداوة بينهم، ويستطيبون البأس الشديد الذى يحكمهم كمن يستطيب طعاما شهيا، وذلك ينبئ عن فساد أمرهم، واضطراب حالهم، وقلب طباعهم، حتى إنهم يستمرءون العداوة كأنها طعام مريء.

١٢. إن كل بلاء يهون إلا بلاء التشيع، وقد ابتلى الله تعالى به أهل الإيمان روت الصحاح بآثار متضافرة أن أمة محمد ﷺ ستبتلى بهذا البلاء، روى ابن جرير أن النبي ﷺ قال: (إن الله زوى لي الأرض، حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وإني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربى ألا يهلك قومي بسنة عامة (أى بأزمة وجوع) وألا يلبسهم شيعا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد: إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكوهم بعامة، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، وبعضهم يقتل بعضا وبعضهم يسبى بعضا) فقال النبي ﷺ: (إنى أخاف على أمتي الأئمة الضالين، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة)، اللهم إن هذه دلائل، قد رأيناها، وأضلنا الضالون من الأئمة، حتى صار بعضنا يأكل بعضا، اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا، وأجرنا من شر ذنوبنا، وعواقب

أعمالنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم.

١٣. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، يأمر الله تعالى نبيه بأن ينظر في تصريف الله تعالى آياته البينات، وهو توجيه لما في القرآن الكريم من توجيه حكيم، وإعجاز يتحدى به الإنسانية كلها، فالسورة كلها تصريف في التوجيه، وفى كل بيان جده.

١٤. نبه الله تعالى إلى علمه المحيط الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فهو يعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، وهو الذى يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، وهو الذى يرد إليه الأمر كله، ثم بين أنه وحده الذى يلجأ إليه المشركون، إذا اشتدت الشديدة، وحلت الكريهة، وهو القادر على أن ينزل إليهم البلاء، ويذيقهم كؤوس الاختبار.

١٥. هذا تصريف في القول المحكم الصادق ليدركوا الأمور على وجوهها بعد أن يوجهوا إليها، رجاء أن يفقهوا ويدركوا، فالرجاء هنا في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ هو في حالهم إذا كانوا يعتبرون، وفيما هو من شأن ذلك التصريف في القول الحكيم، ويفقهون معناها يدركون لب الحقائق، وتنفذ بصائرهم إليها، والله سبحانه هو الحكيم الخبير العليم.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال الراغب في المفردات: (أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فبعثت البعير أثرته وسيرته، وقوله عز وجل: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة إلى أن قال: فالبعث ضربان: بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة، وإلهي وذلك ضربان: أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس وذلك يختص به الباري تعالى ولم يقدر عليه أحد، والثاني إحياء الموتى وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السلام وأمثاله)

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١٣٦

٢. وبالجملة في لفظه شيء من معنى الإقامة والإنهاض، وبهذه العناية يستعمل في التوجيه والإرسال لأن التوجيه إلى حاجة والإرسال نحو قوم يكون بعد سكون وخمود غالبا، وعلى هذا فبعث العذاب لا يخلو من إشعار على أنه عذاب من شأنه أن يتوجه إليهم ويقع بهم، وإنما يمنع عن هذا الاقتضاء مانع كالإيمان والطاعة، وللكلام تتمة سنوافيك.

٣. وقال في المجمع: (لبست عليهم الأمر ألبسه إذا لم أبينه وخلطت بعضه ببعض ولبست الثوب ألبسه، واللبس اختلاط الأمر واختلاط الكلام، ولابست الأمر خالطته، والشيع الفرق، وكل فرقة شيعة على حدة، وشيعة فلان تبعته، والتشيع الاتباع على وجه التدين والولاء)، وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ أن يضرب البعض بالبعض ويخلط حال كونهم شيعا وفرقا مختلفة.

٤. ﴿قُلْ هُوَ اَلْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ظاهره إثبات القدرة لله سبحانه على بعث العذاب عليهم من فوق أو من تحت، والقدرة على الشيء لا تستلزم فعله، وهو أعني إثبات القدرة على الفعل الذي هو العذاب كاف في الإخافة والإنذار لكن المقام يعطي أن المراد ليس هو إثبات مجرد القدرة بل لهم استحقاق لمثل هذا العذاب، وفي العذاب اقتضاء أن ينبعث عليهم إن لم يجتمعوا على الإيمان بالله وآياته كما مر من استفادة ذلك من معنى البعث، ويؤيده قوله بعد: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإنه تهديد صريح.

٥. على أنه تعالى يهدد هذه الأمة صريحا بالعذاب في موارد مشابهة لهذا المورد من كلامه كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي ورَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ومَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الآيات (يونس: ٤٧ ـ ٥٣) وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخر الآيات: (الأنبياء: ٩٣ ـ ٩٧) وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ إلى أن قال: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ مِنَ اَلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً﴾ إلى آخر الآيات: (الروم: ٣٠ ـ ٤٥)

٦. وقد قيل: إن المراد بالعذاب الذي من فوقهم هو الصيحة والحجارة والطوفان والريح كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط، وبالذي من تحت أرجلهم الخسف كما فعل بقارون، وقيل: إن المراد بما من فوقهم العذاب الآتي من قبل كبارهم أو سلاطينهم الجبابرة وبما من تحت أرجلهم ما يأتيهم من قبل

سفلتهم أو عبيدهم السوء، وقيل: المراد بها من فوق وبها من تحت الأسلحة النارية القتالة التي اخترعها البشر أخيرا من الطيارات والمناطد التي تقذف القنابل المحرقة والمخربة وغيرها ومراكب تحت البحر المغرفة للسفائن والباخرات فإن الإنذار إنما وقع في كلامه تعالى وهو أعلم بما كان سيحدث في مملكته، والحق أن اللفظ مما يقبل الانطباق على كل من المعاني المذكورة وقد وقع بعد النزول ما ينطبق عليه اللفظ، والمحتد الأصلي لهذه الوقائع الذي مهد لها الطريق هو اختلاف الكلمة والتفرق الذي بدأت به الأمة وجبهت به النبي ﷺ فيما كان يدعوهم إليه من الاتفاق على كلمة الحق، وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم.

٧. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ظاهره أنه أريد به التحزبات التي نشأت بعد النبي ﷺ، فأدى ذلك إلى حدوث مذاهب متنوعة ألبست لباس العصبية والحمية الجاهلية واستتبعت حروبا ومقاتل يستبيح كل فريق من غيره كل حرمة ويطرده بمزعمته من حرمة الدين وبيضة الإسلام.

٨. وعلى هذا فقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ﴾، عذاب واحد لا عذابان وإن أمكن بوجه عد كل من إلقاء التفرق في الكلمة وإذاقة البعض بأس بعض عذابا مستقلا برأسه فللتفرقة بين الأمة أثر سوء آخر وهو طرو الضعف ونفاد القوة وتبعض القدرة لكن المأخوذ في الآية المعدود عذابا أعني قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ﴾، حينئذ بالنسبة إلى مجرد إلقاء الاختلاف بمنزلة المقيد بالنسبة إلى المطلق، ولا يحسن مقابلة المطلق بالمقيد إلا بعناية زائدة في الكلام، على أن العطف بواو الجمع يؤيد ما ذكرناه.

٩. فبالجملة معنى الآية: قل يا رسول الله مخاطبا لهم منذرا لهم عاقبة استنكافهم عن الاجتماع تحت لواء التوحيد واستماع دعوة الحق إن لشأنكم هذا عاقبة سيئة في قدرة الله سبحانه أن يأخذكم بها وهو أن يبعث عليكم عذابا لا مفر لكم منه ولا ملاذ تلوذون به وهو العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو أن يضرب بعضكم ببعض فتكونوا شيعا وفرقا مختلفين متنازعين ومتحاربين فيذيق بعضكم بأس بعض.

١٠. ثم تمم البيان بقوله خطابا لنبيه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، والمعنى ظاهر.

١١. آثار وتعليقات:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: السلاطين الظلمة ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ العبيد السوء ومن لا خير فيه قال: وهو المروي عن أبي عبد الله

عليه السلام، وقال في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ قيل: عنى به يضرب بعضكم ببعض بما يلقيه بينكم من العداوة والعصبية وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ب. وقال في قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قيل: هو سوء الجوار وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. وفي تفسير القمي: وقوله: ﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: السلطان الجائر ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: السفلة ومن لا خير فيه ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ قال: العصبية ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال سوء الجوار.

د. قال القمي: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: هو الدخان والصيحة ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال قال: وهو الخسف ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ وهو اختلاف في الدين وطعن بعضكم على بعض ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وهو أن يقتل بعضكم بعضا فكل هذا في أهل القبلة يقول الله: ﴿ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾

هـ. وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري والترمذي والنسائي ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هذا أهون أو أيسر، وروي أيضا ما يقرب منه عن ابن مردويه عن جابر.

و. وفيه أخرج أحمد والترمذي وحسنه ونعيم بن حماد في الفتن وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ: في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال النبي ﷺ: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد.

ز. وهناك روايات كثيرة مروية من طرق أهل السنة وروايات أخرى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن ما أوعده الله في الآية من العذاب النازل من فوقهم ومن تحت أرجلهم

أعني الصيحة والخسف سيقع على هذه الأمة، وأما لبسهم شيعا وإذاقة بعضهم بأس بعض فوقوعه مفروغ عنه.

ح. وقد روى السيوطي في الدر المنثور، وابن كثير في تفسيره أخبارا كثيرة دالة على أنه لما نزلت الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخرها استعاذ النبي ﷺ إلى ربه ودعاه أن لا يعذب أمته بما أوعدهم من أنواع العذاب فأجابه ربه إلى بعضها ولم يجبه إلى بعض آخر وهو أن لا يلبسهم شيعا ولا يذيق بعضهم بأس بعض، وهذه الروايات ـ على كثرتها ـ وإن اشتملت على القوية والضعيفة من حيث أسنادها موهونة جميعا بمخالفتها لظاهر الآية فإن قوله تعالى في الآيتين التاليتين: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد صريح بالوقوع وقد نزلت الآيات وهي من سورة الأنعام دفعة وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبلغ ذلك أمته ولو كان هناك بداء برفع البلاء لكان من الواجب أن نجده في كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس من ذلك أثر بل الأمر على خلافه كما تقدم في البيان السابق أن عدة من آيات القرآن الكريم تؤيد هذه الآيات في مضمونها كالتي في سورة يونس والروم وغيرهما، على أنها تعارض روايات أخر كثيرة من طرق الفريقين دالة على وقوع ذلك ونزوله على الأمة في مستقبل الزمان.

ط. على أن هذه الروايات ـ على كثرتها ـ واتفاق كثير منها في أن النبي ﷺ إنما دعا بهذه المسائل عقيب نزول هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ﴾ الآية، لا تتفق لا في عدد المسائل ففي بعضها أنها كانت ثلاثا وفي بعضها أنها كانت أربعا، ولا في عدد ما أجيب إليه ففي بعضها أنه كان واحدا وفي بعضها أنه كان اثنين، ولا في نفس المسائل ففي بعضها أنها كانت هي الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعا وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، وفي بعضها أنها الغرق والسنة وجعل بأسهم بينهم، وفي بعضها أنها السنة العامة وأن يسلط عليهم عدوا من غيرهم وأن يذيق بعضهم بأس بعض، وفي بعضها أن المسائل هي أن لا يجمع أمته على ضلالة وأن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم وأن لا يهلكهم بالسنين وأن لا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض، وفي بعضها أنها أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم وأن لا يهلكهم بغرق وأن لا يجعل بأسهم بينهم، وفي بعضها أنها أن لا يهلكهم بما أهلك به من قبلهم وأن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم وأن لا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض، وفي بعضها أنها العذاب من

فوقهم ومن تحت أرجلهم وأن يلبسهم شيعا وأن يذيق بعضهم بأس بعض.

ي. على أن في كثير منها أن دعاءه ﷺ كان في حرة بني معاوية قرية من قرى الأنصار بالعالية ولازمه كونه بعد الهجرة وسورة الأنعام من السور النازلة بمكة قبل الهجرة دفعة، وفي الروايات اختلافات أخرى تظهر لمن راجعها.

ك. وإن كان ولا بد من أخذ شيء من الروايات فالوجه هو اختيار ما رواه عن عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن شداد بن أوس يرفعه إلى النبي ﷺ قال: إن الله زوي لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وإني أعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي أن لا يهلك قومي بسنة عامة وأن لا يلبسهم شيعا ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ولا أسلط عليهم عدوا من سواهم فيهلكوهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضا وبعضهم يقتل بعضا، وبعضهم يسبي بعضا، فقال النبي ﷺ: إني أخاف على أمتي الأئمة المضلين فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة.

ل. فهذه الرواية وما في مضمونها خالية عن غالب الإشكالات السابقة، وليس فيها أن الدعاء كان إثر نزول الآية، وينبغي مع ذلك أن يحمل على أن المراد رفع الهلاك العام والسنة العامة التي تبيد الأمة، وإلا فالسنين والمثلات والمقاتل الذريعة التي لقيتها الأمة في حروب المغول والصليب وبأندلس وغيرها مما لا سبيل إلى إنكارها، وينبغي أيضا أن تحمل على أن الدعاء والمسألة كان في أوائل البعثة قبل نزول السورة وإلا فالنبي ﷺ أعلم بمقام ربه وأجل قدرا من أن يتلقى هذه الآيات بالوحي ثم يراجع ربه في تغيير ما قضى به وأمره بتبليغه وإنذار أمته به.

م. وبعد اللتيا والتي فالقرآن الشريف يدل بآياته على حاق الأمر وهو أن هذا الدين قائم إلى يوم القيامة، وأن الأمة لا تبيد عامة، وأن أمثال ما ابتلى الله به الأمم السالفة تبتلي بها هذه الأمة حذو النعل بالنعل من غير أي اختلاف وتخلف، والروايات المستفيضة المروية عن النبي والأئمة من أهل بيته ﷺ القطعية في صدورها ودلالتها ناطقة بذلك.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فكيف تتفادون ذلك كله إن عصيتم وتمرّدتم؟ ولعلّ الإيحاء بإحاطة العذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم حيث يتساقط عليهم من السماء، أو يطلع إليهم من أعماق الأرض، يثير الشعور بالفزع والرعب والهول، لأن الإنسان لا يملك الوسيلة الذاتية التي تحقق له السيطرة عليه، أو الهروب منه، بينما يملك دفع العذاب إذا جاء من طريق اليمين والشمال.

٢. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ فيما يمثّله ذلك من عذاب يوميّ، نفسيّ وعمليّ، متحرك يأخذ على الإنسان كل حياته ليجعلها في قبضة التمزيق، من خلال ما يثيره تفرق المجتمع إلى شيع وأحزاب من نوازع العصبية البغيضة، والحقد العميق، مما يؤدّي إلى التقاتل والتدافع، ويدفع إلى المزيد من الآلام والخسائر ومظاهر الخراب والدمار، خاصة إذا ما جاء ذلك من الأيدي القريبة التي كانت تتصافح بروح الصداقة، فإذا بها تتقاتل بروح العداوة.. وتلك هي قصة الواقع الإنسانيّ الذي يمثّل لونا من ألوان العذاب الذي ينزله الله على الناس في الدنيا بشكل مباشر أو غير مباشر.. فالبعض منه يتنزل على أساس العقوبة على التمرّد والعصيان، وفي البعض الآخر، يحدث كنتيجة طبيعيّة لبعض أنماط السلوك الإنساني المنحرف فيما ينتجه هذا العمل السيّئ أو ذاك.

٣. تلتقي إثارة ذلك كله أمام الناس، ولا سيّما المكذبين منهم، بالهدف القرآني الذي يريد أن يفتح قلب الإنسان على الحقيقة من أجل أن يفقه ويتأمّل ويواجه المعرفة الإيمانيّة بجدِّية ومسئولية: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾

٤. في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ إشارة إلى أن عليهم الحذر من العذاب الذي يمكن أن يبعثه الله عليهم عقوبة على كفرهم وعصيانهم وتمرّدهم، لأنهم يستحقونه، فهو القادر على ذلك بكل الوسائل وفي جميع الاتجاهات، فقد يأتيهم العذاب من فوقهم، كما في الرياح العاصفة والأمطار الشديدة والصواعق المحرقة، ومن تحت أرجلهم، كالزلازل

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ١٤٣.

والبراكين والفيضانات، والانشقاقات الأرضية ونحو ذلك، كما قد يتمثل ذلك في ممارسات المستكبرين ضد المستضعفين وفي ابتعاد الناس عن مسئولياتهم في حماية نظام الناس، مما قد يؤدي إلى الإضرار بهم، وفي وسائل الحرب المدمّرة التي تحرق البلاد والعباد التي تقصفهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

٥. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ إشارة إلى التمزقات الاجتماعية التي يتحول فيها المجتمع إلى فرق متناثرة لا يجمع بينها شيء من خلال اختلاف الكلمة، وتوزّع الآراء، وتشتُّت المواقف، مما يؤدي إلى دمار اجتماعي وأخلاقي واقتصادي لا يقلّ خطورة عن الدمار المادي الذي يمثله العذاب المادي المذكور في الآية.

٦. ولعل من الطبيعي ـ في وعي هذه المسألة ـ أن يكون البلاء الإلهي ـ في ذلك ـ ناشئا من الواقع الذي يعيشونه في الاختلاف الناشئ من حالة البغي فيما بينهم، والفساد الكامن في داخل نفوسهم وأوضاعهم، وتغليب المصالح الشخصية على المصالح العامة.

٧. وإذا كان الحديث في هذه الآية عن المشركين، فإنها قد تمتد إلى المسلمين الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا، فتحزبوا للباطل في مذاهبهم وفي اتجاهاتهم، وفي أوضاعهم العامة والخاصة، مما أدّى إلى تمزيق الوحدة الإسلامية والاستعانة بالكافرين على المسلمين.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ يظهر عليكم ويثير ويوقع ﴿عَذَابًا﴾ صادراً ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ ولا موجب لحصره على مثال؛ لأن علم الغيب أوسع من الأمثلة، وقدرة الله تعالى على كل شيء لا يناسبها تحديد النازل من فوق أو الآتي من تحت الأرجل، ومن مصاديقها في هذا الزمان القنابل والصواريخ والألغام.

٢. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم ﴿شِيَعًا﴾ في حال أنكم مختلفون فرقاً كل فرقة يشايع بعضها بعضاً وأحزاباً يتعاون كل حزب ضد الآخرين، وفي (مفردات الراغب): (والشيعة: من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه: يقال: شيعة، وشِيَع، وأشياع) باختصار،

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٦٢.

وقال في (الصحاح): (وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، يقال: شَايَعَه كما يقال: والاه من الولي)

٣. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ في حال اختلاطكم شيعاً، وذلك بالقتال الذي يكون فيه القتل والجراح والتعويق بالعمى أو الصمم أو قطع الأيدي أو كسر بعض العظام أو غير ذلك من آثار الحرب التي يسلط الله فيها بعضهم على بعض، فهو القادر على ذلك، وإن ظنوا أنهم يحذرون الوقوع في أسبابها ويسعون في السلم ما استطاعوا، ولعلها تأتي الحرب العالمية الثالثة مع عناية الدول الكبرى في الحذر من الوقوع فيها لما عندهم من أسباب الهلاك العام والدمار الشامل، ولكن الله ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١]

٤. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ احتجاجاً تارة، وتذكيراً تارة، وتخويفاً تارة، نحول الآيات من نوع إلى نوع ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أنهم في شركهم على خطر عظيم فيتقوا بأس الله قبل أن ينزل بهم وحين تنفعهم التقوى.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في الآيات السابقة التي تتضمن بيان التوحيد الفطري تتجلى محبّة الله لعباده، وحنوه عليهم عند الشّدائد والصعاب، واستجابته لدعواتهم.

٢. وفي هذه الآية تركيز على التهديد بعذاب الله وعقابه، من أجل إكمال طرق التربية والتهذيب، أي أنّ الله وهو أرحم الراحمين وملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففي هذه الآية يؤمر الرّسول ﷺ بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عذاب من فوق، وعذاب من تحت، وعقاب يتمثل في اختلاف الكلمة والحرب وإراقة الدماء: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾

٣. وفي الختام تقول الآية: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، أي انظر كيف نوضح لهم المعالم والدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق ويعودا إلى الله.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٣٢٣.

٤. هنالك اختلاف بين المفسّرين بشأن المقصود من العذاب من فوق ومن تحت، ويظهر أنّ لهاتين الكلمتين معاني واسعة، فهما تشملان الجهتين الماديتين من السماء ومن الأرض كالصواعق والأمطار الغزيرة والعواصف المدمّرة التي يأتي من فوق، والزلازل والانشقاقات الأرضية المدمرة وفيضانات الأنهر والبحار من تحت، كذلك تشمل الآلام والمصائب التي ينزلها بعض الحكام والطبقات المتسلطة في المجتمع على رؤوس الشعوب، وكذلك الآلام والعذاب الذي يسببه بعض الموظّفين الذين لا يعرفون واجبهم للناس ممّا قد لا يقل عما يسببه الحكام والطّبقات العليا من المجتمع، وكذلك يحتمل أن تشمل أسلحة الحرب المخيفة في عصرنا التي تبيد حياة البشر بشكل وحشي من الأرض والجو، وتحيل المدن خلال مدّة قصيرة إلى ركام وانقاض عن طريق القصف الجوي والهجوم الأرضي وزرع الألغام والغواصات المدمّرة داخل البحار.

٥. ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ من (اللبس) بفتح اللام بمعنى الاختلاط والامتزاج، لا من (اللبس) بضم اللام بمعنى ارتداء الملابس، وعلى ذلك يكون معنى الآية: إنّه قادر على أن يجعل منكم جماعات مختلفة تختلط بعض ببعض، يستنتج من هذا التعبير أنّ مسألة اختلاف الكلمة والتفرق في المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السماوي والصواعق والزلازل، وهو في الحقيقة كذلك، بل قد يكون الخراب الناشئ من اختلاف الكلمة والتفرق أحيانا أشد وطأة ودمارا من الزلازل والصواعق، كثيرا ما نلاحظ أنّ دولا عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق والتفرقة، وهذه الكلمة تحذير لجميع مسلمي العالم! هنالك أيضا احتمال آخر في تفسير هذه الآية، وهو ـ أنّ الله قد أشار ـ إلى جانب العذاب السماوي والأرضي ـ إلى لونين آخرين من العذاب:

أ. أحدهما: اختلاف العقيدة والفكر (وهو في الواقع مثل العذاب النازل من فوق)

ب. والآخر: هو الاختلاف في العمل والسلوك الاجتماعي الذي يؤدي إلى الحروب وإراقة الدماء (وهو أشبه بالعذاب الآتي من تحت)

ج. وعليه، فالآية تشير إلى أربعة ألوان من العذاب الطبيعي، ولونين من العذاب الاجتماعي.

٦. لا بدّ من الانتباه إلى أن قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ لا يعني أنّ الله يبتلي الناس ـ بدون مبرر ـ بالنفاق والاختلاف، بل إنّ ذلك نتيجة سوء أعمالهم وغرورهم وأنانياتهم والانغماس في منافعهم الشخصية، ممّا يثير روح النفاق والتفرقة بينهم، وما نسبة ذلك إلى الله إلّا لأنّه جعل تلك الآثار من نتائج

تلك الأعمال.

٧. على الرّغم من أنّ الخطاب في هذه الآية موجه إلى المشركين وعبدة الأصنام، فإنّنا نستنتج أنّ المجتمع المشرك والمنحرف عن طريق التوحيد وعبادة الله، يصاب بظلم الطبقات العليا، وظلم الطبقات الدنيا المتهاونة في واجباتها، كما تقع البشرية بين براثن الاختلاف العقائدية والمخاصمات الدموية في المجتمع، كما هو حال المجتمعات المعاصرة التي تعبد أوثان الصناعة والثروة، فهي رهين مصائب لا فكاك لها من مخالبها، بعض الشعوب المسلمة تتحدث عن التوحيد وعبادة الله بأقوالها، ولكنّها بأفعالها مشركة تعبد الأصنام، إن مصائر شعوب كهذا لا يختلف عن مصائر المشركين، وقد يكون حديث الإمام الباقر عليه السّلام: (كل هذا في أهل القبلة) إشارة إلى هذا الاختلاف بين المسلمين، فعند ما ينحرف المسلمون عن طريق التوحيد، تأخذ الأنانية وحبّ الذات مكان الأخوة الإسلامية، وتتغلب المصالح الشخصية على المصلحة العامّة، ولا يفكر الفرد إلّا بنفسه وينسى الناس أوامر الله ونواهيه، فيحيق بهم ما أحاق بأولئك.